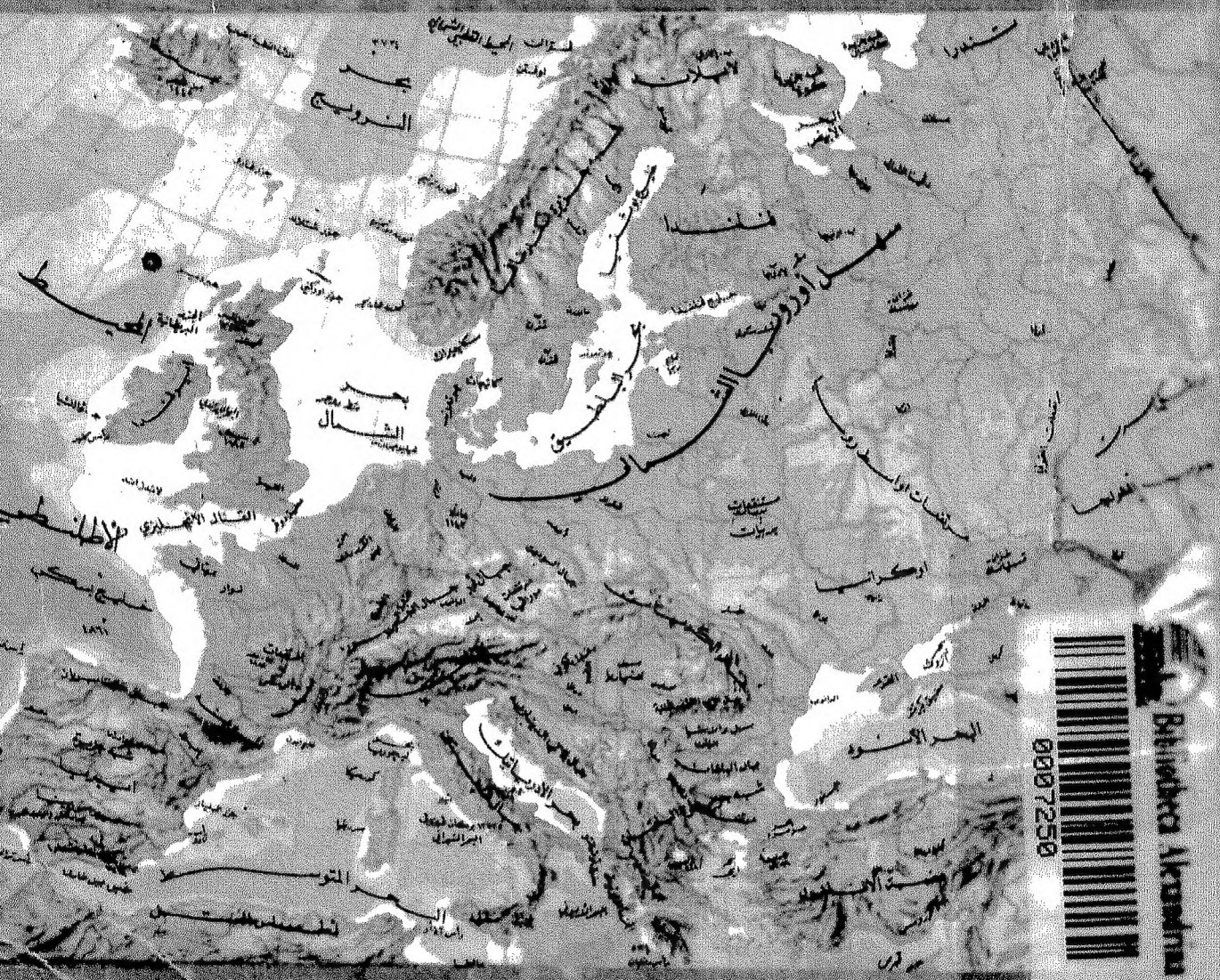


جغرافية أوروبا

دراسة موضوعية

دكتور حسن عبدالغني احمد

أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة الرياض



0007250

Bliblioteca Alexandria

جغرافية أوروبّا

دراسة موضوعية

جغرافية أوروبا

دراسة موضوعية

تأليف

دكتور حسن عبدالغيز زاحمد

أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة الرياض



الرياض - ص ١١٧٩٠١

المحتويات

| | |
|-----|---------------------------------------------------------------------|
| ١ | مقدمة |
| ٥ | الفصل الأول : نشأة فكرة « أوروبا القارة » |
| ٢٣ | الفصل الثاني : البنية والتضاريس |
| ٤٧ | الفصل الثالث : المناخ |
| ٦١ | الفصل الرابع : النبات الطبيعي والتربة |
| ٨٧ | الفصل الخامس : جغرافية السكان : توزيعه وخصائصه |
| ١٢٧ | الفصل السادس : اللغة والجغرافيا في أوروبا |
| ١٤٧ | الفصل السابع : الدين والجغرافيا في أوروبا |
| ١٧١ | الفصل الثامن : الجغرافية السياسية |
| ٢٢٥ | الفصل التاسع : أنماط الاستيطان الريفي |
| ٢٥٥ | الفصل العاشر : جغرافية الاستيطان الحضري |
| ٢٨٩ | الفصل الحادي عشر : الجغرافية الزراعية |
| ٣٣٩ | الفصل الثاني عشر : الصناعة وتطورها في أوروبا |
| | الفصل الثالث عشر : اتجاهات حديثة في جغرافية أوروبا الاقتصادية |
| ٣٨٣ | |
| ٤٦٥ | الفصل الرابع عشر : التباين الاقليمي ومناطق المعاناة |
| ٥٠٥ | خاتمة |
| ٥٢١ | المراجع |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

شهد علم الجغرافيا في الآونة الأخيرة ، وما زال يشهد ، تغييرات وتطورات في مجال تخصصه وخاصة في أسلوب وطريقة معالجة كثير من موضوعاته المتعددة الجوانب . ويتمثل أحد هذه الاتجاهات الحديثة في مجال الجغرافيا في تلك النزعة عند كثير من العلماء في إعادة النظر في الأسلوب التقليدي المتبع في الدراسات الجغرافية الإقليمية والتركيز أكثر على الطريقة الموضوعية أو الأصولية Topical or Systematic في معالجة الجغرافيات الإقليمية . فعلا فإن هذا الاتجاه قد شهد ارتفاعا ملحوظا في شعبية الطريقة الموضوعية في مجالي البحث والتدريس . فالمشكلة الرئيسية في مقررات الجغرافية الإقليمية التقليدية تكمن ليس في أنها تهتم بالأقاليم وأقسامها الجزئية بل الأخرى في الطريقة التي تقسم بها المعلومات الجغرافية الخاصة بتلك الأقاليم . فالأسلوب المتبع من قبل الجغرافيين الذين يكتبون أو يقومون بتدريس هذه الكتب الجغرافية هو تقسيم المواد مرة أخرى على مناطق أصغر Subregions وهكذا . وفي الحقيقة أن أوروبا قارة محيطة إلى مجموعة أقاليم متفاوتة الأحجام والرتب والأهمية . والكتب الجغرافية التي تتناول جغرافيتها تعكس هذه التقسيمات متخذة الحدود السياسية كأساس لهذه التقسيمات الإقليمية . ورغم ما لهذه الحدود من أهمية فليس معنى ذلك أن تتخذ هذه الحدود أساسا لدراسة جغرافية شاملة للقارة ، كما أن توزيع ظاهرات جغرافية مثل أنواع الزراعة والسكان والمناخ واللغات وغيرها لا يوفى حقها من الأهمية في مثل هذه الدراسات . ويتخذ بعض الجغرافيين التضاريس كأساس لتحديد أقاليمهم الجغرافية ، ونظرا لأن اهتمام الجغرافي يتركز أو ينصب على سكان القارة وشعوبها ، فليس هناك مبرر لإسباغ أهمية كبيرة على البيئة الطبيعية . فالمشكلة في رأيي تكمن في قرار إعادة تقسيم المادة الجغرافية وفق حدود سياسية أو طبيعية ؛ فإن بعض الانتقادات الرئيسية الموجهة ضد منهج الجغرافية الإقليمية التقليدية هي أنه يميل كثيرا إلى الوصف المحض ويخلو من تصفيف المشكلات

وتفسير الاختلافات والتباينات المكانية وإبرازها بصورة واضحة متناسقه . ولكي نفهم قارة مثل أوربا فيها صحيحا فلا بد أن ندرس جغرافيتها ليس قطرا قطرا كما عودت كتب الجغرافية الإقليمية بل ندرسها ككتلة ذات أبعاد فارية تنشذ الوحدة وتسمى لتحقيقها في إطار التنوع البيئي الذي تتميز به .

وقد اقتنعت من خلال تجربتي في تدريس جغرافية أوربا لفترة تناهز الخمس سنوات أن تنظيم مقررات الجغرافية الإقليمية على أساس موضوعي أجدى من الطريقة التقليدية ، وهذا هو الأسلوب المتبع في هذا الكتاب كما تكشف عناوين فصوله التي تقوم على تقسيم المواد موضوعا موضوعا بدلا من إقليم وإقليم ثم إقليم أصغر إلى آخر أصغر منه وهكذا ، لأن هذا الأسلوب في رأيي يسهل الملاحظة والتفسير التحليلي للاختلافات المكانية في أوربا ككل : هذه الاختلافات التي تجعلها الدراسات الإقليمية التقليدية . فإن فحص ودراسة التوزيعات المكانية المختلفة موضوعا موضوعا قد يساعد الطالب في فهم واستيعاب السؤال الجغرافي الهام : لماذا ؟ .

لا أريد أن يفهم من سياق كلامي هذا أن الأسلوب الإقليمي والموضوعي يتعارضان ، فالحقيقة أن وضع مادة في إطار موضوعي يؤدي منطقيا الى دراسات اقليمية على مستوى ثانوي ، فإن فصلا عن الجغرافية السياسية لابد وأن يرى بالاقاليم السياسية أى « الأمم » ، كما أن فصلا عن الجغرافية الزراعية لابد وأن يهتم بالاقاليم الزراعية وهكذا . ولكن هذا الكتاب يختلف في تنظيمه الموضوعي للفصول عن الكتب الإقليمية الأخرى : فارتباطه بالجغرافية الإقليمية يظهر في تخصصه في جغرافية أوربا كما يتجلى أيضا من خلال دراسة الخصائص الإقليمية لمواضيع جغرافية عديدة . فالتنظيم على أساس موضوعي يتيح إسباغ أهمية بعلاقات السبب والنتيجة أكثر من الكتب التقليدية التي تتناول جغرافية أوربا : فمن النادر أن نجد في مثل هذه الكتب دراسات عن مواضيع مثل نظرية فون ثونن عن النطاقات الزراعية وتوزيعها ونظرية الموضع المركزي لكريستالر أو العوامل التي تتحكم في توزيع الصناعات أو العوامل السببية في الجغرافية السياسية . فالدارس يشعر بجدية وأهمية مثل هذه

الدراسات وخاصة إذا أردنا أن نعطي للطالب شيئا أكثر من مجرد موسوعة للحقائق الجغرافية عن قارة أوروبا .

يلاحظ القارئ أيضا أن هناك منحى تاريخيا في هذه الدراسة . فهذا الاهتمام بالناحية التطورية للعناصر الجغرافية المختلفة ينبثق من الحقيقة أن أنواع اللاندسكيب الأوروبي وأتماطه والتي تعكس أثر الإنسان الأوروبي عبر القرون ، هي محصلة التغيرات التي طرأت في استجابة هذا الإنسان وتكيفه لهذه البيئة الطبيعية خلال الزمن . فالمدخل التاريخي مفيد ليس في تقدير وتقييم الأتماط المكانية المعاصرة فحسب بل قد يساعد في فهم واستدراك ما يمكن أن تؤول إليه الأحوال مستقبلا . ففي أوروبا يرتبط التاريخ والجغرافيا ارتباطا وثيقا إلى درجة أن كثيرا من الظواهر الجغرافية الحالية لا يمكن تفسيرها وفهمها فيها صحيحا إلا بالرجوع إلى الماضي .

وملاحظة أخرى تتعلق بالاتحاد السوفيتي : فهذه الدولة المترامية الاطراف قد أصبحت متميزة وذات كيان مستقل في وضعها الدولي بحيث اننا لا نستطيع التمييز بين : روسيا الأوروبية و روسيا الآسيوية . ولذلك أغفلت من دراسة عامة للقارة الأوروبية إلا من إشارات عابرة فيما يتعلق بعلاقاتها مع دول أوروبا الشرقية من خلال منظمة الكوميكون . وفضلا عن ذلك فإن الجامعات تخصص الآن مقررًا مفصلا عن الاتحاد السوفيتي . كما أن الكاتب والدارس لا يستطيعان أن يوفيا حقها في كتاب عام عن جغرافية أوروبا .

يقع الكتاب في أربعة عشر فصلا ، تتناول الفصول الأربعة الأولى موضوعات عن كيف نشأت فكرة قارية أوروبا ثم عناصر البيئة الطبيعية من جيولوجيا وتضاريس ومناخ ونباتات وثرهات . أما الفصول الباقية فتتناول عناصر الجغرافية البشرية المختلفة من سكان وزراعة وصناعة وأتماط الاستيطان الريفي والحضري وجغرافية اللعبة والأديان في أوروبا وأثرهما على اللاندسكيب الحالي . وهناك فصلا آخران يتطرقان إلى الاتجاهات الحديثة في جغرافية أوروبا الاقتصادية والتغيرات التي يحدث فيها تم المشكلة الإقليمية في دول السوق الأوروبية المشتركة والوسائل المطروحة لحلها . وأخيرا تتناول الخاتمة بعض التغيرات والاتجاهات المحتملة في جغرافية أوروبا

فى القرن القاءم . وىأوى الكأاب على عاء كبر من الأرائط الأوضىأى والأشكال
على عكس كأبر من الكأب الأأرى الأى أأأر الى مثل هأه الأرائط .
أما معلوماأ الكأاب فأأعماء أساسا على عاء من الكأب والمقالأ الإنألىزىة
أأبأ معظمها فى نأاة الكأاب ، وقاء أاولأ أأأىم هأه المعلوماأ على أساس
موضوعى كما أأأأ من ألىل : فأأأى أن أأون أا وقأأ فى ألك كما أأأى أن ىنال
الكأاب رضاء القارىء الكأرم .

ولا ىفوأى فى هأا المأال أن أأأام بالشأر للقائمىن على أمر مركز البأوأ بكلىة
الأأاب على ما أأامه المركز وأسهم فى نفقاأ نسخ مسوأة الكأاب وإعاءاء
أأرائطه .

الرىاض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م

أأأر ألىأىزأأأ

الفصل الأول

نشأة فكرة "أوروبا القارة"

نشأة فكرة أوروبا القارة :

عرفت أوروبا بأنها قارة . وليس هناك دليل يبين بذاته وراء هذه التسمية أو ما يؤيد هذا القول لأن أوروبا - من حيث جغرافيتها الطبيعية - ما هي الا امتداد غربى لقارة آسيا التى تكبرها أربع مرات فى المساحة . ولم يفهم المؤرخ اليونانى هيرودوت لماذا يطلق معاصروه اسم « قارة » على أوروبا أو لماذا يميزون ثلاث قارات - أوروبا وآسيا وليبيا (أفريقيا) - على أرض كان يعتبرها مساحة متصلة من اليابس . أما الاسكندر همبولدت فقد اعتبر أوروبا جزءا من كتلة يابس أسماها « أوراسيا » فى حين أن هاسينجر الألمانى وهالفورد ماكيندر البريطانى قد أيدا فكرة الكتلة الواحدة التى أطلق عليها الأخير اسم جزيرة العالم أو الجزيرة العالمية التى تتكون من أوروبا وآسيا وأفريقيا .

ولذلك لا بد أن نعرف كيف نشأت هذه الفكرة ... وكيف اكتسب هذا الجزء الصغير من قارة آسيا صفة القارية . فهذه المعرفة مهمة إذا أردنا أن نتجنب الارتباك الذى يحدث عندما نتكلم عن أوروبا . لأن هناك عدة أوروبا فى قواميس ومعاجم الجغرافيين والسياسيين والصحفيين وغيرهم يمكن حصرها فى الآتى :

- ١ - أوروبا التى تمتد غرب جبال الأورال .
- ٢ - أوروبا التى تقع غرب ما يسمى بالستار الحديدى .
- ٣ - أوروبا التى تضم ١٨ دولة المنضمة إلى المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادى .
- ٤ - أوروبا الصغرى التى تتكون من أعضاء مجموعة الحديد والصلب الأوروبية والسوق الأوروبية المشتركة .

نشأت فكرة أوروبا كقارة حوالى القرن الخامس قبل الميلاد عند الإغريق القدماء

الذين كانوا يعتبرون العالم المعروف لديهم ثلاثيا أى يتكون من ثلاثة أجزاء ، أوروبا وآسيا وليبيا . ورغم أن البيثغوريين بعدهم بقرن كامل تصوروا عالما دائريا فان الفكرة التى تقول بأن الأرض قرص محاط بالبحر المحيط ومقسمة الى ثلاث قارات تشبثت بأذهان الكثيرين واستمرت حتى إلى العصور الوسطى متمثلة فى تلك الخرائط المسماة بـ Tin O التى ظهر فيها كل من أوروبا وليبيا (أفريقيا) فى شكل مقطع رباعى يحجزهما البحر الأبيض المتوسط من النصف الآخر أو آسيا (الشكل ١) .

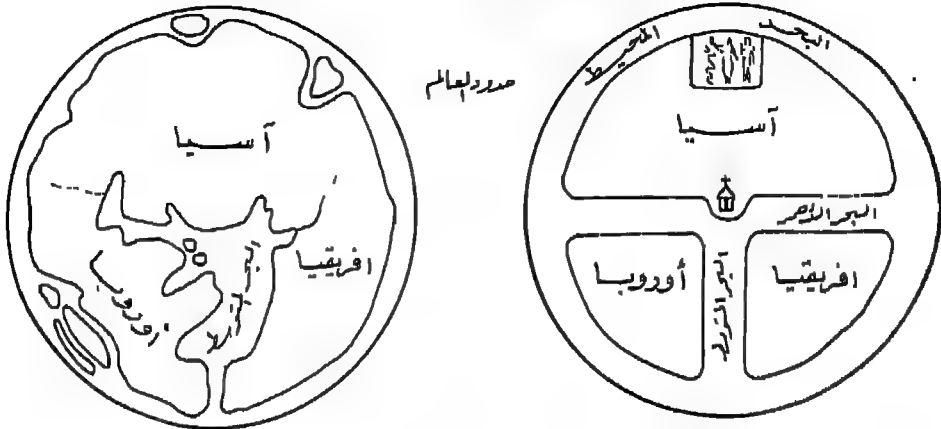
أما عن الكلمة « أوروبا » فقد كان مفهوما منذ زمن بأنها مشتقة من الكلمة السامية « ارب Erib » وتعنى « أرض الغروب » أو الأرض الواقعة فى الغرب لتمييزها عن « آسيا Asu » التى كانت تقع ما وراء بحرى ايجيه والأبيض المتوسط وتعنى « أرض الشرق » أو « أرض الشروق » . وحديثا ظهر اشتقاق أغريقى لمعنى كلمة « أوروبا » يقول بأنها تعنى « ذات الوجه العريض Broad-Faced » أو الأرض الواسعة » وقد يكون الأغريق قد أطلقوا هذا التعبير للمناطق الشاسعة التى كانت تقع إلى الشمال من موطنهم الضيق والمحصور فى وحول بحر ايجيه المكون من جزر وأشباه الجزر .

أما الاغريق فقد كانت معلوماتهم الجغرافية عن أوروبا وخاصة الأقاليم الشمالية والغربية منها ناقصة وسطحية ، وحتى الرحالة المشهور هيرودوت لم تتعد معلوماته تلك المناطق القريبة مثل البحر الأسود وبحر أزوف فى حين أن الحواجز الجبلية والغابات وبرودة الشتاء فرضت عزلة بين داخل أوروبا وبين منطقة البحر الأبيض . أما غرب وشمال أوروبا فقد كان معزولا تماما قبل رحلة ياثيس المارسيلى عام ٣٠٠ ق . م .

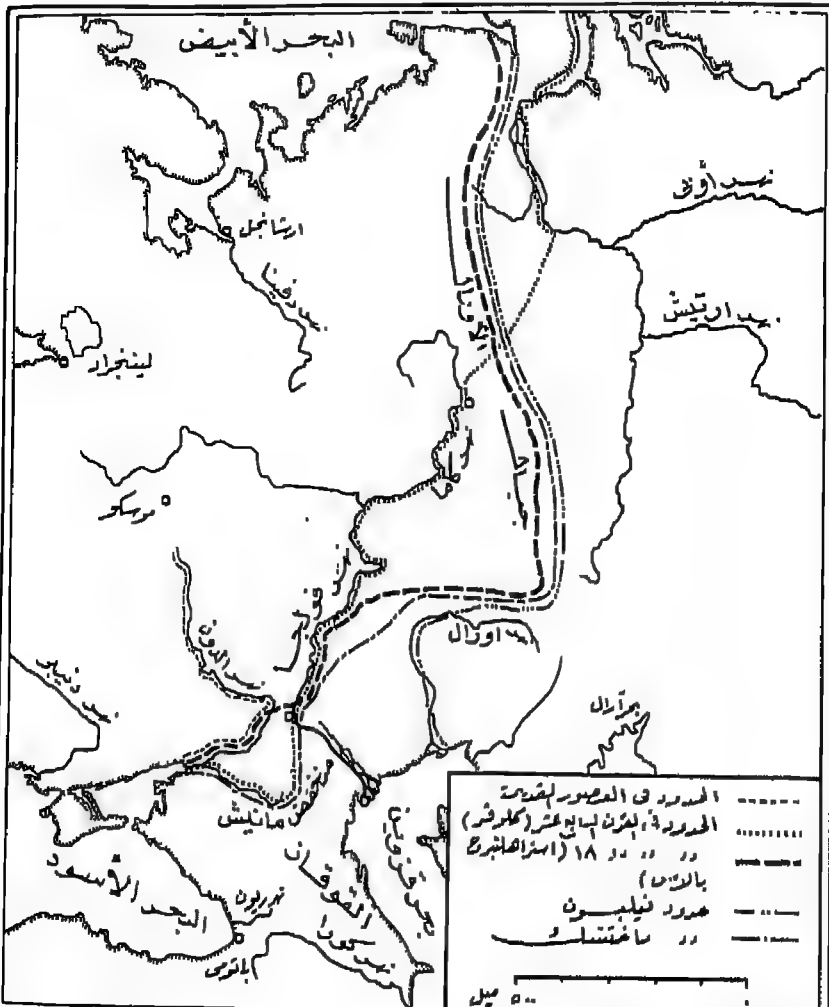
ووقع على عاتق الرومان اكتشاف هذه المناطق النائية من القارة فأتت غزواتهم البرية استطاع الرومان أن يخضعوا تحت سيطرتهم ليست بريطانيا فحسب بل اكتشفوا وفتحوا أجزاء كبيرة من أوروبا الداخلية وامتد نفوذهم الى ما وراء الراين والدانوب وظهرت شبه الجزيرة الاسكندنافية فى خريطة بطليموس المشهورة كجزيرة .

وهكذا وبهذا المفهوم الغامض ظلت « أوروبا » فكرة تراود أذهان قليل من

نسخة خرائط T in O



الحدود الشرقية لأوروبا



العلماء والفلاسفة والكتاب وصانعي الخرائط ثم تبنى اليهود فكرة العالم الثلاثى من الاغريق القدماء وادعوا أن أوروبا استعمرت بواسطة سلالة يافث بن نوح . أما بالنسبة للرومان فإن اسم أوروبا لم يكن يعنى الكثير لهم ، فقد كان لهم عالمان : العالم الرومانى المتحضر والعالم البربرى المتأخر والواقع خارج نطاق الامبراطورية .

أما فى العصور الوسطى وخاصة بعد أن وجدت الشعوب المسيحية نفسها محاطة بأقطار مسلمة ، فقد برزت فكرة أوروبا كوحدة اقليمية وخاصة بعد الحرب الصليبية التى أعطت القارة مفهوما واضحا كمعقل للمسيحية . ولكن حتى هذه الوحدة كانت مؤقتة فقد كانت هناك اختلافات الجنس واللغة والدين وطرق المعيشة والتاريخ تشجع الانقسام وخاصة بعد ظهور حركة الإصلاح الدينى وبروز القومية وظهور الفاشية والشيوعية والتى أدت إلى تبثر فكرة أوروبا المبنية على الايدولوجية والسياسة المشتركة . وفى خلال الثلاثمائة سنة الأخيرة شهدت أوروبا انهيار امبراطورياتها وتلاشت الفكرة الأساسية لوحدها .. وهكذا وتدرجيا أصبحت أوروبا تعبيراً جغرافياً أكثر من كونها تعبيراً سياسياً أو دينياً .

ويمكن أن نقيم أوروبا تقييماً صحيحاً من ناحية تأثيرها على العالم الخارجى ، فالمعروف أن أوروبا لعبت دوراً قيادياً فى الشؤون العالمية وفى ابتكار ونشر ما يسمى بالحصارة الغربية ، وذلك عن طريق : الاكتشافات الجغرافية واستعمار مناطق ما وراء البحار واستغلالها اقتصادياً ، والمنجزات الهامة فى ميدان العلوم والفنون والتكنولوجيا .

٢ - أوروبا ككيان بشري :

على الرغم من أن أوروبا ليست بقارة بالمعنى الجغرافى المفهوم ولا تملك الشخصية المبنية على أسس جغرافية طبيعية ، فإن فكرة الوجود الأوروبى ككيان منفصل أصبحت حقيقة واقعة . فخطط الدراسة فى كل جامعات العالم تعج بمقررات تتناول جغرافية وتاريخ أوروبا . وتفسير هذه الظاهرة يتطلب تعليلاً أعمق من كونها مجرد اعتقاد خاطئ للاغريق دام حتى الآن . فأوروبا كيان بشري أكثر من وجود قوامه الجغرافية الطبيعية ويمكن أن نبحث عن مميزاتها فى صفات سكانها

بدلاً من بيئتها الطبيعية لأن أوروبا هي في الأصل « حضارة » تحتل « منطقة حضارية ». والحضارة Culture يمكن تعريفها باختصار بأنها مجموعة البشر التي تملك العديد من المميزات أو الصور الاعتقادية والسلوكية وطريقة حياة تتضمن أيديولوجية وتكنولوجيا ومؤسسات اجتماعية وممتلكات مادية . أما تعبير « منطقة حضارية » Culture Area فيعني أى منطقة كبيرة متصلة عادة ويسكنها بشر ذوو حضارة خاصة أو أرض تجسدت عليها البصمات الظاهرية لهذه الحضارة .

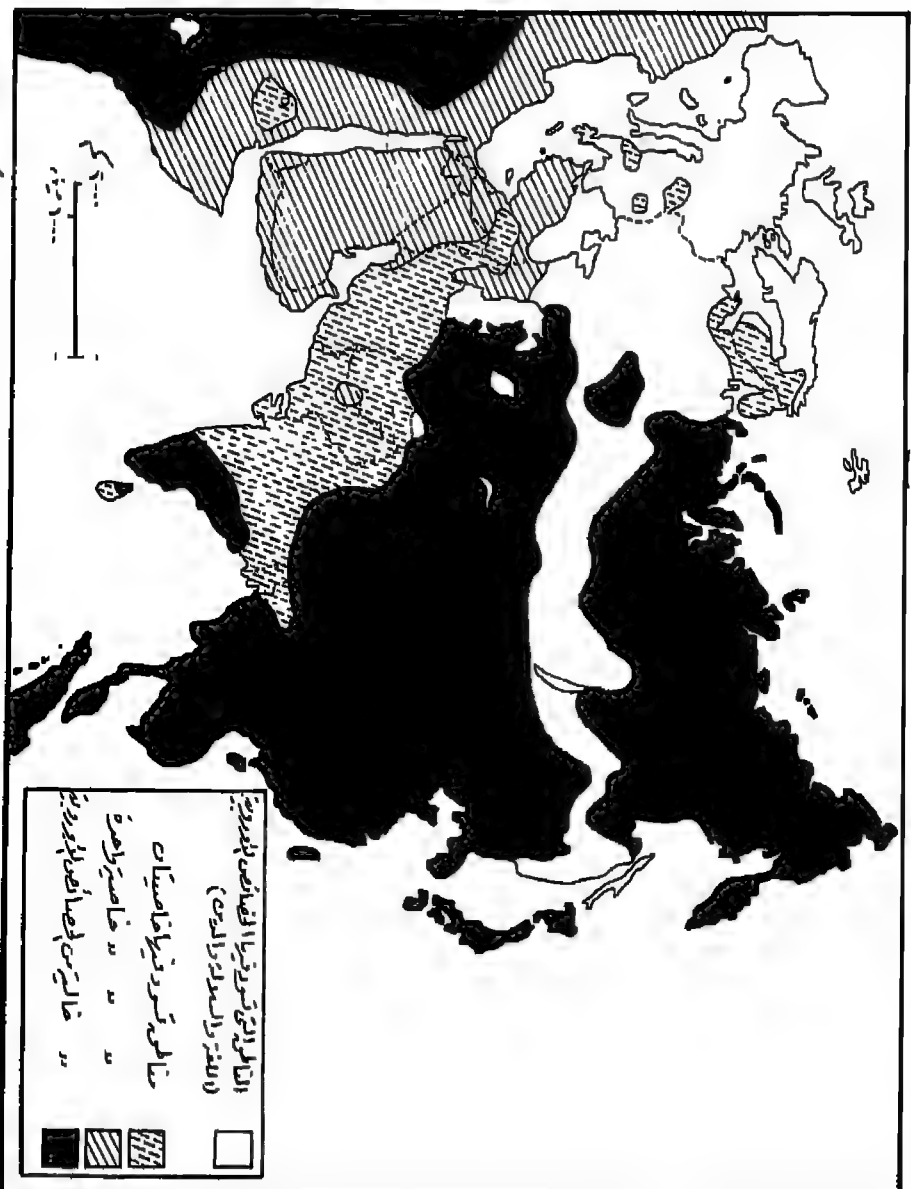
وخلال تلك الفترة الطويلة التي كانت فيها أوروبا تنظر كقارة منفصلة كانت القارة تتطور وتتوسع أيضاً كم منطقة حضارية . وقد كان هذا الانتقال من « الكينونة الطبيعية » الى « الكينونة البشرية » تدريجياً . فمع تلاشي فكرة « أوروبا البرزخ » في القرن السادس عشر ، كانت فكرة « أوروبا البشرية » قد قطعت مرحلة طويلة في تطورها . ولعل تطور هذه المنطقة الحضارية التدريجي يفسر لنا أولاً تلك المحاولات من قبل العلماء لإيجاد حدود مقبولة لأوروبا من ناحية الشرق ، ثم لماذا بقيت فكرة « قارة أوروبا » حية في الأذهان رغم وجود أدلة دامغة مناقضة لها . أما رسامو الخرائط الذين كانوا يعرفون الاختلاف بين قارتي آسيا وأوروبا فقد حاولوا تأكيد هذه الفكرة وتجسيدها في خرائطهم .

وعموماً يمكن تحديد « منطقة الحضارة الأوروبية » بأنها المنطقة التي تطابق تلك الأجزاء من العالم القديم حيث نجد الناس :

- ١ - يؤمنون بالمسيحية .
- ٢ - ويتكلمون إحدى اللغات المتصلة باللغات الهندية الأوروبية .
- ٣ - وينتمون إلى السلالة القوقازية . (الشكل ٢) .

وأينما وجدت هذه الصفات الثلاثة مجتمعة في نصف الكرة الشرقى فالنتيجة هي « أوروبا » . وخطف الصحراء الكبرى تسود السلالة الزنجية والأديان القبلية (الأرواحية) أو الإسلام واللغات التي تنتمي إلى المجموعة البانتوية . وحتى دول شمال أفريقيا التي تطل على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض لا يمكن أن نطلق عليها صفة « الأوروبية » رغم أن سكانها قوقازيون مثل سكان أوروبا وذلك لأن معظم السكان

حدود أوروبا وفق خصائص اللغة والمسلالة والدين



يدينون بالاسلام ويتكلمون لغات سامية وحامية . أما في جنوب وشرق أوراسيا فنجد مناطق حضارية أخرى ينتمى معظم سكانها إلى السلالة المغولية ويدينون بالبوذية والكنفوشية ويتكلمون لغات صينية وتبتية ، في حين أن شمال الهند وإيران وباكستان وأفغانستان يمكن أن نقول إنها تملك بعض السمات الأوربية ولو أنها تفتقر إلى ذلك العنصر الهام ألا وهو التراث المسيحى .

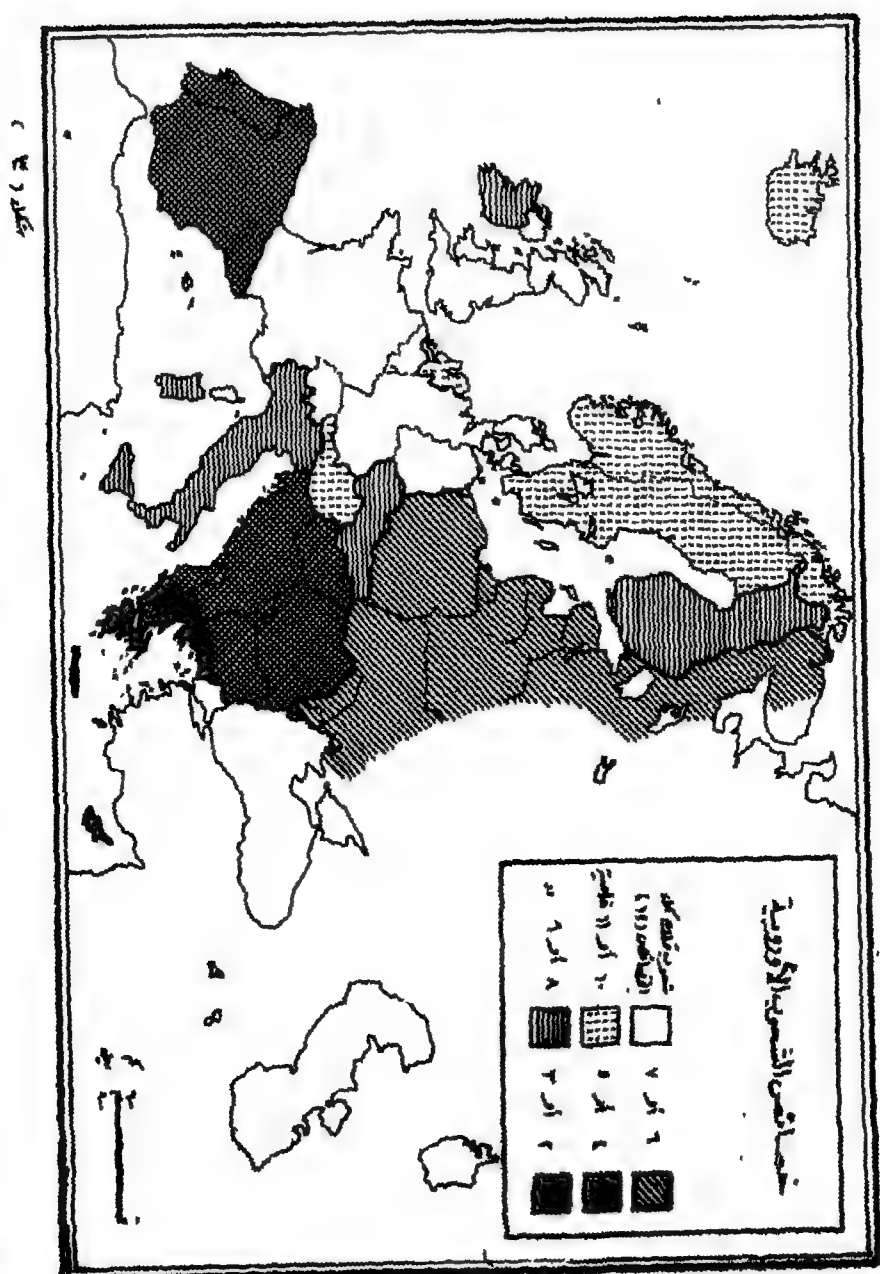
ولأن أوروبا تستمد كيائها من شعوبها وحضارتها فقد تعرضت إلى كثير من التغييرات المستمرة وإذا أردنا أن نضع تعريفا مفصلا لأوروبا الحالية فقد يستدعى ذلك إدراج سمات إضافية كانت في الحقيقة ليست موجودة أو غريبة عن أوروبا قبل ثلاثمائة سنة فقط . ولكن من المؤكد أن السمات الثلاث الرئيسية بقيت حتى اليوم وهى الخصائص الأساسية للسلالة واللغة والدين وإن كانت المسيحية قد تقلصت من مناطق عديدة من أوروبا اليوم ولكن يمكن أن نميز أوروبا الحديثة بالصفات الآتية : (الشكل ٣) :

١ - النسبة العالية للمتعلمين :

تتميز أوروبا بالنسبة العالية للمتعلمين من سكانها ، فلا غرابة في ذلك لأن الحضارة الأوروبية تضع أهمية قصوى للكتابة . وكانت النتيجة أن أكثر من ٩٠٪ من الأوروبيين في معظم أقطار القارة متعلمون حتى أن بعض الأقطار يجعل من عدم التعليم جرما غير شرعى . وفي ألمانيا الغربية على سبيل المثال يستطيع ٩٩٪ من سكانها القراءة والكتابة في حين أن دولة مثل مراكش لا تتعدى نسبة المتعلمين من سكانها أكثر من ٤٠٪ وأن شخصا واحدا فقط من خمسة أشخاص في الهند يستطيع القراءة .

٢ - المستوى الصحى العالى :

يتوقع معظم الأوروبيين عند الولادة أن يعيشوا لما بين ٦٠ و٧٥ سنة كما في هولندا مثلا حيث يعيش الرجل في المتوسط إلى عمر الواحد والسبعين في حين أنه في الجزائر يعيش الرجل إلى نصف حياة الهولندى . ومقياس آخر للحالة الصحية عند الشعوب



يتمثل في نسبة الوفاة بين الرضع .. أى عدد الأطفال في كل ١٠٠٠ طفل الذين لا يعيشون إلى السنة الأولى من عمرهم . ففي السويد تصل هذه النسبة إلى ١٣ في الألف في حين أنها تصل إلى ٧٤ في الألف في تونس ، ١١٣ في الألف في غانا وإلى ١٤٦ في الهند .

٣ - المستوى العالى للتغذية :

إذا أخذنا في اعتبارنا متوسط ما يأخذه الأوروبي من السعر الحرارى في اليوم فنجد أنه أعلا بكثير من المتوسط للعالم ولا توجد أمة أوروبية يقل فيها هذا السعر اليومى عن الحد الأدنى الموصى به للنمو الصحى للإنسان ... وذلك على عكس دول أفريقيا وآسيا حيث يمثل سوء التغذية المشكلة الأساسية التى تواجه عالمنا اليوم .

٤ - النسبة المنخفضة للمواليد والوفيات :

تمارس شعوب أوروبا المتعلمة عملية تحديد النسل في حين أن التسهيلات الطبية المدهشة قد ساعدت كثيرا في الحد من نسبة الوفيات .. حتى أن بعض الشعوب قد استقرت في أو ثبتت عند نمو سكاني محدد في حين أن عدد السكان قد تقلص في بعضها . ومثلا نجد أن نسبة الزيادة السكانية في الدنمارك واليونان لا تتعدى ٠.٧٪ أى أقل من نسبة الزيادة في بعض دول آسيا بالنصف وثلث الزيادة في باكستان وزائيرى وأندونيسيا .

٥ - متوسط الدخل القومى السنوى للفرد أعلا من المتوسط للعالم :

يكسب الأوروبي ما يكفيه من دخل لا لسد ضروريات الحياة فقط بل لشراء كثير من الكماليات ولذلك فهو يتمتع بمستوى معيشى عال حسب تقاليد ومفهوم الحضارة الغربية . ويبلغ الدخل القومى للفرد في سويسرا أكثر من ٢٤٠٠ دولار ، وفي بلجيكا أكثر من ١٨٠٠ دولار وفي أسبانيا ٧٤٠ دولار ، أما في مراكش فيصل ١٨٦ دولار للفرد وفي الصين الوطنية ٢٧٠ دولار ، وفي السودان ١٩٧ دولار فقط .

٦ - نسبة التحضر العالية :

يسكن معظم الأوروبيين في المدن : فثلاثة أرباع سكان ألمانيا الغربية يقطنون المدن و٨٢٪ من سكان بريطانيا وأكثر من ٦٠٪ من سكان فرنسا . وعلى سبيل المقارنة نجد أن ١٣٪ فقط من سكان الصين يقطنون المدن و١٤٪ من سكان الهند و١٪ سكان كل من تركيا والجزائر .

٧ - اقتصاد صناعي :

وصلت الصناعة الأوروبية مرحلة عالية من التطور وتسود الصناعة على باقي القطاعات الأخرى في حين أن الزراعة هي القطاع السائد في دول أفريقيا وآسيا ويمثل المزارعون ١٪ سكان أوروبا الغربية في حين أن نسبة السكان الذين يمارسون الزراعة في الصين والهند تبلغ ٧٠٪ من سكانها (أنظر الجزء الخاص بالزراعة) .

٨ - إنتاج زراعي موجه للتسويق :

ينتج معظم المزارعين الأوروبيين لغرض تسويق محاصيلهم في المراكز الحضرية والصناعية المنتشرة في ربوع القارة .

٩ - وسائل نقل متطورة :

تخترق أوروبا شبكة من السكك الحديدية والطرق البرية والقنوات والأنهار والأنابيب والطرق الجوية إلى درجة يمكن القول بأن المناطق النائية والمنعزلة قليلة جدا بالمقارنة مع باقي القارات . وتملك المملكة المتحدة وفرنسا ما بين ٣٧٠ و٤٣٠ كيلو مترا من الطرق الرئيسية و١٦ إلى ٣٢ كيلو مترا من السكك الحديدية لكل ٢٦٠ كيلو متر مربع من مساحتها . وللمقارنة فالصين الشعبية تملك ٦ كيلو مترا من الطرق الرئيسية وحوالي ١ كيلو مترا من السكك الحديدية لكل ٢٦٠ كيلو متر مربع من مساحتها .

١٠ - أهم عريقة :

معظم دول أوروبا ذات تاريخ عريق يرجع إلى قرون عديدة . ينظر كثير من

الأوربيين إلى حضارتهم نظرة فخر و إعجاب ويعتبرونها أكثر الحضارات تفوقا حسب تقييمهم للحضارة والرقى .. وهم فى نظرتهم هذه لا يشدون من نظرة أية أمة لحضارتها .

وليس لزاما علينا أن نقبل فكرة التفوق الأوروبى ولكن من الأهمية بمكان أن نعرف بأن أوروبا منطقة حضارية متميزة تختلف عن باقى أجزاء العالم القديم . وفوق كل شىء فإن أوروبا هى موطن الحضارة الغربية التى كانت وما زالت مركزا للتغيير والابتكار . وأية فكرة « عظيمة » هى التى - بصرف النظر عن ميزاتها ومساوئها - تحدث تغييرات أساسية فى العالم وقد كانت أوروبا مصدرا لمثل هذه الأفكار التى بدلت أو غيرت فى أسلوب حياة البشرية فى الألف سنة الأخيرة .

ويمكن أن نلخص هذه الإنجازات والابتكارات العظيمة فى الآتى : -

فكرة الديمقراطية التى ترعرعت فى اليونان القديمة وانتشرت منها إلى أجزاء أوروبا الأخرى . كما أن أوروبا شهدت أيضا أنواعا من الحكم الاستبدادى مثل النازية والفاشية وأخيرا الشيوعية التى انتشرت نفوذها إلى خارج القارة . ثم كان عصر الاكتشاف العظيم حين انتشر الأوروبيون يكشفون العالم الجديد وزرعوا فيه حضارتهم ، وفى أوروبا تم اختراع المطبعة وطورت فكرة كروية الأرض ، وفيها انبثقت الثورة الصناعية بإنجازاتها الرائعة وآثارها الواسعة . أما الجانب السلبى لهذه الحضارة فقد ظهر فى استعمار شعوب العالم وممارسة نظام « إبادة الشعوب والطوائف » وسياسة « التهجير الجبرى » للشعوب وأخيرا استخدام قوانين الحركة والجادبية « لنيوتن » و « نظرية النسبية » وحقائقها العلمية فى مجالات مدمرة مثل الأسلحة الفتاكة وأساليب الدمار الأجرى التى تظهر حاليا فى الحروب . وأخيرا مشكلة التلوث البيئى التى تعانى منها الدول الصناعية .

وبصرف النظر عن الأضرار والفوائد الناجمة عن هذه الأفكار والمخترعات الأوروبية فالحقيقة تشير إلى أن سكان أوروبا تركوا آثارا كبيرة على العالم أكثر من أية مجموعة بشرية أخرى . وهذه الحضارة هى التى تضفى على أوروبا تلك الصفات المميزة التى جعلت منها قارة عظيمة رغم صغر مساحتها .

٣ - حدود أوروبا الجغرافية (الشكل ١) :

قد يبدو غريبا أن حدود أوروبا ظلت مبهمة وغير مؤكدة لفترة طويلة رغم قدم الاستيطان فيها . وقد ناقش البعض بحق أن تضم أوروبا من ناحية جغرافية الأماكن الهامشية من شمال أفريقيا وشرق حوض البحر الأبيض المتوسط التي تتمتع بخصائص بنيوية مشتركة متمثلة في البيئة الطبيعية وخاصة المناخ فضلا عن تلك العلاقات السياسية والاقتصادية التي ربطت هذه المناطق بأوروبا منذ أقدم العصور .

أما تحديد الحدود الغربية لأوروبا فقد اكتنفه بعض المشاكل ، لأن أوروبا كما كتب وزير الخارجية البريطانية جورج كاننج « تمتد إلى سواحل المحيط الأطلسي حيث تقع إنجلترا » . وهذا الرأي يذكرنا بأن إنجلترا لها ارتباطات دولية كعضوة رئيسية في اتحاد الكومنولث رغم أنها جغرافيا جزء من قارة أوروبا . وكذلك نجد أن أيسلندا رغم موقعها الجغرافي البعيد تعتبر جزءا من أوروبا وذلك نظرا لارتباطاتها الحضارية مع دول اسكندنافيا في حين أن جرينلندة التي لها علاقات ثقافية وتاريخية مع الدنمارك وجزء منها تعتبر جزءا من أمريكا الشمالية لقرب موقعها من تلك القارة .

أما الحدود الشرقية لأوروبا فهي أقل تحديدا إلا في المنطقة التي تفصل فيها مضائق البوسفور والدردنيل لإقليم جنوب شرق أوروبا من آسيا الصغرى . أما إلى الشمال من البحر الأسود فهناك عدة حدود اقترحت في فترات متفرقة لتقسيم أوراسيا إلى أوروبا وآسيا .

فهيروودوت مثلا اختار المجرى الأدنى لنهر فاسيس Phasis (نهر ريون Rion حاليا) والذي ينبع من جبال القوقاز ويصب في البحر الأسود كحد شرق لأوروبا . ولكن الاغريق استبدلوا هذا النهر بنهر الدون 'Don' وبحر أزوف كحدود شرقية لأوروبا . وقد ظلت هذه الحدود مستخدمة لمدة طويلة ، فنهري الدون الذي يجري عبر سهوب الاستبس يقسم السهل الروسي العظيم إلى قسمين : قسم يقع داخل أوروبا وجزء خارجها وهكذا وجدت الدولة الروسية نفسها مقسمة إلى قسمين بهذه الحدود : قسم أوروبي وقسم خارج أوروبا . . وقد استمر هذا الوضع لروسيا بما حدا

بدستوفسكى إلى القول بأن على روسيا « أن تكون وحدة ليس داخل أوروبا بل في وجه أوروبا » .

والخريطة المرفقة توضح بعض الحدود المقترحة لأوروبا من ناحية الشرق في وقتنا الحاضر فقد كان هناك ميل إلى زحزحة هذه الحدود إلى شرق نهر الدون ولكن دون أن تتعدى بحرازوف . ولقد لعبت المعالم الجغرافية دورا في اختيار هذه الحدود الشرقية لأوروبا مثل منخفض مانيش Manych Depression ، والمجرى الأوسط لنهر فولجا ونهرى كاما وأورال وأخيرا المنحدرات الشرقية لجبال الأورال . وهناك حدود أخرى تقع إلى الغرب من هذه الحدود الأخيرة وتتخذ مستنقعات برييت Pripet Marshes والتي تقع في بلروسيا السوفيتية كحد لها - وقد دافع الجغرافى الفرنسى جاك آنسل الذى اختار هذه الحدود بأنه إلى الشرق من هذه المستنقعات تسود آسيا بضخامتها ومناخها ومظاهرها الأرضية . أما هالفورد ماكيندر فقد كتب في عام ١٩١٨ يقول بأن أوروبا « الحقيقية » أو « الآهلة بالسكان » كانت تمتد وعلى الأقل قبل هذا القرن شرقا حتى ذلك الخط المستقيم الذى يربط بين بتروجراد (ليننغراد حاليا) وكازان ، ثم ينحني بين كازان والبحر الأسود حيث يجرى على طول نهرى فولجا والدون ، فالى الشرق من هذه الحدود تبدأ مجاهل آسيا الوسطى على حد قول ماكيندر .

وبالاختصار فقد قبل الجغرافيون حدودا شرقية لأوروبا كذلك التى اقترحها الجغرافى الألمانى ماخاتشك Machatschek^١ وهذه الحدود لا تعطى أى اعتبار للحدود الداخلية والخارجية للاتحاد السوفيتى . ورغم تشعب مسألة تحديد حدود أوروبا عبر الأجيال فقد أصبحت أوروبا حقيقة واقعة . فأوروبا جزء دائم من العالم الآهل بالسكان وقد برهنت على أنها من أحسن المناطق سكنا تماما كالشرق الأقصى وجنوب آسيا وشمال شرق أمريكا الشمالية ، مما جعلها منطقة حضارية لها وزنها في عالم اليوم .

٤ - الامتداد الإقليمى لأوروبا كمنطقة حضارية (الشكل ٢) :

كما استعرضنا من قبل فكرة قارية أوروبا ونشأتها وحدود أوروبا الحالية من ناحية

الجغرافية الطبيعية .. وقلنا إن هذه الحدود الجغرافية لم تنل رضا الجميع .. فهل يمكن أن نحدد القارة الإقليمية من الناحية الحضارية ؟

إذا سلمنا بالرأى القائل: بأن أوروبا تدين بوجودها لكونها منطقة حضارية أكثر من كونها وحدة جغرافية ، فإن علينا أن نحدد النقطة الأساسية من هذه الوجهة ألا وهى أن أوروبا ليست لها حدود واضحة ومن العيب أن نرسم خطوطا على الخرائط لتحديد مناطق حضارية أخرى فى الشرق والشمال والجنوب عبر نطاقات انتقالية عريضة . وهذا ينطبق إذا أخذنا عناصر التحديد الثلاثة : السلالة واللغة والدين . أما إذا أخذنا السمات التقليدية فى تحديدنا لحدود القارة فلإننا نجد منطقة مركزية فى شمال غربى وشمال وأواسط أوروبا تتضمن إنجلترا والأراضى المنخفضة وشمال فرنسا والمانيا - وشمال إيطاليا وجنوب اسكتلنداوه . وفى هذه المنطقة المركزية أو قلب أوروبا نلمس كل السمات التى ذكرناها . ولكن فى أى اتجاه من هذا المركز تقل تلك الصفات من الناحية العددية فاسحة المجال للثقافات الآسيوية من ناحية الشرق وثقافات أفريقيا والشرق الأوسط فى الجنوب ، وإيطاليا فى واقع الحال نموذج رائع لهد الانتقال من الثقافة الأوروبية إلى الثقافات الأخرى فالأجزاء الشمالية تقع ضمن المنطقة المركزية الأوروبية فى حين أنه كلما إتجهنا نحو الجنوب تتفشى الأمية وتعلو نسبة المواليد ، كما نشهد انخفاضاً فى دخل الفرد ونسبة التحضر والتصنيع . أما من ناحية الشرق فالمنطقة الانتقالية بين أوروبا وآسيا تقع داخل الاتحاد السوفيتى .

وهذه الصفات أو السمات التى تحدد أوروبا وكذلك الامتداد الإقليمى لهذه المنطقة الحضارية قد أصابها التغيير عبر القرون فحدود أوروبا الإقليمية فى وقتنا الحالى تختلف تماما عن حدودها قبل ألف أو أثنى سنة مضت ... وذلك لأن الظاهرة البشرية لم تكن ثابتة أبدا فقد كانت عرضة للتغيير والتلاؤم عبر الأجيال كما أن ماضى أوروبا قد تميز على الدوام بالتوسع والانكماش وقبل ألف سنة من ميلاد المسيح ظهرت حول السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط نواة أوروبا تحمل فى أحشائها جنين الحضارة الغربية . وعند بداية العصر المسيحى كانت أوروبا تتمثل فى الامتداد الإقليمى للإمبراطورية الرومانية التى توسعت من النواة الأولى وشملت مناطق أخرى

شاسعة من القارة ولكن منطقة التنقل بقيت في نطاق حدود حوض البحر الأبيض المتوسط .

وحوالى ألف سنة بعد الميلاد شهدت أوروبا تغيرات إقليمية واسعة . فقد احتل العرب المسلمون - بدافع من الحمية الدينية - شمال أفريقيا وأجزاء من شبه جزيرة أيبيريا والجزر الكبيرة الواقعة في البحر الأبيض المتوسط وقد توغل العرب داخل فرنسا ولكنهم هزموا في موقعة بواتيه عام ٧٣٢ ولولا هذه الهزيمة لكان للعرب والمسلمين شأن آخر ، وتعرضت أوروبا أيضا لغزو القبائل الآسيوية من الشرق خاصة الهون والماغيار . وتوغلت الأخيرة حتى داخل ألمانيا الجنوبية حيث دارت معركة ضخمة عام ٩٥٥ م وقد توالى غزوات شعوب الماغيار على أواسط أوروبا لسنين عديدة دون إحراز أى تقدم وأخيرا استقرت في سهوب المجر حيث نجد اليوم سليلهم .

ورغم هذا التراجع الإقليمي في حوض البحر الأبيض وشرق القارة فقد حدث توسع تجاه مناطق الوثنيين من الشعوب الألمانية والصقالبة التي سرعان ما دخلت في أحضان المجموعة الأوروبية بواسطة المجهودات التي بذلتها الإرساليات المسيحية ثم استطاع الأسبان والبرتغاليون طرد العرب والبربر من بلادهم بعد سلسلة من الحروب انتهت عام ١٤٩٢ ، ولكن بداية القرن الثالث عشر شهدت أيضا غزوات جديدة بواسطة قبائل التتر التي شنت هجوما على جنوب روسيا وعبرت إلى أوروبا تنشر الحرب والدمار ، ولكن الأوروبيين نجحوا في صد هذه الغزوات وإرسال التتر على أعقابهم . ولكن لم يلبث أن ظهر غزاة آخرون هم الأتراك المسلمون الذين قهروا نفوذ اليونان السياسى وثقافتهم المسيحية في آسيا الصغرى ثم واصلوا تحركهم عبر الدردنيل ليحتلوا اسطنبول مركز المسيحية الشرقية آنذاك . ومن هناك أخذوا ينتشرون نحو الشمال وأخضعوا البلقان تحت سيطرتهم وقد تجمع الأوروبيون في محاولات ثلاث لصد هجمات الأتراك على فيينا والحفاظ على التراث الأوروبى . ورغم أن النفوذ السياسى التركى قد تدهور تدريجيا من شبه جزيرة البلقان فإننا ما زلنا نجد آثار هذا الاحتلال ممثلة في الأقليات المسلمة الموجودة في يوغسلافيا والباينا وكذلك رأس الجسر الصغير

على الساحل الشمالى من الدردنيل والبوسفور حول اسطنبول الذى احتفظ به الأتراك حتى اليوم رغم محاولات الأوربيين - خاصة الأتريق والروس - لاستعادته

أما التوسع الأوروبى الحقيقى فقد تم انجازه خلال ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة الأخيرة بواسطة الشعوب الجرمانية والسلافية (الصقالبة) واللاتينية (الايبريين). وقد استطاعت الشعوب الناطقة باللغة الجرمانية، خاصة الانجليز، فى انشاء مناطق أوروبية فيما وراء البحار فى أمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلنده وجنوب افريقيا فى حين أن الاسبان والبرتغاليين نقلوا وازدروعوا كثيرا من جوانب الحضارة الأوروبية فى أجزاء كبيرة من أمريكا اللاتينية. وقد تطابق هذا النشاط الخارجى فيما وراء البحار مع نشاط برى آخر بواسطة الشعوب السلافية خاصة الروس الأوربيين الذين دفعوا بالتوسع الأوروبى الى قلب أوراسيا وعبرها إلى ساحل المحيط الهادى.

وبالإضافة إلى هذه المناطق المعتدلة التى احتلها الأوربيون واستوطنوا فيها إما بإزالة السكان الأصليين أو بإخضاعهم تحت سيطرتهم السياسية والاقتصادية فهناك مستعمرات ضخمة أنشأها الأسبان البرتغاليون والانجليز والفرنسيون والهولنديون والبلجيكيون والألمان فى المناطق المدارية، ورغم أن كثيرا من هذه المستعمرات لم يستوطن فيها الأوروبى فقد ظهرت بصمات وآثار هذا الاستعمار واضحة حتى اليوم متمثلة فى اللغة والديانة المسيحية والمخترعات والمؤسسات الأوروبية التى نلاحظها فى هذه المناطق.

والآن فإن المستعمرات الأوروبية فى المناطق المدارية قد استقلت وعادت أوروبا إلى عقر دارها... وتقلص نفوذها السياسى لينحصر داخل القارة.. ولكن نفوذها الحضارى ما زال يتتشر فى العالم ويؤثر فى الثقافات الأخرى بصورة متفاوتة. فاليابان مثلا قد قبلت الثورة الصناعية وتقبلت أيضا وعلى مضض آثار هذه الثورة المدمرة على ثقافتها التقليدية كما أن تركيا قد تخلت عن الحروف الأبجدية العربية وتبنت الحروف اللاتينية فى الكتابة.

وهكذا ورغم صغر مساحتها (٩٧٠,٠٠٠ كم ٢) التى لا تتجاوز ١/٣ من

مساحة اليابس ، فإن أوروبا لعبت دورا هاما فى تقدم الحضارة البشرية كما شرحنا من قبل ، وهذه المكانة التى ظهرت بها أوروبا كانت نتيجة لتوفر ظروف ملائمة :

١ - فقارة أوروبا تمتاز بأراضى واسعة شاسعة صالحة للزراعة خالية من المساحات الصحراوية والهضاب الموحشة كالتى نراها فى آسيا مثلا .

٢ - فهى كذلك غنية بالمعادن خصوصا مواد الصناعة الأولية ، كالصخر والحديد وخاصة فى منطقتها الغربية .

٣ - تنوع مواردها الاقتصادية من زراعة وصناعة بأنواعها مما أدى إلى سيطرتها على معظم المشروعات العمرانية والاقتصادية فى العالم بفضل ما لديها من رؤوس أموال .

٤ - معظم أوروبا يقع فى خطوط العرض المعتدلة : فمناخها معتدل والأمطار موزعة طول العام فى كثير من أجزائها وكان لتوغل البحار فى القارة تأثير هام فى سهولة اتصالها بالعالم الخارجى من ناحية وبعض أجزائها ببعض الآخر من ناحية أخرى .

الموقع الجغرافى :

يمكن فهم الموقع الجغرافى لأوروبا بطريقتين : الموقع المطلق أو الثابت والموقع النسبى لباقي أنحاء العالم . فالموقع المطلق كما تحدده خطوط الطول ودوائر العرض يوضح لنا الموقع المركزى لأوروبا فى نصف الكرة الشمالى وخلوها من الصحارى الحارة والباردة. ونظرا لأن نصف الكرة الشمالى به أكبر جزء من اليابسة ويضم كذلك تلك الأجزاء المتحضرة من الكرة الأرضية فإن موقع القارة الأوروبية فى هذا الجزء يؤهلها للاتصال بسهولة مع باقى أنحاء العالم بحرا وجوا .

أما الموقع النسبى لأوروبا فقد طرأ عليه التغير كثيرا عبر التاريخ وإن كان هذا التغير نحو الأحسن دائما . فى عصر التاريخ كانت أوروبا تحتل ركنا نائيا من العالم بعيدا عن مهد الحضارات لكن ليست فى معزل تام عن تيار الحضارة الذى كان يصل بين الحين والآخر عن طريق البحر . فقد كان بعض أجزاء أوروبا الواقعة فى حوض البحر المتوسط على اتصال بالمناطق المتحضرة من آسيا الموسمية عن طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر منذ العصر اليونانى - الرومانى . ولكن المحيط

الأطلسي - أو بحر الظلمات كما أسماه العرب - لم يكن مطروقا وكان غرب وشمال أوروبا يمثلان موقعا جانبيا بالنسبة للعالم المعروف . وتغير هذا الوضع في القرن الخامس عشر عندما اكتشفت الطرق البحرية عبر الأطلسي إلى أمريكا وآسيا الجنوبية وتحسن كثيرا بعد اكتشاف الأمريكتين وكذلك أستراليا . وهكذا أصبحت أوروبا وخاصة تلك الأجزاء التي تتمتع بموقع بحري تكتسب أهمية وبالذات بعد البدء في استعمار واستغلال موارد تلك الأماكن التي وقعت تحت سيطرتها مما أتاح لها دورا قياديا في تجارة العالم ، وهيأت لها الظروف لتنمية تلك البلاد اقتصاديا .. خاصة بعد الثورة الصناعية التي أتاح لأوروبا نفسها استغلال مواردها المعدنية استغلالا فعالا مما أكسبها موقعا ومركزا قياديا في عالم اليوم .

الفصل الثاني

البنية والتضاريس

تعد أوروبا (باستثناء روسيا السوفيتية) أصغر القارات مساحة كما أنها في الحقيقة شبه جزيرة غير منتظمة الشكل وتمثل الامتداد الغربى لكتلة اليابس الآسيوى العظمى . وباستثناء المحيط المتجمد الشمالى فإن المحيطات والبحار التى تحيط بها دافئة ويمتد فيها عدد من أشباه الجزر الصغيرة تضم بينها أذرعاً طويلة للبحار يتوغل بعضها توغلاً عميقاً فى القارة كالبحر الادرياتي والبحر الأبيض والبلطيق والأسود .

وتتميز القارة بطول وتعقد سواحلها وبكثرة أشباه الجزر بها ومئات الجزر التى تناخمها وتطوقها مثل الجزر البريطانية وفعلاً نجد أكثر من ثلث أوروبا يتكون من الجزر وأشباه الجزر كما يظهر فى الجدول التالى : فأوروبا فى الحقيقة هى قارة أشباه الجزر ، كل شبه جزيرة تنقسم بدورها إلى أشباه جزر أخرى مهيبة لألسنة من المياه الضحلة لتتوغل إلى داخل اليابسة .

جدول : ١

تركيب القارات

| القارة | المساحة الكلية (ملايين كم ^٢) | أشباه الجزر (ملايين كم ^٢) | الجزر (ملايين كم ^٢) | نسبة أشباه الجزر والجزر للمساحة الكلية | علاقة طول الساحل للمساحة الكلية |
|-----------------|------------------------------------------|---------------------------------------|---------------------------------|----------------------------------------|---------------------------------|
| أوروبا | ٩٩٧ | ٢٧٠ | ١٧٥ | ٣٤٦ | ١ : ٣٥ |
| آسيا | ٤٤١٨ | ٣٩٤ | ٢٧٠ | ٢٤٠ | ١ : ٣٢ |
| أمريكا الشمالية | ٢٤١٠ | ٢٠٤ | ٤١١ | ٢٥٦ | ١ : ٤٩ |
| أمريكا الجنوبية | ١٧٨٧ | ١٠٥ | ١١٥ | ١١٥ | ١ : ٢٠ |
| أفريقيا | ٢٩٨٢ | — | ١٦٢ | ٢١ | ١ : ١٦ |
| أستراليا | ٨٩٠ | ١٤٢ | ١٣٠ | ١٩٣ | ١ : ٢٠ |

وتمثل شبه جزيرة اسكندناوه أكثر هذه الجزر إثارة إذ تجعل سلسلة جبالها الغربية من النرويج دولة أطلسية رطبة ومن السويد منطقة داخلية قارية . وفى الجنوب وبين أحواض المحيط الأطلسى العميقة والبحر الأبيض المتوسط توجد شبه جزيرة أيريا بأجزائها الغربية الأطلسية الرطبة والجزء الجاف الذى يطل على البحر المتوسط بينما إلى الشرق منها توجد شبه جزيرة إيطاليا (الجزء الإيطالى) التى تفصل بين حوضين عميقين من أحواض البحر المتوسط ، والتى تعكس براكينها الحية عدم استقرارها البنىوى وحدائث عمرها . وإلى الشرق من إيطاليا توجد شبه جزيرة البلقان ذات الشكل المثلثى التى تتوغل فى البحر المتوسط وتنتهى فى شبه جزيرة اليونان وجزرها العديدة ويمكن اعتبار القارة الأوروبية نفسها شبه جزيرة كبيرة تنفرع منها أشباه الجزر الأخرى . ولولا الهبوط الذى أدى إلى تكوين مضيق دوفر وبحر الشمال الجنوى لأمكن ضم الجزر البريطانية إلى مجموعة أشباه الجزر الأوروبية .

وبجانب أشباه الجزر هذه توجد البحار ، وهنا يظهر التناقض واضحاً بين الرفرف القارى الضحل الشاسع فى الشمال الغربى من القارة وبين الأحواض البحرية العميقة التى يتميز بها المحيط الأطلسى والبحر المتوسط فى الجنوب . ويعتبر الرفرف القارى من الناحية البنىوية جزءاً من هذه القارة التى كانت مغمورة خلال معظم فترة العشرة آلاف سنة الماضية والتى تبرهن الأدلة بأنها ما زالت تهبط ، فبحر البلطيق خلال العصر الرابع كان بحيرة عذبة . هذه البحار القارية تعتبر خزاناً للحرارة ومبعثاً للدفء رغم أن بحر البلطيق ضحل وعذب نسبياً إلى درجة أن أجزاء منه تتجمد فى الشتاء مثل خليج فنلندة وبوثنيا . كما أن الاختلاف الجزرى الكبير فى الشمال وتعرضه للعواصف الفجائية تعمل على تهوية مياهه فى حين أن الأنهار الكثيرة التى تصب فيه تحمل معه مواد غذائية كثيرة مما جعله مرتعاً خصباً لكثير من الأسماك .

وعبر الجزء الجنوى من أوروبا يمتد حزام تكتونى من الغرب إلى الشرق أدى إلى وجود ظاهرة تكتونية تتكون من التواءات ومنحدرات مما أدى إلى وجود علاقة بين الجبال والبحار ، ويصل جزء من الغور المحيطى للأطلسى بالقرب من الساحل البرينى عند خليج بسكاي بينما تتواجد ثلاثة أحواض عميقة فى البحر المتوسط تفصل

بينها أشباه جزر وجزر . فالجزر البليارية امتداد لجبال أسبانيا الجنوبية (العصر الثالث) بينما تكون جزيرتا كورسيكا وساردينيا بقايا تكوينات قديمة غارقة ، وتتكون قبرص من ارسابات قاع محيطية . وهناك غور محيطى آخر (اوكسايين 'Euxine') فى قاع البحر الأسود بينما يشكل حوضان عميقان آخران عناصر التكوين الأساسية لبحر قزوين . وقد أدى انكسار فى جبال الريف وسيرانيفادا إلى ظهور سد طبقي مغمور تمر عبره مياه المحيط الأطلسى إلى البحر المتوسط ليعوض ما يفقده الآخر من التبخر الشديد كما يتيح مرور السفن بين البحرين . ورغم ذلك فإن مياه البحر المتوسط عالية الملوحة مما يزيد من قدرتها على الاحتفاظ بالدفع والحرارة . كما أن مضيق الدردنيل يتيح مرور مياه البحر المتوسط والبحر الأسود الذى تتميز مياهه السفلى بالركود وعدم التهوية . وقد كان البحر الأسود متصلا ببحر قزوين عبر مستنقعات مانيش الحالية وقد انقطع هذا الاتصال أثناء العصر الثالث ولولا وجود منخفض كارا - بوغاز - جول Kara-Bogaz-Gol الضحل الذى يساعد فى تثبيت نسبة الملوحة فى بحر قزوين لأصبحت الملوحة عالية جدا .

ويساعد توغل السنة البحار وأذرع المحيطات إلى داخل القارة فى حمل المؤثرات البحرية إلى داخل القارة وتشكل مع الأنهار التى تخترق القارة وسائل انتقال من منطقة لأخرى كما تمنح طرقا قصيرة عبر أشباه الجزر العديدة . وإلى الغرب من الخط الذى يربط بين ميناء أوديسا Odessa على البحر الأسود وبين كالينغراد Kalingrad لا نجد جزءا من القارة يبعد من الساحل بأكثر من ٥٠٠ كم بينما تبعد المسافة الى الشرق من هذا الخط الى أكثر من ١٠٠٠ كم .

وعامة تتميز تضاريس أوروبا بالاعتدال : وبالمقارنة مع القارات الأخرى فهى تتميز بأدنى متوسط لارتفاع (٣٠٠ متر) (آسيا ٩٤٠ مترا وأمريكا الشمالية ٧٠٠ متر وأفريقيا ٦٥٠ متر) بينما ترتفع أعلاقة فى جبال الألب إلى أقل من ٥٠٠٠ متر وهذا ارتفاع تتفوق عليه على الأقل احدى وعشرون قمة فى آسيا ، كما أن أوروبا تخلو من مثل تلك الأحواض الجافة التى تحيط بها الجبال التى نجدها فى آسيا . وهناك قسم كبير من أرض القارة الأوروبية يصل إلى الثلثين يقل ارتفاعه عن ٢٠٠ متر فوق سطح

البحر ولا تكاد تزيد أراضيها التي تقع فوق منسوب ٥٠٠ متر عن ١٥ ٪ من مساحتها .

تكتسب التضاريس في المناطق الجبلية والمرتفعات أهمية من ناحية الارتفاع والوجهة ودرجة الانحدار . فالارتفاع يؤثر في الاستيطان البشري ، وحتى عندما يلجأ الإنسان إلى الأماكن المرتفعة طلباً للمراعى الجبلية العالية وخاصة في المناطق الشرقية والجنوبية من القارة - فإنه يفعل ذلك في فصل الصيف فقط . وما زال الاستيطان البشري الدائم موجوداً في بعض المرتفعات الهيرسينية ذات التربة الفقيرة الضحلة ، ولأن التزوح إلى المنحدرات السفلى قد بدأ فعلاً كما حدث من على المرتفعات الكاليدونية . وهكذا نجد أن الكثافة السكانية تقل مع الارتفاع في كل مكان إلا في بعض جبال شبه جزيرة البلقان نتيجة ظروف تاريخية في عصر الأتراك عندما اضطرت مجموعات من السكان إلى اللجوء إلى حماية الجبال . والجدول التالي يوضح الحد الأعلى لوجود الزراعة على مرتفعات أوروبا :

| الارتفاع بالأمتار | جدول ٢ : المناطق الجبلية |
|-------------------|-----------------------------|
| ٥٠٠ | أوستردال |
| ٦٥٠ | غوديرانتزوال وفالدرز |
| ٦٠٠ | هارتز (ألمانيا) |
| ١٠٣٠ | ازبيريغ (ألمانيا) |
| ١١٢٠ | الغابة السوداء |
| ١١٦٠ | بيلرتال |
| ١٥٤٠ | أورنو - الب - زيال |
| ١٥٦٠ | بيرنو - الب - كاندرتال |
| ٢٠١٤ | أوتزال - الب - (الشمالية) |
| ٢٠٨٣ | أوتزال - الب - (الجنوبية) |
| ٢١٠٠ | فندلين (بالقرب من زيرمات) |

وتكتسب « الوجهة » aspect ، أهمية كبرى في الزراعة في المناطق الجبلية مثل

جبال الألب والكريات والمرتفعات الهيرسينية إذ يظهر التناقض واضحاً في استخدام الأرض بين المنحدرات الجنوبية التي تطل عليها أشعة الشمس والمنحدرات الظليلة الرطبة الشمالية : ومثلاً في هضبة الراين نجد أشجار الكروم تحتل المنحدرات الجنوبية المشمسة بينما تغطي الغابات المنحدرات الشمالية . كما أن للوجهة أثرها في كمية الأمطار التي تسقط على المنحدرات ، فالمنحدرات الغربية دائماً أكثر مطراً من المنحدرات الشرقية كما يظهر في الهضبة الوسطى الفرنسية وهضبة الراين . وخلف المرتفعات الوسطى نجد أحواضاً جافة مثل « جولدن أوى Goldene Aue » وحوض بولابي Polabi في بوهيميا . ويظهر التناقض في التساقط بين الجزء الغربي الممطر من هضبة الميزيتا الأسبانية وبين الأجزاء الوسطى والسواحل الشرقية . وحتى المنحدرات المعتدلة الانحدار تخلو من الزراعة وقد يتطلب ذلك عمل المصاطب . وفي منطقة الكويستات والأودية في جوف باريس وجنوب ألمانيا تكتسب درجة الانحدار أهمية خاصة تظهر في توزيع النطاقات الزراعية ، فالمزارع والبساتين تحتل بطون الأودية بينما تغطي مزارع الكروم المصاطب المقامة على المنحدرات التي تلي الكويستات التي تكسوها الغابات .

البنية :

أوروبا قارة تبتأين فيها الظواهر الجغرافية الطبيعية ويمتد عبرها من الغرب إلى الشرق سلسلة من الجبال المرتفعة تضم جبال البرانس والألب والكريات وإمتداداتها . في شبه جزيرة البلقان ، وعلى الرغم من وجود عدد من الثغرات التي تفتح ممرات عبر هذه الجبال إلا أنها قد أوجدت نوعاً من التقسيم والاختلاف بين المناطق التي تقع شمال وجنوب هذه السلاسل وهذه الجبال الالتوائية ترجع إلى الحركة الكالدونية والحركة الهرسينية إلى الشمال من السلاسل الألبية ، ثم كانت الحركة الألبية التي أنتجت أعلا سلسلة جبلية في القارة .

ونقسم أوروبا إلى قسمين كبيرين : القسم الشرقي وهو عبارة عن سهول فسيحة ، والقسم الغربي والجنوبي ويمتاز بتضاريسه المتنوعة .

هذه الاختلافات في التضاريس بين شمال وجنوب أوروبا لا تعني أن شمال

أوروبا كانت خالية من الحركات التكتونية التي كان من نتائجها تلك الجبال الشاهقة التي تتميز بها أوروبا الجنوبية فقد حدثت حركات في المناطق الشمالية أحدثت جبالا لا تقل في ضخامتها وعلوها عن جبال الألب . ولكن نسبة لحدوث هذه الحركات في عصور جيولوجية قديمة فقد اندثر معظم هذه الجبال نتيجة تعرضها لعوامل التعرية خلال هذه الفترة الطويلة . وقد مرت أوروبا بأربع حركات أوروغينية يمكن أن نطلق عليها جيولوجيا (الشكل ٤) :

١ - حركة ما قبل الكامبري Pre-Cambrian (الاسم مشتق من جبال كامبريا في ويلز) .

٢ - الحركة الكاليدونية Caledonian (الاسم مشتق من الاسم اللاتيني كاليدونيا - لاسكتلنده) .

٣ - الحركة الهرسينية Hercynian (الاسم مشتق من الاسم اللاتيني لجبال الهارتز Hartz في ألمانيا الوسطى) .

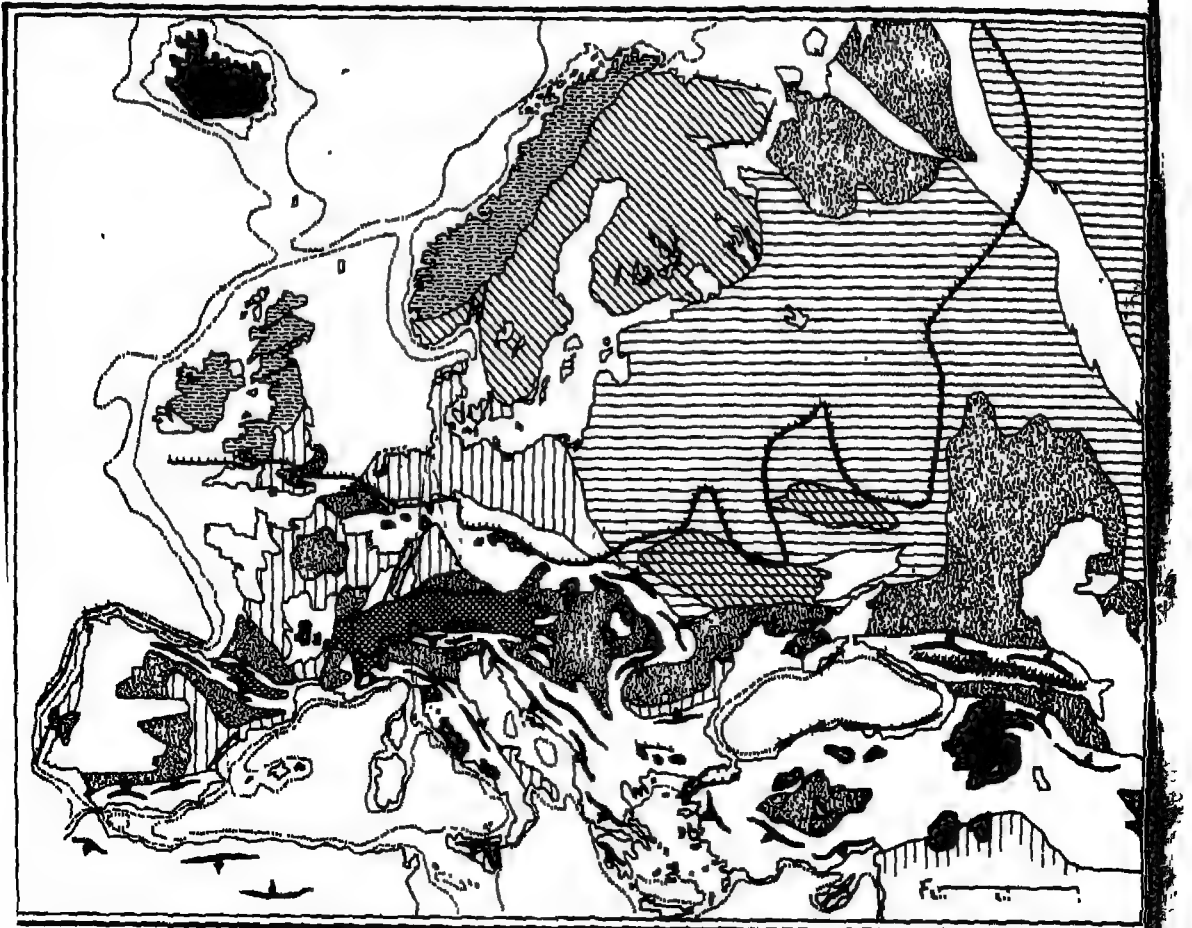
٤ - الحركة الألبية Alpine (الاسم مشتق من جبال الألب) .

١ - تقع المناطق التي تأثرت بحركات ما قبل الكامبري حول بحر البلطيق حيث نجد كتلا ضخمة من الجرانيت والصخور المتحولة تكون مسطحا أرضيا تتصف بتضاريس منخفضة وتعرف جيولوجيا باسم الدرع البلطي Baltic Shield أو Fenno-Scandian ويستمر هذا الدرع تحت السهل الروسي العظيم ولكن ليس على السطح بل مدفونا تحت إرسابات حديثة ومع الدروع الأخرى مثل إنجلترا في سيبيريا ولورنشيا في كندا وأجزاء كبيرة من جرينلندة فإن الدرع البلطي ربما يمثل بقايا قارة شمالية قديمة كانت تعرف باسم لوراسيا Laurasia ، وفعلًا كان الدرع مركزا لكتلة اليابس الأوروبية الصلدة التي ضغطت نحوها مجموعة الجبال الأوروبية التي تلت .

٢ - الحركة الكاليدونية :

بدأت هذه الحركة في العصر السيلوري تؤثر على أجزاء كبيرة من شمال غرب

(الوحدات البليوسينية للقارة الأوروبية (التصنيف الجيولوجي)



شكلا ٤

النظام الكاليدوني

- ١ اتجاه الجبال الكاليدونية
- ٢ النظام المرسيني
- ٣ اتجاه الجبال المرسينية
- ٤ النظام القاسمي
- ٥ اتجاه الجبال المرسينية

ما قبل الكامبري

- ٦ فينيراكاندي (البحر البلطقي)
- ٧ كتلة تارونجينية أوغندا
- ٨ السهل الروسي

٩ خط عرض ٢٠٠٠ قدم

١٠ خط عرض ٦٠٠ قدم

١١ اتجاه العتلة والمرتفعات

١٢ الاتجاهات الجبلية المتفرقة

١٣ أرض ماسينية

١٤ أرض مسندرة (تيلاند) سيندري

١٥ كتلة بركانية

١٦ خط عرض الكسارية (تيلاند)

١٧ الاتجاهات المتفرقة الجبلية المتفرقة

أوروبا ، وتمتد هذه المنطقة من أيرلنده عبر اسكتلنده إلى المرتفعات الاسكندنافية حيث نجد تشابها واضحا بين هذه المناطق من حيث البنية والاتجاه وأنواع الصخور ويمكن تتبع هذه المجموعة شمالا في أيسلنده وشمال جرينلنده . وقد تعرضت هذه الجبال فيما بعد لعوامل التعرية وكذلك تعرضت أجزاء منها للارتفاع والتقوس والميلان وذلك أثر الحركات الأوروغينية التالية .

« الحركة الهرسينية :

في الفترة التي تلت الحركة الكاليدونية غزت المياه وغطت أجزاء كثيرة من أوروبا . وفي بداية العصر الكربوني غطت المياه أماكن شاسعة ويبدو أن قاع هذا البحر أثرت فيه اللتواءات الأولية للحركة الهرسينية كما يبدو من الطبقات الفحمية التي كانت قد بدأت تتكون في اللتواءات المحدبة الأولية التي أخذت تظهر على السطح مع منخفضات ساحلية ومستنقعات . أما المحور الرئيسى للجبال الهرسينية فقد كان إلى الجنوب في حين أن الإرسابات الفحمية احتجزت في منخفضات بنيوية واسعة أو في أحواض صغيرة حول الطرف الشمالى وداخل الجبال الهرسينية (كما في ويلز ونامور والورور وسایليزيا العليا وحوض الدونتر) .

وما زالت بقايا المجموعة الهرسينية تفرض وجودها في تضاريس أوروبا الغربية والوسطى شمال جبال الالب . وما زال اتجاه الجبال ظاهرا في كثير من أجزاء أوروبا كما يوضح بعض هذه الجبال اللتوائية في بعض المناطق . وتتمثل هذه الجبال في كتلة أرموريكا Armorican Massif في شمالى غربى فرنسا ، والهضبة الوسطى Central-Massif وفي كورنول Cornwall في جنوب غرب إنجلترا وفي جبال كرى Kerry في جنوب أيرلنده وجبال أورال Ural في روسيا . وتتمثل أيضا في بعض الكتل مثل جبال الفوزج Vosges والغابة السوداء وهضبة بوهيميا وهضبة أيبيريا . وهذا التناثر في توزيع الجبال الهرسينية كما تظهر اليوم يمكن أن نعزوها إلى ثلاثة أحداث : أولا : تعرضت هذه الجبال لفترات طويلة لعوامل التعرية . ثانيا : تعرضت قارة أوروبا لغزو بحرى متكرر وذلك أثناء العصر الميزوزوى ، والإرسابات البحرية الناجمة من هذا الغزو والتي تستلقي من غير تناسق على السطح

المهرسينى لتآكل دليل على أن هناك عملية تسوية واسعة قد حدثت قبل الغزو البحرى .

وثالثا : أثناء الحركة الألبية تعرضت المناطق المهرسينية إلى هزات عنيفة كانت ذات آثار واضحة على التضاريس المهرسينية وخاصة في الجنوب .

- الحركة الألبية :

يظهر أثر الحركة الألبية واضحا في جنوب أوروبا حيث نجد جبال الألب الشاهقة تنقوس نحو الشمال بين أكبر الكتل المهرسينية الصلبة الهضبة الوسطى في فرنسا من ناحية الغرب والكتلة (الهضبة) البوهيمية من ناحية الشرق . أما في أوروبا الشرقية فتبرز جبال الكربات بشكلها الهلالى نحو الشمال الشرقى بين الكتلة البوهيمية والدرع الروسى في رومانيا ، في حين أن انحناءة جبال جوار منتهية في طرفها عند الهضبة الوسطى وجبال الفوج Vosges كما أن السلاسل الألبية حول البحر المتوسط نجدها مضغوطة بين كتل أيبريا وتيرهينيا Tyrrhenian ورودوب Rhodope وهذه الضغوط الجانبية والرأسية التي تعرضت لها الصخور الرسوبية إبان الحركة الألبية قد خلقت التواءات عظيمة في غاية التعقيد مما يدل على أن هذه الصخور كانت على درجة عالية من المرونة وأن صلابتها الحالية حديثة . أما من ناحية تكوين هذه الجبال فما حدث هو أنه أثناء العصر الميزوزوى غطى بحر تيثيس (سمي بعد زوجة أوشاناه) Oceanos في الأسطورة الاغريقية) الجزء الجنوبي من أوروبا وأرسب-

كميات ضخمة من الرسوبات معظمها جيرية . وحسب نظرية زحزحة القارات أخذت قارة أفريقيا (جند وانا لاند Gondwana Land) تتحرك نحو الشمال دافعة الرسوبات الضخمة ضد الكتل المهرسينية الصلبة والدرع البلطى ونتيجة لهذا الضغط الجانبى الهائل التوت الصخور الرسوبية مكونة تلك الجبال الشاهقة . وقد استمرت هذه الحركة من منتصف العصر الميزوزوى إلى منتصف العصر الثالث

Mid-Tertiary

وفي عصر البلايستوسين شهدت أوروبا ما يسمى بعصر الجليد حين زحفت كميات ضخمة من الجليد وغطت أجزاء كبيرة من أوروبا ، وقد تعرضت القارة إلى

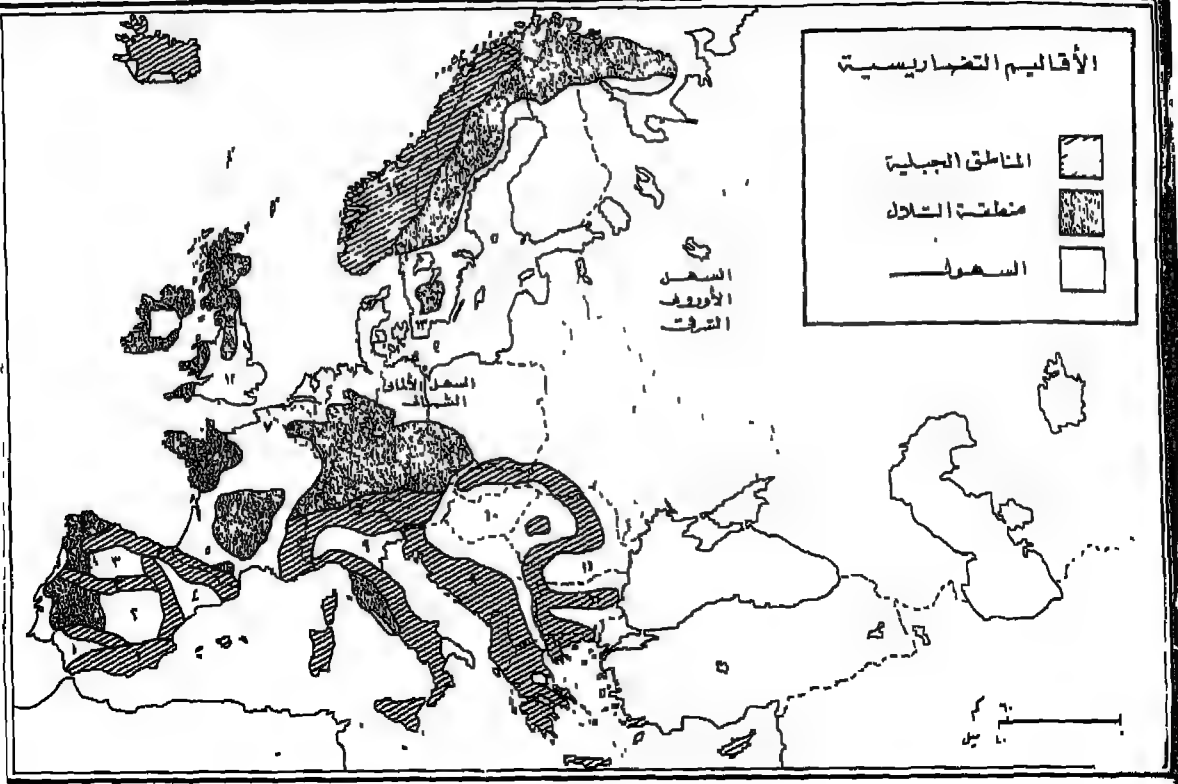
التعرية الجليدية أربع مرات ، وكانت لهذه العملية آثار عظيمة على سطح أوروبا تتمثل في استدارة التضاريس وتوسيع أودية الأنهار ، وحمل الجليد فتات الصخور المنحوتة وأرسبها في أماكن عديدة في شمال أوروبا وهذه الإرسابات الجليدية تغطي أيضا أجزاء من السهل الأوروبي العظيم ومن هذه الإرسابات تربة اللويس Loess (وتعني التربة الناعمة المفككة) التي حملتها الرياح بعد عصر الجليد وأرسبتها في نطاق يمتد من ألمانيا إلى الصين . وبعد نهاية العصر الجليدي وذوبان الجليد أخذ سطح الأرض يرتفع تدريجيا بعد إزالة ذلك الضغط الهائل الناتج من تراكم الجليد فوقه . والدليل على هذا هو وجود قواقع بحرية وشطوط بحرية في ارتفاع مئات الأقدام فوق مستوى بحر البلطيق . وقد أدى ذوبان الجليد إلى ارتفاع في مستوى البحر بما يساوي ٤٠٠ قدم وكان من نتيجته أن غمرت المياه مناطق كبيرة كانت يابسة واختفت المعابر الأرضية .

الأقاليم التضاريسية (الشكل ٥) :

سبقت الإشارة إلى أن قارة أوروبا عبارة عن شبه جزيرة كبيرة تتكون من عدة أشباه جزر تحتل الأطراف الغربية من قارة أوراسيا ، وقد لعبت البيئة الطبيعية في أوروبا دورا في تشكيل حياة الناس وأنشطتها الاقتصادية ، كما أن الأوروبيين أحدثوا تغييرات كبيرة في هذه البيئة إلى درجة أن ما يطلق عليه البيئة « الطبيعية » لم يعد لها وجود في أجزاء كثيرة من القارة خاصة تلك الأجزاء التي تتميز بقدوم الاستيطان فيها . وفي هذه الدراسة سنركز على هذا التفاعل بين الإنسان والبيئة . ونسبة لتنوع سطح القارة وتباين تضاريسها سندرس هنا ثلاثة أنواع من هذه التضاريس : الجبال والسهول والمرتفعات (الشكل ٥) .

(أ) المناطق الجبلية :

تنحصر المناطق ذات التضاريس الجبلية الشديدة في النصف الجنوبي من أوروبا كما يوجد جزء صغير من هذه التضاريس في الشمال في شبه جزيرة اسكندناوه ، وتتميز الجبال الأوروبية بامتدادها في اتجاه شرق - غربي على عكس سلسلة جبال الروكي في أمريكا الشمالية وجبال الأنديز في أمريكا الجنوبية ، وكما سيتضح لنا عند دراستنا



شكل (٥)

الشكل (٥) : الأقاليم التضاريسية في أوروبا .

(أ) الجبال :

- (١) جبال بيتكو . (٢) سيرا مورينا (٣) سيرا الوسطى (٤) جبال أيريا (٥)
- جبال البرانس (٦) كولديرا كنتاريا (٧) جبال الألب . (٨) جبال الألباين (٩)
- الألب الديناريه (١٠) جبال الكروات . (١١) جبال البلقان (١٢)
- روروب (١٣) جبال كيولن .

(ب) المرتفعات (التلال) :

- (١) هضبة الميزينا . (٢) الهضبة الوسطى . (٣) بريتاني (هضبة
- آرموريكا) . (٤) كورنول . (٥) البتاين . (٦) مرتفعات اسكتلنده . (٧) الهضبة
- السويسريه . (٨)
- (٩) هضبة الراين . (١٠) الغابة
- السوداء . (١١) هضبة بوهيميا .

(ج) السهول :

- (١) سهل الأندلس . (٢) قشتاله الجديده (٣) قشتاله القديمه . (٤) وادي
- ابرو . (٥) حوض اكوئين . (٦) حوض بلريس . (٧) الفلاندرز . (٨) الاراضي
- المنخفضة . (٩) وادي البو (لبارديا) . (١٠) حوض الجر (١١) سهل
- ولاشيا . (١٢) السهل الانجليزي . (١٣) سهل اسكانيا .

للمناخ فإن لهذا الاتجاه أثر مناخى كبير. وتتكون هذه السلاسل الجبلية من الغرب إلى الشرق من الجبال الآتية : -

(١) جبال بيتيكو Betico التى تمتد فى محازاة الساحل الجنوبى الشرقى من أسبانيا وهى عبارة عن مجموعة من الحافات الفقيرة التى تتخللها وديان طويلة وتمتد من جبل طارق فى الجنوب الغربى إلى فالنسيا فى الشمال الشرقى حيث تغطس الجبال تحت الماء وتظهر مرة أخرى فى جزر البليارى . وكانت هذه الجبال هى آخر معقل للعرب فى أوروبا بعد أن أجلوا من باقى أجزاء أسبانيا حيث تركوا آثارهم واضحة فى مبانى مدينة غرناطة الواقعة فى أحد الأودية الطويلة عند حضيض مرتفعات سيرانفادا - Sierra Nevada وفى أقصى الجنوب تطل هذه الحافة على البحر موجدة ساحلا صخريا جميلا وفى بعض الأجزاء تبعد الجبال عن الساحل حيث نجد جيوبا من السهول الساحلية التى تعرف باسم الهويرتاس Huertas (وتعنى البستان) ، وتشتهر هذه الجيوب بتربها الخصبة وزراعتها المروية المكثفة كما فى بستان « فالنسيا » الذى يشتهر بمحاثق البرتقال . أما جبال أيبيريا Iberian Mts. فهى أقل ارتفاعا من جبال بيتيكو وهى فى الحقيقة امتداد للأخيرة نحو الداخل فى اتجاه شمالى وشمالى غربى من منطقة فالنسيا ، ونسبة لارتفاعها المعتدل (٢٣١٠ متر) فهى لا تشكل أية عقبة فى وجه المواصلات . أما جبال « سيرا الوسطى » والتى تعرف باسماء محلية عديدة فتمتد فى اتجاه شرق - غرب عبر المناطق الداخلية من شبه جزيرة أيبيريا .

(٢) جبال البرانس Pyrennes :

تمتد هذه الجبال العالية على طول الحدود بين فرنسا وأسبانيا فى اتجاه شرقى - غربى وتكون حاجزا جبليا فى معظم أجزائها إلا عند أطرافها حيث توجد ممرات ساحلية عبرت من خلالها جيوش العرب فى عام ٧١٠ ميلادية وجيوش أخرى فى كلا الاتجاهين . ولم تقطع الأنهار التى تنحدر من كلا جانبي الحافة الرئيسية من الجبال ممرات عبرها مما جعل هذا الجزء من البرانس صعب الاجتياز لوعورتها . وبقاء شعب أندورا Andorra ، الذى كان يعتمد على التهريب عبر الحدود بين الدولتين كأساس لمعيشته ، يرجع أساسا إلى الانعزالية التى فرضتها وعورة الجبال . وتمثل

كورديليرا كانتابريا Cordillera Cantabria التي يبلغ ارتفاعها ما بين ٢٦٠٠ إلى ٢٧٥٠ مترا امتدادا غربيا لجبال البرانس في محاذة الساحل الشمالى لاسبانيا .

(٣) جبال الألب The Alps

هى أعلى جبال أوروبا وأكثرها شهرة وتمتد شرقا فى شكل قوس من الريفيرا الفرنسية عبر سويسره إلى غابات فيينا التى تقع على شاطئ نهر الدانوب . ويعرف كل جزء من هذه الجبال بأسماء محلية لأحصرها مثل الألب البحرية Alpes Maritime و Berner Alpen و Alpi Dolomitiche و Juliske و Alpe ولتسهيل الوصف يمكن أن نقسم سلسلة الجبال الألبية إلى قسمين : غربى وشرقى ويفصلهما خط يربط بين بحيرتى كونستانس فى سويسره وكومر Come فى شمال إيطاليا . ويتميز الجزء الغربى بعلوه وضيقه بالمقارنة مع الجزء الشرقى كما تتخلله أودية عميقة وبقايا ثلاجات جبلية ضخمة . وهنا يقع الجبل الأبيض Mon Blanc أعلى قم أوروبا إذ يصل ارتفاعه إلى ٨١٣٠ متر ، وتوجد أودية ذات جوانب شديدة الانحدار وبطون واسعة تحتها ثلاجات العصر الجليدى وتصل إلى عمق ٢٧٥٠ متر من القمم المجاورة .

ويضيق هذا الجزء بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط عند الألب البحرية حيث تتكون السلسلة من حافة يصل عرضها الى حوالى ٥٠ كم . أما فى سويسره فتوجد حافتان يفصلهما واد طويل يجرى من الشرق إلى الغرب توجد فيه منابع نهري الراين والدانوب .

أما الجزء الشرقى من جبال الألب فيتسم باتساعه من الشمال إلى الجنوب إذ يصل عرضه إلى ٢٤٠ كم عند خط يصل بين فيرونا Verona وميونخ Munchen وبدلا من واد طويل كما فى الغرب نجد أكثر من واد يصل عدده أحيانا إلى أربعة توجه مجارى أنهار كثيرة مثل أن Inn | أديج | Adige | ومور | Mur | ودراو | Drau . وقبلما ترتفع قم الجبال هنا إلى أكثر من ٣٠٠٠ متر .

ورغم عظمة جبال الألب ووعورتها وارتفاعها فلأنها لم تكن عقبة أو حاجزا أمام الإنسان وتحركاته نظرا لوجود ممرات منخفضة عديدة يمكن أن تسلكها الجيوش

بسهولة ويسر مما حدا بالإيطاليين إلى أن يطلقوا عليها اسم «الخائن العظيم Magnificent Traitor» لأنها توحى بحماية وأمن زائفين . فعبر هذه الحواجز الطبيعية غزا هانيبعل القرطاجي شمال إيطاليا وأتت القبائل الجرمانية وتسببت في سقوط الأمبراطورية الرومانية . وفي الجزء الغربى من الألب تخترق أنهار الرون Rhone والراين Rhine وريوس Reus الحافة الشمالية في سويسره في طريقها إلى السهول ، وتتيح هذه الفجوات النهرية الاتصال بالوادي الطولى في الداخل من ناحية الشمال كما تسببت فروع هذه الأنهار التى تنحدر من الجنوب في اختراق الحافة الجنوبية في مواجهة الفروع التى تنحدر الى نهر البو Po مسببة مجموعة من الممرات المنخفضة مثل ممر سان برنارد St. Barnard . (٢٤٧٠ متر) وممر سيمبلون Simplon (٢٠١٠ متر) اللذين يقعان على طريق قديم بين إيطاليا وفرنسا ، وممر سان جوتار St. Gotthard . وممر سيلوقن Syplugen (٢١٠٠ متر) اللذين يربطان بين إيطاليا والمناطق الناطقة باللغة الألمانية . أما في الجزء الشرقى من الألب يمثل ممر برنر Brenner (١٣٧٥ متر) الذى نخته فروع نهري « أن » و « أدبيج » عبر الحافة الوسطى أهم الممرات الموجودة في هذا الجزء ، كما توجد فجوات نهرية شقتها الأنهار المذكورة في الحافتين الجنوبية والشمالية .

(٤) جبال الأبنين Appennini :

تحتل جبال الأبنين وسط شبه جزيرة إيطاليا وتمتد من الشمال إلى الجنوب وتتفرع من جبال الألب البحرية في منطقة الريفيرا وتمتد في محاذة ساحل خليج جنوه ثم تنقوس في اتجاه الجنوب الشرقى إلى ساحل الأدرياتي ثم تتجه جنوبا وغربا إلى أن تصل إلى ساحل إيطاليا الغربى عند أقصى طرف لها . وهنا تختفى تحت مضيق مسينا ليظهر مرة أخرى في صقلية . وتتميز جبال الأبنين الجنوبية وجبال صقلية بكثرة براكينها النشطة مثل بركان فيزوف بالقرب من نابلى الذى ثار في عام ٧٩ ميلادية ودمر مدينة بومباي ، وبركان أتنا 'Etna' الذى ثار خمسمائة مرة خلال الألفى وأربعمئة سنة الأخيرة وأهلك ما يقرب من مليون شخص . أما بركان سترومبولي Stromboli الثائر دائما فيحتل جزيرة صغيرة تقع إلى شمال صقلية .

(٥) جبال الألب الدينارية Dinaric Alps :

تبدأ هذه السلسلة عند جبال الألب بالقرب من نقطة التقاء إيطاليا ويوغسلافيا والمسا ومنها تمتد نحو الجنوب الشرقى على طول الساحل الأدرياتي عبر يوغسلافيا والباينا واليونان إلى أطراف ييلوبونيزيا . وتتميز هذه الجبال بتضرسها الشديد ووعورتها خاصة في منطقة الكارست Karst حيث توجد البالوعات والمنخفضات التي تعرف باسم dolines وبولييجي Polje ذات التربة الخصبة الصالحة للزراعة . وتتكون هذه الظاهرات الجيومرفولوجية في المناطق الجيرية ذات النفاذية نتيجة تسرب الماء من خلالها . ونسبة لوعورة سطحها وصعوبة اجتيازها اتخذت المقاومة اليوغسلافية قاعدتها في جبال الألب الدينارية خلال الحرب الأخيرة . أما أسهل ممر جلي عبر هذه السلسلة فيقع إلى أقصى شمالها حيث يلتقي مع جبال الألب ويعرف باسم ممر شجرة الأجاص Pear Tree Pass ، بالقرب من مدينة بوستونيا Postonjna في يوغسلافيا كما توجد ممرات قليلة تربط بين سهل البحر وسهول إيطاليا . وقد تسلت قبائل الهون Huns والقوط Goths عبر ممر شجرة الاجاص إلى داخل الامبراطورية الرومانية في فترة تدهورها السياسي .

وتتميز جبال الألب الدينارية بكثرة زلازلها التي أودت بحياة الكثيرين من سكان هذه المنطقة . ففي الستينات تعرضت يوغسلافيا لهزات أرضية مروعة دمرت مدينتي أسكوبجي وبانيا لوكا وفي السبعينات شهد الساحل الأدرياتي هزات أرضية كبيرة . وتكثر الوفيات في مثل هذه الهزات نتيجة انهيار المنازل المبنية من الحجر على من فيها ؛ كما كانت جزر بحر إيجه اليونانية مشهدة لثورات بركانية مدمرة مثلما حدث لجزيرة تيرا Thira (سانتوريني) البركانية التي ثارت وانهارت بقوة هائلة في حوالى ١٤١١ ق . م مسببة أمواجاً جزرية هائلة (حوالى ٣٠ متر في علوها) ضربت الشاطئ الشمالى لجزيرة كريت واختفت بعدها جزيرة تيرا جزئيا من على خريطة المنطقة .

(٦) جبال الكريات Carpathians :

إلى الشرق من مدينة فينا وعبر نهر الدانوب في تشكوسلوفاكيا تقع جبال

الكربات التي تعتبر امتدادا لجبال الألب وتتخذ شكلا مقوسا يمتد خلال سلوفينيا وجنوب بولنده وتحتل ركننا من أوكرانيا ورومانيا وتنتهى كما بدأت عند شاطئ نهر الدانوب عند البوابة الحديدية . ويطلق الجزء الجنوبي من جبال الكربات الواقع داخل رومانيا اسم الألب الترانسيلفانية Transylvanian Alps ويعرف محليا بجبال كربات الوسطى . وتتميز هذه الجبال باعتدال ارتفاعها الذى لا يتعدى ٢٥٠٠ مترا فى بعض قممها وكذلك ضيقها وكثرة الممرات التى تُغْرِقها . وفى جنوب البوابة الحديدية تواصل الكربات امتدادها فى بلغاريا وشرق يوغسلافيا باسم سلسلة البلقان (استارا بلانينا Stara Planina) وجبال رودوب Rhodope أو Rodopi

(٧) سلسلة جبال كيولن Kjold :

تمتد هذه السلسلة فى وسط شبه جزيرة اسكندناوه وقد تعرضت لعوامل التعرية أثناء العصر الجليدى وما زالت بعض الثلجات باقية إلى اليوم . ونتيجة لهذه التعرية تفتقر هذه السلسلة إلى غطاء ترابى كما تكثُر الفيوردات على سواحلها ، ومن أشهر هذه الفيوردات وأكبرها فيورد هاردنجر Hardangerfjord ، وتتميز هذه السلسلة بقلّة سكانها لبرودتها وقسوة بيئتها إلا أن بعض قبائل اللاب التى احتمت فيها واتخذتها ملجأ وتقوم برعى قطعان الرنة بها .

(ب) السهول .

تمثل السهول الأوروبية والمناطق المنخفضة فيها بؤرة النشاطات البشرية المختلفة ومن ثم كانت أهميتها بالنسبة للحضارة الأوروبية ويوجد معظم هذه السهول فى الأجزاء الشمالية والشرقية من القارة فى حين أن المناطق الجنوبية تسودها الجبال . ويمتد أكبر المناطق السهلية المتصلة من سفوح جبال البرانس فى جنوب فرنسا فى شكل قوس فى اتجاه الشمال على طول الساحل الأطلنطى وشواطئ بحر الشمال إلى الأراضى الألمانية حيث يبدأ السهل فى الاتساع عبر بولنده وشرقا إلى داخل روسيا حيث يصل أكبر اتساع له إذ يغطى عرض القارة . ويعرف هذا السهل باسمين : السهل الأوروبى الشمالى وسهل أوروبا الشرقية . ويتكون هذا السهل من أجزاء

متعددة لكل جزء منه أهميته البالغة لشعوب القارة . ومن ثم يمكن تقسيمه من الغرب إلى الشرق إلى الأجزاء التالية : -

١- سهل أكوتين Aquitaine :

يقع هذا الحوض في جنوب فرنسا ويقوم بتصريفه نهر جارون الذي يمر بمدينتي بوردو وطولوز . ويتكون الحوض عموما من تربات جيوية خصبة إلا في ذلك الجزء الذي يطل على الساحل الأطلنطي الذي يتكون من تربة رملية فقيرة التصريف وقليلة السكان ويعرف بأقليم اللاندا 'Landes' . ويتصل هذا الجزء بحوض أكوتين عبر ممرات ضيقة في الشرق والشمال . ويفتح ممر كاركسون Carcassonne سرقا على ساحل البحر المتوسط بينما تقع بوابة بواتيه 'Gate of Poitou' إلى الشمال وهي ممر سهلي عرضه حوالي ٦٥ كم ويؤدي إلى داخل فرنسا في اتجاه باريس وقد دخلت القوات الاسلامية الحوض عبر بوابة كاركسون واتجهوا شمالا نحو بوابة بواتيه حيث هزموا على يد القوات الفرنكية . وفي وقت لاحق أصبح الحوض موصفا لنواة طبيعية لنمو وتطور دولتي الكويتين وغاسكونيا Gascogne الإقطاعيتين وكان اتجاه الحوض نحو المحيط الأطلسي سببا في وقوعه تحت سيطرة ملوك إنجلترا فيما بعد .

٢- حوض باريس 'Paris Basin' :

يحتل هذا الحوض جزءا كبيرا من شمال فرنسا ، ويتكون من مجموعة من الأحواض المتوازية التي تتسع في اتجاه الخارج من جزيرة فرنسا 'Ile de France' التي تكون أصغر الأحواض حجما وتقع في الوسط وتوجد بها العاصمة باريس . وترتفع الأرض في كل اتجاه من المدينة حتى تصل إلى الكويستا الخارجية ومن سطح هذه الكويستا تبدأ المنطقة الريفية في ارتفاعها حتى تصل إلى كويستا أخرى وهكذا نجد عددا من الكويستات كما في الشرق حيث توجد سبع كويستات متقطعة الشكل ، ونسبة للوجهة الخارجية لهذه الكويستات فقد كانت لها قيمة دفاعية كبيرة في حروب فرنسا مع ألمانيا وكان الوصول إلى باريس يتطلب من الغزاة اقتحام هذه الحيطان الطبيعية وتحصينات الفرنسيين خاصة في الشرق والشمال ، وكانت مدينة فيردون 'Verdun' التي تقع في سفح إحدى الكويستات الشرقية مسرحا لحرب

ضروس لمدة ستة أشهر في الحرب العالمية الأولى راح ضحيتها ٦٠٠,٠٠٠ شخص من الألمان والفرنسيين في سبيل السيطرة على هذا المنحدر الاستراتيجي .

٣ - السهل الانجليزي :

يحتل هذا السهل الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة البريطانية ويكون من نواح عديدة امتدادا لحوض باريس إذ توجد به مجموعة من الكويستات التي تتجه نحو الغرب ، أما مرتفعات شيلترن Chilterns وكوتسولد Cotswold فتقع على طول الكويستات وتغطي الغابات أجزاء كبيرة منها . وتوجد أودية طويلة ذات اتجاه جنوب غربي - شمال شرقي عند السفح الشرقي لهذه المنحدرات مثل وادي أكسفورد Vole of Oxford وسهل الفن Fens الذي كان تغطيه المستنقعات . وكما حدث في حوض باريس كان السهل الانجليزي نواة للدولة الانجليزية التي أنشأتها القبائل الجرمانية الوافدة من القارة .

٤ - سهل الفلاندرز Flanders :

يبدأ السهل الأوروبي في الضيق في اتجاه شمالي من حوض باريس مكونا بوابة واسعة تتمركز في غربه بلجيكا ، ولوقع هذا السهل قيمة استراتيجية إذ هزم نابليون في مدينة واترلو Waterloo الواقعة هنا ، ويمكن أن نعزو وجود بلجيكا كدولة مستقلة جزئيا إلى عدم رغبة كل من فرنسا وألمانيا في السماح للأخرى باحتلال هذه المنطقة الاستراتيجية .

٥ - الأراضي المنخفضة :

تقع هذه الأراضي التي تتكون من سهل شديد الانبساط إلى الشمال من سهل الفلاندرز وهي عبارة عن دلتا كونتها أنهار الراين والماس والشلد والامز وأنهار أخرى صغيرة . ويقع معظم هذه الأراضي في هولنده (نيدرلاند Netherlands) أو ندرلاند Nederland التي تعني « الأرض المنخفضة أو السفلية » إذ يقع جزء كبير من هذه الأراضي تحت مستوى البحر ويشكل الانخفاض المستمر لها مستقبلا قائما على المدى البعيد . وتتميز هذه الأراضي التي استصلحها الهولنديون ويكافحون

للمحافظة عليها بالخصوبة ولكن هناك أجزاء منها تتكون من تربات رملية ومناطق مستنقعية وسبخية تشمل إقليم كيمبفلاند Kempenland على الحدود البلجيكية الهولندية .

٦ - السهل الألماني الشمالى North German Plain

تندمج الأراضي المنخفضة تدريجيا مع السهل الألماني الشمالى الذى يشمل حسب التعريف التقليدى شمال ألمانيا وكل الدنمارك وأجزاء كبيرة من بولنده . ويبدأ السهل فى الاتساع فى اتجاه الشرق من ١٦٠ كم عند التقائه بالأراضي المنخفضة إلى ٤٨٠ كم فى بولنده . ويختلف هذا السهل من الأراضي المنخفضة فى أن سطحه كثير التعاريج ويتميز بعدم الانتظام نتيجة تعرضه للتعرية الجليدية من الثلجات التى انتشرت جنوبا من منطقة اسكندناوه ويتناثر على السطح سلاسل متوازية من الركامات والارسابات الجليدية التى تمتد فى اتجاه شرق - غرب عبر السهل الألماني من شبه جزيرة جيلاند الدنماركية Jylland إلى بولنده الشمالية فى محاذة الشاطئ البلى ، وتوجد بين هذه السلاسل نطاقات واسعة تغطيها طبقة من الركامات السفلية أو العزق Till الذى يتميز سطحه بعدم الانتظام إذ توجد بها منخفضات يحتوى بعضها على بحيرات وتنحصر فى المناطق الساحلية من السهل الألماني حول بحر البلطيق . ولم تحمل المناطق الواقعة خارج الثلجات الجليدية من تأثيرها إذ كانت الأنهار الصغيرة تحمل ذرات الرمل الناعمة والحصى وترسبها مكونة ما يسمى بسهول الدرش outwash التى تكون حتى اليوم مناطق غير خصبة تنمو فيها نباتات الخلنج Heath (وتسمى القيس Geest) مثل خلنج لونبيرجر فى جنوب مدينة هامبورج . ولكن العصر الجليدى كان أيضا سببا فى وجود مناطق خصبة جدا فى ألمانيا فقد حملت الرياح ذرات دقيقة من الارسابات الجليدية جنوبا وأرسبتها عند سفح التلال مكونة ما يسمى بتربة اللويس Loess المعروفة بخصوبتها الشديدة وسهولة تفتتها . وقد تجمعت أكثر تربات اللويس عمقا فى تجاويف السهل الشمالى التى تعرف بالبورده Borden التى تمتد فى بعض المناطق إلى داخل التلال الوسطى وقد جذبت هذه المنطقة كثافة سكانية عالية منذ بداية الزراعة فى ألمانيا بينما كانت

المناطق ذات التربة الرملية الفقيرة (Geest) أقلها من حيث الكثافة السكانية ومسرحا لرعى الضأن . وفي منطقة اللويس نشأت دولة بروسيا التي توحدت ألمانيا تحت سلطتها . ويمكن أن نفسر النزعة العسكرية عند البروسيين بحاجتهم للدفاع عن أنفسهم في هذه المنطقة المكشوفة التي تخلو من الموانع الطبيعية .

٧ - سهول اسكندناوه :

يمكن أن نعتبر معظم المنطقة الجنوبية من السويد وجزءا من فنلنده سهولا وإن كان من الصعب إطلاق اسم موحد عليها . وقد تعرضت هذه السهول أيضا للتعرية الجليدية وتبدو آثارها في حافيتين فقيرتين كبيرتين تعرف باسم « سالبوسيلكا » Salpausselka وتجري موازية للساحل الجنوبي لفنلنده وخلفها توجد مجموعة كبيرة من البحيرات . كما تكثر بحيرات الأسكر Eskers في أواسط فنلنده حيث تستخدم كوسيلة نقل بين أجزاء الدولة المختلفة .

٨ - سهول أوروبا الشرقية :

يبدأ السهل في الاتساع إلى الشرق من بولنده وفنلنده ليشمل امتداد عرض روسيا من الجنوب إلى الشمال ، ويمكن أن نطلق على هذه المنطقة اسم سهول أوروبا الشرقية رغم أن أجزاء منها تحمل أسماء محلية مثل حوض المن Ilmen Basin ومنخفض دنيبر Dneper Basin . وتوجد بعض التلال المنخفضة المتناثرة التي تغير من المنظر الرتيب لهذه السهول التي تمتد على مدى البصر . كما توجد ثلاث حافات ذات وجهة جنوبية في النصف الجنوبي من هذه السهول وتجري أنهار الدنيبر والدون والفولجا عند السفح الشرق لإحدى هذه الحافات بينما تقطعت هضبة الكويستات بواسطة التعرية لتكون سهولا متموجة وتلالا منخفضة ، كما يظهر القطاع الشالى من السهول سطوحا غير منتظمة نتيجة التعرية الجليدية التي ساعدت في تشكيل كثير من الظواهر التي تتميز بها .

وتمثل هذه السهول موطن الشعوب السلافية التي استطاعت الصمود ضد عديد من الغزاة وإلحاق الهزيمة بهم ، وتكوين أمة قوية هي الاتحاد السوفيتي . وفي هذه

السهول الشاسعة ذات المناخ القارى هزمت جيوش نابليون وهتلر كما أن فيها كسرت
سكوة كثير من القبائل المغيرة مثل التتر والأتراك

٩ . سهل ولاشيا (Valachia, Walachia) :

يكون هذا السهل امتدادا ضيقا من السهل الأوروبي الشرقى من ناحية الغرب
حول مجرى نهر الدانوب الأدنى فى جنوب رومانيا ، وشهد هذا السهل مرور العديد
من القبائل من المهاجرين والغزاة عبره نذكر منهم الهون Huns والصقالبه Slavs
والمغايار Magyars والمغول Mengols . ويكون سهل ولاشيا قلب رومانيا
التي استطاعت أن تحافظ على اللغة الرومانسية وسط هذه المنطقة السلافية .

١٠ . حوض المجر :

هذا الحوض من ضمن المناطق السهلية المنبسطة التي توجد متناثرة فى الجنوب
وسط السلاسل الجبلية . والتي لها أهمية كبرى من الناحية الاقتصادية رغم صغر
أحجامها بالمقارنة مع السهول المذكورة آنفا . ويمثل حوض المجر أكبر هذه المناطق
السهلية ويوجد على جانبي القطاع الأوسط من نهر الدانوب ويمتد من المجر إلى حدود
غسلافيا والنمسا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى وتحيط به من الشمال
شرق جبال الكربات ومن الجنوب جبال الألب الدينارية وجبال الألب النمساوية
من الغرب ، ولكن الحوض سهل الاتصال عبر ممرات عديدة . فإيطاليا يمكن
الاتصال بها عن طريق ممر شجرة الأجاص Pear Tree Pass بينما يقع سهل ولاشيا
جنوب روسيا خلف البوابة الحديدية على الدانوب حيث يفصل النهر جبال الكربات
من سلسلة جبال البلقان ، وعند الركن الشمالى الغربى من الحوض تتيح بوابة مورافيا
الاتصال بسهول بولنده بينما يؤدى وادى الدانوب الأعلى إلى ما بعد فيينا وجنوب
ألمانيا . أما اليونان ومنطقة بحر إيجه فيمكن الوصول إليها من خلال منخفض
مورافيا - الفاردار Morava - Vardar وهو وادى إنكسارى يقع بين سلسلتى جبال
البلقان والألب الدينارية ، كما توجد ممرات كثيرة منخفضة فى جبال الكربات تقود
الى روسيا . وعبر هذه الممرات العديدة وجدت مجموعات لغوية عديدة طريقها إلى
الحوض إما كغزاة أو كمهاجرين لاجئين ، ولذلك كان لهذا الحوض تاريخ

مضطرب . فقد كان منطقة صراع بين الرومان والقبائل البربرية وبين الأتراك المسلمين والمسيحيين وبين قبائل الهون والألمان وبين الماغيار والصقالبة ، كما كانت هذه الممرات تكون منافذ تجارية تنقل عبرها - خاصة بوابة مورافيا - البضائع منذ آلاف السنين .

١١ - وادى نهر البو Po (سهل لمبارديا) :

يمثل وادى البو أكبر المناطق السهلية فى إيطاليا وهو فى الواقع استمرار للمنخفض البنيوى الذى يحتل البحر الأدرياتي جزءا منه وملئت بالمواد التى جلبتها الأنهار من الجبال المحيطة . وقد أرسبت التلجالات المنحدرة من جبال الألب إلى أطراف الوادى ركائباً تسببت فى حجز مقببات فروع الأودية الألبية مكونة مجموعة الطبيعية من البحيرات الطبيعية مثل « كومو Come » و « ماغيورى Maggiore » و « لوغانو Lugano » و « إيسو Isco » و « جاردا Garda » . وإلى الجنوب من الحواجز الركامية توجد سهول درشيه 'Outwash' وخلفها يقع الجزء الأكبر من وادى البو ذات التربات الغرينية الخصبة . وعند التقاء سهول الدرش والتربات الغرينية يصل منسوب المياه الجوفية إلى السطح مما أدى إلى وجود خط من الينابيع يمتد من الشرق إلى الغرب يعرف باسم « فونتانيلى Fontanili » تتجمع حولها المساكن منذ وقت طويل ويضم الوادى مجموعة من المدن مثل تورينو وميلانو كما توجد مجموعة أخرى من المدن على طول الطرف الجنوبي من الوادى عند سفح جبال الابناين مثل « بارما Parma » و « مودينا Modena » و « بولونيا Bologna » أما الجزء الغربى من الوادى فيكون قلب إيطاليا الصناعى كما يحتوى على نواة الدولة الحديثة (بيمنت) .

١٢ - سهل لانقويديوك Languedoc :

يمثل هذا السهل بوابة فرنسا إلى حوض البحر المتوسط . وهو عبارة عن سهل ساحلى ضيق يمتد من جبال البرانس إلى منطقة الريفيرا كما يتصل بباقي أجزاء فرنسا عن طريق ممرين : بوابة كاركسون إلى حوض أكويتين من الغرب وممر الرون ساوون Rhone-Saone شمالا إلى حوض باريس .

١٣- سهول شبه جزيرة أيبيريا :

تقسم السلاسل الجبلية شبه جزيرة أيبيريا إلى مجموعة من السهول المنفصلة يمثل كل حوض منها موطناً لمجموعات حضارية متميزة وينحصر سهل الأندلس بين جبال بيتكو Betico وسييرا موريا Sierra Morena في جنوب أسبانيا ويتميز ببساتين أشجار الزيتون والأسماء العربية ويشقه نهر الوادي الكبير Rio Guadalquivir

أما السهل البرتغالي فيطل على المحيط الأطلنطي ويعد أكتف مناطقها سكاناً وزراعة . وبينما يمثل وادي نهر الابرو Ebro والسهل الساحلي المجاور في شمال شرق أسبانيا موطن قطلونيا الذين يتكلمون لغة رومانسية فريدة . أما سهول أسبانيا الداخلية التي يسكنها القسطلبيون ففيها تتركز السلطة السياسية . وتحتل هضبة الميزيتا وسط شبه الجزيرة وتنقسم إلى منطقتين بواسطة جبال سييرا الوسطى : منطقة حوض قسطله القديمة في الشمال وحوض قسطله الجديدة في الجنوب الذي يشمل سهول لامانشا La Mancha وبها العاصمة مدريد .

وتوجد سهول صغيرة متناثرة في أجزاء كثيرة من جنوب أوروبا لها أهميتها المحلية زراعياً .

(ج) المرتفعات .

تحتل المرتفعات الأجزاء الوسطى من القارة الأوروبية ، ويمتد نطاق ممزق من التلال والجبال المنخفضة من نورماندى وبريتاني في الغرب وعبر فرنسا وألمانيا الوسطى إلى تشكوسلوفاكيا الغربية في الشرق وتتكون هذه المنطقة كلها من مرتفعات ذات أسماء محلية متميزة وتتخللها وديان وأحواض صغيرة وممرات منخفضة . ومن أشهر هذه المرتفعات الهضبة الفرنسية الوسطى Central Massif والأردن Ardennes في بلجيكا ولوكسمبورج والفورج Vosges والغابة السوداء Black Forest في الحدود الفرنسية والألمانية ، والجورا Jura التي تمتد من سويسرا وفرنسا إلى داخل جنوب ألمانيا ، والهارتز Hartz وارزبيرج Erzbbirge وغابة ثورينجر Thuringer Forest في ألمانيا الشرقية والسوديتز Sudetes

و غابة بوهيميا Bohemian Forest على حدود تشكوسلوفاكيا . ومن المنخفضات المتناثرة وسط هذه التلال ممر الرون - ساوون إلى الشرق من الهضبة الفرنسية الذى يؤدى فرع منه إلى سهل الراين الأعلى عبر بوابة بلفورت أو بورغنديا Belfort or Burgundia الواقعة بين جبال الفوزج وجورا . ويوجد سهل مرتفع بين جبال جورا والألب فى الهضبة السويسرية والبفارية ، بينما يوجد حوض بوهيميا فى غرب تشكوسلوفاكيا . وقد لعبت هذه السهول دورا مهما كطريق للغزاة ومسلك للتجار فيما منحت التلال الحماية وأصبحت ملاجئ لكثير من القبائل المستضعفة .

وتوجد مجموعة من المرتفعات فى الجزر البريطانية مثل كورنويل Cornwall وجبال كامبريا Cambria والبنائن ومنطقة البحيرات ومرتفعات أسكتلنده ، تم جبال نوكميلداون Knockmealdown ومورن Mourne وكوبجارا 'Connemara' وكبرى فى أيرلنده . وتمثل هذه المرتفعات ملاجئ الشعوب الناطقة باللغة السلتية والغالية التى احتلت بها تحت ضغط الشعوب الجرمانية التى نزحت إلى الجزر البريطانية .

الفصل الثالث

مناخ أوروبا

(١) العوامل التى تتحكم فى مناخ القارة :

لكى نفهم مناخ أى جزء من أجزاء العالم يجب أن نضع فى اعتبارنا عاملين مؤثرين :

أولا : العامل الأرضى وخاصة الموقع المطلق على الكرة الأرضية والوضع بالنسبة للكتل المائية والأرضية وتضاريس الأرض .

ثانيا : عامل المؤثرات الجوية التى يمكن فهمها بدراسة عناصر المناخ .

وفى ما يختص بأوروبا يمكن تلخيص المؤثرات الأرضية فيما يأتى :

١ -- أوروبا هى القارة الوحيدة التى تقع كلية بين العروض المعتدلة (٣١° و ٧١° شمالا) فساحلها الجنوى يقع إلى الشمال من مدار السرطان ($23\frac{1}{4}$ درجة شمالا) فى حين أن جزءا صغيرا منها يمتد خلف الدائرة القطبية الشمالية ($66\frac{1}{4}$ درجة شمالا) . ويمكن أن نطلق على تلك الأجزاء المتطرفة من أوروبا تعبير شبه مدارى Subtropical وشبه قطبى Subarctic على التوالى ولكن مناخ هذه المناطق مرتبط ارتباطا وثيقا بالدورة الجوية للأقاليم المعتدلة أكثر من انبساطها بالدورات الجوية المدارية أو القطبية .

٢ تحتل أوروبا الجزء الغربى من أكبر كتلة أرضية وهى قارة آسيا كما تقع حول الأطراف الشرقية لمسطح مائى كبير وهو المحيط الأطلسى .

٣ تخلو أوروبا من جبال اعتراضية كالتى نراها فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تمنع الرياح البحرية المحملة بالرطوبة من التوغل إلى داخل القارة مما يجعلها مفتوحة أيضا لتأثير الرياح الآتية من داخل القارة .

٤ - تمتد سلسلة من الجبال المتصلة من شمال غرب أيريا عبر جنوب وسط فرنسا إلى جنوب شرق أوروبا مما يمنع تبادل الكتل الهوائية المدارية والقطبية بين جنوبي وشمالى هذه السلسلة الجبلية . ولذلك فإن المجموعة الجبلية الألبية . وخاصة أجزاءها الوسطى والغربية ، تمثل تقسيما حادا فى المناخ والطقس بين جزئى أوروبا .

٥ - تحيط بأوروبا مسطحات مائية من ثلاث جهات وتتوغل أجزاء من هذه الأجسام المائية داخل القارة . ومن تأثير هذا الموقع الهام أن حرارة الماء حول الشواطئ القريبة لأوروبا أثناء الشتاء تكون أدفا بكثير من حرارة الأرض المجاورة ولذلك نجد أن الجزء الشمالى الشرقى من المحيط الأطلسى تزود بكيات مستديمة من المياه السطحية الدافئة وذلك عن طريق تيار الخليج الدافئ والتي تدفعها الرياح الجنوبية الغربية نحو الشواطئ الأوروبية . وأهمية تيار الخليج الدافئ كعامل مناخى مبالغ فيه إلى حد ما ... فصحيح أن موانئ غرب أوروبا وشمالى اسكندناوة حتى ميرمانسك تظل خالية من الجليد ومفتوحة طوال العام وذلك من تأثير هذا التيار ولكن أثره على درجة حرارة القارة غير مباشر إذ يتم ذلك بواسطة مياه المحيط الدافئة وخاصة فى فصل الشتاء عندما تتعرض الطبقات السفلى للكتل الهوائية الباردة الآتية من الشمال للتدفئة أثناء مرورها فوق البحر لتصل أوروبا وهى دافئة نسبيا : ولكن السبب الأساسى لاعتدال مناخ غربى أوروبا يرجع إلى الدورة الجوية .

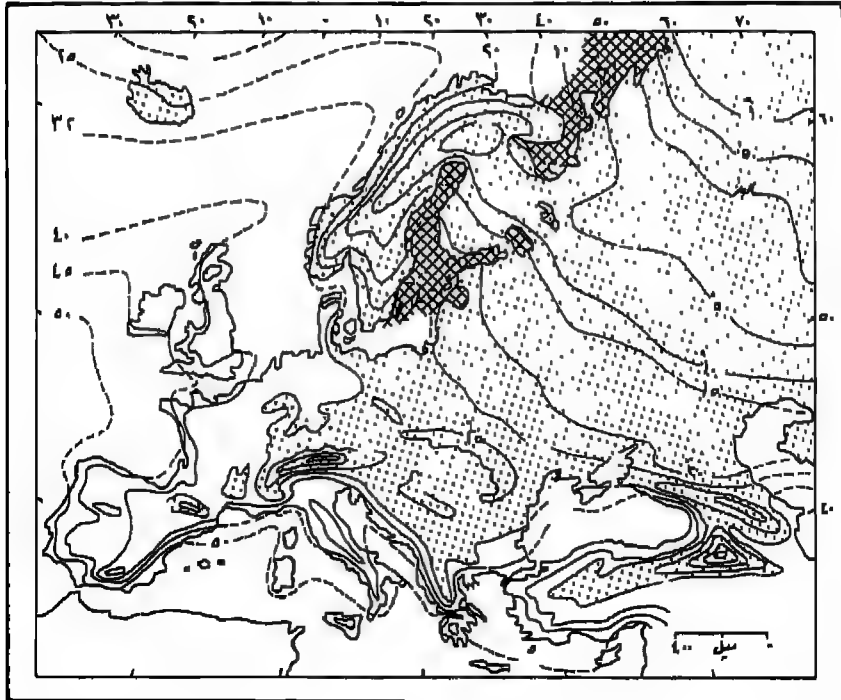
تتحكم خمسة نظم ضغط جوى على الطقس فى أوروبا كلها تتركز خارج أوروبا معظم الوقت ويطلق عليها « مراكز الحركة » لمسؤوليتها فى قيادة وتوجيه كتل هوائية ذات خصائص مختلفة فوق القارة وكذلك فى تحديد اتجاه وسرعة الرياح . وهذه النظم هى : - (الشكل ٦)

١ - منطقة الضغط المنخفض الدائم الكائنة فى شمال الأطلسى بين اسكندناوة وجرينلنده وتعرف عامة بالمنخفض الأيسلندى Icelandic low

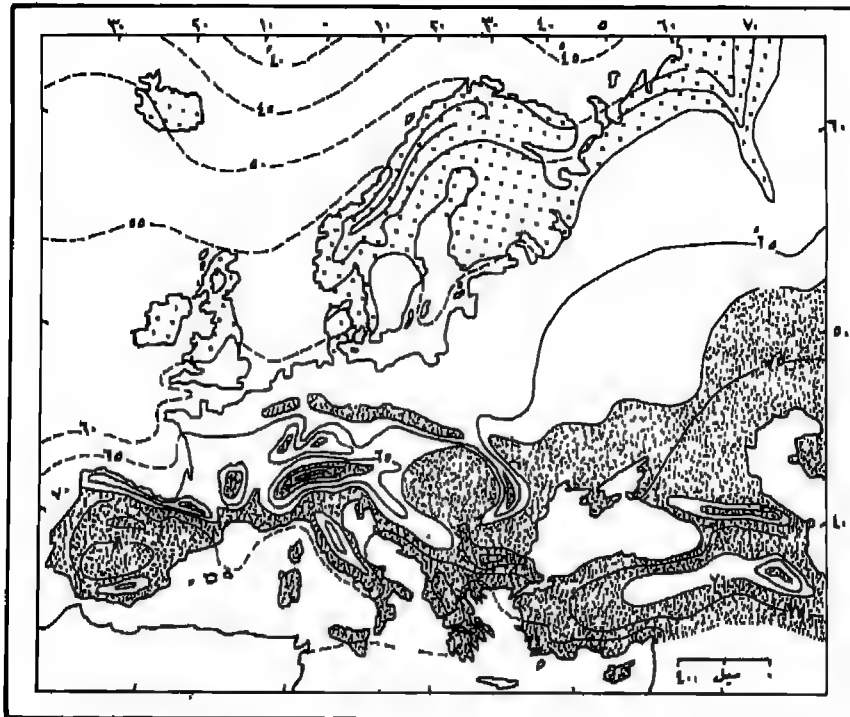
٢ - منطقة الضغط العالى المتمركز باستمرار على المحيط جنوب غرب شبه جزيرة أيريا وتسمى ضغط الآزور العالى : Azores High

توزيع الحرارة في (١) الشتاء (٢) الصيف (المرتفعة)

(١)



(٢)



شكل (٦)

٣ - منطقة الضغط المنخفض في البحر الأبيض المتوسط في الشتاء ويعرف بـ
Mediterranean Low

٤ - مركز الضغط العالي الواقع حول بحيرة بيكال في شمال شرق آسيا في الشتاء
ويسمى الضغط العالي السيبيري Siberian High .

٥ - منطقة الضغط المنخفض في جنوب غربي آسيا ويعرف بالمنخفض الموسمي .

فبينما يتحكم توزيع الضغط على الدورة الجوية . فان الكتل الهوائية Air masses والجبهاات Fronts تمثل في الواقع الأسباب المباشرة وراء أحوال الطقس في أوروبا .
ولأن هناك خمس كتل هوائية رئيسية تؤثر في طقس القارة فصوليا أو بصفة دائمة
فهناك عدة أنواع من الطقس خلال السنة . أما الجبهاات الفاصلة بين الكتل الهوائية
المختلفة فهي تكون في قمة نموها وتطورها في فصل الشتاء عندما يكون التباين الحراري
فوق مناطق مختلفة من القارة والمناطق المجاورة كبيرا . اما الكتل الهوائية الخمسة
فهي : (الشكل ٧) .

جدول ٣ :

الكتل الهوائية : مصادرها وخصائصها

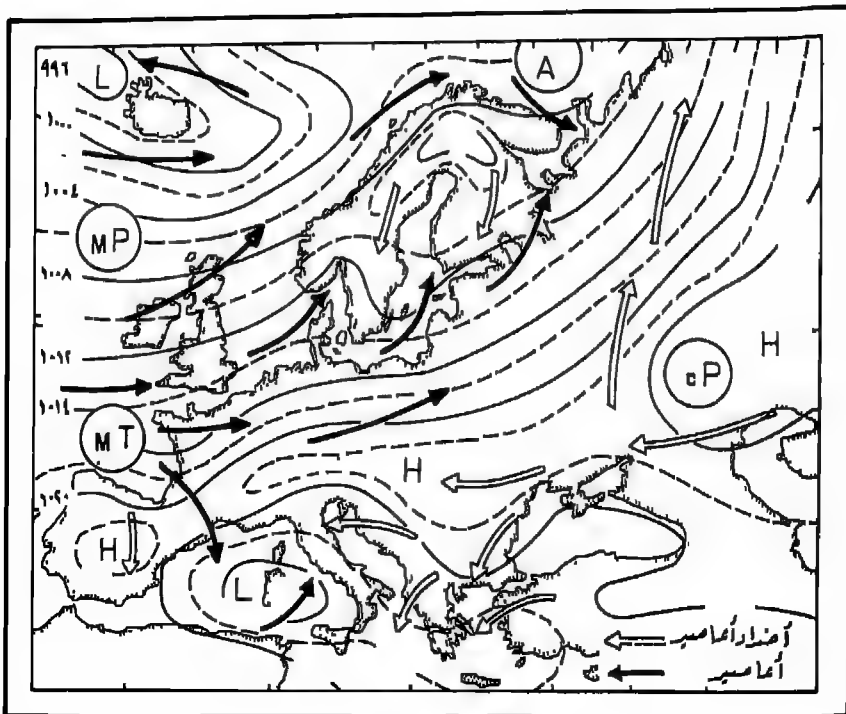
| الكتلة | المصدر | الخصائص | فصل الحدوث |
|--------------------------------|----------------------|-----------------------|----------------|
| ١ - القطبية p | البحر القطبي | بارد جدا وجاف | الشتاء |
| ٢ - القطبية البحرية | شمال الأطلسي | بارد ورطب | طول الشتاء |
| ٣ - القطبية القارية pm c | أوروبا الشرقية وآسيا | بارد وجاف | الشتاء . الصيف |
| ٤ - مدارية بحرية | الأطلسي الأوسط | دافئ وجاف | طول السنة |
| ٥ - مدارية قارية | جنوب غربي آسيا | دافئ ورطب حار وجاف | الصيف |

الأقاليم المناخية (الشكل ٨) :

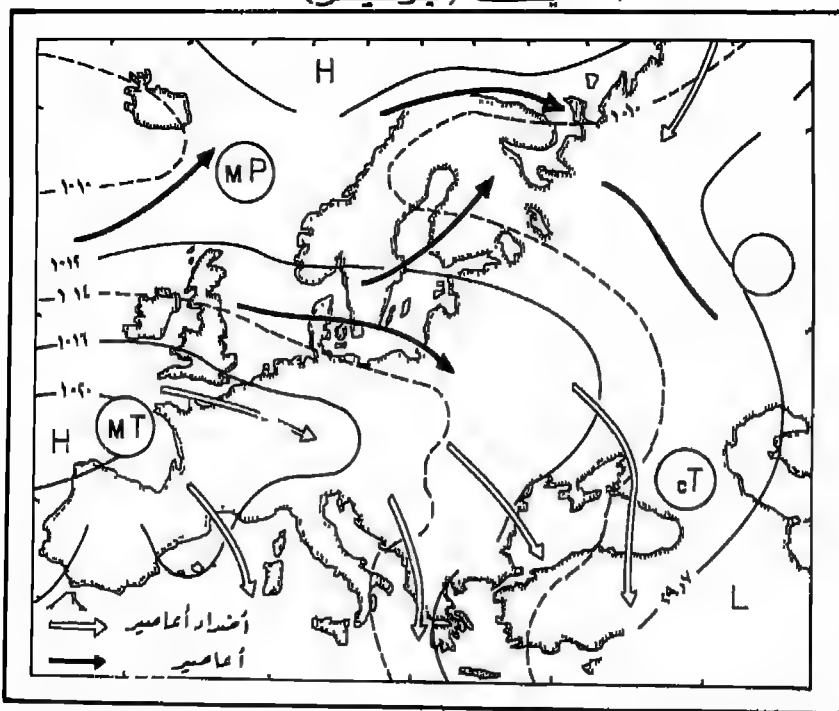
(١) مناخ الساحل الغربي البحري : Maritime West Coast :

يدل الاسم على موقع الإقليم الذي يتمتع بهذا النوع من المناخ وأيضا على الكتل الهوائية
السائدة فيه . يسود هذا المناخ في الجزر البريطانية وشمال شبه جزيرة أيبيريا ومعظم

توزيع الضغط والدورة الجوية والكتل الهوائية
الشتاء (يناير)



الصيف (يوليو)



شكل (V)

أجزاء فرنسا الشمالية والغربية وغرب ألمانيا الغربية والأراضي المنخفضة وجزء من منطقة الفيوردات النرويجية . تتميز الحرارة هنا بالاعتدال طوال السنة : فالشتاء أدفأ نسبيا بينما الصيف معتدل اميل إلى البرودة كما يسدر التجمد عند مستوى البحر ، وحتى في أبرد شهور السنة يبقى متوسط درجة الحرارة فوق الصفر ولكنها تنخفض عامه دون ٧ ° مئوية . أما المدى الحرارى السنوى فإنه صغير ويصل فى المتوسط إلى ١٠ درجات مئوية كما فى دبلن وإلى ٧ درجات مئوية فى تورشافن فى جزر فاروى . وبما يدل على اعتدال شهور الشتاء فى هذا الإقليم أن معظم ليالى لندن الشتوية تكون خالية من الصقيع رغم أن هذا لا يمنع حدوث موجات برد قارصة وإن كان كثير من فصول الشتاء تمر دون مثل هذه الموجات . فى لندن مثلاً انخفضت درجة الحرارة فى فبراير عام ١٩٢٩ إلى ١٦ ° مئوية دون الصفر ، وظلت الحرارة فى حالها من الانخفاض لمدة ٢٢٦ ساعة ولكن وجود بعض أشجار النخيل فى الشواطئ الجنوبية الغربية من أيرلنده يشير دون شك إلى اعتدال الشتاء . أما الصيف فتميز باعتداله المائل للبرودة ، وكما فى بعض شهور الشتاء قد تحدث أحيانا أن نحدج بعض مناطق هذا الإقليم موجات حر تصل أثناءها الحرارة إلى أكثر من ٣٢ ° مئوية (أعلى درجة قياسية فى باريس وصلت إلى ٣٨ ° مئوية) .

ونسبة لأن الكتل الهوائية البحرية تحتوى على كميات كبيرة من الرطوبة فإن هذه السواحل الغربية تتميز برطوبتها العالية وبأمطارها التى تسقط طوال العام ، وعادة ما تتراوح الكمية التى تسقط من الأمطار سنويا ما بين ١٠٠ و ٥٠ سم (٢٠ إلى ٤٠ بوصة) ولكن هناك بعض الأماكن التى تصيبها أمطار أغزر حسب الموقع ، فالأماكن السهلية تتسم بأمطار أقل بالمقارنة مع المناطق المرتفعة الساحلية (ومثلاً باريس ٥٨ سم (٢٣ بوصة) ولندن ٦٢ سم (٢٥ بوصة) سنويا . ونسبة لقلّة التبخر نظرا لانخفاض الحرارة والسحب التى تغطى السماء عادة فإن هذه الكمية من الأمطار رغم قلتها تبعث إلى جو رطب . أما المناطق الواقعة فى أوعد الجهات الغربية من التلال والجبال فإن أمطارها أغزر عادة كما فى فرايبيرج - أم - برايسقاول Freiburg-im-Breisgau فى ألمانيا الغربية والواقعة عند سفح جبال الغابة

السوداء التي يبلغ متوسط أمطارها السنوية ٨٦ سم (٣٤ بوصة) بينما يبلغ متوسط الأمطار السنوية الساقطة على المنحدرات التي تطل على مدينة بيرجن Bergen النرويجية الواقعة على الأطراف الغربية من سلسلة جبال كبولين Kjoln ٢١٣ سم (٨٤ بوصة) ، ويرجع السبب في هذه الزيادة إلى عامل التضاريس التي تتسبب في الارتفاع الإجبارى للكتل الهوائية المحملة بالرطوبة وتكثفها واسقاط ما تحمله من بخار على المنحدرات الغربية .

ورغم هطول الأمطار على مدار السنة فإن كمية التساقط قليل في الحقيقة وينزل معظمه في شكل رزاز وأمطار هادئة . ومثلا يتم سقوط الكمية السنوية من الأمطار التي تهطل في باريس (٥٨ سم أو ٢٣ بوصة) خلال ١٨٨ يوما أى حوالى ٠٫٣٠ سم لكل يوم ممطر وهذا يشمل أكثر من نصف أيام السنة . وقد حدث أن شهدت لندن ٧٢ يوما ممطرا على التوالى . أما السماء فتكون ملبدة معظم الوقت بالغيوم وتقل الأيام المشمسة عادة في كثير من المناطق في الجزر البريطانية يقل عدد الساعات التي تظهر فيها الشمس من ١٥٠٠ ساعة في السنة كما يكثر الضباب والشمورة في كثير من المناطق خاصة الساحلية منها والأماكن المنخفضة الداخلية . وتشهد مدينة دنماركيه في المتوسط ٥٤ يوما ضبابيا في السنة وهذا الجو الكثيب هو الذى يدفع الكثيرين من سكان هذه المناطق إلى زيارة المناطق الجنوبية المشمسة وقضاء أجازاتهم فيها .

وهناك رياح محلية تطفئ الطقس في أماكن محدودة من هذا الاقليم مثل رياح الفوهن Fohn التي تهب على المناطق الجنوبية من ألمانيا ، وهى رياح دافئة وجافة تأتى من الجنوب عبر جبال الألب إثر مرور أحد مراكز الضغط المنخفض على الجزء الجنوبى من ألمانيا وعندما تنحدر الرياح عبر منحدرات الألب الشمالية تصبح جافة ودافئة وتسبب في تلطيف الحرارة وتخفيض الرطوبة . وتصبح السماء أكثر صحوًا . كما تقل الرياح الهوج مثل الأعاصير (التورنادو Tornadoes وال Hurricanes) التي تتسبب في خسائر فادحة في المناطق التي تهب عليها مثل الولايات المتحدة . وكذلك العواصف الثلجية كالتى تحتاج السهول العظمى في أمريكا .

(٢) مناخ البحر الأبيض المتوسط :

يسود هذا النوع من المناخ في تلك المناطق من القارة التي تطل على حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة أشباه الجزر الثلاثة أيريا وإيطاليا واليونان وكذلك ساحل فرنسا الجنوبي والساحل الأدرياتي اليوغسلافي ومجموعة الجزر الأوروبية المتناثرة على هذا البحر . ومن أهم مميزات هذا المناخ :

١ - تركز التساقط في فصل الشتاء وجفاف أشهر الصيف . وعموما يصل ما يتساقط من أمطار في ربيع السنة المكون من شهور الصيف يونيو ويوليو وأغسطس إلى أقل من عشر التساقط السنوي . ويتميز شهر يوليو بجفافه الشديد إذ يصل متوسط ما يسقط فيه من أمطار إلى ٥٠ سم في لشبونة (البرتغال) و ١٨ سم في روما (إيطاليا) و ٨ سم في أثينا (اليونان) . وتعكس فصلية التساقط هذه المواقع الانتقال لحوض البحر المتوسط بين مناخ السواحل الغربية الرطب في الشمال ومنطقة الصحراء الكبرى الجافة في الجنوب . ففي الشتاء يقع الحوض في نطاق الرياح الغربية ومسار الكتل الهوائية والأعاصير المسببة للأمطار بينما يصبح في الصيف تحت تأثير منطقة الضغط الأزوري العالي المتمركز في جنوب الأطلسي مما يؤدي إلى سيادة طقس جاف وحار . وتلقى السهول تساقطها في شكل أمطار بينما يهطل الجليد في المناطق الجبلية المرتفعة . ولهذا الجليد الذي يتراكم في قمم الجبال أهمية كبرى عند مزارعي المنطقة إذ يعتمدون على المياه الذائبة منه في رى حقولهم في فصل الصيف الحار الجاف .

٢ - الحرارة في هذه المنطقة أدفأ بالمقارنة مع المناطق الساحلية البحرية نسبة لموقعها الجنوبي ولقلة الغطاء السحابي . وتتميز شهور الصيف بالحرارة العالية إلا في الأماكن المطلة على ساحل المحيط الأطلسي إذ يصل متوسط درجة الحرارة في يوليو ما بين ٢١ و ٢٩ درجة مئوية وأعلى درجة وصلت في أثينا كانت ٤٥ درجة مئوية . ولكن الرطوبة النسبية تكون منخفضة في الصيف ولذلك تصبح الليالي أكثر برودة من ساعات النهار .

أما فصل الشتاء فيتميز باعتداله ودفئه وتحلو المنطقة من فترات الصقيع الضئيلة

إلا في الجبال ولذلك تزدهر بساتين الحمضيات في المناطق السهلية مما يتسبب إلى عدم حدوث فترات باردة . أما السحب فهي قليلة خاصة في فصل الصيف وتصل الساعات التي تسطع فيها الشمس إلى أكثر من ٢٥٠٠ ساعة في السنة في بعض أجزاء إيطاليا .

أما الرياح المحلية التي تؤثر في طقس هذه المنطقة فإنها أيضا تعكس موقعها بين إقليمين مناخيين مختلفين : فالعواصف الشتوية تجذب رياحا رطبة باردة من الشمال مثل المسترال Mistral والبورا Bora وتهب المسترال بقوة عبر ممر الرون - ساوون جنوبا في اتجاه ساحل البحر المتوسط ويصل تأثيرها إلى جزيرتي سردينيا وكورسيكا بينما تهب البورا عبر البحر الأدرياتي إلى الساحل الشرقي لإيطاليا . أما من ناحية الجنوب تندفع رياح الشيروكو Sirocco الحارة الجافة وتهب استجابة لمراكز ضغط منخفض تنتجها أعاصير صيفية نادرة . وتسبب رياح الشيروكو خسائر كبيرة في المزارع لما تسببه من جفاف شديد .

وفي كنف هذا المناخ ترعرعت وازدهرت حضارات متنوعة منها المينوية والميسينية واليونانية والأترسكية والرومانية والبيزنطية . وقد لعبت التغيرات المناخية وخاصة فترات الجفاف الطويلة دورا في انهيار بعض هذه الحضارات أو أسهمت في ذلك . ويمكن أن نرجع أسباب إخلاء مدينتي مايسينا وتايرينز Tiryns في جزيرة بيلوبونيزيا اليونانية إلى فشل المحصولات المتكرر نتيجة الجفاف وقد اقترح ريس كار بنتر R. Carpenter نظرية الجفاف هذه كما عزا آثار الحريق التي وجدت في خرائب مدينة مايسينا Mycenae إلى الزراعيين الذين عندما قرصهم الجوع لجأوا إلى العنف للوصول إلى مخازن الحبوب . ويحتمل أن الدافع وراء الهجرة الجماعية من مدينة مايسينا مبعثه الجفاف المتواصل الذي حل بهذه المنطقة . ويقول كاربنتر بأن دورة جفاف أخرى في القرن السابع الميلادي هي التي أدت إلى الكساد الثقافي الذي تميزت بها هذه الفترة آنذاك .

(٣) المناخ القاري الرطب البارد :

يسود هذا المناخ في الأجزاء الوسطى والشرقية من القارة في ألمانيا الوسطى

وبولنده وتشكوسلوفاكيا والمجر وروسيا كما يشمل الجزء الجوى من شبه جزيرة اسكندناوه . ويختلف هذا المناخ عن المناخ البحرى فى أن الكتل الهوائية التى تؤثر فى الطقس فى الأول تأتى من داخل القارة الآسيوية ويظهر أثر هذه الكتل الهوائية القارية فى الاختلاف الكبير بين درجات الحرارة فى فصلى الشتاء والصيف . فالشتاء هنا أكثر برودة وخاصة كلما اتجهنا شرقا ويتراوح متوسط درجة الحرارة فى يناير بين ١٢ درجة مئوية تحت الصفر إلى الصفر كما يحدث كثيرا أن تنخفض الحرارة إلى دون ١٨ درجة مئوية تحت الصفر . وقد تنخفض درجة الحرارة فى الشتاء إلى درجة تتيح بتكوين غطاء جليدى يكسو الأرض لفترة شهر على الأقل أو أكثر فى الأجزاء الشرقية من القارة مما يؤدى إلى تجمد الأنهار والبحيرات وأدفع المحيطات الصحلة ومن ضمنها بحر البلطيق . أما فصل الصيف فإن درجة الحرارة فيه أقرب إلى تلك التى تسود فى فصول الصيف فى المناخ البحرى ويصل متوسط درجة الحرارة فى يوليو و موسكو ووارسو كما فى مدينة باريس . ويصل متوسط أدفاً الشهور إلى درجة تتراوح ما بين ١٦ و ٢١ درجة مئوية .

وتهطل الأمطار بكميات كافية طوال السنة مع زيادة فى فصل الصيف كلما اتجهنا شرقا ، ويرجع السبب فى فعالية هذه الأمطار إلى قلة التبخر الناتج من الحو البارد السائد هنا . وتصل الكمية إلى ما بين ٥٠ و ٦٣ سم .

وفى الجزء الأدنى من مجرى الدانوب وفى المجارى العليا من وادى نهر البو يسود نوع آخر من المناخ القارى يتميز بدفء صيفه بالمقارنة مع المناخ القارى البارد ذى الصيف البارد . ومن ناحية درجة الحرارة فإن هذه المناطق أقرب إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط ولكن يتميز عنه بعدم وجود حفاف . ويشمل هذا المناخ كل المناطق التى يصل متوسط درجة حرارة أدفاً شهر فيه إلى ٢٢ درجة مئوية .

هذه هى أنواع المناخ الرئيسية السائدة فى أوروبا ، ولكن هناك أنواع أخرى أقل انتشارا من ناحية المساحة . منها :

(١) المناخ شبه القطبى Subarctic : الذى يسود فى معظم أجزاء السويد وفنلنده ويتميز هذا المناخ بقسوته بالمقارنة مع المناخ القارى الرطب إذ يبلغ متوسط

درجة الحرارة ١٠ درجات مئوية في فترة تتراوح بين شهر وثلاثة أشهر ، ونظرا لقرب هذه المنطقة من القطب وموقعها القارى فإن فصول الشتاء تتميز بقسوة بردها . كما أن الصيف قصير وبارد . أما أمطارها فقليلة بالمقارنة مع الأماكن ذات الموقع الجنوبي ولكن نسبة لقلّة التبخر لبرودة الجو فإن ما يهطل من أمطار يعتبر كافيا . تتميز هذه المنطقة بقلّة سكانها نظرا لقسوة البيئة ، ولكن هناك مناطق في وسط وشمال فنلندة استقطبت أعدادا أكبر من البشر لقلّة الأراضي الصالحة للزراعة في المناطق الجنوبية منها أو من أجل استغلال الموارد السمكية أو المعدنية كما في السويد

(٢) مناخ التندرا

تتميز هذه الأقاليم بغلوها من الأشجار وتقع إلى الشمال من المناخ شبه القطبي ويمكن القول بأن الصيف لا وجود له هنا تقريبا ويبلغ متوسط درجة حرارة أدفأ شهر هنا أقل من ١٠ درجة مئوية . ولكن هناك ما يبعث إلى الدهشة في هذه المناطق الباردة وهو خلو بحر بارنتس Barents Sea والساحل النرويجي كله وميناء ميرمانسك من التجمد في فصل الشتاء ويرجع السبب إلى أثر تيار الخليج الدافئ الملطف الذي يصل تأثيره إلى هذه المناطق .

(٣) المناخ شبه المدارى الرطب Humid Subtropical

يسود هذا المناخ في جبال الألب الدينازية والجزء الساحلى من وادى نهر البو وهو أشبه بمناخ البحر الأبيض المتوسط من ناحية الحرارة ولكن يفتقر إلى ذلك الصيف الجاف الذى يتميز به الأخير . ففصول الصيف هنا تتميز بالحرارة والرطوبة العالية .

(٤) مناخ الاستبس Steppes

على عكس المناطق الأوروبية التى تتميز بكثافة أمطارها فإن هناك أماكن صغيرة ومناثرة شبه صحراوية يسود فيها مناخ الاستبس حيث تكون نسبة التبخر من سطح الأرض والنتج من النبات أعلا من كمية الأمطار التى تهطل فيها . مما يؤدى إلى شح المياه . ففي شبه جزيرة أيبيريا توجد أماكن متناثرة يسود فيها هذا المناخ حيث تحجز

السلاسل الجبلية الرياح المحملة بالرطوبة الآتية من المحيط . ومن ضمن هذه الأماكن منطقة الميريا Almeria شبه الجافة الوافعة في إحدى الأودية المنخفضة Huertas يمين جبال بتكو Betico والبحر الأبيض المتوسط وكذلك أجزاء من وادي نهر الابرو Ebio المحاطة بجبال أيريا من الغرب . أما الجزء الواقع إلى الشمال مباشرة من البحر الأسود فيرجع سبب جفافه إلى موقعه الداخلى بعيدا من المؤثرات البحرية الآتية من المحيط الأطلسي .

(٥) المناخ الجبلي (الالبى) :

يسود هذا المناخ في جبال الألب حيث يظهر أثر الارتفاع المتزايد على درجات الحرارة ، ويختلف المناخ حسب الاختلاف في ارتفاع الجبال وتعرضه للشمس ، ولكن عامة يمكن أن نميز خصائص لهذا المناخ منها انخفاض الحرارة وكثرة التساقط بالمقارنة مع السهول المجاورة كما في مدينة سانتيس Santis حيث تنخفض درجة الحرارة إلى تلك التي نجدها في منطقة التندرا الشمالية ويزداد التساقط السنوي إلى ٢٥٠ سم (١٠٠ بوصة) .

جدول ٤ . معلومات مناخية لبعض المحطات التي تمثل الأقاليم المناخية المختلفة في أوروبا

| المحطة | متوسط الحرارة | متوسط الحرارة المدى الحرارى متوسط المطر |
|----------------------------|-----------------|-----------------------------------------|
| (يوليو) (م) | (يناير) (م) | (م) السنوى (م) السنوى (مم) |
| (١) مناخ الساحل الغربى : | | |
| فالنشيا (أيرلنده) | ١٥ (٥٩ف) | ٧ (٤٤ف) ٨ (١٥ف) ١٤٢ (٥٦ بوصة) |
| فرايبيرج . ام . برايسقار | ١٩ (٦٧ف) | ١ (٣٣ف) ١٨ (٣٤) ٨٦ (٣٤) |
| (ألمانيا) | | |
| باريس (فرنسا) | ١٩ (٦٧ف) | ٣ (٣٧ف) ١٦ (٢٩) ٥٨ (٢٣) |
| تورسهافن (جزر فاروى) | ١١ (٥١ف) | ٣ (٣٨ف) ٨ (١٣) ١٤٥ (٥٧) |
| بيرجن (النرويج) | ١٤ (٥٨ف) | ١ (٣٤ف) ١٣ (٢٤) ٢١٣ (٨٤) |

| الخطوة | متوسط الحرارة | متوسط الحرارة | المدى الحرارى | متوسط المطر |
|--------|---------------|---------------|---------------|-------------|
| | (يوليو) (م) | (يناير) (م) | السنوى (م) | السنوى (مم) |

(٢) مناخ البحر الأبيض المتوسط :

| | | | | |
|-------------------|---------|---------|---------|---------|
| لشبونة (البرتغال) | ٢١ (٧٠) | ١١ (٥١) | ١٠ (١٩) | ٧٤ (٢٩) |
| روما (إيطاليا) | ٢٤ (٧٦) | ٧ (٤٥) | ١٧ (٣١) | ٨٤ (٣٣) |
| أثينا (اليونان) | ٢٧ (٨٠) | ٩ (٤٨) | ١٨ (٣٢) | ٤١ (١٦) |

(٣) المناخ القارى الرطب (الصيف البارد) :

| | | | | |
|-----------------|----------|----------|---------|---------|
| موسكو (روسيا) | ١٩ (٦٦ف) | -١١ (١٢) | ٣٠ (٥٤) | ٥٣ (٢١) |
| ابسالا (السويد) | ١٧ (٦٢ف) | -٤ (٢٤) | ٢١ (٣٨) | ٥٣ (٢١) |
| وارسو (بولنده) | ١٩ (٦٦ف) | -٣ (٢٦) | ٢٢ (٤٠) | ٥٦ (٢٢) |
| فيينا (النمسا) | ٢٠ (٦٨ف) | -٢ (٢٩) | ٢٢ (٣٩) | ٦٤ (٢٥) |

(٤) المناخ القارى الرطب (الصيف الدافئ) :

| | | | | |
|--------------------|---------|---------|---------|----------|
| بلغراد (يوغسلافيا) | ٢٢ (٧٢) | -٢ (٢٩) | ٢٤ (٤٣) | ٦١ (٢٤) |
| ميلانو (إيطاليا) | ٢٤ (٧٥) | -١ (٣١) | ٢٥ (٤٤) | ١٠٢ (٤٠) |

(٥) المناخ شبه القارى :

| | | | | |
|------------------|---------|---------|---------|---------|
| أرشانجل (روسيا) | ١٦ (٦٠) | -١٣ (٨) | ٢٩ (٥٢) | ٤٣ (١٧) |
| هيواندا (السويد) | ١٦ (٦٠) | ١٠ (١٤) | ٢٦ (٤٦) | ٥٣ (٢١) |

(٦) مناخ التندرا :

| | | | | |
|-----------------|--------|---------|---------|---------|
| فاردو (النرويج) | ٩ (٤٨) | -٦ (٢٢) | ١٤ (٢٦) | ٦٦ (٢٦) |
|-----------------|--------|---------|---------|---------|

(٧) المناخ الجبلى :

| | | | | |
|----------------|--------|----------|---------|----------|
| سانتس (سويسره) | ٥ (٤١) | -١١ (١٦) | ١٤ (٢٥) | ٢٤٤ (٩٦) |
|----------------|--------|----------|---------|----------|

(٨) مناخ الأستبس :

| | | | | |
|----------------|---------|---------|---------|---------|
| أوديسا (روسيا) | ٢٣ (٧٣) | -٤ (٢٥) | ٢٧ (٤٨) | ٤١ (١٦) |
|----------------|---------|---------|---------|---------|

الفصل الرابع

النبات الطبيعي والتربات

تعرض الغطاء النباتي الأصلي في القارة الأوروبية إلى تغيير جذري على يد الإنسان إلى درجة أنه من الصعوبة حتى لأهمهر وأقدر العلماء تحديد مدى هذه الآثار البشرية بالتأكيد ، لأن عملية التغيير بدأت مع قدوم الإنسان إلى القارة منذ عصور ما قبل التاريخ واستقراره فيها واستمرت عبر السنين بتفاوت كبير ، ولكن يمكن القول بأن التغيير الفعلي في نباتات القارة قد حدث خلال الألف سنة الأخيرة . والخريطة المرفقة توضح توزيع النباتات قبل هذه الفترة (الشكل ٩) .

يتأثر التوزيع الحالي لنبات وحيوان القارة بثلاثة عوامل : العامل الطبوغرافي أو التضاريس والعامل المناخي والعامل البشري .

١ - العامل الطبيعي (التضاريس) :

من الناحية الطبوغرافية فأوروبا جزء من آسيا من ناحية جغرافيتها الحيوية كما هي جزء منها من ناحية البيئة . والحاجز الوحيد الذي يفصل مناطق نباتية وحيوانية متباينة يتبع سلسلة الجبال الألبية وامتداداتها نحو الشرق والغرب . فالمنطقة الواقعة إلى الشمال من هذا الحاجز تمثل جزءا من نباتات منطقة الشمال وحيواناتها - boreal والتي تشمل أيضا مناطق آسيا وأمريكا الشمالية الواقعة في العروض العليا . أما إلى جنوب السلسلة الألبية فنجد نباتات وحيوانات منطقة البحر الأبيض المتوسط ذات العلاقة الوثيقة بنباتات وحيوانات جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا .

٢ - العامل المناخي :

أما العامل الأكثر أهمية في التوزيع الحالي للنباتات والحيوانات وكذلك التربات فهو التغيرات المناخية التي أثرت على القارة أثناء وبعد العصر الجليدي . ونتيجة لانتشار الجليد نحو الجنوب زحفت النباتات والحيوانات إلى تلك المناطق التي لم تتأثر

بالجليد في وسط وجنوب القارة . وتحولت النطاقات المناخية نحو الجنوب وتبعته النباتات والحيوانات وقد ظلت بلاد اسكتلنداوه تحت الجليد حتى حوالى ١٠,٠٠٠ سنة مضت ، وبعد ذوبان الجليد أخذت نباتات وحيوانات وحتى تضاريس هذه المنطقة تتلاءم تدريجيا للأحوال المناخية الحالية وهذا يعنى أن المجموعات الحيوية لهذه المنطقة حديثة من الناحية الجيولوجية . أما أوروبا الوسطى فقد أصبحت منطقة نزوح للنباتات والحيوانات من جميع الاتجاهات وخاصة من الشرق .

٣ - العامل البشرى :

أما المؤثر الثالث فهو الإنسان نفسه ، فإن ما نطلق عليه « النباتات الطبيعية » في أوروبا ليست طبيعية بمعنى أنها تمثل النباتات الأصلية التى لم تمسها يد الإنسان . وقد دلت الأحداث بأن أكثر من ٨٠ ٪ من مساحة اليابس الأوروبى كانت مغطيه بالغابات أما الآن فإن ما تغطيه الغابات من أوروبا لا تتعدى ثلث مساحتها ومعظم هذه الأشجار غابات ثانوية مزروعة ، خاصة في منطقة البحر الأبيض المتوسط أو غابات منمطة من الشجيرات ، فالاحتلال الطويل للأرض وكثافة السكان العالية قد دفعت الغابات إلى التراجع لمناطق غير صالحة للزراعة . وقد عانت مناطق الأستبس في جنوب روسيا وأكرانيا من نفس التدخل البشرى حيث لا نرى إلا أجزاء صغيرة من مناطق الحشائش الأصلية التى بقيت كما هى بدون أى تأثير بشري

ولذا من الطبيعى ألا يبقى الغطاء النباتى على حاله في قارة كأوروبا استقر بها الإنسان وزرع أراضيها منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة وقد كانت قارة أوروبا في الأصل منطقة تكسوها الغابات واختلفت أنواع النباتات تبعاً للأقاليم المناخية المختلفة . (الشكل ٩) .

(١) غابات جبال الألب :

تسقط الأمطار في كل فصول السنة على سلاسل الجبال الألبية وإلى الشمال منها . وكان الغطاء النباتى السائد فيها هو الغابات التى تختلط أشجارها حسب نوعية التربة .

فثلا نجد أشجار الزان Beech والدردار Ash في التربة الجيرية .
والفرمماخ Elm والبلوط Oak والبندق Hazel في التربة الصلصالية .
وأشجار الصفصاف والهور Alder على طول امتداد مجارى الأنهار .

(٢) غابات البحر المتوسط المفتوحة :

كانت المناطق الساحلية من إقليم البحر المتوسط تغطيها في الماضي غابات مفتوحة تتكون من أشجار دائمة الخضرة ذات الأوراق العريضة وتتخللها شجيرات خشبية وحشائش ، وكانت هذه النباتات من الأنواع المقاومة للجفاف الذي يسود في فصل الصيف الحار ، وكانت جذورها تمتد إلى أعماق التربة سعيا وراء الماء ، وتتميز بخصائص مثل الأوراق السمكية والشمعية واللحاء الغليظ السميك والجذور الطويلة ، وذلك من أجل الإقلال من التبخر . وتظهر هذه الخصائص في لحاء شجر البلوط السميك المتشقق وأوراق أشجار الزيتون الملساء كما أن كثيرا من الأشجار أوراقها صغيرة ولامعة لمقاومة التبخر أيضا . أما الأشجار فتتبع متباعدة ومتفرقة ويتراوح ارتفاعها بين المنخفض والمتوسط كما تتميز عادة بجذوع غليظة وفروع كثيرة العقد . أما الأنواع السائدة من الأشجار فهي الغار Laurel والسرو Cypress والكستناء Chestnut والخزامى (خيري البر) Lavender والآس Myrtle والزيتون والبلوط . وفي المناطق المرتفعة نجد الحور Poplar والدردار Ash والتبولا Birch والصنوبر Pine .

ترجع بداية تدمير هذه الغابات على يد الإنسان إلى عصور ما قبل التاريخ وفي إلباذا هومر نجد أقدم إشارة إلى الغطاء النباتي السائد في إقليم البحر المتوسط آنذاك والتي تدل على غطاء كامل من الغابات في كثير من المناطق التي تخلو تماما من الأشجار في وقتنا الحالى مثل جزيرتي سامو تراكي Samothraki وإتاكى Ithaki وهما جزيرتان يونانيتان وقد تم تدمير نبات إقليم البحر المتوسط بوسائل عدة ولأغراض متنوعة عبر آلاف السنين . وقد استخدمت النار لإزالة الغابات من أجل توسيع رقعة المراعى للأعداد الضخمة من الضأن والماعز التي كانت تربي هنا ، وكذلك لإفساح الخد لزع الحبوب والكروم وإقامة البساتين وكانت النيران توقد عمدا في فصل

الجفاف عندما تجف الحشائش وكانت الحرائق من المناظر المألوفة في فصل الصيف التي أشار إليها هومر في كتاباته . وسبب آخر أدى الى تدمير الغابات هو قطع الأخشاب لصناعة السفن ومن ضمنها الالف سفينة التي بنيت من أجل هيلينا الطروادية . ومع شيوع استخدام الحديد كان الفحم النباتي يستخدم في صهر هذا المعدن كما كانت الأخشاب تستخدم أيضا في بناء المعابد والقصور الى أن اجبرت ندرة الأخشاب مع تقلص المساحات الغابية إلى تبني الحجر ك مادة بناء أساسية في كثير من أجزاء الأقليم . وبحلول عام ٤٠٠ ق . م كانت اتিকা Attica خالية من الأشجار تماما .

وقد اتخذ هذا التدمير الجائر للنباتات من قبيل الإنسان بعدا أكبر في هذا الإقليم نسبة لعجز الغابات عن النمو مرة ثانية بعد إزالتها ، وأصبحت هذه الإزالة تتخذ صفة دائمة وذلك لسببين أساسيين :

١ - كانت هذه الغابات المفتوحة تحتل منحدرات الجبال ، وقد أدى إزالة الأشجار من على هذه المنحدرات إلى انجراف التربة تحت تأثير الأمطار الشتوية ونقلها إلى بطون الاودية والسهول الساحلية تاركة هذه المنحدرات عارية من التربة الصالحة لنمو الأشجار مرة ثانية .

٢ - كثرة الماعز في هذا الإقليم وعادة هذا الحيوان في الرعى . فالماعز تستطيع التحرك بسهولة على المنحدرات المتضررة وتأكل النباتات التي تنمو لتوها من " ولا تترك لهذه النباتات فرصة للنمو حتى تكبر . وقد تكون الماعز سببا لاستمرارية التعرية النباتية في كثير من أجزاء منطقة البحر المتوسط .

وفي العصر الكلاسيكي وبعده تعرض ما تبقى من الغابات للإزالة لأغراض مماثلة لتلك التي أدت إلى إزالة الغابات من قبل . فقد كان بناء السفن التجارية في البندقية وجنوه والاساطيل البحرية التابعة للبيزنطيين والأسبان والبرتغال تتطلب الأخشاب التي كانت تقطع من غابات المنطقة ، وكان حرفيو فلورنسة وطليلة واسطنبول يستخدمون الفحم النباتي في صهر المعادن التي كانوا يستخدمونها في صنع المعدات كما أن الرعاة والمزارعين كانوا يسعون دائما لإزالة الغابات لإفساح المجال للزراعة والرعى . ومن نتائج هذا التدخل البشري في نباتات المنطقة تلك الرقاع الشاسعة من الأراضي الصخرية الحالية من النباتات ، أو تلك الأقاليم التي تغطيها شجيرات قصيرة

وتعرف «بالماسكي Maquis» في فرنسا و«ماشيا أو ماسكي Macchia, Maki» في إيطاليا و«ماتورال Mattoral» في أسبانيا . وقد اتخذ رجال المقاومة الفرنسية هذه الادعاء منجاء أثناء الحرب العالمية الثانية ولذلك عرفت الحركة «بالماسكي» كما توجد مناطق تنمو فيها نباتات الجاريج Garigue وهي عبارة عن عطاء رفيق من شجيرات متناثرة دائمة الخضرة تنمو في تربات ضحلة أو بين شقوق الصخور العارية .

وهكذا نجد أن الإنسان قد تسبب في تدمير البيئة في منطقة البحر المتوسط وقد يرجع تخلف كثير من أقاليم هذه المنطقة إلى هذا التدهور البيئي الناتج من التدمير الجائر للنبات وما ترتب على ذلك من تعرية وانجراف للتربة .

٣ - الغابات النفضية Deciduous Broadleaf :

كانت هذه الغابات تغطي أجزاء شاسعة من أوروبا فيما مضى ويتطابق توزيعها إلى حد ما مع إقليم المناخ الساحلي الغربي البحري الذي يشمل الجزر البريطانية ومعظم أجزاء فرنسا والأجزاء الغربية من ألمانيا وجنوب شبه الجزيرة الاسكندنافية ، وفي الحقيقة يلاحظ الدارس علاقة سببية بين توزيع هذه النباتات والمناخ ، ولكن يجب علينا اتخاذ الحيطة والحذر في تبني هذه النظرة الحتمية في تفسير هذه العلاقة لأن مساحات كبيرة من هذه الغابات النفضية أيضا تغطي أجزاء من أوروبا الشرقية حيث يسود المناخ القاري الرطب . ويتكون معظم أشجار هذه الغابات من أنواع عديدة من البلوط وهو النوع السائد وكذلك أنواع أخرى تشمل الدردار Ash والزان Beech والفرمباخ (الدردار) Elm والزيزفون Linden . ويمكن أن نطلق اسم « الغابة النفضية ذات الأوراق العريضة » على غابة تتكون ثلاثة أرباع أشجارها من هذه الأنواع المذكورة .

وتتميز التربات التي تنمو عليها هذه الأشجار بخصوبتها وصلاحياتها للزراعة ويمكن أن نعزو هذه الميزة جزئيا إلى انبساط التضاريس ووفرة الدبال الناتج من تحلل أوراق الأشجار المتساقطة عبر السنين . ولذلك ليس من الغريب أن تزال مساحات كبيرة من هذه الغابات النفضية لغرض الزراعة . وقد حدثت فترة الإزالة الرئيسية حديثا إلى عام ٥٠٠ ميلادية ولكن بداية إزالة الأشجار وخاصة من منطقة تربة اللويس

في السهل الألماني الشمالي ترجع إلى العصر الحجري الحديث عندما بدأ الإنسان في هذه العملية على نطاق ضيق مستعينا بالنار والفأس . وفي فرنسا بقيت الغابات -نفسية بدون مساس حتى وقت الغزو الروماني والبا لجأت القبائل الغالية طالبة الحماية من الجيش الروماني المتقدم . وفي هذه الفترة أصبحت كلمة «الغابة» مرادفة للحدود في كثير من أجزاء الإمبراطورية المترامية الأطراف وخاصة في منطقة الغابات النفسية^١ . وقد استمرت الغابات تؤدي نفس الوظيفة كمناطق عازلة بين الشعوب الأوربية المعادية بعد زوال الإمبراطورية بوقت طويل وخاصة في العصور الوسطى كما كان الوضع بين الألمان والصقالية . وجاءت الكلمة الألمانية «مارك» Mark «ومارش March الانجليزية» لتعني «منطقة الحدود» رغم أن المعنى الأصلي للكلمة هو «الغابة» . وهكذا اكتسبت الغابات عند الرومان والألمان صفة الحدود السياسية التي تفصل بين المناطق المفتوحة التي تحتلها شعوب مجاورة معادية .

وقد أدى احتلال الرومان لمناطق الغابات النفسية إلى الإسراع في إزالتها ولكن بقيت أجزاء كبيرة من هذه الأراضي مغطاة بالغابات حتى بعد مرور قرون منذ احتلالها . ثم تلت سقوط الإمبراطورية زيادة سكانية وهجرة القبائل الألمانية نحو الغرب وغزو الفرنك لفرنسا وتغلغل الأنجلو- ساكسون في الجزر البريطانية . وفي العصور الوسطى بدأت الشعوب الألمانية في إزالة الغابات من مناطق في شمال فرنسا وغربي ألمانيا والمملكة المتحدة والأراضي المنخفضة ، وتم إنشاء مستعمرات زراعية جديدة على يد مجموعات صغيرة من المستوطنين كانت تعمل تحت إرشاد وقيادة الحكام وملوك الأراضي والكنايس . ونجد الدليل لهذا التنظيم المبدي للغابات في أسماء القرى والمدن الحالية التي تحمل الكلمات مثل Rod و Rot - Rodē Roth و Reuth وغيرها «كما في» فيرنيرود Wernigerode وهاليلقنروث Heiligenroth ويروث Bayreuth وغيرها من المدن والقرى الألمانية التي تنسب إلى الكلمة الألمانية الحديثة «Roden» والتي تعني «يجث أو يقطع أو يزيل» . وفي أجزاء من بلجيكا وهولندا نجد الأشكال الفلمنكية والهولندية من هذه

(١) الالهة سيلفانوس Sylvanus كانت حامية الغابات والحدود عند الرومان

الكلمات اللاحقة مثل Rode ، - Rardt - rath ، - rode وفى النرويج نجد rod - rud - ، أما الكلمات الانجليزية والألمانية البادئة مثل brand ، Brandroda ، brunn ، bronn ، brind ، brient و oberbrand و Brindley فانها تشير الى أن التنظيف المبدئى للأشجار قد تم بواسطة النار (من To brand أو der brand) . أما الكلمات اللاحقة التى تظهر كثيرا فى أسماء الأماكن الانجليزية مثل ley - leigh . lea كما فى Woodley أو Mariansleigh فهى مشتقة من كلمة ألمانية قديمة بمعنى « مكان منظف » أو « مكان مفتوح فى غابة كما فى كلمة الفلمنكية مثل waterloo و Baverloo . أما فى مناطق اللغة الفرنسية فنجد كلمة Sart وتعنى « ينش أو يستأصل أو يزيل » كما فى C'ul-de-sart فى بلجيكا و Les Essart فى فرنسا .

بدأت عملية إزالة الغابات فى الأراضي الألمانية فى أماكن صغيرة ذات شكل دائرى ، ثم بدأت العملية تتسع مع الزيادة السكانية وأخذت كل مجموعة تقوم بإزالة الأشجار من الأماكن المجاورة للقرية حتى تتلاقى الأراضي المنظمة للقرى المجاورة . أما تنظيف الأودية فى المناطق التلالية فى وسط وشرق ألمانيا فقد كان يتم أولا بقطع الأشجار من على طول الوادى لاستخدامه كطريق ثم يمنح كل مستوطن قطعة أرض ضيقة وطويلة تمتد خلف الطريق العام ، وتبنى المنازل فى مقدمة المزرعة ويقع عبء تنظيف كل قطعة على صاحبها . ولعدم وجود ارتباط اجتماعى أو مشاعى بين المستوطنين ينظم تقسيم الأرض فقد كانت مساحات المزرعة تتفاوت حسب طموح المزارع وعدد أفراد عائلته .

وهكذا استمرت إزالة الغابات التفضية على يد الألمان بدون توقف خلال العصور الوسطى حتى حوالى عام ١٣٥٠ ميلادية عندما أخذت الأوبئة والأمراض والحروب تفتك بالناس وحدث تقلص كبير فى عدد السكان فى بعض المناطق مما أدى إلى توقف مؤقت فى إزالة الغابات . وفى بعض المناطق التى تأثرت بالطاعون والحروب أخذت الغابات تنمو من جديد كما فى حوض اكويتين فى فرنسا التى نمت فيها الغابات من جديد أثناء حرب المائة سنة .

وكان المزارعون هم المسؤولون عن إزالة الغابات في الفترة التي انتهت بمنتصف القرن الرابع عشر الميلادي وذلك لفرض الزراعة . كما كان هناك الحرفيون الذين كانوا يعتمدون على الفحم النباتي لصهر المعادن وكانوا سببا في إزالة الغابات . واليوم تقف كاربوناريا Silva Carbonnaria في برابانت Brabant البلجيكية (وتعني غابة صانعي الفحم) سهلا خاليا من الأشجار .

ثم أخذت الشعوب الألمانية تعاود نشاطها في إزالة الغابات في الفترة ما بين القرنين السادس والسابع عشر بغرض التوسع الزراعي ولسد حاجة صناعة السفن والحرفيين من الأخشاب. وقد كانت السرعة في إزالة الأشجار إلى درجة أن إنجلترا في منتصف القرن السادس عشر أخذت تعاني من نقص شديد في الأخشاب وتلتها فرنسا بعد قرن ، وشهدت أيرلنده في القرن السابع عشر آخر مراحل إزالة الغابات على يد ملاك الأرض الذين كانوا يصدرون الأخشاب إلى الخارج ، وعند بداية القرن الثامن عشر اختفت الأشجار من أيرلنده كما يوضح اختفاء البلوط من السجل اللقاحي بعد هذه الفترة . وكانت حدة الإزالة للغابات تقل كلما اتجهنا شرقا في القارة ، واليوم تحتل الغابات النفضية ٦٪ فقط من مساحة المملكة المتحدة و ٧٪ من مساحة هولنده و ٢٠٪ من مساحة فرنسا و ٢٧٪ من مساحة المانيا (معظمها في الوسط والجنوب) .

وكان لابد أن تثير هذه الإزالة الجائرة للأشجار اهتمام بعض الحاديين على مصير هذه الغابات لفرض حمايتها ، وفعلا قامت حركة لصيانة الغابات والحفاظ عليها ونجحت بعد جهد في الإبقاء على ما تبقى من الغابات النفضية . وقد قاد النبلاء هذه الحركة لانقاذ الغابات تدفعهم الرغبة في البقاء على مناطق الصيد المحرمة لغرض الترفيه . وقد نالت غابة « شيروود Sherwood » في إنجلترا الحماية الملكية لهذا الغرض وكذلك غابة « تيرغارتن Tiergarten » « مدينة الحيوان » في وسط مدينة « برلين » حتى عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ م عندما انهار السكان على الأشجار يقطعونها كوقود حتى قضوا عليها ، ثم بدىء في إعادة تشجيرها مؤخرا وبقيت بعض الغابات في المناطق المتضرسة ذات الانحدارات الشديدة خاصة في أوروبا الوسطى وجنوب

ألمانيا إلى درجة أن كلمة « فالد Wald » وتعني « غابة » تطلق عادة على الأماكن المتضرسة مثل Schwaizwald « الغابة السوداء » أو « ثورينجز فالد Thuringerwald » في ألمانيا و Coiswald في إنجلترا . وكلها أماكن متضرسة . أما التشجير العلمى الحديث فقد بدأ منذ حوالى ثلاثة قرون استجابة للحاجة فى الإبقاء والحفاظ على ماتبقى من غابات وهنا أيضا قاد الألمان الطريق ، وتلقى هذه الغابات المتناثرة عناية شديدة من قبل السلطات ويتم القطع فيها وفق نظام دقيق يعاقب من يخالفه . وقد ساعد فى الإبقاء على الغابات فى الآونة الحديثة ارتفاع مستوى المعيشة وتبنى البترول والغاز فى التدفئة والطبخ . وينظر الأوروبي إلى هذه الغابات كمناطق ترفيهية يؤمها للفسحة وقضاء فترات الإجازة معسكرا فيها .

٤ - الغابات الصنوبرية الدائمة الخضرة Needleleaf Evergreen

تنتشر هذه الغابات فى الأجزاء الشمالية من القارة كما نجدها أيضا فى الجنوب فى أماكن جبلية متناثرة ومنخفضات تسود فيها التربة الرملية ، وتتكون من أشجار ذات أوراق إبرية دائمة الخضرة خشبها لين مثل التنوب Pine والصنوبر والبيسه Spruce (منها الأنواع الأوروبية) مثل نسبسب الترويجى والصنوبر الاسكتلندى) . وتكون الصنوبريات ثلاثة أرباع الأنواع السائدة فى هذه الغابات . وقد كانت هذه الغابات أكثر حظا من مثيلاتها فى جنوبى وغربى القارة لما لقيته من عناية أكثر من قبل الإنسان . ويرجع هذه المعاملة إلى شيئين رئيسيين :

(١) وقوع معظم هذه الغابات الصنوبرية فى اسكندناوه فى منطقة تتميز بقسوة المناخ وقلة التربة الصالحة للزراعة ، ولهذا لم تجذب هذه الأصقاع الباردة الإنسان لعدم صلاحيتها للزراعة المكثفة من ناحية المناخ والتربة كما أن غابات جبال الألب تركت بدون تدخل لشدة انحدار الأماكن التى تنمو فيها وقسوة المناخ وفقر التربة فيها . ولهذا الأسباب تغطى هذه الغابات ٦٤٪ من مساحة فنلندة و ٥٣٪ من مساحة السويد و ٣٧٪ من مساحة النمسا .

(٢) تمثل الغابات الصنوبرية . مصدر الرئيسى للأخشاب للقارة ولذلك تخضع الغابات لعمليات وانظمة صارمة من ناحية الإدارة وتنظيم القطع وزرع الأشجار محل

تلك التى تقطع لضمان مورد دائم من هذه الأشجار . وتصدر السويد وفنلنده أكثر من نصف الخشب المنشور الذى تنتجه القارة وتساهم النمسا بعشرين فى المائة (٢٠ ٪) . كما أن الدول الاسكندنافية تقود العالم فى إنتاج لب الخشب وصناعة الورق .

وكانت عملية إعادة تشجير المناطق بالغابات من صالح الغابات الصنوبرية ، فالمناطق الفقيرة ذات التربة الرملية مثل إقليم اللاند Landes فى جنوب غرب فرنسا أصبحت بعد تشجيرها بأشجار الصنوبر من المصادر الرئيسية للأخشاب فى فرنسا ، وكما أن هناك مناطق عديدة فى أوروبا تتميز بمحوضة تربتها التى تم زراعتها بأشجار الصنوبر كما فى ألمانيا والجزر البريطانية مثل الأراضي الخلفية Heathlands والأماكن المستنقعية .

٥ - الغابات المختلطة Mixed Forests :

تمثل هذه الغابات التى كانت تغطى أجزاء كبيرة من أوروبا مرحلة انتقالية بين الغابات النفضية والصنوبرية تحتوى على خليط من أشجار هاتين الغابتين دون سيادة أيهما على الآخر . وكانت هذه الغابات تغطى الأجزاء الشرقية من الأراضي الألمانية وجنوب السويد ومعظم الأراضي السلافية فى شرق أوروبا وبعض المناطق الجبلية فى منطقة البحر المتوسط . ويمكن القول عموما بأن نسبة الأشجار النفضية تزيد بينما تقل نسبة الأشجار الصنوبرية كلما اتجهنا جنوبا وغربا فى نطاق الغابات المختلطة . وقد تم القضاء على هذه الغابات فى العصور الوسطى على يد الألمان الذين انتشروا شرقا على طول السهل الألمانى الشمالى ووادى نهر الدانوب وأسسوا مستعمرات زراعية فى هذه المناطق . وقد شجع هذا التوغل الألمانى نحو الشرق الشعوب السلافية فى إزالة هذه الغابات وإنشاء المزارع فى السهل الأوروبى الشرقى . وتدل أسماء الأماكن مثل trebynja و kopance و lazy و paseky التى تعنى « التنظيف أو الإزالة » على المناطق التى تعرضت لإزالة أشجارها على يد السلافين . كما فى مدينة Trobnja السلوفينية . ولكن هذه الغابات لم تتعرض للدمار كما حدث فى غربى أوروبا ومازالت هذه الغابات تحتل ثلث مساحة دول مثل تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا

ويوغسلافيا وروسيا . وهناك منطقة اختلاط أخرى من الأشجار ذات الأوراق العريضة الدائمة الخضرة والأشجار النفضية في شمال شبه جزيرة أيبيريا ، ولم يبق من هذه الغابات إلا القليل .

٦ - إقليم الحشائش والسبخات والخلنج والتندرا: تفتقر أوروبا عامة إلى مناطق الاستبس أو الحشائش إلا في الأجزاء الشرقية منها إذ توجد منطقة استبس حول ساحل البحر الأسود وتمتد غربا إلى داخل أوروبا حتى سهل ولاشيا في جنوب رومانيا ومنطقة ألفولد Alföld في حوض المجر . وقد سلكت الهجرات والغارات الآسيوية هذا الممر الطبيعي الحار من الغابات في طريقها إلى قلب القارة ، وقد استطاع الماغيار ، أجداد المجرين الحاليين ، تأسيس موضع قدم دائم في الأجزاء الحشائشية من حوض المجر وهي منطقة شبيهة بموطنهم الأصلي في حين أنهم تعرضوا للهزيمة والطرده من المناطق النائية إلى الغرب . ويوجد أكبر إقليم تغطيه الحشائش في أوروبا في المناطق الجافة من أسبانيا مثل هضبة الميزيتا التي تشمل أجزاء من وادي نهر ابرو وحوض قسطلة الجديدة ومازالت الرياح تستخدم في دفع طواحين الهواء في إقليم لامنشا La Mancha الخالية من الأشجار . وكانت الحشائش الطويلة تغطي أجزاء شاسعة من أوروبا في عصور ماضية قبل أن يزيلها الإنسان في سعيه لإيجاد أراضي زراعية . فقد كانت تربات البراري خصبة لا يمكن تجاهلها كما أن عملية الرعي أتت على البقية الباقية من الحشائش . والسؤال : كيف نشأت مناطق الاستبس هذه ؟ لم يجد للآن إجابة شافية . فالبعض يرجع السبب إلى تدخل الإنسان وإزالته للأشجار مستخدما النار ورعى حيواناته مما لم يساعد في نمو الأشجار مرة ثانية خاصة في المناطق التي يسودها مناخ قاري كالذي نجده في شرق أوروبا . وغياب بقايا غابات في منطقة الحشائش هذه يوحي بأن الغابات كانت غير معروفة هنا . وربما كان لنشاط الإنسان في هذه المناطق دور في هذا المضمار وقد تكون مناطق الحشائش المفتوحة مثل إقليم « الفولد » المجرى قد ظهرت إلى الوجود نتيجة لإزالة الغطاء الغابي على يد رجال ما قبل التاريخ .

أما المناطق الخلنجية Heathlands والمستنقعية Moors فهي تحتل أجزاء صغيرة من

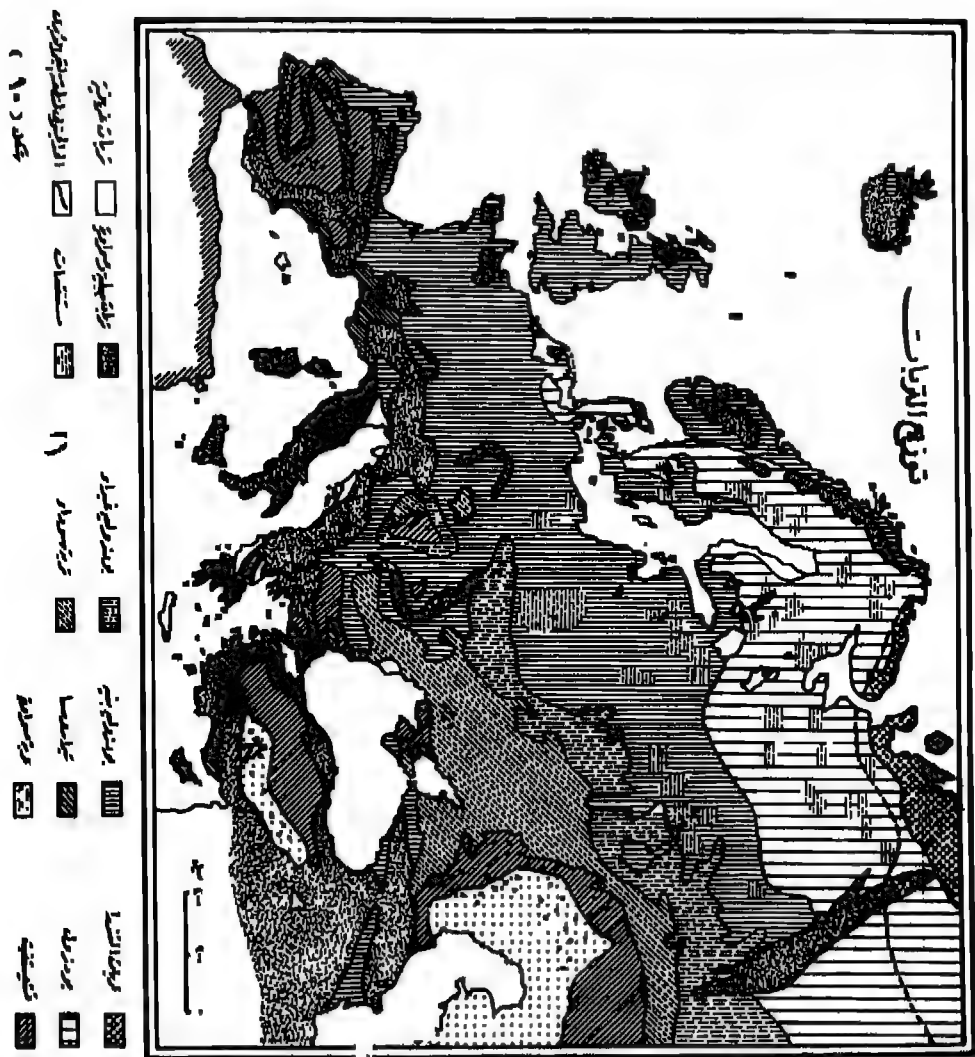
الجزر البريطانية والأراضي المنخفضة والسهل الألماني الشمالى وتنمو فيها أنواع من النباتات المنخفضة مثل الحشائش والوزال Gorse، furze والعرعر Juniper والخلنج heather والعليق brambles كما أن سطحها كثيرا ما يكون رمليا أو مغطيا بالحث peat ولذلك تعتبر هذه المناطق غير صالحة زراعيًا ومن ثم تتميز بقلّة السكان فيها . وقد تم مؤخرا تشجير أجزاء من هذه المناطق بغابات صنوبرية .

أما إقليم التندرا والنباتات الألبية فتوجد في الشمال فيما بعد خط الشجر في شبه جزيرة اسكندناوه وتتكون نباتاتها من الأشن Lichen والطحالب mosses والحشائش الصغيرة والسعدى Sedges وأنواع من الشجيرات الصغيرة والأشجار القزمية ، وتكفي هذه النباتات لإعالة قطعان الحيوان التي ترعى هنا . ويقضى رعاة الرنة فصل الصيف في إقليم التندرا الأسكندناوية كما تؤخذ ماشية الألبان في نفس الفصل لترعى في حشائش almen و Seter في جبال الألب وكيولن kjolen . إذ تزدهر هذه المناطق المرتفعة بعدد من النباتات في فصل الصيف القصير التي تكون مرعى خصبا لهذه الحيوانات .

التربات : (الشكل ١٠) :

بينما تختلف الظروف الطبيعية داخل أوروبا اختلافا كبيرا فإن التربات الصالحة للزراعة المكثفة توجد في مناطق كبيرة من القارة :

١ - ففي الأماكن التي كانت تكسوها الغابات النفضية ذات الأوراق العريضة نجد التربات البنية الخصبة التي تحتوى على كميات وافرة من الدبال humus وقد جذبت هذه التربة أعداد المزارعين الأوائل الذين أزالوا الغابات لزراعة هذه التربة وما زالت هذه التربة تعول أعدادا ضخمة من المزارعين اليوم . ومنذ أن أزال الإنسان الأشجار فقد حرمت هذه التربة من الأوراق التي كانت تسقط كل خريف كما أن الحرث والتسميد المتكرر وزراعة الحشائش لأغراض الرعى قد جعلت هذه التربات أقرب إلى صنع الإنسان منه إلى التربات الطبيعية . ومن المدهش أنه لم



تحدث أى إزالة للتربة بواسطة عمليات التعرية وهذا يمكن عزوها جزئيا إلى جعل أجزاء كبيرة من الأرض مزروعة بالحشائش التى تساعد فى تماسك التربة .

٢ - أما فى المناطق التى تغطيها الغابات الصنوبرية والمختلطة فنجد فيها التربات الحمضية الفقيرة التى تسمى بالبدزول Podzols (الكلمة روسية وتعنى التربة ذات اللون الرمادى) ولجعل هذه التربة صالحة للإنتاج الزراعى فلا بد للمزارع أن يعمل شيئين :

أ - إضافة كميات كبيرة من السماد لسد النقص فى الدبال .

ب - إضافة الجير Lime وهى مادة قلوية ليحايد حموضة التربة البدزولية .
ورغم هذه النقائص فإن تربات البدزول تستغل للزراعة فى أماكن واسعة فى نطاق الغابات المختلطة الأصلية .

٣ - يتميز معظم نباتات ومناخ إقليم البحر الأبيض المتوسط بتربات قرنفل أو أحمر اللون ذات عمق وخصوبة مختلفين ويطلق عليها الاسم الإيطلالى Terra rossa أى « الأرض الحمراء » . وهذه التربات مستخلصة من الحجر الجيري وصحلة ونادرا ما تمتد إلى عمق كبير . وبالمقارنة مع تربات أوروبا الأخرى فإن التربة الحمراء هى أكثر هذه التربات التى أسىء استعمالها بواسطة الإنسان . فى مديريات أسبانيا الوسطى والجنوبية نجد أكثر من نصف الأرض قد تعرض لعوامل التعرية والانجراف التربة ، وكل الأراضى المزروعة التى تزيد نسبة الانحدار فيها عن ٣ ٪ أصابها أضرار جسيمة بفعل التعرية . ولهذا نجد هجرة الأرض التى لم تعد صالحة للزراعة متفشية كما أن هناك بعض البساتين وحقول العنب والحبوب قد فقدت أكثر من ثلاثة أقدام من التربة السطحية وما تحتها Subsoil ، مما أدى إلى تطهير مستودعات الخزانات التى أقيمت للرى وإلى انسداد مجارى الأنهار والتصريف بمفتحات الصخور والتربات المنجرفة . ومن العوائق التى تقف دون تطبيق إجراءات صيانة التربة (مثل : الحرث الكنتورى contour ploughing) وعمل المصاطب Terracing و strip-cropping) تجزئة أو تقسيم الأرض الزراعية

إلى أجزاء صغيرة تبعا لقوانين الوراثة . وتعمل الحكومة الأسبانية جاهدة لحل هذه المعضلة ولكن إصلاح عملية التخريب التى استمرت منذ آلاف السنين لابد وأن تكون صعبة للغاية .

٤ - أما أخصب تربات أوروبا فهى تربة التشيرنوزم | Chernozems (وهى كلمة روسية تعنى الأرض السوداء | black earth) التى تطورت فى المناطق الحشائشية فى حوض البحر وسهل ولاشيا وأكرانيا . واللون الأسود دليل على الكميات الكبيرة من الدبال الذى تكون من تحلل الحشائش . وتوجد زراعة القمح فى هذه التربات ولذا يعد هذا المحصول مرتبطا بتوزيع هذه التربة فى أوروبا . كذلك تربة اللويس | Loess وهى ذات ارتباط وثيق بتربة التشيرنوزم ، وتوجد فى مناطق شاسعة غير متصلة تمتد عبر القارة من روسيا إلى فرنسا . وهذه التربة هشّة وسهلة زراعتها كما أنها خصبة ذات مسام رملى غنى فى الجير | Lime ولكن يجب الحرص الشديد فى زراعة هذه التربة لأنها سريعة التعرض لعمليات التعرية والجرف .

٥ - أما التربات الغرينية | alluvial فنجدتها مبعثرة فى أحزمة حول معظم الأنهار . وهناك الكثير من المنخفضات الغرينية التى نجدها حول البحر المتوسط ومن ضمنها منطقة البساتين | huertas فى ساحل بتيكو | betico فى أسبانيا (والكلمة تعنى « بستان بالأسبانية وهى جيوب من الساحل ذات تربات غرينية خصبة وتمارس عليها زراعة مكثفة) ، وعلى هذه التربات نجد أكثر الزراعات كثافة فى إقليم البحر الأبيض المتوسط . وتوجد منطقة تربة غرينية كبيرة فى الأراضى المنخفضة فى هولنده وبلجيكا حيث تكاثفت أنهار عدة فى بناء دلتا كبيرة . وقد ساعد الإنسان فى سرعة العملية الارسابية فى إقليم البحر المتوسط وذلك عن طريق إزالة الغابات مما ساعد فى عملية انجراف التربة خاصة من أطراف الجبال وكان أحد نتائج هذه العملية أن تراكمت الإرسابات فى الموانئ وجعلها غير صالحة لاستقبال السفن . وهناك بعض المدن التى كانت موانئ فى العصر الكلاسيكى وتقع الآن بعيدا عن البحر مثل مدينة | Revena فى وادى نهر البو | Po التى تقع الآن على بعد ١٠ كيلومترات إلى الداخل . وكذلك جبل سيسرو فى الساحل الغربى لإيطاليا والذى كان جزيرة فيما مضى ولكنه الآن متصل بالساحل الإيطالى بحزام واسع من الطين .

٦ - أما في منطقة التندرا Tundura (وهي كلمة مشتقة من الكلمة Tunduri الفنلندية وهو جبل في فنلندة يبرز إلى ما فوق حد الغابات) والمناطق الجبلية العالية نجد فيها إما الصخور العارية التي تسمى فيل | Fjell والتي غالبا ما تكون مغطاة بحشائش فقيرة ، أو تربات ذات تطور فقير - أى تربة مستنقعية ذات حموضة عالية ، وهنا تعوق درجة الحرارة المنخفضة العملية الكيميائية والحيوية وهذه العمليات أساسية في تكوين التربة ولذلك نجد أن الزراعة معدومة في هذه المناطق . وأحسن ترباتها تعول أعدادا ضئيلة من الرعاة نظرا لفقر الحشائش التي تنمو عليها .

أثر الإنسان في البيئة الأوروبية :

١ - التضاريس :

ليس الإنسان نتاجا سلبيا للبيئة التي يعيش فيها ، خاصة إذا كان هذا الإنسان قد وصل إلى مستوى فنى رفيع . ولا يزال كثير من القرارات التي تتخذ في إطار التراث الحضارى تتأثر بالظروف الطبيعية المحيطة ، فالإنسان يعطى اعتبارا خاصا للتضاريس عندما يختار موطنه وسبل معيشتة وقد ورد آنفا الذكر عن أثر الممرات الموجودة في المناطق المنخفضة والممرات الجبلية على طرق الإغارة والتجارة ، كما لا يخفى دور المناطق المتضرسة الوعرة في إيواء الأقليات القومية والحفاظ على بقائها وعباداتها من تأثير الثقافات الأخرى . ويمكن أن نضيف في هذا المجال كيفية تأثير التضاريس في توزيع السكان خاصة وأن معظم سكان أوروبا يقطنون الأماكن السهلية المنخفضة وقد يكون اختيار السهول للاستيطان نتيجة اختيار آخر ألا وهو القرار بأن يكون الاستقرار الزراعى هو نمط الحياة الأفضل بالنسبة للإنسان الأوروبي بدلا من حياة التجوال والجمع والالتقاط ، وقد يجد الصياد المناطق الجبلية مرتعا لنشاطاته في حين أن المزارع لم يختار المناطق السهلية اعتباطا . فإن أبرز ما يميز معظم سهول أوروبا هو الكثافة السكانية العالية في حين أن المناطق الجبلية تتميز بتخلخل سكانها . ففي وادى نهر البو (سهل لمبارديا) في شمال إيطاليا تصل الكثافة السكانية إلى ١٠٠ شخص للكيلومتر المربع (٢٥٠ شخص للميل المربع) في حين

أن أجزاء كبيرة من جبال الألب والأبنين المجاورة تقل كثافة السكان فيها إلى أقل من عشر الكثافة الموجودة في وادي البو. والاتجاه الآن في أوروبا هو الهجرة المتواصلة من هذه الأماكن الجبلية إلى المدن الموجودة في الأماكن المنخفضة طلباً للعمل مثلاً يحدث في مدن تورينو وميلانو الصناعية التي تستقطب أعداداً ضخمة من سكان الجبال إلى مصانعها، خاصة الشبان اليافعين الذين يهاجرون من مواطنهم تاركين خلفهم الأطفال والعجائز. وإزالة الغابات من الأماكن المنخفضة تفسر إلى حد كبير جاذبية هذه المواضع من الناحية الزراعية.

وإذا كان الإنسان يتأثر بالتضاريس من نواحي ووسائل عديدة فهو بطبيعة الحال لم يقف موقف المتفرج إزاء هذه المؤثرات بل تجاوب معها وأثر فيها وترك آثاره واضحة على سطح القارة. ومن هذه الظواهر البشرية التي نراها اليوم :

(١) عمل المصاطب :

عمل المصاطب فن قديم ربما جلب أساساً من الأطراف الجبلية من منطقة الهلال الخصيب، وقد استطاع الإنسان بواسطتها أن يسوى منحدرات الجبال لأغراضه الزراعية. وهذه الظواهر وإن كانت محدودة الانتشار فإنها تعتبر دعامة الزراعة في مناطق من القارة مثل وادي نهر الراين حيث يلاحظ المسافر بين مدينتي بون ومينز مصاطب محكمة الصنع ترتفع من شاطئ النهر حتى سفوح الهضبة وهي تزدان بأشجار العنب أو الكروم. وكذلك في منطقة البحر الأبيض المتوسط حيث تقل الأراضي المستوية وتلعب المصاطب دوراً هاماً في زراعة المنحدرات الجبلية.

(٢) التلال البشرية :

ومن الظواهر البشرية التي نجدها متناثرة في أجزاء عديدة من القارة الأوروبية تلك الجبال الصناعية التي تكونت من مخلفات صهر المعادن كما في أودية ويلز وبمجموعة التلال التي أقامها النورمان في العصور الوسطى لصدهجمات المغيرين في شرق أيرلنده وفي سهول مقدونيا أيام الإسكندر الأكبر.

ولكن أهم ظاهرة بشرية تركها الإنسان على سطح القارة هي الساحل الهولندي والذي يوضح إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يؤثر في بيئته الطبيعية ويدللها ويخضعها لأغراضه المختلفة.

(٣) التغيرات التي تعرض لها ساحل هولندا : (شكل ١١) :

قطن الهولنديون منطقة ساحلية منخفضة تتعرض لهبوط تدريجي يقدر بنحو عشرين سنتيمترا في القرن أو بمقدار سنتيمتر واحد كل خمس سنوات . وهذا الانخفاض الذي يتعرض له الساحل الهولندي يقابله ارتفاع في الساحل السويدي المطل على بحر البلطيق . وقد بدأت هذه الظاهرة (هبوط الساحل الهولندي وارتفاع الساحل السويدي) منذ نهاية عصر البلايستوسين وأدت إلى هبوط سواحل هولندا الهامشية بمقدار عشرين مترا (٦٥ قدما تقريبا) . وعلى الرغم مما تسهم به أنهار الراين ، وماس ، وشيلد من إرسابات طميية ضخمة تخفف من نتائج عملية هبوط هذا الساحل إلا أن الشعب الهولندي قد استبسل أمام غزو البحر . ولولا جهود هذا الشعب ومقاومته لطغيان مياه البحر لأضحت أجزاء كثيرة من سواحل هولندا تقع تحت مياه عميقة الآن .

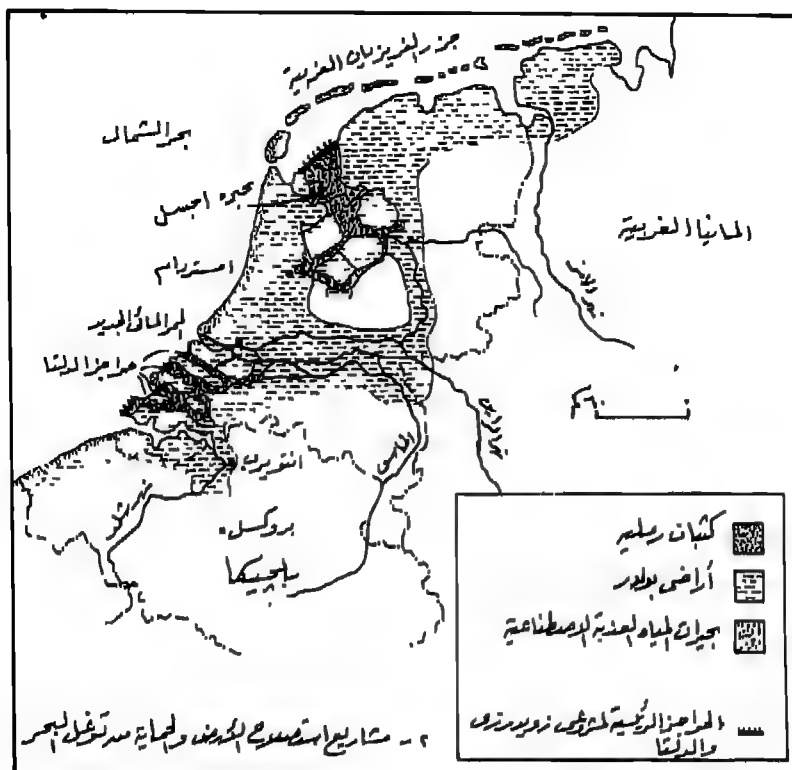
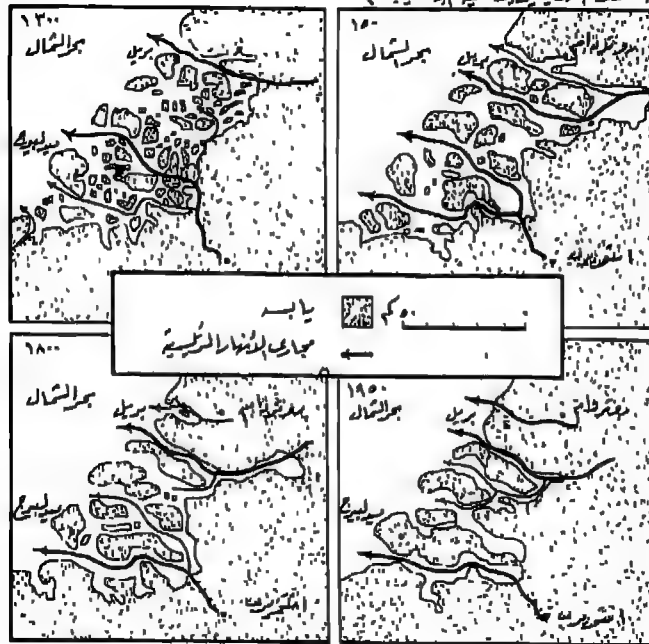
كيف بدأت قصة طغيان مياه البحر؟

قبل أن تبدأ مياه البحر توغلها واتجاهها صوب الساحل الهولندي كان هذا الساحل قليل التعاريج تحميه حواجز من الكثبان الرملية تتخللها أنهار الراين وماس وشيلد وهي في طريقها إلى بحر الشمال .

وحينما تعرضت بعض الأماكن الواقعة إلى الداخل من الكثبان الرملية للهبوط دون مستوى البحر ، غمرتها المياه التي اندفعت بفعل الرياح ، وأخذت هذه المياه تخترق الحاجز الرمي من الجهة الشمالية بصفة خاصة ، ولم يبق من هذا الحاجز سوى بعض الجزر التي تمتد في محور عام من الشرق إلى الغرب (جزر الفريزيان) . أما المنطقة التي يشغلها بحر فادن (فادن زى الضحل والتي تمتد ما بين جزر الفريزيان waddenzee والشاطئ الخالي ، فقد كانت أرضا يابسة منذ بضعة آلاف من السنين .

وحينما حكم الرومان الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) كانت هناك بحيرة كبيرة جنوبى بحر فادن ويتصل بها أحد فروع نهر الراين ، إلا أن هذه البحيرة العذبة لم

١- التقسيم الذي طرأ على الساحل الهولندي ١٣٠٠ - ١٩٥٠
(سند الهولندي الذي كتبه هولنديون)



صراع الهولنديين مع البحر

تلبث أن تحولت إلى خليج من المياه المالحة التابعة لبحر الشمال . وفى الفترة من سنة ٦٩٣ م إلى سنة ١٢٣٧ م اندفعت المياه بتأثير العواصف الشديدة لتغمر شريط الأرض اليابسة التى كانت تفصل بين البحيرة العذبة التى عرفت بالبحيرة الرومانية أو Flevo-lacus وبحيرة فادن وتكونت بحيرة ضحلة عرفت باسم زيدورزى Zuiderzee أو البحر الجنوبى .

لقد شاهد ساحل هولندا ظاهرات عديدة تتمثل فى زحف حواجز الكشبان الرملية جهة الشرق بتأثير الرياح الغربية ، وقد قدرت سرعة هذا الزحف بنحو ثلاثة كيلومترات خلال ١٥٠٠ سنة ، وفى نفس الوقت كان البحر يغطى ويغضى بعض المناطق وتلتحم مياهه المالحة بمياه بعض البحيرات العذبة وينتهى الأمر بأن تصبح هذه البحيرات العذبة أجزاء من مياه البحر .

موقف الهولنديين من طغيان مياه البحر :

تنوعت أساليب الهولنديين فى مواجهة أخطار طغيان مياه البحر وذلك على مدى ألفى سنة . بدأت جهود الهولنديين الأولى تتجسد فى إقامة استحكامات وتلال ترابية mounds عليها منازلهم حتى تكون بمنأى عن المناطق التى تغمرها المياه ، ومازالت بعض هذه الرواى باقية وآهلة بالسكان حتى الآن . وكانت هذه التلال الترابية تبدو كجزر حينما تتعرض المنطقة لفيضان مياه البحر . وتراوح ارتفاع هذه الرواى ما بين ثلاثة الى اثنى عشر مترا وتفاوتت مساحاتها ما بين هكتار وستة عشر هكتارا . وقد اقيمت معظم هذه الرواى الترابية Terben ما بين القرنين الثالث والعاشر الميلاديين . ومازال حوالى ١٥٠٠ رايه باقية حتى الآن .

ومنذ القرن العاشر الميلادى بدأ الهولنديون يقيمون الحواجز والعوائق أمام الساحل حتى تتجمع الارسابات الرملية والطينية الذى تأتى به مياه الأنهار مما أدى بمرور الوقت إلى نمو حجم الجزر الركامية الموجودة فى دالات الأنهار .

وفى بداية القرن الحادى عشر الميلادى بدأت بناء السدود والمستنقعات الساحلية فى الجنوب فى مقاطعات فلاندرز وزيلاند والأجزاء المجاورة بلجيكا وكان

الغرض من إقامتها هو حماية الأراضي التي ترتفع عن مستوى البحر عند الجزر والتي كانت تتعرض من وقت لآخر لفيضانات . وكانت الأراضي تحمى بالسدود ذات الفتحات التي تفتح عند الجزر لتصريف المياه التي تتجمع بواسطة الرشح والتسرب .

واستمرت عملية بناء السدود منذ القرن الحادى عشر وبلغت ذروتها فى القرن الرابع عشر لحماية الأراضي المزروعة ، وهكذا كان موقف الهولنديين فى بادئ الأمر إزاء أخطار طغيان مياه البحر موقفا دفاعيا فى الغالب على أن استصلاح الأراضي الشديدة الانخفاض عن طريق استخدام طاحونة الهواء بدأ منذ القرن الثانى عشر الميلادى على أقل تقدير ، واستفاد الهولنديون من الرياح الغربية فى إدارة طواحينهم ، تلك الرياح التي تدفع مياه البحر نحو الساحل . لقد عرف الهولنديون كيف يستخدمون هذه الرياح لاسترداد أراضيهم التي غمرتها المياه واستصلاحها . وقد تمكن الهولنديون من استخدام تسع وأربعين طاحونة فى تجفيف بحيرة عدبة كانت تغطى مساحة ٧٣٠٠ هكتار وذلك خلال ثلاث سنوات فقط (١٦٠٩ - ١٦١٢ م) ثم تابعت عمليات التجفيف .

وفى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين استفاد الهولنديون من المضخات البخارية والكهربائية . وفيما بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٦ تم بناء سد حول بحر هاريمر Haartemmer ، وتم تجفيفه خلال خمس سنوات (١٨٤٧ - ١٨٥٢ م) باستخدام ثلاث مضخات بخارية . وكانت مياه هذا البحر تغطى مساحة تصل إلى ١٧٨٠٠ هكتار غرقى امستردام .

مشروع زويدرزى (البحر الجنوى Zulder Zee)^١

كان بحر زويدر منذ أن تكون مصدر قلق للهولنديين ، إذ أنه ماتهت رياح شمالية قوية حتى تندفع مياهه لتغرق الأراضي المستصلحة . وكان فيضان سنة ١٩١٦ المدمر ذا أثر كبير فى حث الحكومة على اتخاذ إجراء فعال لوقف خطر طغيان هذا البحر . وتمثل هذا الإجراء فى إقامة سد بحرى ضخم فى الفتحة التي يتصل بها هذا البحر بمياه المحيط وبدأ العمل فى هذا السد سنة ١٩٢٥ وانتهى فى عام ١٩٣٢ م . وقد أسهمت الأنهار التي كانت تصب فى زويدرزى فى غسل الأراضي التي كانت تغطيها مياه

البحر وكونت بحيرة مياه عذبة عرفت باسم اجيسل Ijssel. وهكذا اختفت مياه زويدرزى الملحة ولم يتحسر على زوال هذا البحر إلا صيادو الأسماك .

أما المرحلة الثانية لهذا المشروع فهي التجفيف التام وتحويله إلى أراض زراعية منتجة بعد تجارب طويلة وقد تم استيطان بعض أجزاء من هذه المنطقة استيطاناً كاملاً في فترة الاحتلال الألماني ١٩٤١ م . وتم تجفيف أجزاء أخرى في الشمال الشرقي ما بين ١٩٣٦ و ١٩٦٠ ، والأجزاء الجنوبية ١٩٦٨ ، ويبدو أن التجفيف الكامل لجميع أجزاء زويد زى سيكتمل سنة ١٩٨٥ م وبذلك تكون المساحة التي تم اكتسابها حوالى ٢٣٠٠ كم^٢ ، وقد رؤى بقاء مساحة كبيرة من بحيرة اجيسل Ijssel كمصدر للمياه العذبة وكمنطقة ترفيهية .

مشروع الدلتا :

على الرغم من أن مشروع زويد رزى قد خفف من اخطار طغيان مياه البحر على الساحل الهولندى إلا أن هناك منطقة أخرى في مقاطعة زيلاند في الجنوب الغربى حيث تمر مياه أنهار الراين وماس وشيلد خلال فتحات كبيرة تخترق الحاجز الرملى القديم . وقد كانت كارثة يناير سنة ١٩٥٣ م ناقوس الخطر الذى نبه الحكومة الهولندية ضرورة إتخاذ الإجراءات الكفيلة لحماية المنطقة من أخطار الفيضانات ومعروف أن رياحا بلغت سرعتها ١٠٠ ميل فى الساعة دفعت المياه داخل مصب نهر الراين فى الفترة من ٣١ يناير حتى ٢ فبراير سنة ١٩٥٣ م فأدت إلى انهيار السدود وإغراق المزارع والمدن القائمة على الجزر المنتشرة فى المصب . وقد اندفعت المياه خلال ثمانين ثغرة فى السدود فأغرقت حوالى ١٥٠ ألف هكتار من الأراضى الزراعية ولقى ١٨٠٠ شخص حتفهم وقدرت الخسائر بنحو نصف مليون دولار .

وأمام هذه الكارثة وافقت الحكمة الهولندية على بناء أربعة سدود أمام مصبات أنهار الراين وماس وشيلد مع إنشاء بحيرة عذبة من ناحية البحر وقد بدأ التنفيذ فى هذا المشروع ومازال العمل جارياً . وقد ترك مصب نهر شيلد الغربى مفتوحاً لانه يخدم ميناء أنتويرب البلجيكى . وسوف يؤدى مشروع الدلتا إلى استصلاح مساحة تصل إلى ١٦٢٠٠ هكتار وهى مساحة صغيرة إذا ما قورنت بالتكاليف ، لكن

الهدف الأساسى لهذا المشروع هو الوقاية ، من أخطار الفيضانات وليس التوسع فى استصلاح الأراضى .

وعلى ضوء هذه الجهود التى قام بها الهولنديون يمكننا أن نفهم المثل الهولندى .
الذى يقول : لقد خلق الله العالم وصنع الهولنديون بلدهم .

أثر الإنسان على المناخ والطقس :

يبدو أن أثر الإنسان الصناعى المعاصر فى إحداث تغيرات فى مناخ منطقة ماقد أصبح جليا ومن الظواهر المسلمة بها فى عالم اليوم . ويظهر أثر هذا التغير واضحا فى منطقة لندن التى تشكل أكبر تجمع حضرى فى قارة أوروبا . ويبدو أن رداءة مناخ لندن كانت ماثرا اهتمام الكتاب منذ قرون مضت . ففي عام ١٦٦١م كتب جون ايفلن J. Evelyn مشيرا إلى لندن بأن « المسافر المهوك سرعان مايشم رائحة لندن من مسافة بعيدة قبل أن يرى معالم المدينة التى يقصدها . وعندما ترى ملايين المداخل تدفع بدخان الفحم الحجرى إلى السماء يخيّل إليك أن لندن أقرب إلى بركان جبل اتنا أو استرومبولى أو ضواحي جهنم أكثر من كونها تجمعا سكنيا يسكنه اناس عاقلون » .

وحاليا يكثر الحديث من بعض الجغرافيين الذين يدرسون المناخ عن ما أسموه « جزيرة الحرارة » فى منطقة لندن . ويشيرون بذلك إلى ظاهرة الحرارة المرتفعة وبصفة دائمة فوق المنطقة المبنية من المدينة أكثر منه فى الحزام الاخضر فى المناطق الريفية المحاورة أو المحيطة بالمدينة . وترتفع درجة الحرارة الأدنى بالليل فى بعض الأحيان بحوالى ٧ درجات من حرارة المناطق الخضراء المحيطة بها فى حين أن درجة الحرارة اليومية القصوى تكون أكثر ارتفاعا . وتعزى هذه الظاهرة المناخية الى أسباب عديدة منها :

١ - عدم قدرة الإشعاع الحرارى الصادر من سطح الأرض على احتراق الصباب المتلوث الذى يتدلى من فوق المدينة .

٢ - احتفاظ الحرارة بواسطة الطرق المسفلتة والمباني .

٣ - الحرارة الناتجة محليا من احتراق الوقود بواسطة المركبات والمصانع والمنازل .

وقد كان للنشاط البشرى أيضا أثره على خصائص المطر والرطوبة فى منطقة لندن . وقد لوحظ أن قلب المدينة يتمتع بعواصف رعدية أكثر وأمطار عاصفية وبدرجة رطوبة مطلقة أكثر مما نجدها فى المنطقة المجاورة . وفى خلال المشاهدة لوحظ أن العواصف الرعدية تنشأ وتتكشف أسرع فوق شمال لندن ويبدو أن السبب يرجع إلى الكمية الكبيرة من التصاعد الحرارى الناتج من التسخين السطحي الأكثر وإلى الكثرة الشديدة للجزيئات الدقيقة من المواد المرتبطة بالتلوث الهوائى ، والتي تتكشف حولها ذرات الرطوبة لتكوف مطرا . وقد تسبب التقليل من حرق الفحم فى تخفيض درجة التلوث الهوائى فى لندن ، ولكن أثر الإنسان الواضح على مناخ لندن مازال ملموسا ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة فى المناطق ذات - الكثافات السكانية العالية فى باقى أجزاء القارة ، ومن خلال تطبيق إجراءات رسمية انخفضت نسبة التلوث الهوائى فى منطقة لندن مما خفف من أثر الإنسان على المطر والحرارة المحليين . ولكن مشكلة التلوث الهوائى حتى فى مدن بعيدة من المناطق الصناعية مثل بلغراد وأثينا ، مازالت ماثلة فى أجزاء كثيرة من أوروبا .

الفصل الخامس

السكان في أوروبا : توزيعه وخصائصه

يبدو أن الإنسان دخل أوروبا مهاجرا من موطن أو أكثر من مواطن البشرية الأولى ويرجع أكثر الاحتمالات بأنه قدم من الجنوب الشرقى مع أن بعض العلماء يقترحون مدخلا آخر من الجنوب الغربى من القارة . ولانستطيع تحديد الوقت الذى حدثت فيه هذه الهجرة الأولى ولو أن بعض الدلائل تشير إلى زمن ممتع في القدم إذ اكتشف أن أجداد الإنسان الأوروبى كانوا قد استقروا في أجزاء من القارة منذ أواسط عصر البلايستوسين ، ومن المرجح أن ذلك حدث في الفترة ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ سنة أو إبان العصر الحجري القديم . وقد كان عدد السكان ضئيلا آنذاك ولم يتعد بضعة عشرة آلاف في أوروبا الوسطى وبضعة مئات في بريطانيا . ولا يمكن تمييز هذه المجموعات البشرية الأولى إلا بواسطة آثارهم أو مخلفاتهم الحضارية رغم أن التغير الحضارى قد تأثر إلى حد كبير بالتغيرات المناخية التى أعقبت نهاية عصر الجليد التى أتاحت انتشار الإنسان شمالا . وبحلول العصر الحجري الحديث أخذ الإنسان يترك بصماته على البيئة وذلك عن طريق ممارسته لنوع الزراعة البدائية التى دخلت أوروبا من الجنوب الشرقى عن طريق الدانواب والبلقان .

كان الانتشار الحضارى نتاجا للهجرات أحيانا ، وبواسطة هذه العملية حدد الاختلاط والتمازج والانصهار والاندثار ، تركيب الأنواع الطبيعية التى أنتجت تدريجيا النمط الانثروبولوجى للقارة ، رغم أن بعض التغيرات في الإنسان نحو شكل أكثر ملاءمة من الناحية الاقتصادية قد حدث بواسطة الانتقاء الطبيعى (مثل الحدوث المتزايد للرأس العريض) . وقد انتشرت اللغة الهندية الأوربية بواسطة هذه العملية أيضا .

أما كلمة « الجنس أو السلالة » فهى مفهوم انثروبولوجى طبيعى ويستخدم في

تحديده بعض الصفات مثل اللون وشكل الرأس والقامة وخصائص الوجه (الرأس والوجه والأنف والشفاه) وفصيلة الدم . ولكن المعلومات عن سكان القارة القدماء ضئيلة مما يجعل التعرف عليهم وفق هذه الصفات الانثروبولوجية عسيرا ، والجهاجم التي عثر عليها لا تعطى فكرة عن شكل ولون الشعر والجلد كما أن عملية حرق الجثث قد قضت على الجهاجم وأصاب التعقيد مسألة الجنس برمتها نتيجة اخضاعها لتصميمات عاطفية وذاتية والاختلاط بين الانثروبولوجيا الطبيعية والاثولوجيا (الانثروبولوجيا الاجتماعية) . وقد اهتمت الدراسات عن الجنس الطبيعي بالأفراد أكثر من اهتمامها بالسكان الذي أصبح في الآونة الأخيرة مركزا لاهتمام العلماء . فسكان منطقة ما مزيج من أنواع عديدة من الأجناس .

وأكثر التصنيفات شيوعا في أوروبا هي تقسيم سكانها الذين يتكونون أساسا من السلالة القوقازية الى ثلاثة أنواع :

١ - النورديون

٢ - الألب - الديناريون

٣ - سكان البحر المتوسط

ولكن هناك من يقترح أن هذه الأنواع عبارة عن تنوع في مجموعة سلالية واحدة وحدث نتيجة التكيف والملاءمة للبيئات المختلفة التي انتشرت فيها هذه المجموعة وكذلك لتطوير أفضل الأشكال التي تلائم هذه البيئة . كما أن هناك فروعا ثانوية تعرف عليها الانثروبولوجيون تشتمل على بقايا العناصر البشرية القديمة وأنواع ثانوية مثل البلطيين الشرقيين East Baltic الذين ظهروا نتيجة التزاوج بين النورديس والألب الديناريين . وعلى العموم يتميز النورديون، بالصفات الآتية : اللون الفاتح الذي يزداد بياضا كلما اتجهنا شمالا ويقال بأن هذا اللون الفاتح قد اكتسب خلال المراحل الأولى من الاستيطان البشري للمناطق الشمالية التي تتميز بالبرودة . ويقدر العلماء بأن هذا المستوى الحالي للون أخذ ما بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ رجيل ليصل إلى ذلك .

يتميز سكان شبه جزيرة إسكندناوه وهامش البلطيق الجنوى بلونهم الفاتح وشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء وطول القامة والرؤوس الطويلة . وهم أساسا ينتمون إلى الجنس النوردى . أما سكان هامش البلطيق الجنوى فيتميزون بقامات أقصر ورؤوس أكثر عرضا ووجوه مسطحة وعظام وجنة عالية . وقد انتشرت هذه الصفات فى الجنوب أثر هجرات القبائل الجرمانية فى العصر الرومانى بينما أدت الهجرات الاسكندنافية فى العصور الوسطى إلى انتشار هذه الصفات النوردية حول منطقة الساحل الأطلسى .

(٢) المجموعة الألبية - الدينارية : تشكل هذه المجموعة أكثر المجموعات انتشارا إذ تتواجد فى أواسط وشرق وأجزاء كبيرة من غرب القارة ، ويتميزون بقاماتهم المتوسطة واللون الأسمر الفاتح والعيون البنية أو الفاتحة اللون وحجم رأس يتراوح بين المتوسط والعريض .

(٣) مجموعة البحر المتوسط : يتميز سكان جنوب أوروبا بنسبة عالية من الرأس العريض وقامات تتراوح بين المتوسط والقصير ولون الشعر والجلد والعيون الأسمر أو الداكن . ويصعب كثيرا التمييز بين هذه المجموعات والمجموعة الأخرى التى تسكن حول أجزاء البحر المتوسط غير الأوروبية . ويتميز بعض سكان الساحل الأطلسى وحتى جنوب إسكندناوه ببعض هذه الصفات ويرجح أنها اكتسبت نتيجة هجرات حدثت فى عصور ما قبل التاريخ . وتوجد صفات آسيوية (مغولية) فى بعض الشعوب التى دخلت القارة عن طريق جنوب روسيا وحوض نهر الفولجا ، كما أن الصفات الطبيعية للسكان القدماء أمكن التعرف عليها من دراسة الأقليات التى تقطن فى الأماكن الجبلية المنعزلة فى غرب ووسط وجنوب شرق القارة .

وتتمثل فى الأوروبيين تركيبات متعددة من الشكل واللون المستمدة من الخصائص الرئيسية الثلاثة المتوارثة من الماضى ، وليس الأوروبيون خليطا من عناصر جنسية ثلاثة بغية تهجينها من فترة طويلة . ومثلا نجد استمرار اللون الفاتح الذى يظهر بوضوح فى الأجزاء الشمالية من القارة وخاصة وسط العناصر الأقدم ذوى الأجسام الضخمة والرؤوس العريضة المشتقة من شعوب العصر الحجري الأوسط والحديث

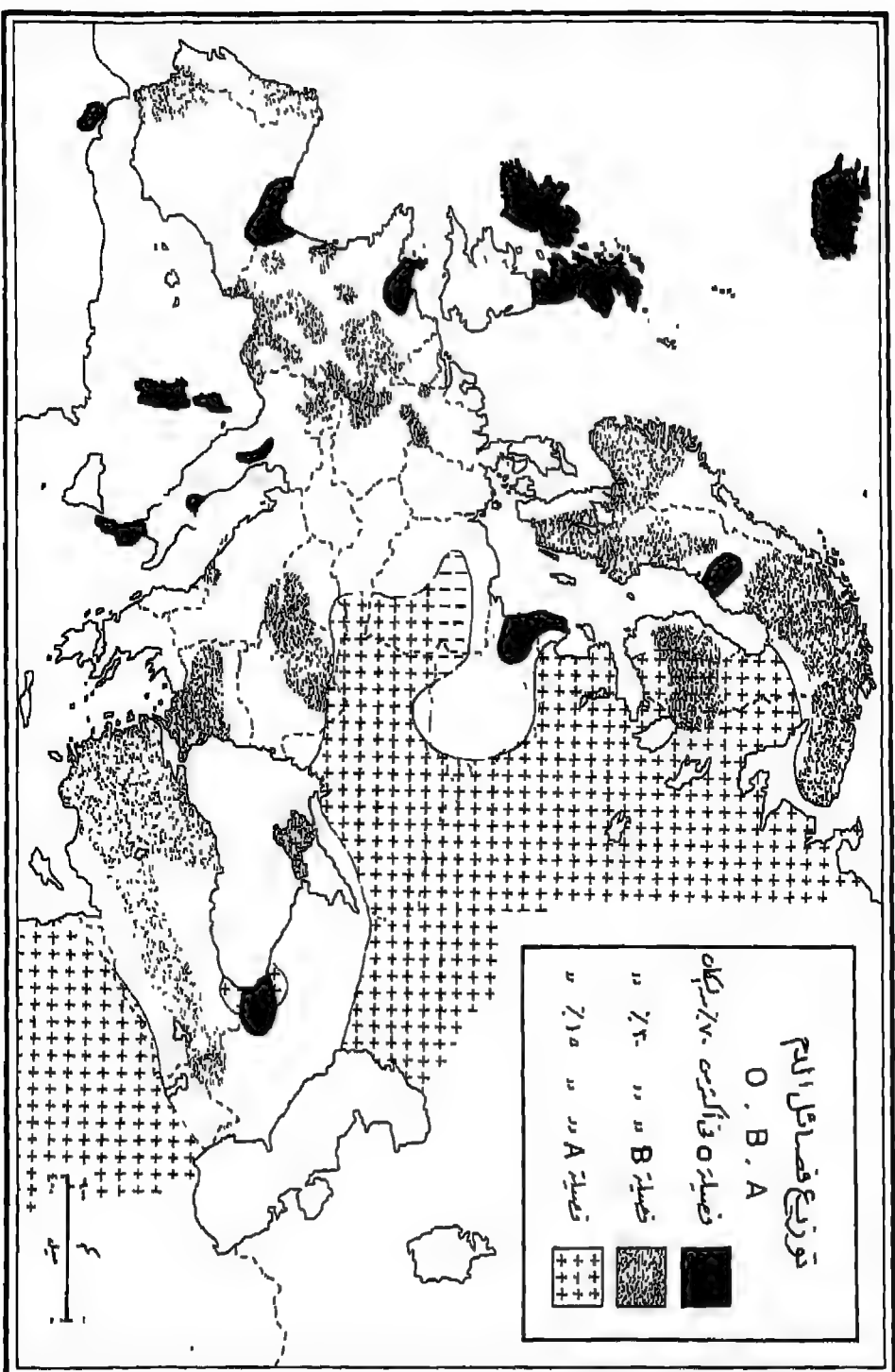
بينما تغلب استدارة الرأس خاصة في النطاق الأوسط وفي اتجاه الشرق نحو آسيا نتيجة التغيير الوراثي والهجرات . ومن الخطأ أن نعتبر هذه الأنماط والأشكال الموجودة غير قابلة للتغيير ، فالتغيير الجنسي مستمر خاصة في الوقت الحالى - نتيجة دخول عناصر غير أوروبية إلى أماكن متعددة من القارة .

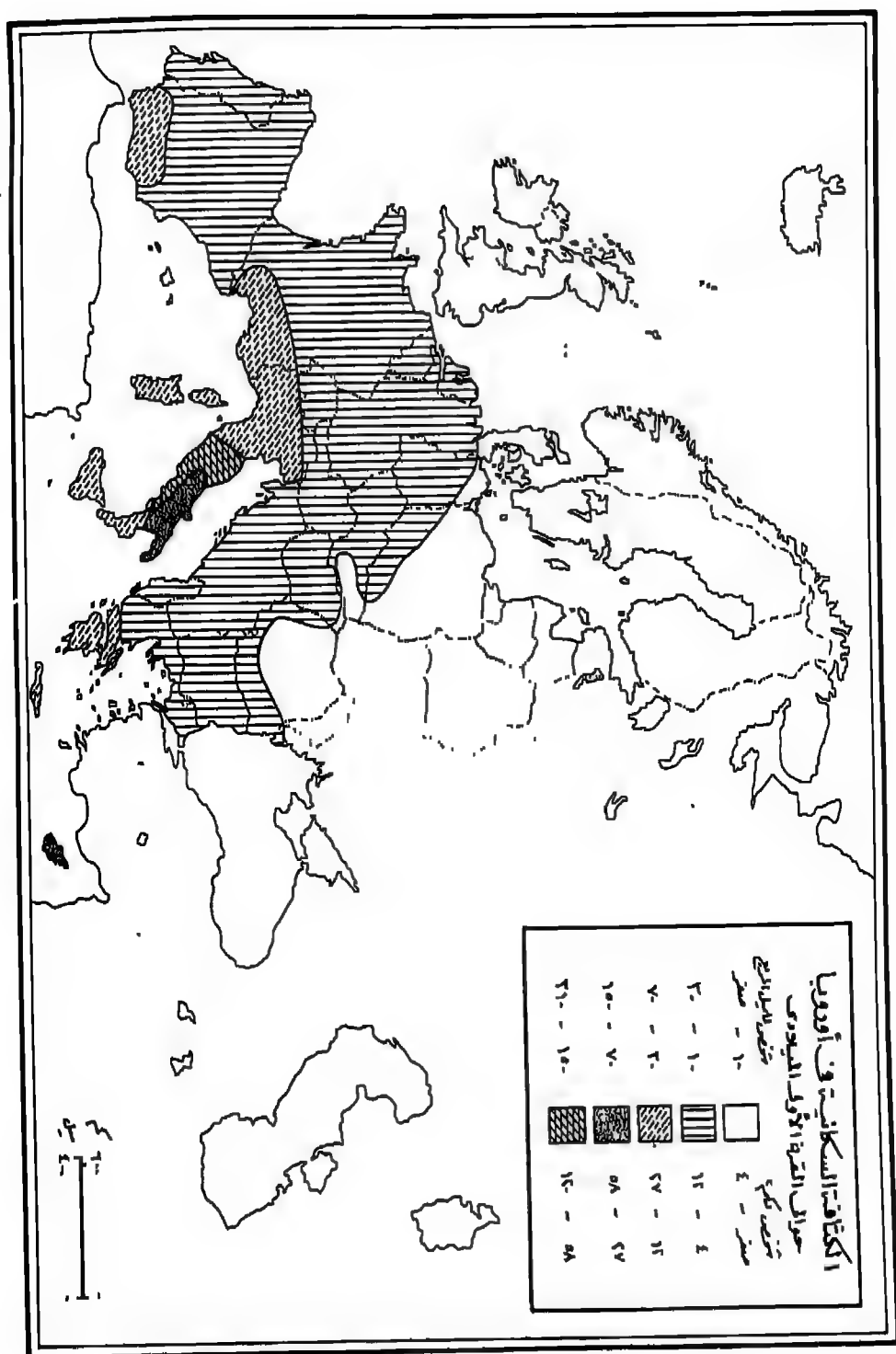
أما دراسة أصناف الدم فقد أظهرت أن الاستيطان الأولى للقارة قد حدث في شكل موجات متتالية أتت من جهة الشرق والجنوب الشرق . وفي هذا المجال يثير الباسك الذين يسكنون شمال أسبانيا كثيرا من الجدل حول أصلهم . فهم يتكلمون بلغة لا تنتمى إلى الهندية - الأوروبية وممثلة في قدمها ويظهرون في دمهم تكرارا منخفضا في فصيتي A و B وتكرارا أعلا في الفصيلة O وهذا النمط ملاحظ أيضا في بعض المناطق المنعزلة من الهامش الأطلنطى . وعلى العموم يمكن القول بأن الفصيلة A أكثر شيوعا في غرب أوروبا إذ نجدها في ٣٠ ٪ أو أكثر من سكان أجزاء من أيرلندا الغربية وشرق فرنسا وأسكتلندا وترتركه في المناطق الهامشية والجبلية من القارة قد يعنى بأنها قديمة في القارة . أما الفصيلة B فهي أكثر تواجدا في شرق أوروبا ولا تتعدى نسبة الذين يحملون هذه الفصيلة من سكان القارة أكثر من ١٨ ٪ . أما أكثر هذه الفصائل شيوعا فهي فصيلة O التي يتكرر حدوثها بكثرة في الأطراف الساحلية من غرب وجنوب أوروبا وفي أيسلندا وأيرلندا وكورسيكا وساردينيا ومنطقة الباسك إذ تصل نسبة السكان من ذوى الفصيلة O إلى ٧٠ ٪ . وإذا أخذنا انتشار الفصيلة على نطاق القارة فإن حوالى نصف سكانها من ذوى الفصيلة O (الشكل ١٢) .

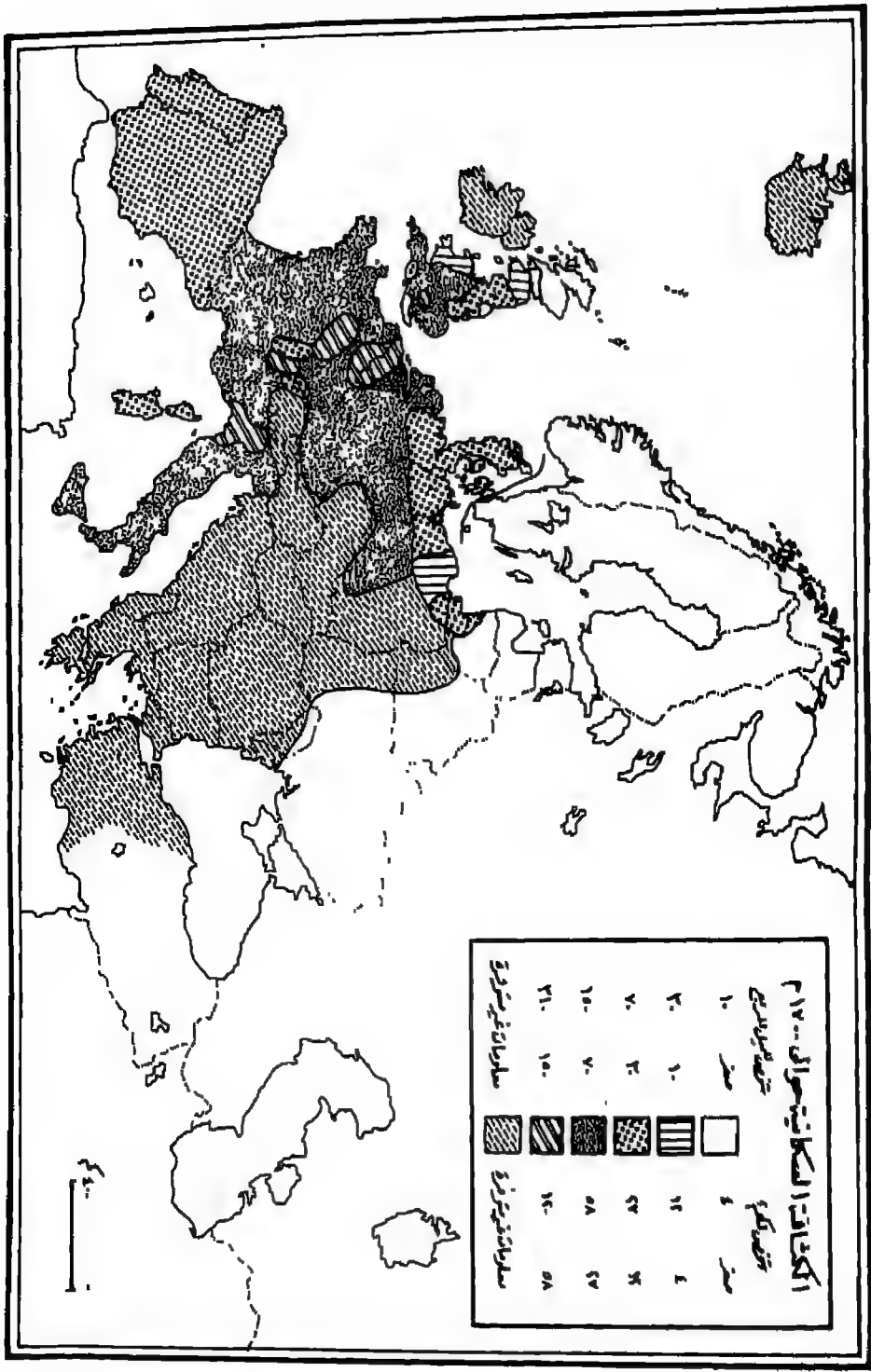
وقد أظهرت الدراسات وجود اختلافات محلية في فصائل الدم نتيجة الهجرات كما يظهر في الاختلاف بين سكان المناطق الساحلية والداخلية في شمال أوروبا .

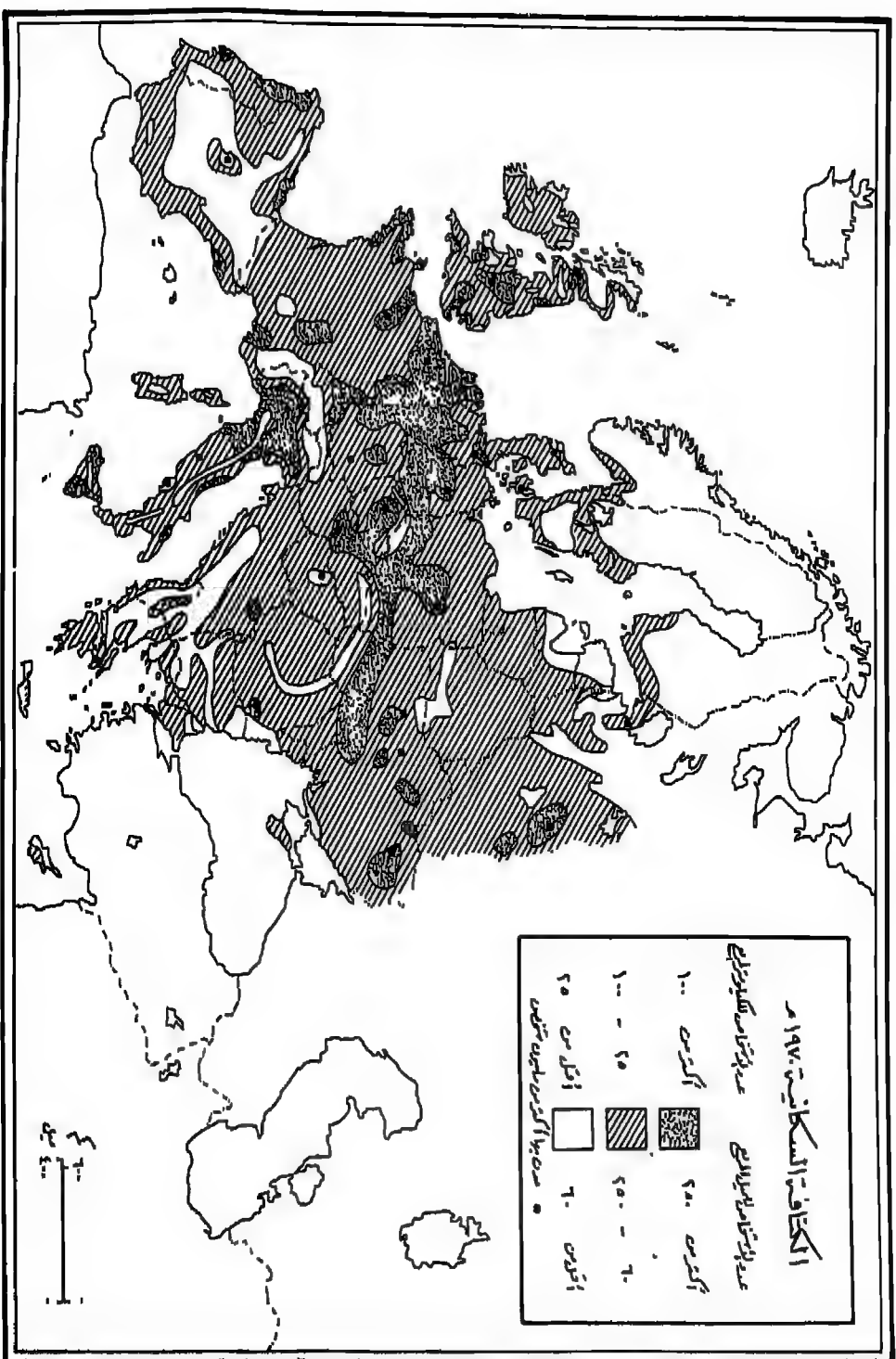
١ - توزيع السكان : (الأشكال ١٣ و ١٤ و ١٥) :

تحتوى القارة الأوروبية (باستثناء الاتحاد السوفيتى) حاليا (السبعينات) على حوالى ١٥ ٪ من سكان العالم ، وهذه النسبة أقل من نصيب القارة خلال القرن التاسع عشر عندما شهدت أوروبا زيادة ضخمة في سكانها ويتوقع الديمغرافيون أن









هذه النسبة ستنخفض بحلول عام ٢٠٠٠ إلى أقل من ١٠٪ نتيجة الانخفاض في الزيادة الطبيعية بين السكان في حين أن العالم الثالث سيشهد عكس ذلك . ويجب أن لا ننسى إسهام أوروبا في تعمير أجزاء كبيرة من العالم والمتمثل في هجرة أعداد ضخمة من الأوروبيين إلى أجزاء عديدة من العالم الجديد مما يزيد من نصيب أوروبا إلى ٢٥٪ من سكان العالم : فالشعوب التي تنحدر من أصل أوروبي تتواجد في أجزاء كبيرة من الاتحاد السوفيتي (حيث تصل نسبة الأوروبيين إلى ٨٠٪) وأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى والجنوبية وأستراليا وأجزاء من أفريقيا الجنوبية . وقد طورت هذه المجموعات مجتمعات وحضارات مميزة لهم إلى درجة أننا لا نستطيع أن نعتبرهم مجرد أوروبيين أجانب .

ويتضح من الجدول المرفق (رقم ٦) مدى الاختلاف الواسع في الكثافة السكانية بين الأقاليم المختلفة : ويتضح أيضا أهمية غرب ووسط أوروبا في هذه الناحية ، بينما يقل نصيب شبه جزيرة أيبيريا والدول الأسكندنافية كما يتوقع ارتفاع كبير في جنوب شرق القارة نظرا لنسبة النمو العالية هناك . وإذا أخذنا التوزيع السكاني حسب الدول نجد أن ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة وفرنسا تصدر كل المجموعات الأخرى ، وإذا قارنا بين المجموعتين الاقتصاديتين : مجموعة السوق الأوروبية التسعة (ويصل سكانها ٢٥٧ر٢ مليون نسمة) ومجموعة الكوميكون Comecon الاشتراكية ما عدا الاتحاد السوفيتي (وسكانها ١٠٥ر٧ مليون شخص) يظهر التباين واضحا إذ يصل نصيب المجموعة الأولى إلى ٥٤٧٪ ونصيب الثانية إلى ٢٢ر٥٪ من مجموع سكان القارة . ومن ناحية القوى العاملة فإن المدى أو الفرق بين سكان أكبر الدول (ألمانيا الغربية ٦٢ مليون) وبين أصغرها حجما (مثلا موناكو ٢٤ر١٠٠ ألفا) شخص (شخص ١٠٠٠) يبدو كبيرا . ولكن هذه الأرقام لا تعطينا فكرة كاملة عن التوزيع الحقيقي للسكان إذ تختلف الكثافة من منطقة لأخرى حسب عوامل معينة . فإذا درسنا خريطة لتوزيع السكان في القارة (شكل رقم ١٥) سنلاحظ وجود نطاقين ذي كثافة سكانية عالية (تصل إلى أكثر من ١٠٠ - ١٥٠ شخص للكيلو متر المربع) :

١ - نطاق يمتد من الغرب إلى الشرق على طول الطرف الشمالى من المرتفعات الوسطى .

٢ - ونطاق يمتد من الشمال إلى الجنوب على طول مجرى نهر الراين إلى شبه جزيرة ايطاليا عبر جبال الألب المتخلخلة السكان .

وخلف هذين النطاقين توجد تجمعات سكانية فى مناطق مناسبة وحول بعض المدن الكبيرة ، ويظهر أثر الجبال فى توزيع السكان واضحا من الخريطة إذ تصل الكثافة فى مثل هذه المناطق إلى ما بين ١٠ - ٢٥ شخصا لكل ٢ .

يبدأ النطاق الشرقى - الغربى من شمال غربى إنجلترا ويمتد عبر الميدلاندز إلى جنوب شرق إنجلترا حيث تصل الكثافة إلى مايريو ١٥٠ - ٢٠٠ شخص لكل كيلو متر المربع فى بعض الأجزاء التى تشمل المدن الكبيرة مثل ما نشستر وليفربول وبرمنجهام ومنطقة لندن . ويمتد نطاق الكثافة العالية عبر القنال الانجليزى ليشمل جزءا كبيرا من الأراضى المنخفضة وبلجيكا ، حيث الكثافة أعلا من إنجلترا ، وشرقا ليضم منطقة الراين - وستفاليا الصناعية حيث تصل الكثافة إلى ٢٠٠ شخص لكل ٢ ، وهنا تتمزج المدينة مع الريف ، مع مشاكل التخطيط الناجمة من مثل هذا الوضع . وتستمر الكثافة الريفية العالية فى منطقة البورد Borde ذات التربة الخصبة (تربة اللويس) التى تضم مدنا وأقاليم صناعية مما أدى إلى وجود تجمعات سكانية كبيرة كما حول بيفيلد Bielefeld وهانوفر Hanover

وبرنزويك Brunswick وفى حوض نهري الألب وسال Saale حيث توجد تربة اللويس تصل الكثافة إلى أكثر من ١٠٠ شخص لكل ٢ وتزيد خاصة حول المدن الصناعية مثل لا ييزيج وهال Halle بينما تصل الكثافة فى إقليم ساكسونى الصناعية حول مدينتى كارل ماركس شتادت Karl-Max-Stadt ودرسدن Dresden إلى أكثر من ٢٠٠ شخص لكل كيلو متر المربع ، ولكن الأحداث السياسية التى وقعت فى هذه المنطقة منذ عام ١٩٤٥ أحدثت تغييرات فى الكثافة السكانية فى منطقة اللويس الخصبة فى سايليزيا إذ أدى طرد الألمان القهرى من المنطقة واستيطانها بالبولنديين إلى انخفاض سكانى بالمقارنة مع مستواه قبل عام

١٩٣٩ . أما إقليم سايليزيا العليا الصناعي فقد استطاع المحافظة على كثافة سكانية ، خاصة في المدن ، أعلى من عام ١٩٣٩ م . ويستمر نطاق الكثافة العالية ليشمل جنوب بولنده الذى يتميز منذ قبل الحرب بكثافة سكانية ريفية عالية جدا إلا في بعض المناطق الفقيرة زراعيا في حوض سان Basins إلى الشرق من برزيميسل
pizemysl يتسع النطاق إلى داخل اوكرانيا (حيث تقل الكثافة خاصة في

أجزاءها الجافة) وينتهى في حقول فحم حوض الدونتس Donets Basin الروسى . ويقل النشاط الزراعى خارج هذا النطاق السكانى في شمال المانيا وبولنده نسبة لفقر تربات المنطقة كما تقل الكثافة تبعا لذلك إلى ما يقرب من ٥٠ شخصا للكيلو متر المربع . ويتركز السكان في المدن الكبيرة وحولها مثل هامبورج والمجرى الأدنى لنهر الب و في بريمن Bremen وكيل Kiel وبرلين في المانيا ووارسو ولودز Lodz في بولنده . ولكن الكثافة الريفية ترتفع في أواسط بولنده إلى حوالى ١٠٠ شخصا للكم^٢ رغم فقر التربة وهذا الارتفاع السكانى يشمل أيضا الإقليم

الصناعى الذى يمتد جنوب وارسو في اتجاه مدينتى رادوم Radom و بيلسكى Kielec أما الأقاليم الريفية التى تقع إلى الشرق من سهر الاودر التى ضمتها بولنده بعد الحرب فإن الكثافة السكانية مازالت منخفضة رغم استيطانها بالبولنديين بعد طرد الالمان . وفي أجزاء كبيرة من هذه المنطقة الريفية تقل الكثافة من ٢٥ شخصا للكم^٢ بينما تتميز المدن الصناعية بكثافات عالية

أما النطاق الشمالى - الجنوى فيبدأ في التباعد من النطاق الشرقى الغربى عند مجرى الراين الأدنى بالقرب من دويسبيرج Duisburg ويمتد جنوبا على طول النهر حيث تتواجد أماكن محلية ذات كثافات عالية خاصة في الأخاديد حيث تعول مزارع الكروم عددا كبيرا من السكان الزراعيين .

ورغم وجود عدد من المدن الكبيرة ذات الأهمية فإن الكثافات العالية تتواجد في المرتفعات التى تقع إلى الشرق من النهر نظرا لوجود العديد من المدن الصناعية ومناطق سكنية حديثة . وتتميز منطقة الراين - مين Rhine-Main بصناعاتها التى تستخدم العمال بكثرة وبزراعة الكروم التى تعول كثافات عالية تصل إلى ما فوق ٢٠٠

شخص لكل ٢ . أما باقى أجزاء الأخدود الزراعية والواقعة خلف السهل الفيض فتتميز أيضا بازدهام سكانى وخاصة الطرف الشرق منه نتيجة وجود مدن صناعية كبيرة . أما المرتفعات على جانبى الأخدود فهى مغطاة بالغابات وذات كثافات منخفضة نسبيا . ويدخل ضمن هذا النطاق حوض نهر نيكر Neckar الصناعى والذى يشمل المجمعات الصناعية حول مدينة ستوتجارت Stuttgart ومدن الحافة الصناعية ووادى نهر المين المتعرج . وإلى الغرب توجد حقول فحم السار Saar بقراها ومدنها الصناعية التى أدت إلى كثافة تزيد عن ٢٠٠ شخص لكل ٢ على طول نهر السار نفسه .

أما ألمانيا الجنوبية فتتسم بكثافات سكانية متفاوتة فى ريفها : ففى الأودية الزراعية نجد كثافات عالية تصل إلى أكثر من ١٠٠ شخص لكل ٢ بينما تنخفض الكثافة إلى النصف فى المنحدرات الجافة حيث الزراعة المتأخرة إلى حد ما وتكثر الغابات الفسيحة . أما فى منطقة الألب الأمامية ذات المصاطب الحصبائية فتصل الكثافة إلى ٥٠ شخصا لكل ٢ كما توجد تجمعات سكانية حول المدن الصناعية بينما تتميز الأراضى المستنقعية والخليجية بكثافات متخلخلة .

وإلى الجنوب نجد المنطقة الوسطى السويسرية Mittelland^١ والتى تمتد من بحيرة جنيف إلى بحيرة كونستانس والتى تتميز بريف يعج بالسكان ومدن صناعية صغيرة . وإلى الجنوب من جبال الألب تأتى منطقة ذات كثافة سكانية عالية تتمثل فى سهل لومبارديا أو وادى نهر البو فى شمال إيطاليا حيث تتركز الصناعات الحديثة والزراعة التجارية الكثيفة . وهنا تقع مدينتا ميلانو وتورين الصناعيتين ، وإلى الشمال من نهر البو تصل الكثافة السكانية فى الأراضى الزراعية ذات الخصوبة العالية إلى أكثر من ٢٠٠ شخص لكل ٢ بينما تنخفض هذه الكثافة جنوب النهر إلى حوالى ١٥٠ شخصا لكل ٢ ، ويشمل هذا النطاق الأطراف الشمالية من جبال الأبنين وخاصة المنطقة الساحلية بين رافينا Ravenna وبسكارا Pescara بينما تتميز المناطق الجيرية والفقيرة فى الجنوب بكثافات منخفضة تتراوح بين ٢٥ و ٥٠ شخصا لكل ٢ .

ويتركز السكان في جبال الأبنين في الأحواض المتناثرة . وفي شبه جزيرة إيطاليا تجتذب السواحل السكان ، ورغم أن الساحل الشرقي يمثل امتدادا للمحور الشمالي الجنوبي فإن الساحل الغربي يتميز بتجمعات سكانية عديدة ناتجة من مزيج من التطور الصناعي ووجود أراضي زراعية ، فهناك تركيز سكاني حول جنوه وبيزا Pisa . وفلورنسه (إذ تصل الكثافة في أجزاء منها إلى ٢٠٠ شخص لكل كم^٢) وروما وضواحيها ، كما أن هناك كثافات زراعية عالية تصل إلى ٥٠٠ شخص لكل كم^٢ في المناطق الزراعية ذات التربة البركانية الخصبة حول مدينة نابلي وفيزوف . وتوجد تجمعات سكانية حول سواحل صقلية .

أما خارج هذين النطائين الرئيسيين فإن الظروف الاقتصادية والاجتماعية وسهولة الاتصال تلعب دورا في تشكيل نمط التوزيع السكاني ، فهناك مناطق شاسعة في الأجزاء الداخلية من النرويج والسويد وفنلنده تتميز بقلّة سكانها ويتركز ما يتواجد فيها من سكان حول مناجم المعادن أو معسكرات قطع الأخشاب . وفي سواحل النرويج يتجمع الناس في مناطق صغيرة صالحة للزراعة عند رؤوس الفيورذات أو في الجزر المتناثرة لصيد الأسماك وقلما تزيد الكثافة عن ٢٥ شخصا لكل كم^٢ إلا في الجنوب حيث توجد أراضي صالحة للزراعة خاصة حول مدينة أوسلو Oslo حيث تصل الكثافة إلى أكثر من ٥٠ شخصا لكل كم^٢ .

أما المناطق الزراعية في إقليم البحيرات في السويد والجنوب بمدنها الصناعية والتجارية فالكثافة فيها تتراوح ما بين ١٠ و ٢٥ شخصا لكل كم^٢ في حين أن إقليم اسكانيا الزراعي والصناعي تتمتع بكثافة تصل إلى ٥٠ شخصا لكل كم^٢ كما توجد تجمعات سكانية أخرى حول المدن الرئيسية مثل أستوكهولم وجوتنبيرج وأبسالا Uppsala .

أما في فنلنده فإن معظم سكانها القليلين يتجمعون حول الساحل وخاصة في الجنوب حيث توجد التربة الغنية المشتقة من الارسابات البحرية والبحيرية وكذلك في الأجزاء المناسبة من منطقة البحيرات كما يوجد تركيز آخر في ضواحي مدينتي ثوركو Turku وهلسنكي Helsinki . أما الدنمارك فهي أكثر دول

اسكندناوه ازدحاما بالسكان إذ تصل الكثافة إلى أكثر من ٥٠ شخصا لكم^٢ في المناطق الزراعية الشرقية والجزر ويسكن نصف سكان الدنمارك في ريلند Sjaland وبالأخص في كوبنهاجن وضواحيها .

أما فرنسا فتتميز من بين دول أوروبا الغربية بكثافتها المنخفضة ويعكس توزيع السكان فيها طبيعة القطر كأرض تسود فيها أحواض كبيرة صالحة للزراعة تصرفها أنهار تجري من الهضبة الوسطى ، ويتركز السكان في المنطقة الصناعية في الشمال وفي شمال شرق فرنسا وحوض باريس كما أن هناك أماكن أخرى ذات كثافات سكانية عالية مثل المناطق الصناعية الحديثة حول مارسيليا وساحل البحر المتوسط وحوض نهر الرون . أما أكثر المناطق الزراعية ازدحاما بالسكان فتوجد في الساحل الأطلنطي الرطب (حيث تصل الكثافة إلى أكثر من ٥٠ شخصا لكم^٢) في بريتانى بينما تصل الكثافة الريفية في أفضل أجزاء حوض باريس زراعيًا إلى حوالى ٢٥ شخصا لكم^٢ كما توجد كثافات أعلى في المجارى الأدنى للأنهار الرئيسية . أما الهضبة الوسطى بغاباتها ومراعيها وحقولها وكذلك المناطق الزراعية الجافة إلى الشرق فتتميز بكثافة منخفضة تصل إلى ٢٥ شخصا لكم^٢ إلا في بعض المواضع المناسبة .

ويعكس تخلخل السكان في هضبة الميزتا الأسبانية عدم صلاحيتها لجذب السكان الذين يتكدسون في المناطق الساحلية وخاصة حول الساحل الشمالى ذى الأمطار العالية وساحل الأطلسى حيث تصل الكثافة في المنخفضات التى تقود إلى الداخل إلى أكثر من ١٠٠ شخص لكم^٢ في بعض أجزائها إلا الجزء الجنوى فهو أقلها سكانا ، وتتميز هذه الأودية بزراعة الكروم . أما في ضواحي لشبونة وأقليم بورتو Porto بصناعاتها النامية فالكثافة ترتفع إلى ما فوق ٢٠٠ شخص لكم^٢ . أما في ساحل البحر المتوسط حيث توجد المياه بكميات متوفرة للزراعة فإن الكثافة قد تصل إلى ٥٠ شخصا لكم^٢ كما في المناطق الصناعية والزراعية حول برشلونة وبين فالنسية ومورسيا 'Valencia & Murcia' ومعظم أجزاء الأندلس . وتجذب المناطق الساحلية والجزر أعدادا كبيرة من السواح مما يؤدي إلى كثافات فصلية عالية في السكان .

في منطقة بوهيميا - مورافيا Bohemia-Moravia تسود الزراعة في كثير من أجزائها رغم فقر التربة وتضرسها وارتفاع الإقليم كما تغطي الغابات أجزاء كثيرة منها . وهنا تتراوح الكثافة ما بين ١٠٠ و ٥٠ شخص لكل^٢ رغم أن كثيرا من المزارعين يعملون جزئيا في الصناعة . وتوجد أجزاء ذات كثافات عالية حول المدن الصناعية الرئيسية وفي مجارى نهر الألب العليا حيث توجد التربات الغنية للزراعة (١٠٠ شخص لكل^٢) وتزدحم بالسكان أيضا مدن وقرى مرتفعات بوهيميا الشمالية وحقول فحم ومناطق الصناعة الثقيلة في سايليزيا التشيكية . وتغطي منطقة ريفية ذات كثافة عالية نسبيا حوض الدانوب الأوسط وتمتد إلى النمسا السفلى رغم أن التجمعات السكانية العالية ترتبط بالمدن الكبرى مثل فيينا وبراتيسلافا Bratislava وبودابست . كما أن أقاليم المجر الصناعية وخاصة تلك التي تقع بين دبراسين Debrecen وميسكولك Miskolk فيها تجمعات سكانية كبيرة وتنخفض الكثافة في المنطقة الزراعية حول بحيرة بلاتون Balaton (أقل من ٥٠ شخصا لكل^٢) والأراضي الرملية الواقعة ما بين نهري الدانوب وتيزا Tisza . وعند ملتقى هذين النهرين توجد أراضي زراعية غنية (وخاصة إقليم بانات وباشكا Banat & Backa) ذات كثافات عالية - رغم تأخر الزراعة فيها - وتصل إلى مايربو ١٠٠ شخص لكل^٢ . ويمتد هذا الإقليم من مدينة سيزغد Szeged الصناعية إلى جنوب بلغراد ويستمر جنوبا ، لكن بكثافات أقل في اتجاه نيس Nis وإسكوبي Skopje في ممر مورافا - فاردار .

وتفصل جبال ذات كثافة سكانية معتدلة سهول وسط الدانوب المكتظة من المنطقة الزراعية حول مجاريه الأدنى والتي تمتد عبر ولاشيا إلى مولداڤيا في الشاطئ الشمالي وتشمل أيضا على منطقة خصبة واسعة تقع على الشاطئ البلغاري . وهنا تصل الكثافة إلى ٥٠ شخصا لكل^٢ إلا في الأماكن الجافة مثل استيس البراجان Baragan' وأجزاء من دوبرويا Dobruja' وتتميز المنطقة الريفية الواقعة بين مدينتي بوخارست وبوليشتي ploisti' بصناعات مختلفة مما يزيد من الكثافة السكانية كما توجد كثافة زراعية عالية على طول المنحدرات السفحية لجبال الكربات .

أما جبال الكربات نفسها فتغطيها الغابات والمراعى الجبلية مما أدى إلى تخلخل سكاني واضح بالمقارنة مع المناطق المجاورة ومنحدراتها والأودية التي تتخللها . وفي رومانيا يظهر التناقض واضحا بين هضبة بايهوف Bihof Mussif ذات الكثافة المنخفضة رغم وجود تعدين بها وبين المنطقة الزراعية حول الهضبة في ترانسيلفانيا وعلى طول أطراف سهل بانونيا Pannonian plain . ويمكن أن نعزو الكثافة العالية نسبيا في هضبة بايهوف إلى النشاطات الزراعية والتعدينية التي تمارس فيها رغم ارتفاعها . أما جبال الألب الدينارية فهي تفصل أحواض سافا Sava ودرافا Drava وفيفودينا Voivodina الزراعية المزدهمة بالسكان من التجمعات السكانية التي تتواجد في مواضع مناسبة على الساحل الادرياتي . ولأن هذه السلاسل الجبلية تتميز بجفافها وارتفاعها فإن السكان يتجمعون في المنخفضات polja والأودية التي تتخللها مما يجعلها تبدو أكثر كثافة مما نتوقع رغم أن الكثافة السكانية لا تتعدى ١٠ أشخاص لكم^٢ وخاصة في أجزائها الجنوبية المرتفعة . ويرجع السبب في هذه الظاهرة إلى تهقر المسيحيين من الأودية إلى الجبال هربا من تقدم الأتراك المسلمين . ويوجد وضع مماثل في جبال البلقان وهضبات ريلا Rila وبرين pirin حيث جذبت الأحواض الجبلية المنعزلة أعدادا من الناس الهاربين من الأتراك بينما يمثل منخفض ماريتسا Maritsa الخصب في تراقيا منطقة ازدهام سكاني حيث تمارس زراعة الخضروات وسواكه للتسويق في المدن الكبرى وللتصدير . وتتميز جبال اليونان بنمط توزيع سكاني مماثل رغم أن فصل الصيف الجاف يجعل من وجود الماء عاملا مهما في اجتذاب التجمعات السكانية .

أما جبال الألب فهي أيضا تعكس الكثير من ملامح التوزيع السكاني التي تتميز بها المناطق الجبلية في باقي أجزاء القارة . وعامة تقل الكثافة مع الارتفاع وترتفع على المنحدرات المواجهة للجنوب وفي الأودية والمنحدرات المعتدلة لتصل إلى حوالى ٥٠ شخصا لكم^٢ وإلى ١٠٠ شخص في بعض الأودية الخصبة . وتجذب المنحدرات الوسطى ذات الأمطار العالية السكان في جبال الألب والبرانس بينما تخلو قممات الهيارات الثلجية والمناطق الجافة من السكان تقريبا .

تركيب السكان من حيث النوع والعمر :

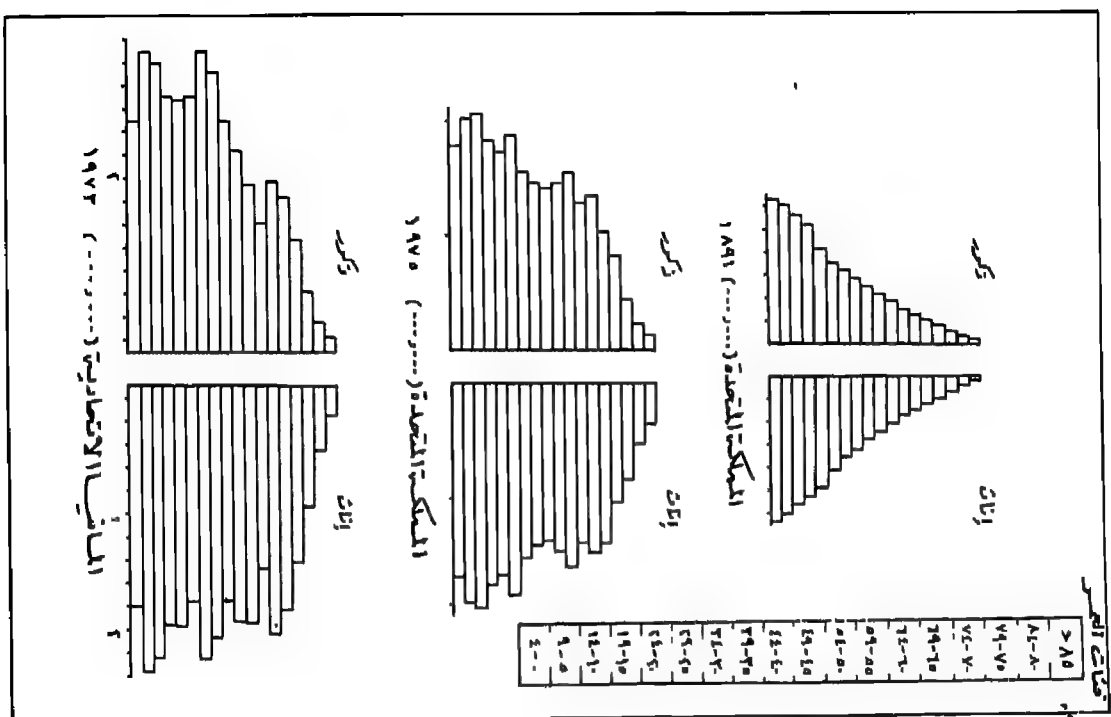
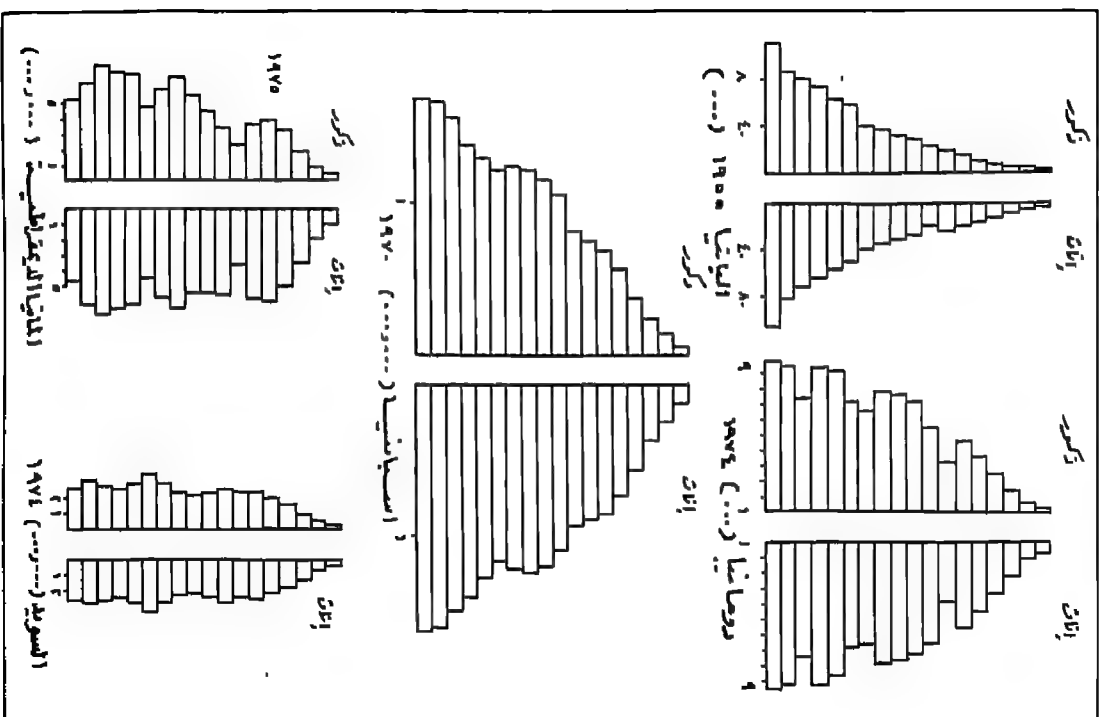
بعد دراسة توزيع السكان يجب علينا أن نحيط بالتركيب النوعي والعمرى لسكان القارة وما يتعلق به من مسائل مثل نسبة الوفيات والمواليد ومتوسط العمر لما لهذه العوامل من أثر على التنمية الاقتصادية والاجتماعية الإقليمية والتخطيط .

بالمقارنة مع أجزاء العالم الأخرى تتميز ديمغرافية أوروبا بتقدم عمر السكان ونموه البطيء نتيجة للتقارب بين نسبة الوفيات ونسبة المواليد . ولكنها أيضا تتميز بأنها من المناطق القليلة التي تتمتع بتوقع حياة أطول . ويمكن تفسير هذه العوامل بتقلص نسبة السكان الأوروبيين في عالم اليوم الذي يتميز بنمو سكاني هائل .

وقد شهدت أوروبا عبر تاريخها فترات نمو عالية قبل أن تستقر في وضعها الحالي ويوضح الشكل (الشكل ١٦) هذا الانتقال الديمغرافي المبني على التجربة الأوروبية .

فرحلة النمو السريع قد أتى مؤخرا إلى شرق وجنوب القارة لارتباط هذا النمو ببداية التصنيع . كما يختلف النمط من دولة لأخرى خاصة فيما يتعلق بالفرق بين نسبتي الوفيات والمواليد في المرحلتين الثانية والثالثة مما أثر على نسبة النمو (كما يلاحظ مثلا في تباين النمو والتطور بين فرنسا والمجترات وويلز) . ويتكون النموذج من أربع مراحل : تتميز المرحلة الأولى (التي انتهت في المملكة المتحدة في بداية القرن التاسع عشر وفي وقت متأخر في ألمانيا) بنسبة وفيات عالية (خاصة بين الأطفال) ونسبة مواليد عالية مما أدى إلى نمو بطيء في السكان . أما المرحلة الثانية فلإنها تميزت بتحسين متواضع في الصحة العامة وفي نوعية الطعام في مراحل التصنيع الأولى مما أدى إلى انخفاض في نسبة الوفيات (عند الأطفال خاصة مع تحسن في متوسط العمر) وظلت نسبة المواليد عالية . أما المرحلة الثالثة فتتميز بانخفاض متواصل في نسبة الوفيات وانخفاض في نسبة المواليد : فمع توظيف أعداد كبيرة من الناس في الصناعة فقد الطفل أهميته في الاقتصاد العائلي مما أدى إلى تقليص حجم العائلة . أما المرحلة الرابعة ففيها تتساوى نسبتي المواليد والوفيات ولكن بنسبة بطيئة ، مما نجم عنه نمو سكاني بطيء . وتعكس العائلة الصغيرة والزواج المتأخر حياة الوفرة التي ينعم بها الأوروبي وكذلك

أهرامات العمر والجنس لجمهورية العراق



متوسط عمر أطول له . وفي ستينات هذا القرن أثار انتشار حبوب منع الحمل والزواج المتأخر وتأخير الإنجاب في أجزاء كثيرة من القارة مسألة مقلقة وهي : هل نتوقع ارتفاعا في نسبة الوفيات على نسبة المواليد ؟ وفي هذه المرحلة الخامسة المحتملة سيبدأ حتماً النقصان الطبيعي في السكان مما يجبر بعض الدول على إعادة النظر في سياستها السكانية الحالية وتبنى وسائل لتثبيت السكان عند مستوى معين .

أما الزيادة الطبيعية في السكان فإنها تختلف من إقليم لآخر . وعموماً فإن المناطق الريفية تظهر عادة ارتفاعاً أكثر من المدن . والاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية تلعب هناك دوراً مهماً في هذه التباينات الإقليمية . فقبل الحرب الأخيرة كانت الزيادة الطبيعية بطيئة في دول اسكندناوه وفي المملكة المتحدة وسويسره والنمسا وتشكوسلوفاكيا بينما سجلت فرنسا انخفاضا بسيطا (خاصة بين الفرنسيين أنفسهم) . وتركت فترة عدم الاستقرار والحرب الأهلية في الثلاثينات آثارها في النمط الطبيعي في سكان أسبانيا حيث كانت الزيادة بطيئة في حين أن نسبة الوفيات العالية أثرت في نسبة المواليد المرتفعة . وتحت بواعث وضغوط اجتماعية حدثت زيادة في نسبة المواليد في هولنده مقابل نسبة وفيات منخفضة مما أدى إلى زيادة طبيعية كبيرة في سكانها في حين أن سياسة هتلر في ألمانيا لزيادة السكان أدت إلى نسبة مواليد أعلا من نسبة الوفيات (أدنى نسبة في غرب أوروبا) وكانت النتيجة زيادة في النمو الطبيعي أعلا مما حدث في المملكة المتحدة .

أما دول شرق وجنوب أوروبا فقد أظهرت خلال هذه الفترة زيادة في النمو الطبيعي أعلا من غرب ووسط القارة .

وبعد الحرب الثانية تبنت الحكومات سياسات الغرض منها تشجيع الزيادة السكانية مما أدى إلى ارتفاع ملحوظ في الزيادة الطبيعية في غرب أوروبا في الستينات بالمقارنة مع الفترة قبل ١٩٣٩ م . ولكن لإدخال نظام حبوب منع الحمل في أواخر الستينات وشيوع استخدامها أدى إلى انخفاض ملحوظ في نسبة المواليد في الدول التي قبلت استخدام هذه الموانع وفي فرنسا أدى تشجيع الحكومة للإنجاب إلى ارتفاع النمو الطبيعي في السكان كما حدث في أيبيريا وكذلك في بولنده ويوغسلافيا . وحدثت

زيادات طفيفة في النمسا والمجر وألمانيا الديمقراطية (نسبة لهجرة الشباب عبر حائط برلين إلى برلين أو ألمانيا الغربية) . أما البانيا فهي أكثر دول القارة ارتفاعا في النمو السكاني .

وشهدت أواخر الستينات هبوطا في نسبة المواليد وارتفاعا في نسبة الوفيات . وليس للفقر أو قلة العناية الصحية دخل في هذا بل يرجع السبب إلى تقدم سن السكان . أما في شرق أوروبا فإن عملية التحضر التي تشهدها المنطقة أدت إلى هبوط في نسبة المواليد لأن الأطفال لم تعد لهم أهمية في الاقتصاد العائلي كما كان من قبل . كما أن الحكومات قد فقدت حماسها في تشجيع الزيادة السكانية كما فعلت قبل الحرب مباشرة ، ففي ألمانيا الغربية مثلاً هبطت نسبة المواليد بين الألمان أنفسهم دون نسبة الوفيات بينما يظهر الأجانب (٢ر٥ مليون) فيها وضعاً معاكساً .

فإذا أخضعنا هذه الأهرام السكانية لبعض دول أوروبا للدراسة نخرج بالحقائق الآتية :

١ - في حالة المملكة المتحدة يظهر الهرمان السكانيان لعامي ١٨٩٢ و ١٩٧٥ م أن الدولة فقدت تلك القاعدة العريضة التي تميز فترة النمو السكاني وتركيبه وطغت عليها القاعدة الضيقة والانحدار الشديد وهما من خصائص السكان عندما يتقدمون في السن .

٢ - أما في حالة دول شرق أوروبا فإن الأشكال تظهر عنصر التوسع وصغر سن السكان النسبي ، ولكن البانيا تظهر تركيها سكانيا أكثر حداثة في السن .

٣ - أما سكان الدولتين الألمانييتين فيوضح أثر الحروب والأحداث المدمرة ، فالانكماش الذي يظهر على جانبي الشكل نتيجة الانخفاض في السكان أثناء الحرب يظهر واضحا في جانب المذكور كما يتضح أيضا فقدان المواليد خلال سنين الكساد الاقتصادي العصيبة بين الحربين العالميتين . أما ملاحظته من توسع في رأس الهرم في حالة ألمانيا الديمقراطية فقد يكون ناتجا من هجرة الشباب منها إلى ألمانيا الغربية مما أدى إلى انتفاخ في الجزء الأسفل من هرمها الذي يمثل المجموعات الصغيرة السن .

(٤) يظهر معظم دول أوروبا الغربية والشمالية أشكالا أقرب إلى رأس السكر الذى يتميز به السكان المتقدمين فى السن .

(٥) فى شرق أوروبا تعكس القاعدة الضيقة فى الهرم اتجاهها نحو المرحلة الديمغرافية الرابعة أى تساوى نسبى المواليد والوفيات

(٦) أما نتائج هذه الأهرامات على المدى البعيد فيمكن تلخيصها فى الآتى :

١ -- تقلص فى مجموعة الشباب إلا فى حالة تبنى سياسات لتشجيع النمو السكاني وهذا التشجيع للزيادة سيؤدى إلى بطء أكثر فى النمو .

٢ - ويوحى شكل الأهرامات بمشاكل أساسية فى الخدمات الاجتماعية الموجودة حاليا (ازدحام المدارس وقلة الأساتذة والتسهيلات الطبية) .

٣ - انخفاض سنوى فى عدد العمال فى سوق العمال ، أى تقلص فى عدد العمال من سنة لأخرى .

٤ - أن سيادة القطاع من السكان المتقدمين فى السن ستؤدى فى حالة تخفيض عمر التقاعد إلى وجود كمية كبيرة من الأعضاء غير العاملين مما يؤدى أيضا إلى ارتفاع فى تكاليف الخدمات الاجتماعية .

٢ - العوامل المؤثرة فى توزيع السكان :

من هذا العرض لتوزيع السكان يظهر أن ارتفاع الكثافة السكانية يتفق إلى حد ما مع إقليم التربة والزراعة المتقدمة ولكن يمكننا أن نرجعه أيضا بصورة مباشرة إلى وجود أقاليم الصناعة التى يعمل بها معظم السكان وإلى الخدمات المتصلة بها ، كما أن هناك علاقة وثيقة بين نطاق الكثافة السكانية المرتفعة هذا وبين موقع الرواسب الفحمية ، كما يظهر فى مناطق ارسابات الفحم الممتد من بريطانيا عبر منطقة سامبر ميوز ومنطقة الرور وسایلزيا العليا وحوض الدون حيث نجد تركزا سكانيا واضحا ، وهناك عدد من العوامل الأخرى الهامة التى تؤثر فى ارتفاع الكثافة السكانية كالعوامل التاريخية والحضارية وموقع المواد الخام والموارد الأخرى .

وتباين الكثافة السكانية فى المناطق الأخرى بصفة عامة تبعا لاختلاف خصوبة

الأرض ومدى سهولة المواصلات ، فهي ترتفع نوعا ما في شمال وغرب فرنسا وفي جزء كبير من السهل الأوروبي الشمالى وعلى امتداد نهر الدانوب (العلونة) أما إلى الشمال من خط عرض ٦٠ شمالا . فإن قسوة المناخ تحد من الزراعة ونكاد تجعل النشاط الصناعي (فيما عدا التعدين) متندرا . وتقل كثافة السكان جدا في معظم جهات اسكندناوه ويحد تعقد مظاهر السطح وطول فترة الجفاف في فصل الصيف ممارسة الزراعة إلى درجة كبيرة في حوض البحر المتوسط كما أن عدد السكان الذين يشغلون بالصناعة (باستثناء إيطاليا) صغير وتقل كثافة السكان في القرى والأقاليم الزراعية .

ومن العوامل الطبيعية الأخرى التي أثرت في توزيع السكان خاصة في الماضي نجد الثورات البركانية لها الضلع الأكبر في تخفيض السكان في مناطق معينة مثل ثورة بركان أثنا في صقلية وبركان فيزوف الذي دمر مدينة بومباي وبركان لاكي في أيسلنده والزلازل الذي راح ضحيته ٦٠,٠٠٠ نسمة من سكان صقلية في بداية هذا القرن .

أما انسار الأمراض الفتاكة فكان له أيضا أثر كبير في توزيع السكان .. والطاعون البوبوي الذي انتشر من الشرق مع طرق القوافل راح ضحيته ما يقرب من ٢٥ مليون نسمة في القرن الرابع عشر . أما الملاريا فقد كان أثرها محليا تقريبا وتأثرت بها منطقة كمبانيا Compagna قرب مدينة روما التي هجرها سكانها لانتشار المرض فيها حتى بداية هذا القرن عندما بدأت الحكومة استصلاح الأرض وإقامة مشاريع تصريف المياه حتى أصبحت خالية من الملاريا وجذبت السكان بأعداد ضخمة .

أما العوامل البشرية التي تؤثر على توزيع السكان في أوروبا فكثيرة منها قوانين الوراثة خاصة القانون الروماني الذي يبيح تجزئة الأرض بين الورثة بعد وفاة المالك مما يؤدي إلى كثافة سكانية عالية في المناطق الريفية ، وعلى عكس هذا القانون نجد القانون الألماني والإنجليزي الذي يبيح للمالك بأن يورث أرضه كاملة لأحد أولاده فقط أما الباقيون فيعوضون بطرق أخرى إن كان هناك ما يستدعي ذلك ، وفي كثير من الحالات يبقى هؤلاء كمستأجرين أو ينزحون إلى المدن طلبا للعمل وهذا يؤدي إلى

كثافات سكانية أقل . ثم هناك الهجرات الاختيارية كما حدث في أيرلنده وخاصة بعد مجاعة ١٨٤٠ التي راح ضحيتها مئات الآلاف من السكان ، وما تبع ذلك من هجرة متواصلة إلى إنجلترا ومناطق أخرى ، إذ حدث خلال خمس سنوات (١٨٤٦ - ١٨٥١) أن هلك أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ شخص وهاجر حوالى مليون فرد إلى الخارج . ومن الهجرات الاختيارية تلك التي خرجت من دول اسكندناوه حيث ساهمت النرويج والسويد والدنمارك وأيسلنده في خلال ٣٥ سنة بـ ٤ مليون وربع مليون شخص من سكانها لتعمير الولايات المتحدة أى حوالى ١٦٪ من مجموع سكانها في عام ١٨٦٥ (٨,٨ مليون) وهذا باستثناء أولئك الذين هاجروا إلى كندا . وحين كان الدافع لهجرة الاسكندناويين والاييرلنديين اقتصاديا فإن هناك دافع سياسى دفع الألمان الشرقيين للهروب من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية مما أدى إلى نمو سكانى مضطرد فى الدولة الأخيرة مما أجبر الحكومة الشيوعية إلى إيقافها بالقوة فى عام ١٩٦١ . ولأن معظم المهاجرين كانوا شبابا فقد كان أثر ذلك سببا على اقتصاديات ألمانيا الديمقراطية . وهناك دوافع أخرى أدت إلى الهجرات الاختيارية مثل الاختلاف فى درجة التصنيع بين منطقة وأخرى كما حدث فى إيطاليا حيث جذبت مصانع وادى البو أعدادا ضخمة من الجنوب ومنطقة جبال الألب ، كما حدث أيضا فى أسكتلنده عندما أدى إنشاء المصانع فى المناطق المنخفضة إلى نزوح المزارعين من المرتفعات المجاورة وكذلك فى ألمانيا حين جذبت مصانع الحديد والصلب ومناجم فحم الرور العمال من مناطق نائية مثل شرق أوروبا وبلجيكا وأدى كذلك إلى هجرة الملايين من سكان جنوب أوروبا مثل اليونانيين والأسبانيين واليوغسلافيين إلى المناطق الصناعية فى أوروبا الغربية سعيا وراء العمل .

وهناك أيضا الاختلاف فى نسبة المواليد بين الأمم المختلفة التى تسكن أوروبا . وقد أظهر الفرنسيون خاصة نسبة مواليد أقل بالمقارنة مع الأمم الأخرى مثل الألمان والبريطانيين والإيطاليين ، وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أكثر عددا من جيرانهم حتى عام ١٨٦٠ فقد كان ترتيب فرنسا هو الرابع من ناحية عدد السكان بعد ألمانيا - بريطانيا - إيطاليا . بمعنى أن واحدا فقط فى كل ١٢ شخص أوروبى فرنسى الجنسية . وما يثير الدهشة أن كثيرا من سكان هذه الاقطار هاجروا إلى الأراضى

الجديدة وأن ألمانيا فقدت عددا أكثر من جراء الحروب ودمارها ومع ذلك فقد ظل الفرنسيون أقل عددا منهم ، ومن الفترة ما بين ١٨٠٠ - ١٩٧٠ لم تستطع الحكومة رغم الجهود الجبارة أن تضاعف من عدد سكانها في حين أن سكان كل من ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا تضاعف خمس مرات في نفس الفترة . وهذه الظاهرة موجودة أيضا في المجموعات الفرنسية الموجودة في بلجيكا وسويسرا .

أما الحروب فقد كانت لها أثرها الواضح في أنماط التوزيع السكاني ، وكان أكثر هذه الحروب دمارا هي حرب الثلاثين سنة التي أدت إلى تخفيض السكان في بعض مناطق ألمانيا بأكثر من ثلثه كما عانت منها تشيكوسلوفاكيا وبعض دول أوروبا الوسطى . أما في الحرب العالمية الثانية فقد خسرت روسيا ٢٠ مليون من سكانها ويمثل ١٠٪ من مجموع سكانها ، وألمانيا ٦ مليون أو أكثر من ٨٪ من مجموع سكانها في حين أن يوغوسلافيا فقدت ١١٪ من مجموع سكانها .

ثم هناك المهجرات الإجبارية التي تتمثل في نقل الأقليات والمهجرات لتجنب الاضطهاد الديني أو السياسي والطرء للعمل الإجباري والهروب لتفادي مناطق الحرب . وكان من جراء ذلك أن حدثت تغيرات جذرية في الكثافات السكانية وكذلك في توزيع اللغات والأديان في أوروبا . ومن أمثلة هذه المهجرات الإجبارية : التبادل بين اليونان والأغريق ونقل السكان من منطقة لأخرى أيام النازيين ، وإجلاء وطرء عشرة مليون من الألمان الشرقيين من بولنده وتشيكوسلوفاكيا في الفترة ما بين ١٩٤٢ - ١٩٥١ م . (جدول ٥) .

جدول ٥ : بعض الشعوب الأوروبية التي شملتها المهجرات الإجبارية
في الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٥٥م^(١)

| المجموعات العرقية | عدد الأشخاص الذين تم إجلاؤهم عنوة | النسبة المئوية التقريبية لمجموع السكان وقت التهجير |
|---------------------|--------------------------------------|-------------------------------------------------------|
| ألمانيون | ١٥٨٠٠٠٠٠ | ٢٠ |
| بولنديون | ٦٣٠٠٠٠٠ | ٢٤ |
| يهود | ٦٠٠٠٠٠٠ | ٦٧ |
| تشيكويين وسلوفاكيون | ٢٠٠٠٠٠٠ | ١٦ |
| يونانيون | ١٢٥٠٠٠٠ | ١٨ |
| أتراك | ٨٠٠٠٠٠ | |
| بلوروسيون وأكرانيون | ٥٥٣٠٠٠٠ | ١٣ |
| فنلنديون | ٤٨٠٠٠٠٠ | ١٤ |
| صربيون وكرواتيون | ٤١٠٠٠٠٠ | ٤ |
| بلغاريون | ٣٦١٠٠٠٠ | ١ |
| مجريون | ٣٥٥٠٠٠٠ | ٤ |
| لاتفيون | ٣١٠٠٠٠٠ | ٣٠ |
| ليتوانيون | ٢٤٤٠٠٠٠ | ١٢ |
| أستونيون | ٢٣٥٠٠٠٠ | ٢٥ |
| إيطاليون | ١٤٠٠٠٠٠ | ١ |
| رومانيون | ١٠٠٠٠٠٠ | ١ |
| سويديون | ٦٠٠٠٠٠ | ١ |

(٣) خصائص السكان الأوروبيين :

رغم ما للتوزيع السكاني وعدد السكان من أهمية كبيرة ، فإن معرفة نوعية هؤلاء الناس لا تقل أهمية من تلك . فالأوروبيون يتمتعون بمستوى معيشي أكثر ارتفاعا من شعوب أفريقيا وآسيا ، وأن يولد الشخص أوريا يعني أن يتوقع حياة طويلة ويكون له دخل مرتفع والتمتع بصحة جيدة وغذاء جيد وتعليم متقن . وبالرغم

(١) تشمل هذه الأرقام الأشخاص الذين طردوا أو تم تبادلهم أو إجلاؤهم أو سجنهم والذين لم يستطيعوا الرجوع إلى مواطنهم أبدا كما تشمل أيضا أولئك الذين هلكوا .

من أن الأوروبيين كمجموعة بشرية تتمتع بمستوى معيشى مرتفع بالمقارنة مع غالبية سكان آسيا وأفريقيا فإن هذا المستوى المرتفع لانجده فى أنحاء القارة كلها بل هناك اختلافات إقليمية فى هذا المضمار .

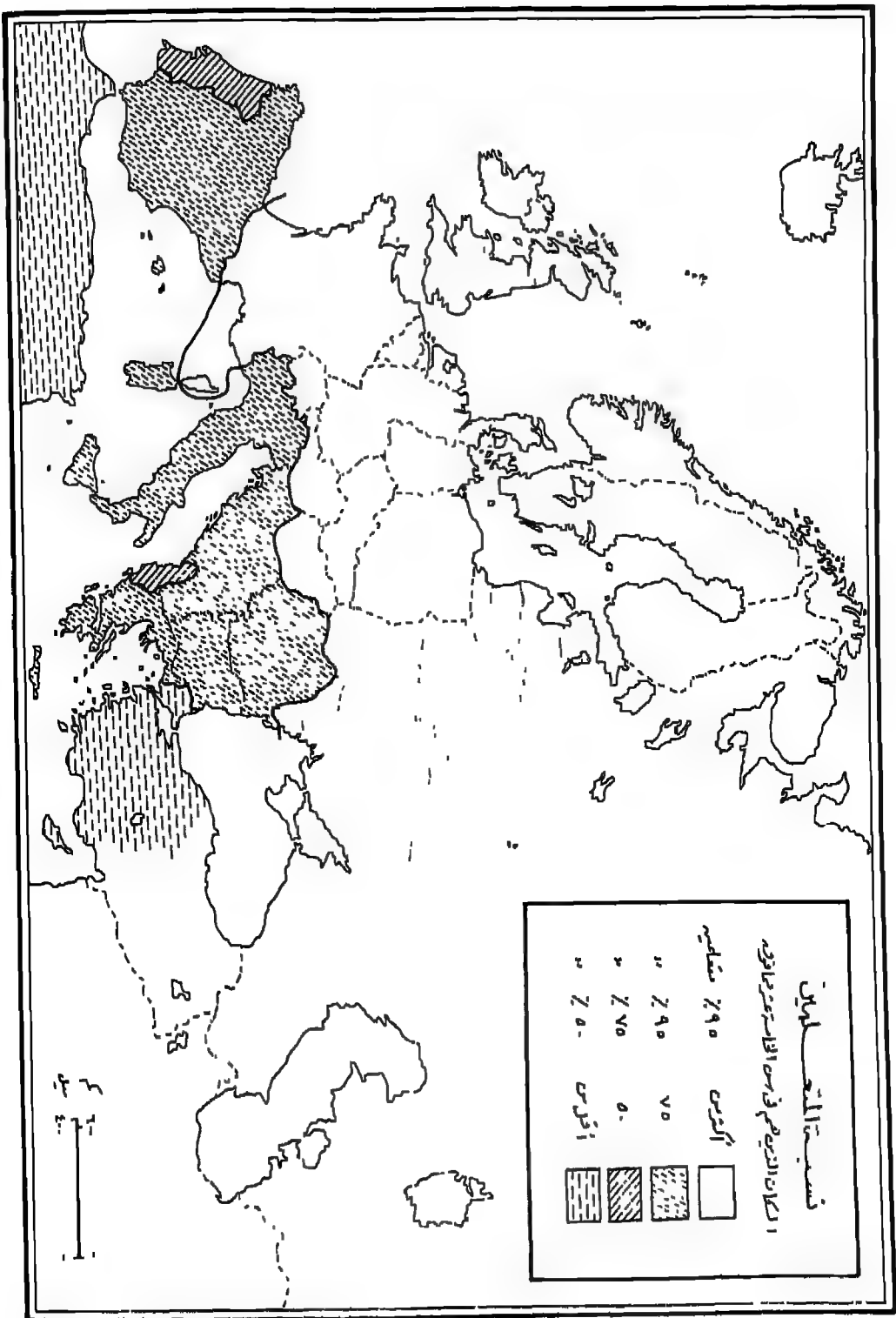
(١) الدخل الفردى : (الشكل ١٧) .

يعتبر الدخل القومى الفردى من معايير الرفاهية الاقتصادية وفى هذه الناحية نجد التناقض واضحا بين شمال وجنوب القارة حيث نجد أعلى دخل فردى فى دول اسكندناوه وأدنى دخل للفرد فى شبه جزيرة أيريا والبلقان . ويصل الدخل الفردى فى الدنمارك إلى ٢١٨٣ دولار حسب إحصائيات أواخر الستينات كما تتمتع أيسلندة والسويد والنرويج بدخول فردية عالية . وثأى سويسره أيضا من الدول ذات الدخول الفردية العالية أى ما يزيد عن ٢٤٥٤ دولار . ومن المقارنات العجيبة أن نجد مواطنى المناطق الباردة فى الشمال والأقاليم الألبية المتضرسة يتمتعون بهذه الدخول العالية . فى الطرف الآخر نجد شعوب أوروبا الجنوبية حيث يصل دخل الفرد فى البرتغال إلى ٤٦٠ دولار بينما هناك دول مثل البانيا وفى البلقان دخولها أدنى من ذلك . بكثير . ولا يعنى هذا أن شعوب هذه المناطق فقيرة ومحرومة كما تشير هذه الأرقام لأن اقتصادها أكثر معيشية وريفية فى ملامحها كما أنه أقل اعتمادا على التبادل النقدى وتنتج معظم العوائل الزراعية كل ما تحتاج إليها من غذاء وملابس وهى بذلك مكتفية ذاتيا ولذلك تقل حاجتهم إلى النقد .

(٢) التعليم : (الشكل ١٨) .

ظلت أوروبا مركزا للعلم والتقدم الأكاديمى ومنبعا للابتكارات خلال الخمسة قرون الماضية واليوم يحظى سكان أوروبا بنسبة عالية من المتعلمين بالمقارنة مع سكان شعوب العالم القديم الأخرى . ويرجع أصل النظام التعليمى إلى عصر النهضة الحضرية التى حدثت فى العصور الوسطى . فقد كانت المدن دائما مركز الإشعاع العلمى فى كل حضارات العالم .

واليوم فإن سكان شمال وشرق أوروبا جميعهم متعلمون ، وفى بعض الدول يعتبر عدم القراءة والكتابة غير قانونى . وتصل نسبة المتعلمين من الألمان البالغين إلى ٩٩٪



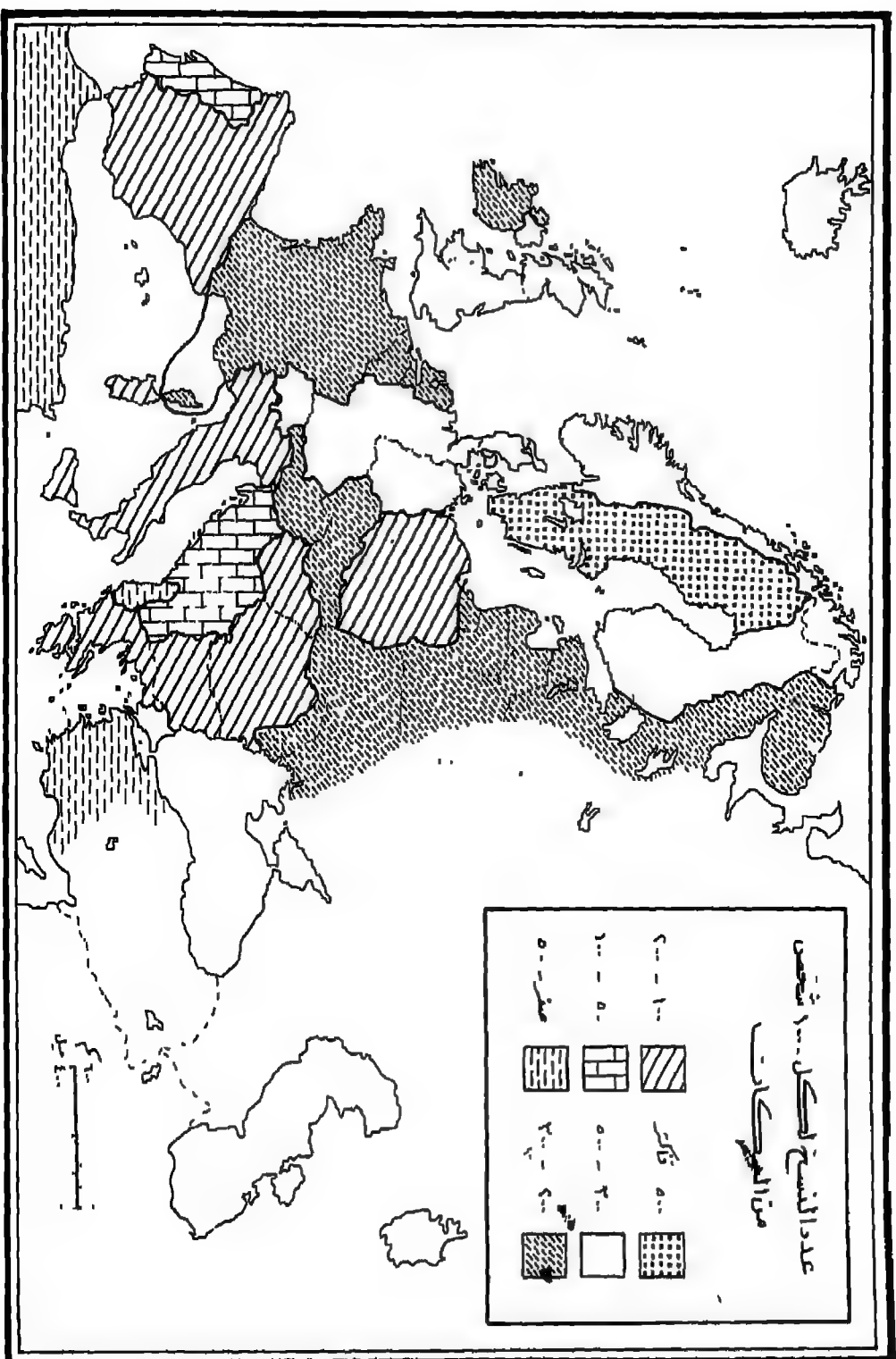
وهي تقريبا نفس النسبة التي نجدها في شمال غربي أوروبا والاتحاد السوفيتي . وتأني في المرتبة الثانية بولنده والمجر حيث تصل نسبة المتعلمين فيها إلى ٩٦٪ و ٩٧٪ على التوالي . أما في جنوب أوروبا فما زالت الأمية منتشرة بين الناس وإن كانت نسبة المتعلمين فيهم في تزايد مستمر . وتأني في مؤخرة الدول البرتغال حيث تصل نسبة المتعلمين من سكانها إلى ثلاثة أشخاص في كل خمسة . في عمر الخامسة عشر . وتتبعها البانيا بنسبة ٧٢٪ من المتعلمين . وفي يوغسلافيا واليونان نجد أربعة أشخاص من كل خمسة متعلما . وبالمقارنة مع الدول المجاورة في أوروبا وآسيا فإن نسبة المتعلمين تصل إلى ٤٠٪ في تركيا و ١٥٪ في المغرب و ١٧٪ في تونس .

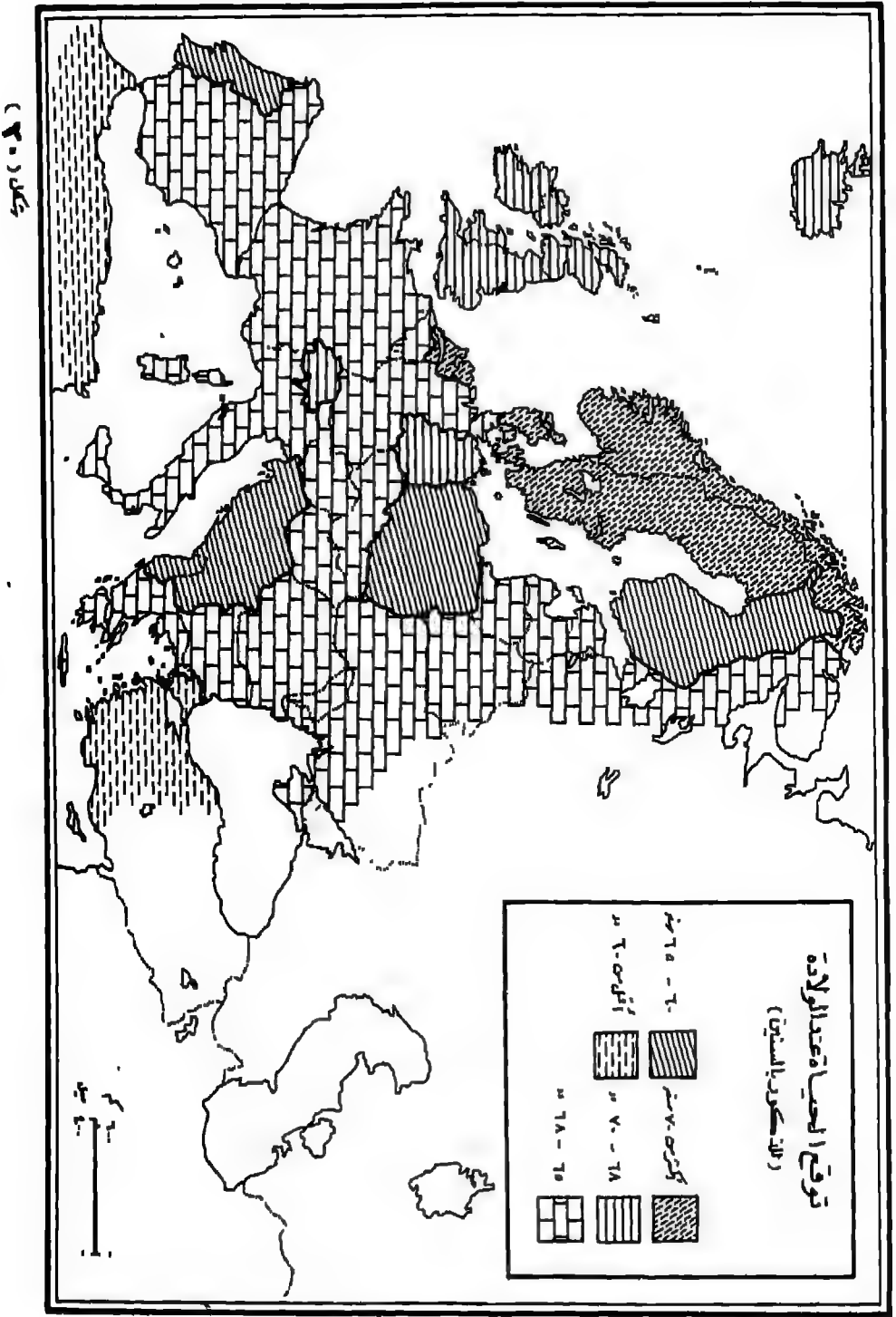
ولأن مجرد معرفة القراءة والكتابة تعتبر معيارا بسيطا للمستوى التعليمي فهناك مؤشرات أفضل لهذا المستوى في حقل النشر والمنشورات . ونجد أعلى توزيع للجرائد اليومية في دول اسكندناوه وفنلنده وبريطانيا وأيسلنده وألمانيا وسويسره حيث توزع ٣٠٠ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص وتتصدر السويد المجموعة حيث يصل التوزيع إلى ٥٠٥ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص أو جريدة لكل مواطنين وتتبعها المملكة المتحدة ب ٤٧٩ ثم يتناقص العدد كلما اتجهنا جنوبا إلى ٦٨ في البرتغال و ٤٧ في البانيا (الشكل ١٩) .

(٣) الصحة :

لا يقل متوسط العمر المتوقع بين الشعوب الأوروبية عن ستين سنة وهذا يعزى إلى برامج العناية الصحية الواسعة التي تم انشاؤها . وكما لاحظنا وجود اختلاف في نسبة المتعلمين بين شمال وجنوب القارة . نجد أيضا أن سكان شمال القارة يعيشون أطول من زملائهم في الجنوب مع أن هذا الاختلاف آيل للزوال . ويصل متوسط العمر المتوقع أعلاه في السويد والنرويج وهولنده وهو ٧١ سنة . في حين أنه يصل في البرتغال إلى ٦٠ سنة ويوغسلافيا ٦٢ سنة . وحتى هذا العمر المنخفض يعتبر عاليا إذا قارناه بدول أخرى مثل مصر (٥١ سنة) والجزائر (٦٥ سنة) . وقد رفعت بلغاريا متوسط العمر المتوقع من ٤٥ سنة في عام ١٩٢٨ إلى ٧٦ سنة واليونان من ٤٩ سنة في ١٩٣٠م إلى ٦٧ سنة في عام ١٩٦٥م . (الشكل ٢٠) .

توزيع الجرانيت اليوميات





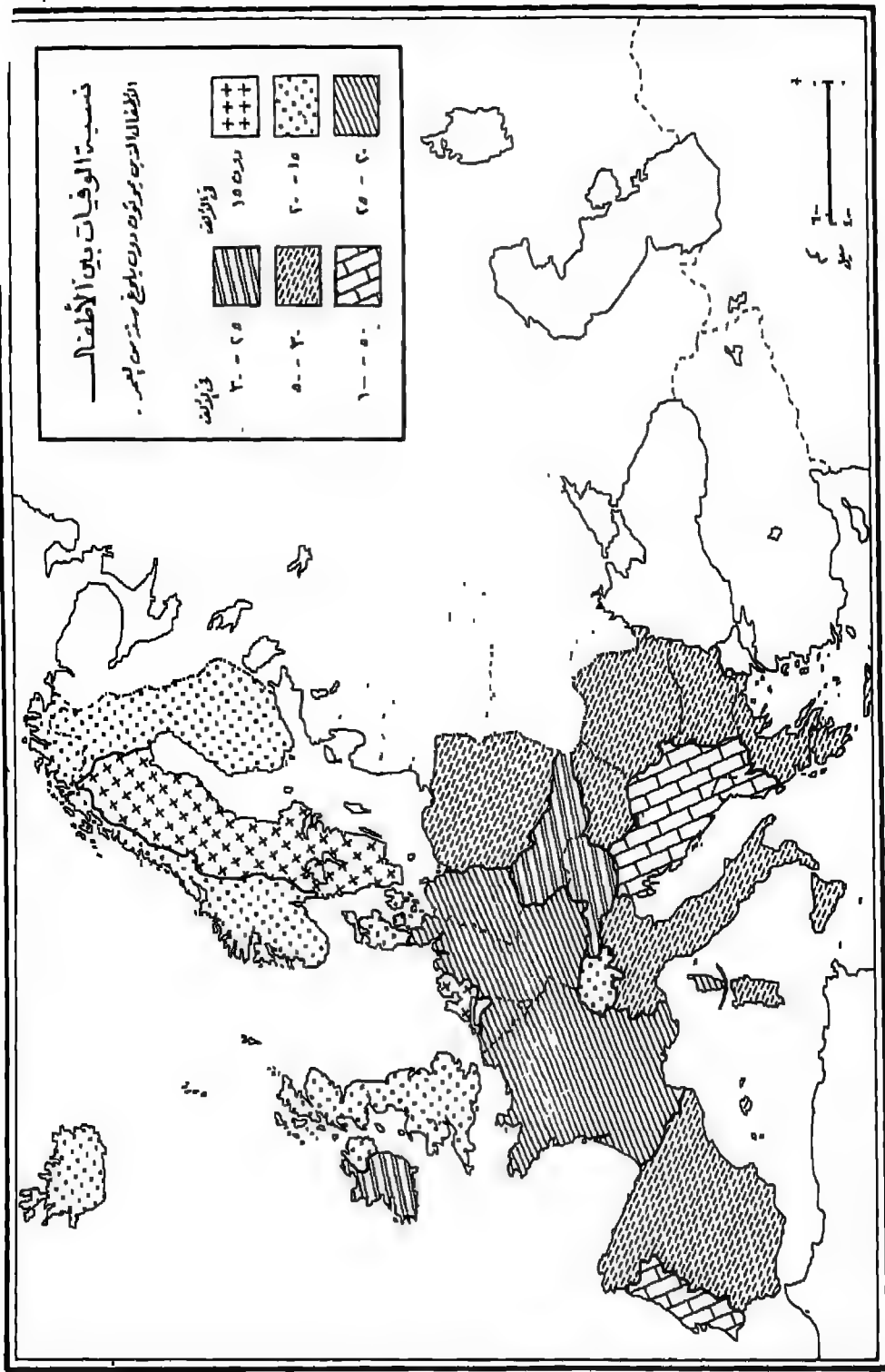
مصدر: (٢٠٠٠)

وهناك مؤشر آخر للأحوال الصحية هو نسبة الوفيات بين المواليد . ويعنى عدد الأطفال فى كل ألف من المواليد الحية الذين يموتون دون بلوغ السنة الأولى من العمر . وفى تطبيق هذا المؤشر يبرز الاختلاف الشديد بين أجزاء أوروبا المختلفة . وتأتى السويد فى المرتبة الأولى بنسبة ١٣ فى الألف وتليها هولنده ثم آيسلنده فالنرويج . وتأتى ألبانيا فى نهاية السلم بأعلى نسبة وفيات بين المواليد (٦٨ فى الألف) ثم يوغسلافيا (٧١ فى الألف) والبرتغال (٦٤ فى الألف) . ويعكس هذا مستوى معيشيا منخفضا بالمقارنة مع دول الشمال (الشكل ٢١) .

وإذا أخذنا مؤشر سهولة الاتصال بالدكتور فإنها مكفولة لجميع الأوروبيين بصرف النظر عن محل إقامتهم . وألبانيا هى الدولة الوحيدة التى تصل نسبة عدد الدكاترة إلى السكان أعلاها فى أوروبا : دكتور واحد لأكثر من ١٥٠٠ شخص . أما أدنى نسبة دكتور - مريض فتوجد فى الاتحاد السوفيتى (١ : ٤٩٠) وتبعها تشكوسلوفاكيا والنمسا والمجر (١ : ٥٦٠ لكل دولة) . وأعلى نسبة تتميز بها البانيا (١ : ٢٣١٠) وقبرص (١ : ١٣٨٠) والبرتغال (١ : ١٢٠٠٠) . وقد نلاحظ الفارق الشاسع بين هذه الدول وبين مثالا تونس (١ : ١٠٠٠٠) تركيا (١ : ٣٢٢٠) والمغرب (١ : ٩٧٠٠) .

أما الأمراض الوبائية والمستوطنة مثل الجدري والكوليرا والملاريا والطاعون البوبونى والديفتريا فقد تم استئصالها . وشهد عام ١٩٢٣ آخر وباء كوليرا فى أوروبا كما تم القضاء على الملاريا فى مستنقعات إيطاليا فى أوائل هذا القرن . وما زال مرض السل منتشرا فى بعض أجزاء القارة . وفى عام ١٩٥٥ م وصلت نسبة المصابين بهذا المرض فى البانيا إلى ١٥٪ من السكان لأن عادة سكان حوض البحر المتوسط فى استهلاك لبن الماعز الطازج ونسبة المرض العالى بين أبقار اللبن قد ساعد فى انتشار ليس مرض السل فحسب بل الحمى المتموجة *tuberculosis* . وكثيرا ما يلجأ المزارعون فى الأرياف إلى بيع الحيوانات المريضة إلى الجزارين مما يزيد فى نشر هذه الأمراض على نطاق أوسع .

وينحدث معظم الاضطرابات أو الاعتلالات التنفسية والسل الرئوى وبثكارار سال فى المدن الملوثة وأقاليم أوروبا الصناعية مثل الرور وميدلاندز البريطانية وويلز .



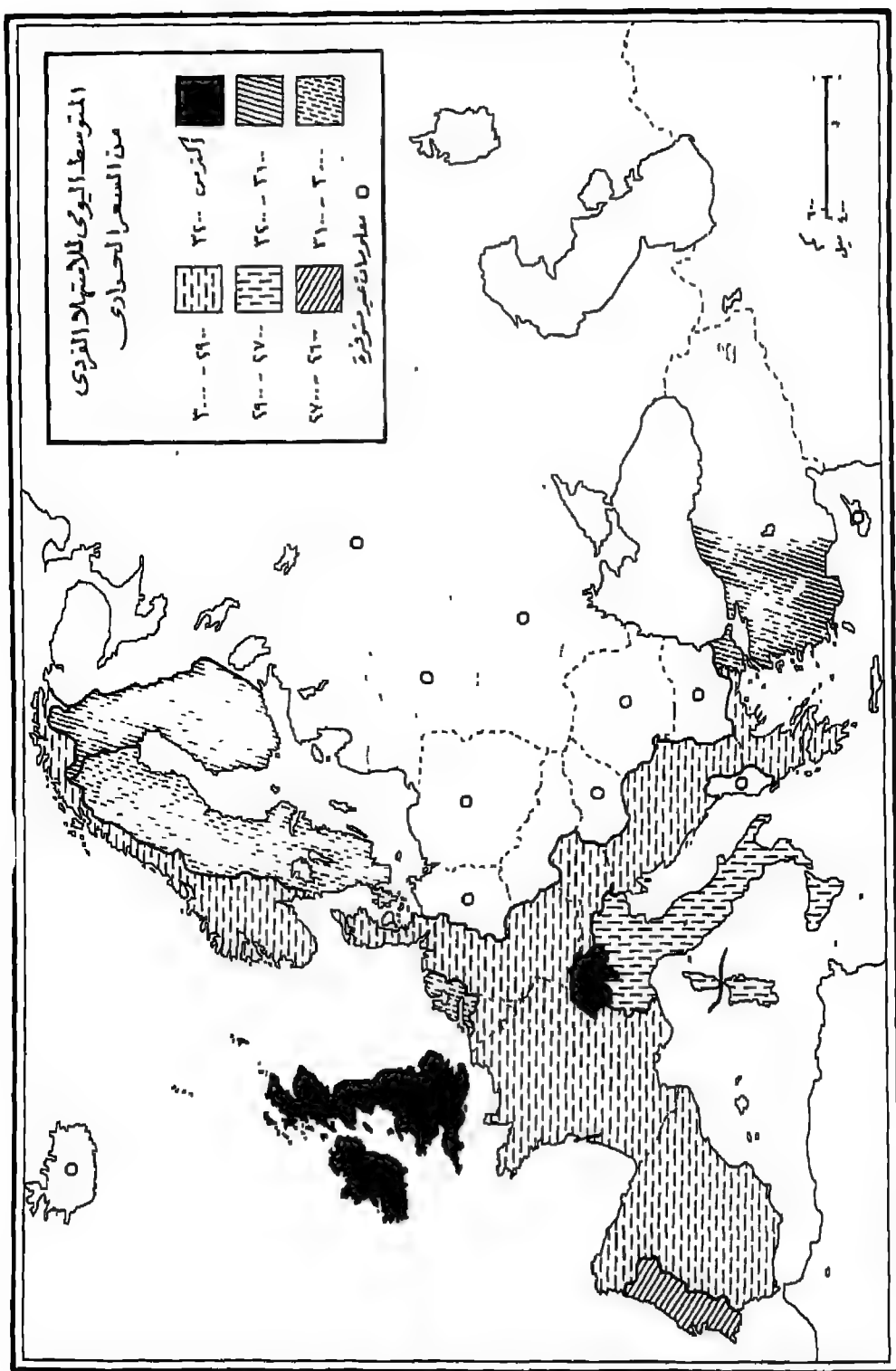
وتصل أعلى نسبة وفيات في أوروبا من الالتهابات الشعبية وسرطان الجهاز التنفسي في مدن ليفربول وبرمنجهام ومانشستر ومقاطعات استافورد شير ولانكشير. أما الوفاة من سرطان المعدة في بريطانيا فتتركز في أرياف ويلز وربما يرجع السبب إلى مياه الشرب ذات التركيز المعدني العالي والتي تلوثت من المياه المتسربة من بفايا المناجم أو يمكن عزوها إلى تفضيلهم للأغذية المحمرة واستخدام دهون القلي لأكثر من مرة.

(٤) الغذاء : (الشكل ٢٢)

للصحة علاقة وثيقة بنوع الطعام الذي يأكله الفرد لأن الأكل الموزون الذي يحتوي على كميات كافية من النشويات والبروتينات والدهون والعناصر الحيوية مثل المعادن - والفيتامينات مهمة في الحفاظ على صحة الإنسان. ونجد أن معظم الأوروبيين يتمتعون بمثل هذا الغذاء ، فإن أدنى متوسط ما يحتاجه الفرد من السعر يوميا والموصى به من قبل خبراء التغذية لخلق إنسان صحي يتراوح ما بين ١٨٠٠ إلى ٢٠٠٠ وحدة حرارية. ومعظم سكان أوروبا (غير الشيوعية) ويوغسلافيا يستهلكون أقل من ٢٦٠٠ سعرا في اليوم في حين أن الأيرلنديين يستهلكون في المتوسط ٣٤٣٠ وحدة حرارية في اليوم وهذا هو أعلى رقم في القارة وإليهم الدنماركيون والسويسريون والإنجليز. أما البرتغاليون فيأتون في المرتبة الأخيرة بحوالى ٢٦١٠ وحدة في اليوم ، ورغم عدم وجود إحصاءات حديثة عن الاستهلاك اليومي للدول الشيوعية فليس من المستبعد أن يكون الرقم عاليا أو بضاهي أرقام الدول الغربية .

ومن المهم أن نعرف نوع الطعام الذي يؤكل . فقد يكون الغذاء ذا وحدة حرارية عالية ولكن لا يحتوي على كميات كافية من البروتينات والمواد الحيوية الأخرى . وكانت بعض دول أوروبا تعاني من نقص البروتينات حتى وقت قريب . ويصل استهلاك الفرد من البروتينات يوميا إلى ثمانين جراما في أوروبا الغربية والجنوبية : أما البرتغاليون (استهلاك ٧٢ جرام) والإيطاليون (استهلاك ٧٩ جرام) فيمثلون أدنى استهلاك فردي خارج الدول الشيوعية .

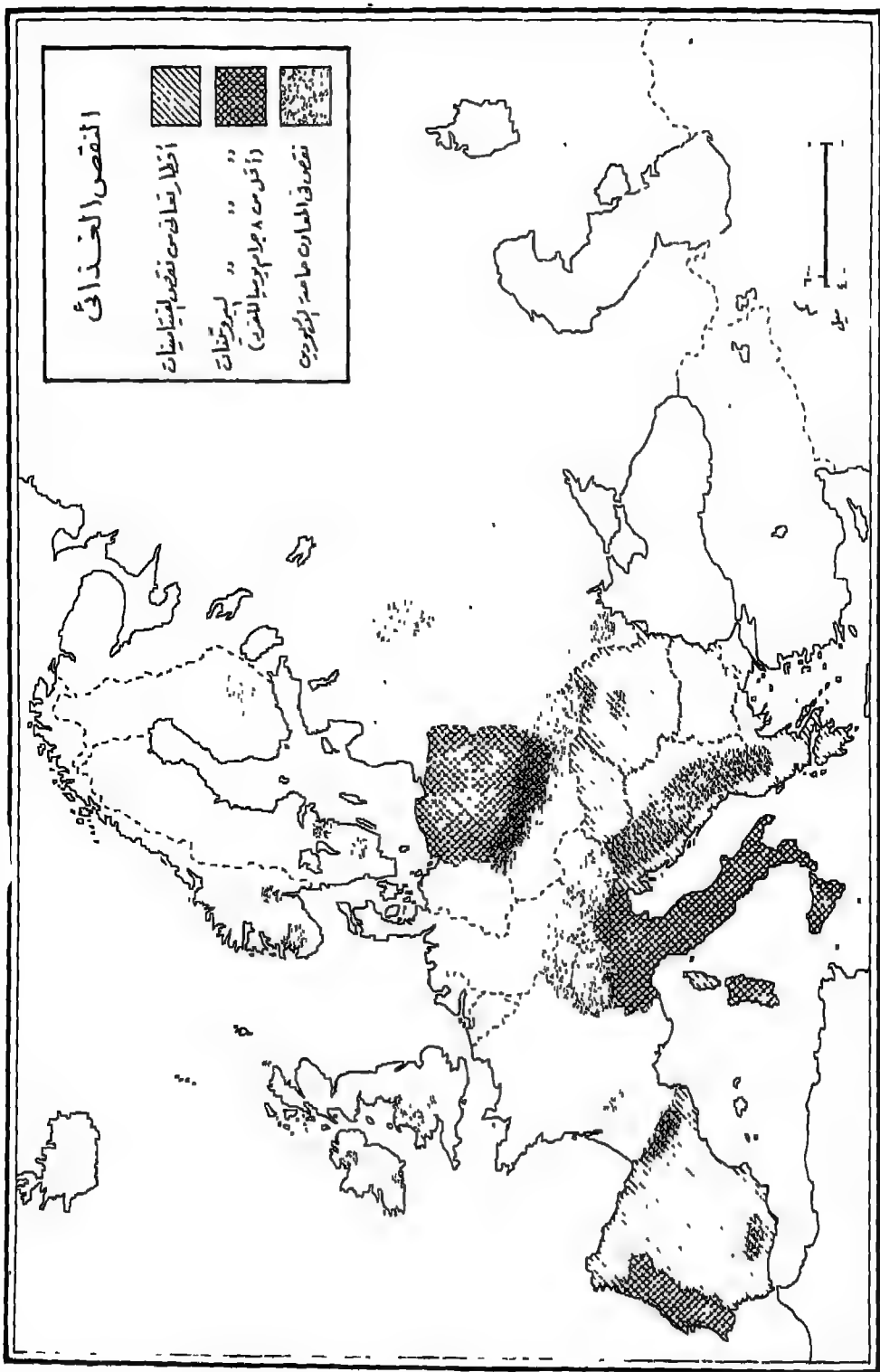
ويقل استخدام الفيتامينات في أوروبا الجنوبية والبلقان وبولنده . وفي يوغسلافيا



يصل استهلاك فيتامين أ إلى ثلاثة أرباع الكمية الموصى بها في حين أن استهلاك فيتامينات أ و ج منخفض في بولنده . ونادرا ما نجد نقصان في المعادن إلا مادة الأيودين Iodine . فهناك أقاليم متضرسة وجبلية في جنوب أوروبا وتحتوى ترباتها على كميات قليلة من هذه المادة مما أدى بالتالى إلى قلتها في غذائهم وإصابتهم بمرض تضخم الغدة الدرقية goiter . (الشكل ٢٣) .

ويمكن أن نرجع الأسباب الأساسية لتفشى سوء التغذية في بعض أجزاء أوروبا إلى المحن الاقتصادية التى مرت في القارة مثل الحروب وتذبذب الإنتاج الزراعى أثر إنشاء المزارع الجماعية وأيضا إلى أسباب حضارية تل المناسبات التى يعزم أثناءها أكل اللحوم ، وكذلك إلى بعض العادات والتقاليد . فالألمان مثل نباتيون في أكلهم ويقتصرون في غذائهم على الخبز المصنوع من الذرة الشامية والخضروات ومصل اللبن و الحين وقليل من لحم الضأن في المناسبات . ويقل استهلاك اللحم في معظم مناطق أوروبا الجنوبية . وتصل نسبة الوحدات الحرارية المستمدة من أصل حيوانى إلى ما بين ١٥ و ١٧٪ من غذاء الإيطاليين واليونانيين والأسبان والبرتغاليين . في حين أن هذه النسبة تصل إلى ٤٢٪ من غذاء الانجليز . ومن الاختلافات الإقليمية في غذاء الشعوب ما نلاحظه من اعتماد البلغاريين على الحبوب النباتية التى تعطى ٩٠٪ من. النشويات و ٧٠٪ من البروتينات .

أما العادات فإن لها أثرا مهما على غذاء الشعوب . فكل دولة أوروبية تملك طعاما خاصا أو أسلوبا معيناً في الطبخ . ومن الاختلافات الأساسية ما تتمثل في استخدام زيت الزيتون في جنوب القارة والسمن أو الدهون في الطبخ في شمالها ، وخبز القمح وخبز الجاودار في شمال وشمال شرق أوروبا . واستخدام الذرة الشامية كطعام وتجنبها في مناطق أخرى أو تخصيصها لتعليف الحيوانات ونجد تفضيلاً لشراب النبيذ في جنوب القارة والبحيرة في الشمال الجرمانى والمشروبات الروحية القوية في شمال وشرق القارة . ويفتخر الأوروبي بطعامه التقليدى ويمتنع من أطعمة الشعوب أو المجموعات الأخرى : فسكان شمال إيطاليا كانوا يتأففون من أكل البيتزا Pizza وهو طعام من جنوب إيطاليا وكثير منهم كان يجهله إلى أن حدثت هجرة الجنوبيين



بأعداد ضخمة إلى مصانع وادى البور في الشمال حتى يعودوا غلبه واليوم نحد هذا الطعام حتى في ألمانيا . ويمكن أن نلمس الاعزاز والفخر العرقى في النظرة السوفينية تجاه أنواع معينة من المشروبات والأطعمة مثل السحن والجبن والشبذ وبعض الأطعمة المميزة التي تنتمى إلى بعض المناطق . وكثدا ما نحصل هذه الأطعمة والمشروبات أسماء المدن والمناطق الى شأت فيها مثل أحما « روكفور »

Requetfort و « ليمبرجر » Limburger و « سداد » Cheddar
 وإيدام Idam . وفي السداد يجب أن حدد أى صفت نعبد . « موزيل » Mosel أو « بورث » Port أو « شسبانيا » C'hampagne

جدول ٦ : السكان في أوروبا

| | |
|-------------|-------------------------------------------------------|
| ٤٧٠,٠٠٠,٠٠٠ | (١) مجموع سكان أوروبا (باستثناء الاتحاد السوفيتى) |
| ٧٦,١٩٤,٠٠٠ | (٢) أوروبا الغربية (١٦,٢١٪ من سكان القارة) . |
| ٥٢,٥٠٧,٠٠٠ | فرنسا |
| ١٣,٥٤١,٠٠٠ | هولده |
| ٩,٨٠٤,٠٠٠ | بلجيكا |
| ٣,٤٢,٠٠٠ | لاتكسبيرج |
| ٧٦,١٥٠,٠٠٠ | (٣) أوروبا الوسطى الغربية (١٦,١٨٪) : |
| ٦٢,١٤١,٠٠٠ | ألمانيا الغربية |
| ٧,٥٢٨,٠٠٠ | النمسا |
| ٦,٤٨١,٠٠٠ | سويسرا |
| ٧٥,٣٧٩,٠٠٠ | (٤) أوروبا الوسطى الشرقية (١٦,٠٤٪) : |
| ٣٣,٦٩١,٠٠٠ | بولنده |
| ١٧,١٦٦,٠٠٠ | ألمانيا الشرقية |
| ١٤,٦٨٦,٠٠٠ | تشكوسلوفاكيا |
| ١٠,٤٥٨,٠٠٠ | اخر |

(٥) أشباه جزر وجزر البحر الأبيض المتوسط (١٣٨٩٪) ٦٥٢٨٧٠٠٠

إيطاليا ٥٥٣٦١٠٠٠

اليونان ٨٩٦٢٠٠٠

قبرص ٦٤١٠٠٠

مالطا ٣٢٣٠٠٠

(٦) المملكة المتحدة وجمهورية أيرلنده (١٢٤٧٪) : ٥٨٥٩٣٠٠٠

انجلترا وويلز ٤٨٧٥٠٠٠

أسكتلنده ٥٢٢٩٠٠٠

أيرلنده الشمالية ١٥٢٨٠٠٠

جمهورية أيرلنده ٣٠٨٦٠٠٠

(٧) أوروبا الوسطى الجنوبية الشرقية (١١٣٤٪) ٥٣٢٧٧٠٠٠

يوغسلافيا ٢١١٥٣٠٠٠

رومانيا ٢١٠٢٩٠٠٠

بلغاريا ٨٦٧٩٠٠٠

البانيا ٢٤١٦٠٠٠

(٨) شبه جزيرة أيبيريا (٩٣٦٪) ٤٣٩٨٧٠٠٠

أسبانيا ٣٥٢٢٥٠٠٠

البرتغال ٨٧٣٥٠٠٠

جبل طارق ٢٧٠٠٠

(٩) الدول الاسكندنافية (٤٧١٪) ٢٢١٣٠٠٠

السويد ٨١٦١٠٠٠

الدنمارك ٥٠٤٥٠٠٠

فنلنده ٤٦٨٢٠٠٠

النرويج ٣٩٨٧٠٠٠

أيسلنده ٢١٥٠٠٠

جزر فاروى ٤٠٠٠٠

الفصل السادس

اللغة والجغرافيا في أوروبا

لغة هي حاملة الثقافة وهي الوسيلة الرئيسية التي يتم التخاطب بواسطتها بين المجموعات الحضارية ، وبهذا المعنى فإنها تدخل في نطاق المواضيع ذات الأهمية للجغرافيين وينصب اهتمام الجغرافيين في دراسة اللغات في الآتي :-

- ١ التوزيع الجغرافي للغات والمجموعات التي تتكلم بها .
 - ٢ غالبا ما تكون هناك علاقة وثيقة بين الأنماط اللغوية وبين التوزيعات الجغرافية لأنواع النشاطات الاقتصادية ولأشكال العبادات ، وللامتداد الاقليمي للدول والأقاليم .
 - ٣ تتميز الحدود اللغوية غالبا بالحدة والوضوح وتقسم هذه الحدود منطقة مثل أوروبا إلى مجموعات من الكتل أو الجبهات المتناسقة نسبيا لكنها تختلف فيما بينها في أشياء كثيرة ما عدا اللغة .
 - ٤ غالبا ما توجد علاقة بين أنماط البيئة الطبيعية وبين خريطة توزيع اللغات . وفي هذه الدراسة سنركز على توزيع اللغات في القارة الأوروبية والتفاعل بين هذه اللغات وبين الاختلافات المكانية الأخرى من بيئة وحضارية
- (١) أصل اللغات الأوروبية والصلة بينها :

تتميز أوروبا بلغاتها العديدة . وقد دخلها منذ ١٠,٠٠٠ سنة مضت خليط من لغات عدة انتشر بعضها وازدهر في حين بقيت أخريات تجاهد للبقاء والاستمرار في حماية الملاجيء الجبلية بينما اندثرت مجموعة تاركة وراءها كلمات قليلة ظلت متداولة في لغات باقية أو في أسماء الأماكن . وفي خضم هذا التنوع اللغوي الذي تشاهده في القارة يلاحظ الدارس المتمعن درجة من الوحدة بين هذه اللغات التي تنتمي أصلا إلى تلك العائلة اللغوية المعروفة بالهندية - الأوروبية أو الهندية - الآرية . وتبدو هذه العلاقة بين اللغات الأوروبية واضحة عندما نقارن مفرداتها خاصة الكلمات التي

تصف الأشياء اليومية الشائعة مثل الأرقام وصلات الدم مثل الأم . فالشباب اللغوى يشير إلى أن اللغات الغربية مستغنى أساسا من لغة واحدة قديمة . ويرجع تاريخ أقدم عينة مكتوبة للغة الهندية الأوروبية إلى حوالى ١٩٠٠ ق.م . ولو أن هناك بعض الأدلة على أن هذه اللغة كانت قد انتشرت على نطاق أوسع قبل هذا التاريخ . وقد تساعدنا الدراسة التحليلية المقارنة للمفردات القديمة ، الحديثة للغة الهندية - الأوروبية فى تحديد منطقة نشأة هذه اللغة ومعرفة الكثير من أصواتها وكلماتها . ومثلا إذا كانت الكلمات التى تصف عنصرا من عناصر البيئة الطبيعية أو الحضارية متشابهة فى عدد من اللغات الهندية الأوروبية فإن كل الاحتمالات ترجح أن هذا العنصر كان معروفا لدى الناطقين باللغة الأصلية . تماما كما أن الكلمات المتنوعة أو المختلفة قد تعنى أن الصفة المعنية كانت مألوفة للهنود الأوروبيين الأصليين جميعهم .

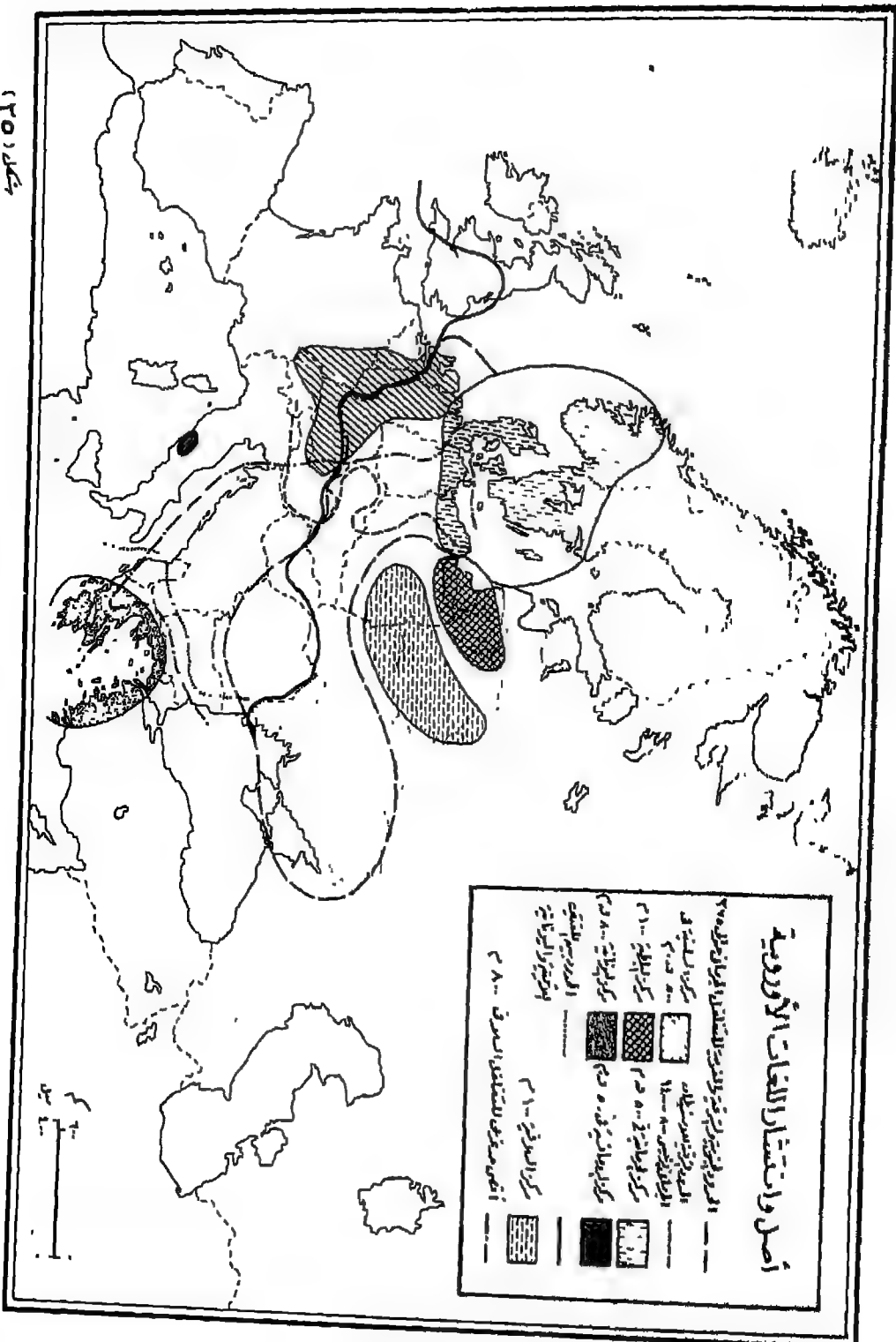
وقد أكد علماء اللغة بواسطة هذه الوسيلة أن طلائع الشعوب الهندية الأوروبية كانوا يعيشون فى بيئة تتميز « بالثلج » و « البرودة » و « الحرارة » مما يشير إلى منطقة تقع فى العروض الوسطى وتتميز بفصول متباينة . كما كان هؤلاء على معرفة « بالأنهار » و « الذئاب » و « الدببة » و « البلوط » و « الصنوبر Pine » « الصفصاف Willows » و « البتولا birch » « الزان Beech » . كما كانت اللغة تخلق من كلمات مثل « البحر » و « الأسد » و « الفرس » و « الحمار » و « الجمل » و « الغنم » مما يوحى بعدم ورود المناطق الساحلية والهند وإفريقيا والشرق الأوسط كموطن لهذه اللغة . ولأن هؤلاء الشعوب كانوا يمارسون الزراعة يبدو أنهم كانوا على معرفة ببعض الأشياء التى لها علاقة بالزراعة مثل « المحراث » و « الثور » و « الخنزير » و « الضأن » و « الماعز » و « التفاح » وبعض الحبوب الصغيرة . ولكنهم كانوا يجهلون نباتات منطقة البحر المتوسط النموذجية مثل « التين » و « العنب » . وقد لجأ خبراء اللغة إلى مفردات اللغات القديمة والمندثرة أيضا فى سعيهم لإيجاد كلمات مشتركة للظواهر المتباينة المرتبطة بالبيئة . ومثلا الكلمة الأسبانية « uva » والكلمة الألمانية الحديثة bai قد تبدوان بأنهما تشيران إلى كلمتين مختلفتين « للدب » « heu » هاتين اللغتين . ولكن الكلمة الألمانية العتيقة uisel بمعنى « الدب » مشتقة من

نفس أصل الكلمة الأسبانية *oscu* . ويمكن أن نخلص من هذا أن موطن نشأة اللغة الهندية - الأوروبية يقع . كما تشير إلى ذلك أدلة المفردات . في إقليم داخلي قارى ذى مناخ معتدل وتكسوه العابات ، أى منطقة تقع إلى الشمال من حبال الألب والبحر الأسود . . وقد يكون موقع هذا الموطن في ألمانيا الشمالية أو جنوب السويد أو أ. اضى البلطيق أو إقليم الدانوب أو الجزء الجنوى من السهل الأروى الشرقى . وأقرب أ. اضى البلطيق أو إيهيم الدانوب أو الجزء الجنوى من السهل الأروى الشرقى . وأقرب اللغات الأوروبية الحديثة إلى الأم هى اللغة اللينوانية السائدة في الساحل الشرقى لبحر الباسيق (كالشكل ٢٤) .

مع نزوح وانتشار الناطقين باللغة الأصلية عبر أوروبا في عصور ما قبل التاريخ بدأت اللغة في التجزئة . ويعتقد بأن أول لغتين اشتقتا من اللغة الأم هى « ساتم Satem » و « ستم Centum » . وهما اسمى أحدا من نطقين مختلفين للكلمة التى تعنى « مائة » . ومنها اشتدت لغات أخرى كثيرة . فمن مجموعة « ستم Centum » انحدرت اللغات السلتية *Celtic* والألمانية *Germanic* واليونانية والرومانسية *Romance* وغيرها . والتي انقسمت بدورها لتشكل لغات حديثة عديدة وأخرى منفردة . وبسلسلة مماثلة أنتجت مجموعة « ساتم Satem » اللغات السلافية والبلطية *Baltic* من ضمن لغات أخرى . وهذه التجزئة التى تعرضت لها اللغة الهندية - الأوروبية الأصلية هى المسبوبة إلى حد كبير عن التنوع اللغوى الذى نشاهده في أوروبا اليوم .

(٢) توزيع اللغات الهندية - الأوروبية : (الشكل ٢٥)

يحتسب التوزيع الجغرافى للغات المختلفة صورة معقدة التركيب . فكل لغة تمثل موقعاً معيناً من القارة وهذا التوزيع لم يأت عمقياً بل كان نتيجة قرون من الصراع الإقليمى بين المجموعات اللغوية المتجاورة والحدولان التالى بوضوحان توزيع هذه لغات وأماكن انتشارها وعدد الناطقين بها .



جدول ٧ اللغات الأوروبية الرئيسية منظمه وفق عدد الناطقين بها في القارة

| المرتبة | اللغة | المناطق الرئيسية التي يتحدثون بها | العدد التقريبي للناطقين بها (بالملايين، ١٩٧٠م) |
|---------|-------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------|
| ١ | الروسية | الاتحاد السوفيتي | ١٣٠ |
| ٢ | الألمانية | ألمانيا الشرقية والغربية والنمسا - وسويسرا ولوكسمبورج وشرف فرنسا وشمال إيطاليا | ٨٥ |
| ٣ | الإيطالية | وسط البحر ووسط رومانيا . إيطاليا ، كورسيكا ، أجزاء من الريفييرا الفرنسية مقاطعة وتيسينو السويسرية . | ٥٦ |
| ٤ | الانجليزية | المملكة المتحدة وجمهورية أيرلندا . | ٥٥ |
| ٥ | الفرنسية | فرنسا وجنوب بلجيكا وغرب سويسرا | ٥١ |
| ٦ | الأوكرانية | جنوب غرب الاتحاد السوفيتي | ٤٥ |
| ٧ | البولندية | بولندا وغرب الاتحاد السوفيتي | ٣١ |
| ٨ | القسطالية | أسبانيا | ٣٠ |
| ٩ | الرومانية | رومانيا ومولدافيا السوفيتية | ١٨ |
| ١٠ | الهولندية ، الفلمنكية . | هولندا ، بلجيكا وشمال فرنسا | ١٧ |
| ١١ | المجرية | المجر ورومانيا الوسطى | ١٤ |
| ١٢ | الصلبية - الكرواتية | يوغسلافيا | ١٢ |
| ١٣ | البرتغالية - الغالية | البرتغال وشمال غرب أسبانيا | ١٠ |
| ١٤ | التشيكية | تشكوسلوفاكيا الغربية | ٩ |
| ١٥ | البلوروسية | غرب الاتحاد السوفيتي | ٩ |

تابع-جدول ٧ اللغات الأوروبية الرئيسية منظمة وفق عدد الناطقين بها في

القارة

| المرتبة | اللغة | المناطق الرئيسية التي يتحدثون بها | العدد التقريبي للناطقين بها (بالملايين/ ١٩٧٠ م) |
|---------|-----------|-----------------------------------|-------------------------------------------------|
| ١٦ | اليونانية | اليونان وقبرص وجنوب البانيا | ٩ |
| ١٧ | السويدية | السويد وفنلندا الساحلية | ٨ |
| ١٨ | البلغارية | بلغاريا | ٦ |

جدول ٨ : توزيع اللغات الأوروبية

| عدد المتكلمين بها بالمليون | أماكن انتشارها | اللغة |
|----------------------------|--------------------------------------|------------------------------------|
| | | أولاً : اللغات الهندية الأوروبية : |
| | | (أ) اللغات الرومانسية : |
| ٣٠ | أسبانيا : هضبة الميزتا | (١) اللغة القسطلية |
| ٦ | الساحل الشرقى لأسبانيا وجزر البليارى | (٢) اللغة القطلونية |
| ١٠ | البرتغال | (٣) اللغة البرتغالية |
| | | (الغاليشية والغالينية) |
| ٥٠ | فرنسا وجنوب بلجيكا وغرنى سويسره | (٤) اللغة الفرنسية |
| ٥٦ | إيطاليا وكورسيكا وجنوب سويسره ونيس | (٥) اللغة الإيطالية |
| | | (٦) اللغة الرومانسية : |
| | شرقى سويسره | ١ . ريتو- رومانى |
| | إيطاليا | ٢ لاديني |
| | إيطالى | ٣ . لريولى |
| ١٨ | رومانيا | (٧) اللغة الرومانية |
| | سهل ولاشيا | ١ . لغة الفلاخ |
| | البلقان | ٢ . لغة لادينى |

| عدد المتكلمين بها بالمليون | ماكن انتشارها | اللغة |
|----------------------------|--------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------|
| | | (ب) اللغات الألمانية : |
| ٨٥ | ألمانيا الغربية والشرق الأوسط وسويسرا ولوكسمبورج والزاس وليختنشتاين وتايرويل | (١) اللغة الألمانية (تنقسم إلى Low و Middle و High من الشمال إلى الجنوب) |
| ١٧ | هولنده وشمالى بلجيكا ومنطقة دنكيرك | (٢) اللغة الفلمنكية والهولندية |
| | | (٣) اللغات الأسكندنافية : |
| ٥ | الدنمارك | ١. اللغة الدنماركية |
| ٤ | النرويج | ٢. اللغة النرويجية |
| ٨ | السويد وفنلنده الساحلية | ٣. اللغة السويدية |
| ٢٢ | أيسلنده | ٤. اللغة الأيسلندية |
| | جزيرة فارويز | ٥. اللغة الفاروية |
| | جزر فيرنان | (٤) اللغة الفريزانية |
| ٦٥ | الجزر البريطانية | (٥) اللغة الانجليزية |
| | لغة البود في روسيا وأوروبا الوسطى والشرقية | (٦) اللغة اليدي |
| | | (ج) اللغات السلافية : |
| ٣١ | بولنده | (١) اللغة البولندية |
| ٩ | غرى تشكوسلوفاكيا (تشكا ومورافيا شرق تشكوسلوفاكيا (سلوفينيا) | (٢) اللغة التشيكية |
| | جنوب شرقى برلين (غابة أسبرى) | (٣) اللغة السلوفاكية |
| ١٠٠ | روسيا | (٤) اللغة الصربية |
| ١٣٠ | أكرانيا | (٥) اللغة الروسية |
| ٤٥ | روسيا البيضاء | (٦) اللغة الأوكرانية |
| ٨-٩ | يوغسلافية (تكتب الصربية بالحروف السيريلية ١٢ بينما تكتب الكرواتية باللاتينية) | (٧) اللغة البلورسية |
| | | (٨) اللغة الصربية - الكرواتية |

| اللغة | أماكن انتشارها | عدد المتكلمين بالمليون |
|--------------------------------------|----------------------------------------|---------------------------|
| (٩) اللغة السلوفينية | حوض كلاجنفورت في النمسا | ١.٥ |
| (١٠) اللغة المقدونية | جنوب يوغسلافيا وبلغاريا المجاورة | ٢ |
| (١١) اللغة البلغارية | بلغاريا | ٨ |
| (٥) اللغات السلتيّة : | | |
| (١) اللغة الويلشية | في مقاطعة ويلز | ٠.٦٥-٠.١١ |
| (٢) اللغة الغالية | اسكتلندا وجزر هيريديز | ٠.٧٥-٠.١١ |
| (٣) اللغة الريتانية | إقليم بريثاني الفرنسية | ٠.٩٠-٠.١١ |
| (٤) لغة الأرس | أيرلنده | ٠.٣-٠.١١ |
| (٥) اللغة الهلينية : | | |
| اللغة اليونانية | اليونان | ٩ |
| (ق) اللغات التراكو - البيرية : | | |
| (١) اللغة الألبانية | البانيا وجنوب يوغسلافيا ومناطق متناثرة | ٣ |
| (ك) اللغات البلطية : | | |
| (١) اللغة اللتوانية | لتوانيا | ٢.٥ |
| (٢) اللغة اللاتفية | لاتفيا | ١.٥ |
| (٣) اللغة البروسية | اندثرت باحتلال ألمانيا لبروسيا | |
| (و) اللغة الروماني | لغة الفجر المتجولين | |
| لانيا : اللغات غير الهندية الأوروبية | | |
| (١) لغة الباسك | إقليم الباسك في شمال أسبانيا | ٠.٦٠-٠.١١ |
| (٢) اللغات الأورالية : | | |
| ١ . اللغة الفنلندية | فنلندا | ٤.٥ |
| ٢ . لغة اللاب | شمال الترويج والسويد | |
| ٣ . اللغة المجرية (الأوغرية) | المجر ورومانيا (شعب السزيكلي) | ١٤ |
| ٤ . اللغة الأستونية | أستونيا | ١.٥ |
| ٥ . اللغة الكاريلية | شبه جزيرة كاريليا | |

(و) اللغة والبيئة الطبيعية :

يوجد نوع من الارتباط بين الخريطة اللغوية لأوروبا وأنماط البيئات الطبيعية فيها خاصة أنواع التضاريس المختلفة . فالمناطق الجبلية والتلالية كثيرا ما تعين الحدود اللغوية مثل جبال البرانس حيث تلتقى اللغتان الفرنسية والأسبانية ما عدا المناطق الساحلية الضيقة المطلة على البحر المتوسط وخليج بسكاي حيث تحتل اللغتان القطلونية والباسك ناحيتي البرانس . وفي بعض الأماكن تفصل السفوح الألبية اللغتين الألمانية والفرنسية من اللغة الإيطالية وكذلك اللغة السلافية الجنوبية من الألمانية . كما أن المرور جنوبا - عبر ممر سان جوثارد St. Gotthard الشهير في سويسرا - يعنى الانتقال من المناطق الناطقة بالألمانية إلى تلك التي تتكلم باللغة الإيطالية . وقد ساعدت المناطق المتضرسة المختلفة في أسبانيا في عزل اللغة الأسبانية القسطلية من اللغات القطلونية والبرتغالية والغالية والباسك المجاورة . كما تمثل جبال الفوزج Vosges المكسوة بالغابات في شرق فرنسا الحدود بين اللغتين الفرنسية والألمانية منذ فترة طويلة ، ومثل هذه الحدود اللغوية ذات التخلخل السكاني والتي تمر عبر مناطق متضرسة قليلة السكان تتميز عادة بالاستقرار والهدوء . أما الحدود اللغوية التي تمر عبر السهول فهي أكثرها تعرضا للتغير والزحزحة . فالحدود بين اللغات الرومانسية والألمانية التي تتسم بالاستقرار في المناطق الجبلية والمتضرسة من جبال الفوزج والألب تعرضت للزحزحة والتغير في المناطق السهلية . ففي الأجزاء العليا من وادي نهر الرون تتقدم حدود اللغة الألمانية نحو الغرب بثبات أمام اللغة الفرنسية المتقهقرة كما أن انتشارا مماثلا للغة الألمانية في أودية سويسره الشرقية أصبح يهدد لغة الريتو - الرومانية Raeto-Romanic بالانقراض . أما في سهول الفلاندرز الفرنسية فإن اللغة الفلمنكية الجرمانية هي التي تتقهقر أمام اللغة الفرنسية وتنحصر في منطقة ضيقة حول مدينة دنكيرك القديمة .

وقد كانت التضاريس ، متمثلة في الجبال والتلال ، ملجأ لتلك المجموعات المستضعفة التي لم تستطع مواجهة المجموعات القوية التي أخذت تسيطر على السهول المجاورة ومن ثم انزلت في المناطق الجبلية مما أتاح للغاتها البقاء والاستمرار كما حدث

لقبائل السلت Celts منذ أثنى سنة تقريبا . ويدو أن اللغة السلتيّة كانت تتركز قبل عام ٥٠٠ في م. و أراضي ألمانيا الجنوبية حيث نجد الآن مخلفات اسميّة سلتيّة كما في اسم الراين Rhine (وهو من الكلمة السلتيّة renos وتعني الانسياب Flow) واسم الألب Alps (من لغة الأرس Erse احدى alp وتعني « جبل عال High mountain ») . ثم أخذ السلتيون ينسرون من منطقتهم هذه عبر مناطق شاسعة من القارة تمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأسود ولكن سرعان ما تم زحزحتهم من هذه المناطق أو انصهارهم في المجموعات اللغوية الأخرى مثل الألمانية والرومانسيّة . وأمام هذا المد الطاغى من المجموعات القويّة أخذ السلتيون يتقهقرون إلى أن لجأوا أخيرا إلى مرتفعات الجزر البريطانيّة . وقد استطاع السلتيون الصمود في وجه السيطرة الرومانيّة ولكنهم أجبروا في النهاية على اللجوء إلى حامية التلال الغربيّة من بريطانيا أو على عبور البحر إلى منطقة بريثاني Brittany الجبلية في فرنسا على يد الأنجلو - ساكسون . ولهذا الأسباب نجد اللغات السلتيّة محصورة في المناطق الجبلية المنعزلة كما أن الملاجيّة الجبلية قد ساعدت في الإبقاء على لغات قبائل الفلاخ Vlakh واللادين Ladin والألبانيين Albanians في جبال الأبنين ، وألمان جبال ترانسيلفانيا في داخل رومانيا ، من الأندثار أو الانصهار في اللغات المجاورة . وفي بعض الحالات حدث أن بعض هذه المجموعات الجبلية تركت ملاجئها الجبلية بعد زوال الخطر واستعادت إقليمتها في السهول المجاورة كما فعل الرومانيون في العصور الوسطى عندما تركوا معقلهم في جبال الكريات لاحتلال ولاشيا ومولدافيا ومعظم حوض البحر واستقروا فيها .

أما الجزر فإن تأثيرها على النمط اللغوي يكون بطريقتين :

١ - إذا كانت الجزيرة بعيدة ومنعزلة فإن هذه الانعزالية تساعد كثيرا في الحفاظ على اللغات القديمة : فاللغة الأيسلنديّة هي أكثر اللغات الاسكندنافية قربا للغة النورس (الشمال) القديمة Old Norse . وذلك لأن الذين يتكلمون بها يعيشون في جزيرة منعزلة في شمال الأطلسي ، كما أن اللغة القطلونية قد احتفظت بنقاوتها في جزر البلياري Balears . أما الحامية والانعزالية التي تمنحها الجزر فقد ساعدت أيضا

في بقاء اللهجة الساردينية واللغة الفارويزية Faeroese والإيطالية في جزيرة كورسيكا .

٢ - أما الجزر التي تقع على الطرق التجارية الرئيسية فقد حذبت إليها أعدادا كبيرة من المسافرين بالبحر وأصبحت تتميز بتعدد اللغات فيها . مثل جزيرة قبرص التي تشترك فيها اللغتان التركية واليونانية وجزيرة صقلية التي أصبحت وطنا للغات الإيطالية والألبانية واليونانية .

أما النباتات الطبيعية فلها أيضا تأثيرها على الخريطة اللغوية لأوروبا . فقبائل الماغيار المغيرة الآتية من مناطق حشائش الاستبس الآسيوية هي التي غزت اللغة المجرية في أوروبا ، وقد نزحت هذه القبائل غربا عبر ممرات جبال الكربات واستقرت في حوض البحر في عام ٨٩٥ ميلادية . وقد كان لتعودهم على بيئات المناطق العشبية دور في اختيارهم هذه البقعة كما ساعدتهم مهارتهم في الحرب من على صهوات الخيل في الاحتفاظ بهذه المنطقة أمام هجمات المغيرين والإبقاء على لغتهم حية مزدهرة . وقد باءت محاولاتهم للتوغل في المناطق الغابية إلى الغرب بالفشل ومن ثم ظلت اللغة المجرية لغة المناطق العشبية المفتوحة .

أما الغابات فقد أصبحت بدورها ملاذا لبعض المجموعات اللغوية . فقد وجد الروس فترة راحة واستجمام من غارات القبائل الآسيوية عبر سهول الاستبس المفتوحة باللجوء شمالا إلى المنطقة المركزية ذات الغابات الكثيفة .

كما أن المستنقعات والمناطق ذات التصريف الرديء تفرض أيضا نوعا من الحماية على اللغات : فشعوب الوند Wends والصورب Sorbs السلافيين قد استطاعت الصمود أمام انتشار شرقى للألمان باللجوء إلى حماية غابة اسبرى Spreewald المستنقعية بالقرب من برلين حيث يتواجدون اليوم ، كما تشبث الفريزيان Frisians بإصرار بمستنقعات بحر الشمال الساحلية في هولنده وألمانيا الغربية والدنمارك ، أما المستنقعات والأماكن الرديئة التصريف التي تنتشر في تربات السهول التي أرسبها الجليد فقد ساعدت في حماية اللغات البلطية من التوسع السلافي

الألماني . ويحدث أحيانا أن تمثل المناطق المستنقعية حدودا لغويا كما هي حالة مستنعات برييات Pripyat التي تفصل منذ وقت طويل شعوب روسيا البيضاء من الأوكرانيين و كليهما من البولنديين .

أما المناخ ، خاصة اذا كان قاسيا ، فيلعب نفس دور المستنقعات والجبال والغابات والجزر في اصفاء الحماية كما هو الحال بالنسبة لقبائل اللاب والفنلنديين الذين يعيشون في اصقاع المناطق شبه القطبية التي عافتها القبائل المغيرة لقسوة مناخها وبيتها .

(م) اللغة وهجرات الشعوب : (الشكل ٢٥)

تعتبر اللغة من أفضل الأسس لتعريف وتحديد المناطق الحضارية ، فهي حاملة الحضارة ومتى هاجر شعب من منطقة لأخرى حمل معه لغته ولذلك فإن خريطة أوروبا اللغوية قد تشكلت جزئيا بهجرات عديدة حدثت عبر هذه القارة وشملت تقريبا كل المجموعات اللغوية . وقد كانت هذه الهجرات أكثر حدوثا في فترات تاريخية من غيرها ، ومن هذه الهجرات الجماعية تلك التي حدثت أثناء القرون الخمسة الأولى من العصر المسيحي والمعروفة باسم Volkerwanderungen أى « هجرة الشعوب Migration of Peoples » ، ثم حدثت هجرة أخرى ولكن لمدة قصيرة في الفترة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٥٠ م . وفي كلتا هاتين الهجرتين كانت الشعوب الألمانية والشعوب السلافية هي أكثر المجموعات الأوروبية التي تأثرت بها وشملتها التحركات .

يبدو أن منطقة النواة الأصلية للشعوب الألمانية كانت تشمل جنوب اسكندناوه وأقصى المناطق الشمالية من ألمانيا ، ومن هذه المنطقة حدث الانتشار المبداي للقبائل التوتونية Teutonic نحو الشرق والجنوب قبل العصر المسيحي حتى وصلت إلى شواطئ البحر الأسود .

وفي أثناء هذه الهجرة الجماعية أخذت هذه القبائل تجلو من أراضي أوروبا الشرقية لتغزو المناطق الواقعة الى الغرب والجنوب وهكذا غادرت القبائل الجرمانية كل

الأراضي الواقعة إلى الشرق من الخط المكون من أنهار سال Saal ، ن Elbe في ألمانيا الشرقية والحدود الحالية بين تشكوسلوفاكيا وألمانيا الغربية وأنهار سالزاخ Salzach وأن Inn في النمسا ، واتجهت جنوبا وغربا تغزو إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وشمال أفريقيا . وفي خلال هذه الفترة استقرت قبائل الأنجلز Angles والساكسون والجات Jules في إنجلترا واتخذتها موطناً لهم ، وفي وقت لاحق استوطنت قبيلة النورس Norse (رجال الشمال) جزيرة آيسلندة . وفشلت القبائل التيوتونية في الحفاظ على لغتهم في المناطق التي استقرت فيها إلا في أماكن معدودة وقد عانى معظم القبائل المغيرة من نفس المصير الذي لحق بالفرنك Franks التي انصهرت في اللغة الفرنسية (الرومانسية) ولم يبق منها إلا اسمها الألماني الذي عرفت به فرنسا .

ثم اتجه الألمان نحو الشرق للمرة الثانية ومن حوالي عام ٨٠٠ إلى عام ١٣٠٠ ميلادية أخذ المزارعون الرواد في التحرك شرقا واحتلال واستيطان الأراضي الواقعة فيما بعد نهري « الب » و « سال » في السهل الألماني الشمالي والمناطق التي تمتد إلى الشرق من نهري « سالزاخ » و « إن » في وادي الدانوب ومنطقة الألب الشرقية في النمسا . ثم حدث فيما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥١ جلاء إجباري لهؤلاء المستوطنين كما أشرنا في الجزء الخاص بالسكان .

أما التوسع المكاني للغة السلافية وانتشارها فيمثل أعظم تغيير طرأ على الخريطة اللغوية للقارة في خلال الألف سنة الأخيرة ، فعند ميلاد المسيح كانت منطقة النواة السلافية تحتل منطقة صغيرة تقع بين الأجزاء العليا من نهر دنيبر Dnepr في أقصى غربي الاتحاد السوفيتي وبين مجرى نهر فستولا الأوسط في بولندة الذي كان عبارة عن منطقة غابية كثيرة المستنقعات وذات تربات فقيرة . ويبدو أن ازدياداً سكانياً قد حدث للسلاف في الفترة ما بين عامي ١٠٠ و ٤٠٠ ميلادية إذ اندفع هؤلاء القوم من موطنهم الكتيب ينتشرون في كل اتجاه ، فبعد أن ردوا القبائل الفنلندية على أعقابهم نحو الشمال ، تحركوا غرباً أثر إخلاء الشعوب الألمانية مناطقهم ، واندفعوا جنوباً إلى منطقة البلقان التي كانت تخضع للإمبراطورية الرومانية ثم اتجهوا شرقاً نحو سهول الاستبس الأوكرانية . ولكن هذا التوسع السريع توقف في العصور الوسطى

أمام التقدم الألماني نحو الشرق وتغلغل قبائل الماغيار ثم تحرك الرومانيون من معاقلمهم الجبلية في الكريات للاستقرار في السهول المجاورة مما أدى إلى فقدان أقاليم واسعة ، وأخيرا إلى ظهور حاجز عرق يقسم السلافيين إلى قسمين : جنوى وشمالى . وقد عوض السلافيين هذه الخسائر الإقليمية بالتوسع شرقا في سيبيريا وما زال هذا التوسع مستمرا إلى اليوم .

(ن) اللغة والنمط السياسى :

هناك ارتباط وثيق في أوروبا بين الحدود اللغوية والسياسية إلى درجة أن القومية أصبحت مرادفة للغة . وإذا نظرنا إلى الخريطة السياسية سنجد لها نسخة من الخريطة اللغوية كما سيتضح من دراستنا للجغرافية السياسية للقارة . وهنا يمكن أن نكتفى بالقول إن التفاعل بين الدولة واللغة قد لعب دورا هاما في تحديد وتقرير مصير اللغات والدول في أوروبا . فقد أصبحت اللغة أساس الشعور القومى عند كثير من الأمم مما نتج عنه وضع غير عادل بالنسبة للأقليات اللغوية التى ترخز بها القارة

فامتصاص الأقليات اللغوية داخل الدول الأوروبية وانصهارها فيها عملية مستمرة منذ أكثر من ألف سنة : فاللغة الفرنسية تتقدم على حساب اللغات الألمانية في فرنسا ولكنها تتقهقر أمام الألمانية في سويسره ، كما أخذت اللغة القسطنطية تحل تدريجيا محل اللغتين الغالية والباسك في أسبانيا ، في حين أن اللغة السويدية قد خضعت للفنلندية في فنلنده .

وفي ألمانيا الشرقية تقلص عدد الونديين والصورب Sorbs من ١٤٢٠٠٠ شخص في عام ١٨٤٩ إلى ١٠٠٠٠ الآن وتبع ذلك تقلص تدريجى لحدود لغتهم ومثل هذا الانصهار اللغوى يحدث حتى إذا كانت لغة الأقليات معترفة بها رسميا كما حدث في سويسره وفنلنده كما أنه ينسحب أو ينطبق أيضا على اللهجات واللغات المختلفة تماما : فاللهجات الفرنسية والإيطالية واليونانية قد تدهورت إثر توحيد هذه الدول سياسيا .

ويوضح تقلص وتدهور اللغات السلتيه ما يحق بلغات الأقلية من مصير سيء ، ففي بريطانيا استطاعت الدولة الانجليزية التى أنشأتها القبائل الألمانية المغيرة من

إخضاع الملاجيء الجبلية السلتية تحت سيطرتها الواحدة تلو الأخرى . وبعد الخضوع للحكم الانجليزي لم يبق للسلتين مفر إلا الانصهار في ثقافة الأقوى . وكانت تلك بداية النهاية بالنسبة للغات السلتية . ففي منتصف القرن الثامن عشر اندثرت اللغة الكورنية Cornish بعد مضي ألف سنة من احتلال الانجليز لمنطقة كورنول Cornwall ولقيت لغة المانكس Manx في جزيرة مان Isle of man نفس المصير كما أن اللغة الغالية Gaelic في شمال أسكتلنده على وشك الانقراض لأن الذين يتكلمون بها لا يزيد عددهم الآن عن ألف شخص . أما اللغة الويلزية Welsh فقد أظهرت صموداً أكثر رغم تقلص حدودها وتناقص عدد المتكلمين بها وثنائية لغتهم مما يشير إلى مصير قائم في المستقبل . وفي منطقة بريثاني Brittany الفرنسية أجبرت اللغة البريتانية Breton السلتية على التقهقر أمام اللغة الفرنسية بعد أن خضعت المنطقة للسيطرة السياسية الفرنسية .

وتتلخص المشكلة الأساسية التي تواجه السلتيين في حرمانهم من كيان سياسي مستقل في هذه المناطق المذكورة إلا في جمهورية أيرلنده حيث أصبحت لغة الأرس Erse السلتية لغة رسمية للدولة تدرس في المدارس رغم أن معظم سكانها يتكلمون اللغة الانجليزية التي ورثوها منذ عهد الإحتلال الانجليزي لها . وتهدف الحكومة الأيرلندية من جعل سكانها ثنائي اللغة : تستخدم اللغة الانجليزية في معاملاتها الدولية وتحفظ تراثها الحضاري السلتى من خلال الأرس التي يبلغ عدد المتكلمين بها الآن حوالى نصف مليون شخص .

ومن الأشياء التي تساعد في تدهور اللغات السلتية في بريطانيا وفرنسا وسائل الإعلام الحديثة خاصة الراديو والتلفزيون ، ووسائل الاتصال الإلكترونية التي أنهت الانعزالية التي كانت تساعد في إبقاء اللغات متميزة ومزدهرة : فالإذاعات تصل الآن إلى المناطق النائية بسهولة ويسر .

وقد ساعد إنشاء المبراطوريات في انتشار بعض اللغات كما حدث بالنسبة للغة الرومانسية التي انتشرت في أوروبا على العكس من اللغات الألمانية والسلافية التي حدث انتشارها عن طريق الهجرات الجماعية . ففي حوالى عام ٥٠٠ ق . م . كانت

اللغة اللاتينية قاصرة على عدد من المتكلمين الذين يتواجدون في إقليم صغير يقع عند الطرف الغربى من جبال الأبنين في سهل لا تيوم (لازيو Lazio الحديثة) ، ومع انتصارات الجيش الرومانى أخذت هذه اللغة تنتشر ، ببطء في البداية (إذ استغرق احتلال إيطاليا وحدها زهاء القرنين) ثم بسرعة مع توسع الإمبراطورية . ففي عام ١٠٠ ميلادية امتدت الإمبراطورية ومعها اللغة إلى أقصى حدودها وأصبحت اللغة الرومانسية تسمع في شواطئ أنهار التيمس Thames والراين والدانوب وفي شمال أفريقيا . ولم تستطع لغة واحدة الصمود في وجه هذه اللغة الطاغية ومقاومتها إلا اللغة اليونانية التي قاومت الانصهار فيها لمكاتها الثقافية المتقدمة . ومع تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية تدهورت اللغة الرومانسية ولكنها لم تختف بسقوطها . فقد أتت القبائل الجرمانية المغيرة ببلغتها إلى بريطانيا والشاطئ الغربى من نهر الراين ومنطقة الألز في حين أن السلاف والماغيار اندفعوا نحو البلقان تاركين اللغة الرومانية رمزا لعظمة الرومان ووجودهم القوي في هذه المنطقة . وفي هذه المناطق المفقودة بقيت اللغة اللاتينية محفوظة في أسماء الأماكن الحالية مثل كلمتي castra . Chester (كما في مانشستر Manchester ولانكستر Lancaster) المستمدة من الكلمة اللاتينية Castra (وتعنى معسكر جيش Military camp) . أما انقسام اللغة اللاتينية إلى لهجات ولغات منفصلة فقد عجل بها سقوط الإمبراطورية : فقد تسبب زوال السلطة السياسية المركزية في الانعزال الإقليمى في مناطق اللغة الرومانسية كما شجعت الانعزالية والأمية والجهل في تحريف اللغة ومفرداتها .

اللغة والمظهر الحضارى للأرض :

يرتبط المظهر الحضارى للأرض بخريطة اللغات من نواحي عديدة ، وأحد أشكال هذا الارتباط يتمثل في العلاقة بين اللغة وشكل الاستيطان الريفي . ففي ريف أوروبا يسكن معظم الناس في قرى متجمعة ولكن توجد منازل زراعية متناثرة في بعض المناطق . وفي مثل هذه المناطق تشجع الانعزالية الناتجة على الإبقاء على اللغات الاقلية بينما يعزز التجمع السكنى الانصهار والاندماج . وفي الحقيقة يدين بعض اللغات الأوروبية بقاءها جزئيا إلى نمط القرى المتناثرة الموجودة في أماكن إنتشارها .

فى فرنسا مثلاً يتطابق انتشار اللغة الفلمنكية Flemish مع نطاق فى الشمال يتميز بتشتت سكّنى كما هو الحال بالنسبة للغة الويلزية فى المملكة المتحدة . كما أن بقاء لغة الهاسك قد يرجع إلى نظام القرى المشتتة فى منطقة الحدود الاسبانية - الفرنسية . ومن الأسباب التى عاقت تغلغل اللغة القسطنطية فى منطقة نفوذ اللغة الغالية فى شمال غرب أسبانيا وجود تداخل سكّانى فيها . ومن ناحية أخرى يبدو أن الاستيطان القروى قد ساعد فى استيعاب السكان الصقلية الزراعية الذين كانوا يقطنون فى السهل الألمانى إلى الشرق من خط الب - سال Elbe-Saale بواسطة الألمان فى العصور الوسطى . فقد استقر عدد كبير من الألمان فى القرى السلافية فى تلك الفترة وتم استيعاب السلافيين بسرعة فى الثقافة الألمانية .

ثم هناك اللغة المرثية التى نشاهدها مكتوبة فى لافتات المرور على جوانب الطرق . فن السهل على المسافر فى أوروبا أن يميز الحدود اللغوية وخاصة إذا كانت تغييرات اللغة تحدث عند حدود دولية - كما عند الحدود النمساوية - المجرية حيث يظهر التغيير بوضوح ملفت للنظر ، ربما لعدم وجود صلة بين اللغتين الألمانية والمجرية . ويعمق وضوح التحوّل اللغوية عندما يتطابق تغيير هجائى مع انتقال لغوى كما يحدث فى المنطقة التى يفصل فيها نهر الدانوب رومانيا من بلغاريا . أما المناطق التى تختلط فيها اللغات فتبدو واضحة فى اللافتات الثنائية اللغة المغروزة على جوانب الطرق . ولكن هناك بعض المناطق لا تكون اللغة المرثية فيها مؤشراً صحيحاً للغة المحلية السائدة فيها كما هو الحال فى لوكسمبورج Luxembourg ، تلك الدولة الصغيرة التى تقع بين فرنسا وألمانيا . فهنا نجد كل اللافتات مكتوبة بالفرنسية بينما يتكلم الشعب صيغة لغوية ألمانية . حتى اسم الدولة صيغة فرنسية لكلمة لوكسمبورج الألمانية Luxemburg (ومشتقاً من اللغة الألمانية القديمة Lucilinburhuc بمعنى القلعة الصغيرة) ('Little Fortress') وهكذا يستخدم شعب لوكسمبورج اللغة المرثية (الفرنسية) لتمييز أنفسهم من الألمان بينما تميزهم لغة الكلام (الألمانية) من الفرنسيين ، ومن ثم يكونون ذاتية مستقلة لا تنتمى للألمان ولا الفرنسيين مما ساعد فى تدعيم استقلالهم السياسى باستمرار . وقد تكون اللغة غير مرثية فى حالة الأقليات اللغوية التى تضطهدها حكومات مركزية تناصبها العداء .

اللغة والاقتصاد :

لا تخلو ظاهرة اقتصادية من علاقة ماتربطها بلغة من اللغات ، فالتجارة ووسائل النقل قد تساعد في انتشار اللغة بينما يقيد التباين اللغوي في بعض الحالات أنماط التسوق ومناطق السوق .

فقد حمل التجار الذين جابوا البلاد لغتهم معهم كعرض جانبي لمهتهم كما حدث للغة اليونانية . واليوم نجد « جزر » يونانية متصلة في منطقة تمتد من جنوب إيطاليا إلى منطقة انقويز الروسية ومن سوريا الساحلية إلى إقليم الاستبس الأكراني ، وكلها تمثل بقايا من المصالح التجارية اليونانية منذ العصر الكلاسيكي والبيزنطي كما أن تجار الفراء الروسين هم الذين حملوا اللغة السلافية إلى المناطق الواقعة شرق جبال الأورال . أما في النطاقات التي تمتزج فيها اللغات فقد يحدث أن تحتل لغة واحدة مكانة معينة وتعرف بلغة الارتباط *Language of Association* ففي مثل هذه الحالة يتحدث الناس غالبا بلغة في منازلهم ويستخدمون لغة أخرى في السوق كما في حوض كلاجنفورت *Klagenfurt* في النمسا حيث يعيش قوم يتكلمون اللغتين السلوفينية *Slovenian* والألمانية معا ، والأخيرة تمثل لغة الارتباط ، وفي مثل هذه المناطق يحدث الاستيعاب اللغوي .

وفي حالة وجود لغتين في منطقة واحدة ، كل مجموعة تناصب العداء للآخرى ، فإن ماينتج من مثل هذه الأوضاع قد يكون التفرقة الاقتصادية بدون وجود لغة ارتباط . ففي مدينة بروكسل مثلا يتأثر تحديد مكان التسويق اليومي بلغة الأم بالنسبة للمالك الذكان : فالفلمنكيون يميلون لابتاع حاجياتهم من الدكاكين التي يديرها فلمنكيون أكثر من تلك التي يديرها فرنسيون حتى ولو كان مالك المتجر ثنائي اللغة ، أي يتحدث باللغتين وإذا كانت مجموعة لغوية معينة صغيرة في حجمها ومتناسكة اجتماعيا فإنهم قد يمنحون إلى تكوين مايمكن أن نطلق عليه مجتمعا مغلقا اقتصاديا . وفي بعض الحالات الأخرى قد ينتج خليط من لغة تجارية ، فسكان جزيرة مالطة ذات الموقع الاستراتيجي يتكلمون اللغة المالطية التي هي عبارة عن خليط من اللغتين العربية والإيطالية ، فإذا كان مثل هذا المزيج اللغوي يوجد أساسا كلفة تجارة يطلق

عليه اسم Pidgin وهى عبارة عن لغة مبسطة تستخدم فى الاغراض التجارية وللتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة . ومن أمثلة لمثل هذه اللغات الأوربية التى اندثرت الآن « لغة السابير Sabir » وهى مزيج من اللغات الأسبانية واليونانية والإيطالية والفرنسية والعربية كانت تستخدم فى العصور الوسطى فى حوض البحر المتوسط ، ولغة روسينورسك Russénorsk . وهى خليط من اللغة الروسية والنرويجية كان يستخدمها تجار السمك فى موانئ النرويج حتى وقت قريب .

وتنتشر اللغات أيضا عبر طرق النقل إلى جهات مختلفة ، فإن بناء السكك الحديدية والطرق المعبدة الرئيسية قد أثر فى بعض الأحيان على التوزيع الجغرافى لبعض اللغات . . فى فرنسا ساعد بناء شبكة طرق البريد فى القرن الثامن عشر فى انتشار وسيادة لغة باريس الفرنسية Langue d'oïl وتدهور اللهجة الجنوبية Langue d'oc كما أن تشييد خط سكة حديد سيبيريا القارى قد ساعد فى انتشار اللغة الروسية إلى الشرق من جبال الأورال .

وفى بعض الأحوال نجد مجموعة لغوية معينة ترتبط بطرق معيشة معينة ، فشعب الفلاخ الناطق باللغة الرومانسية ويعيش فى جنوب شرق أوروبا شعب رعوى كما أن نسبة عالية من الباسك كانت تمارس رعى الضأن وصيد السمك قبل دخول التصنيع فى منطقتهم . أما النجر (Gypsies) الناطقين بالرومانى Romanى فيكونون مجموعة اقتصادية متميزة من البائعين المتجولين .

ونوع المهنة الذى تمارسه مجموعة قد تؤثر فى مفردات لغتها : ف لغة شعب الفلاخ تحتوى على عدد كبير من الكلمات المتعلقة بالضأن والمراعى والحشائش مما يعكس نوعية النشاط الاقتصادى الذى يمارسونه . كما أن لغة الغجر الرومانى قد جمعت كلمات كثيرة من اللغات الأخرى التى يأتون على اتصال معها أثناء تجوالهم

الفصل السابع

الدين والجغرافيا في أوروبا

تمثل الديانة المسيحية أهم وأقوى السمات التي تميز الأوروبيين عن الشعوب الأخرى لأن هذه الديانة كانت محصورة حتى عام ١٥٠٠ ميلادية داخل حدود القارة الأوروبية وكانت الثقافة والديانة مترادفتين تقريبا . وقد لعبت الكنيسة دورا كبيرا في النهضة الحضارية للقارة المتمثلة في الإنجازات الفنية والتجارية في العصور الوسطى وعصر النهضة . ففي الأديرة المتناثرة حفظت العلوم وازدهرت خلال العصور المظلمة كما أهدت على بعض الملامح الحضارية من الاندثار . وكانت للكنيسة اليد الطولى في استيطان وتعمير المناطق الغاية الواقعة إلى شمال الألب وتحويلها إلى أراضٍ زراعية خصبة كما أن الكنيسة هي التي ألهمت الأعمال الفنية والأدبية والفلسفية والمعمارية الرائعة التي أنتجتها الحضارة الأوروبية .

ينحصر اهتمام الجغرافيا في الخصائص المكانية للاديان وفي الطرق التي تختلف فيها المظاهر الدينية من مكان لآخر وفي دراسة علاقة السبب والنتيجة التي تربط بين مناطق توزيع الأديان والأنماط المكانية الأخرى من حضارية وبيئية . ويمكن تمييز أربعة موضوعات رئيسية في جغرافية الأديان هي :

- ١ - التوزيع المكاني والتفاعل المكاني بين المجموعات الدينية .
- ٢ - أثر البيئة الطبيعية في تطور وخصائص وصفات وتوزيع الديانات .
- ٣ - أثر الديانات على البيئة وخاصة الإسهام الديني في تطور المظهر الحضاري أتي البصمات الظاهرة في الريف التي جاءت نتيجة مجهودات الإنسان .
- ٤ - العلاقة المتبادلة بين الدين والمظاهر الثقافية مثل اللغات والزراعة والسياسة والنقل والصناعة .

وسندرس هذه المواضيع بشئ من التفصيل . . .

(١) التوزيع والتفاعل المكافئ للمجموعات الدينية (الشكل ٢٦)

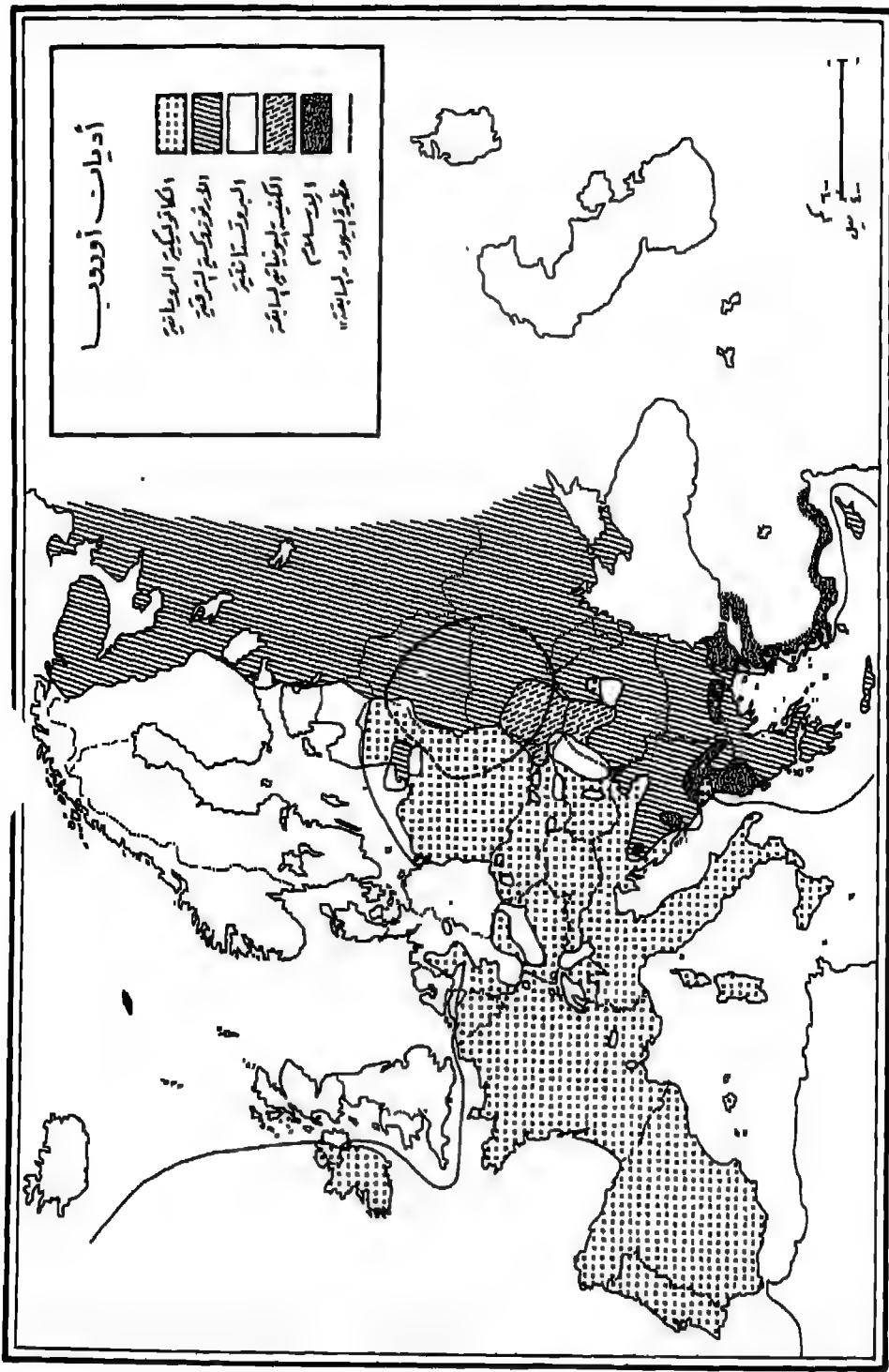
يوجد تباين داخلي كبير في أوروبا رغم الوحدة التي تصبغها المسيحية : فهذه الديانة دخلت أوروبا كمعقيدة موحدة في بادئ الأمر ثم انقسمت الى ثلاثة اقسام منفصلة : الكاثوليكية الرومانية ، والأرثوذكسية الشرقية والبروتستانتية . وانقسمت الأخيرتان إلى مجموعات دينية عديدة ، ويتطلب فهم النمط الحالي للتوزيعات الدينية الوقوف عند الانتشار المبكر للديانة المسيحية الموحدة في القارة الأوروبية ودراستها .

فقد سبق الديانة المسيحية إلى أوروبا خليط من الأديان الأخرى كانت في أكثرها بدائية . فالشعوب الهندية - الأوروبية كانت تؤمن بتعدد الديانات ، وفعلا حملت هذه الشعوب دياناتها المتعددة معها في هجراتها ومارست طقوسها الدينية في المناطق التي انتشرت فيها : فقدماء اليونان مثلاً وضعوا مجموعة من الآلهة والآلهات فوق جبل أوليمبوس ونسجوا أساطير رائعة حول شخصيات وأعمال هذه المقدسات وجاء الرومان من بعدهم وورثوا عدداً من آلهة اليونان مع تغييراً اسمائها ، في حين أن القبائل الألمانية والسلتية والسلافية عبدوا آلهة متعددة يرتبط كثير منها بغابات ومستنقعات موطنهم الشمالي .

أما الأديان التوحيدية - التي تؤمن بآله واحد - فقد ظهرت في جزء محدود من منطقة الشرق الأوسط وسط قبائل صحراوية تتكون من رعاة رحل ، وعلى يد القديس بول أصبحت الديانة المسيحية ديناً عالمياً يبحث عن المهتدين لغرض نشر تعاليمها على نطاق عالمي ، فانتشار دين من الأديان يتم وفق طرق ثلاثة :

١ - فقد يحمل قوم يدينون بالولاء لدين معين عقيدتهم هذه وينتشرون في مناطق جديدة ويستقرون بها ، وينشرون دينهم فيها .

٢ - قد يحدث في منطقة تتميز باختلاط وتمازج سكاني أن يؤدي الاحتكاك والاتصال اليومي مع أعضاء ديانة أخرى إلى الاهتمام والتحول منه إلى الدين الجديد خاصة إذا كانت إحدى هاتين المجموعتين هي المسيطرة من الناحية السياسية والاقتصادية وهذا ما يسمى Contact conversion .



٣ - يتم الانتشار ببعث الإرساليات والبعثات الدينية بواسطة الأديان التي تسعى إلى الانتشار عالميا .

وقد اتخذت الديانة المسيحية الوسيلة الأخيرة في انتشارها في جميع القارة الأوروبية ، كما ساعدت الطرق الرومانية التي كانت تغطي أجزاء كبيرة منها في هذا المضمار إذ أعطت وسيلة للتحرك السريع لم تكن موجودة من قبل . رغم ذلك فقد اتسم انتشار المسيحية وتقدمها في الثلاثة قرون الأولى بالبطء الشديد وكان معظم المهتدين من سكان المدن وبقى سكان الريف على وثنيهم وكان ارتباط المسيحية بالمدن إلى درجة أن الكلمة اللاتينية *Paganus* (وتعني اقليم ريفي) أصبحت الأصل لكلمتي *Pagan* (بمعنى وثني) و *Peasanti* (وتعني المزارع) الحديثين مما يشير إلى وجود ارتباط بينهما . وبقى الحال كما هو حتى عام ٣١٣ ميلادية عندما اصدر الإمبراطور الروماني المسيحي قسطنطين مرسوما يقضى بالتسامح نحو المسيحية والذي أدى نهائيا إلى جعله بمثابة دين رسمي للدولة . ومنذ ذلك التاريخ وإلى القرن الرابع عشر جابت الإرساليات أنحاء أوروبا تدعو السكان إلى الدين الجديد .

الديانة الكاثوليكية الرومانية :

تعتبر الديانة الكاثوليكية الرومانية أهم المجموعات المسيحية الثلاث في أوروبا من حيث عدد التابعين لها والمساحة التي تنتشر فيها ، إذ تسود في شبه جزيرة أيبيريا وفرنسا وإيطاليا وأيرلنده وبلجيكا والمناطق الجنوبية من ألمانيا وبعض دول شرق أوروبا السلافية . ظهرت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في القرن الرابع الميلادي في المنطقة التي كانت تخضع لسلطان مطران روما الذي كان يمثل زعميا من أربعة زعماء مسيحيين في أربع مدن من ضمنها اسطنبول (القسطنطينية) ثم طالب مطران روما زعامة الحركة المسيحية كلها بناء على ما قاله المسيح للقديس بطرس ، ولكن هذه المطالبة لم تنل تأييدا جماعيا من المطارنة الآخرين ومن ثم تعرضت الكنيسة تدريجيا لانقسام بين روما والقسطنطينية . وشجع الانقسام السياسي للإمبراطورية الرومانية إلى جزء شرقي وجزء غربي واستخدام لغتين مختلفتين في الكنيستين إلى تعميق الهوة بينهما حتى حدث الانشقاق رسميا في عام ١٠٥٤ م ومن ثم أصبحت هناك كنيسة لاثنتين منفصلتان .

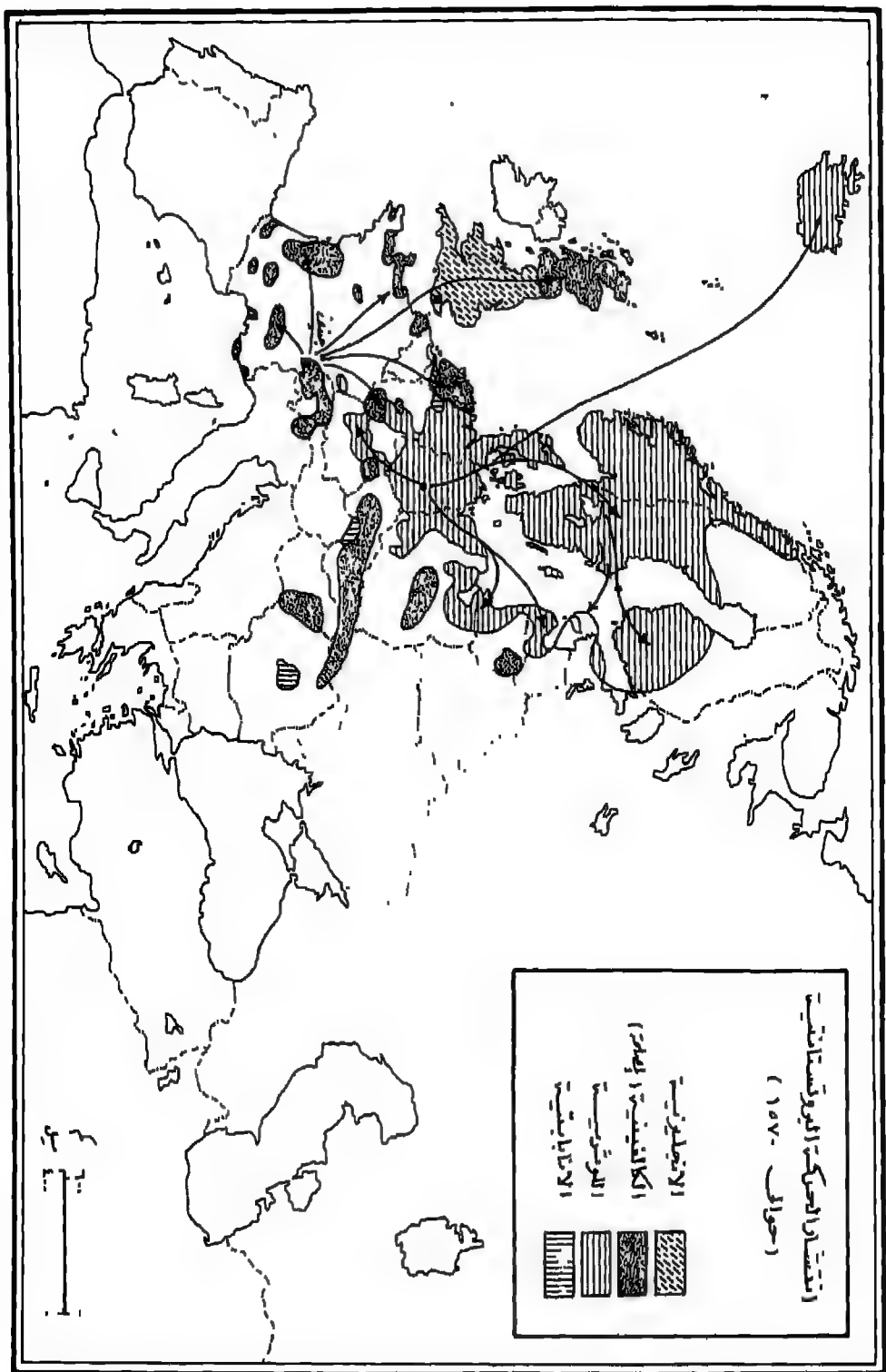
ويوضح الشكل (الشكل ٢٧) انتشار المسيحية في أرجاء أوروبا المختلفة .
الأرثوذكسية الشرقية :

تنتشر الأرثوذكسية الشرقية في شرق أوروبا ويشمل نطاقها اليونان والاتحاد السوفيتي وبلغاريا وقبرص وأجزاء من رومانيا ويوغسلافيا . ولهذا النوع من العقيدة المسيحية ارتباط تاريخي بمطران القسطنطينية وكانت كنيسة تمثل دين الإمبراطورية البيزنطية الرسمي . وكانت الكنيسة الشرقية أقل نشاطا في بعث الإرساليات من مثيلتها الرومانية ولفترة طويلة حصرت اهتمامها في اكتساب القبائل السلافية التي انتشرت جنوب نهر الدانوب إلى داخل إقليم الإمبراطورية . وقد تم اهتمامهم للكنيسة ماعدا الكروات والسلوفينين (Croats و Slovenes) الذين اعتنقوا الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير إرسالياتها وفي شمال نهر الدانوب تعرضت الأنشطة الإرسالية فيما بين عامي ٥٦٧ و ١٠٤٨ م إلى انتكاسات حالت دون تقدمها إثر الغارات المتكررة من القبائل الآتية من آسيا عبر رواق ولاشيا المفتوح Walachia . ولكن في عام ٩٨٩ اعتنق حاكم كييف Kiev الدين وتم تعميده وكانت الحادثة سببا في اعتناق روسيا المسيحية الشرقية .

البروتستانتية Protestantism : (الشكل ٢٨)

توجد مجموعة من الكنائس البروتستانتية في شمال أوروبا في اسكتلندا والمملكة المتحدة وفنلندا وهولندا وأجزاء من ألمانيا . وهذه الكنائس لا تتبع سلطة مركزية ولا تدين بالولاء لها ، وحتى الطوائف الفردية تنظم حول ، وتنقسم وفق ، حدود قومية . وقد ظهرت الحركة البروتستانتية في مناطق مختلفة وخلال فترات طويلة كمحاولات عديدة لإدخال إصلاحات أو إحداث تغييرات في داخل الكنيسة الرومانية .

وقد بلغت هذه المحاولات ذروتها عندما ماتعدي مارتن لوتر Martin Luther الكنيسة في فيتنبرج في عام ١٥١٧ وكانت بداية انقسام الكنيسة الرومانية وميلاد الكنيسة البروتستانتية التي سرعان ما انتشرت عبر شمال ألمانيا وأندول الاسكتلندية ثم إلى سويسرا واسكتلندا وانجلترا فيما بعد



الديانات الأخرى :

توجد مجموعات دينية أخرى غير المسيحية في أوروبا أهمها الإسلام واليهودية وبالرغم من أن الحكم العرقي الطويل لشبه جزيرة ايبيريا لم يترك وراءه اثرا للإسلام فإن توغل الأتراك في داخل شبه جزيرة البلقان قد ترك هناك مقاطعة حبسية إسلامية وسط الألبانيين وبعض شعوب الصقالبة الجنوبيين في ألبانيا ومقاطعات يوغسلافيا المجاورة . ويكون المسلمون ٧٠٪ من سكان ألبانيا (١٣ مليون شخص) و ١٢٪ من سكان يوغسلافيا . وفي بلغاريا يدين بالإسلام شخص من كل عشرة أشخاص من سكانها .

أما اليهود فقد بلغ عددهم في عام ١٩٣٩م حوالى عشرة مليون شخص في أوروبا والاتحاد السوفيتي . فقد كان معظمهم يسكنون بولنده ثم الاتحاد السوفيتي فرومانيا وأخيرا ألمانيا . وقد انتشرت اليهودية في أوروبا بطريقة تختلف عن تلك التي انتشرت بها المسيحية . ويرجع الوجود اليهودي في أوروبا إلى الفترة الرومانية التي نشأت فيها اليهود من فلسطين وانتشارهم في جميع أجزاء حوض البحر المتوسط وتغلغلهم تدريجيا وعبر القرون في كل دولة من دول أوروبا مع أن دولاً مثل أسبانيا والبرتغال أصدرت مراسيم رسمية بطرد اليهود وإجلائهم من بلادهم . وتدرجياً تجمع معظم اليهود في منطقة الحدود الروسية - البولندية الحالية التي أصبحت تعرف فيما بعد بحظيرة أو مقاطعة اليهود Jewish Pale . وقد تم حصرهم في هذه المنطقة وفق تشريع روسي أعلن في عام ١٨٠٤ . وعندما احتلت ألمانيا هذه المقاطعة خلال الحرب العالمية الثانية تعرض اليهود للقتل على يد النازية وتقلص عددهم ونشئت الباقون إلى أجزاء أوروبا الأخرى والولايات المتحدة . ثم حدث التآمر الدولي على فلسطين وسكانه العرب الذي أدى نهائياً إلى إجلائهم بحمد السيف لايواء الصهاينة .

مناطق التفقه المسيحي .

تظهر أجزاء كثيرة من أوروبا تدهوراً في نفوذ الدين المنظم بل هناك مناطق معينة انتهى النفوذ الديني منها كلية . فقد تعرضت الأرثوذكسية الشرقية لأكثر من نصف قرن للكبت والقمع من قبل السلطات في الاتحاد السوفيتي والحكومات الشيوعية الأخرى في رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا لحوالي ثلاثين سنة . وبالرغم من الضغط

الشديد لم تندثر الكنيسة بل بقيت مبتورة النفوذ . وتكمن المشكلة جزئيا في تحلل العلاقة الوطيدة التي كانت تربط بين الكنيسة والدولة في هذه المناطق وهي علاقة تعود جذورها إلى عصور الإمبراطورية البيزنطية عندما كان مطران القسطنطينية متورطا في السياسة الإمبريالية آنذاك .

وميت الكاثوليكية الرومانية أيضا بخسائر شديدة في الآونة الأخيرة ولكنها كانت أحسن حظا من الأرثوذكسية الشرقية في مقاومتها وتصديها للشيوعية ، خاصة في بولنده التي تمثل الكنيسة المسيحية فيها أقوى صوت معارض للحكومة الشيوعية رغم المضايقة المستمرة منها ، ولكنها كانت أقل حظا في بعض الدول الشيوعية مثل تشكوسلفاكيا والمجر وليتوانيا السوفيتية . كما أقل نجم هذا الدين في عدد من الدول غير الشيوعية مثل فرنسا حيث أصبح سكانها أكثر مقاومة للكليرك anticlerical بعد الثورة . وأكثر المرتدين من الدين هم سكان حوض باريس بينما تحتفظ الكنيسة بنفوذ قوى في المناطق الهامشية مثل بريتانى . والزاس - لورين وإقليم الفلاندرز الفرنسية وسفن في الهضبة الوسطى ونفار Navarre في الجنوب . وربما يرجع السبب للظهور الدينى القوى في هذه المقاطعات إلى وجود اقلية لغوية فيها (ما عدا سفن Cevennes) مثل البريتانيين . والفلمنكيين والألمان والباسك الذين يتمسكون بالمسيحية لأن الأغلبية الناطقة بالفرنسية أخذت تهجرها . وتظهر الأقاليم الريفية من النمسا وجنوب ألمانيا خاصة بفاريا . تمسكا قويا بالدين . وعلى العموم تنحصر مناطق النفوذ القوية لهذا الدين في المناطق الجنوبية في أشباه جزر أيريا وإيطاليا حيث كانت الكنيسة أقدم ظهورا وتوجد بها رئاستها الحالية .

أما البروتستانتية فقد كانت أكثر العقائد الثلاث عرضه للارتداد منها . ففي هولنده تنصل ١٧٪ من سكانها من أى انتماء دينى في منتصف هذا القرن . وهذا التنصل من الدين أقوى في الشمال البروتستانتي منه في الجنوب الكاثوليكي . وشهدت الكنيسة الأنجليكية ارتدادا كبيرا في أتباعها في أجزاء من المملكة المتحدة ومن ضمنهم المنهجيين Methodists من سكان ويلز .

ويوضح الجدول الآتى (رقم ٩) التدهور الدينى في أوروبا حسب مسح قام به

معهد جالوب في عام ١٩٦٨ م . وقد سئل الذين أجريت معهم المظالبة فيما لو كانوا يؤمنون بالله ويعتقدون في حياة بعد الموت وفي الجحيم والشیطان ، وقد أظهرت اليونان أكثر الإجابات إيجاباً للأسئلة المطروحة في حين تظهر فرنسا والسويد أكثر المناطق تنصلاً من المعتقدات المسيحية التقليدية . ويظهر أكبر ارتداد من الدين في المناطق الحضرية والصناعية والتي تدين بالبروتستانتية والشيوعية . ويمكن أن نعزو سبب تدهور المسيحية إلى ظهور ما يمكن أن نطلق عليه بأشبه الديانات Quasi-religions أي معتقدات ترقى إلى مصاف الدين لكن ينقصها شعائر العدة مثل الشيوعية في روسيا والنازية في ألمانيا الهتلرية .

جدول ٩ : التقهقر الديني في أوروبا

| الدولة | نسبة الذين يؤمنون | | | | |
|-----------------|-------------------|----------------------------------|----------|-----------|------------|
| | في الله | في حياة بعد الموت (القيامة) | | في الجحيم | في الشيطان |
| | | ١٩٦٨ | (١٩٤٨) | | |
| ١٩٦٨ | ١٩٦٨ | ١٩٦٨ | ١٩٦٨ | ١٩٦٨ | ١٩٦٨ |
| النمسا | ٨٥ | ٣٨ | — | ٢٦ | ٢٣ |
| فنلنده | ٨٣ | ٥٥ | (٦٩ %) | ٢٩ | ٢٦ |
| فرنسا | ٧٣ | ٣٥ | (٥٨ %) | ٢٢ | ١٧ |
| اليونان | ٩٦ | ٥٧ | — | ٦٢ | ٦٧ |
| هولنده | ٧٩ | ٥٠ | (٦٨ %) | ٢٨ | ٢٩ |
| النرويج | ٧٣ | ٥٤ | (٧١ %) | ٣٦ | ٣٨ |
| السويد | ٦٠ | ٣٨ | (٤٩ %) | ١٧ | ٢١ |
| سويسره | ٨٤ | ٥٠ | — | ٢٥ | ٢٥ |
| المملكة المتحدة | ٧٧ | ٣٨ | (٤٩ %) | ٢٣ | ٢١ |
| ألمانيا الغربية | ٨١ | ٤١ | — | ٢٥ | ٢٥ |

النتائج التوزيعية الناجمة من تفاعل الديانات :

• عندما تشارك كنائس مختلفة إقليما واحدا أو تتجاوز بعضها لاند أن يحدث تفاعل بينها ، وقد يتخذ هذا الاتصال واحدا من أشكال ثلاثة .

١ تعايش سلسى بينها .

٢ تنافس بينها قد يؤدي إلى عدم استقرار فى المنطقة .

٣ تعصب أو عدم احتمال ثم الإبعاد .

وفى أوروبا اتخذ التفاعل شكلين متطرفين : المعاشية السلمية والتعصب . وتظهر مرتفعات يوغسلافيا مثالا للتعايش السلمى بين المسلمين والمسيحيين الذين يعيشون فى قرى ومدن عديدة فى تآلف تام وقد يتزوجون مع بعضهم فى بعض الحالات وعلى الزوجة أن تتبع دين زوجها . وقد أدى التسامح المتبادل بين الفئتين إلى حدوث امتزاج بينهما وقد ساعد على ذلك عدم وجود حواجز أو حدود تفصل بينهما .

أما حيث يوجد التعصب اليوم ، أو فى الماضى القريب ، ففيه نجد التفرقة والتمييز بين المجموعات الدينية المختلفة كما تظهر فيها الحدود الدينية بارزة واضحة تفصل بين شعوب متحانسة دينيا على جانبيها كما نشاهد فى مدينتى لندنديرى Londonderry وبلفاست Belfast فى أيرلندا الشمالية ، بين الأحياء التى يسكنها البروتستانتون والكاثوليك . وحتى فى حالات إحلال التعصب الدينى بالتعايش السلمى بين الأديان المختلفة فقد تبقى التفرقة بينها لفترة طويلة بعد ذلك كما هو الحال اليوم فى المناطق الريفية فى ألمانيا التى تظهر حدودا فاصلة بعد ثلاثة قرون من العداء السافر بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد يقلل التعصب من التنوع الدينى فى دولة ما كما حدث فى أسبانيا ، فى ظل الحكم العربى كانت أسبانيا موطنًا للمسلمين والمسيحيين واليهود يعيشون فى سلام وتآلف . ومع زوال الحكم العربى الإسلامى تعرض المسلمون واليهود إما إلى الطرد خارج البلاد أو إلى اعتناق المسيحية مكرهين مما أدى إلى سيادة المسيحية فيها .

وهناك حالات محلية غريبة متناقضة فى أشكال التفاعل بين مجموعتين دينيتين مماثلتين كما فى جزيرة رودس Rhodes التابعة لليونان حيث يتعايش المسلمون

والمسيحيون في وئام وتآلف بينا يصاب كل من الفئتين الأخرى بالعداء السافر ويتقاتلان في جزيرة قبرص ، فالجزيرتان تسكنها أغلبية يونانية وأقليات تركية وتفعان في منطقة واحدة تقريبا ولكنها تختلفان في درجة التسامح الدينى .

وقد لعبت المسيحية دورا كبيرا في التوسع الأوروبى وانتشار الحضارة الأوروبية في أصقاع كثيرة من العالم . وقد تمثل هذا التوسع الحضارى في الحروب الصليبية التى حدثت بإيعاز من الكنيسة وتحت إرشادها وقيادتها وفي وقت لاحق شارك « الإله والذهب والعظمة » في توجيه وإرشاد الكشوفات الأسبانية وإقامة مستوطناتها في كثير من مناطق العالم خاصة أمريكا اللاتينية .

أثر البيئة على الدين :

تكون العلاقة بين الدين والبيئة المحيطة بها عامة أقوى وسط المجموعات البدائية التى تعتمد على العراف أو الطبيب المشعوذ (الكجور) في طلب الحماية والوقاية من قوى البيئة المجهولة الغامضة . وفي بعض الأحيان تبقى بعض المؤثرات البيئية حية في الأديان المتقدمة مثل المسيحية كما يظهر مثلا في توقيير وتبجيل المواضع المرتفعة . ومنذ عصور قديمة اعتبرت الأماكن العالية مثل قم الجبال كمواضع مقدسة تسكنها الآلهة . وقد كان الإغريق القدماء يوقرون أو يرهبون المواضع العالية مثل « أوليمبوس Olimbos وبارناسوس Parnassos وأثوس Athos وقد كان جبل « أوليمبوس » موطن الإله « زيوس Zeus » وبعض الآلهة الصغيرة بينما كان جبل « بارناسوس » في وسط اليونان يعد من أقدس المواضع إبان العصر الكلاسيكى إذ كان موطنًا لمعبد الآلهة دلتى Oracle of Delphi التى كان تصدر تنبؤاتها من المقر التشريقى لها في معبد أبولو Apollo . أما « أثوس » فقد كانت شبه جزيرة جبلية يخافها ويتفادها الإغريق .

وقد بقيت هذه النظرة التبجيلية للأماكن المرتفعة حية حتى اليوم في الديانة الأرثوذكسية مثل احتفاظ « أثوس » بدلالاتها الدينية كموضع لعديد من الأديرة وعدم السماح للنساء بالذهاب إلى شبه الجزيرة . وتحتل الأديرة قم التلال في جميع أنحاء اليونان وجزر بحر إيجه في حين أن مثل هذه المواضع تحتوى على كنائس صغيرة

كما في جمهورية سلوفينيا اليوغسلافية وأجزاء من النمسا ، كما أن كنيسة - Sacre Coeur التي تطل على باريس من موضعها الخالي من المناظر التي تجذب السواح .
وشاع أيضا تقديس الغابات والأشجار كما في الديانات القبلية لقدماء الألمان والصقالية والسلت والبونان حيث كانت غابات معينة ، تشمل البساتين التابعة للمعابد ، تقديس كمقر لآلهة الغابات ، كما حظيت أنواع معينة من الأشجار بالتسجيل مثل شجرة التنوب من قبل الألمان القدماء لخضرتها الدائمة وقد بقيت هذه العادة حية حتى الآن متمثلة في شجرة عيد الميلاد ووجود بقايا من الغابات حول الأديرة في منطقة البحر المتوسط .

أما عبادة الشمس فقد كانت منتشرة في أشباه جزر حوض البحر المتوسط . فقد كانت إحدى هذه الفرق الدينية تعبد إلهًا شمسيًا يدعى Invictus يأتي عيد ميلاده في أواخر ديسمبر عندما تبدأ الشمس في تحركها الظاهري نحو الشمال ، ويبدو أن التاريخ المسيحي لاحتفالات عيد الميلاد Christmas قد ورث من أتباع هذا الإله . بينما أصبح يوم الأحد Sunday أى « يوم الشمس » يوما مقدسا عند المسيحيين .

اللاتدسكيب الحضارى الدينى :

يشجلى التعبير المكافى للحضارات في البصمات الظاهرة التي تركتها هذه الحضارات على سطح الأرض أو اللاتدسكيب ، وقد يكون جزء من هذه البصمات نتاج المعتقدات والشعائر الدينية . ولكن قد تختلف أهمية وحجم الإسهام الدينى في مثل هذه الحالات من مجموعة بشرية إلى أخرى : فالأديان التي تركز على مناشدة الحواس البشرية مثل السمع والبصر هي التي ترك آثارها واضحة على اللاتدسكيب بينما تلك التي تركز أكثر على الإيمان والوصايا تكون آثارها على الأرض قليلة . وأكثر هذه البصمات الدينية ظهورا هي المباني المقدسة وخاصة مائى الكنيسة . ونظهر أوروبا تباينا إقليميا كبيرا في حجم الكنيسة والمواد التي تبنى منها وأسلوب المعمار . فالكنائس في المناطق الكاثوليكية أكبر حجما وأكثر زخرفة من تلك الموجودة في الأقاليم البروتستانتية والأرثوذكسية ويرجع السبب جزئيا إلى اهتمام الكنيسة الرومانية بابرار الجمال المرنى لا تباعها . وتتميز اللاتدسكيب الكاثوليكي والارثودوكسى أيضا

بالعديد من الاضرحة والكنائس الصغيرة الريفية المتناثرة على جوانب الطرق ، حتى في المناطق الريفية المتناثرة السكان مثل حوض أكويتين في فرنسا حيث تكثر الكنائس الصغيرة التي ، رغم الخراب الذي حل بالعديد منها ، مازالت تعكس في معمارها وظيفة الدفاع التي كانت تؤديها في أوقات سابقة .

أما أسلوب المعمار فهو أشد تباينا من حجم الكنائس . فكما أن أنواعا متميزة من معمار الكنيسة الأنجليكية تذكر الزوار بإنجلترا فإن الكنائس الكاثوليكية ذات الأبراج القبية المدورة تتميز قرى كثيرة في النمسا وبفارييا الألمانية . ويكتسب بعض أشكال المعمار الكنائسي أهمية في المناطق التي تتميز بالاختلاط العرقي كمؤشر واضح لمجموعات حضارية معينة ، كما في منطقة إسترا Istra البوغسلافية حيث نجد الإيطاليين والصقالية . فالأثر الايطالي يظهر في أبراج الجرس المستقلة ، وترتفع مآذن الجوامع في سماء القرى البلقانية . وتظهر مواد البناء اختلافا من منطقة لأخرى فهناك كنائس مبنية من الخشب في أجزاء من روسيا ومنطقة مولدايفيا الرومانية بينما تكثر الكنائس الحجرية في جنوب أوروبا . وكثيرا ما تبنى الكنيسة بمواد بناء تختلف من تلك التي استخدمت في بناء القرى والمدن كما في إقليم نورماندى الفرنسى وفي أجزاء من شمال ألمانيا حيث تبنى المنازل من الخشب والحجر في حين أن الكنائس تبنى بالحجر فقط .

وتضفي المقابر منظرا مميزا على اللاندسكيپ الدينى . والمقابر تختلف في مواضعها وأبعادها المساحية وفي أنواع الشواهد على قبور الموتى . ففي بعض الأماكن كان الموتى يدفنون في أرضية وحيطان الكنائس كما في أجزاء من جنوب ألمانيا بينما تجمع بقايا الجثث في سراديب كما في باريس وروما . وفي القرى الزراعية في شمال ألمانيا البروتستانتية تكون المقابر عادة صغيرة في مساحاتها وشواهدا باهتة وذلك لأن المقابر تستخدم مرة تلو الأخرى في كل خمس وأربعين سنة . أما في المقابر الكاثوليكية تكون الشواهد أكبر حجما وملفتة للنظر أكثر من تلك المقامة على قبور البروتستانتين . ولأن حرق جثث الموتى أكثر شيوعا عند البروتستانتين فقد أدى ذلك إلى تقليل العلاقات الظاهرة في مناطقهم . ومن أكثر المناظر الفاتنة للنظر في أوروبا تلك التي تتعلق باللاندسكيپ المخصص لموتى الحرب مثل المقبرة الأمريكية ذات الشواهد الصليبية البيضاء في أجزاء من غرب أوروبا ومقبرة السوفييت في برلين الشرقية .

أما أسماء الأماكن فإنها تكشف الكثير عن تاريخ وحضارة الشعوب ، وقد ترك الدين أثره في ذلك . ففي المناطق الكاثوليكية نجد كثيرا من المواضع التي سميت بأسماء القديسين Saint ، وكذلك الحال في مناطق الديانة الأرثوذكسية كما في اليونان . وتقل الأسماء الدينية كلما اتجه شمالا حتى نصل إلى أقلها في المناطق البروتستانتية : ومثلا نجد أن ٧٥٪ من المدن والقرى التي تحمل الاسم الديني « سانت Sankt » في ألمانيا توجد في الجنوب الكاثوليكي و ٢١٪ منها في بقايا وحدها .

العلاقة المكانية بين الدين والاقتصاد :

للدين آثاره الواضحة على كثير من النشاطات البشرية مثل الزراعة والصناعة والسياحة والتجارة . فإذا أخذنا الزراعة مثالا فإن انتشار النباتات المستأنسة من مواطنها قد يكون مرتبطا بانتشار دين ما وخاصة إذا كان محصول غذائي معين دور في الاحتفالات الدينية : فالسر المقدس للعشاء الروماني Holy communion كما يمارس في أوروبا يتطلب استخدام النبيذ كرمز لدم المسيح وقد ساعد ذلك في انتشار زراعة أشجار العنب شمالا من منطقة البحر المتوسط إلى المناطق المسيحية في شمال الألب . كما كان اليهود يستخدمون الأترج Citron في بعض طقوسهم وقد حمل هؤلاء الأترج وربما فواكه حمضية أخرى معهم عند هجرتهم من أرض فلسطين القديمة وأدخلوها في الجزء الأوروبي من منطقة البحر المتوسط . وقد تأثر العرب المسلمون معهم إلى شبه جزيرة أيبيريا البرتقال والليمون والأرز . وقد تأثر الزراعة أيضا بتحريم الطعام والعمل (أى المحظورات منها) الذي يرتبط بعقيدة دينية معينة مثل غياب الخنازير من مناطق المسلمين في ألبانيا وكثرتها في أماكن المسيحيين لأن الإسلام يحرم أكل الخنزير . وكانت الاجازات الدينية من الكثرة في أجزاء عديدة من أوروبا حتى تأثر الإنتاج الزراعي كما في فرنسا في القرن الرابع عشر حيث كانت الاحتفالات الدينية تشغل المزارعين عن أداء عملهم يوما في كل أربعة أيام .

وهناك علاقات أساسية بين التقاويم الزراعية والدينية فاحتفالات عيد الفصح نيساى Easter مشتقة أساسا من عيد الفصح اليهودي

والذى كان فى الأصل احتفالا بحصاد الربيع : فكلمة تعنى
Pascha فى اليونانية و Pasqua فى الايطالية . وهما مشتقتان أساسا من
Pesach العبرية .

ومع انتشار المسيحية إلى شمال الألب فى مناطق أصبح الربيع فيها فصل زراعة
بدلا من فصل حصاد أصبح احتفال عيد الفصح بديلا لاحتفال وثنى كان يقام
لاستقبال والترحيب بحلول فصل الربيع ، ووفقا لذلك فإن الكلمة الجرمانية لعيد
الفصح Easter اشتقت من اسم الهة الربيع Fostre أو Ostara . وتفسر
الاحتفال المسيحى رموز الخصوبة الوثنية للربيع مثل الأرنب والبيض . وقد نتج من
استيراد التقويم الزراعى للمسيحية الأولى واليهودية أن خلقت الاحتفالات المسيحية
من عيد مسيحى لحصاد الخريف ومن ثم استوعبت الكنيسة وأقرت دينيا بعض
احتفالات الحصاد الوثنية الجرمانية مثل المايكلماس Michaelmas (فى ٢٩
سبتمبر) . والهاالوين Halloween (فى اكتوبر ٣١) .

ومن آثار الكنيسة على الزراعة تلك التى تتعلق بدورها فى إزالة الغابات من
المناطق الواقعة إلى شمال الألب واحالتها إلى مناطق زراعية صالحة للاستيطان
البشرى . وقد لعبت منظمات الراهب الأخوية دورا كبيرا فى هذا المضمار فى العصور
الوسطى . وقد تركزت نشاطات هذه الجماعات الدينية فى إنشاء مستعمرات زراعية
تابعة للأديرة فى الأصباع الغابية والمسقعية .

ومن ترق فرنسا انتشرت الجماعة البندكتية Cistercian فى القرن الثانى عشر
لتنشأ مستوطنات ديرية فى مناطق عديدة تمتد من صقلية إلى السويد ومن البرتغال
إلى بولنده . فعلى يد هؤلاء الرهبان . تساعدهم مجموعات من المزارعين تعمل تحت
إرشاداتهم ، تم إزالة الغابات وتصريف المستنقعات كما انهم كانوا متورطين فى
مشاريع استصلاح ضخمة فى شمال أسبانيا وأواسط أوروبا الشرقية . وقد تم
الحصول على هذه الأراضي بطريقتين :

١ - شراؤها بواسطة هذه الجمعيات الدينية .

٢ - تبرع بها ملاك الأراضي بوازع من رغبتهم في تحويل هذه الأراضي العذراء إلى أماكن زراعية وتعمير ما خرب منها نتيجة الحروب .

وبعد استصلاح الأرض أصبح المزارعون الذين ساعدوا في هذه العملية يعملون كاجراء في الأراضي التي تملكها الجمعيات الدينية ، وهذا وضع يختلف قليلا من الإقطاعية . كما أن جزءا من هذه الأراضي المملوكة من قبل الجمعيات كان الرهان يفلحونها كمزارع مشاعة او جماعية أو *granges* (أى مزرعة مجاورة للأديرة) . وكانت المزرعة تتكون من قطعة مساحتها حوالى مائة هكتار من الأرض الزراعية وتحتوى في وسطها على مجموعة من المباني مرادفة لقرية مدنية عادية تحفظ فيها الحيوانات والرجال . وفي بعض أجزاء أوروبا ، مثل شمال انجلترا ، كان اهتمام الرهبان يتركز في إنشاء مثل هذه المزارع بدلا من تشجيع الاستيطان بواسطة المزارعين . ومع مرور الزمن تحولت هذه المستوطنات الدينية إلى ملكية دنيوية وحولت المزارع إلى قرى وحلت سلطة ملاك الأراضي مكان السلطة الدينية وأصبح عمل الجمعيات الأخوية جزءا من التراث الاقتصادي الرئى لمعظم دول القارة . وحتى يومنا هذا نجد في بعض الدول مثل اليونان أراضي كبيرة تملكها الكنيسة ويعمل فيها الرهبان .

وكان للكنيسة دور في تطوير صناعة صيد الأسماك في أوروبا . فهناك عادة مسيحية تعرم أكل اللحوم أيام الجمعة وخلال أعياد دينية عديدة . ومثلا تشجع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أكل السمك خلال فترات الصوم والتكفير أو التوبة وكذلك في أيام الجمع مع أن هذه العادة الأخيرة قد أوقفت مؤخرا بمرسوم بابوى . ولهذا ليس ما يستدعى العجب في أن تكون شعوب الباسك والبرتغاليين والبرتغاليين الكاثوليك الذين يسكنون بالقرب من السواحل ، من أكثر شعوب القارة احترافا لهذه المهنة ، وأن يحتل القديس بطرس St. Peter ، صياد السمك ، مكانة ذات قدسية في قرى صائدى الأسماك الكاثوليك وفي اليونان الأرثوذكسية .

وتتجلى أهمية الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة إلى صيد الأسماك في الأزمة الاقتصادية التي أصابت هذه المهنة في إنجلترا عندما أزيلت القيود الغذائية

الكاثوليكية أثر انفصال الكنيسة الانجليكية في القرن السادس عشر . فقد تحول كثير من الصيادين بحرين إلى بحارة وساعدوا فيما بعد في تلك الاكتشافات البحرية الانجليزية وانتشروا في بقاع العالم المختلفة يمارسون القرصنة ويستعمرون المناطق . وفي المناطق الكاثوليكية كانت الكنيسة سببا في خروج تلك الرحلات الطويلة للحج الى اماكن مقدسة معينة . وتتفاوت هذه المواضع في أهميتها وتتراوح من أضرحة صغيرة يؤمها المخلصون من الاتباع من المناطق المجاورة إلى تلك المواضع المشهورة عالميا ويقصدها الكاثوليك من جميع أنحاء أوروبا وأمريكا مثل «لوردس Lourdes» ، وهى مدينة فرنسية تقع عند سفح جبال البرانس في حوض أكويتين Aquitaine حيث يزعم أن العذراء مريم ظهرت في رؤيا . ومدينة فاطمة Fatima الواقعة إلى الشمال من لشبونة في البرتغال وتشوكوا Czestochowa في بولندا التى تمثل قلب الكاثوليكية البولندية . ويبلغ عدد الذين يقصدون مدينة لوردس مايقرب من مليونى شخص سنويا ولهذا تأتى هذه المدينة الصغيرة (سكانها ١٦ر١١٠ شخص) في المرتبة الثانية بعد باريس في عدد الفنادق التى بها .

ومن الظاهرات ذات الدلالة الجغرافية أن أماكن الحج هذه تتسم بتوزيع غير متساو في داخل المنطقة الكاثوليكية ناهيك عن القارة . ففي فرنسا مثلا نجد أن مواضع الحج المكرسة للعذراء مريم تتركز في الجنوب والغرب مع تجمعات منعزلة في باقى أجزاء الدولة ، وتقل في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية . وفي مدينة صغيرة في جنوب بفاريا تسمى «اوبرمركاو Obermergau» تطورت إحدى مسرحيات الآلام Passion play التى تعقد كل عشر سنوات فيها إلى نعمة مالية للإقليم كله لكثرة الذين يؤمنونها خصيصا لهذا الغرض . أما مدينة الفاتيكان Vatican City فتجذب الملايين من الزوار الكاثوليك إلى روما كل عام . وحتى القرن الثامن عشر كانت الرحلات الطويلة في أوروبا تتجه نحو روما ومراكز دينية أخرى قليلة مما أدى إلى تطوير طرق عديدة أساسا لمرور الحجاج مع بناء تكيات Hospices في المناطق الوعرة على الطريق مثل المعرات الجبلية ، كما نشط الرهبان في إقامة الكبارى على هذه الطرق .

أما فيما يتعلق بالصناعة والدين فإن حركة الإصلاح البروتستانتي لعبت دورا مهما في النهضة الصناعية في شمال غرب القارة التي وصلت أوجها في الثورة الصناعية في بريطانيا . فقد كانت الكنيسة في العصور الوسطى تمنع المسيحيين من قرص الأموال بفائدة . ولما قامت الحركة البروتستانتية رفعت الحظر على الربا ويدور أن تراكم الأموال الذي نتج من ذلك كان دافعا لمزيد من التجارة والصناعة في الأراضي الجرمانية . وسبق أن ركز اليهود أنفسهم في مناطق عديدة في أوروبا كمرابين وقد اقترح بعض العلماء ان الخصائص الديناميكية للديانة البروتستانتية ورغبة معتقيها في التغيير والعمل من أجل التحسين وآداب المهنة الشاقة والعمل المتواصل والمتابعة كانت من السوابق الاجتماعية للثورة الصناعية . وربما كانت هذه الأسباب هي التي أدت إلى ظهور الصناعة مبكرا في المناطق التي توفرت فيها مقومات الصناعة من محم وحديد . ومن الأسباب التي أدت إلى النهضة الصناعية هذه ذلك الاضطهاد الذي تعرض له الهيوغون والبروتستانت الفلمنكيون على يد الكاثوليك وهجرتهم معمارتهم الحرفية إلى إنجلترا وشمال ألمانيا وهولنده . وهذا لايعنى أن الكاثوليكية الرومانية كانت ضد التصنيع ، فهي قد ساعدت بوسائل مختلفة في تقدم الصناعة ، فالأديرة كانت تضم رهبان مهرة كانوا يقومون بعمل كل شئ من الأنسجة المطرزة المزدانة بالصور والرسوم إلى المشروبات الروحية ، وقد استفاد السكان المحليون من هذه المهارة مما أدى إلى تحسين أوضاعهم المالية .

أما من ناحية تشجيع التجارة ، فإن القيود أو الاحتياجات الناتجة من الشعائر الدينية كانت كثيرا ما تشجع التجارة بين الأقاليم المختلفة . فقد أدى اعتناق الأيرلنديين للديانة المسيحية إلى استيراد النبيذ من إقليم بوردو الفرنسي كما أن حركة النبيذ من الجنوب إلى الشمال ازدادت بعد اعتناق الشعب الجرمانى في اسكندناوه الدين المسيحي . وجعلت متطلبات الغذاء الكاثوليكي دولا ذات بحار مجاورة فقيرة في السمك مثل اسبانيا وإيطاليا تعتمد على السمك المجفف المستورد من أجزاء أوروبا المطلة على المحيط الاطلسي . وحديثا قامت تجارة في جثث الموتى بين لوكسمبورج ومنطقة شمال شرق فرنسا المتاخمة : فالكنيسة تحرم حرق الجثث في الدولة الاولى وتقوم مستودعات الجثث الفرنسية بأداء هذه الخدمة لسكان لوكسمبورج الذين يرغبونها لموتاهم .

أثر الأديان في الجغرافية السياسية :

يتخذ التفاعل المكاني بين الدين والسياسة أشكالا وصورا متعددة في أوروبا ، وأهم هذه الصور هو الدور الذي يلعبه الدين كأساس للقومية في بعض الدول . فالدين لعب دورا مهما في توحيد الحركات الاستقلالية وجمع شملها كما في جمهورية أيرلندا حيث تكون الديانة الكاثوليكية أساس قوميتها تماما كما في بولندا ، كما يربط بين الشعب الأسباني الذي يتميز بالتنوع العرق والشكلي وكذلك في اليونان حيث لعبت الأرثوذكسية دورا مهما في حركتها القومية ، وفي القرن التاسع عشر تسبب خلاف كاثوليكي - بروتستانتي بين الهولنديين والفلمنكيين إلى الانفصال عن البعض وتأسيس دول مستقلة رغم قرابتهم اللغوية ويرجع السبب في وجود مدينة الفاتكان المستقلة إلى وظيفتها كمقر للبابا، وقد ظلت أجزاء كثيرة من القارة تحت حكم الكنيسة المباشر في العصور الوسطى . ويمكن الاختلاف الديني بين الفئات المتصارعة في أيرلندا الشمالية وراء الحرب الأهلية التي تحتاج تلك الدولة حديثا ، فالأغلبية البروتستانتية وجدت طريقها إلى أيرلندا في القرن السابع عشر وكانت النتيجة أن هذه المنطقة بقيت جزءاً من المملكة المتحدة عندما استقلت أيرلندا الحرة في عام ١٩٢٠ م ورسمت الحدود تاركة أقاليم ريفية كاثوليكية كبيرة داخل أيرلندا الشمالية مما أثار القلاقل وأدت إلى الحرب الحالية .

ويظهر أثر الدين على السياسة في نمط الاقتراع عند الانتخابات وفي عضوية الأحزاب السياسية في بعض الدول الأوروبية . ففي ألمانيا مثلاً قامت أحزاب سياسية على الانتساب الديني ، وكذلك الحال في هولنده وإيطاليا ، فحزب الشعب الكاثوليكي في هولنده (C.P.P.) تستمد شعبيته من الأجزاء الجنوبية من القطر حيث يتركز الكاثوليك بينما توجد أحزاب بروتستانتية في الشمال . وغالبا ماتحمل هذه الأحزاب اسم « الديمقراطية المسيحي » لتؤكد ارتباطها بالكنيسة . ونتيجة لذلك تظهر أنماط الاقتراع أو التصويت في هذه البلدان توافقا وثيقا مع الأنماط الدينية ، ففي هولنده يوجد حزبان مرتبطان بالكنيسة الهولندية المصلحة والكنيسة الكاثوليكية كما أن هناك أحزاب كاثوليكية في إيطاليا والنمسا . وكان حزب الوسط في ألمانيا ما قبل

الحرب مرتبطا بالكاثوليكية وتستمد شعبيتها من مؤيديها في الولايات الجنوبية مثل بفاريا وويستفاليا وأرض الراين والمناطق التي يسكنها البولنديون في الشرق .

ويتأثر نمط توزيع الأديان كثيرا بقرار الأنظمة الحكومية في قبول أو تبني دين معين لسبب من الأسباب : فلولا اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية لما انتشر هذا الدين في أوروبا ، ولو لم يتبن عدد من حكام ألمانيا واسكندناوه ديانتهم وأعطوه الحماية لهلك مارتن لوتر قبل أن ترى دعوته النور . وكان من الأهمية بمكان أن تكون الكنيسة قد حصلت على وضع الديانة الرسمية للدولة المعنية ، وحيثما وجدت الحركة البروتستانتية مثل هذه الحماية كما في إنجلترا واسكندناوه ودول ألمانيا المختلفة واسكندناوة ازدهرت الديانة وضمنت بقاءها واستمراريتها . ولذلك لم تستطع البروتستانتية أن تثبت أقدامها في الأماكن التي كانت فيها الكاثوليكية قوية وتمثل الدين الشرعى . ولكن الدول تختلف كثيرا في درجة ومستوى موالاتها للكنيسة الرسمية . وبينما نجد هذه الموالاة والإخلاص على أشده في أسبانيا وكذلك في بلجيكا التي تأثرت بالروح الأسبانية أثناء حكم الأخيرة لها (١٥٠٦ - ١٧١٣) ، لا يهتم الفرنسيون بالدين كثيرا ويظهر هذا الاختلاف بين الدولتين في درجة الموالاة للكنيسة في الحضور للصلاة والذهاب إلى الكنيسة ، فنسبة الحضور من اللجيكين أعلا بكثير بالمقارنة مع الفرنسيين .

الدين وديمقراطية السكان :

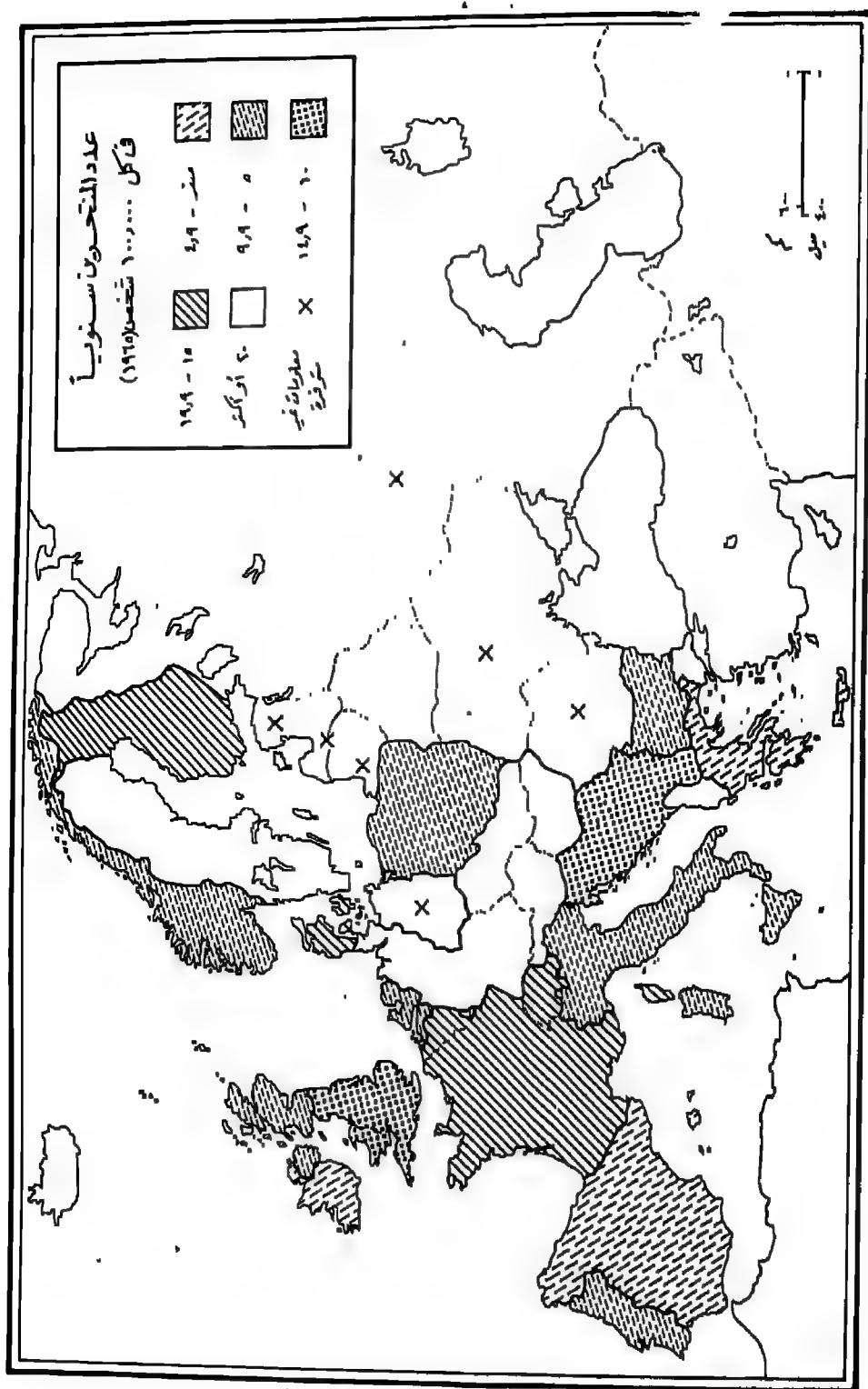
تتأثر خصائص ديمغرافية معينة للسكان مثل التوزيع ونسبة المواليد بعوامل دينية . ففي مراحل انتشار المسيحية الأولى استطاعت الوثنية أن تصمد أكثر في المناطق ذات التشتت السكاني بينما اعتنقت المدن ذات الكثافة السكانية العالية الدين في وقت مبكر . ومازال بعض سكان الريف في أوروبا يؤمنون بالشعوذة حتى يومنا هذا وفي وقت قريب حدث أن حاول المزارعون في بفاريا إحراق امرأة لاتهامها بممارسة الشعوذة . أما الآن فقد اختلف الوضع عما كان عليه في مراحل انتشار المسيحية الأولى : فكل الكنائس الثلاثة تحتفظ الآن بحيويتها ونشاطها في المناطق الريفية بينما تتميز المدن وأماكن تجمعات السكان الأخرى بكثرة المارقين من الدين

وآلة نفوذ الدين المنظم في أوساطهم . ولسوء حظ الكنيسة أن نسبة التحضر تزداد من يوم لآخر في أوروبا .

وتؤثر عوامل دينية تحركات الناس في أوروبا من منطقة لأخرى ، ويخطي الكاثوليك بحرية الحركة لأنهم لا يرتبطون بمكان ما أو يتقيدون به وفق معتقدات دينية مثل بعض شعوب الشرق الذين يلزمون موضعاً معيناً لأن أجدادهم دفنوا فيها . وقد ساعدت حركة الانتقال والحركة هذه كثيراً من الأوروبيين في الهجرة إلى الأراضي الجديدة في الأمريكتين وأستراليا . ولكن الصراع الديني قد أدى في بعض الأحيان إلى هجرة مجموعات من منطقة لأخرى مثل طرد المسلمين واليهود من أسبانيا وهجرة طائفة تجميد العباد إلى شرق أوروبا وهروب بروتستانتى سالزيرج إلى شمال ألمانيا وهجرة الهوسيين Hussites (وهم جماعة منشقة هرطقية قبل ظهور لوتر) من التشيك Ceske . وفي الآونة الأخيرة يبدو أن الدين قد أحدث تبايناً إقليمياً في نسبة المواليد ، فقد لاحظ الجغرافيون الفرنسيون نسبة عالية للمواليد في المناطق التي تتميز بنفوذ قوى للكنيسة مثل الزاس وبريتاني بينما تظهر بعض المناطق التي شهدت تقلصاً في النفوذ الديني مثل نورماندى وأكويتين أدنى نسبة مواليد في فرنسا .

ومن ناحية أخرى فإن ماتطلبه الكنيسة الكاثوليكية والارثودوكسية من تبطل وعزوبة للقساوسة والرهبان والراهبات تحرم جزءاً من السكان من الإنجاب مما يؤدي إلى انخفاض في الخصوبة ، وهناك مثال متطرف لهذا التحريم نجده في جمهورية أثوس Athos الدينية ذات الحكم الذاتي في شمال اليونان الذي يتكون سكانها من ٢٧٠٠ رجل فقط (مساحتها ٤٠٠ كم^٢) منهم ٢٠٠٠ راهب عازب ، ويحرم النساء حتى من زيارة المنطقة .

وتقل نسبة المتحررين أيضاً في المناطق التي يقوى فيها نفوذ الكنيسة ، ويكاد يكون الانتحار معدوماً في أشباه الجزر الجنوبية لموقف الكنيسة القوي ضد الانتحار . بينما ترتفع نسبة المتحررين في المناطق التي شهدت تقلصاً في النفوذ الديني كما في اسكندناوه وألمانيا وعامة نلاحظ ارتفاعاً في هذه النسبة في الدول البروتستانتية بالمقارنة مع الدول الكاثوليكية . ورغم أن هناك دوافع أخرى قد يدفع بالناس إلى الانتحار فإن الإيمان القوي بالدين يقلل من نسبتها ويقف حائلاً نفسياً ضد ارتكاب هذه الجريمة .



الفصل الثامن

جغرافية أوروبا السياسية

تختص الجغرافية السياسية جزئيا بدراسة العوامل الجغرافية من طبيعية وحضارية التي تؤثر في تكوين وتطور واندثار الدول أو الإمبراطوريات . والأمم التي تتكون منها هذه الدول ما هي إلا نتاج عدد من القوى الداخلية والخارجية المعقدة . ومن مهام الجغرافى السياسى أن يتعرف على هذه القوى وتقييمها لكي يعرف أسباب ازدهار ونجاح بعض الدول وفشل واضمحلال بعضها ، ولماذا تتوسع دول وتكمش أخريات . وفى دراسة جغرافية القارة الأوروبية تكتسب جغرافيتها السياسية أهمية كبرى ليس لأن هذه المنطقة الحضارية تنسم بالتجزئة والانقسام إلى شعوب كبيرة مستقلة فحسب بل أيضا لأن ليس هناك جزء آخر من العالم أنتج دولا يمثل هذه الكثرة . وأنجب دولا لعبت . وما زالت تلعب ، أدوارا رئيسية فى العالم مثل أوروبا . ولذا ليس من الغريب أن يهتم الدارسون بالنمط السياسى الحالى فى أوروبا كأهم مدخل لدراسة جغرافيتها . فالتنوع المكاني هو الذى يجذب اهتمام الجغرافى ، وكان لابد للتنوع السياسى أن يستحوذ على جزء كبير من هذا الاهتمام ويتعرض للدراسة وللفحص ، والسؤال هو كيف ولماذا صنع الإنسان هذا النمط من الوحدات السياسية التي تحتل منطقة الحضارة الأوروبية ؟

(أ) الحقيقة الإقليمية :

يقرر علماء الحيوان أن سلوك كثير من أصناف الحيوانات يتأثر جزئيا بما أسموه بالغريزة الإقليمية ' Territorial instinct ' . وهى عبارة عن دافع إجبارى لا يقاوم لامتلاك موضع سكنى والدفاع عنه إما فرادى أو كأعضاء فى مجموعة . ومثل هذا الإقليم يشمل غالبا على مركز heartland يحمى ساكنيه ويبعث الاستقرار والأمن فى نفوسهم . ومنطقة هامشية ' periphery ' حيث تقابلهم التحديات

٦
الإقليمية من المجموعات المنافسة . وبالإضافة إلى الحماية والاستقرار فإن الإقليم يمنح شعورا بالذات والكينونة لهذه الحيوانات مما يشجع حاجتهم الأساسية للانتماء .
وقد بدا عدد متزايد من العلماء الاجتماعيين ومن ضمنهم الجغرافيين في الاعتقاد بأن الإنسان أيضا حيوان إقليمي يتأثر بنفس الدافع الغريزي الذي يؤثر على الحيوانات . ويشعر هؤلاء العلماء بأن السلوك البشري نتاج أقرب إلى الأصل الحيواني منه إلى الحضارات التي أقامتها مؤخرا . ولكن مفهوم الغريزة الإقليمية لدى الإنسان ما زال يثير كثيرا من الجدل حوله لأن الارتباط بإقليم معين يمكن أن يكتسب بدلا من أن يكون غريزيا ، كما يمكن أن يكون مصدره من العقل بدلا من الوراثة . ولكن يبدو أن نزعة الإقليمية عند كل مجموعة بشرية توحى بأن هذه النزعة مكتسبة وراثيا .

تمثل هذه النزعة الإقليمية عند الإنسان في الحواجز أو الأسوار الخاصة التي يقيمها حول منزله أو مزرعته ، ويمكن أن نلاحظها في حائط برلين المشهور أو الحدود الدولية ، وفي لافتات « ممنوع الدخول أو التعدي » أو الحراس الذي يندلع عندما يتعرض الوطن إلى غزو خارجي وفي هتافات عشاق الكرة لفريقهم المحلي إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة . ومن الاحتياجات الأساسية والبدائية للإنسان ، سواء أن كانت مكتسبة أو مورثة ، أن ينتمى إلى مجموعة وأن تكون لهذه المجموعة مساحة أرض أو إقليم ينحصرهم تمارس فيه نشاطاتها . وتمثل هذه الحاجة للإقليم في أصغر مستوى في المنزل والعائلة ثم تتوسع تدريجيا لتشمل العائلة الموسعة ثم البطن فالقبيلة إلى الأحياء الخاصة فالجاليات فالمنطقة فالمقاطعة إلى أن تصل إلى آخر مراحل التطور الإقليمي أي الدولة أو الأمة ... ويمكن أن تكون العضوية في المجموعة أو الشعور بالانتماء ، مبنية على علاقة الدم أو في مستوى أرق على لغة مشتركة أو ديانة مشتركة أو تاريخ مشترك أو الطاعة لحاكم معين ... الخ . وهذا الشعور بالانتماء والروح الجماعية هو أساس القومية التي تمثل أساس الوطنية . ونادرا ما تفشل مجموعة بشرية في السيطرة على أي نوع من الأقاليم سواء أن كان هذا النوع فناء منزل أو منطقة نفوذ عصابة في أحد شوارع أحياء الأقليات ghetto في نيويورك أو ملجأ جبل ل قبيلة

سلتية Celtic أو امتداد إمبراطورية أو دولة . وإذا حرمت مجموعة من إقليمها فلا بد أن تحصل على آخر قد يكون أصغر مساحة وإلا فإن مصيرها كمجموعة مميزة سيؤول إلى الهلاك والفناء .

(ب) القوى الجاذبة والطاردة Centripetal & Centrifugal

تختلف الدول في درجة القوى التي تستمدّها من القاعدة أو الضرورة الإقليمية ، ومن ثم في درجة وحدتها ، أو بصورة أخرى من الأفضل أن يكون سكان دولة معينة مكونا من مجموعة واحدة وأن يتطابق الإقليم القومي مع إقليم تلك المجموعة . فإن وجود مجموعات متنافسة ومتناحرة داخل دولة غالبا ما يؤدي إلى مشاكل وربما تفتت الدولة وانقسامها في النهاية .

فالقوى الجاذبة Centripetal forces هي تلك التي تدفع السكان إلى التماسك وتجمعهم وتعطيهم كمجموعة شعورا بالذات والانتماء ، كما أن هناك قوة باعده موحدة ، قوة موحدة تبرز فوق كل القوى في أي دولة من الدول ، وهذه القوة يطلق عليها « سبب الوجود أو السبب وراء الوجود » Raison d'être . وقد يمثّل هذا السبب في دولة ما في اللغة ، وفي دولة ثانية في الدين وفي أخرى في الولاء لعائلة حاكمة ... الخ . أما القوى الطاردة centrifugal forces فهي على النقيض تلك التي تنتج من التنوع والتناقض في داخل دولة والتي تحول دون الوحدة . ولكي تعيش وتبقى لأبد لكل أمة أن تحصل على توازن مناسب لهذه القوى حتى تطفئ القوى الجاذبة على القوى الطاردة ، والآن نتعرض لدراسة بعض هذه العناصر ..

(١) اللغة :

تعتبر اللغة من أقوى القوى الداخلية في أوروبا ، فالتجانس اللغوي في سكان دولة تشجع الوحدة القومية وتساهم في خدمة الإقليمية على أحسن وجه . أما إذا كانت هناك لغات عدة يتكلمها السكان فإن ذلك مدعاة لعدم الاستقرار في تلك الدولة . ومنذ حروب نابليون أصبحت اللغة والقومية كلمتان مترادفتان وهذه ظاهرة

لم تكن موجودة دائما : فالدول التقليدية التى قامت قبل عهد نابليون كانت تتوسع وتمتد بصرف النظر عن لغة سكان المناطق المقهورة أو صفاتها الحضارية . وكانت الإمبراطورية النمساوية - المجرية تضم مواطنين يتكلمون الألمانية والمجرية والبولندية والشيكية والإيطالية والسلوفينية والرومانية والسلوفاكية ولغات أخرى . كما أن قادة فرنسا كانوا يتطلعون إلى الراين الذى يسكنه الألمان كحدود شرقية طبيعية لدولتهم بصرف النظر عن لغة الشعب فى هذه المنطقة ، وضمت الإمبراطورية الرومانية مناطق بولندية كبيرة عن طيب خاطر ، وتجاهلت انجلترا مطالب السلالت ١٧١٨ . بالاستقلال منها فى حين أن روسيا ضمت عدة مئات من المجموعات الأقلية . ولكن بعد ظهور القومية اللغوية فى القرنين التاسع عشر والعشرين أخذت خريطة أوروبا السياسية تتعدل تدريجيا لتحقيق توافق معقول بين الشعوب واللغات ، وقد تحققت هذه التعديلات إلا فى بعض الحالات المستعصية . فأثناء عملية التعديل حدث كثيرا أن ينقل الناس من أماكنهم بدلا من زحزحة الحدود كما أشرنا من قبل فى الجزء الخاص بالسكان عن الشعوب التى أجبرت للتحرك من منطقة لأخرى أثناء هذه الفترة .

ويستخدم العلماء السياسيون والجغرافيون السياسيون تعبير « الأمة الدولة Nation-State » فى وصف قطر متماسك تربطه سوية صفة ثقافية مثل اللغة . « فالأمة » عبارة عن مجموعة متماسكة من الناس تجمعهم خصائص أو صفات ومعتقدات معينة بينما « الدولة » تمثل كينونة مساحية (مكانية) منظمة كتعبير سياسى للأمة . وفكرة « الأمة الدولة » أصلا أوروبية المنشأ ، ولكنها انتشرت إلى أجزاء كثيرة من العالم فى القرن العشرين . وهذه الفكرة التى تنادى بأن كل أمة لها الحق فى أن تكون مستقلة سياسيا جلبت لأوروبا والعالم مشاكل أكثر بدلا من الفائدة : فنقل الشعوب قسرا من منطقة تواجدهم إلى مناطق أخرى والذى تم فى هذا القرن ما هو الا نتيجة مفهوم « الأمة - الدولة » ، كما أن الحروب الضارية التى اندلعت فى أوروبا كان سببها أيضا هذا المفهوم .

واليوم تمثل اللغة القوة الجاذبة الرئيسية عند كثير من الشعوب الأوروبية . ولكن

ما زالت قوى طاردة تمزق وحدة بعضها مثل بلجيكا حيث يتنافس الفلمنكيون
الألمان مع الولون Wulloons الفرنسيين في السيطرة والسيادة على حكم البلاد ،
وأسبانيا حيث القسطليون Castilians يحاولون استعادة سيطرتهم السابقة على
القطلونين Catolomans والغاليشيين Galicians والباسك Basques . وفي
تشيكوسلوفاكيا ما قبل الحرب عندما كان التشيكيون والألمان في إقليم سوديتز
Sudeten يتنازعون فيما بينهم ، كما أن معظم نزاعات الحدود التي كانت تشب حتى
وقت قريب بين شعوب أوروبا كانت تدور حول الأقليات اللغوية مثل المحاولات
لضم والصراع حول ، الزاس واللورين وتايروال الجنوبية South Tirol والرواق
البولندي وحوض كالجنفورت Klagenfurt

(٢) الدين :

رغم أن الدين لم تعد له أهميته السابقة ونفوذه القديم عند معظم الأوروبيين ،
فإن الكنيسة ما زالت تمثل قوة سياسية مهمة عند كثير من الشعوب . فإن من
المرغوب فيه لصالح الوحدة القومية ، أن ينتمى كل أو معظم سكان دولة ما إلى دين
واحد أو كنيسة واحدة لأن التنوع والاختلاف الديني يمكن أن يصبح قوة طاردة
رئيسية تهدد وحدة واستقرار هذه الدولة . فما تشهده أيرلنده الشمالية اليوم من
أحداث وصراعات دموية يرجع إلى حد كبير إلى أن الأساس الحقيقي للقومية
الأيرلندية قائم على الكاثوليكية بعد أن اندثرت مقومات الثقافة السلتية الأخرى
المتعملة في اللغة والقبيلة ، وبقي الدين رمزا لهذه القومية . ولهذا يشعر الكاثوليكيون
الذين يعيشون في أيرلنده الشمالية ، وهي جزء من المملكة المتحدة ، بأنهم محرومون
من حقوقهم كأمة . وحتى في ألمانيا الغربية ورغم الانحسار الذي تشهده المسيحية في
شعبيتها ، فقد احتاطت الحكومة منذ عام ١٩٤٩ إلى إيجاد توازن في وظيفة المستشار
ورئيس الجمهورية بين الكاثوليك والبروتستانت . فعندما كان كونراد أديباور
الكاثوليكي مستشاراً لألمانيا كان البروتستانتى تيودور هبوس يحتل رئاسة
الجمهورية ، وهذا التقليد يتبع منذ ذلك الوقت .

أما بالنسبة لبعض شعوب أوروبا فالكنيسة ما زالت تكون أساس قوميها .

وهذا ينطبق ليس على جمهورية أيرلندا فقط بل بلجيكا الكاثوليكية أيضا . ثم
بولندا واليونان وأسبانيا وإيطاليا على قدر بسيط . وعبر التاريخ تعرضت الأقليات
الدينية لحملات إبادة متلما حدث للأقليات اللغوية في القرن العشرين وبنفس
الضراوة . فقد لجأت فرنسا الكاثوليكية إلى طرد أو إبادة الهويقون الكالفينيين
Calvinist Huguenots وعانى من نفس المصير بروتستانتو سالزبورج على يد
الألمان الكاثوليك . وقليل تلك الدول الأوروبية التي استطاعت أن تجمع بنجاح
شعوبا ذات معتقدات دينية مختلفة ، وحتى في بعض الحالات التي أمكن التغلب فيها
على هذه القوة الطاردة تحقق التسامح الديني بعد صراع طويل كما حدث في حرب
الثلاثين سنة في ألمانيا . وقد أدى فشل كل من المملكة المتحدة وهولندا في الوصول
إلى تناغم وانسجام مع الأقليات الكاثوليكية إلى انفصال الأيرلنديين والفليمينكيين
Flemings . كما أن توحيد ألمانيا في عام ١٨٧١ تم فقط بعد هزيمة النمسا
الكاثوليكية وإقصائها من الوحدة .

(٣) الجنس :

كثيرا ما تعرض الدول التي يتكون سكانها من أجناس مختلفة إلى عدم استقرار
داخلي . وقد خلت أوروبا من مثل هذه المشاكل الناجمة من التباين السلالي
بالمقارنة مع أجزاء كثيرة من العالم وذلك لسبب بسيط وهو أن سكانها يتمتعون إلى
العنصر أو السلالة القوقازية . وموضوع « الجنس » الذي أثارته النازية كان في
حقيقته دينيا وثقافيا في جوهره لأن اليهود ينحدرون أيضا من أصل قوقازي . وعلى
النقيض من الدول التي تعاني من المشاكل الجنسية مثل كينيا وجنوب أفريقيا
والسودان والولايات المتحدة ، فإن شعوب أوروبا ليست لديها مشاكل من هذا
القبيل ، إلا في بعض المناطق مثل المملكة المتحدة حيث نزحت إليها حديثا أعداد
ضخمة من الهنود وزنوج الهند الغربية محدثا وضعا قد يؤدي إلى قلقا لسياسية في
المستقبل .

(٤) التاريخ المشترك :

تستمد الوطنية معظم قوتها الحيوية من التجارب التاريخية المشتركة بين مجموعة

بشرية وأسلافها ، فإن ذكرى حرب استقلال كما في اليونان وسويسره وطرده الغزاة الأجانب من فرنسا في الحرب العالمية الأولى أو الاتحاد السوفيتي في الحرب الثانية وأفعال الأبطال القوميين مثل « وليام تل » 'Icil' و « جان دارك » ، وألسيد Elcid كلها تلعب دورا في تماسك وتلاحم الشعوب ومن ثم الوحدة القومية . وليس من المفروض أن تكون هذه الذكرى سعيدة لكي تجمع الناس سويا ، فإن الهزائم وفترات الاضطهاد والسيطرة الطويلة التي عانى منها البولنديون والبلطيقون والتشيكيون ، قد تقوى القومية وتعمق الشعور بالذات عند المجموعة ، كما ليس من المهم أن يكون الأبطال حقيقيين . فإن الأفعال الأسطورية والشخصيات الخيالية قد تبعث وتثير الشعور القومي كما يثيره الأبطال الحقيقيون . وليس من المهم أيضا أن تكون بطلة قومية مثل « جان دارك » ابنة مزارع تعرضت للحرق أو أن تكون كما اقترح البعض امرأة من النبلاء متواطئة في مؤامرة لخداع المزارعين الفرنسيين وحملهم على مساندة العرش في صراع طويل ضد الانجليز ، بل المهم أن الفرنسيين كانوا يعتقدون في أصل منشأها البسيط وفي بطولتها وفي كونها ماتت في سبيل الوطن . ومن الناحية المثالية فعلى أى شعب أن يشعر أن الدولة موجودة لأنهم أو أجدادهم هم الذين أنشأوها ودافعوا عنها ضد القوى الخارجية . وإذا فقد هذا الشعور كما في الدول التي تخلقها أو تفرضها قوى خارجية بدلا من سكانها ، تصاب القومية بالضعف ويفقد سبب الوجود معناه ويصبح فارغ المعنى .

(٥) الفلسفة السياسية - الاقتصادية :

لا يفضل أن يوجد شعب أو اختلاف كبير في الفلسفة الاقتصادية والسياسية بين سكان دولة واحدة ، على الأقل في وضع يكثر فيه المؤيدون لأيدولوجيات منافسة كما يفضل أن يكون شعب ما متحداً في رغبته لنظام الحكم الذي يرتضيه سواء كان هذا النظام ديمقراطيا أو ملكيا أو دينيا أو دكتاتوريا أو رأسماليا أو اشتراكيا أو شيوعيا ، ولا يحتاج أن يكون ما يفضلونه من نظام هو النظام الفعلي الذي يحكم البلاد على أساسه لأن الوحدة القومية يمكن أن تزدهر وتقوى بالرغبة العامة للتغيير . وإذا كانت الدولة تضم مجموعات ذات أيدولوجيات سياسية واقتصادية منافسة

فإن عدم الاستقرار الذى يتبع من ذلك يؤدى فى الحالات المتطرفة إلى الانفصال أو الحرب الأهلية وتحطيم الدولة . فأسبانيا مثلا كانت مهددة بانقسامات دائمة أثناء الحرب الأهلية فى ثلاثينيات هذا القرن عندما كان « المخلصون » يحاولون صد قوات الجنرال فرانكو . فلو لم تغلب إحدى هذه القوى على الأخرى لأصبحت هناك دولتان أسبانيتان اليوم . أما ألمانيا فقد كانت أقل حظا من أسبانيا لأن هناك ألمانيان ذات نظم سياسية واقتصادية متباينة ساعدت فى استمراريتها قوى خارجية . وإذا شاءت الظروف الدولية أن تتوحد الدولتان فإن مشاكل رئيسية قد تتمخض عن ذلك : فقد يرفض سكان ألمانيا الشرقية بعد خمس وعشرين سنة من حكم الشيوعيين نظام الحكم والاقتصاد السائد فى ألمانيا الغربية . وفى مثل هذه الحالة فإن إعادة توحيد الدولتين قد تتحطم نتيجة الاختلاف والتباين بين الألمان أنفسهم .

(٦) مستوى المعيشة :

وقد تتعرض الوحدة القومية للخطر إذا كان هناك تباين فى مستوى المعيشة بين مجموعات السكان خاصة إذا كان الذين يعانون من مستوى أقل يشكلون جزءا كبيرا منه . وقد يتفاقم الوضع إذا كانت هذه المجموعات الاقتصادية المتباينة تعيش فى مناطق منفصلة من الدولة . ومثلا تتميز إيطاليا بوجود جزئين متباينين فيها : الجزء الشمالى حيث تتركز الصناعة والتقدم والثراء والجزء الجنوبى المتأخر الفقير . ويرجع أصل هذا التنافس إلى العصور الوسطى . ولكن نسبة للهجرة المتواصلة من الجنوب إلى الشمال سعى وراء العمل فقد خفت حدة التوتر وذلك بإتاحة الفرصة للجنوبيين للوصول إلى مستوى معيشى أفضل . كما تقوم الحكومة الإيطالية بمحاولات جادة لتصنيع الجنوب لغرض إزالة الفقر والتأخر فيه . وتضم تشيكوسلوفاكيا أيضا منطقة سلوفينا Slovenia المتأخرة فى الشرق ومنطقتى بوهيميا ومورافا الصناعيتين فى الغرب . اللتين بدورهما تعانيان من اختلافات لغوية مما يساعد فى التباعد بينهما .

(٧) مناطق النواة والعواصم Core Areas : (الشكل ٣٠)

نشأت دول عديدة ، ومن ضمنها الغالبية العظمى من الدول الحالية فى أوروبا .

في مناطق نواة ونمت وتوسعت منها عبر القرون إلى إقليم المحيط بها . ومثل هذه المناطق كانت تتميز بخصائص معينة مثل :

١ - حماية طبيعية ضد هجمات المغبرين .

٢ - كثافة سكانية عالية نسبيا .

٣ - اقتصاد زراعى مزدهر زيادة في المحصولات تكفى لإعالة مؤسسة عسكرية كبيرة .

والأكثر أهمية هو أن إدارة هذه المنطقة كانت تتطلب قيادة طموحة متمرسه في الفنون العسكرية والدبلوماسية ، أى رجالا مولعين بالتوسع الإقليمى . وأثناء عملية التوسع غالبا ماتحفظ النواة بمكانتها كأهم منطقة داخل الدولة تضم العاصمة والمركز الثقافى والاقتصادى للأمة .

وقد تتخذ منطقة النواة موضعا وسطا من الدولة أو مكانا هامشيا إذا كان التوسع قد حدث في اتجاه واحد . ومثلا نجد باريس و « جزيرة فرنسا Ile de France » اللتين تمثلان العاصمة ومنطقة النواة للدولة الفرنسية ، تقعان في وسط فرنسا تقريبا ، بينما وسكس Wessex وهى نواة المملكة المتحدة ، تحتل الجزء الجنوبى الهامشى منها ، كذلك نجد مناطق النواة الأسبانية والإيطالية تقعان في الأطراف هذا إذا اعتبرنا ييمونت Piemonte لا روما النواة التى منها توحدت إيطاليا . وفي بعض الحالات النادرة يحدث أن تفقد دولة نواتها أوجزءا منها لدولة مجاورة عن طريق المصادرة الإقليمية كما حصل للبرتغال وألمانيا الغربية . فغاليشيا الجنوبية Galicia والتى كانت جزءا من النواة التى توسعت منها البرتغال جنوبا إثر مطاردتهم لفلول الجيوش العربية فقدتها البرتغال أولا لمقاطعة ليون Leon ، أخيرا لأسبانيا القسطنطية رغم احتفاظ سكان النواة القديمة باللغة البرتغالية يتكلمون بها حتى اليوم . أما ألمانيا الاتحادية فقد حرمت من الاتصال المباشر بنواة براند نبيرج نتيجة الحرب وانقسام ألمانيا .

وتحتوى منطقة النواة ، مع عاصمة الدولة أحيانا ، مدينة أخرى رئيسية

Primate City تضم اكبر تجمع سكاني وكذلك الوظائف الاقتصادية والثقافية ، مثل باريس وموسكو وأثينا . ويحدث في بعض الأحوال النادرة أن تنقل العاصمة من منطقة النواة الأصلية وتبنى في منطقة أخرى نتيجة أسباب عديدة منها :

١ - في بعض الحالات يحرك مقر الرئاسة السياسية إلى تحوّل التوسع الإقليمي وتسمى في هذه الحالة بعاصمة الدفع الأمامي Forward-Thrust ، فمدينة صوفيا خلفت عواصم قديمة تقع إلى الشرق مع التوسع البلغاري جنوبا وغربا على حساب الدولة التركية ، بينما احتلت لشبونة وتوليدو مكان العواصم الشمالية عندما أخذ البرتغاليون والأسبان يدفعون بالعرب جنوبا ، كما اتخذت مدينة بترسبرج (لينينغراد حاليا) عاصمة مؤقتة لروسيا عندما كان القيصرية يسعون إلى توثيق العلاقات الثقافية مع أوروبا ، وحلت أوسلو محل تروند هايم كعاصمة للنرويج لقرها من السويد والدنمارك التي حكمت وسيطرت على النرويج لقرون عديدة . واختارت سويسرة مدينة بيرن Bern الواقعة عند الحدود اللغوية الألمانية والفرنسية عاصمة لها بدلا من إبقائها في منطقة بحيرة لوزيرن Luzern حيث كانت بداية الدولة . ويندر أن تحتفظ مناطق النواة التي فقدت وظيفتها كمركز الدولة السياسية بأهمية في الوقت الحاضر .

٢ - في الأحوال الأخرى تحرك العاصمة نتيجة الفقد الإقليمي كما حدث في بولندا وألمانيا الغربية .

تتسم الدول التي نمت حول منطقة النواة بالاستقرار أكثر من تلك التي خلقت لتماماً فراغا إقليميا كان موجودا من قبل وخاصة إذا كانت منطقة النواة مازالت محتفظة بحيويتها ونفوذها . وقد ينتج عدم الاستقرار إذا كانت الدولة تخلو من منطقة نواة أو إذا كانت هناك مناطق متعددة متنافسة داخل حدودها . ومن الدول التي تنتمي للصنف الأول - التي لا تملك مناطق نواة - بلجيكا والبايا ولوكسمبورج وألمانيا الغربية ، فهي دول ولدت كبيرة تحت إشراف وحماية قوى خارجية وسياسة القوى . وعندما حرمت ألمانيا الاتحادية من منطقة نواتها حول برندنبرج أثر التقسيم اتخذت مدينة جامعية صغيرة - بون - عاصمة لها ، وتغلبت بذلك على منافسة ميونيخ

وفرانكفورت وهامبورج والمدن الكبيرة الأخرى التي كانت تنزح إلى تلك المكانة .
ونتيجة لذلك تفتقر ألمانيا الاتحادية إلى التماسك الذي تجلبه منطقة النواة ولو أن منطقة
الزور الصناعية تخدم هذه الوظيفة إلى حد ما .

أما مناطق النواة المتنافسة فهي أكثر تخريبا من عدم وجودها . وتاريخيا نشب
مثل هذا الصراع في الأراضي الألمانية بين برلين التي كانت تقع في منطقة النواة
البروسية وفيينا عاصمة النواة النمساوية . وقد تصارعت القوتان الألمانيان لقرون قبل
أن يبت في الموضوع نهائيا في عام ١٨٦٦ م لصالح بروسيا وبرلين . ولكن بروسيا
اختارت اقضاء النمسا ومنطقة نواتها من ألمانيا الموحدة . وعندما ألحق هتلر النمسا إلى
الرايخ في عام ١٩٣٨ حاول جاهدا التقليل من أهمية فيينا السياسية والحد من خطورة
منافستها لبرلين العاصمة .

وأسبانيا أيضا تعاني من مشكلة الإقليمية المرتبطة بمنطقتي النواة الرئيسيتين في
أراجون (قطلونة) وقسطلة القديمة والتين تحتويان أيضا على مجموعات لغوية . وقد
أدى نقل العاصمة جنوبا أولا إلى توليدو وأخيرا إلى مدريد الواقعتين في قسطلة
الجديدة إلى تعقيد هذه المشكلة . وما زالت المنافسة على أشدها بين برشلونة
القطلونية (سكانها ١٦٥٠٠٠٠ نسمة) ومدريد القسطلية (سكانها
٢٤٥٠٠٠٠ نسمة) وعاصمة البلاد لم تنجح مدريد في بسط نفوذها الكامل
على أجزاء الدولة وقد يرجع جزء من السبب إلى قلة سكانها وفقر المنطقة المحيطة بها
وقلة إنتاجها . وفي إيطاليا تتعايش روما نواة الفترة الكلاسيكية والتي لم يكن لها دور
في توحيد إيطاليا . مع بيمونت : المقاطعة الشمالية التي منها تم توحيد القطر . وقد
تكون لهضة بيمونت الصناعية مع سهل لمبارديا المجاورة دلالة كبيرة في المستقبل
البعيد .

(٨) توزيع السكان :

يتأثر الاستقرار السياسي في دولة ما بالطريقة التي يتوزع بها السكان داخلها
والتوزيع المثالي للسكان هو أن يتجمع هؤلاء في داخل الدولة الذي يشمل منطقة
النواة وأن تكون مناطق الحدود قليلة السكان ومتخلخلة التوزيع أو خالية منه تماما .

وهذا النمط من التوزيع السكاني نشأه في إيطاليا حيث توازى حال الألب المتخلخلة السكان حدودها الشمالية وكذلك في غرب تشكوسلوفاكيا حيث توجد منطقة جبلية . ويحدث عدم الاستقرار عندما تحتوى مناطق الحدود على أعداد من السكان أكبر مما في المناطق الداخلية ، ومثل هذا التوزيع قد يؤدي إلى تقوية الصلات بين سكان الحدود والمناطق المجاورة . وأسبانيا تعاني من مثل هذه التجمعات السكانية الهامشية والتي يعقدها أكثر التنوع اللغوي . كما أن فرنسا تواجه مشاكل مشابهة ولكنها أقل حدة من تلك التي تعاني منها أسبانيا .

(٩) دور الأنماط البيئية :

في الفترة التي شهدت تطور معظم الدول الأوروبية ، وذلك قبل ابتكار وسائل الحرب الحديثة ، تأثرت الفعالية السياسية لهذه الدول بعدد من العوامل البيئية . فالدول التي كانت تتمتع بنوع من الحماية الطبيعية ، مثل السلاسل الجبلية والغابات أو مستنقعات على الحدود أو بموضع جزري أو كوستات خارجية الوجهة ، كانت تملك احتمالات أكثر للبقاء والتطور . وهذه المعاقل الطبيعية تعرف باسم « القلاع الشعبية Folk fortresses » . ففرنسا مثلاً كانت معدة طبيعياً لهذه الحماية لأن منطقة نواتها - حوض باريس ، كانت محاطة بكويستات داخلية وحائط دفاع خارجي يتمثل في جبال البرانس والألب وجورا وفوزج والأردن . كما كانت نواة سويسرة الأصلية محمية طبيعياً لوقوعها بين سلاسل الألب . والبريطانيون مدينون بقدرتهم على صد كثير من الهجمات التي أتت من القارة إلى ذلك الخندق الطبيعي المتمثل في القنال الإنجليزي ، كما أن الموقع الجزري مسئول جزئياً عن استقلال أيسلندة وأيرلندة . واستغل الهولنديون انخفاض أراضيهم في الدفاع عن الوطن وذلك بإغراق البولدرات بمياه البحر أو الأنهار وسد الطريق أمام الغزاة كما حدث عام ١٥٧٤ عندما فتح سكان مدينة ليدن Leiden الجسور للسماح لسفنهم الحربية بالإبحار عبر البولدرات المغمورة ومهاجمة الأسبانيين الذين كانوا يحاصرون المدينة . أما المواقع شبه الجزري فقد ساعد في تكوين إيطاليا وأسبانيا واليونان وذلك بمنحها إطاراً طبيعياً لتوسيع الإقليمى رغم أن مثل هذه المواضع ليست لها أى مميزات دفاعية .

ويحدث كثيرا أن تعوق العوامل البيئية نجاح وتطور الدول . وربما كان مصير بولنده سيكون أحسن حالا اليوم لو لم تكن الدولة واقعة على السهل الأوروبي الشمالى بدون أى جبال أو عوائق طبيعية تحميها من غزوات الألمان والروس من جهتين . حتى المستنقعات التي كانت في وقت ما تضفى حاية على بولنده ، فقد جففها واستصلحها الألمان واستقروا فيها في حين أن مستنقعات برييات الضخمة إلى الشرق لم تكن كافية لصد الهجمات لأن طرق الغزو كانت تقع إلى شمال وجنوب هذا الحاجر الطبيعي .

وبينا تكتسب الحواجز الطبيعية في مناطق الحدود أهمية كبرى لأغراض الدفاع فإن نفس هذه الحواجز تكون ذات نتائج عكسية إذا كانت واقعة في داخل الدولة . فإذا كانت هناك جبال وصحارى وغير ذلك من الحواجز تشق وسط الدولة فإن أثر ذلك حتماً سيكون عكسياً أى طارداً . ومثلاً رومانيا التي نشأت في سهل ولاشيا تقطعها سلسلة جبال الكربات القليلة السكان إلى نصفين . وربما نتيجة لذلك وجدت الدولة صعوبة في الحصول على والاحتفاظ بسيادتها على الأقاليم التي يسكنها الرومانيون والواقعة خلف هذه الجبال في حوض المجر . وهكذا أصبحت الجبال التي كانت ملاذاً وملجأً للرومانيين في الفترات العصيبة التي تلت سقوط الإمبراطورية الرومانية عامل انقسام وعزل لأمة واحدة . ويمكن تفسير مشكلة التفرقة الداخلية في أسبانيا جزئياً بالحواجز الطبيعية بين أحواض هضبة الميزيتا التي تحيط بها الجبال (كاستيلا) وبين المنخفضات الهامشية . ولولا خبرة النرويجيين البحرية ومهارتهم لكان من الصعب توحيد التجمعات السكانية العديدة التي تزخر بها رؤوس الفيوردات والتي تفصلها عن بعضها البعض سلسلة جبال كيولن Kjulen .

(١٠) توزيع الإقليم القومى :

يساعد تكتل لإقليم الدولة في التماسك القومى ، وأفضل شكل تتخذه الدولة من الناحية النظرية هو دائرة أو شكل ثمانى الأضلاع مركزها في منطقة نواة ذات موقع مركزى ومن الدول التي تقرب أشكالها لهذا الشكل المثالى فرنسا ورومانيا . بينما هناك دول أخرى مثل بولنده وأسبانيا والمجر تتمتع بتوزيع مناسب لإقليمها القومى .

ويمكن أن يحدث عدم الاستقرار في الدولة إذا كانت هذه الدولة تملك نمطا إقليميا غير مناسب مثل وجود ما يسمى بالمقاطعة المحاطة بأرض أجنبية أو المقاطعة الحبيسة Enclaves والمقاطعة أو الإقليم المعزول 'Exclaves' .

والمقاطعة الحبيسة هي إقليم تحيط به دولة معينة من كل جانب ولكن لا يخضع لحكم هذه الدولة. ففي إيطاليا توجد مقاطعتان حبيستان هما مدينة الفاتيكان وسان مارينو ، كما يمكن اعتبار برلين الغربية مقاطعة حبيسة من وجهة نظر ألمانيا الشرقية . وقد تكون المقاطعة الحبيسة ذات حكم ذاتي أو تخضع لدولة مجاورة . ومن الأوضاع غير المرغوب فيها تلك الدول التي تتكون من أقاليم منفصلة عديدة تشمل منطقة رئيسية تضم العاصمة وواحدة أو أكثر من مقاطعات حبيسة ، كما توضحها الولايتان الألمانيستان المستقلتان : براونشفايخ Braunschweig وفورتمبيرج Wurttemberg في أواخر القرن الثامن عشر . وحديثا نجد برلين الغربية التي تطورت كم منطقة معزولة لألمانيا الغربية مؤديا بذلك إلى وضع غير مستقر لأن المنطقة الواقعة بين برلين الغربية وألمانيا الاتحادية تسيطر عليها دول معادية تحت سيطرة دولة كبرى هي ألمانيا الشرقية . وقد حدث مثل هذا الوضع المهزوز بين الحريين العالميتين عندما فصلت بروسيا الشرقية التي تحكمها ألمانيا عن باقي الأمة بواسطة الدهليز أو الرواق البولندي Polish Corridor . وحتى إذا كانت الدولة تتكون من كتلة واحدة فقد تتولد صعوبات إذا كان هذا الشكل غير متناسق . فالدول ذات الشكل الضيق الطويل مثل النرويج وتشكوسلوفاكيا قد تجد بعض الصعوبات في بسط نفوذها على هذه الأقاليم المتباعدة . وقد عانت تشكوسلوفاكيا من فقدان سلوفينا مؤقتا وإقليم روئينيا Ruthenia إلى الأبد في خلال خمسين سنة نتيجة التوزيع الإقليمي القومي غير المتناسق .

(١١) قوة وشعبية الحكومة المركزية :

تستطيع الحكومات المركزية القومية التغلب على قوى التفرق الداخلية وتشجيع الوحدة الوطنية ، وقد يتطلب الوضع نوعا من الدكتاتورية لتحقيق هذا التماسك الداخلي فقد بقيت ألمانيا الشرقية نتيجة الحكم الدكتاتوري الذي تسنده روسيا كما

استطاع الدكتاتور فرانكو السيطرة الفعلية على المجموعات العرقية المختلفة في أسبانيا . وقد تكون الشعبية بديلا فعالا للحكومة المركزية في بعض الأحيان كما في انجلترا حيث تلعب العائلة المالكة دورا كبيرا في الحفاظ على مكانتها التي لا تتعدى على تأثير احتفالي أو رمزي على الحكومة المنتخبة .

هذه هي أهم القوى الجاذبة والقوى الطاردة التي تعمل داخل الدول جالبة الاستقرار أو التفتت والدمار . وليس من دولة واحدة تملك كل عناصر الوحدة والاستقرار . المطلوب فقط هو أن تحصل دولة على توازن معقول بين هذه القوى داخليا تكون عوامل الوحدة فيه طاغية على عوامل التمزق والتفرقة . والخريطة السياسية لأوروبا تشير إلى أن كل دولة فيها قد توصلت إلى مثل هذا التوازن . على الأقل في الوقت الحاضر : وقد يكتفى في بعض الأحوال « سبب بقاء » واحد قوى للتغلب على قوى التمزق . ولكن هناك حقيقة أخرى وهي أن التركيب الداخلي مهما بلغ من تماسك لا يضمن بقاء دولة لأن الناس إذا فشلوا أو فقدوا القدرة على مواجهة التحديات الخارجية فقد يؤدي ذلك إلى انتهاء الدولة رغم قوة الشعور القومي .

(ج) العوامل الخارجية :

(١) العلاقات الاستراتيجية الإقليمية :

من العوامل التي تساعد في خدمة قضايا السلام وتبعث على الاستقرار السياسي . الاعتراف من قبل جميع الدول بالمواثيق الدولية واحترام الحدود الدولية والإحجام عن التوسع الإقليمي خاصة على حساب الغير . ولكن من المؤسف أن تاريخ أوروبا القديم منه والحديث . يكشف عن عمليات خرق عسكرية متكررة لسيادة الدول وعن محاولات مستمرة لتوسع رقعة دولة على حساب أخرى . وما من دولة أوروبية إلا وحاولت بصورة أو بأخرى ضم إقليم تابع لدولة مجاورة لها في وقت أو آخر عبر تاريخها الدامي الطويل .

ولهذا السبب يجب أن تكون للدولة واحدا من هذين الهدفين لتضمن بقاءها و استمراريتها :

١ - أن تكون قادرة على إعالة قوة عسكرية قادرة على الدفاع عنها وحمايتها من الأعداء وذلك بجمع وتسخير مواردها البشرية والطبيعية ضد العدو . وتقليديا كان وجود القلاع الشعبية يساعد في الحصول على القوة الدفاعية والتي أيضا ترتبط مباشرة بعدد السكان وإنتاجية اقتصاد هذه الدولة . وقد يكون أفضل وضع في هذه الحالة أن تكون الدولة محاطة بشعوب ضعيفة من الناحية العسكرية كما كان الحال في العصور الوسطى عندما كانت بعض الإمبراطوريات محاطة بما يسمى « بالمارشلاندر Marches or Marchlands » وهى عبارة عن نطاقات « محيدة » يقابلون فيها تحديات القوات الخارجية بدلا من خوض الحرب فوق تراب الوطن . فالإمبراطورية الفرنكية كانت محاطة بالمارش الأسباني جنوب جبال البرانس ، وبالمارش البرتالي من ناحية الغرب وبمجموعة من المارشات من الشرق . والمرادف الحديث للمارش هو الدولة العازلة Buffer state . وكثير من دول أوروبا الصغيرة تدين بوجودها إلى مثل هذه الوظيفة . أى عزل الدول الكبرى من بعضها البعض . فإن بقاء واستمرار لوكسمبورج كدولة كان مرهونا بوظيفتها التي خلقت من أجلها : أى دولة عازلة بين فرنسا وألمانيا . وينطبق نفس الوضع على بلجيكا وهولنده

٢ - إذا عجزت الدولة بسبب ما في تكوين قوة دفاعية قوية . فقد يصحح من الضرورى الدخول في أحلاف مع دول أخرى تواحيها أخطار خارجية مشتركة . وإذا عجزت الدولة في الاعتماد عسكريا على نفسها أو أن تدخل في أحلاف دفاعية مع غيرها . فأنها تضع نفسها تحت رحمة الدول المجاورة القوية ، وكم من دول اختفت من الوجود لضعفها ووقعت لقمة سائغة للدول الأقوى . فدول البلطيق الثلاثة أستونيا ولاتفيا وليتوانيا والتي تبحرت من الحكم الروسى بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت أضعف من أن تدافع عن نفسها كما لم تتمكن أو لم ترغب في الدخول في أحلاف دفاعية فيما بينها . ولهذا لم يدم استقلالها أكثر من عشرين سنة . إذ ضمت للاتحاد السوفيتى عنوة . أما ألمانيا فقد خلقت بعدوانها العسكرى أعداء لم تستطع في النهاية التعامل معهم مما أدى إلى تحطيم وحدتها الوطنية فى ١٩٤٥ م وتمزيقها بعد ذلك .

(٢) العلاقات الاقتصادية :

ليست هناك دولة مكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية أو تستطيع الاستغناء عن ضرورة تبادل البضائع والمنجات مع دول العالم الأخرى. وبقاء الدولة وازدهارها يتطلب إقامة ودعم نمط تجارى معقول . ففي العصور الوسطى كان قطع العلاقات التجارية بين الدول المدنية وخلفيتها عن طريق الحصار كافيا لتحطيم استقلال المدينة ، كما أن الحصار البحري الذى فرض على ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى سبب مشاكل اقتصادية كبيرة لها . ولأن المحيطات تمثل أكثر الطرق التجارية وأرخصها استخداما فإن حرية الوصول لهذه البحار واستعمالها يجب أن تكون مكفولة لكل الشعوب . فالدول الداخلية تعاني من عدم اتصالها بالبحر . وقد تفسر هذه المشكلة قلة عدد الدول الأوروبية التى لا تطل على البحر ولا تملك منافذ بحرية . ومن الناحية الاقتصادية والعسكرية يعتبر الحجم الصغير للدولة معوقا للبقاء القومى . وعلى مثل هذه الدول الصغيرة إما أن تدخل فى اتحاد اقتصادى مع الدول المجاورة الكبرى كما فعلت لوكسمبورج فى الأول مع بلجيكا وهولنده (دول البنيلكس Benelux) ومؤخرا بالانضمام للسوق الأوروبية المشتركة ، أو أن تطور نوعا من الفضول والحافز الاقتصادى لجذب الأموال مثل كازينوهات القمار فى موناكو والأسواق الحرة والتهرب كما فى أندورا Andorra ، وبيع طوابع البوسطة كما فى سان مارينو وليختنشتاين .

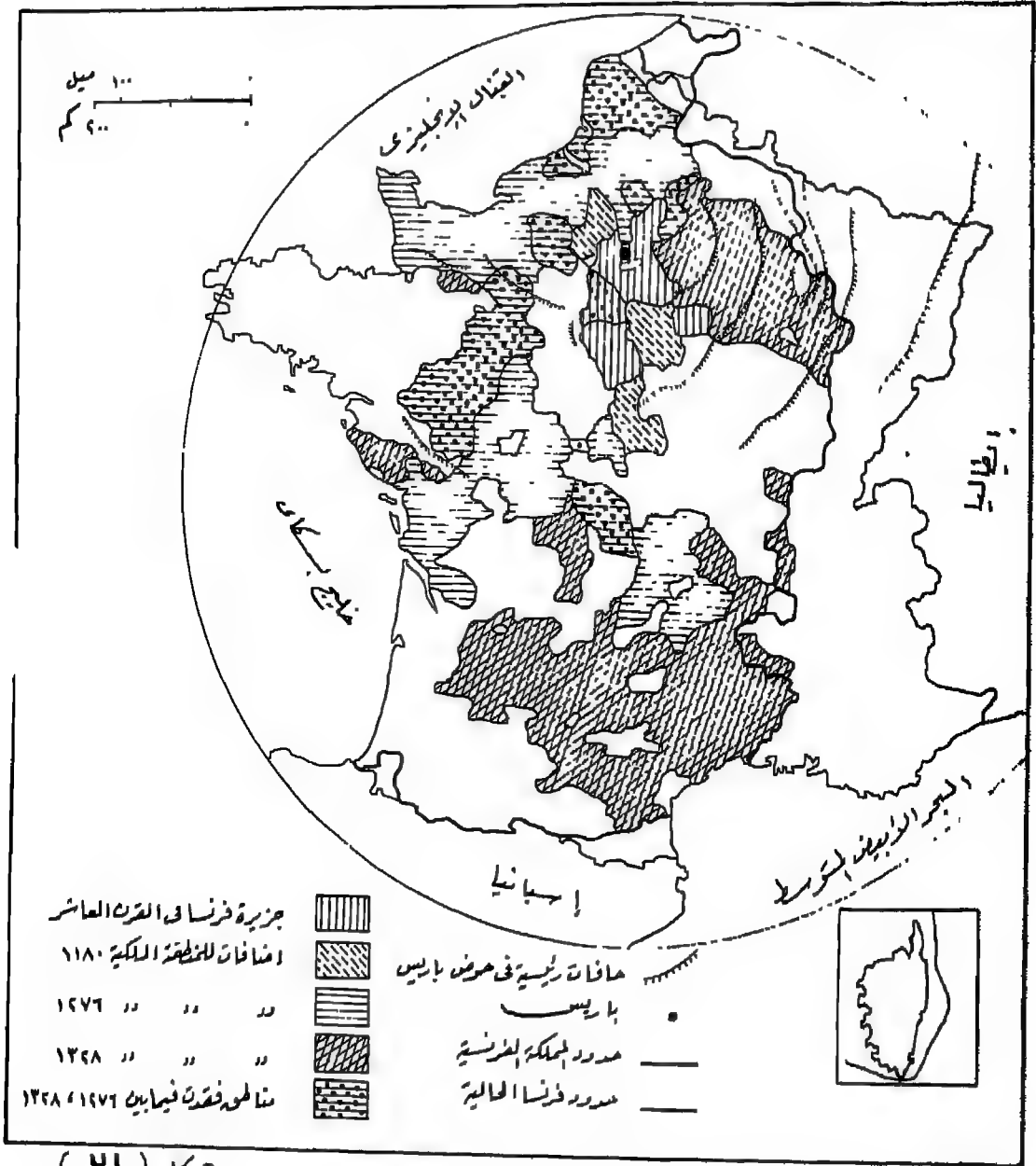
(د) تطور وبقاء بعض الدول الأوروبية - دراسة تطبيقية :

بعد دراستنا للقوى الطاردة والجاذبة والعلاقات الاستراتيجية والاقتصادية الخارجية وتأثيرها على الدول من حيث نموها وازدهارها أو اضمحلالها ، نحاول الآن دراسة الجغرافية السياسية لبعض الدول فى أوروبا خاصة من ناحية نشأة هذه الدول والعوامل التى أثرت فى ذلك .

١ - فرنسا : (الشكل ٣١)

تتميز فرنسا التى تعتبر من أقدم الدول الأوروبية وأكثرها فعالية ، بتفوق ورجحان كفة القوى الجاذبة التى جعلتها من أكثر الدول الأوروبية استقرارا . ورغم ارتباطاتها اللغوية والدينية مع منطقة حوض البحر المتوسط ، فإنها تدين بأصل نشأتها

التوسع الإقليمي لفرنسا



وباسمها إلى قبيلة ألمانية هي « الفرنك » التي انتشرت غربا من بلادها بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . وقد حدثت محاولات جادة لبناء الدولة على يد هؤلاء الفرنك توجهت في النهاية بإنشاء الإمبراطورية الفرنكية التي كانت تضم ليس فرنسا الحديثة وحدها بل بلاد أخرى مثل شمال إيطاليا وألمانيا الغربية والأراضي المنخفضة . وفي عام ٨٤٣ ميلادية انشقت الإمبراطورية إلى ثلاثة أجزاء وأصبح الجزء الغربي نواة الدولة الفرنسية الحالية . وكان هذا الجزء يضم حوض أكويتين ومعظم حوض باريس والهضبة الوسطى . أما رواق الرون وسارون والمناطق التابعة لتصرف نهر الراين فقد كانت تقع خارج ذلك الجزء . ورغم أن الوحدة الفرنسية من الناحية الفنية ظلت بدون اضطراب خلال ألف سنة وحتى وقتنا الحالى فحقيقة الوضع تقول بأن مملكة الفرنك الغربية انقسمت بعد عام ٨٤٣ إلى أقسام على يد الإقطاعيين ... كل إقطاعي يحكم ممتلكاته الصغيرة مستقلا من الملك الذي كانوا يدينون له بولاء اسمي وتدرجيا أصبحت الملكية وظيفة تشريفية لاغير .. وبهذه الصورة انتقلت الملكية (أو لقبها الاسمي) إلى عائلة « الكابتس Capets » التي كانت ممتلكاتها الإقطاعية تحتل مساحة صغيرة في قلب حوض باريس وشاء القدر أن تصبح هذه المساحة جزءا من « جزيرة فرنسا Île de France » التي أصبحت فيما بعد نواة الدولة الفرنسية المتحدة . ولكن الملكية لم تأت بأى اضافات إقليمية . ولهذا بقيت المنطقة التي يعكسها « الكابتس » محصورة في « جزيرة فرنسا » في البداية ولكنهم استطاعوا أن يوسعوا المنطقة الملكية Royal Domain . ومن ثم امتدت سيطرتهم إلى معظم أجزاء فرنسا الشمالية وقد ساعدته عوامل في هذه المبادرة :

١ - كانت العائلة طموحة جدا ومحظوظة في بعض الأحيان . وقد لعب الإطار الطبيعي لحوض باريس والمتمثلة في تلك الدوائر الموازية من الكويستات ذات الوجهة الخارجية في جعل « جزيرة فرنسا » مكانا للتوسع منه إلى الأقاليم الأخرى . ولكن الطموح البشرى كان يشكل القوة الدافعة في المقام الأول . ولم يكن التوسع يتقدم ثبات . فقد كانت أحواض صغيرة داخل حوض باريس كان من الصعب السيطرة عليها . ولهذا كان هناك تراجع وأحيانا وقفات وهكذا وبنهاية القرن الثالث

عشر أصبح حيز كبير من حوض باريس جزءا من المنطقة الملكية . وتم صم إقليم شامبين Champagne الغنى عن طريق الزواج فيما أضيفت مناطق أخرى بالقوة .

٢ - ثم دخلت هذه الدولة النواتية في صراعين كبيرين بسبب سعيها للتوسع خارج حوض باريس . أولهما كان حرب المائة سنة التي خاضت غارها في القرنين الرابع والخامس عشر ضد الانجليز الذين كانوا يحكمون نورماندى وأكوتين ويقفون في وجه أى توسع فرنسى نحو المحيط الأطلسى . وقد أدى الصراع ليس إلى طرد الانجليز الذين لجأوا إلى جزر جيرنزي وجيرزى الساحلية فقط . بل إلى ظهور أول بطلا قومية هي جان دارك . أما الصراع الثانى فقد كان ضد دولة بورفون Bourgogne القوية التي ظهرت إلى الشرق من فرنسا الحديثة وكانت تسيطر على رواق النرون - ساوون الذى يربط بين حوض باريس ومنطقة البحر المتوسط . وقد تم هزيمة بورقون في القرن السادس عشر وضمت آخر بقايا هذه الدولة في القرن الذى تلا . وفي القرن الثامن عشر ظهرت فرنسا بحدودها الحالية تقريبا .

ويمكن حصر عناصر الوحدة والتماسك العاملة داخل الدولة الفرنسية في الآتى .
اللغة والدين . ووجود منطقة نواة قوية وتكتل أو تماسك الإقليم القومى . وتقليد ثقافى وتاريخى مشرف . وظروف طبيعية مناسبة متمثلة في المرتفعات التي منحتها حدودا طبيعية وقلعة شعبية Folk fortress فالتطابق القريب من ناحية مساحية بين فرنسا واللغة الفرنسية يعتبر صدفة تاريخية لأن ملوك فرنسا ما كانوا يعيرون اهتماما بذكر اللغة المناطق التي كانوا يسعون إلى ضمها في دولتهم . وقد حدث أن ضمت أقليات لغوية ولكن نظرا لصغرها ولأنها لم تنتم إلى شعوب قوية خارج حدود فرنسا لها القدرة في تحدى الحكم الفرنسى . فقد انصهرت هذه المجموعات في المجتمع الفرنسى . . . السلت البريطانيين الذين كانوا يسكنون في مرتفعات بريتنى Brittany والتي ضمت لفرنسا عام ١٤٩١ لم يتلقوا أى مساعدة من إخوانهم في الجزر البريطانية كما لم يتلق الباسك في نفار الفرنسية Navarre أو قطلونيو روسيلون Roussillon أى دعم وإعانة من حكام أيبيريا . وخذلت إيطاليا سكان جزيرة كورسيكا والريفيرا كما لم تكن هناك دولة قوية في الفلاندرز ليستجد بها الفلمنكيون الذين كانوا يسكنون حول دنكيرك . أما المنطقة الوحيدة ذات الأقية

اللغوية التي أقلقت فرنسا وجلبت لها المشاكل فهي مقاطعة الألزاس واللورين
Alsae-Lorraine . فقد تمكنت ألمانيا المتحدة من السيطرة على هذه

المقاطعة مرتين منذ ١٨٧٠ كما تنقلت يد السلطة فيها أربع مرات في خلال القرن
الماضي . فقد حكمت ألمانيا المقاطعة لحوالى نصف قرن في القرن الماضي . وهى الآن
تحت سيطرة فرنسا .

أما قوى التفريق والتقسيم فهي قليلة وضعيفة ، وقد استطاعت فرنسا التغلب
على الاختلاف في اللهجة بين الشمال الألماني والجنوب الرومانى ، كما شهدت الدولة
في فترة سابقة صراعا دينيا استطاعت حلها بذبج وتهجير الهيوكون Huguenots
أما أساس الاستقرار الذى تتمتع به فرنسا فيرجع إلى حد كبير في فخرهم
واعترازهم بالثقافة الغنية المرتبطة باللغة ، ثقافة قل ما تنافسها ثقافة في جودتها
ونوعيتها وإنتاجها المستمر . ويمكن أن نضيف إلى هذه الثقافة ، التاريخ المشترك
والذكريات عنه والتي تمتد من إنجازات جان دارك إلى الثورة الفرنسية وعظمة
نابليون وإنشاء الإمبراطورية الضخمة . وقد برهنت فرنسا خلال القرن الماضي بأنها
تستطيع البقاء حتى في ظل حكومات مركزية ضعيفة واهية وأنها لا تحتاج إلى
شخصيات فذة مثل ديجول ونابليون لتبقى حية مزدهرة .

أما التهديدات الخارجية لفرنسا فكانت تأتي من المملكة المتحدة وألمانيا وقد
تصدى لها حكام فرنسا بتكوين أحلاف مع روسيا والولايات المتحدة . وفي أوائل
هذا القرن دفعت أخطاء السياسة الخارجية الألمانية إلى دخول فرنسا في تحالف مع
بريطانيا وأصبحت ألمانيا هي العدو الوحيد لفرنسا إلى نهاية الحرب العالمية الثانية
وبهزيمة ألمانيا انتهى آخر مصدر تهديد خارجي لفرنسا .

٢ - المملكة المتحدة :

هناك أشياء مشتركة بين فرنسا والمملكة المتحدة : فكلتاها دولتان عريقتان
تتمتعان باستقرار سياسى كما أن تأسيسهما تم على يد أحفاد شعب ألماني (جرماني)
غزوا المنطقتين بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . كما أن كليهما يحملان أسماء جرمانية
لأن انجلترا أو Angle-land أو 'England' هو اسم إحدى القبائل الغيرة .
ومن أوائل الشعوب التي استقرت في بريطانيا الجوت Jutes والساكسون والأنجلز

Saxons, Angles ثم تبعهم رجال الشمالى Noisemen والدنماركيين Danes .

فى بداية نشأتها ظهر عدد من الدول الإقطاعية المستقلة منها (ويسيكس Wessex) أو أرض الساكسون الغربيين « Land of the Western Saxons » التى برهنت على قدرتها على التوحيد مستغلة حريتها وبعدها من غارات الفايكنج نسبة لموقعها الغربى وبعدها من مسرح الأحداث فى المناطق الشرقية والشمالية الشرقية . وفى البداية لم تخدم لندن كعاصمة لدولة الوسيكس لموقعها فى الشرق فى ميدلسكس . ولوقوعها تحت سيطرة الدنماركيين لفترة فى القرن التاسع . وقد كانت المنطقة الواقعة إلى الشمال والشرق من الطريق الرومانى القديم المعروف « بشارع والطنق Watling Street » والذى يجرى فى اتجاه شمالى غربى من لندن ، واقعة تحت سيطرة الدنماركيين .

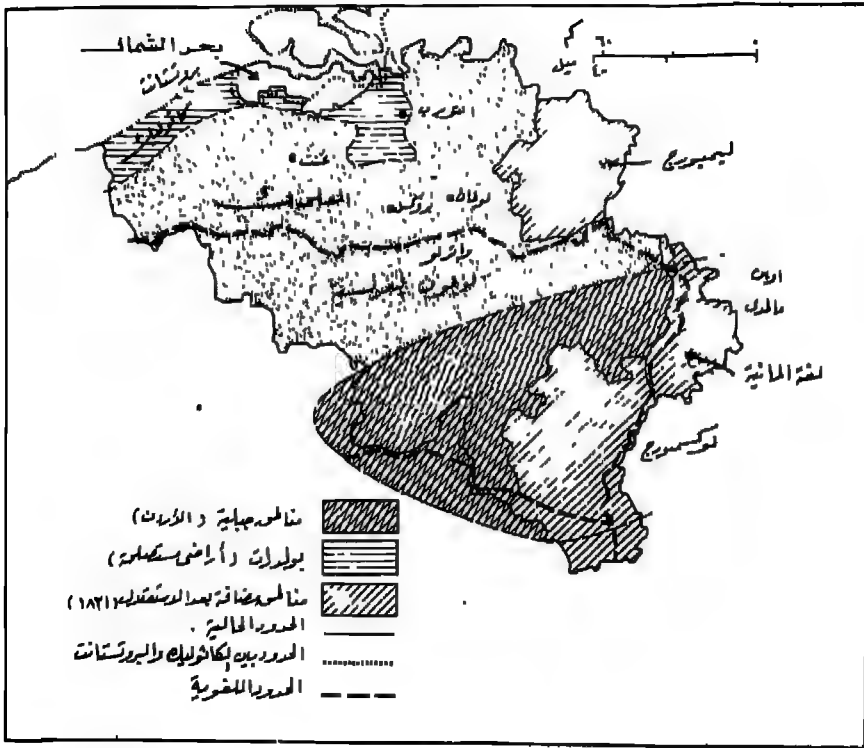
وبالإضافة إلى بسط حكمهم على مناطق استقرار القبائل الجرمانية الأخرى ، بدأ ملوك ويسيكس الساكسونيين فى مهمة كبرى وهى إخضاع قبائل السلت Celts فى ملاجئهم الجبلية . وكانت كورنول أولى هذه الملاجئ الذى يسقط فى يد الوسيكس . وفى عام ١٠٦٦ استولى الحاكم وليام النورمانى على مملكة الساكسون ، واندفع هو وملوك آخرون يتمون إلى عوائل ملكية مختلفة يهاجمون السلتيين ، وشهدت ثلاثينات القرن السادس عشر نهاية المقاومة الرئيسية فى ويلز ، وهزم الاسكتلنديون نهائيا فى عام ١٧٤٦ ، أما الأيرلنديون فقد نالوا استقلالهم فى عام ١٩٢٢ م بعد أن خضعوا للساكسون لفترة طويلة . وهكذا أصبح السلت يحملون الجنسية الانجليزية رغما عنهم ، ولهذا أصبحت هذه الأقلية تشكل قوة طاردة فى المملكة المتحدة . ولكن القومية السلتيه أخذت تضعف عبر قرون من الانصهار والتثليل التدريجى خاصة فى كورنول وأسكتلنده . أما الملامح الثلاثة للثقافة الأسكتلندية - أى اللغة الغالية Gaelic والكاثوليكية والقبيلة - فقد اندثرت الآن تقريبا . ويعانى أهل ويلز من نفس المصير . ولكن الأيرلنديون تشبثوا بدينهم الكاثوليكي وقاوموا الخضوع للثقافة الانجليزية والانصهار فيها وتمخضت هذه المقاومة عن استقلال جمهورية أيرلنده وتفسر إلى حد كبير الحرب الأهلية الدائرة الآن فى أيرلنده الشمالية .

أما قوى الوحدة والتماسك فهي كثيرة ومتنوعة : تاريخ عريق يعتزون به مثل تسعة قرون من الاستقرار والهدوء . خالية من غارات أو غزوات خارجية . وإقامة أكبر إمبراطورية عرقها البشرية . ثم الإنجازات الرئيسية في ميدان العلوم والأدب داخل الإطار الموحد للغة الإنجليزية . والملكية الاسمية التي تتجسد فيها عظمتهم الماضية . كل هذه العوامل تساعد في الاستقرار التي تتمتع به المملكة المتحدة . ومن العوامل التي ساعدت على نجاح هذه الأمة موقعها الجزري ووجود منطقة نواة ومدينة كبيرة . وقد ساعدت عمليات الانصهار والانفصال مشكلة الأقلية السلتية إلا في أيرلندة الشمالية حيث تدور الحرب سحالا بين الكاثوليك والبروتستانت .

٣ - ألمانيا : (الشكل ٣٣)

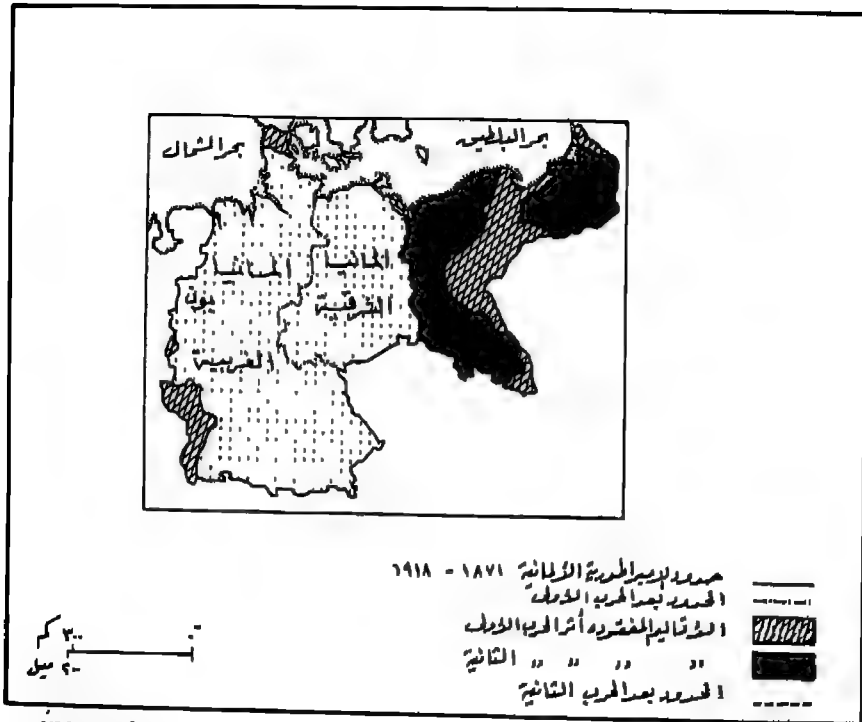
تعتبر ألمانيا . على عكس المملكة المتحدة وفرنسا . من الدول التي توحدت حديثا ، أو على الأقل كانت متحدة قبل أن تتجزأ إلى ألمانييتين في عام ١٩٤٥ م . ومع ذلك فإن بدايتها كدولة أشبه ببداية فرنسا لأن ألمانيا ظهرت أيضا بعد انقسام الإمبراطورية الفرنكية في عام ٨٤٣ ميلادية . وبينما تطور الجزء الغربي من هذه الإمبراطورية إلى الدولة الفرنسية ، أصبح الجزء الشرق منها . والتي كانت مساحتها تشمل تقريبا مساحة ألمانيا الغربية الحالية . يكون الإمبراطورية الألمانية المقدسة Holy Roman Empire . وكما رأينا من قبل فإن توحيد فرنسا تم على يد عائلة مالكة واحدة في حين أن الإمبراطورية الألمانية انقسمت بعد فترة وحدة قصيرة تحت حكم الساكسون . إلى وحدات اقطاعية ومع مرور الزمن ازداد انقسام الإمبراطورية إلى أن ظهرت إلى الوجود ثلاثمائة دولة مستقلة منفصلة في حوالى القرن السابع عشر . وأصبح لقب « إمبراطورية ألمانيا » كلمة جوفاء لا معنى لها كما كان الحال مع ملك فرنسا الأصل . وقد يكون للجغرافية الطبيعية أثر في الانقسام والتناحر بين أجزاء ألمانيا : فالأحواض المنفصلة والأودية والمرتفعات التي تفصل بينها وقفت ضد توحيد البلاد . ولم تكن في ألمانيا منطقة محمية مثل حوض باريس . فالأراضي الألمانية مجزأة إلى أجزاء منفصلة بتقسيمات تضاريسية . ولكن يبدو أكثر منطقاً في هذه الحالة أن نعوذ أسباب هذه التفرقة والتمزق إلى عدم وجود أباطرة أقوياء لهم الطموح والرغبة لتحقيق الوحدة بين أجزاء ألمانيا المتصارعة . وبدلاً من توحيد

بلجيكا : عوامل الجغرافية السياسية للدولة



شكل (٢٢)

تدمير ألمانيا الموحدة وتمزقها



شكل (٢٣)

بلادهم اتجه أباطرة ألمانيا إلى إيطاليا للسيطرة على روما أو إلى الحروب الصليبية وانشغلوا بهذه المغامرات عن أمور البلاد ووحدتها .

كانت القاعدة الإقليمية الأصلية للإمبراطورية الألمانية تقع في ألمانيا الأصلية Urdeutschland ، وهي المنطقة التي احتفظت بسكانها الألمان في تلك الفترة التي شهدت التحرك نحو الغرب مع ما يسمى بهجرة الشعوب Migration of Peoples . فيما بين عامي ٤٠٠ و ٨٠٠ ميلادية . وفي العصور الوسطى فيما بين ٨٠٠ و ١٤٠٠م اندفع الرواد الزراعيين الألمان نحو الشرق إلى ما وراء خط إلب - سال - أن - سالزراخ إلى داخل أراضي الصقالبة (السلاف) خالفين نطاقا كبيرا جديدا تسكنها شعوب ناطقة بالألمانية ، وهذه المستعمرة الألمانية كانت تتمركز في منطقتين كبيرتين تيحان المجال للتوسع شرقا : السهل الألماني الشمالي ووادي الدانوب والمنطقة الألبية الشرقية .

ومع الانقسام المستمر لمنطقة « ألمانيا الأصلية » ظهرت دول قوية في كل من المنطقتين الشرقيتين في المستعمرة الألمانية . أما براندينبرج ذات التربة الرملية والمكسوة بغابات الصنوبر ، (ومركزها برلين التي كانت في تلك الفترة عبارة عن قرية سلافية صغيرة لصيد الأسماك) فقد ظهرت كمنطقة شرقية عازلة March في السهل الألماني الشمالي . وعندما منحت براندينبرج لعائلة هوهنزولرن Hohenzollern الطموحة أصبحت براندينبرج ندا لدول الإمبراطورية الأخرى ثم تفوقت عليها من ناحية القوة والتنظيم ، وأخيرا تطورت براندينبرج لتكون مملكة بروسيا التي أصبحت أقوى دولة في السهل الشمالي . ويمكن أن نعزو نجاح هذه المملكة وقوتها إلى سياسة التسامح نحو الأقليات الدينية التي جذبت أعدادا كبيرة من الهيبوقون والفلمنكيين والسالزبرجين والأنابابتين Anabaptists الذين أتوا بمهارات صناعية وزراعية كان البروسيون في أشد الحاجة إليها . ومع بداية القرن التاسع عشر كان ثلث سكان بروسيا يتكونون من سلالة هؤلاء النازحين الهاريين من الاضهاد الديني في فرنسا والنمسا والبلاد الأخرى .

وحدث تطور سياسي مماثل في القطاع الجنوبي من « ألمانيا المستعمرة » حيث

طورت المنطقة الشرقية العازلة Ostmark البفارية لتصبح النمسا Österreich أو «الإمبراطورية الشرقية» تحت القيادة الماهرة لعائلة هابسبورج Hapsburg . ثم وجهت الدولتان الشرقتان القويتان ، بروسيا والنمسا ، اهتمامهما نحو ألمانيا الأصلية المجزأة وأخذتا تتنافسان للسيطرة عليها مدة طويلة وأخيرا وفي عام ١٨٦٦ استطاعت بروسيا إلحاق الهزيمة بالنمسا وإزاحتها من طريقها ثم انضمت بتوحيد ألمانيا تحت سيطرتها وذلك في عام ١٨٧١ . ولم تختلف الإمبراطورية التي أنشأتها بروسيا من كونها امتدادا لبروسيا لأن ملك بروسيا هو الذى توج قيصرًا على ألمانيا الموحدة وبقيت عاصمة بروسيا ، برلين ، عاصمة للإمبراطورية الجديدة . أما النمسا فقد اتجهت باهتماماتها شرقًا نحو البلقان .

ومن عناصر الوحدة التي كانت تتمتع بها الإمبراطورية تلك التي تتعلق باللغة الألمانية وإنجازاتها الثقافية الباهرة المتمثلة في الموسيقى والعلوم والأدب التي بز فيها الألمان على كثير من الشعوب . وقد ساعد غزو نابليون في إذكاء الشعور الكامن للوحدة الألمانية واستغلت بروسيا الفرصة بنجاح لتتصب نفسها حامية على ألمانيا وبطلة شعبها والمدافعة عن مصالحه . ثم انتقلت الأعمال والتجارب التاريخية للشعب الألماني كأمة متفككة إلى الإمبراطورية الجديدة مفعمة بأبطال قوميين مثل هيرمان Heermann رئيس القبيلة الذي هزم القوات الرومانية عام ٩ ميلادية ثم فريدريك باربر وسا الإمبراطور الذي مات في إحدى الحروب الصليبية وحيهار دفون بلوخر Gebhard von Blucher . من الذين ساعدوا في هزيمة نابليون وهكذا كانت ألمانيا كينونة بشرية متميزة وبروسيا أعطت التعبير السياسي لهذه الكينونة .

ولكن ألمانيا الموحدة لم تبق طويلا ، فقد بدأت تتجزأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى عندما بدأت تفقد المناطق العرقية الأجنبية مثل الرواق البولندي وسيليزيا العليا وشيلزفيك Schleswig الشمالية وبعض المناطق التي يسكنها الألمان مثل الألزاس واللورين واوين مالدت Eupen-Malmedy وسار Saar .

وهذه الأخيرة عادت إلى ألمانيا بعد استفتاء وهي الآن جزء من ألمانيا الغربية . وبعد هزيمتها في الحرب العالمية فقدت ألمانيا أقاليم أخرى ، والأسوأ من ذلك

انقسامها إلى دولتين ألمانيتين مستقلتين تحت نظامين مختلفتين . وهكذا عاد التفرق لألمانيا في أنها عجزت عن التعامل مع القوى الخارجية . ويمكن تلخيص مأساة ألمانيا في أنها سعت لاستخدام موقعها المركزي كمحور تنطلق منه للسيطرة على أوروبا ولكن المهمة كانت أكبر من إمكانياتها ولذلك أعطيت دور دولة عازلة بحزاة بين الشرق والغرب .

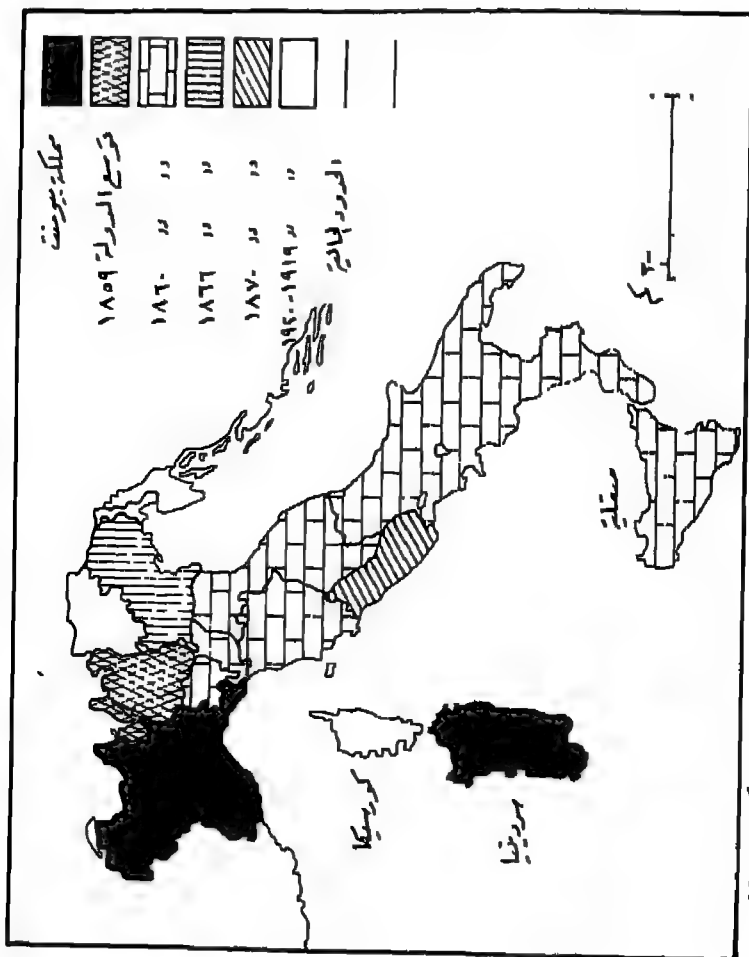
سـمـر- إيطاليا : (الشكل ٣٤)

تم توحيد إيطاليا حديثا . وقبل منتصف القرن التاسع عشر كانت إيطاليا تستخدم كمبربرى بواسطة المغيرين الذين كانوا يفدون من الشمال عبر ممرات جبال الألب أو عن طريق صقلية من شمال أفريقيا ، فقد خضعت أجزاء مختلفة من إيطاليا أثناء فترة التفرق هذه لحكم الأسبان والألمان والأغريق والبيزنطيين والفرنسيين والعرب .

وفي القرن التاسع عشر اجتاحت إيطاليا موجة من القومية اللغوية بلغت أوجها في تلك المحاولة الجادة للتوحيد الذي قاده مملكة بيمونت وسردينيا بنجاح من قاعدتها في ولاية بيمونت في الجزء الغربى من وادى نهر البو . ورغم معارضة النمسا والبابا وبعض الحكام المحليين تم في الفترة ما بين ١٨٥٩ و ١٨٧٠ ضم أجزاء إيطاليا الأخرى تارة بالقوة وتارة بالاقناع إلى سردينيا - بيمونت . وهكذا كانت بداية الدولة الحديثة . ثم فقدت منطقة النواة ، بيمونت ، العاصمة لصالح مدينة روما بحكم موقعها الوسط وأهميتها التاريخية والدينية . وكما حدث في ألمانيا فقد جاء الدافع للوحدة من منطقة هامشية ولكن عملية التوحيد تمت أسرع مما حدث في ألمانيا كما أن الوحدة كانت أكثر ثباتا ، ومن ثم خرجت إيطاليا من الحرب الثانية متماسكة .

أما سبب الوجود *Raison d'être* بالنسبة لإيطاليا فتتمثل في اللغة الإيطالية وآدابها وثقافتها كما أن هناك عناصر موحدة مثل الدين الكاثوليكي وراث الإمبراطورية الرومانية والإطار الطبيعي لشبه الجزيرة . أما الصراعات الداخلية الحادة فهي قليلة إلا من التباين الاقتصادي بين الجنوب المتخلف والشمال الصناعى المتقدم ، ووجود أقلية ألمانية في تايروال الجنوبية والقوة التي يتمتع بها الحزب الشيوعى في الإقليم الشمالى الأوسط من البلاد .

التطور الافريقي لاططالاب



شكل (٢٤)

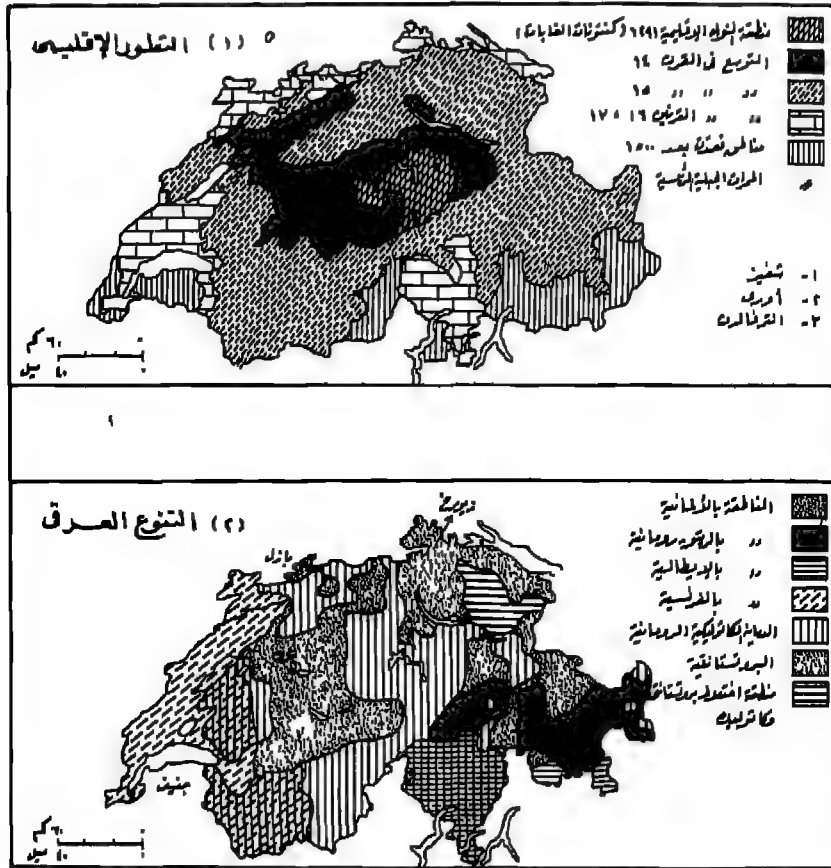
٥ - سويسرة وبلجيكا : (الأشكال ٣٢ و٣٥) .

بعد الحد الفاصل بين اللغات الرومانسية في الجنوب واللغات الألمانية في الشمال أهم تخوم لغوي في أوروبا الغربية . وتفرشخ سويسره وبلجيكا هذه الحدود اللغوية وتتشابهان في نواحي معينة ولكن النجاح لن يكون حليف إلا واحدة منها .

فسويسره تعتبر من أكثر دول أوروبا فعالية واستقرارا ومن أقواها من ناحية الشعور بالوطنية على نطاق القارة كلها تقريبا . وإذا أخذناها من ناحية الحجم والسكان أو القوة العسكرية فهي ليست بذات أهمية كبرى ، ولكن أهميتها تكمن في قدرتها على توحيد شعوب متباينة ثقافيا ، فسويسرة منقسمة ليس من الناحية اللغوية فقط بل من الناحية الدينية وجغرافيتها الطبيعية أيضا . فن الناحية اللغوية يتكلم أكثر من ٧٠٪ من سكانها باللغة الألمانية ، ١٩٪ منه باللغة الفرنسية . ١٠٪ باللغة الإيطالية وأقل من ١٪ باللغة الرومانشية Romunsh . أما من الناحية الدينية فلن حوالى ثلاثة أخماس السكان تدين بالبروتستانتية ويسكن معظمهم في المدن . أما الباقي فينتمون إلى الديانات الكاثوليكية الرومانية وينحسرون أساسا في المناطق الريفية . وينعكس هذا التنوع البشرى في عدم وجود ثقافة سويسرية أصيلة : فالعلماء والموسيقيون والكتاب الذين يتكلمون اللغة الألمانية يضمون عادة إلى الثقافة الألمانية كما أن الفرنسيين والإيطاليين السويسريين ينتمون ثقافيا إلى فرنسا وإيطاليا . أما جبال الألب فلها أيضا دور في تمزق سويسره لأنها أدت إلى تركيز السكان في أودية منفصلة عن بعضها البعض . ورغم هذه القوى الطاردة بقيت سويسره متماسكة مزدهرة ومتحدة .

فالنجاح الذى أحرزته سويسره في ضم هذه المجموعات المتباينة تحت راية الوحدة والتضامن يرجع إلى فترات تاريخية مضت . فقد كان سكان الشواطئ الشرقية لبحيرة لوزيرن يحتلون المدخل الشمالى لمر سان جوتهارد-St. Gotthard hard Pass . الذى كان يربط بين إيطاليا والأراضى الألمانية في القرن الثالث عشر . وقد أعفاهم إمبراطور الرومانية المقدسة من رسوم الاقطاعية نظير وعدهم بمنع الملاك المجاورين من السيطرة على الممر . ولكن هذه الحرية لم تدم كثيرا تحت حكم

سويسرة : التطور الإقليمي والتنوع العرقي



شكل (٢٥)

عائلة هايسبيرج القاسى مما أدى إلى عصيان الرجال الأحرار من أورى ١١١١
واوبفالدن ونيدفالدن Obwalden ، Nidwalden وشفير Schwyz لاستعادة حقوقهم
المسلوبة . ونجح التمرد وكانت ميلاد الكونفدرالية السويسرية . وأصبحت ذكرى
حرب الاستقلال هذه وبطل ملحمتها العظيم وليام تل William Tell وقودا
يؤجج الروح الوطنية ويذكى الشعور القومى . وفى مراحلها الأولى كانت اللغة
الألمانية هى لغة الدولة التى تركزت على البحيرة التى كانت تربط بين الكانتونات
المختلفة . واستلمت كانتون شفيز زمام القيادة مبكرا وأعطت اسمها المحرف
Schweiz (Switzerland) للدولة كلها . وزودت الجبال المحيطة بالبحيرة
الحماية الكافية للدولة الوليدة التى أخذت تقوى حتى استطاعت فى عام ١٣١٥ إلحاق
الهزيمة بقوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى مورفارتن ثم تبعها بنصر على
الحساويين فى سيباخ فى عام ١٣٨٦ مما قوى من مطالبتهم بالاستقلال ودعمها . وقد
شجعت هذه الانتصارات المتتالية الدول المدينية المجاورة مثل لوزيرن
Lucern وريوريخ وزوق Zug وبيرن Bern للانضمام للكونفدرالية السويسرية فى
القرن الثالث عشر . ومع هذه المرحلة الثانية للنمو الإقليمى أخذت المدن تسيطر على
المنطقة الريفية للكانتونات الأربعة Unterwalden . وفى عام ١٤٧٦ اشترى
السويسريون مدينة فينتور Wintertthur من عائلة هايسبيرج . أما مرحلة التوسع
الثالث فقد حدثت فى القرنين الخامس والسادس عشر وفيها تمت السيطرة على ممرات
جبال الالب ومناطق العبور على نهر الراين ، كما تم ضم منطقة تيسينو
Ticino الناطقة بالايطالية وفودا Valais الناطقة بالفرنسية . وقد كانت الشهرة
العسكرية السويسرية طاغية لدرجة أن البابا وآخرون كانوا يستأجرون جنودا مرتزقة
من الكونفدرالية للاستعانة بهم فى حروبهم .

ومع مرور الزمن تقوى « سبب الوجود » السويسرى الأصلى (أى الدعم المتبادل
للحفاظ على الحرية) بسبب وجود آخر وهو الوقاية من الحرب . وبعد انتهاء فترة
التوسع العسكرى حرصت سويسرة على تجنب الحروب التى اجتاحت أوروبا فى
القرون الثلاثة الماضية . ورغم تغلغل الديانة البروتستانتية فيها فقد استطاعت
سويسرا أن تتجنب حرب الثلاثين سنة وأيضا الحربين العالميتين . ويمكن أن نعزو نجاح

حيادها جزئيا إلى مناطق القلاع الجبلية 'Folks fortresses' التي يدافع عنها جيش احتياطي قوى يتكون من الذكور فيما بين العشرين والخمسين من العمر. أما الصراع الكامن بين المجموعات العرقية المختلفة فقد أمكن تفاديه بمنح مزيد من الحكم الذاتي المحلى للكانتونات وظلت الحكومة المركزية ضعيفة كما لم تحدث محاولات من الأغلبية الألمانية لفرض ثقافتها على الأقلية اللاتينية. وقد اعتقد السويسريون في وقت مضى بأن تجربتهم الناجحة في توحيد مجموعات متباينة من البشر ستكون ذات فائدة وقيمة لأوروبا والعالم أجمع، ولذلك قاموا بتدعيم ومساندة عصبة الأمم وقدموا مدينة جنيف كمقر لها. ونظرا للفشل الذريع الذي منيت به العصبة الدولية لم يأبه السويسريون بالانضمام للأمم المتحدة التي قامت على أنقاض المنظمة الدولية الأولى.

أما بلجيكا فهي أيضا تقع على جانبي الحدود بين اللغتين الرومانسية والألمانية التي تربط بين الفلمنك في الشمال والولون الفرنسيين في الجنوب، ولكن ميزة بلجيكا على سويسره أن سكانها يدينون بالديانة الكاثوليكية الرومانية. وقد سعت الدولة البلجيكية، التي لا تختلف كثيرا عن سويسره في مساحتها وقوتها العسكرية، إلى تقليد نجاح السويسريين في سياسة الحياد وتوحيد العناصر البشرية المتباينة، ولكنها باءت بالفشل ولذلك فإن هذه الدولة يهددها عدم الاستقرار نتيجة الصراع بين العنصرين البشريين الأساسيين اللذين يتكون منها سكانها.

ويمكن ملاحظة اختلافات عديدة بين سويسره وبلجيكا يمكن أن تفسر لنا التناقض في وضع الدولتين:

١ - فبلجيكا أحدث عمرا إذ يرجع نشأتها إلى عام ١٨٣٠ عندما انفصل سكانها الكاثوليكيون من هولنده التي كانت تحت سيطرة البروتستانت وقد كان البلجيكيون الناطقون بالفرنسية، الولون Walloons، يفضلون الانضمام إلى فرنسا أكثر من اتحادهم مع الفلمنكيين Fleming الجرمانين، ولكن بريطانيا وألمانيا وقفتا ضد تحقيق هذه الرغبة لمعارضتهم للتوسع الإقليمي لفرنسا.

٢ - لم تظهر بلجيكا إلى الوجود بناء على رغبة سكانها بل من خلال قرار اتخذته القوى العظمى. ولهذا فقد كانت تفتقر إلى سبب الوجود *raison d'être* لأن

الديانة الكاثوليكية برهنت على أنها كانت أضعف من أن تجمع بين العنصرين الأساسيين للسكان وتوحد بينهما وتزرع فيهم روح الانتماء لبعضهم البعض . كما كانت تفتقر إلى تلك العناصر الأخرى التي توثق الصلة بين أفراد الشعب مثل الكفاح المشترك من أجل الاستقلال والابطال القوميين الذين خاضوا غمار مثل هذه الحروب ومنطقة نواة . وقد وضح عدم أصالة الدولة البلجيكية بجلاء عندما تم انتخاب ملك ألماني لها حسب رغبة نفس الدولة الكبرى التي باشرت خلق الدولة نفسها .

٣ - واختلاف آخر يتمثل في فشل بلجيكا في الحفاظ على حيادها . فهي أنشئت أساسا كدولة عازلة Buffer State للسيطرة على ممرات الفلاندرز الاستراتيجية التي تعتبر الطريق العسكرى الطبيعى بين ألمانيا وفرنسا ، وحدث أن أغيرت بلجيكا مرتين خلال هذا القرن . ولم تهبا الطبيعة بجبال أو معازل طبيعية تساعدهم في الدفاع عن أنفسهم ولذلك فشلت الدولة في منح الحماية والملاجئ لسكانها من ويلات الحرب والدفاع عنهم عندما يتعرضون للخطر والغزو من الخارج . وفي ظل غياب قوى جاذبة موحدة أو ضعفها برزت قوة الطرد المتمثلة في التنوع اللغوى إلى المقدمة . ففي مراحل نشأتها الأولى ، كان الولوون الفرنسيون يكونون ٥٨٪ من سكان بلجيكا ويسيطرون على الدولة وفرضوا لغتهم الفرنسية على جميع السكان كلفة الدولة الرسمية الوحيدة وكان على كل من يتطلع إلى تبوء مكانة هامة أن يتكلم تلك اللغة وبقى الفلمنكيون أقلية مضطهدة ولكن بمرور السنين تفوقوا عدديا على الولوون نتيجة ارتفاع نسبة المواليد عندهم وأخيرا أصبحت لهم الاغلبية وازدادت لغتهم أهمية تبعا لذلك . ففي النصف الاخير من القرن التاسع عشر انشأت جامعة فلمنكية في مدينة غنت Gent وفي عام ١٨٩١ اخذت لغتهم تظهر بجانب اللغة الفرنسية على الطوايع والعملة القومية ثم كان نصرهم الاكبر حينما تم في عام ١٩٦٣ رسم حدود رسمية داخل بلجيكا تكون الافضلية شمال هذه الحدود للغة الفلمنكية (الشكل ٣٢) .

وقد شهدت الستينات حوادث عنف شديدة بين المجموعتين المتنافستين تمثلت في حرب الشوارع في مدينة بروكسل العاصمة حيث تسكنها أغلبية فرنسية رغم وقوعها

شمال الحدود اللغوية . كما احدث طلاب جامعة لوفان Louvain الفرنسية والواقعة في الاقليم الفلمنكى كثيرا من الشغب وأضربوا مؤيدين المطالب التى تنادى بجعل اللغة الفلمنكية لغة التعليم فى الجامعة واغلاق كلية اللغة الفرنسية وقد نجحوا فى مسعاهم وتم لهم ما أرادوه .

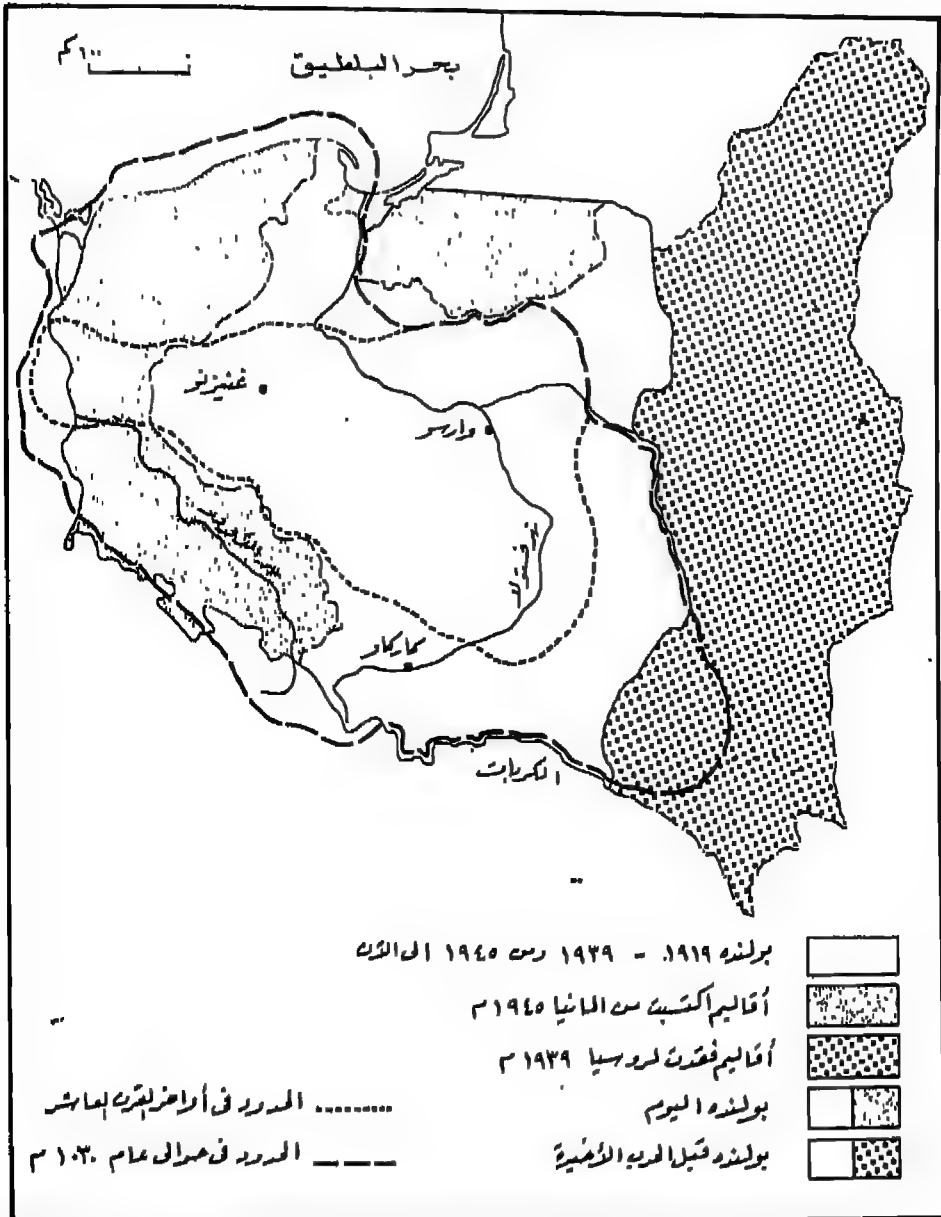
وهكذا يوجد شعبان داخل دولة بلجيكا ، ولكى تبقى الدولة وتستمر فعلى الحكومة أن تمنح الحكم الذاتى لكل مجموعة من المجموعتين المتصارعتين . وفعلا صوت البرلمان البلجيكى فى أغسطس ١٩٨٠ إلى جانب قرار يقضى بمنح الحكم الذاتى لأقاليمها والاعتراف بكامل الحقوق للفتتين المتصارعتين .

٦ - بولنده (بولونيا) : (الشكل ٣٦) .

برهنت أوروبا الشرقية بأنها أقل المناطق السياسية فى أوروبا استقرارا ، وكملتقى لغات عديدة متباينة مثل الصقلية (السلافية) والألمانية والرومانسية ، وديانات مختلفة مثل البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكس الشرقى والإسلام ، طورت المنطقة نمطا عرقيا معقدا أدى بدوره إلى ظهور مجموعة من الدول الصغيرة والضعيفة . وقد جرى التقليد عند علماء الجغرافية السياسية والسياسيين بتسمية هذه المنطقة « حزام التمزق ' Shatter Belt ' » اعترافا بهذا التجزؤ السياسى الذى تتميز به المنطقة . وفى هذا النطاق المتمزق تقع بولنده .

فى عام ٩٦٠ ميلادية اجتمع عدد من القبائل السلافية المحلية فى المنطقة الواقعة حول بحيرة غوبلو Goplo ومدينة غنيزنو ' Gniezno ' عند جنوب غرب منحى نهر فستولا الكبير لتكوين نواة الدولة البولندية ، وأعطت أكبر تلك القبائل اسمها « ' Polans or Poljane ' » إلى الدولة الناشئة ، كما أصبحت منطقة النواة تعرف باسم « بولنده العظمى ' Wielkopolska ' » . ثم أخذت بولنده تتوسع وفى أقل من مئى سنة امتدت حدودها جنوبا إلى جبال الكربات وغربا إلى نهر الأودر ' Odra ' وشمالا حتى ساحل البلطيق وشرقا حتى نهر بق ' Bug ' . ومن أسباب هذا التوسع السريع فى كل الجهات خلوها آنذاك من تنظيم سياسى منافس خارج وداخل الدولة . وكمثيلاتها من الدول الأخرى شهدت بولنده فترة تمزق وعدم استقرار

التطور الإقليمي لبولند



وضعف في الفترة ما بين ١١٤٠ إلى ١٣٣٣ وفقدت نتيجة ضعف حكومتها أجزاء من أراضيها في الغرب والشمال للفرسان التوتونيين Teutonic Knights الألمان . وتجاوبا مع هذا فقد والتقلص الإقليمي سحب البولنديون عاصمتهم إلى كراكو Krakow الواقعة عند سفوح جبال الكربات أى إلى الجنوب والشرق من غيرنو

وبعد هذه الانتكاسة دخلت بولنده عصرها الذهبي عندما أخذت قيادتها الطموحة تتوسع وتمتد في الفترة ما بين أواخر القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر وقد بدأ هذا العصر مع اعتلاء الملك كاسمير Casimir العظيم عرش بولنده ويشمل أيضا الوحدة التي تمت بينها وبين ليتوانيا في ١٣٨٦ .. وفي توسعهم ضم البولنديون أراضي تمتد من البلطيق حتى البحر الأسود ومن لاتفيا وأستونيا إلى نهر الدنيبر . كما تم القضاء المبرم على الفرسان التوتونيين وضم كل بروسيا الشرقية والمطقة التي عرفت فيما بعد بالرواق البولندي . وهكذا أصبحت بولنده أكبر دولة في أوروبا ونخضعت تحت سلطان ملوكها شعوب أخرى مثل الألمان والأكرايين وشعب روسيا البيضاء والليتوانيين ومجموعات أخرى .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ظهرت دول منافسة قوية حدثت من عظمة بولنده ، مثل الدولتان الألمانيتان ، بروسيا والنمسا من الغرب ودولة سلافية قوية هي روسيا من الشرق . وفي الجزء الأخير من القرن الثامن عشر تعرضت بولنده إلى ثلاثة تقسيمات وضمت الدولة المنافسة أجزاء من بولنده إلى أراضيها إلى أن اختفت الدولة البولندية من خريطة القارة . وقد لعب موقعها في السهل الأوروبي العظيم وخلوها من مناطق دفاعية إلى انهيارها التام تحت ضغط جاراتها القوية ، وظهرت معادلة قاسية تحكم مصيرها :

ألمانيا قوية + روسيا ضعيفة = بولنده تسيطر عليها الألمان.

ألمانيا ضعيفة + روسيا قوية = بولنده تسيطر عليها الروس

ألمانيا قوية + روسيا قوية = لا وجود لبولنده

وشهد القرن الثامن عشر ولادة دولتين ألمانيتين قويتين وروسيا قوية مما أدى إلى اختفاء بولنده من الخريطة . ثم ظهرت الدولة البولندية لفترة وجيزة عندما هزم

نابليون بروسيا والنمسا وروسيا ولكنها وقعت للمرة الثانية تحت سيطرتهم بعد عام ١٨١٥ م .

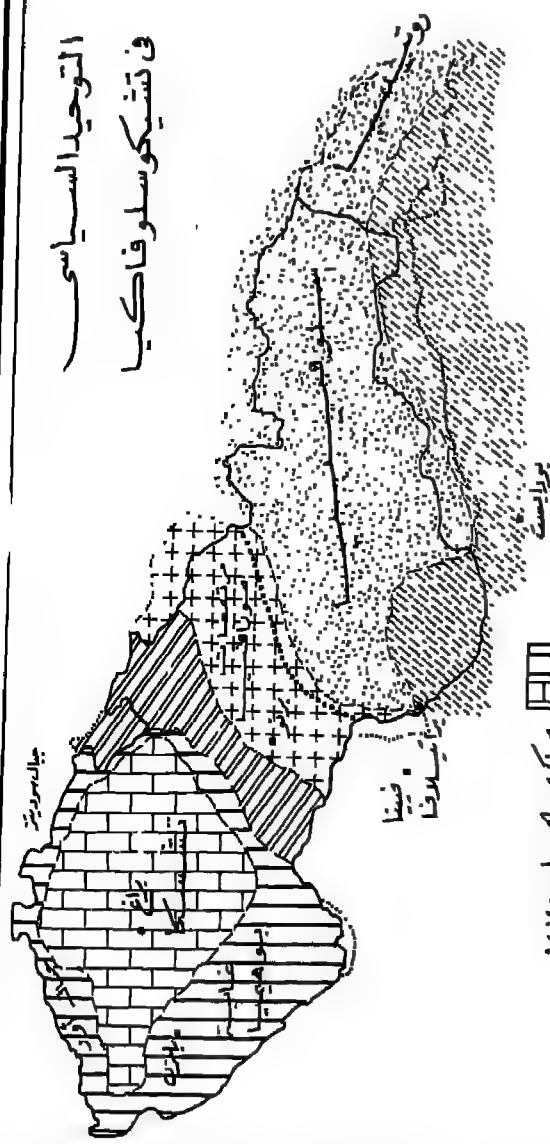
وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى حدث وضع أصبحت فيه ألمانيا وروسيا دولاً ضعيفة ، وفي غياب هاتين الدولتين ظهرت بولندة من جديد ، ولكنها اختفت للمرة الثانية في عام ١٩٣٩ نتيجة تقسيمها بين الجارتين القويتين : روسيا وألمانيا اللتين استعادتا قوتيهما بعد الحرب وقامتا بالسيطرة على بولندة . وأثناء الحرب العالمية الثانية حقق الغزو الألماني وضعاً مؤقتاً أصبحت فيه ألمانيا قوية وروسيا في موقف الضعف أي المعادلة الأولى وظهرت دولة بولندية تابعة تحت الاحتلال الألماني . ولكن النتيجة النهائية للحرب كانت المعادلة الثانية : فقد انهزمت ألمانيا وخرجت روسيا منتصرة وقوية وتحت سيطرتها ولدت الدولة البولندية من جديد عام ١٩٣٥ م . ومنذ ذلك الوقت ما زالت بولندة تحت سيطرة الروس . وقد بدأ اعتماد بولندة على روسيا عندما منح ستالين لبولندة ربع الإقليم الألماني قبل الحرب والذي يتكون من سايليزيا Schelsien (Silesia) وبوميرن Pommern وبروسيا الشرقية Ostpreussen بعد طرد الألمان منها . وكان على بولندة الاعتماد على الحماية الروسية لتحفظ بهذه الأراضي الجديدة ، وأصبحت حدود بولندة الجديدة موازية لحدودها في عامي ١٠٠٠ أو ١١٠٠ ميلادية .

ويبدو من هذا السرد أن مصير بولندة تتحكم فيه قوى خارجية . ففي أيام محنتها لم تنفع الأحلاف التي عقدتها مع فرنسا والمملكة المتحدة ، ورغم ما تتمتع به بولندة الحديثة من وحدة داخلية مبنية على اللغة والدين وتاريخ طويل فإنها ليست دولة مستقلة بالمعنى المفهوم للاستقلال ، ويبدو أن الصراع الحالي بين عمال ومزارعي ومثقفي الشعب البولندي والحكومة ما هو إلا انعكاس لهذا الوضع المزري لهذا الشعب .

(٧) تشكوسلوفاكيا : (الشكل ٣٧) .

كانت مشكلة تشكوسلوفاكيا التقليدية تكمن قبل الحرب الثانية في موقعها بين مجموعات ألمانية عديدة لأن السيطرة السوفيتية عليها لم تحدث إلا بعد الحرب الأخيرة .

التوحيد السياسي في تشيكوسلوفاكيا



- حدود رقاعية لتسكتا الشعبية
- بوسيميا
- تخفيض مورافيا
- جبال الكريبات
- مرفق المير

مملكة بوسيميا ١٤٧٥

- الحدود بين اللغة التشيكية والسلوفاكية
- حدود تشيكوسلوفاكيا الحالية
- مناطق إثنوغرافية طلابية تشيكوسلوفاكيا بوليسا
- الحدود الروتينية (ضمنية إلى روسيا بعد الحرب الثانية)

١٠٠ كم
١٠٠ ميل

وقد استطاع التشيك من المحافظة على كينونتهم الثقافية وتطوير دولة التشيك Ceske في حوالى عام ٩٠٠ ميلادية فى قلعة بوهيميا الشعبية Lolk fortress الواقعة بين النمسا والسهل الألماني الشمالى. وقد استطاعت مجموعة تعرف بالبريمسليدز Premyslids ، التى كانت تأخذ منطقة براغ قاعدة لها ، من إلحاق الهزيمة بقبائل منافسة وتوحيد التشيك ومورافا داخل حدود شبيهة بالحدود التشكوسلوفاكية الغربية . ثم أصبحت تشيك مملكة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ولكنها احتفظت بوضعها المستقل حتى عام ١٥٢٦ عندما ضمتها عائلة هايسبيرج للنمسا . وفى عام ١٩١٨ ظهرت تشيك باسم تشكوسلوفاكيا للمرة الثانية بعد ضم أجزاء من ما تبقى من الإمبراطورية النمساوية المجرية ، ولكن حدث أخطاء فى مرحلة تكوين الدولة الجديدة . وأكبر هذه الأخطاء فداحة هو ربط التشيك سياسيا مع السلوفاكيين والروثنيين Ruthenians ليكونوا دولة قومية طويلة وضعيفة وتحتوى على مجموعات سلافية مختلفة .

فقد ضحت الدولة الحديثة بتلك الوحدة العرقية والتكتل المساحى التى كانت تشيك الأصلية تتمتع بها . ثم أضيف لإقليم سوديت 'Sudetenland' التى يسكنها الألمان إلى الدولة الجديدة وتم ربط هذه الأقاليم المتنافرة عرقيا بشبكة فقيرة من النقل الداخلى، وكان ضم النمسا للرايخ الألماني على يد هتلر فى عام ١٩٣٨م يعنى وجود الألمان حول تشيك ومورافا من ثلاثة جوانب ولم يمض وقت قصير حتى حدث الانقسام والتجزئة . فقد ضم الجزء الغربى إلى ألمانيا أو أصبحت محمية ألمانية ، بينما تحولت سلوفينا إلى دولة منفصلة تابعة لألمانيا . وبعد نهاية الحرب وهزيمة ألمانيا عادت الدولة التشكوسلوفاكية إلى الظهور ولكنها لم تنعم باستقلالها طويلا ، فقد وقعت ، مثل بولندا ، تحت السيطرة السوفيتية وباءت محاولة الاسكندر دوبشيك لاستعادة نوع من الاستقلال والحرية للدولة بالفشل على أعقاب الغزو الروسى فى عام ١٩٦٨م .

(٨) يوغوسلافيا :

هناك أوجه شبه كثيرة بين يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا : فكلا الدولتين ظهرت

في العصور الوسطى وسط مجموعة سلافية . ثم ازدهرتا لفترة قل اختفائها ليعاد تكوينها مرة أخرى في القرن الحالى كدولة سلافية متعددة اللغات . وقد نال الصرب استقلالهم في عام ١١٨٠ عندما كانت الإمبراطورية البيزنطية تندهور . وكانت دولتهم تقوم في منطقة Puliia أى المنخفضات الدينايية الحصة حول المركز الدينى في بيكى Pec . وبعد أربعين عاما تقلد حكام الصرب Serbia لقب الملك ووصلت الدولة قمة مجدها في منتصف القرن الرابع عشر عندما بلغت حدودها إلى البحرين ، الإديرياقى وإيجيه . ولكن الدولة اندثرت بعد هزيمة منكزة على يد الأتراك في عام ١٣٨٧ ، لتعود للظهور مرة ثانية في عام ١٨١٧ ولكن كدولة تابعة للأتراك . . ثم نالت استقلالها التام في وقت لاحق من نفس القرن .

وقبل الحرب العالمية الأولى أخذ الصرب ينادون بالوحدة السلافية-Pan-Slavism أو التضامن السلافى واحتجوا بوجه خاص على المشاكل التى يتعرض لها السلاف الجنوبيين تحت حكم الامبراطورية النمساوية - المجرية . وقد جى الصرب ثمار احتجاجهم اذ ظهرت بعد الحرب دولة صربية اكبر حجما : دولة سلاف جنوبيين تضم ليس الصرب فقط بل الكرواتيين Croats والبوسنيين Bosnians والمقدونيين Macedonians وغيرهم : فكلمة «يوغسلافيا Yugoslavia أو Jugoslavia تعنى فى الاصل «أرض الصقالبة» (السلاف) الجنوبيين Land of the South Slavs كما صمت ديانات مثل الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذكسية الشرقية والاسلام .

ولكن هذا الاتحاد لم يخالفه النجاح التام . فهذه المجموعات المتباينة من الشعوب من الصعب توحيدها وصهرها في بوتقة دولة واحدة . فتماسك يوغسلافيا الحالى ووحدتها يرجع إلى شعبية رئيسها السابق جوزيب بروز تيتو قائد المقاومة ضد الاحتلال الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد حاول تيتو التغلب على الاختلافات العرقية الإقليمية بمنح حكم ذاتى لكل مجموعة ثقافية لتدبير شئونها الخاصة . فحدود الجمهوريات والمقاطعات داخل الدولة مرسومة على طول الخطوط اللغوية والدينية ، والجمهوريات تتمتع بحكم ذاتى كبير . ولكن هناك مشكلة مازالت متعلقة بدون

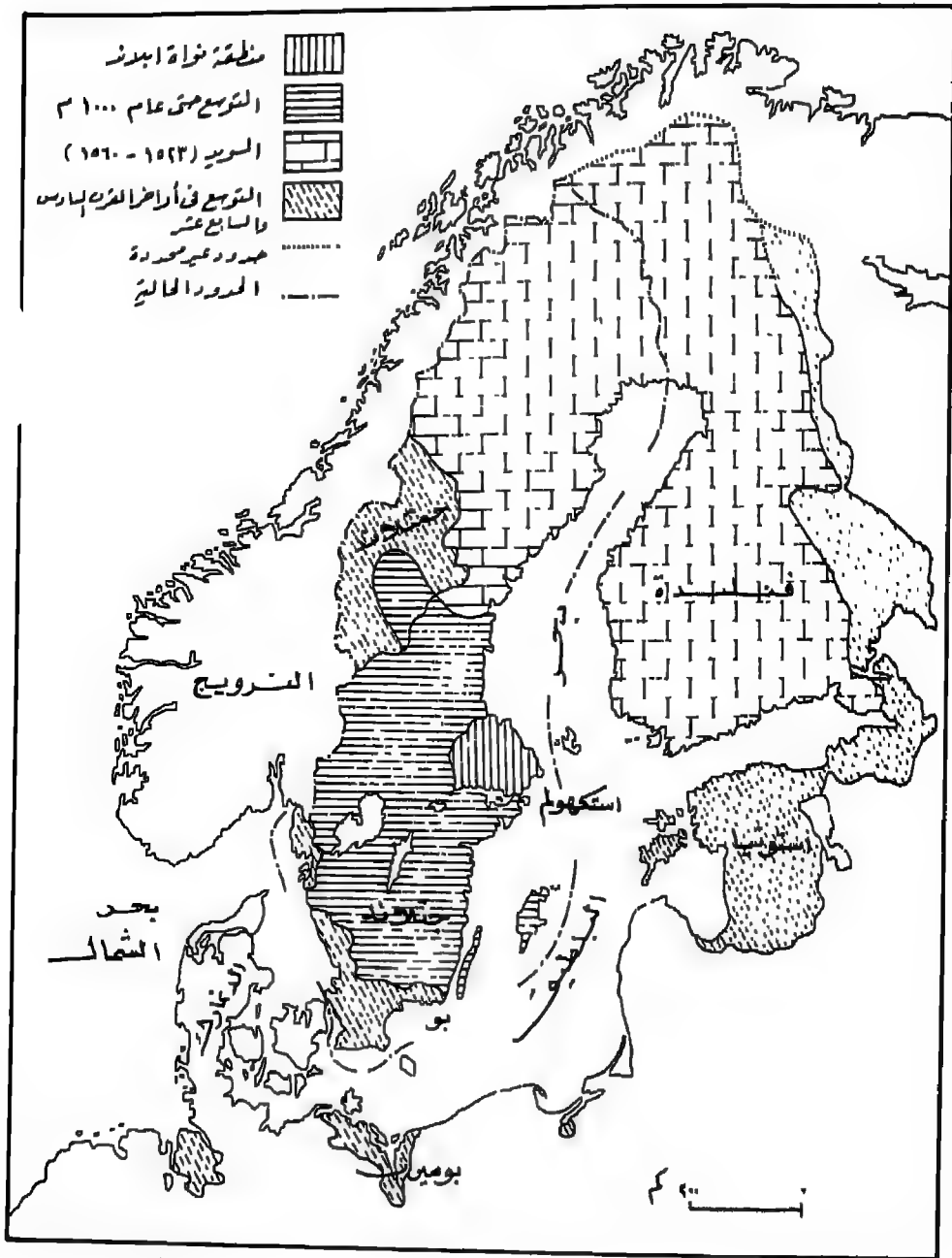
حل : مشكلة المنافسة بين الصرب والكروات لما لديهم من تقليد قديم للاستقلال السياسى يرجع إلى العصور الوسطى . فالكرواتيون الذين يسكنون فى الجمهورية التى تحمل اسمهم « كرواتيا Croatia » يشعرون بأن جزءا كبيرا من دخل جمهوريتهم الغنية نسبيا تذهب إلى الحكومة المركزية التى تنفقها على الجمهوريات الجنوبية الفقيرة مثل مقدونيا . كما انهم يتدمرون من السيطرة السياسية لبلغراد الصربية ومن صورة يوغسلافيا نفسها كامتداد لدولة الصرب (صربيا) القديمة . وهذا الامتعاض والتذمر من الصرب يفسر لنا لماذا قبل الكروات عن طيب خاطر وضعهم كدولة منفصلة تابعة للألمان أثناء الاحتلال الألمانى ليوغسلافيا خلال الحرب الثانية . وربما يحاول الكروات الانفصال من الدولة اليوغسلافية بعد وفاة تيتو وهل يطلبون مساندة الروس هذه المرة ؟ فالاختلاف الأساسى بين الصرب والكروات اختلاف دينى ولو أنهم ينتمون إلى كنائس مختلفة فأهل كرواتيا معظمهم يتبعون الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بينما يتبع الصرب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية .

أما لغتهم فهى لغة واحدة ، وهناك مشاكل أخرى تواجه الدولة اليوغسلافية مثل نزاعات الحدود بينها وبين بلغاريا وألبانيا ، فبلغاريا تشعر أن الصقالية المقدونيين ينتمون إلى بلغاريا بينما ترغب ألبانيا فى ضم منطقة كوسوفو - ميتوهيا Kosovo - Methoja فى جنوب يوغسلافيا والتى يتكلم سكانها اللغة الألبانية إليها .

(٩) السويد والدنمارك : (الشكل ٣٨) .

وصل إقليم أوروبا مجده السياسى على يد دولتين صغيرتين هما الدنمارك والسويد . فى منتصف القرن العاشر الميلادى وفى شبه جزيرة جيلاند Jylland تمت الوحدة لدانمركية على يد قبيلة كانت تتخذ مدينة جيلينج Jelling القديمة مقرا لها . ثم نهجت أنظار الدنماركيين فى البداية نحو بحر الشمال اذ عبروا البحر وحكموا إنجلترا كلها للفترة ما بين ١٠١٤ إلى ١٠٤٢ تحت ملكهم كنوت Canute ثم تحولوا باهتمامهم إلى الشرق إلى جزر أرخبيل البلطيق المجاورة والجزء الجنوبى من السويد الحالية وأثناء هذه العملية أخذوا يركزون اهتمامهم أكثر على

التوسع والتقليص الإقليمي للسويد



الأراضي القريبة من مضيق بحر البلطيق وبالأخص على جزيرة زييلاند Sjaelland . ثم خلفت مدينة روسكيلد Roskilde ثم كوبنهاجن جلنچ القديمة كعاصمة للدولة . اما محاولاتها لتصبح القوة الرئيسية في هذه المنطقة عن طريق ضم اراض متباعدة مثل استونيا وبوميرن Pommern ومكلنبرج Mecklenburg تحت سيطرتها ، فكان مصيرها الفشل لتصدى الألمان والسويد ومعارضتهم لمثل هذه السياسة التوسعية . ومن ثم استقرت الدنمارك في وضعها الحالي كدولة صغيرة وضعيفة عسكريا . وقد وجدت الدنمارك بعض الحماية من موقعها الجزرى وشبه الجزرى ويعزى وحدتها الحالية إلى اللغة الواحدة والعقيدة اللوثرية . أما الملكية فقد فقدت معناها ومغزاها القومي لتعاونها مع الغزاة الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية . أما السويديون فقد اتخذوا مدينة Upsala الواقعة في إقليم ابلاند Uppland مقرا لهم في البداية ويرجع تاريخ احتلالهم للقبائل المجاورة ومن ضمنها الغوط Goths إلى حوالى القرن السابع الميلادى أو قبله وكان لابد للدول السويدية الباقية أن تتجه بأنظارها إلى الشرق نحو بحر البلطيق لأنها وجدت طريقها للوصول إلى ممرات كاتيفات Kattegat وسكاجراك Skagerrak والتي تربط بين بحر البلطيق وبحر الشمال ، مقفولة بالإقليم النرويجي والدنماركي . فقد كانت الدنمارك تحتل حتى عام ١٦٥٨ أغنى مناطق السويد الحالية زراعيًا ، وهى اسكانيا . ولكن الأقاليم التي صممتها السويد إلى ممتلكاتها كانت كبيرة وتشمل فنلندة (١٢٥٠) كاريليا الجنوبية Karelia (١٣٠٠) واستونيا Estonia (١٥٦١) ولاتفيا Latvia (١٦٢١) وبعض المناطق الساحلية من ألمانيا (١٦٤٨) . كما امتد نفوذها إلى داخل روسيا على طول الطرق النهرية التجارية المؤدية إلى الأجزاء الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . ولكن هذه العظمة السياسية لم تدم طويلا إذ ظهرت دولتان قويتان هما روسيا وألمانيا اللتان ضمتا أجزاء كبيرة من الأقاليم السويدية ، وإزاء هذا التهديد والتوغل الإقليمي اتعت السويد سياسة حيادية ناجحة وقد ساعدها في هذا الاتجاه موقعها الهامشى بعيدا من منطقة الصراع الأساسية في وسط وشرق القارة وموقعها المحمى بواسطة بحر البلطيق . ويرجع سبب وحدتها الحالية جزئيا إلى التناغم اللغوى الذى تتمتع به السويد إلا من أقليات يورالية

Uralic ولاية Lapp ، فنلندية وهي أغلبية ضئيلة لا يمكن ان تصبح مصدر قلائل سياسية . ولكن نقطة ضعفها كدولة سياسية تعبر عن اللغة السويدية تكمن في عجزها عن استعادة السكان الناطقين بهذه اللغة والذين يسكنون المناطق الساحلية من فنلنده وجزر الالند (Ahvenamaa) Aland . ومع اللغة يبقى الدين من عوامل الوحدة السويدية ، فالسويد من أوائل الدول التي تبعت المذهب البروتستانتي وهي تتذكر بفخر دورها في الحفاظ على هذه الديانة إبان حرب الثلاثين سنة واليوم يتمتع السويديون بأعلى مستوى معيشي في أوروبا مما يقوى من مساندة الشعب وتلاحمه كما يخلو المجتمع من تباينات طبقية قد يؤدي إلى تمزيقه وتفتته .

(١٠) قبرص :

تتمتع هذه الجمهورية بوضع نادر : فرغم انها من أقدم مهد الحضارات في منطقة البحر المتوسط ، ورغم موقعها كملتقى طرق بين حضارات الشرق الادنى وحضارات أوروبا فهي لم تتمتع بحكومة ذاتية في تاريخها الطويل إلى أن نالت استقلالها من بريطانيا في ستينات هذا القرن . فقد خضعت الجزيرة في وقت أو آخر لحكم وسيطرة كل القوى الكبرى التي سادت على هذه المنطقة . من آشوريين ويونان وفينقيين ومصريين وفرس ورومانيين وبيزنطيين وعرب ، وأتراك وبريطانيين ومما يبعث على الدهشة أن واحدة من هذه القوى لم تحلف نفوذا وأثرا على هذه الجزيرة إلا الأتراك واليونانيين الذين تركوا بقايا عرقية من فترة سيطرتهم عليها ولهذا نجد أن سكان الجزيرة يتكونون من عنصرين متنافرين : أربعة أخماس منه من الإغريق الكاثوليكين والخمس من الأتراك المسلمين .

وقد تجنبت قبرص بفضل الادارة البريطانية التي بدأت في عام ١٨٧٨ أن تكون طرفا في الحرب الطويلة التي دارت بين اليونان وتركيا فقد أراد البريطانيون أن تكون الجزيرة محطة تحرس المدخل الشمالي لقناة السويس ولذلك احتفظوا بها . ولكن تأميم قناة السويس على يد قادة ثورة يوليو في مصر ثم حركة الاينوسيس Enosis ضد الاستعمار أفقدت الجزيرة اهميتها بالنسبة للإنجليز الذين سارعوا في عام ١٩٦٠ منحها الاستقلال تاركين الجزيرة في وضع يحسد عليه .

ولكن الصراع اليوناني - التركي الذي بدأ في أواخر الحكم البريطاني ما زال يشكل المشكلة الأساسية لهذه الجمهورية . فالليونانيون الذين يكونون أغلبية سكان الجزيرة يفضلون الوحدة مع اليونان بينما يطلب الأتراك إما الاستقلال التام للجزيرة مع منحهم صوتا أكبر في الحكومة أو تقسيم الجزيرة إلى منطقتين يونانية وتركية وتوحيد كل جزء مع الدولة الأم .. الجزء التركي مع تركيا والجزء اليوناني مع اليونان . وهذا التقسيم يستحيل تنفيذه إلا عن طريق النقل الإجباري للسكان لأن الوضع الحالي للسكان في الجزيرة يحول دون ذلك .. فقد اختلط السكان من الجاليين في كثير من المناطق وقد يؤدي التقسيم إلى كثير من المعاناة والمشاكل الإنسانية التي شهدتها أوروبا بعد الحرب ، وقد ساعد في تصاعد المشكلة وتفاقمها احتلال تركيا بعد انقلاب لأجزاء من الجزيرة كانت تتبع للقبارصة اليونانيين قبل الانقلاب . وما زالت المناقشات دائرة في حل هذه المعضلة : القبارصة الأتراك الذين يحتلون مناطق كانت أصلا تابعة للقبارصة اليونان .

(٥) نظرية الصراع بين المنطقة المركزية والمنطقة الهامشية

Heartland - Rimland Contest

سلكت دراسة الجغرافية السياسية لقارة أوروبا اتجاهين :

- (١) اتجاه يركز في دراسة الدول والقوى الداخلية والخارجية التي تؤثر في نمو هذه الدول واضمحلالها كما أوضحنا في النماذج التي اخترناها للدراسة .
- (٢) اتجاه آخر يتناول بعض الأنماط العامة وبالأخص إمكانية بعض القوى في السيطرة على كل القارة أو بعض أجزائها .

لم يحدث أن وقعت أوروبا تحت السيطرة العسكرية لدول كبرى إلا خلال فترات قصيرة عندما استطاع نابليون الفرنسي وهتلر الألماني من إخضاع أجزاء من القارة تحت سيطرتها . ورغم أن هذه السيطرة لم تدم طويلا فإن بعض الجغرافيين السياسيين يؤمنون بوجود إمكانية حقيقية لسيطرة أوروبا من قبل قوة كبرى واحدة . ومن النظريات الشائعة التي تؤيد هذا الرأي نظرية الجغرافي البريطاني هالفورد ماكيندر Halford Mackinder التي اقترحها عام ١٩٠٤ ثم أدخل فيها

بعض التعديلات في عام ١٩١٩ ، وأصبحت تعرف بنظرية قلب اليابس-Heartla and Theory (الشكل ٣٩) .

يرى ماكيندر أن أوراسيا ستكون القاعدة التي ينطلق منها الغزو على بقية أجزاء العالم لسببين : أولا لأن هذه القارة كبيرة الحجم وذات موارد متنوعة وكثيرة ولأنها تحتوي على حوالي ٨٠٪ من سكان العالم ، وثانيا بعد الدراسة المتأنية للقارة اكتشف ماكيندر إقليمين آخرين ، منطقة مركزية داخلية Heartland ومنطقة هامشية ساحلية أو هلال هامشي حول طرف القارة . ويعتقد ماكيندر أن المنطقة المركزية هي التي تملك إمكانية أكبر تؤهلها لقيادة حملة لغزو العالم يساعدها في ذلك الموقع الداخلي الذي يجعلها في منأى من أى قوة بحرية ، أما منطقة الهلال الهامشي والتي تشمل أوروبا فهي أكثر تعرضا للغزو من قبل قوة عسكرية برية . وعن طريق عمليات دفع متكررة من المنطقة المركزية في اتجاه خارجي ستصبح منطقة الهلال الهامشي وقوتها البحرية خاضعة لهذه القوة الداخلية ، وتصبح المنطقة المركزية قوة بحرية بعد أن تضم إليها المناطق الساحلية ومن ثم توجه هذه القوة البحرية ضد القارات والجزائر المجاورة حتى يصبح العالم كله تحت سيطرة هذه القوة المركزية . وسيحدث الاحتلال المبدئي للمنطقة المركزية في أكثر الاحتمالات من قبل قوة تتخذ من السهل الأوروبي الشرقي قاعدة لها لأنه يمثل أكثر أجزاء المنطقة المركزية اكتظاظا بالسكان وأعظمها من ناحية الإنتاج الزراعي . ويلخص ماكيندر نظريته في الآتي : -

- (١) أن من يحكم أوروبا الشرقية يسيطر على المنطقة المركزية .
- (٢) ومن يسيطر على المنطقة المركزية يسيطر على أوراسيا .
- (٣) ومن يسيطر على أوراسيا يسيطر على العالم .

وفي الوقت الذي كتب فيه ماكيندر ونادى بنظرية هذه كانت الدولة الروسية قد أنجزت الخطوة الأولى من النظرية ، وعندما تبنت روسيا المبدأ الشيوعي كأساس لنظامها السياسي وأخذت تنادى بالأهمية الشيوعية وتزحف على دول أوروبا الشرقية وتتوسع شرقا نحو سيبيريا والشرق الأقصى وآسيا الوسطى لقيت نظرية المنطقة المركزية



(۲۹) شك

رواجا واهتماما كبيرين . فالنظرية تنادى أو توحى بمجتمعية السيطرة الشيوعية على العالم . ولكن هذه النظرية مليئة بالأخطاء وأهم هذه الأخطاء هو أنها تهمل أو تسقط من عدادها دور قوة الطيران والصواريخ الموجهة والأسلحة النووية . ويمكن أن نعذر ماكيندر لتجاهله هذه الابتكارات التي تكون أساس الحرب الحديثة . ، فالفترة التي صاغ فيها نظريته (١٩٠٤) كانت فترة حروب تقليدية . ولكن أحد مستمعيه أشار إلى أهمية الطيران في المستقبل وأنه سيكمل وسائل النقل البرية (السكة الحديد) والبحرية . ومتى تم ذلك فإن السيطرة والقوة ستكونان من نصيب الدول الصناعية . . وليس مهما أن يكون موقع هذه الدول في أواسط القارات أو على الجزر . . لان الشعوب التي تملك القوة الصناعية وقوة الابتكار والعلم هي التي في النهاية ستتمكن من إلحاق الهزيمة بالآخرين .

وتكمن قيمة نظرية ماكيندر في أنها قادت إلى نظرية أخرى هي نظرية المنطقة الهامشية Rimland Theory التي نادى بها أمريكي يدعى نيقولا أسبيكان Nichols I Spvckman في كتاب له ظهر في عام ١٩٤٤ بعنوان « جغرافية السلام Geography of Peace » وقد شعر أسبيكان بأن قيمة المنطقة المركزية قد أعطيت أهمية أكثر مما تستحق لأن هذه المنطقة في رأيه تتكون من :

- (١) أصقاع ذات كثافة سكانية متخلخلة .
- (٢) تتكون في معظمها من أراضي غير صالحة للزراعة من صحارى وتندرا وغابات صنوبرية .
- (٣) أقل الأماكن صلاحية لتكون قاعدة لغزو العالم منها .

وهو يشارك ماكيندر في اعتقاده بأن أوراسيا هي القارة المركزية ولكنه يختلف عنه في أنه يضع قيمة أكبر على منطقة الهلال الهامشية أو المنطقة الهامشية Rimalnd كما أسماها . وتحتوى هذه المنطقة الهامشية على ثلثي سكان العالم وموارد طبيعية ضخمة وتشمل بالتقريب كل شعوب ودول أوروبا . وهكذا عكس أسبيكان نظرية ماكيندر إذ ينادى بالآتى : -

من يحكم المنطقة الهامشية يحكم أوراسيا

Who rules the rimland rules euroasia

Who rules Euroasia rules the world

من يحكم أوراسيا يحكم العالم

ولكن المنطقة الهامشية هذه تعد من أكثر المناطق المجزئة سياسيا في العالم وتوزع قوة المنطقة بين دول عديدة منفصلة مما يقلل من فعاليتها وأهميتها كقوة ضاربة . ويقول اسبيكمان بأن طاقات الدول الواقعة خارج المنطقة الهامشية مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يجب أن توجه لتزريق وتجزئة هذه المنطقة ، فقد كان شعور اسبيكمان نابعا من تخوفه من تحالف ألمانيا النازية والإمبراطورية اليابانية حول خطة مشتركة للزحف عسكريا والالتقاء في الهند .. أى كان يخاف من إمكانية توحيد المنطقة الهامشية على يد دول قوية مثل اليابان وألمانيا مما يسبب كارثة على الدول الأخرى ويمهد لاحتلال العالم .. ولهذا فهو ينصح بأن تسعى هذه الدول الكبرى إلى تفتيت هذه الجهود نحو الوحدة .

ولكن إذا نظرنا لميزان القوى في عالم اليوم والذي تلعب فيه أوروبا دورا مهما ، فهناك ثمة اختلاف من توقعات هذين المؤلفين الكبيرين ، ماكيندر واسبيكمان ، ورغم وجود أدلة على تأثير رأى ونفوذ المؤلفين على كثير من الأحداث ، فالصراع الكبير بين الاتحاد السوفيتي والغرب يمثل ، كما تنبأ ماكيندر ، الصراع بين المنطقة المركزية Heartland والمنطقة الهامشية Rimland . ولكن المنطقة المركزية لم تقم بالسيطرة المتوقعة على العالم كما أن القوة الجوية والنوية أصبحت هى القوة الضاربة أكثر من القوات البرية والبحرية أما اسبيكمان فقد تأثرت بنظريته السياسة الخارجية الأمريكية التى تركز جهودها لمنع توحيد المنطقة الهامشية على يد الشيوعيين وتترك المنطقة المركزية التى لا قيمة سياسية لها مسرحا للسيطرة الشيوعية . ولكن تنبؤ عن تحالف سوفيتي أمريكي للحيلولة دون توحيد المنطقة الهامشية لم يتحقق بعد .

بعد الحرب وقعت أوروبا في خضم الصراع بين المنطقتين ، المركزية والهامشية . فالدول الأوروبية كانت تحتل مركزاً مرموقاً في الشؤون الدولية في الفترة التى سبقت لحرب العالمية الثانية حين أصبحت القرارات التى تؤثر في مصير الشعوب تتخذ في

لندن وباريس وبرلين وروما وأصبحت أوروبا بؤرة النشاط السياسى آنذاك . ومع نهاية الحرب تقلص نفوذ الدول الأوروبية وضعف البعض ، حتى الدول التى خرجت منتصرة من الحرب لم تعد قوية كما كانت قبل الحرب ، وفى فترة الضعف هذه فقدت أوروبا مكائتها السياسية المرموقة كما انهارت الإمبراطوريات التى بنتها ولم تعد لديها القدرة ليس على تقرير مصير أفريقيا ومناطق النفوذ الأخرى فحسب بل فقدت التحكم فى مصيرها السياسى وأصبحت القرارات التى تحكم مصيرها وشعوبها تتخذ بعيدا فى واشنطن وموسكو . ومثلما انحدرت ألمانيا من دولة محور قوية إلى عازلة ضعيفة أصبحت أوروبا كلها منطقة مجابهة بين قوتين عظميين غير أوروبيتين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . فقد خرجت أوروبا منهوكة ومحطمة من حربين مدمرتين وكساد اقتصادى ، وحرمت من الملايين من خيرة شبابها . وهكذا وفى عام ١٩٤٥م تحولت القارة إلى مجموعة من دول ضعيفة من الدرجة الثانية والثالثة ، وقد اغتصمت الدولتان العظميان الفرصة لملء الفراغ الذى نتج من انهيار القوة السياسية الأوروبية .

وقد تكونت المجابهة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى الأربعينات عند الخط الذى عرف فيما بعد بالستار الحديدى . ويمتد هذا الخط الفاصل من مدينة لوبك على بحر البلطيق إلى مدينة تريستا على البحر الأدرياتي مارا عبر أوروبا الوسطى ويطابق مجموعة من الحدود التقليدية التى كانت تفصل منذ مدة طويلة بين الشرق والغرب فى هذه القارة ، فخط المجابهة بين الرومان والقبائل البربرية إبان القرون الأولى من العصر المسيحى، وبين الشعوب السلافية والألمان بعد هجرة الشعوب . وبين ألمانيا الأصلية وألمانيا المستعمرة ، وبين المزارعين الأحرار وبقايا الاقطاعية فى القرن التاسع عشر - قد سبقت هذه الحدود التى تفصل اليوم بين الدول الديمقراطية والدول الدكتاتورية ، والشيوعية وغير الشيوعية عند نفس هذا الخط تقريبا ، ولكن الاختلاف الوحيد يكمن فى أن المتصارعين الأوائل كانوا أوروبيين فيما متنازعو اليوم من خارج القارة . (الشكل ٤٠) .

ورغم استعادتها الاقتصادية بعد الحرب فقد ظل الوضع السياسى لأوروبا كما

كان .. فقد رأت دول أوروبية أن مصلحتها تكمن في بقائها محايدة في الصراع الدائر بين الشرق والغرب وتتطور تدريجيا إلى كتلة ثالثة تتكون من دول محايدة ومتحالفة ، وذلك بتوحيد إمكاناتها البشرية الهائلة حتى تستعيد قوتها وتبقى بعيدة من سيطرة الأمريكان والسوفييت .

إن محاولات التحرر أو الانفكاك من سيطرة السوفييت لم تكلل جميعها بالنجاح : فقد استطاعت يوغسلافيا التحرر من السيطرة الشيوعية السوفيتية في عام ١٩٤٨م ثم تبعتها ألبانيا مؤخرا ، ولكن محاولات تشكوسلوفاكيا والجر المائلة فشلت تحت قمع الدبابات السوفيتية مع أن رومانيا استطاعت أن تحافظ على استقلالها وردع التدخل السوفيتي جزئيا في شئونها الداخلية . أما من الناحية الغربية من الستار الحديدي فقد احتفظت سويسره والسويد بحيادهما التقليدي وانضمت إليهما فرنسا التي انسحبت من حلف ناتو NATO الذي يسيطر عليه الأمريكان . أما النمسا وفنلنده فقد أتاحت لهما الفرصة لإقامة حياد في النطاق الفاصل بين الشرق والغرب .. فقد قسمت النمسا بعد الحرب إلى أربعة قطاعات عسكرية ولكن الدول المحتلة انسحبت منها في عام ١٩٥٥م وجعلت منها دولة محايدة . وفي عام ١٩٥٢م استطاعت فنلنده أن تتجنب السيطرة السوفيتية عليها وذلك بدفع آخر فسط من تعويض الحرب War reparations الذي كان الغرض منه أساسا تحطيم الاقتصاد الفنلندي وخلق مبرر للتغلغل السوفيتي في حالة عجز فنلنده عن دفع التعويضات .

واكن سياسة توحيد أوروبا ما زالت مبكرة ، فإن هناك دولا قوية اقتصاديا مثل ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة ما زالتا خارج حركة التوحيد وما زال التحالف بين الدولتين وبين الدول الأوروبية سواء كان اختياريا أم اجباريا قائما ومستمرا .. وهذا ما سيشل من قدرة الدول الأوروبية في تقرير مصيرها .

ويعتقد الكثيرون بأن توحيد أوروبا سياسيا يمكن أن يحدث وقد حاول البعض تحقيق هذه الوحدة عن طريق الغزو العسكري ولكن المحاولات لم تكلل بالنجاح وكانت نتائجها وبالا على القارة أما دعاة الوحدة الحاليين فبغيتهم هي الوحدة الاقتصادية وإزالة الحواجز التجارية والانتقال الحر للعمال الذين يبحثون عن العمل

عبر الحدود من دولة لأخرى . وهؤلاء الدعاة يعترفون أن دوافع اقتصادية لعبت دورا مهما في إذكاء نار الحرب بين دول القارة ويأملون أن يؤدي الاتحاد والتعاون الاقتصادي نهائيا إلى الوحدة السياسية بينها . وقد سبقت ألمانيا في هذا المضمار عندما أنشأت منظمات اقتصادية تربط بين دويلاتها المنفصلة وذلك قبل توحيد الأمة سياسيا بوقت قليل .

وبدافع من هذه الروح التعاونية تم انشاء السوق الأوروبية المشتركة في الخمسينات وذلك بتخفيض مبدئي للتعريف الجمركية الداخلية على الفحم والصلب . وقد بدأت هذه المنطقة الاقتصادية بستة أعضاء هم : ألمانيا الغربية وإيطاليا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ثم انضمت إليها دول أخرى مثل المملكة المتحدة والدنمارك والجمهورية الأيرلندية وأخيرا اليونان .

وهناك اتفاق بين الدول الأعضاء على تكوين اتحاد سياسي بين الأعضاء الستة ولكن صورة أو شكل هذا الاتحاد لم يتفق عليه نهائيا ، وقد تم أخيرا تكوين برلمان ينتسب أعضاؤه من الدول كما أن هناك جاها لتكوين عملة واحدة

- Eurodollar

ويعتمد نجاح هذه الحركات الوحدوية على مدى بقاء أو زوال فكرة الدولة - الأمة أو نزعة الإقليمية حية في أذهان الأوروبيين : فهناك دليل بأن الحربين العالميتين قد دمرتاً حيوية وقوة الإقليمية والقومية وأن التعاون والتدخل الاقتصادي الذي تم حتى الآن بين الدول الأوروبية يجعل من حدوث صراع عسكري بينها في عداد المستحيلات . ولكن على دعاة الوحدة الأوروبية أن يتقدموا في طريقهم بحذر شديد وبتواضع وتمعن ، فما زالت توجد في القارة العديد من الأقليات والمجموعات العرقية التي تحتفظ بكيونتها وترفض التمازج والاختلاط ، ولذا لا بد من منحها حكما ذاتيا محليا .. أي أن يعطى الاعتبار الكافي لهذه المجموعات العرقية في أي تخطيط للوحدة السياسية وأن يوفق بين النزعة الإقليمية والتطلعات العليا نحو هذا الهدف الكبير .

الفصل التاسع

أنماط الاستيطان الريفي

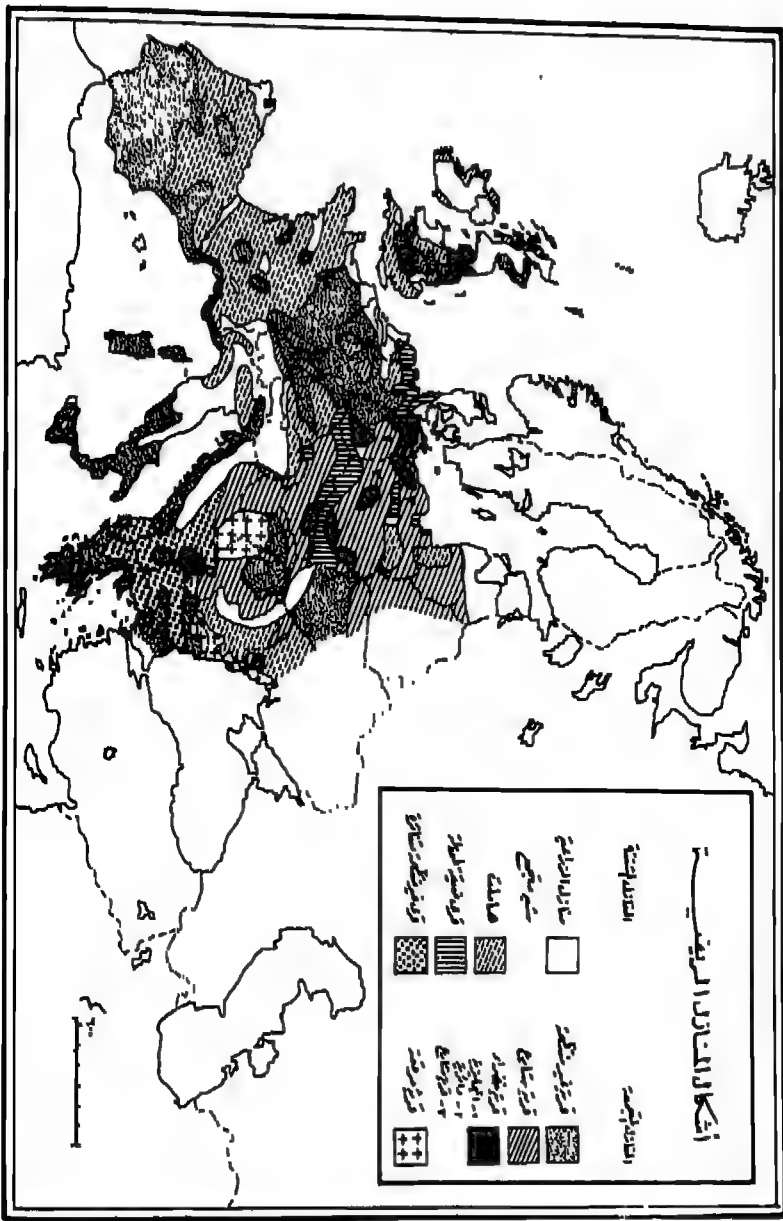
تعني جغرافية السكن بدراسة المظهر الحضارى والبصمات الظاهرة التي تركها الإنسان في المناطق الريفية وذلك من خلال مجهوداته في استغلال هذه المناطق وقد تختلف هذه البصمات والظواهر من منطقة لأخرى تبعا لاختلاف ثقافات الشعوب . ولذلك فإن أشكال هذه البصمات تتخذ أنواعا مختلفة في أوروبا : فظاهر الأرض الريفية في أسبانيا مثلا تختلف من تلك التي نجدها في اسكتلندا . وقد نجد تباينا رئيسيا حتى في ريف دولة صغيرة واحدة مثل ألمانيا . وقد أدى هذا الاختلاف والتباين في مظهر الريف الأوروبي إلى اجتذاب أعداد ضخمة من السواح خاصة من دول العالم الجديد التي تتميز أريافها برتابة المنظر وتشابهه .

وتركز جغرافية الاستيطان الريفي دراستها على ثلاثة معالم منفصلة من اللاندسكيپ الحضارى . وهى :

- ١ - نمط الاستيطان أو توزيع المنازل الزراعية .
- ٢ - نمط الحقول الزراعية أو شكل الحقول الذى تمخض عن تقسيم الارض لغرض الاستفادة منها .
- ٣ - أنواع المنازل والبيت الزراعى وتشمل مواد البناء المستخدمة وهندسة المعمار أو طريقة بناء هذه المنازل ومدى تأثير عادات وتقاليد الشعوب على ذلك

(أ) نمط الاستيطان : Settlement Pattern (الشكل ٤١)

تتخذ المنازل الريفية أشكالا مختلفة : فقد تكون متجمعة أو مشتتة أو تتخذ نمطا وسطا بين هذين ، وأوروبا تتميز في هذا المجال بوجود أنواع مختلفة من أنماط الاستيطان الريفي يمكن أن نميز منها الآتى :



١ - السكن الريفي المتجمع : Clustered

القرية الزراعية : Farm Village

يسكن معظم المزارعين في أوروبا في قرى بدلا من المنازل المشترة في أصقاع الريف كما في الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ومناطق الاستيطان الأوروبي الأخرى فيما وراء البحار . وتتجمع المنازل مكونة قرى صغيرة عديدة تاركة المناطق الزراعية المجاورة خالية من المباني والمنشآت وعادة ما يقوم المزارع برحلات يومية الى الحقول للعمل فيها ويقضى فيها يومه ثم يعود الى منزله في القرية في آخره . وقد تضافرت عوامل عديدة ، معظمها تاريخية ، في ظهور هذا التجمع السكاني الريفي . ويمكن تلخيص هذه العوامل في الآتي :

١ -- الحاجة الى الدفاع والحماية : عاصرت أوروبا ، خاصة المناطق الريفية منها ، فترات من عدم الاستقرار السياسي ، وكانت عصابات الغزاة واللصوص تسيطر على الريف وتعيش فيه قتلا ونهباً . والحماية أنفسهم من هذه العصابات وأعمالها كان على المزارعين أن يتجمعوا في قرى حتى يتسنى لهم درء هذه الأخطار جماعاً . وهناك أمثلة عديدة لقرى نمت وكبرت حجبا في فترات عدم الاستقرار والحروب لتعود وتتقلص وتضمحل أو تختفي في بعض الأحيان ، عندما يعم الاستقرار والسلام تلك المناطق . ومن ثم نلاحظ أن القرى الزراعية في أوروبا كثيرا ما تحتل مواضع يسهل الدفاع عنها .

(٢) العلاقات القبلية والأسرية :

كانت لهذه العلاقات أهمية أكبر في ربط سكان القرية لأن الذين كانوا ينشأون القرية في البداية كانت تربطهم علاقات دم . وقد أدت هذه القرابة الى رغبة هؤلاء في السكن قرب بعضهم البعض كما يظهر في العديد من أسماء الأماكن . فان من الكلمات الشائعة في غرب أوروبا تلك التي نجدها في آخر أسماء المدن والقرى مثل inge, -ing , ange, -ingen وغيرها كما في Trossingen (المانيا) و Challerange (فرنسا) و Kolding (الدنمارك) وريدنج Reading (المجلترا) وهي مشتقة من اللغة الألمانية وتعني حرفيا «سكان أو شعب» . . أو قبلية «ريدا» مما يدل على مجموعة متماسكة من الناس ، أما

الكلمات البادئة في اسم المكان فهي تشير إلى رئيس العائلة أو القبيلة مثل Sigmaringen (مدينة في جنوب غرب ألمانيا) التي تعني «شعب أو قبيلة سيغمر Siegmari» .

وكثيرا ما كانت هذه العلاقات الاجتماعية ترتبط بدرجة معينة من الجماعة أو المشاعية في استغلال الأرض حيث كانت الحقول والمراعى والغابات شائعة الاستخدام بين أفراد القبيلة وكان توزيع الحقول يتم بحيث أن كل قروى يمنح قطعة أرض ذات مساحة وخصوبة متساوية وعلى بعد متساو من القرية كالأخرين وكان هذا التوزيع يتم وفق طريقتين :

أولا : يتم تجزئة الأرض التي يستخدمها المزارع الى عدد من القطع المنفصلة تقع كل قطعة منها في اتجاهات مختلفة وعلى بعد أو مسافات مختلفة من القرى وتتضمن القطع على نسب من أنواع التربة المختلفة من غنية وفقيرة .

ثانيا : يعاد توزيع هذه القطع في فترات معينة لاتتعدى سنة حتى يتسنى للمزارع القيام بزراعة قطعة أرض أخرى لم تكن في حوزته في السنة الماضية . ولم تكن تجزئة الأرض الزراعية إلى قطع صغيرة وإعادة توزيع هذه القطع كل سنة على أفراد القرية تشجع التشتت السكنى لأن القطع المتناثرة كانت على العموم ضيقة أو صغيرة لاتسمح باقامة أو انشاء منازل عليها .

(٣) ندرة المياه :

كانت ندرة الماء خاصة في تلك الأماكن التي تتميز بتربة جيرية تشجع تجمع المنازل حول المواضع التي تتواجد فيها المياه ويتمركز هذا النوع من الاستيطان حول الآبار العميقة التي يتم حفرها وكذلك صيانتها بواسطة أهل القرية أو عند البنايين والعيون المتناثرة . وتتميز إقليم بيكاردى الفرنسية Picardie ومقاطعة ويلتشيرداونز Wiltshire Downs في جنوب غرب إنجلترا بوجود طبقة مسامية ووجود تجمعات قروية ، ولكن هناك من يعارض مفهوم « قرى المواضع الرطبة » خاصة في إقليم بيكاردى حيث وجد أن الآبار العميقة الموجودة هناك يرجع تاريخها

إلى القرنين أو الثلاثة الأخيرة : أى بعد أن اتخذت القرى أشكالها الحالية بزم طويل .

وقد يؤدى توفر المياه فى المناطق المستنقعية الرطبة المعرضة للفيضانات الى تجمع المنازل فى المواضع المرتفعة الجافة كما فى المناطق الساحلية من هولنده حيث نجد قرى متماسكة على المرتفعات « terpen » التى صنعها الإنسان .

(٤) الوراثة المتجزئة :

قد يرجع وجود قرية إلى ممارسة ما يسمى بالوراثة المتجزئة أى تقسيم الأرض وتوزيعها على الورثة عند وفاة الأب .. فقد يحدث أن يتحول منزل زراعى أصلى تدريجيا إلى سكن متجمع عندما تبنى أجيال عديدة من أنساب المؤسس الأول منازلهم فى نفس الموضع . وعلى نحو مغاير فإن النمط المتناثر من السكن يكثر فى المناطق التى لا تمارس فيها الوراثة المتجزئة كما فى شمال غرب ألمانيا وأجزاء من النرويج .

(٥) المحصولات الحقلية :

هناك ارتباط بين التجمع السكنى والاقتصاديات التى قوامها المحصولات الحقلية وذلك لأن مساحة الأرض التى يحتاج إليها المزارع أقل فى النظم التى تسودها زراعة المحصولات على عكس تربية الماشية التى تحتاج إلى مساحات أكبر ووحدات زراعية كبيرة لغرض الرعى وزراعة العلف . ومضى ما كبرت مساحة المزرعة أصبح الاستيطان القروى أكثر صعوبة لأن التنقل من وإلى الريف سيزداد طولاً . وعلى العموم فإن المناطق السهلية المنخفضة كانت من البداية أماكن تسود فيها زراعة المحصولات بينما كانت الأماكن الجبلية والمرتفعات تستغل للرعى مما أوجد ترابطاً بين المناطق المستوية والاستيطان القروى فى أوروبا . ولكن نظراً لأن البيئة لا تتحكم فى كل تصرفات الأوروبيين فإن هناك استثناءات فيما قلناه كما تتمثل فى القرى المتناثرة التى نجدها فى سهول الفلاندرز وشمال غرب ألمانيا وفى تجمعات القرى فى مناطق جنوب إيطاليا الجبلية . وفى وقتنا الحالى سعت الحكومات الدكتاتورية خاصة فى

الدول الشيوعية إلى تبنى سياسات الغرض منها تجميع سكان الريف في أماكن معينة مما يسهل التحكم فيهم وتربيتهم وفق مبادئ الشيوعية .

ومن بين العوامل التي أدت إلى التجمع السكاني في الريف يبدو أن الوجود التاريخي للمشاعية القبلية واستمراريتها في ظل النظام الإقطاعي من أقوى هذه العوامل أثرا : فالشعوب التي تربط بينها مثل هذه العلاقات كانت أكثر قبولا للتجمعات السكانية . فقد ترك الاختفاء التدريجي للتنظيم الجماعي أثر تدهور الإقطاع وراءه القرية الزراعية كمخلفات أثرية عتيقة . ولكنها ما زالت تثبت بالوجود رغم ذلك لأن سكان الريف يقاومون التغيير والتحويل عما ألفوه عبر السنين .

(ب) أنواع السكن الريفي المتجمع Clustered Rural Settlements

تختلف القرى الزراعية الأوروبية في منازرها الخارجية من منطقة لأخرى وقد استطاع جغرافيو السكن تمييز عدد من الأنواع الرئيسية لهذه المساكن . وكان للعلماء الألمان دور كبير في هذا المضمار إلى درجة أن المصطلحات الألمانية أصبحت شائعة الاستعمال بين الجغرافيين عامة وهذه الأنواع هي : (الشكل ٤١) .

١ - القرية المتجمعة بغير انتظام أو Houstendorf : وتوجد في أجزاء من ألمانيا الغربية وشمال فرنسا والمناطق المنخفضة من بريطانيا وفي معظم أجزاء جنوب أوروبا . وكما يدل الاسم فإن هذه القرى المتجمعة بغير انتظام يبدى مظهرها غير متناسق وخالي من أي أثر للتخطيط وشوارعها متعرجة وضيقة كما تتجمع المنازل بغير اتساق . وعادة تحتل كنيسة القرية موضعا وسطا وتحيط بها المنازل والحظائر والبساتين الصغيرة التي تزرع فيها الخضروات . وتختلف أحجام هذه القرى من منطقة لأخرى ويتراوح سكانها بين ٤٠٠ و ١٠٠٠ شخص في المناطق الألمانية إلى ١٠٠٠ أو أكثر في قرى جنوب إيطاليا الجبلية وحتى إلى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ نسمة في قرى حوض المجر الكبيرة . وهذه القرى الكبيرة (Kertes Vares) تمثل استجابة شعوب الماغيار Magyars للخطر العسكري التركي الذي كان يهدد سكان الحوض كما تعكس قرى جنوب إيطاليا الكبيرة حالة عدم الاستقرار التي سادت تلك المناطق بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية . وعدم التخطيط الذي تتميز به هذه القرى يلقي كثيرا

من الضوء على أصل نشأتها ويحتمل كثيرا أن هذه القرى بدأت أول ما بدأت كتجمع مفكوك لمنازل زراعية قليلة تملكها عائلات تربط بينها وشائج القرى ، مكونة بذلك تجمعا طائفيًا أو قبليًا *clan hamlet* . وبمرور الزمن ازداد سكانها وأضيفت إليها منازل أخرى حتى أصبحت أكبر وأكثر تماسكا كما تحولت طرق المشاة التي تقود إلى الحقول إلى شوارع أوسع .

ويحتمل أيضا أن المسكن الأصلي في بعض المناطق كان يتكون من منزل معزول بدلا من تجمع قبلي يمارس سكانه نظام الوراثة المتجزئة الذي أدى إلى زيادة المنازل ومن ثم نموها وتطورها إلى قرية .

أما قرى شرق أوروبا فإنها تظهر في أشكالها الحديثة درجة عالية من التخطيط خاصة في معظم المناطق التي تقع إلى الشرق من الحدود السلافية الألمانية القديمة ، في حين أنه إلى الغرب من الخط القديم الذي يصل بين أنهار الألب والسال والان وسالزاخ تسود القرى غير المنتظمة . ولكن في المناطق السلافية التقليدية التي تقع إلى الشرق من هذا الخط فإن القرى تتميز بالنظام في أشكالها وتخطيطها . ويتمثل هذا النوع من السكن المخطط في القرى المستقيمة أو قرية الشارع *strassendorf, street village*

وبدلا من الشوارع الكثيرة الملتوية التي نجدها في القرى غير المخططة تتميز القرية المستقيمة بوجود شارع واحد مستقيم تقوم على جانبيه المنازل : وتطل واجهة المنازل والمباني الأخرى على الشارع بينما تقع الحدائق إلى الخلف . ويختلف هذا النوع من القرى في أحجامها التي تتراوح من منازل قليلة تتواجد على جانب الطرق الجانبية أو عند نهاية الأزقة المقفولة إلى قرى كبيرة طويلة تمتد على جانبي الطرق الرئيسية الريفية ويسكنها مئات الأشخاص .

وأصبح من المؤكد الآن أن القرية المستقيمة نشأت عند السلاف وترتبط بمظهر خاص من مظاهر التراث أو الثقافة الشعبية . وحتى في الأجزاء الشرقية من ألمانيا فإن كثيرا من هذه القرى ، وخاصة الصغيرة منها ، ما زالت تحمل أسماء سلافية تنتهي بالأحرف الآتية : -ow و -in و -itz و -zig كما في تريبنيتز *trebnitz* و ليزبزيج

ولكن السؤال : لماذا اختار السلاف ، خاصة السلاف الشماليين ، القرية المستقيمة نمطا شائعا لمساكنهم الريفية ؟ لم يجد إجابة شافية حتى الآن . فالحاجز الخشبي الذي كان يحيط بالحد الخارجي لحديقة المنزل كان يضمن نوعا من الحماية ، مع الحيطان الخلفية للمباني الزراعية ، على القرية وساكنيها . ولكن كانت هناك وسائل أفضل شكلا وأكثر حاية من الحاجز والحائط . وبالإضافة إلى ذلك فإن المنازل مبنية من الخشب ، ومفصولة عن بعضها البعض بأماكن خالية لدرء خطورة الحرائق ومنعها من الانتشار مما يقلل من أهمية الحماية من المغيرين من الخارج لأن المنازل المعزولة أكثر عرضة للهجوم من المباني المتلاصقة . حتى مجموعات المزارعين الألمان الذين نزحوا شرقا فيما وراء نهري الب وسال بعد عام ٨١٠ ميلادية تخلوا عن تجمعاتهم القروية غير المنتظمة وتبنوا نظام القرية المستقيمة السلافية . ورغم انصهار السلاف في ألمانيا الشرقية مع مرور الزمن فإن شكل قراهم التقليدي ظل باقيا حتى اليوم .

(٢) القرية الخضراء Green Village

يتميز هذا النوع أيضا بالتخطيط وبوجود مكان خال من المباني في وسطها يسمى « بالقرين » green . وتنتشر هذه القرى بأنواعها في أجزاء مختلفة من السهل الأوروبي الشمالي تمتد من سهول إنجلترا حتى بولندا . وكان « القرين » يستغل عادة لإقامة الحفلات وانعقاد السوق وكحظيرة محمية لحفظ الماشية . ويختلف شكل « القرين » ومعها شكل القرية كلها اختلافا كبيرا ويتراوح من شكل دائري إلى مثلثي أو مستطيل أو بيضاوي .

وتوجد أنواع من القرى الخضراء مصنفة حسب شكل « القرين » وأحد هذه

الأنواع هو ما يسمى قرية الشارع الخضراء (street - Green village)
(Angerdorf or strassenongerdorf)

والذي يوجد في اختلاط مع قرى الشارع السلافية والألمان الشرقيين ، وتختلف الأولى من الثانية في أن الشارع الرئيسي في الأولى يتسع نحو وسط القرية ليكون « القرين » . ويكثر هذا النوع من القرى الخضراء في شرق ألمانيا . أما النوع الآخر من

القرى الخضراء فهو ما يسمى القرية المستديرة

(rundby, Rundorf, round village)

وفيه يتكون أصل أو مركز القرية من فسحة دائرية أو شبه دائرية الشكل تتجمع حولها المنازل . وتنحصر هذه القرى في مناطق صغيرة على جانبي نهر الألب الأدنى والحدود بين الألمانيين والشاطيء الشرق لنهر السال وأجزاء من تشيكوسلوفاكيا الغربية . ويحتمل أن تكون هذه القرى الدائرية سلافية النشأة لأنها كثيرا ما تحمل أسماء تشير إلى هذه المجموعة العرقية مثل كرملين Kremlin و Wutzow .

ومن الواضح أن القرى الدائرية قد خططت أساسا لغرض الحماية والدفاع وهذا الغرض قد يفسر لنا تركيز هذه القرى عند الحدود السلافية الألمانية حيث الحروب كانت شائعة . وكان الفضاء الأوسط يؤدي نفس الوظيفة التي كان يؤديها فناء قلعة أو داخل الدائرة المحاطة بعربات النقل المغطية في الغرب الأمريكي : منطقة توجه منها الدفاع وصد المغيرين . وأول خط الدفاع كان يتكون من حاجز خشبي دائري مقام حول الطرف الخارجى للحديقة ، وفي حالة انهيار هذا الحاجز أمام هجمات المغيرين انسحب القرويون إلى حامية المبانى حول الفناء . وفي الفناء الداخل نجد البئر والبحيرة الصغيرة تمولان الماء كما يوجد به مكان لحفظ الماشية . ومع تحول السكان إلى المسيحية كانت الكنيسة تبنى في الفضاء في بعض الأحيان بينما كان الفناء في بعض الحالات يستخدم كموقع لقصر مالك الأرض في ظل النظام الإقطاعي .

وتوجد القرى الدائرية أيضا في أشكال مختلفة . ويبدو أنها بدأت في الأصل كمساكن صغيرة تتكون من أربعة أو خمسة منازل حول الفضاء المركزى ، وما زال هذا الشكل موجودا في شرق ألمانيا ويطلق عليه القرية الصغيرة الدائرية

(Rundweiler, round hamlet)

وتتكرر الأسماء السلافية فيها بشكل ملفت . ومع ازدياد السكان تحولت هذه القرية الصغيرة إلى الشكل التالى الأكبر حجما والذي يعرف بالقرى الدائرية الصغيرة (Rundlinge) ثم تطور بعضها لتصبح قرى دائرية . وإذا كان هذا التوسع قد حدث نتيجة إضافة منازل عديدة جديدة فإن القرية تصبح أكثر شجها لقرى الشارع الخضراء التى نجدها في ألمانيا الشرقية لأن هذه المنازل كانت تبنى بعيدا من الفناء المركزى على الطريق أو الطرق المؤدية إلى القرية .

ويحتمل أن القرى الخضراء تمثل أقدم شكل سكنى فى أوروبا إذ عثر علماء الآثار على قرى يرجع تاريخها إلى عصر الحديد كما توجد أدلة تشير إلى تاريخ أقدم . وترجع الصعوبة التى تكتنف تحديد توزيعها السابق إلى السهولة التى يمكن أن تتحول بها هذه القرى إلى قرى متجمعة غير منتظمة إذا سمح للأجيال اللاحقة ببناء منازلهم وحظائرهم فى الفضاء الداخلى (القرين) .

(٣) قرى الشوارع المستقيمة ذات الزوايا القائمة : (الشكل ٤٤ و ٤٥)

وهذه تمثل نوعا آخر من القرى المخططة وتكثر فى أوروبا الشرقية خاصة فى حوض الدانوب الأوسط والأدنى فى أجزاء من المجر ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا ، كما يوجد نوع آخر منه فى بعض المناطق التى تحيط بالساحل الشمالى لبحر إيجه فى اليونان . وعلى نقيض ما شهدناه فى القرى السابقة ، فإن هذا النمط حديث النشأة فقد تم إنشاء العديد من هذه القرى بواسطة حكام الإمبراطورية العثمانية - المجرية ابتداء من عام ١٧٥٠ ، خاصة فى إقليم « بانات Banat » فى يوغسلافيا وجنوب المجر كجزء من مشروع يهدف إلى إعادة توطين المناطق التى دمرتها الحروب كما بنى الإغريق مثل هذه القرى فى المناطق التى طرد منها الأتراك فى عشرينات القرن الحالى . وتتميز هذه القرى بشوارعها المنتظمة التى تلتقى مع بعضها فى زوايا قائمة وتختلف فقط من المدن الأمريكية الحديثة فى أن سكانها من المزارعين الذين يعملون فى الحقول المجاورة .

(٤) السكن الريفى المتناثر Dispersed Rural Settlement .

المنزل الزراعى المعزول :

رغم أن معظم المزارعين الأوروبيين يعيشون فى القرى فهناك مناطق تسود فيها المنازل الزراعية المنعزلة وفيها تسكن كل عائلة على مسافة من الجيران (Einzelhofe) . أما العوامل التى أدت إلى نشأة هذه المنازل المنعزلة فهى تختلف عن تلك التى شجعت نشأة القرى وتطورها وتشمل هذه العوامل :

(١) عدم وجود الحاجة إلى الدفاع والحماية نسبة للسلام والاستقرار السائدين .

- (٢) عملية الاستيطان تمت بواسطة عوامل رائدة بدلا من المجموعات التي تربط بينها وشائج الدم أو الدين وما شابه ذلك .
- (٣) سيادة العمل الزراعى الخاص بدلا من الملكية الجماعية .
- (٤) وحدات زراعية كبيرة بدلا من الملكيات المجزأة .
- (٥) اقتصاد ريفى تسود فيه تربية الماشية .
- (٦) مناطق تلالية أو جبلية .
- (٧) وجود المياه بكميات وافرة وسهولة الحصول عليها .

وقد يحدث مثل هذا النمط من السكن الريفى نتيجة سياسة حكومية مقصودة ، الغرض منها تشتيت القرى وتوحيد القطع المجزأة من الأرض فى وحدات كبيرة وذلك لرفع إنتاجية الزراعة وكفاءتها .

وتكثر المنازل الزراعية المنعزلة فى اسكندناوه ومرتفعات بريطانيا وفى جبال الألب وبعض المناطق الجبلية المعينة وأماكن متباعدة من أوروبا مثل الفلاندرز ومناطق منسترلاند Munsterland وبحيرة كونستانس التابعة لألمانيا الغربية وحوض نهر اللوار الأدنى فى فرنسا .

ومن حيث نشأتها يمكن تقسيم هذه المساكن إلى نوعين :

(١) المنازل القديمة التى تمثل الشكل التقليدى .

(٢) المنازل التى ظهرت حديثا نتيجة العمل الحكومى أو التغيير الاقتصادى .

وتتنمى إلى المجموعة الأولى منازل شمال غربى ألمانيا وهولنده حيث خرج أفراد المزارعين الذين حرموا من الارث وفق القانون الألمانى إلى الاراضى المستنقعية وقاموا باستصلاحها وبناء منازلهم عليها وزراعتها . وتعرف هذه المنازل بمساكن المعسكرات .

Kamp Settlement

ولكن أكثر المنازل المتناثرة يرجع تاريخ إنشائها إلى وقت حديث . وفى الدول الاسكندنافية أدت القوانين التى سنتها الحكومة فى فترة ما بين أواخر القرن الثامن عشر

وبداية القرن التاسع عشر تدريجياً إلى القضاء على الملكيات المجزأة وإحداث تشتت
في سكان الريف كما يتضح من هذا الجدول : (جدول ١٠)

| الدولة | نسبة سكان الريف الذين لا يعيشون في قرى متجمعة |
|---------|-----------------------------------------------|
| ألمانيا | ٨٧٪ |
| هولندا | ٩٧٪ |
| إيسلندا | ٧١٪ |
| النرويج | ٩١٪ |
| السويد | ٧٩٪ |

وفي إحدى أقاليم جنوب ألمانيا الصغيرة بالقرب من بحيرة كونستانس وسفوح
بال الألب بدأ الإقطاعيون المحليون في بداية القرن السادس عشر بتشتيت
المزارعين ، واستمرت هذه العملية حتى القرن التاسع عشر ، وتسببت في تحويل
الأرض الزراعية إلى مراعى للضأن في كثير من أجزاء الجزر البريطانية كما أدى إلى
الانخفاض الهائل في سكان الأرياف وتحويل الملكيات المجزأة إلى وحدات زراعية
كبيرة ، وفي تاناروتشتيت العديد من القرى وإحلال المنازل الزراعية محلها ابتداء من
بداية القرن الخامس عشر. كما عمل ملاك الأرض في Latvia | لاتفيا ومناطق
البلطيق الشرقية في تشتيت المزارعين الذين كانوا تحت سيطرتهم لفرض رفع الكفاءة
الإنتاجية ، كما تبنت الحكومة الإيطالية في عشرينات هذا القرن برنامجاً يهدف إلى
عمل منازل زراعية متناثرة في الجزء الجنوبي من البلاد ، رغم أن منطقة البحر
الأبيض المتوسط تميزت منذ عصر اليونان بالسكن المشتت .

ويمتاز السكن المشتت على النمط القروي من الناحية الاقتصادية وأهم عامل في
هذا المضمار هو الوقت المطلوب للتنقل من المنزل إلى الحقل في النظام القروي . وقد
دلت أبحاث أجريت في هولندا والسويد أن استخدام المزارعين للأرض البعيدة من
القرية أقل كثافة من القطع الأقرب إليها . وفي نفس الوقت تزخر القرية بحياة اجتماعية
زاخرة بالمقارنة مع حياة الوحدة والعزلة في المنازل المتناثرة : وقد عانى المزارعون
الإيطاليون الذي تم توطينهم في منازل منعزلة من حالات نفسية وهبوط ذهني ، (لأن

أسلوب حياة القرية والرفقة والزمالة التي تزخر بها تمنح المزارعين نوعا من الأمان والسلام الذهني .

د - السكن الريفي شبه المتجمع : (Semi-clustered) (الشكل ٤١ ، ٤٢)

توجد في أوروبا أشكال عديدة من السكن الريفي التي لا تتفق مع النوعين المذكورين آنفا ؛ المشتت والمتجمع ، رغم أنها تجمع بعض مميزات وسهات هذين النوعين . ويمكن أن نطلق على هذه الأشكال شبه متجمعه أو شبه مشتتة . ومن هذه الأشكال :

١ - القرى الصغيرة (weilerv, Drubble, Hamlet)

وهذه هي أكثر الأنواع شيوعا وتتكون من عدد صغير من المنازل تتجمع بغير اتصال وثيق . وكما نجد في القرى الزراعية فإن هذه المنازل تقع في مركز القرية بعيدا ومنفصلا من الأرض الزراعية ، ولكن القرى الصغيرة (هاملت) تختلف عن القرية في حجمها الأصغر وعدم تماسكها أو تكتلها . ويختلف عدد المنازل من اثنين أو ثلاثة إلى خمسة عشر أو عشرين منزلا ويصعب كثيرا التمييز بين الهاملت الكبيرة والقرية على أساس الحجم

وتنتشر هذه القرى الصغيرة في أوروبا خاصة في جنوب فرنسا وبعض أجزاء ألمانيا ومناطق كبيرة من شبه جزيرة أيبيريا وشمال إيطاليا . وكثير من الأقاليم التي تتميز بالسكن المشتت كانت مناطق تزخر بالقرى الصغيرة سابقا كما في ملاجئ مرتفعات السلت Celts في الجزر البريطانية ويصعب تحديد توزيع هذه القرى الصغيرة نظرا لوجودها وسط المنازل المتناثرة .

نشأة القرى الصغيرة (هاملت) :

يختلف جغرافيو السكن فيما بينهم في تفسير أصل نشأة الهاملت . ويبدو أن هناك عمليات معينة كانت تعمل في مناطق الهاملت المختلفة أدت في النهاية إلى ظهور هذا النمط الاستيطاني في تلك الأماكن . وهناك رأيان :

يقول الرأي الأول بأن أصل الهاملت يرجع في مناطق مثل جنوب ألمانيا والأجزاء

المجاورة من سويسرا وفرنسا إلى العهد الروماني ، واستدل على ذلك بكثرة حدوث كلمة weiler في نهاية أسماء الأماكن في هذه المناطق والتي في أكثر الاحتمالات مشتقة من الكلمة اللاتينية villare التي تعني « المنزل الزراعي formstead » وقد اقترح بعض الجغرافيين أن هذه المنازل الأصلية قد تطورت إلى تجمعات للقرى الصغيرة عن طريق ممارسة تجزئة أو تقسيم الورثة وفق النظام الروماني للورثة . وهناك أمثلة عديدة للأسماء التي تنتهي بكلمة weiler في منطقة المانيا التي تأثرت بالحكم الروماني مثل Habertsweiler و Martinsweiler - حتى أن كلمة Weiler أصبحت تعني « القرية الصغيرة » في اللغة الألمانية .

ويقترح الجغرافي الفرنسي ديمانجيون Demangeon نفس السبب لنشأة الهاملت في الأجزاء الجنوبية من فرنسا . أما فشل هذه القرى الصغيرة في النمو والتطور إلى قرى فقد يكون له ارتباط بالامكانية الإنتاجية المنخفضة لأماكن تواجد هذه القرى ويمكن أن نفترض ان زيادة سكانية قد حدثت في هذه الأماكن ولكن الأراضي الفقيرة في الهضبة الوسطى لم تستطع إعالة هذه الزيادة من السكان فهاجر الناس وبقيت القرى الصغيرة على حالها . بمعنى أن العوامل البيئية هي التي عاقت تطور هذه القرى الصغيرة الى قرى كبيرة .

أما الرأي الآخر فهو أن بعض العلماء يعتبرون الهاملت أكثر أشكال الاستيطان قدما ويرجع تاريخها الى بداية الاستيطان المستقر بواسطة المجموعات القبلية والعائلات الكبيرة بدلا من كونها مشتقة من تجمع المنازل المتناثرة . وقد يشمل هذا النوع قرى شمال ألمانيا المعروفة باسم Drubbel ويمكن القول بأن أشكالها الحديثة هي التي بدأت بها وأن الحفاظ على الحجم والمورفولوجي أو الشكل عبر السنين يرجع إلى قانون الوراثة الألماني الذي لا يقر بتقسيم الورثة على الأبناء وأيضا إلى فقر الأرض الزراعية في هذه المناطق .

(٢) قرى مفتتة غير منتظمة :

تتواجد هذه القرى في منطقة البلقان الأوربية وتشارك مع القرى الصغيرة (الهاملت) في كثير من السمات ولكنها تختلف عن الأخيرة في ناحية

اجتماعية هامة ، إذ تتكون المجموعات القروية غالبا من ثلاث أو أربع مجموعات منفصلة من القرى الصغيرة وأساس التفرقة مبنى على علاقة الدم أو الدين أو اللغة . وتحمل المجموعة كلها التي تتكون منها القرية اسما واحدا كما يرتبط الناس بشعور الانتماء إلى المجتمع القروى رغم الانفصال الجغرافى بين مجموعات القرى الصغيرة . وقد يصل السكان اعدادا كبيرا تؤهلها بأن تكون قرية ولكنها تفتقر إلى الشكل المتماثل الذى تتميز به القرية . وقد حدث فى بعض الحالات أن امتلأت الاماكن الخالية بين مجموعات القرى الصغيرة بالمنازل عندما ازداد عدد السكان مكونا فى النهاية قرية غير منتظمة . ولكن مثل هذا التطور اقتصر على المناطق ذات التربة الخصبة والأحواض المتناثرة فى منطقة البلقان .

ويكثر هذا النوع من القرى غير المنتظمة بين السلاف الجنوبيين وقد يكون أصلها مرتبطا بالنفوذ والقوة التقليدية للعائلة الكبيرة (zadruga) كمؤسسة اجتماعية عند هذه المجموعة . ويحتمل أن القرى الصغيرة العائلية قد تطورت من المنازل المتناثرة الأصلية عندما أخذ الأبناء والأحفاد فى إنشاء منازلهم بالقرب من منزل الأب . وقد ساعد فى هذا التكوين ذلك التنوع العرقى الكبير الذى تتميز به منطقة البلقان والذى شجع انفصال القرى من بعضها البعض .

(٣) القرى المهجورة جزئيا :

توجد مثل هذه القرى فى مناطق أوروبية مثل اسكندناوه والسهول البريطانية حيث تسبب برامج الإصلاح الحكومى فى إعادة توطين المزارعين فى منازل منفصلة ، تاركة وراءها قرى تحتوى فقط على جزء كبير من سكانها الأصليين . وتتميز غالبية سكان الريف فى الدنمارك بالتشتت ، وما زالت بقايا القرى باقية رغم أن المنازل الباقية أصبحت متجمعة الآن نسبة لإزالة الكثير منها أثناء عملية التشييت .

(٤) قرى الصف أو المزرعة الطويلة Hufendorf, Reihendorf, Linear Long-Lot

تعرف هذه القرى فى اللغة الألمانية باسمين :

Reinendorf (قرية الصف) أو Hufendorf (القرية ذات المزرعة الطويلة) وهى من ناحية الشكل وسط بين التجمع والتشتت ، وتوجد المنازل الفردية على

طول طريق واحد مثل قرية الشارع التي وصفناها ولكن الأولى تختلف عن الثانية في أن منازلها أكثر تباعدا من بعضها البعض ، وفي أن كل الأرض التي تخص المزارع تقع في كتلة كبيرة طويلة تمتد من خلف المنزل . وهكذا يعيش المزارع في مثل هذه القرى في مزرعته التي تتكون من كتلة واحدة غير مجزأة من الأرض وفي هذه الناحية تشبه هذا النمط المنازل المتناثرة . ولكن ضيق قطع الأرض الطويلة وتركز المنازل على الطريق أمام المزرعة يضفي درجة معينة من التجمع لانجده في حالة المنازل المتناثرة كما أن سكان هذه المساكن لديهم شعور الانتماء إلى القرية وما يتطلبه ذلك من الاتصالات والعلاقات الاجتماعية . وتختلف هذه القرى ذات القطع الزراعية الطويلة في أحجامها من ست مزارع إلى مائة مزرعة أو أكثر كما تختلف هذه المزارع في عرضها وعمقها ، ففي أضيق حالاتها يكون عرضها حوالي ٢٠ مترا بينما يصل العرض إلى ٢٠٠ متر . أما العمق فقد يصل من ٣٠٠ متر إلى عدة كيلو مترات .

وتتأثر أنواع من هذه القرى في أجزاء من أوروبا وأكثرها شيوعا الأنواع الثلاثة الآتية :

١ - قرية الغابة ذات المزارع الطويلة Waldhofendorf وتتواجد في حزام غير متواصل يمتد عبر المناطق المرتفعة من أوروبا الوسطى خاصة في أيبيرز قبيلج Erzgebirge في ألمانيا الشرقية وجبال سوديتز Sudetes والكربات في جنوب بولنده . كما تتواجد عينات متناثرة منها في الأراضي المرتفعة من ألمانيا الغربية والسهل الألماني الشمالي . وفي هذه القرى يتبع الطريق الرئيسي نهرا ومنه تمتد المزارع الطويلة على الجانبين حتى تصل إلى المرتفعات المجاورة . وعامة ترك الأجزاء الخلفية من المزرعة ذات الانحدارات الكبيرة لنمو الغابات . ويتأثر شكل القرية بتعرج وادي الهر ويندر وجود حدود ملكية فاصلة مستقيمة .

٢ - قرية المستنقع ذات المزارع الطويلة : Marschhufendorf تتواجد في المستنقعات الساحلية الفقيرة التصريف والتي تمتد من شمال فرنسا عبر الأراضي المنخفضة إلى الدنمارك وألمانيا وساحل البلطيق في بولنده . وهنا تمثل قناة التصريف نقطة التجمع التي تحيط بها على الجانبين جسور عريضة اصطناعية

حيث تقام المنازل والطرق ، بينما تمتد الحقول الطويلة في الأراضي المنخفضة المستصلحة . وتميز حدود الأملاك باستقامتها . وكان سكان هذه القرى ذات المزارع الطويلة يتكون عامة من المزارعين المتحررين من قيود الإقطاعية ولم تكن المشاعية معروفة لديهم ، لأن كل مزارع كان لديه مرعاه ومرجه meadow و غابته .

أصل ونشأة هذه القرى :

هناك جدل كثير حول نشأة هذه القرى ولو أن هناك نقاطا معينة متفق عليها بين العلماء . ويعتقد معظم العلماء أن قرية المستنقع هي أقدم نوع ظهر حوالى ٩٠٠ ميلادية في هولنده في بداية فترة بناء الجسور هناك . وفي ألمانيا تم إنشاء أول قرية مستنقعية بعد ١١٠٦ م بقليل على يد ستة هولنديين كانوا قد منحوا أراضي في نهر الفيبر Weser الأدنى بالقرب من برمين Bremen .

وشهدت القرون التي تلت هذه القرى نحو الشرق والغرب حتى وصلت المستنعات النهرية البولندية في القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر إلى نهر السين الأدنى في فرنسا . وقد تم هذا الانتشار أيضا على يد الهولنديين . ولكن ليس هناك اتفاق كبير بين العلماء بخصوص نشأة قرية الغابة . ويعتقد البعض أن هذا النوع من القرية نشأ أو تطور من قرية المستنقع وأن الألمان تبنوها من الهولنديين وحملوها إلى الداخل نحو تلال أوروبا الوسطى . ومما يؤيد هذا الرأي وجود النوعين من القرى (المستنقى والغابى) على بعد ٣٤ كيلومترا من بعضها في سهل نهر الراين الأدنى في ألمانيا الغربية . والشبه الشديد في شكل النوعين يشير إلى وحدة الأصل . ويقول آخرون بأن هذه القرية ربما تطورت من مساكن المسكرات Kamp التي قامت في أطراف قرى شمال ألمانيا الصغيرة (drubbel) والتي أنشأها المزارعون الذين حرروا من الإرث وفق القانون الألماني ، كما اقترح البعض بأن المزارع الطويلة مشتقة من قطع الحقول الضيقة التي يتميز بها معظم مناطق القرى الألمانية خاصة تلك التي توجد في جنوب ألمانيا الشرقية في منطقة ساكسن Sachsen بالقرب من منطقة تركز رئيسى لقرى الغابات في أيرز قبيرج (جبال الأور) .

(ب) أنماط الحقول :

ومعلم أساسى ثانى للمظهر الحضارى للريف الأوروبى يتمثل فى أنماط الحقول أو تقسيم الأرض الزراعية للاستخدام البشرى . وعلى عكس مزارعى أمريكا الشمالية وأستراليا فإن مزارع الأوروبيين تتكون من مساحات صغيرة متجزئة ومتناثرة فى اتجاهات مختلفة وعلى مسافات متفاوتة من منازلهم فى القرى . والحديقة المنزلية فقط هى الموجودة فى القرية وتقع خلف كل منزل ، أما الحقول والمراعى والمروج فجميعها يقع على مسافة من القرية مما يستدعى التنقل إليها . واليوم يجد المزارع الأوروبى نفسه فى وضع يحسد عليه ، وخاصة فى وجه التحديات التى تواجهه ، نظرا لانخفاض إنتاجية أرضه المجزأة مما يؤثر فى قدرته على المنافسة مع المزارع الكبيرة الحديثة فى تلبية احتياجات المدن والمناطق الصناعية من خضروات وألبان ولحوم . وهذه القطع المجزأة ، والتى أصبحت جزءا من اللاندسكيپ الحالى ، تمثل التركة التى ورثها المزارع من عهود سابقة مثلها ومثل القرى الزراعية التى يعيش فيها .

(١) الحقول المفتوحة Open Fields

يمكن أن نفتنى أصل الممتلكات المجزأة إلى الممارسة التقليدية لنظام الحقول المفتوحة . وفى ظل هذا النظام الضارب فى التقدم كانت المشاعية قوية إذ يخرج كل مزارعى القرية ويعملون سنويا فى الحقول وفق تواريخ محددة للقيام بعمليات الحرث والزراعة والحصاد . وكان كبار رجال القرية هم الذين ينتقون نوع المحصول الذى يزرع وذلك وفق دورات زراعية محددة مثل نظام الدورتين أو الثلاث دورات كما كانت المزرعة عادة ما تقسم إلى عدد من الوحدات الكبيرة تسمى زيغلن (Zelgen) : تزرع وحدة معينة بالقمح فى سنة معينة بينما تترك وحدة أخرى بورا بينما تخصص الثالثة لزراعة الشوفان أو الشعير .

وكان المزارع يعمل فى قطعة صغيرة أو أكثر داخل هذه الوحدات ويتبع أوامر كبار رجال القرية بخصوص وقت الزراعة والمحصولات التى يزرع فيها . ولما كانت هذه القطع الفردية تحاط بسياج أو سور ، ومن ثم جاء تعبير الحقول « المفتوحة »

كما كانت الأرض توزع بتساو وعدل على أفراد القرية ثم يعاد توزيعها سنويا كما شرحنا سافا .

وكان هناك نمطا حقل رئيسيين مرتبطين بالملكتات المجزة التابعة لنظام الحقول المفتوحة :

(١) في المناطق الواقعة إلى الشمال من جبال الألب كانت القطع الفردية التي يعمل فيها المزارع تتخذ شكلا طويلا وضيقا . ويعتقد أن هذا الشكل الغريب تم اختياره ليسع المحراث الألماني الضخم الذي يصعب تدويره لحجمه وثقله . ولتقليل الجهود الذي يبذل في هذه العملية اختار المزارعون القطع الطويلة الضيقة التي تتطلب دورانا أقل .

(٢) أما النمط السائد في منطقة البحر المتوسط الأوروبية فيختلف من ذلك الذي كان شائعا في شمال الألب . فالقطع كانت تنسم بعدم الانتظام في الشكل الذي غالبا ما يكون مستطيلا . وكان المحراث المستخدم في حقول الحبوب في المناطق الرومانية صغير الحجم وسهل التحكم فيه . وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم الأراضي الخصبة في جنوب أوروبا كانت قد خصصت لزراعة البساتين والكروم وفيها كانت المعزقة تمثل الأداة الزراعية الرئيسية ، ولذلك فإن الحقول الطويلة الضيقة لم تكن لها أى ميزة ومن ثم لم تلق شعبية في هذه المنطقة . ومع تقدم الزمن وازمحلال الرباط الطائفي وتماسك المجموعة أخذت الملكية الفردية تحل محل الملكية الجماعية تدريجيا ، ومع تقلص نفوذ كبار القرية أوقف العمل بنظام إعادة التوزيع السنوي ومن ثم أصبح المزارع حرا في اختيار ما يناسبه من محصول في أرضه . وبهذه الوسيلة تطورت المزارع الحديثة والتي تتكون من منزل وحديقة في القرية وعشرات أو مئات من الحقول الصغيرة المتناثرة في الأرض المجاورة .

(٣) الإصلاح الزراعي :

تميز المملكتات المجزة بانخفاض كفاءتها الإنتاجية كما يتضح من المثال الآتي : في مقاطعة ليون Leon, الأسبانية وبالقرب من مدينة زامورا Zamora

يملك مزارع ٣٩٤ قطعة منفصلة من الأرض الزراعية ، يصل متوسط مساحة كل قطعة حوالى ٠.١٧ هكتار ، بينما فى قرية سيشامب^١ Seichamp فى مقاطعة اللورين الفرنسية تم تقسيم ٣٢٥ هكتار تخص كل مزارعى القرية إلى ١٤٥١ قطعة ، مساحة كل قطعة حوالى ٠.٢٢ هكتار . ومثل هذه الحقول الصغيرة زائدا الرقت المطلوب للتنقل إليها وبينها يضع المزارع الأوروبي فى موقف ليس فى صالحه خاصة فى وجه المنافسة من الأماكن المائلة ذات الأراضى الشاسعة . واعترفا بهذه المشكلة ، سعت الحكومات المختلفة إلى تطبيق برامج الإصلاح الزراعى واستصلاح الأرض الذى يتطلب إعادة رسم حدود الأملاك لتقليل أو إيقاف عملية تجزئة الملكيات الزراعية .

بدأ إصلاح الأرض فى إنجلترا منذ القرن الثالث عشر كجزء من حركة عرفت بالفقل Enclosure ووصلت قمتها بين عامى ١٤٥٠ و ١٧٥٠ حين قام ملاك الأرض بإلغاء الممتلكات المجزأة وإحلال الحقول المفتوحة بمزارع ذات وحدات زراعية كبيرة ومحاطة بمحاجز من الشجر ، وغالبا ما تم ذلك تلبية لرغبتهم فى التحويل من إنتاج المحصولات إلى تربية الضأن . وعند قيام الثورة البروتستانتية كان نصف ٨٥٠٠ مقاطعة فى إنجلترا قد تم إحاطتها . ثم انضمت الحكومة البريطانية إلى صف الملاك حتى تم تطبيق الإصلاح فى القرن الثامن عشر ما عدا فى أماكن قليلة حيث توحيد الممتلكات المجزأة . ومن المناظر المألوفة فى الريف البريطانى منظر صفوف الأشجار التى زرعت على طول حدود الملكيات والحقول حيث كان موضع السياج الشجرى الأصيل .

أما فى اسكتلنداوه حيث كانت تجزئة الأرض أقل حدة ، فقد حدث تقدم ملحوظ فى الإصلاح أثناء القرنين الثامن والتاسع عشر رغم أن عملية الإدماج ما زالت مستمرة . وأصدرت الحكومة الدنماركية أمرا فى عام ١٧٨١ طالبة إنهاء الحقول المفتوحة وتوحيد القطع وتم ذلك فى عام ١٨٣٥ . ولكن التوفيق لم ولكن هناك تقدم بطيء فى هذا المضمار وإن كان القضاء النهائى للقطع المتناثرة

وإلغاؤها نادر الحدوث . وهناك خطط عملت للإسراع في تطبيق برامج الإصلاح في دول السوق الأوروبية المشتركة ، كما تم إنجاز الإصلاح في قرية 'Nerdien' بـيردلين في ألمانيا الغربية في عام ١٩١٥ ولكن ما زالت هناك أراضى مجزأة كما نرى في هذا الجدول :

جدول ١١ : أمثلة توضح التقلص في عدد الملكيات المجزأة في نيردلين

| عينة المزرعة | عدد القطع قبل إصلاح الأرض | عدد القطع بعد تطبيق الإصلاح |
|--------------|---------------------------|-----------------------------|
| المزارع أ | ٢٩٦ | ٢٤ |
| المزارع ب | ٢١٦ | ٢١ |
| المزارع ج | ٩٢ | ١٣ |

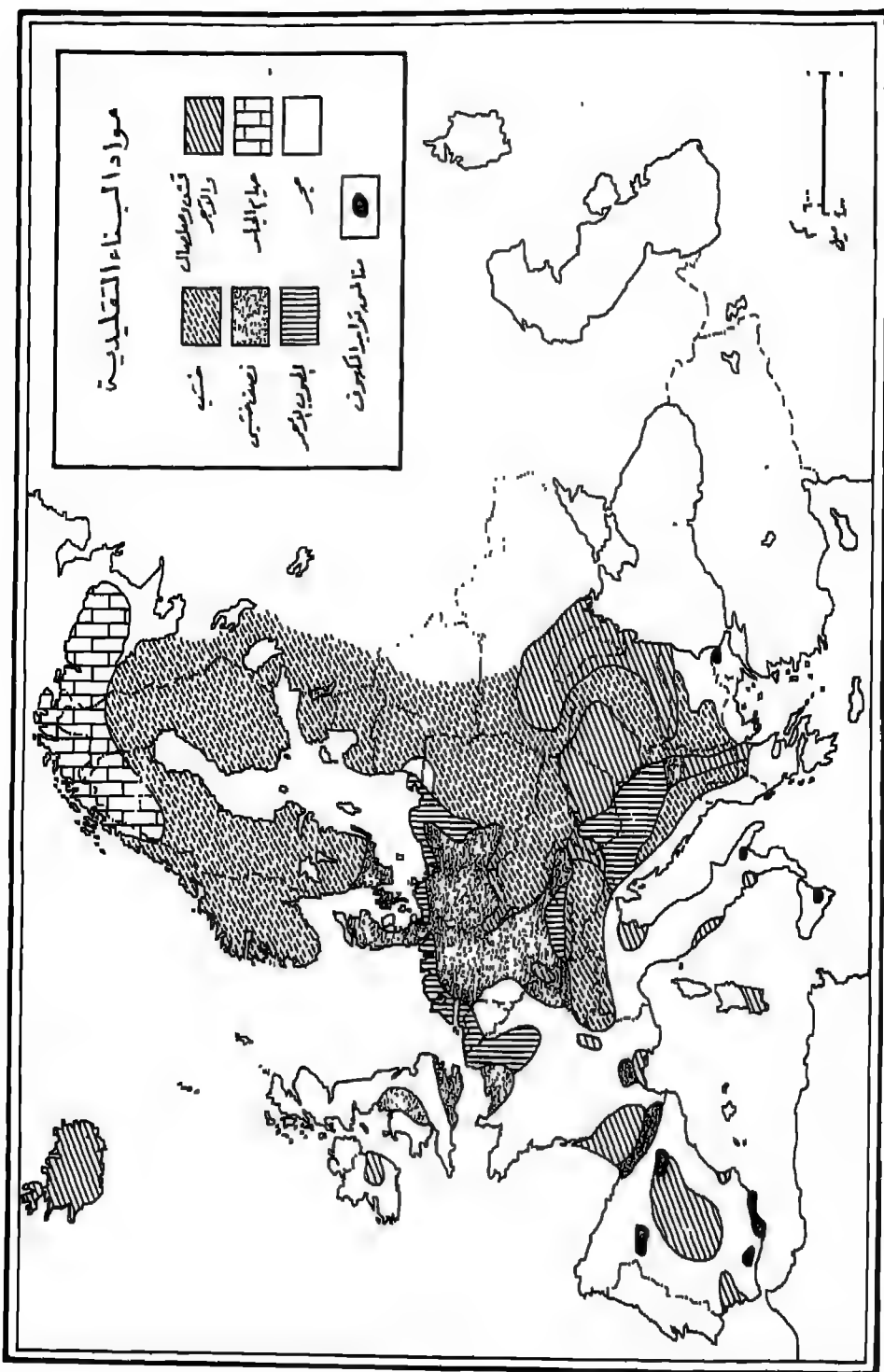
أما الدول الشيوعية فقد حلت موضوع الملكية المتجزئة بتطبيق المشاعية أو الجماعية والغاء الملكية الخاصة وتحويل الأرض إلى مزارع جماعية ضخمة ومزارع دولة . وقد يتيح هذا التحول إلى المزارع الكبيرة تطبيق أحدث الوسائل العلمية والآلات الزراعية الحديثة فيها أكثر من الحقول الضيقة الصغيرة المتناثرة التي نجدها في الغرب .

(ج) أنواع المنازل :

من أكثر الأشياء التي تجذب نظر المسافر عبر الريف الأوروبي المتغير تلك التي تتعلق بالمنازل التقليدية والمنازل الزراعية والتي هي من أكثر عناصر الريف عرضة للتغيير من منطقة لأخرى : فكل إقليم تقريبا يظهر طريق بناء وفنا معماريا شعبيا محليا خالصا ، ورغم هذا التنوع في أنواع المنازل وطرق بنائها وأشكالها يمكننا أن نميز سمات معينة سائدة على امتداد مناطق شاسعة ، ومن هذه السمات :

١ - مواد البناء التقليدى (الشكل ٤٤) :

تعتبر مواد البناء من المعالم أو الصفات التي تميز أنواع المنازل والمنازل الزراعية . وقد يشمل أبسط طرق البناء استخدام التراب أو التراب المتناسك مثل الآجر . وهذه مواد أوقف استخدامها في أوروبا منذ أمد طويل . وفي بعض أئجزاء أشباه جزر البحر المتوسط ما زال الطوب المصنوع من الطين يستخدم في البناء خاصة في سهول



الدلتوات حيث يندر وجود الحجارة . وطريقة أخرى بدائية هى وضع كميات من الطين حول نسيج من الأغصان والفروع أو الأعشاب أو البوص لعمل حيطان المنزل . وهذه الطريقة تمارس فى مناطق مختلفة من أوروبا مثل سهول أيرلنده ومستنقعات فيندى Vendee فى فرنسا وسهول رومانيا . أما فى منطقة الحشائش التى تمتد من أوروبا الشرقية إلى سهول أكرانيا فما زالت البيوت المبنية من الآجر المخلوط بالقش شائعة حتى اليوم . وفى أيسلنده كانت الحيطان عادة ما تبنى بالقش وقطع التربة ثم تزرع عليها الحشائش ، وتزين الواجهة بالأخشاب التى يجلبها البحر . والملاحظ أن هذه المنشآت المبنية من التراب تسود فقط فى المناطق التى تخلو من الحجارة والأخشاب كما فى منطقة البحر المتوسط حيث تندر الحجارة فى السهول وفى أيرلنده حيث توجد الصخور فى عمق تحت المستنقعات . أما الكهوف فقد أصبحت من سمات عصور ما قبل التاريخ إلا فى مناطق معينة من أسبانيا وبعض الدول وجنوب إيطاليا وصقلية وقبرص .

(أ) الحجر :

يعتبر الحجر من أكثر مواد البناء شيوعا ، وتسود المباني الحجرية فى معظم أجزاء أوروبا الجنوبية وتنتشر غربا بعض أجزاء الجزر البريطانية . والملاحظ أن هذا النطاق جبلى فى كثير من أجزائه حيث يتواجد الحجر على السطح . ويمكن الحصول عليه بدون صعوبة إلا فى سهول ودلتوات الأنهار الكبيرة ، كما أن الحجر الجيرى كثير الوجود والمباني الحجرية هى التى تضى نوعا من التمييز على اللاندسكيپ الحضارى فى أوروبا الجنوبية لأن كل المعالم البشرية مصنوعة تقريبا من هذه المادة مثل المنازل والكنائس والمصاطب والكبارى والحواجز وحتى بقايا الحضارات القديمة . ويتطابق نطاق المباني الحجرية مع المناطق التى شهدت إزالة الغابات منها ، وهناك أدلة أثرية تشير إلى أن إنسان هذه المنطقة كان يفضل البناء بالخشب فى فترة سابقة عندما كانت الأخشاب متوفرة ، وأنه اتجه إلى البناء بالحجارة بعد مآتم إزالة الغابات التى كانت تدمه بالأخشاب . وقد اكتسب سكان جنوب أوروبا مهارة فائقة فى هذا النوع من البناء وعلى يدهم انتقل هذا الفن إلى شمال جبال الألب عندما استعان المسؤولون بهؤلاء فى بناء الكنائس والمنشآت المهمة .

(ب) الخشب :

أما البناء بالخشب فقد كان سائدا منذ فترة طويلة في الأجزاء الشرقية والشمالية من أوروبا : في الأقاليم السلافية والدول الاسكندنافية وكذلك في المناطق الحبلية من أوروبا الوسطى . وهذه المناطق هي أكثر أجزاء أوروبا تغطية بالغابات ويمكن أن نقول كقانون عام أن الخشب هو أكثر المواد استخداما في البناء حيثما تتوفر الغابات . وكان البناء بقطع الخشب الكامله Logs هو أكثر طرق البناء شيوعا ولو أن أهميته قد تلاشت تقريبا . وقد اشتقت غرف الخشب الأمريكية Log cabins أصلا من المهاجرين السويديين والفلندين والألمان الذين أتوا من منطقة الغابة السوداء ، حيث كانت الكنائس تبنى بالخشب في هذه المناطق وهناك عاينات من هذه الكنائس . ما زالت موجودة في روسيا ومولدافيا الرومانية والنرويج . وتغلب المباني الخشبية على مباني مدن أوروبا الشمالية كما في مدينة بيرجن Bergen النرويجية ومدينة تامبير Tampere الفنلندية حيث كانت المباني الخشبية تؤلف ٨٤٪ منها حتى عام ١٩٠٠ . ومن أهم عيوب الخشب أنه عرضة للحريق وخاصة عندما يكون متجمعا في حيز ضيق، مثل القرى والمدن . وقد تعرضت مساكن كثيرة في سويسره للحرائق وحتى المدن الكبيرة مثل موسكو وبيرجين تعرضت لحرائق مدمرة من قبل .

(ج) الطوب :

يسود بناء الطوب في شريط ضيق من المستنقعات الساحلية ودلتاوات الأنهار التي تطل على سواحل بحرى البلطيق والشمال في الأراضي المنخفضة وألمانيا وشمال فرنسا . وقد كانت هذه المنطقة خالية جزئيا من الغابات لتعرضها للفيضانات كما أن الإرسابات الغرينية السميكة حالت دون الحصول على الحجر . ومن ثم كان لابد أن يستخدم الطوب في بناء المنازل ولونه المائل للاحمرار يضمن سمات مميزة للاندسكيب الحضارى في هذه المنطقة كما أن هناك منطقة أخرى في سهول شمال يوغسلافيا الداخلية تسود فيها مباني الطوب .

(د) البناء المختلط :

يتميز معظم باقي أجزاء أوروبا خاصة ألمانيا والدنمارك وإقليم اسكانيا السويدية

ونويماندى والزاس وأجزاء من السهل الانجليزى بالبناء التقليدى الذى يسمى Half-timbering ، وفيه يقام إطار من خشب البلوط القوى كدعامة رئيسية مع دعامات أخرى مساعدة وتملأ الفراغات والفجوات بنسيج مصنوع من القروع والخشائش المخلوط بالطين . وفى الآونة الأخيرة استبدل النسيج بالطوب أو الحجر المكسور . وعامة يلبس هذه الفجوات ويطل باللون الأبيض كما أن العوارض الخشبية تطل بلون غامق مما يضفى على المنزل منظرا باهرا مميزا . ورغم أن هذا النوع من البناء عرف فى ألمانيا وأصبح من معالم ريفها الأساسية فإن هناك أجزاء منها خاصة تلك التى كانت تحت سيطرة الرومان جنوب الدانوب أو غرب الراين يندر فيها هذا النوع . وربما كان هذا البناء ابتكارا ألمانيا ومنها انتقل إلى إنجلترا وفرنسا بواسطة الغزاة الساكسون والفرنك . ويرتبط هذا النوع من البناء فيما يبدو بالمناطق التى شهدت إزالة معقولة للغابات حيث كانت الأخشاب كافية فقط لإمداد البنائين بأخشاب الإطار الضرورية ولكن ليس بالوفرة التى تسمح ببناء منازل خشبية كاملة .

ويمكن أن نعتبر هذا البناء وسطا بين المباني الخشبية السائدة فى الشمال ومباني التراب فى الجنوب . وقد ربط الجغرافى الألمانى أدولف هلبوك A. Helbok هذا النوع من البناء بمناطق غابات البلوط على أساس أن أشجار البلوط تصلح جيدا لعمل العوارض السائدة لكنها غير كافية لسد حاجة البناء بالخشب غير المنشور Log لأن الأشجار ليست مستقيمة بالدرجة الكافية لإمداد القطع الطويلة . ويوجد هذا النوع من البناء أيضا فى إقليم مقدونيا والصرب فى يوغسلافيا وجزيرة كورسيكا وإقليم الباسك وفى بعض أجزاء أسبانيا الوسطى وأقليم سقز فى جنوب فرنسا .

الحرسالة :

شهدت أوروبا خاصة فى النصف الأول من هذا القرن تحولا من مواد البناء التقليدية والاتجاه نحو مواد حديثة من الخرسانة . ونجد أن معظم المباني الحديثة تبنى من الأسمنت .

(٢) المعيار الشعبى :

يعتبر أسلوب البناء ، ربما أكثر من مواد البناء ، من أهم العناصر فى تصنيف

أنواع المنازل والمنازل الزراعية لأنه هو الذى يسترعى الأنظار ويجذب الانتباه . ورغم تنوع أسلوب البناء الشعبى فى أوروبا فإننا نستطيع أن نميز نوعين رئيسيين :

(١) المنزل الزراعى الذى يتكون من وحدة متكاملة Unit farmstead (Einneitshaus) ويضم تحت سقف واحد وفى بناء واحد ، مساكن الناس والحيوانات والمخازن .

(٢) المنزل ذو المباني المتعددة (Mehrbauhof) multi-structure farm-sleads ويشمل عددا من المباني المنفصلة . (الشكل ٤٥)

ويمكن تقسيم النوع الأول إلى صنفين آخرين على أساس عدد الطوابق . ففى الحزام الممتد عبر السهل الألمانى الشمالى إلى الأراضى المنخفضة والفلاندرز يوجد المنزل ذو الطابق الواحد وفيه يحتل الناس والحيوانات أجزاء مختلفة من المنزل . ويمكن أن نضم إلى هذه المجموعة الأنواع الآتية من المنازل : الساكسونى saxon والفريزيان Frisan والأيدرشتدت Eiderstedt . فالنوعان الأولان (ساكسون وفريزيان) يتميزان بتواجد غرف المعيشة والحظائر عند الأطراف المقابلة لبناء طويل يفصل بينهما الموقد ، ومبنى بالخشب والطوب half-timbering والسقف مغطى بالقش (hatch) . أما الأيدرشتدت فهو من أكبر المباني العائلية فى العالم ويتميز بسقف هرمى كبير من القش يغطى منزلا مربعا يتوسطه جرن threshing floor . وهذه الوحدات ذات الطابق الواحد تمثل أنواعا كانت سائدة فى سهول ألمانيا وبقيت حتى وقتنا الحالى ولو أنها فى طريقها إلى الزوال فى مناطق أخرى . وقد حملها الساكسون معهم إلى إنجلترا ولكن حدث تعديل فى القرن السادس عشر عندما تم فصل مساكن الحيوانات من المنزل إلا فى الأجزاء الشمالية من الجزيرة . وفى عام ١٤١٩ وبموجب قانون صدر فى لندن أصبح حفظ الحيوانات مع الناس تحت سقف واحد جرما يحاكم عليه .

أما المنزل ذو المباني المتعددة فهو أكثر شيوعا خاصة فى جنوب أوروبا والأقاليم الجبلية مثل جبال الألب والغابة السوداء . وفى هذه المنازل عادة ما يحتل الناس والحيوانات طوابق مختلفة وغالبا ما تكون الحظائر فى الطابق الأرضى وفوقها مباشرة



شكل (٢٤)

تقع غرف المعيشة . وربما يوجد مكان في أعلى المنزل attic لتخزين علف البهائم . وفي مناطق جبال الألب غالبا ما نجد قبوا cellar لصنع الجبن وفي مناطق زراعة العنب يستخدم القبو الموجود مباشرة تحت غرف المعيشة لتخزين النبيذ . أما في المناطق الأخرى مثل ما في بارفايا فهذه المنازل غالبا ما تتكون من طوابق متعددة وتبنى بجانب مخزن متصل به ، وتمثل منازل منطقة الغابة السوداء في جنوب غرب ألمانيا وشاليهات سويسرا أمثلة للوحدات ذات الطوابق المتعددة . أما باقي أجزاء أوروبا فتمسود فيها أنواع من المنازل ذات المباني المتعددة ، منها : (الشكل ٤٥) .

١ - المنزل ذو الفناء Courtyard Farmstead

وفي هذا النوع يتجمع المنزل والمخزن والمباني الأخرى حول ثلاثة أو أربعة جوانب لفناء مركزي داخلي ، ويوجد في منطقة من أوروبا الوسطى تمتد من شمال فرنسا شرقا إلى بولنده والبلقان . وأحسن مثال لمثل هذه النوع من المنازل هو المنزل الفرنكي الذي يتطابق توزيعه مع نطاق انتشار اللهجة الألمانية الوسطى ونطاق النفوذ القديم للقبائل الفرنكية . وفي أغلب الأحيان تحيط المباني بالفناء الداخلي من ثلاثة جوانب ويكون السور الخشبي والبوابة الجانب الرابع من السياج ويحتمل أن المنزل الفنائي قد صمم في البداية لغرض الدفاع على مستوى العائلة .

٢ - أما أنواع المنازل الأخرى فهي لا تتجمع حول الفناء بل تتكون عادة من مجموعة من المباني المتناثرة حول أو بالقرب من المنزل ويعرف عند الجغرافيين الألمان باسم streuhoi أى المنازل المتناثرة وهذا النوع أكثر شيوعا في أمريكا الشمالية منه في أوروبا .

وينحصر وجوده في أوروبا في شمال وشرق القارة الذي يتطابق مع نطاق البناء الخشبي حيث يتطلب إبعاد المنازل من بعضها البعض تفاديا للحرائق علاوة على ذلك فإن البيوت المتناثرة لها علاقة بالمنازل المتناثرة ذات الحقول الكبيرة حيث لا توجد ضرورة لازدحام المنازل .

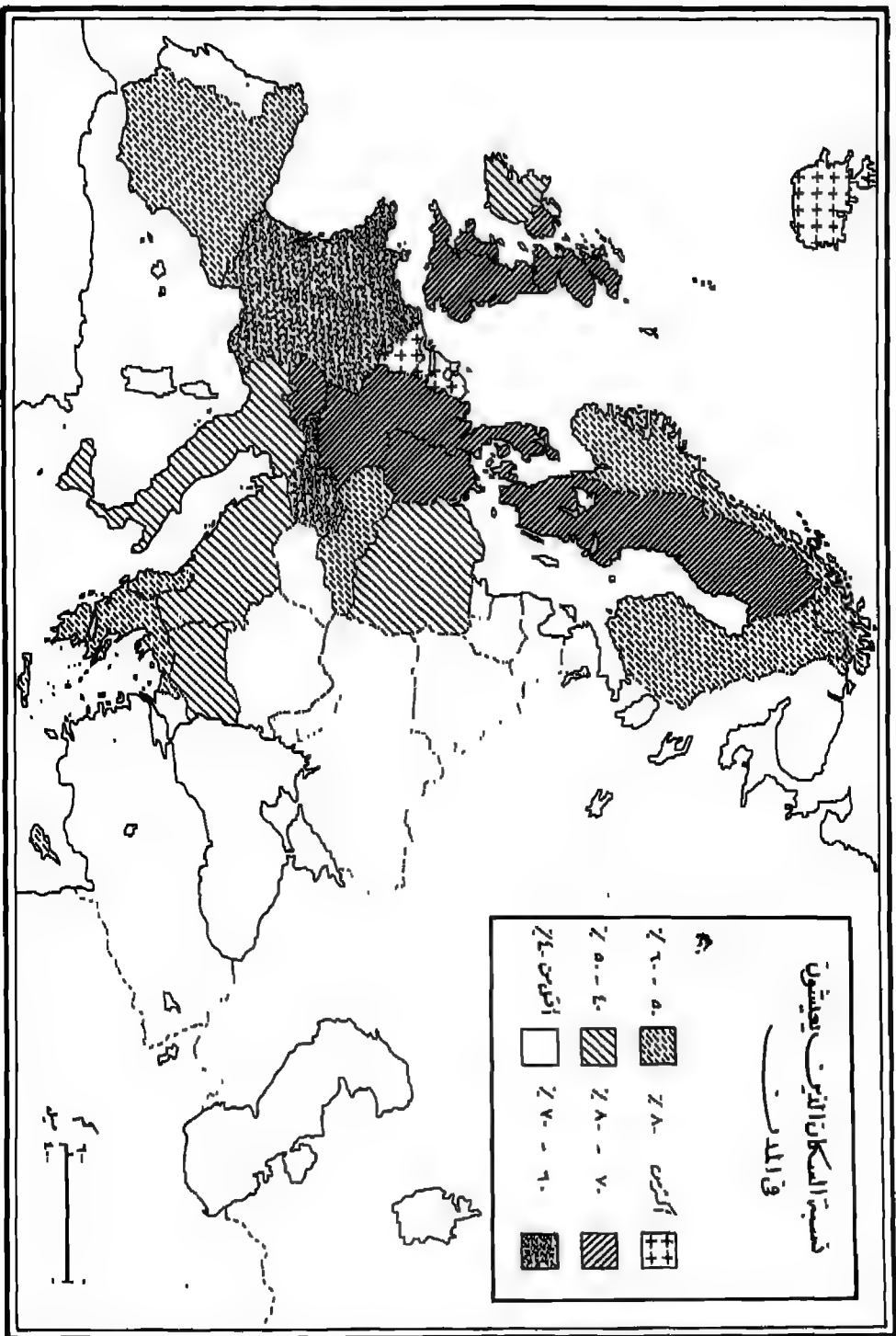
وهكذا نجد أن المظهر الحضارى للريف الأوروبى يعكس إلى حد بعيد قدم المنطقة وقدم الاستيطان فيها . فالقوى التى أنتجت أنماط الحقول وأنواع المنازل والقرى الزراعية المختلفة كثيرا ما تكون ضاربة فى جذور التاريخ القديم وممثلة فى القدم أحيانا حتى أصبحت غير معروفة لدى العلماء . ولكن يد الزمن ومتطلبات العصر الحديث قد أخذت تحدث تغييرات جذرية فى الريف ، فالأشكال التقليدية التى لا تتمشى مع متطلبات القرن العشرين قد أخذت تندثر ببطء . ومع اندثارها سيفقد الريف الأوروبى كثيرا من سحره وجماله ... ثمنا للتقدم .

الفصل العاشر

جغرافية الاستيطان الحضري

شهدت أوروبا نهضة صناعية ضخمة خلال المائة سنة الأخيرة . ونتيجة لذلك تحول معظم الأوروبيين إلى سكان مدن إلى درجة أننا نجد أن أربعة أخماس أو أكثر من سكان بعض الدول الصناعية الكبرى يقطنون المدن بأنواعها . وترتفع نسبة سكان المدن في غربي أوروبا وتنخفض كلما اتجهنا نحو الجنوب والجنوب الشرق كما يتضح من الجدول التالي . ولكن هذه النسب يجب أن تؤخذ كمؤشر أو دليل لأن المفهوم الإحصائي لسكان المدن يختلف من قطر لآخر كما يختلف التعريف أو التحديد القانوني للمدينة . وكذلك نسبة التحضر . ففي أوروبا الغربية حيث تصل نسبة سكان المدن في بعض الدول إلى أكثر من ٨٠٪ فإن نسبة المجموع الكلي للسكان في المدن ترتفع في بطة. الآن لأن فترة التحضر السريع التي حدثت في القرن الماضي قد شارفت النهاية . والمسألة الآن تتلخص فيما إذا كانت دولة أو إقليم بأكمله سيتحول إلى مناطق حضرية حسب المفهوم الجغرافي الحقيقي أم حسب المفهوم الإحصائي . فالهجرة إلى المدن ما زالت عالية في شرق وجنوب شرق القارة الذي ما زال يشهد نهضة حضرية كبيرة . وحتى في المناطق التي تقل فيها نسبة سكان المدن فإن هذه النسبة عالية إذا قارناها مع النسب الموجودة في أفريقيا وآسيا . (الشكل ٤٦) .

| بلجيكا | ٨٧ر١ | نسبة سكان المدن في الدول الأوروبية | ١٢ جدول |
|-----------------|------|------------------------------------|---------|
| السويد | ٨١ر٤ | فنلندة | ٥٧ر٧ |
| ألمانيا الغربية | ٧٩ر٢ | أيرلندة الشمالية | ٥٤ر٧ |
| إنجلترا وويلز | ٧٧ر٧ | سويسره | ٥٤ر٦ |
| هولندة | ٨٧ر٢ | بولندة | ٥٤ر٤ |
| ألمانيا الشرقية | ٧٥ر٤ | أيرلندة | ٥٢ر٢ |
| | | النمسا | ٥١ر٩ |



| | | | |
|---------------|------|-----------|------|
| فرنسا | ٧٠ر١ | المجر | ٤٩ر٧ |
| اسكتلنده | ٧٠ر٠ | النرويج | ٤٤ر٨ |
| لوكسمبورج | ٦٨ر٩ | رومانيا | ٤٢ر٧ |
| الدنمارك | ٦٦ر٩ | يوغسلافيا | ٣٨ر٦ |
| تشيكوسلوفاكيا | ٦٦ر٧ | البانيا | ٣٣ر٨ |
| اليونان | ٦٤ر٨ | البرتغال | ٢٦ر٤ |
| بلغاريا | ٥٨ر٧ | اسبانيا | ٥٦ |

عرفت أوروبا المدينة من قبل العصر الكلاسيكى مما يستدعى معرفة أصولها الحضرية لالقاء الضوء على التركيب الحضري لأوروبا الحديثة .

(١) تطور المدينة قبل الثورة الصناعية :

(١) المدن الفينيقية واليونانية :

ظهرت أولى المدن الأوروبية في الهلال الخصيب ، حيث أدت نشأة الزراعة المروية الى فائض في انتاج الطعام الذى بدوره حرر جزءا كبيرا من سكان تلك المناطق - خاصة بلاد الرافدين - من مهمة انتاج الطعام . كما أوجد هذا الفائض مادة مهمة للتجارة . وكان لابد من سلطة مركزية قوية لادارة وضبط عمليات الرى المختلفة ومنشآته المعقدة وتنفيذ المشروعات المتعلقة به ، وادارة الشونة وتوزيع ما بها من محصولات . ومن هذه البلاد انتقلت هذه النواة الى الغرب ووصلت جزيرة كريت في الالف الثالثة قبل الميلاد ، وكانت الجزيرة الصغيرة مهيمنة بحكم موقعها الجغرافى للسيطرة على جزء كبير من تجارة المنطقة الشرقية من حوض البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

انخرط اولئك الذين تحرروا من انتاج الطعام في ممارسة نشاطات مختلفة ولكن التجار كانوا يكونون أهم مجموعة بين هؤلاء ، ولذلك عرفت المدن التى ظهرت قبل النهضة الصناعية بالمدن التجارية mercantile city رغم أن المزارعين كانوا يشكلون الاكثرية من بين سكانها .

ومن جزيرة كريت انتشرت الحضارة المدينية إلى اليونان بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. بقليل ، وبحلول عام ١٤٠٠ ق.م. احتل سكان «مايسينا» Mycenae الحضرية في بيلوبونيسوس peloponnison مكانة مرموقة ، ومن ثم شهدت بلاد اليونان زيادة كبيرة في عدد المدن في القرون التي تلت حتى بلغت في القرن الخامس ق.م. ستائة مدينة في شبه الجزيرة وبقية مناطق ايجه .

كما أنشأ التجار الاغريق مدنا في شواطئ البحر المتوسط الأوروبية في آسيا الصغرى حول البحر الأسود في الفترة ما بين ٧٥٠ و ٥٥٠ ق.م. وما زالت بعض هذه المدن التجارية باقية حتى اليوم مثل سيراكيوزا في قبرص ومارسيلييا في فرنسا . كما ساهم الفينيقيون في إنشاء مدن على الشواطئ الأوروبية منها قرطاجة في أسبانيا . لم تكن هذه المدن اليونانية والفينيقية عظيمة لافي مظهرها ولا في حجمها وعادة ماكانت المدن اليونانية تحاط بمحاط وتضم من الداخل قلعة تقع في مكان مرتفع ، وشوارع ضيقة متعرجة ومنازل مبنية من الآجر أو الخشب وميدانا عاما وبعض المباني العامة مثل المعابد والمسارح . وبمرور الزمن تحول كثير من المدن اليونانية إلى دول مدينية 'city states' تتكون من المدينة ومنطقة مجاورة تمتدها بما تحتاج اليه من طعام . وبحلول عام ٦٠٠ ق.م كانت هناك حوالي ٢٠٠ دولة مدينية . وهذه الدول هي التي أدت في النهاية إلى النشاط الثقافي الكبير الذي بلغ أوجه في العصر الذهبي الكلاسيكي والحكومات الديمقراطية .

(٢) مدن أترسكا والرومان :

أخذ المركز الحضري يتحرك تدريجيا من بلاد اليونان إلى ايطاليا حيث أضاف الاترسكيون فيما بين عامي ٧٠٠ و ٥٠٠ ق.م عددا من المدن إلى تلك التي أنشأها الإغريق والفينيقيون . ورغم أن الاترسكين اتخذوا الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الواقع إلى الغرب من جبال الالبانين مركزا لنشاطهم فإن نفوذهم في عملية التحضر امتد حتى شمال سويسرا وبلاد الدانوب في جنوب ألمانيا حيث بدأت القبائل المحلية في بناء مدن محصنة .

وتأثر الرومان في هذا المجال باليونان والاترسكيين . ففي بداية عظمتهم كان إقليما

لازيو Lazio وتوسكانا Toscana يحتويان على اثنتين وأربعين مدينة . وفى عهد أغسطس كانت إيطاليا تفخر بإنشاء ٤٣٠ مدينة جديدة . أما أهم إنجاز روماني فى هذا المجال فيتمثل فى تطوير عاصمتهم روما . فى أوج عظمتها كانت روما تضم مايقرب من تسعة ملايين نسمة فى مساحة لا تزيد عن ٢٣ كيلومتر مربع . وكان الماء يوزع بالمواسير كما كان بها نظام مجارى وحمامات عامة وقوة بوليسية لحفظ النظام فى مدينة نصف سكانها من العبيد . وكان الرومان سببا فى نشر حياة الحضرة فى أوروبا عن طريق إنشاء مدن جديدة فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا وداخل أيبيريا وأماكن أخرى . وحول المعسكرات والثكنات الحربية نمت مدن جديدة مثل لانكاستر ووينشستر Winchester ، Lancaster (كاستر - من الكلمة اللاتينية castra بمعنى معسكر جيشى) . وتوافد التجار والحرفيون إلى هذه المعسكرات لمد العساكر باحتياجاتهم من أكل وغيره ثم استقروا بالقرب منها وهكذا أسهموا فى إنشاء نواة تطورت فيما بعد إلى مدن . وكثيرا ما كان الرومان يستولون على قرى الأعداء المحصنة ويقومون بتوسيعها وتطويرها ، فى حين أن مدنا أخرى أخذت تنمو تلقائيا عند ملتقى الطرق التجارية .

أما المستعمرات colonies فكانت عبارة عن مدن جديدة يتم إنشاؤها بأمر الدولة ويقوم بتخطيطها المساحون ، وتبنى عادة فى إيطاليا نفسها . وتميزت هذه المدن بشوارعها المستقيمة المتوازية مع بعضها البعض والتي تتقاطع فى زوايا قائمة ، وبها شارعان رئيسيان يلتقيان فى زوايا قائمة مع بعضهما فى وسط المدينة ، حيث يوجد المنبر والمباني . وتماثلا المدن اليونانية كان معظم المدن الرومانية صغيرة وغير ذات أهمية نسبية وتخدم أساسا كأسواق محلية كما كانت تختلف فى أحجامها ، فى فرنسا كان سكان المدن الرومانية يتراوح ما بين ٦٠٠ إلى ٣٥٠٠٠ شخص وفى إنجلترا بين ٥٠٠ إلى ٣٧٠٠٠ شخص (لندن) .

وقد بقيت آثار الرومان إلى اليوم متمثلة فى شوارع بعض المدن الحديثة مثل بافيا Pavia فى شمال إيطاليا وزرارجوسا Zaragosa فى أسبانيا (سرقسطة) وكولون Koln فى ألمانيا وشستر Chester فى إنجلترا ، كما احتفظت مدن كبيرة بالأسماء

اللاتينية الأصلية مع بعض التحريف مثل كولون (Koln) (كولونيا)
(Colonia) ريمس Reims (ريمي) Remi يورك York (ابوراكم)
(Eboracum) لندن (لوندinium) (Londinium) وبوردو Bordeaux
(بوردقالا Burdigala) . ومثلا بدأت زراجوسا Zaragosa باسم « سيزاريا
أوغسطا Caesara Augusta وحرفها العرب إلى « سرقسطة Zarakusta ،
ثم أصبحت Zaragoza على يد المسيحيين .

وكانت المدن الكبيرة تجارية في وظيفتها ، ولكنها أيضا كانت تؤدي وظائف
إدارية وحرية وكان العساكر يكونون نسبة كبيرة من سكانها . ومع انتشار المسيحية
وقبولها كدين رسمي أصبحت الوظيفة الدينية تكتسب أهمية خاصة في بعض المدن
التي أصبحت مركزا للأديرة أو مقرا لسلطة دينية .

(٤) التدهور الحضري في العصور المظلمة :

مع غارات القبائل البربرية على الإمبراطورية الرومانية شهدت أوروبا فترة تدهور
حضري . ومع سقوط الإمبراطورية تفشت الفوضى وعدم الاستقرار مما أدى إلى
تدهور شديد في النشاط التجارى الذى كان يكون عصب هذه المدن . وتحولت
بعض المدن في غرب أوروبا إلى قرى زراعية بينما أخلت مدن أخرى وهجرت وأصبح
الدين هو الأمل الوحيد في بقاء المدن وأصبح وجود مركز أسقف أو دير في مدينة ما
سببا في بقائها واستمرارها في تلك الفترة المظلمة . وكان هذا التدهور الحضري أقوى
في أطراف الإمبراطورية منه في داخلها مثل جنوب ألمانيا وإنجلترا وشمال فرنسا
وسويسره والنمسا . أما في أيريا وإيطاليا واليونان وجنوب فرنسا فقد ظلت المدن رغم
تقلص عدد سكانها محتفظة ببعض الصفات الحضرية . .

مع عودة النظام والاستقرار في ظل النظام الإقطاعى في القرن الحادى عشر
ازدهرت التجارة وتم إحياء مدن رومانية عديدة وبناء مدن جديدة خارج حدود
الإمبراطورية القديمة في شمال ألمانيا واسكندناوة وبلاد الصقالبة . ويحتمل أن نشأة
مدن العصور الوسطى قد حدثت بطرق عديدة :

١ - كان بعض المدن عبارة عن توسيع بعض المواضع التي استطاعت الاستمرار والاحتفاظ بنشاطها التجارى أثناء فترة الاضمحلال .

٢ - ويبدو أن البعض تطور عندما استقر عدد من الحرفيين والفنيين في قرى زراعية كبيرة وقيامهم بخدمة المناطق المجاورة بإمدادها بالبضائع المصنعة . ومثل هذا الأصل توحى به أسماء الأماكن التي تنتهى بمثل هذه الكلمات : dou (تعنى قرية) Mulhouse , house , housen , ingham , ingen , heim (فرنسا) و Nordlingen (ألمانيا الغربية) و Birmingham (فى إنجلترا) . Nordhausen (ألمانيا الشرقية) و Hildesheim (ألمانيا الغربية) . Dusseldorf (ألمانيا الغربية) .

٣ - أما معظم المدن فقد نمت وتطورت من مراكز محصنة قديمة والتي هى عبارة عن مواضع يسيطر عليها معقل إقطاعى أو سلطة دينية . وقد شهد القرن التاسع والعاشر فترة بناء رئيسية للقلاع بواسطة ملاك الأرض الإقطاعيين فى سعيهم للسيطرة على مناطق الريف المجاورة . وكان التجار المتنقلون هم الأداة فى تحويل هذه المراكز المحصنة إلى مدن مزدهرة عندما لجأوا إلى هذه المعاقل لمباشرة أعمالهم تحت حمايتها فى الأسواق المحلية . ثم دفعتهم الرغبة فى الحصول على مساكن شتوية آمنة إلى إنشاء مساكن دائمة عند هذه المراكز عرفت بمستعمرة التجار . وفى مراحل تطورها الأولى كانت المدينة تتكون من مراكز متميزة : القلعة ، سوق أو سوقين ، بيوت محصنة ومتناثرة للتجار ، كنيسة وبعض منازل المزارعين .

٤ - إنشاء مدن جديدة على أسس مخططة بواسطة سلطة مركزية على غرار المستعمرات الرومانية القديمة ، وتكثر مثل هذه المدن فى المناطق الألمانية الشرقية وتتميز بالشوارع المستقيمة التي تقاطع بعضها فى زوايا قائمة .

أما الخصائص الثلاثة الرئيسية للمدينة الأوروبية فى العصور الوسطى فهى : الصك أو العقد أو الميثاق charter وسور (حائط) المدينة والسوق . فالميثاق عبارة عن قانون أو أمر من امبراطور أو حاكم يمنح بموجبه السيادة أو الحكم الدائى للمدينة وتحرير سكانها من قيود الإقطاعية السائدة فى المناطق الريفية . وكانت المدينة

تحكم ذاتيا ومسئولة عن الدفاع عن نفسها . ثم أخذت المدن التي تنتمي إلى التجار الأثرياء تطلب منحها هذه الموانئ لتتحرر من قيود الإقطاعيين التي كانت تقف حجر عثرة في وجه التجار تعوق تحركاتهم ومبادراتهم الشخصية . وكان الحرفيون والفنيون يؤيدون مثل هذه الطلبات خاصة بعد أن أنشأوا مهنا متخصصة في المدن . وقد سمحت الصكوك لإنشاء دول مدينية على غرار المدن الكلاسيكية في معظم أنحاء أوروبا الغربية . وما زالت مدن كثيرة تحسب تاريخ إنشائها من يوم حصولها على الصك .

أما السوق ، والتي كانت تضم قاعة تجارية ، فكانت تمثل مركز النشاط الاقتصادي في المدينة لأن الوظيفة التجارية للمدينة ظلت سائدة أثناء العصور الوسطى . وكانت المعارض التجارية السنوية تقام في بعض المدن الكبيرة ، وقد بقيت بعض هذه المعارض في بعض المدن إلى يومنا هذا مثل معرض لا ييزيچ وفرانكفورت وميلانو وليون .

أما من ناحية أحجامها فقد كانت مدن العصور الوسطى أشبه بمدن العصر الكلاسيكي ، وقليل من زاد سكانها عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة مثل باريس وناپولي . ثم شهدت أوروبا في الفترة ما بين بداية القرن السادس عشر وانتشار الثورة الصناعية تطورات مهمة في التركيب الحضري . فقد توقف تشييد المدن الجديدة إلا من عدد ضئيل منها تم إنشاؤها على أسس مخططة وكمراكز سياسية أو مصايف بشوارع واسعة تتفرع من الوسط وتحتوي على بعض المباني الفخمة . أما المدن الموجودة فأخذت تنمو وتزداد حججا إلا في بعض المناطق مثل شمال إيطاليا حيث أدى قطع العلاقات التجارية إلى تقلص في النمو الحضري . وما لبثت الدول المدينية أن فقدت أهميتها وازمحلّت عندما أخذت المدن تفقد تدريجيا وضعها السياسي المستقل وتدمج ، قهرا في بعض الأحوال ، في الإمبراطوريات والدول الكبرى باستثناء ألمانيا حيث احتفظت المدن بحكمها الذاتي داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكان عدد المدن المستقلة في ألمانيا حتى عام ١٧٩٠ يربو عن ثلاثين مدينة يتجمع معظمها في الجزء الجنوبي الغربي من الدولة . وما زال بعض بقايا دول العصور الوسطى

المدينة موجودة كما في هامبورج وبريمن اللتين تحتفظان بوضع الدولة داخل جمهورية ألمانيا الفيدرالية ، وسان مارينو المدينة المستقلة التي تقع في إيطاليا . صاحب تدهور الدول المدينة ظهور العواصم القومية وتطورها إلى مدن كبرى . في عام ١٤٠٠ كان سكان لندن لا يتعدون ٥٠٠٠٠ نسمة وبريستول ٣٠٠٠٠ . وفي خلال ثلاثة قرون قفز عدد سكان لندن إلى ٧٠٠٠٠٠ بينما ظلت بريستول على حالها . كما وكان يصحب اختيار مدينة كعاصمة قومية تغييرات جذرية في شكلها كتوسيع الشوارع وإزالة المباني البالية القديمة .

ولكن عملية التحضر لم تؤثر كثيرا في نمط توزيع سكان أوروبا : ففي عام ١٦٠٠ كان عدد السكان الذين يعيشون في مدن سكانها ١٥٠٠٠٠ لا يتعدى أربع ملايين نسمة من مجموع ٨٥ مليون شخص أى ٥٪ فقط . وفي هولندا وإيطاليا ، وهى من أكثر دول أوروبا تحضرا آنذاك ، بلغت نسبة سكان المدن فيها إلى ١٢٪ و ١٣٪ من مجموع السكان في حين أن ٢٪ من سكان ألمانيا وبريطانيا وفرنسا فقط كانوا يعيشون في المدن .

(ب) المرحلة الصناعية من ١٨٠٠ إلى الآن :

طرا تغير كبير على المدن الصناعية خلال القرنين الماضيين نتيجة الثورة الصناعية : فقد أصبحت الصناعة من الوظائف الأساسية لكثير من المدن كما تقلص نفوذ المدن التجارية . وأهم سمات هذه المرحلة الصناعية هو الزيادة الكبيرة التي طرأت في حجم المدينة أثر الهجرة المتزايدة للسكان إلى هذه المراكز الصناعية طلبا للعمل . وكانت إنجلترا وويلز من أوائل الدول التي تحول أكثر من نصف سكانها إلى حضريين وذلك في خمسينيات القرن الماضي . وعند بداية القرن الحالى وصل عدد سكان المدن إلى ثلاثة أرباع مجموع السكان ، كما وصل عدد سكان المدن في ألمانيا إلى نصف سكانها . وفي عام ١٩٣٠م وجدت دول أخرى خاصة في شمال غربى القارة أن نصف سكانها يسكنون المدن . وهذا الاتجاه مستمر الآن . وأكثر دول أوروبا تحضرا هى هولنده وبلجيكا حيث يبلغ عدد السكان في المدن التى يبلغ سكانها ٢٠٠٠ نسمة لما فوق أكثر من أربعة أخماس مجموع سكانها . أما أقل الدول تحضرا فهى البرتغال وألبانيا حيث التصنيع ما زال في بدايته (جدول ١٢) .

والثورة الصناعية هي التي أدت إلى الزيادة السكانية العالية التي شهدتها المدن حديثا : وقد قفز سكان لندن من ٩٥٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٨٠٠ إلى ما فوق المليون في العشر سنوات الأولى من القرن الماضي وإلى مليونين في ١٨٥٠ ، في حين بلغ عدد سكان باريس أكثر من مليون ونصف شخص في منتصف القرن الماضي . ومع نهاية القرن شهدت موسكو وبرلين وفيينا وليننغراد زيادات مماثلة . وإذا استثنينا مدينة موسكو فإن هذه المدن كانت تجمع مع وظيفتها كعاصمة قومية وظيفة أخرى هي الصناعة . وفي عام ١٩٧٠ م وصل سكان عشرين مدينة أخرى مليون شخص أو يزيد .

ولم تنتج الثورة الصناعية إلا القليل من المدن الجديدة : فقد وسعت المدن التجارية الموجودة وبنيت المصانع والمنازل خارج الحيطان التي أخذت تنتشر بعيدا في كل اتجاه . ومن المدن القليلة التي تم إنشاؤها في هذه المرحلة مدينتي لودفيج هافن Ludwigshafen وفولفسبرج Wolfsburg في ألمانيا الغربية .

(ج) موقع المدينة :

رغم التغييرات الجذرية التي أحدثتها الثورة الصناعية في المدينة الأوروبية ، فإن هذه المدن تظهر إلى حد كبير التركة التي ورثتها ليس من العصور الوسطى فحسب بل من العصر الكلاسيكي أيضا ، وتمثل هذه التركة في موقع المدينة ومورفولوجيتها أو الشكل ، وتخطيطها أو امتدادها المكاني .

(١) الموقع :

إن القرارات التي حددت المواضع المعينة لمعظم المدن الأوروبية اتخذت منذ زمن بعيد بواسطة الإغريق والرومان وملاك الأرض الإقطاعيين في العصور الوسطى . وكانت هذه القرارات مبنية على أساس الوظيفة التي كانت تؤديها هذه المدن ، والتي كانت غالبا ما تتعلق بالدفاع أو الطرق التجارية .

(١) المواضع الدفاعية للمدن | Defensive sites

اكتسبت المواقع الدفاعية أو التي يسهل الدفاع عنها أهمية كبرى في تحديد مواقع

المدن بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، خاصة بالنسبة للملاك الأراضي الإقطاعيين ،
العلمانيين منهم والدينيين ، الذين بنوا قلاعهم في مثل هذه المواضع على عكس
الرومان الذين كانوا يختارون الأماكن الفسيحة معتمدين على قوة جيوشهم ، وبينون
مدنهم أو معسكراتهم العسكرية عند الطرق أو على الأنهار الصالحة للملاحة حتى
يستطيعوا التحرك بسهولة . ومواقع روما وأثينا الداخلية مثلا ترجع إلى الرغبة في
تفادي غارات القراصنة الذين كانوا يغيرون على موانئ البحر المتوسط في العصر
الكلاسيكي وبعده .

(١) المواضع عند تعرج النهر River-meander Site

وفي مثل هذه المواضع يكون موقع المدينة داخل الانحناء حيث يلتقي النهر في
الدوران حول نفسه في الاتجاه المضاد تاركا عنقا ضيقا من الأرض من الناحية المقابلة
غير محمية بالمياه ، مثل بيزانسون Besancon على نهر دويس Doubs في شرق
فرنسا . وهناك الانحناءات النهرية العميقة Incised meander التي كانت أكثر
شعبية كمواضع للمدن لأن الانحناءة تصبح أكثر ثباتا وصلابة وعمقا مما يصعب
اختراقها ، ومدينة بيرن Bern عاصمة سويسرا التي تقع على نهر أار Aare ومدينة
درهام في شمال شرق إنجلترا الواقعة على نهر الوير wear مثالان جيدان لمثل هذه
المواضع .

(٢) موضع الجزيرة النهرية River-island site

وهذا الموضع أشبه بالموضع السابق ولكنه ذو ميزات أكبر ، ويجمع بين
صفات خندق مائي طبيعي ونهر سهل العبور ، وهذه الميزة الأخيرة كانت مهمة
بالنسبة للتجارة . وقد بدأت باريس كمدينة في « جزيرة المدينة » (Ile de la Cite)
في وسط نهر السين ، ومثلها كانت مدينة وركلاو wroclaw البولندية على نهر
الأودر Oder

(٣) موضع الجزيرة البحرية Lake-island site

أحسن مثال لمثل هذا الموضع هو مدينة أستوكهولم التي تحتل ما يقرب من اثني
عشرة جزيرة في المنطقة التي تتصل فيها بحيرة مالارن maalern ببحر البلطيق .

(٤) موضع الجزيرة بالقرب من الشاطئ off-shore island

يجمع هذا الموضع بين الدفاع والحماية وتسهيلات الميناء . وأفضل مثال هو مدينة البندقية التي بنيت على أعمدة خشبية مغروزة في حاجز رملى ، بالقرب من الشاطئ ، كان يفصل بحيرة ساحلية صغيرة من البحر الأدرياتي . وهكذا حرمت عصابات المغيرين من الوصول إلى المدينة إلا بواسطة القوارب . ويمكن أن ندرج مدينة وكنيسة « مون سان ميشيل Mon-Saint Michel الواقعة على صخرة بالقرب من شاطئ نورماندى في فرنسا تحت نفس الصنف . وهنا عندما يأتي المد كانت المدينة تنفصل عن الشاطئ لتعود وتتصل به عبر ممر صعب عند انحسار المد ، ولكن هناك جسر دائم يربطها بالبر الآن .

(٥) المواضع الجافة : Dry-points site

كانت المستنقعات تضىئ نوعا من الحماية لبعض المدن الأوروبية في نشأتها الأولى ، فالموانئ النهرية مثل هامبورج على نهر الألب ووارسو على الفستولا وروتردام على الراين كان من الصعب الوصول إليها حتى تم تخفيف المستنقعات التي كانت تحيط بها . وكانت هذه المواقع الجافة تختار كمواضع لكثير من القرى الزراعية .

(٦) موضع المراسى المحمية Sheltered-harbour

كانت هذه المواضع مهمة في حالة المناطق التي تتعرض للغزو من ناحية البحر ، وكان المدخل الضيق للمرسى يتيح الدفاع عنه بسهولة ومن المدن الكبيرة التي تحتل مثل هذه المواضع مدينة أوسلو عاصمة النرويج ومدينة لشبونة عاصمة البرتغال .

(٧) المواضع المرتفعة : Acropolis site

وكانت هذه المواضع تختار لأسباب دفاعية ، وهي عبارة عن قلعة أو معقل يحتل نقطة مرتفعة من الأرض وتقع المدينة في سطحها . ومدينة أثينا من طلائع المدن التي بنيت على مثل هذا الموضع كما أن هناك أمثلة عديدة في أنحاء متناثرة من القارة . ففي المناطق التي تأثرت بالشعوب الألمانية والسلافية كانت هذه المدن تسمى باسم « المعقل على الأرض المرتفعة » كما تشير إلى ذلك أسماء الأماكن التي تنتهى بمثل

الكلمات الآتية : burg . buigh . bourgh - grad - والتي تعني « قلعة fortress » ومثلاً أدنبره 'Edinburgh' الاسكتلندية (تحريف قلعة أدوين Edwin) مثال لمدينة تحتل مثل هذا الموضع وأيضاً مدينة سالزبورج وبودابست وبراغ وهايدلبيرج وفورزبيرج وغيرها من المدن العديدة . وهناك مدن شبيهة كانت تحتل مواضع مرتفعة خاصة في مراحل تطورها الأولى وغالباً بالقرب من المعقل مثل بلغراد (وتعني القلعة البيضاء) التي تقع على تل يطل على ملتقى نهري الدانوب وسافا Sava . ومدينة سقوفيا Segovia في أسبانيا وسان مارينو San Marino في جبال الأبنين ، وغالباً ما تحمل مثل هذه المدن في المناطق التي تنطق باللغة الرومانسية أسماءً نبتدياً بكلمة mont أو Monte مثل مونت كورنو في إيطاليا Monte Corno

مواقع الطرق التجارية :

كان التجار - الذين كانت لهم اليد الطولى في تطوير المدن من نواتها الأولية - يختارون المواقع المنيعة التي تقع على الطرق التجارية . وكانت هناك مواضع عديدة تملك المميزات التي كان ينشدها التجار في اختيارهم لمواضع مدنهم .

(١) موقع عبور النهر River-Ford

في أوائل العصور الوسطى وقبل أن تبنى الكبارى كانت هذه المواقع موضع اهتمام التجار حيث كانت الأنهار ضحلة وقيعانها ثابتة . وهناك مدن تحمل أسماء تدل على أهمية مناطق العبور هذه وتشمل نهاية الكلمة الألمانية Furt - ، والانجليزية Ford - ، مثل فرانكفورت Frankfurt . في ألمانيا الغربية التي تقع على معبر سهل في نهر المين Main حيث يمر به الطريق التجارى القديم الآتى من سهل الراين الأعلى في طريقه شمالاً لإقليم فيتراو wetterau وعبره إلى السهل الألماني الشمالى . وعلى نفس النهر وفوق فرانكفورت تقع المدن الآتية : أخنسفورت Ochsenfurt (معبر الثيران) - وشفاينفورت Schweinfurt (معبر الخنازير) وهاسفورت Hassfurt وترنفورت Trennfurt ولينقفورت Lengfurt ؛ والمدن الانجليزية أكسفورد Oxford على نهر التيمز وهيرتفورد على نهر اللى Leal وبدفورد على نهر الآوز Ouse ، وكلها أسماء تشير إلى الأهمية السابقة للأجزاء الضحلة من الأنهار في تحديد

مواقع المدن .. وما زالت الكلمة اللاتينية المرادفة لكلمة فورد Ford ، وهي Traiectus ، باقية في شكل محرف في بعض أسماء المدن الهولندية مثل أو ترخت Utrecht (Traiectus ad Rhetum أى المعبر على نهر الراين) وماستريخت Maastricht (Traiectus ad Mosam أى المعبر على نهر الماس) .

(٢) موضع الكبرى Bridge-point

كانت هذه المواضع تؤدي نفس وظيفة المعبر النهرى . وهنا أيضا كانت الأنهار تتميز بشواطئ (جروف) قوية وقيعان ثابتة . فأسماء المدن التى تحتوى على كلمات مثل pont و bridge و Bruck وما شابهها تشير إلى أن مواضعها اختيرت أساسا لإنشاء الكبارى . وقد اشتهر الرومان ببناء الكبارى . واشتقت مدن كثيرة أسماءها ومواضعها من هذه المنشآت الرومانية مثل Les-Ponts-de-Ce (كبرى قيصر) على نهر اللوار في فرنسا وبنطون Paunton (من الكلمة اللاتينية Adanonten بمعنى عند الكبرى) في مقاطعة لينكولنشير في إنجلترا . وكبرى لندن التاريخي تم إنشاؤه في الأصل في نقطة على نهر التيمز بعيدة من المستنقعات التى كانت موجودة عند المصب ، وكان موضع الكبرى ضيقا وجروف النهر قوية وثابتة . وكان الرومان يتخذون هذا الموضع معبرا من الساحل إلى داخل إنجلترا . وهناك أيضا مدنة كمبريدج Cambridge (كبرى على نهر كام Cam) وبريقهام Brigham (مدينة كبرى) في إنجلترا ، وبتواز Pontoise (كبرى على نهر أواز Oise) بالقرب من باريس ، وبيرزنبروك Bersenbruck (الكبرى المكسور) في شمال غربى ألمانيا وبروخسال Bruchal (كبرى على سالزباخ Salzbach) في مقاطعة بادن الألمانية ، وانزبروك Innsbruck (كبرى على نهر إن Inn) في النمسا وبوينتالارينا nta-la-Reina (كبرى الملكة) في أسبانيا .

(٣) موقع عند ملتقى الأنهار River Confluence

يحتل كثير من مدن شمال أوروبا مواضع على الأنهار الصالحة للملاحة التى كانت تستخدم كطرق تجارية هامة وتكثر مثل هذه المواضع عادة عند ملتقى نهريْن ، ومدينة كوبلنز Koblenz الألمانية الواقعة عند ملتقى نهري الراين وموزيل تشتهر اسمها في

الأصل من الكلمة اللاتينية للملتقى Confluence ، بينا مدينة باساو Passau في منطقة بفاريا ربما تمثل المدينة الوحيدة التي تلتقى عندها ثلاثة أنهار - الدانوب وإن Inn وإلز Ilz . ومن العوامل التي ساعدت في تطور ونهضة مدينة باريس تجمع أنهارها . مدينـ Maîne وأوز Oise والسين Seine بالقرب منها ، كما استفادت مدينة ليون من موقعها عند ملتقى نهري الرون Rhone والساون Saone .

(٤) موقع عند نهاية الملاحة Head-of-navigation

توجد هذه المواضع حيث تبدأ أو تنتهى الملاحة النهرية وهي كثيرة وتخدم الأماكن التي تتغير عندها النقل من وسيلة إلى أخرى Transshipment مثل مدينة بازل السويسرية الواقعة في المجارى العليا من الجزء الصالح للملاحة من نهر الراين في سويسرة .

(٥) موقع عند ملتقى الطرق Crossroad

وهو من المواضع الشائعة في أوروبا . من أشهرها مدينة فيينا عاصمة النمسا الواقعة عند تقاطع طريق شرق - غرب كان يربط بين السهل المجرى وجنوب ألمانيا على طول وادي نهر الدانوب . مع الطريق الشمالى - الجنوبى القديم الذى كان يمر عبر بوابة مورافيا إلى السهل الأوروبى الشمالى . وتقع مدينة هانوفر عند تقاطع طريق قديم يمر عند الطرف الجنوبى لسهل ألمانيا الشمالى . مع الطريق الذى يتبع مجرى نهر اللاين Leine عبر التلال الواقعة إلى جنوب المدينة .

(٦) موقع الميناء البحرى Seaports

يمكن تقسيم هذه المواضع إلى نوعين رئيسيين :

أ - المواضع التي عند أو بالقرب من التقاء الأنهار أو مصباتها الصالحة للملاحة مع الساحل . وهي أكثرها شيوعا وتشمل مدنا مثل لندن وهامبورج وبوردو ودانزيج Danzig (جدانسك) .

ب - المواضع التي تلتقى فيها الطرق البرية مع السواحل ، وهذه المواضع نجدها في جنوب أوروبا حيث تقل أهمية الأنهار كوسائل نقل وانتقال نتيجة قصرها وفصلية الأمطار التي تنزل في هذه المنطقة . ولذلك نجد الموانئ الكبيرة عند ملتقى الطرق

البرية مع الساحل أكثر من تواجدها عند مصبات الأنهار المستنقعية . ومثلا يقع ميناء قادس Cadiz الأسبانية على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا جنوب مصب نهر الوادى الكبير ، وقليل من يشهد التقاء نهر الأبرو Ebro مع البحر المتوسط ، وهناك مرسيليا التى تقع إلى الشرق من مستنقعات دلتا الرون كما أن مصبات الأنهار الرئيسية فى حوض البحر المتوسط مثل البو والتافير Taverne تخلو من موانئ رئيسية .

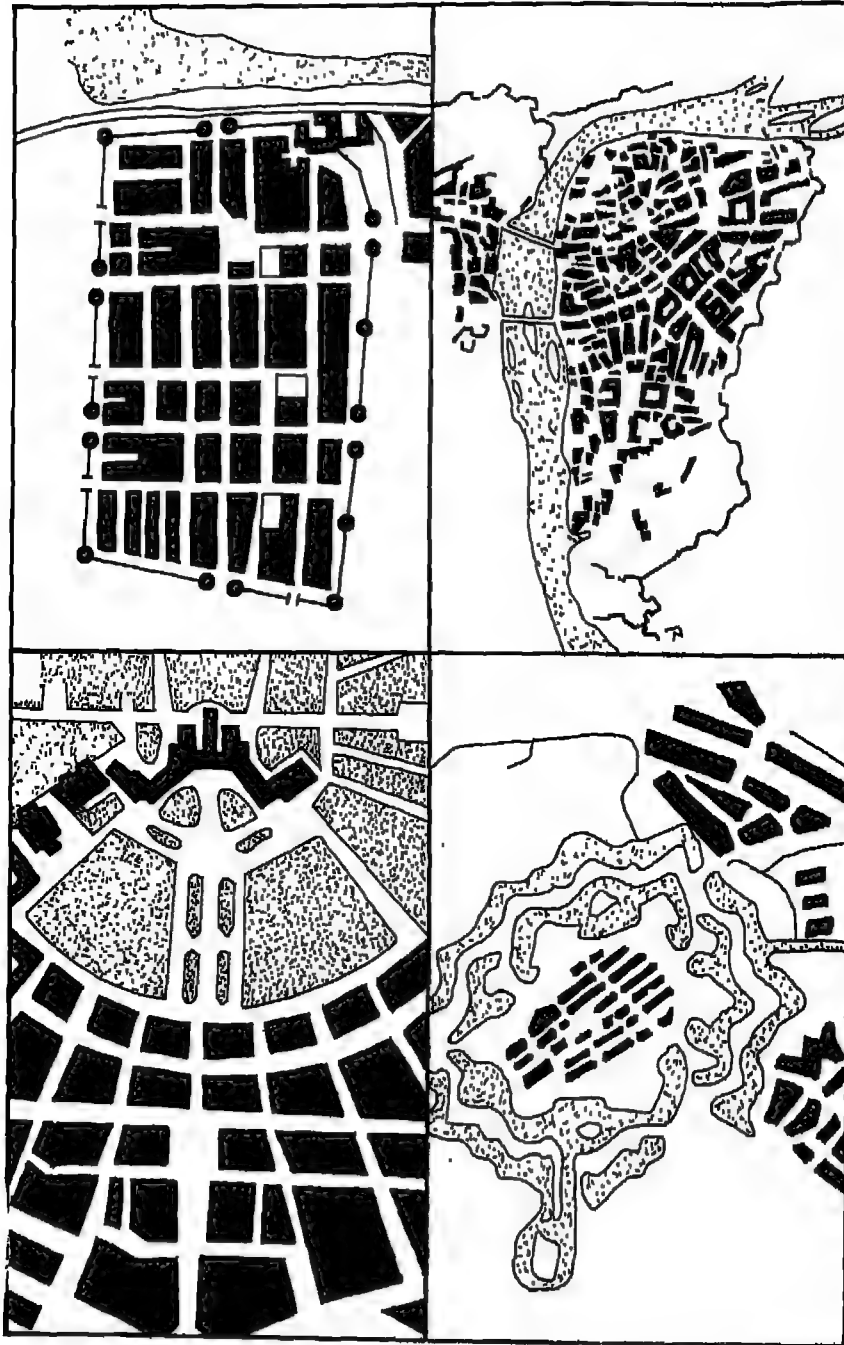
المواقع الأخرى ذات الأهمية الاقتصادية :

كان النشاط التجارى من أهم الوظائف التى تؤدها المدن فى الفترة التى سبقت الثورة الصناعية . ولكن كانت هناك عوامل اقتصادية أخرى أحيانا تحدد مواضع المدن ، خاصة التعدين وإدارة المصايف . وقد أدى استخراج المعادن المختلفة مثل خام الحديد والنحاس والملح والفضة وغيرها إلى ظهور مدن التعدين . ففى ألمانيا والنمسا تشير أسماء الأماكن إلى الأهمية الحالية أو السابقة للتعدين مثل Salz (ملح) و Hall (ملح) و Eisen (حديد) و gold (ذهب) و Kupfer (نحاس) كما فى Salzgungen (فى ألمانيا الشرقية) و Kupferberg (فى بفاريا - ألمانيا الغربية) .

أما المصايف فإن تاريخها يرجع إلى العصر الرومانى ، وخاصة تلك التى تتعلق بحمامات المياه المعدنية أو الينابيع الحارة . ومثل هذه المدن تحمل أسماء تدل على وظيفتها مثل الكلمات الآتية : bains و bad أو baden أو bagni ، وكلها تعنى «حمام Bath» ، مثل Bad pyrmont وفيزبادن Wiesbaden فى ألمانيا الغربية ، وباقنولى Bagnoli (حمام) بالقرب من نابولى فى إيطاليا و Luxeuil-les-Bains فى شرق فرنسا . ومدينة باث Bath الإنجليزية (والتي كانت تعرف عند الرومان ب Aquae Sulis) من المصايف العريقة فى إنجلترا .

(د) مورفولوجية (شكل) المدينة : Morphology (الشكل ٤٧ و ٤٨) .

تختلف المدن الأوروبية فى مظهرها الطبيعى من مدن أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزلندة وجنوب أفريقيا ومناطق الاستقرار الأوروبى الأخرى . ويلعب العمر دورا كبيرا فى تفرد المدن بمظهرها الحضارى المميز ، كما أن سكان هذه المدن لا يقبلون



- ١ - براغ (دشيكوريلدية أكيا)
- ٢ - ايجه موريت (فرنسا)
- ٣ - ناررت (هولنديه)
- ٤ - كارلزيرولفا (المانيه الغربيه)

إجراء تعديلات جذرية عليها مما يفقدها سماتها الأساسية التي توارثتها عبر الأجيال والتي يعتز بها السكان .

وتتمثل مورفولوجية المدينة في نمط الشارع وتكتل أو تماسك المدينة ونطاقاتها .

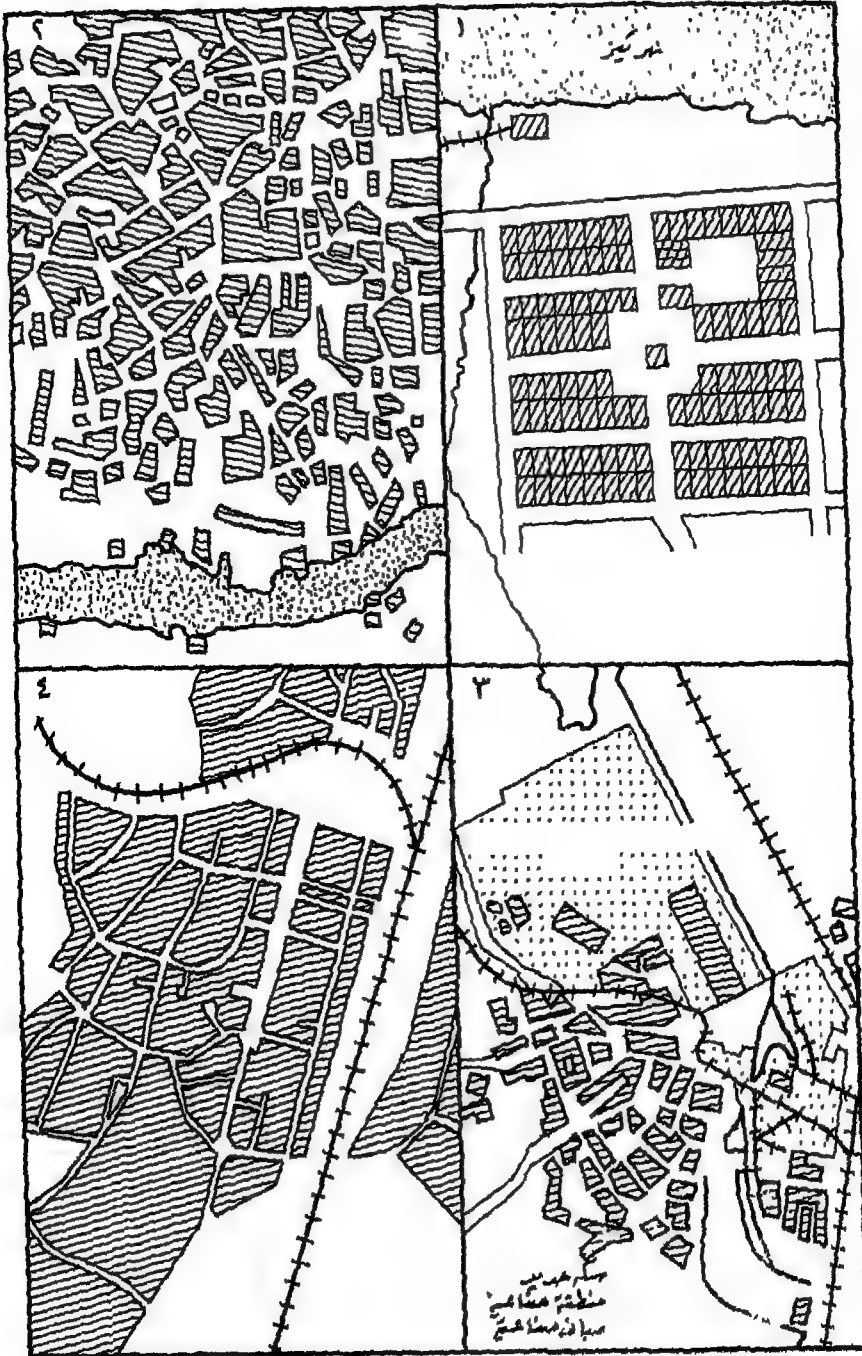
(١) نمط الشارع Street pattern :

يتميز نمط الشارع في غالبية المدن الأوروبية بعدم الانتظام خاصة في وسط المدينة ، فالشوارع تلتقي في زوايا غريبة بدون تخطيط ظاهر ويندر أن نرى مربوعات ومساحات مستطيلة أو مربعة الشكل . وتقل الشوارع النافذة كما أن انسياب المرور أو الحركة من جزء إلى آخر من المدينة صعب إلى حد كبير . ونشبه هذه الشبكة العشوائية من الشوارع نمط الشارع في القرى الزراعية المتجمعة غير النظامية لأن مثل هذه القرى كانت في الأساس هي النواة التي تكونت منها بعض المدن . حتى بعض الضواحي الحديثة تظهر عدم الانتظام هذا لأن شوارعها كانت تتبع في الأصل خريطة النمط الحقل غير المنتظم الذي كان سائدا عندئذ ، مثلما حدث عندما توسعت مدينة ليدز Leeds للتكيف مع النمو الذي حدث إبان الثورة الصناعية .

ومن الأشياء التي تساعد في تعقيد عدم انتظام وعشوائية نمط الشوارع في المدن ما يمكن أن نسميه ميل الأوروبي في إطلاق أسماء عديدة مختلفة على شارع على طول امتداده القصير المتعرج . ويحدث أن يتغير الاسم عند كل تقاطع مثلما في ميونيخ في ألمانيا الغربية حيث يحمل شارع قصير يمتد عبر ستة مربعات من البناء ستة أسماء مختلفة ، كما يؤدي عدم الانتظام في ترقيم المنازل إلى كثير من الارتباك للغرباء .

أما المدن ذات الشوارع المنتظمة فهي قليلة : فبعض المدن الإغريقية والمستعمرات الرومانية ذات الشوارع المستقيمة المتوازية ما زالت باقية ، ولكن عدم الانتظام قد انتشر حتى إلى بعض المدن . مثل كولون في ألمانيا وفيرونا في إيطاليا ، حيث ما زال النمط الروماني واضحا في تخطيط شوارعها . ومثل نيوبرانديبرج Neubrandenburg (ألمانيا الشرقية) وكوزالين Koszalin على الساحل البولندي اللتين تظهران شوارع منتظمة ومباني مربعة في أجزائها الوسطى رغم وجود شوارع غير منتظمة في ضواحيها .

شكل ٤٨ : أنواع المدن الأوروبية



- ١- ميونخ ١٨٣٠ (ألمانيا)
- ٢- أيزنهاوزن (ألمانيا)
- ٣- بولن (ألمانيا)
- ٤- توليدو (إسبانيا)

أما أكثر المدن التي تتميز بالشوارع الهندسية المنتظمة فهي التي أنشئت في الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ م . فقد بنيت أكثرها كمقر للعائلات الملكية وتتميز بشوارع واسعة تلتقي عند ميادين وبلازات واسعة في منتصف المدينة ، مثل مدينة نيوسترليتز Neustrelitz في ألمانيا الشرقية وفارسايل Versailles في سواحي باريس وكارلزروها Karlsruhe بالقرب من نهر الراين في جنوب غرب ألمانيا .

وقد شهد بعض مدن العصور الوسطى تعديلات في شوارعها غير المنتظمة في الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ وأيضاً في القرن التاسع عشر ، وتمثل هذه التعديلات في عمل شوارع جديدة مستقيمة وواسعة وفرض مخطط لشوارع نافذة منتظمة على النمط القديم العشوائي ، ومن بين هذه المدن نذكر باريس وبرلين وفيينا . كما تم إحلال الحيطان القديمة بشوارع (بولفارد) دائرية واسعة . فقد أدى تدهور الدول المدنية أو إدماجها في الوحدات السياسية القومية الكبيرة ، والتقدم الذي طرأ على وسائل الحرب إلى تحطيم التحصينات السابقة من قبل مدن كثيرة في محاولة لتسهيل حركة المرور داخلها : فقد استبدلت بعض المدن ميدانها بشوارع واسعة دائرية أو شبه دائرية كمدينة فيينا وكولون وبودابست وأنتويرب ، وفي فرانكفورت يمثل حزام من الشوارع والحدائق الموقع الملتوى السابق لتحصينات العصور الوسطى الأصلية . وتحلوا المدن الانجليزية من مثل هذه الشوارع الواسعة والبولفارد لأن استقرار الوضع السياسي والوحدة السياسية المبكرة أدت إلى إزالة الحيطان في وقت مبكر .

وعلى العموم يمكن القول بأن الأوروبي قاوم إجراء تغييرات في مدنها أو إدخال تعديلات جذرية في شوارعها العشوائية . ولكن الحرب أتاح فرصة طيبة لمخططى المدن بتدميرها الكثير من المدن . فقد تم تدمير ٨٠٪ من المباني في بعض المدن الألمانية . وكان هؤلاء المخططون يريدون إعادة بناء هذه المدن بشوارع واسعة ومستقيمة كافية للعربات وطرق نافذة . ولكن نصائحهم ذهبت أدراج الرياح إذ تم إعادة بناء المدن على نفس النمط القديم . وقليل من المدن الألمانية هي التي شهدت بناء شوارع نافذة . وعلى عكس المدن الألمانية فإن إعادة بناء روتردام في هولنده وكوفنترى في انجلترا تعكس إلى حد كبير احتياجات إنسان العصر الحديث . وربما

كان الشعور بالفقد والهزيمة كبيرا في ألمانيا إلى درجة أنهم أرادوا إحياء القديم بدلا من إصلاحها وتغييرها .

وتتعدد حركة المرور الناتجة من عدم انتظام الشارع أكثر بسبب ضيق الشوارع النافذة وندرة مواقف العربات . ففي مدينة برمين Bremen الألمانية يبلغ ٨٤٪ من مجموع ميل الشارع Street mileage أقل من سبعة أمتار في العرض وهو أقل عرض موصى عليه لشارع ذى مسارين يحمل حركة ثقيلة . ورغم هذا فإن هذه المدينة أحسن حالا من المدينة الألمانية الأخرى لويك Lubeck حيث تبلغ النسبة ٩١٪ ومدينة أولدنبرج Oldenburg حيث أن ١٪ فقط من شوارعها أوسع من ٧ أمتار . وفي فيرونا Verona يبلغ عرض الشوارع ٦ أمتار فقط وبشير المتوسط ل ١٤١ مدينة ألمانية غربية إلى أن ٧٧٪ من مجموع ميل الشارع في المدينة ضيق جدا للسماح لحركة مأمونة في اتجاهين .

ومن المشاكل التي تواجه الزوار في المدن الأوروبية مشكلة الأماكن المخصصة لمواقف العربات . فمدينة ميونيخ Munich التي تعتبر من كبريات مدن غرب أوروبا فيها ما يزيد عن ٣٠٠٠٠٠ عربة مسجلة ومواقف عربات تسع ل ٨٣٠٠ عربة فقط ، و ٧٠٪ فقط من مجموع مساحة المواقف التي تبلغ ١٨٦ هكتارا هو الذى أصلح كمواقف لايواء ٨٠٠ عربة ، والمساحة الباقية عبارة عن رصيف .

ورغم إقبالهم على شراء العربات فقد رفض الأوروبيون لإجراء التعديلات اللازمة التي يتطلبها ذلك القبول . فقد احتفظت المدن بشخصياتها وسحرها ولكن على حساب التنقل السريع والمريح في داخلها ؛ وكما أصبحت الدراجات من أحسن وسائل التنقل في بعضها مثل كوينهاجن وأمستردام ، فإن نظام القطر الأرضى يهىء أفضل الوسائل لتفادى حركة الشوارع السطحية الضيقة كما في باريس ولندن (underground, Subway)

(٢) تكتل المدينة Compactness :

تحتل المدن الأوروبية مساحة أقل بالمقارنة مع مثيلاتها في أمريكا وأستراليا وجنوب أفريقيا ، وقد استطاع الأوروبيون تحقيق هذا التماسك في مدنهم ببناء مبانيهم

قريبة من بعضها البعض وتفضيلهم سكنى الشقق والشقق المزدوجة على المساكن العائلية المنفصلة . ومن الدلائل على أسلوب الحياة المختلف هنا أن ١٦٪ فقط من كل المباني السكنية الحضرية في ألمانيا الغربية في عام ١٩٦٥ كانت تتكون من منازل العائلة الفردية بالمقارنة مع الولايات المتحدة حيث وصلت النسبة إلى ٧٦٪ في عام ١٩٦٠ ، كما أن منازل العائلة الواحدة أكثر شيوعا في المملكة المتحدة من باقي أجزاء أوروبا ولكن حتى هنا فإن هذه المنازل عادة ما تبنى في صفوف طويلة ملاصقة ذات حيطان مشتركة .

فالأوروبي يفضل السكن قريبا من وسط المدينة لأن هذه المنطقة تخدم منذ العصور الوسطى « كغرفة المعيشة » (أى مكان يجتمع فيه بعد العمل لبيتناح حاجياته ويأكل ويتسكع فيه) كما تتيح الشقق المتماصة القرب من وسط المدينة لأغلبية السكان : ومن ثم لا نرى ظاهرة الهروب إلى الضواحي كما في أمريكا . ولهذا فإن وسط المدينة يعنى به تماما ويكاد يخلو من المساكن الشعبية الفقيرة slums . ويحدث في كثير من الأحوال أن نرى عمال المصانع ، والذين يعملون أيضا في الحقول لبعض الوقت ، ينتقلون بين المدينة والريف ، في حين أن الكثير من سكان المدينة يشبهون هوية العمل في الحدائق والبساتين بالعمل في مساحات الأرض الصغيرة التي يملكونها في أطراف المدينة والتي عادة ما تحتوى على كشك صغير يلجأون إليه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع .

وما زالت عادة العصور الوسطى في الجمع بين محل السكن ومحل العمل معمولاً بها حتى الآن في المدن . وهكذا نجد مثلا الخباز أو الجزار أو صاحب المطعم يتخذ سكناه فوق محلاتهم كما هو شائع في جنوب أوروبا حيث نجد كثيرا من سكان المدن يعيشون على مسافة قريبة من محل عملهم ولو أن الانتقال اليومي من محل السكن إلى أماكن العمل داخل أو خارج المدينة في تزايد مستمر في غرب أوروبا . ويمكن أن نعزو ازدهام المباني في وسط المدن جزئيا إلى القصور التكنولوجي عند بنائى ومهندسى المعار في العصور الوسطى الذين لم يكن في مقدورهم الفنى إقامة مباني عالية وضخمة ، ولهذا تندر المباني العالية كناطحات السحاب الأمريكية وتسود

مآذن الكنائس أو قلعة أو حطام مباني كلاسيكية على سماء المدن . وحتى المنطقة التجارية المركزية C.B.D فإنها تخلو من مباني ترتفع إلى أكثر من ستة طوابق إلا ما بنى حديثا .

وحتى المباني القديمة التى دمرت أثناء الحرب العالمية الثانية فقد أعيد بناؤها على نفس الطراز القديم ، وتظهر الصور الفوتوغرافية التى أخذت لمدينة ميونيخ ، والتى تحطم ٨٠٪ من مبانيها ، قبل وبعد الحرب شها كبيرا فى طراز المباني . ومدينة داننزيج (جدانسك Danzig مثال للمدينة التى أعيد بناؤها على نفس النمط القديم : فبعد هزيمة ألمانيا قامت بولندة باحتلال داننزيج وطرده سكانها الألمان ، ثم شرعت بولندة فى بناء المدينة من جديد كنسخة طبق الأصل من النسخة الألمانية القديمة .

(٣) النطاقات الحضرية Urban Zones :

فى قلب المدينة الأوروبية يقع المركز العصرى الاسطى القديم يحيط به غالبا الشوارع الدائرى الذى يتبع مكان حيطان المدينة ، وفى أماكن متناثرة نجد حول هذا الهامش البوابات القديمة التى تمثل بقايا الحيطان التى يرجع تاريخ بعضها إلى العصور الكلاسيكية . فالبوابة السوداء Porta Nigra الموجودة فى مدينة تريبير Trier الألمانية باقية من عهد الرومان ، بينما تمثل بوابة هولشتاين Holstentor فى مدينة لوبيك الألمانية بقية من حائط عصر وسطى ، فى حين أن « بوابة براندبيرج - Brand-enburg Gate المشهورة فى برلين والتى تم بناؤها فى القرن الثامن عشر للزينة والزخرف لم تؤد وظيفة بوابة المدينة أبدا .

وفى داخل المركز القديم يوجد عدد من المباني المميزة التى تشمل كنيسة فخمة تشهد ضخامتها بأهمية وحيوية الديانة المسيحية فى العصور الوسطى ، وكانت هذه الكنائس تكلف مبالغ طائلة فى بنائها وفى صيانتها ، وكثير منها الذى يجذب السواح مثل « كنيسة نوتردام » فى باريس و « سان ماركو » فى البندقية ، وكنيسة كولون و « سان استيفان » فى فيينا « وكنيسة شارترى Chartres » فى جنوب غربى باريس .

وإذا كانت المدينة مقرا لإحدى العائلات المالكة ، فالمركز عادة ماكان يضم

قصرًا مثل « قصر اللوفر » في باريس ، و « هوفبرج Hofburg » في فيينا و « الكرملين » في موسكو و « قلعة أدنبره » في أسكتلنده و « قصر دوكال » -Plazzo Ducale في البندقية . وفي بعض الحالات ، خاصة في عصر النهضة . حدث أن هجر الملوك قصورهم في المدينة لينبوا قصورا فخمة في الضواحي، فقصر « فارسايل » احتل محل اللوفر وبني ملوك « هابسبرج » النمساويين « قصر شونبرون Schonbrunn » خارج فيينا كما أمرت عائلة فيتيلباخ Wittelbach « البلغارية بناء قصر نمفمبرج Nymphenburgh عند الأطراف الغربية لمدينة ميونيخ .

وفي قلب المدينة القديم توجد السوق وتقع غالبا أمام الكنيسة ، وما زالت الأسواق تقام اليوم في مثل هذه المدن كما كانت منذ خمسمائة سنة ولكن البائعين قد اختلفوا : فقد ترك التجار الأثرياء وأصحاب المصانع المجال للمزارعين الذين يعرضون منتجات حقولهم لبيعها . وهناك أيضا وبالقرب من السوق توجد دار البلدية Town Hall ، مقر إدارة الدولة المدنية سابقا ، كما نجد ما يسمى بيوت النقابات Guild House في بعض المدن خاصة البلجيكية مثل « غنت Gent » و « بروج Brugge » و « أنتويرب Antwerp » .

ومن الناحية الاقتصادية يخدم هذا المركز عددا من الأغراض ، ففيه توجد أنواع عديدة من مخازن القطاعي retail الصغيرة ، والمساكن العائلية المتعددة ، ومصانع الحرفيين التي تشبه الورش . وعلى نطاق المدينة كلها فإن التمييز بين النطاقات السكنية والصناعية والتجارية ضعيف جدا كما يوجد تداخل بين هذه النطاقات لمركز المدينة عادة ما يؤدي الوظائف الثلاث مع أن المصانع صغيرة وأشبه بورش الحرفيين .

وتحيط بالمراكز أحيانا ضواحي ما قبل العصر الصناعي التي تتميز بمباني أقل تكتلا تم بناؤها خارج حيطان المدينة القديمة بعد إلزالتها ، وغالبا ما يحتوى هذا النطاق على محطات السكة الحديد التي تتواجد عند هامش المركز القديم لصعوبة اختراق داخل المدينة لضيق الشوارع وازدحام المياني . وهكذا نجد مدنا كبرى مثل لندن وباريس تحيط بها محطات السكة الحديد ، كل محطة تحمل اسم المدينة الرئيسية التي تقع على الخط . ومثلا نجد باريس فيها « محطة ليون » Gare de Lyon في نهاية الخط المؤدى

إلى هذه المدينة ، وكذلك « محطة سان لازار » و « محطة أورليانز » . وفى بعض الأحيان تكون هناك محطة رئيسية واحدة تغادر منها كل القطارات المتجهة إلى أنحاء البلد المختلفة . ومدينة كولون الألمانية هى المدينة الوحيدة تقريبا التى استطاع القطار أن يخرقها إلى وسطها حيث توجد محطة بالقرب من الكنيسة .

أما الثورة الصناعية فقد أضافت فى القرنين التاسع وبداية العشرين مجموعة من الشقق الشبيهة بالثكنات يسكنها العمال ، ومصانع حديثة ضخمة ثم مناطق سكنية نظيفة وجميلة تم بناؤها حديثا ، وفى أطراف المدينة توجد الحدائق الصغيرة التى يقتنىها سكان المدينة حيث يقضون فيها أجازات نهاية الأسبوع . وفى بعض الأحيان يخصص مخطوطو المدن المناطق الريفية الهامشية كأحزمة خضراء دائمة يحرم فيها أى توسع للمدينة وأشهر هذه الأحزمة موجودة حول مدينة لندن الكبرى .

(هـ) الأنماط البشرية داخل المدينة الأوروبية :

إن الموضوع الذى تقوم عليه المدينة ومورفولوجيتها لا يكونان إلا هيكل المدينة ولا يستطيعان ، رغم جاذبيتهما وانعكاسهما لثقافة سكانها ، إعطاء صورة كافية عن المدينة الأوروبية . فالسكان هم أهم عنصر حيوى فى هذه المدن .

فالمدينة فى أوروبا وغيرها من مناطق الأرض تتميز بعدم التجانس من الناحية البشرية : فسكان المدينة يختلفون عن بعضهم فى نواحى حضارية واقتصادية عديدة : ففى داخل المدن خلق هؤلاء السكان مناطق متميزة كل منطقة لها مجموعة من الخصائص الاجتماعية الخاصة بها . ومن سمات التضرر فى أى بقعة من بقاع العالم تلك النزعة من قبل سكان المدن إلى التفرقة فى السكن على أساس صفات اجتماعية ، وأحيانا كانت هناك قيود شرعية تتعلق بمكان السكن ولكن مناطق الجوار أو الأحياء ذات الخصائص المميزة تظهر بمساندة القانون أو بدونه لأن هذه الظاهرة لها علاقة بالنمط السلوكى للإنسان .

فقد كان الدين من أقوى العوامل التى تفصل بين الناس داخل المدن الأوروبية ، فكثير من مدن العصور الوسطى كانت بها أحياء لليهود وما زال بعض الشوارع فى ألمانيا تحمل أسماء مثل « شارع اليهود Judenstrasse » وحتى الآن فالتفرقة

السكنية على أساس الدين موجودة في مدن مثل بلفاست 'Bellast' في أيرلندا الشمالية حيث توجد أحياء كاثوليكية وبروتستانتية مميزة .

والاختلافات اللغوية أيضا كانت سببا في تفرقة الناس داخل المدن في أوروبا وخاصة في المناطق التي تتميز بتنوع لغاتها . ففي العصور الوسطى كانت مدينة برنو Brno الواقعة في مناطق مورافيا التشيكية تتميز بنمط سكني كان الألمان بمقتضاه يسكنون في الجزء الشمالى والتشيكيين في الجزء الجنوبي من المدينة ، كما طورت مدن مثل أرماه Armagh وداون باتريك Downpatrick في أيرلندا الشمالية أحياء مميزة في القرن السابع عشر كما تشير إلى ذلك أسماء الشوارع مثل « الشارع الانجليزي » . « والشارع الأسكتلندي » . وفي مدينة كارنافرون Carnarvon في ويلز إبان العصور الوسطى كان الإنجليز المهاجرون يسكنون داخل الجزء المحاط بالسور بينما كان الوطنيون يتجمعون في منازل خارج السور مباشرة . أما في وقتنا الحالى فلن هناك تجمعات ماثلة للعمال المهاجرين الأجانب حول عديد من مدن غربى أوروبا . فالعمال اليونانيون واليوغسلافيون والايطاليون وغيرهم يتجمعون في مناطق منفصلة من المدن في ألمانيا الغربية وسويسره وفرنسا وغيرها من الدول .

أما السلالة (الجنس) فلم تكن عامل تفرقة ذى أهمية وذلك لعدم وجود عناصر غير قوقازية كثيرة في المدن الأوروبية . وفي الأماكن التي تتواجد فيها هذه العناصر فلأنهم يميلون إلى التجمع في أجزاء معينة من المدينة التي يعيشون فيها كما يفعل زنوج جزر الهند الغربية في مدينة لندن وباقي المدن البريطانية . ولكن ليس هناك تفرقة ، على الأقل قانونيا ، وبالصورة التي تمارس في جنوب أفريقيا وأمريكا ، كما أن هنود آسيا والباكستانيين أيضا يتعرضون لتفرقة غير حادة في بريطانيا على غرار تلك التي يتعرض لها الزنوج .

أما الطبقة الاجتماعية فتمثل أقوى أسباب التفرقة السكنية في المدن . وهذا الوضع يحدده نوع الوظيفة التي يمارسها أفراد طبقة معينة ، ففي العصور الوسطى كان للتجار والحرفيين والفنيين أحياء خاصة يسكنون فيها كما تشير إلى ذلك أسماء الشوارع الحالية . ففي مدينة ميونيخ نجد مثالا « شارع الدباغين » Lederstrasse

و « شارع الصباغين » 'Farbergraben' و « شارع السروجية » Sattlerstrasse وغيرها . وهذه الأسماء تشير إلى أماكن عمل هؤلاء الحرفيين الذين كانوا يتخذونها مساكن لهم . وفي مدينة لوبك Lubeck كان التجار في العصور الوسطى يعيشون إلى الغرب من شارع رئيسى يجرى من الشمال والجنوب بينما اتخذ الحرفيون مساكنهم إلى الشرق منهم .

ويمكن ملاحظة أنماط التفرقة السكنية المبنية على أساس الوظيفة أو العمل في وقتنا الحالى ، وقد أظهرت دراسة عن مدينة ليفربول الإنجليزية Liverpool أن الإداريين وأصحاب المتاجر والموظفين الصغار وأصحاب الوظائف يكونون نسبة عالية من سكان المناطق السكنية البعيدة من مركز أو وسط المدينة بينما تتجمع أعداد كبيرة من العمال شبه المهرة وغير المهرة في وسط المدينة . وفي بريطانيا ومعظم الدول الأوروبية يوجد ارتباط بين الطبقة الاجتماعية والرغبة في سكنى الأحياء ذات الخصائص المميزة . ومن المناظر المألوفة في المدن الصناعية الكبيرة في المملكة المتحدة تلك المناطق السكنية الكثيفة التى يسكنها العمال .

وفي الآونة الأخيرة قامت بعض المدن بتطوير ضواحي جميلة للأثرياء ، ولكن غالبا ما نجد الطبقات الدنيا هم الذين يحتلون المناطق الهامشية من المدن . وكان الأثرياء قبل تطوير وسائل النقل الجماعى يحتلون أواسط المدن ، وما زال هذا النمط موجودا في بعضها .

وتتميز هذه الأحياء المختلفة التى ذكرناها ببعض الصفات الاجتماعية الأخرى : فمثلا نجد أحياء الطبقات الدنيا من المدن أكثر ازدهاما بالسكان بينما ترتبط الاختلافات الدينية أحيانا بالاختلافات في نسبة المواليد كما في مدينة بلفاست في أيرلنده الشمالية : فالأحياء الكاثوليكية منها تتميز بكثرة الأطفال فيها ومن ثم بمتوسط عمر أقل بالنسبة لسكانها . والمعروف أن الكاثوليك لا يؤمنون بتحديد النسل . وبأختصار فإن هناك علاقة متبادلة قوية بين الكثافة السكانية والعمر والوظيفة والطبقة والدين والجنس والجنسية ، ومثل هذه العلاقة تنتج مناطق جوار تختلف عن بعضها في نواحي عديدة .

(و) وظيفة المدينة وتوزيع المدن :

ينصب اهتمام جغرافى المدن الآن على توزيع المدن وذلك لتحديد العوامل السببية التى تؤثر فى تشكيل النمط الموقعى للمدينة ، وليس مدعاة للعجب أن يجدوا أن الوظائف الاقتصادية للمدن تلعب دورا فى غاية الأهمية فى تحديد الموقع لأن السبب الأساسى لوجود المدن يكمن فيما تؤديها من نشاطات اقتصادية ، ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من هذه النشاطات :

(١) مرحلة الاستخراج Extractive stage أو مرحلة الإنتاج الأولى
مثل الزراعة وصيد الأسماك والتعدين وقطع الأخشاب .

(٢) المرحلة الثانية أو مرحلة المعالجة الصناعية Processing stage
مثل الصناعة ومعالجة أو تصنيع المواد الخام التى يتم انتاجها فى المرحلة الأولى .

(٣) المرحلة الثالثة Tertiary stage أى توزيع المواد المصنعة وامداد
الخدمات المختلفة من سياسية وتعليمية وطبية ووسائل نقل وكذلك تجارة الجملة والمفرق (القطاعى) . ويتأثر موقع المدن التى تتخصص فى احدى هذه الوظائف أو اخرى بمجموعة معينة من العوامل السببية .

(١) المدن التى تعمل فى مجال الانتاج الأولى :

ظهرت بعض المراكز الحضرية وتطورت أساسا كمدن موارد تعمل مباشرة فى استخدام أو استخراج الموارد الطبيعية أو المواد الخام . وعادة ما يحدث نوع من المعالجة الأولية لهذه المواد فى مثل هذه المدن التى تشمل مدنا للتعدين مثل كيرونا فى السويد حيث يستخرج خام الحديد ، وقرى صيد الأسماك والتعليب على الساحل البرتغالى ومدن المناشير ولب الخشب على ساحل بوئنيا السويدي ، والمراكز التى تعمل فى معالجة المنتجات الزراعية المتجمعة حول مصانع القشطة وطواحين الدقيق ومصانع تكرير سكر البنجر وما شابه ذلك .

أما وجود أو غياب نهضة حضرية في مثل هذه المواضع فتحدده خصائص المورد أو المادة الخام مثل : ندرتها وتنوعيتها وكميتها وموقعها بالنسبة إلى الأسواق . ومثلاً تعاني أوروبا من نقص في مصادر الحديد الخام مما أدى إلى استغلال الإرسابات الموجودة في مناطق نائية مثل السويد والنرويج ، وهذا أدى بدوره إلى قيام مدن التعدين في حين أن وفرة الفحم الحجري لم تجذب إلا أعداداً قليلة من السكان الدائمين إلى مجموعة جزر سفالبارد Svalbard النرويجية النائية حيث توحد إرسابات الفحم .

(٢) المدن التي تعمل في الإنتاج الثانوى :

أما العوامل التي تحدد موقع هذه المدن التي تعمل في الصناعة فهي نفسها التي ذكرناها بالتفصيل عند مناقشتنا للصناعة في أوروبا ، والتي يمكن تلخيصها في الآتى : وزن وحجم وقابلية المواد الخام للتلف ، والقرب من السوق ، توفر وتكلفة وسائل النقل ، وعدد ونوعية العمال ، وجود مصدر طاقة ، والقرارات الحكومية وتأثيرها وغير ذلك . .

(٣) المدن التي تعمل في الإنتاج الثالث :

يعمل معظم المدن في هذا المجال : كإمداد المستهلكين بما يحتاجون إليه من بضائع وخدمات ، وتسهيل توزيع المواد المصنعة للناس الذين يسكنون بالقرب من هذه المدن وتمويل الخدمات السياسية والطبية والتعليمية وغيرها . وهذه المدن هي التي حظيت باهتمام الجغرافيين الأكبر الذين يهتمون بتحليل نمط توزيع المراكز الحضرية . ومن أشهر هؤلاء الجغرافيين فالتر كريستالر Walter Christaller الجغرافى الألماني الذى اخترع نظرية أطلق عليها « نظرية الموضع المركزى - Central Place Theory » لتحديد موقع هذه المدن . وقد عرف كريستالر الموضع المركزى كأتى تجمع سكنى يخدم كمركز لمنطقته الخلفية الريفية والوسيط الاقتصادى بين ما حولها من مناطق وبين العالم الخارجى . ومن الأشياء الهامة الحاسمة بالنسبة لهذه النظرية تلك الحقيقة التى تقول بأن البضائع والخدمات المتفرعة تختلف :

١ - فى المدى Range أى المسافة القصوى أو نصف المدى من مركز القويل التى عندها تصل البضائع والخدمات إلى المستهلكين .

٢ - فى حجم السكان المطلوب لجعل إمداد الخدمات ذات جدوى من الناحية الاقتصادية . مثلاً يتطلب بناء مستشفى أو جامعة أو سوق مركزى عددا أكبر من السكان مما يحتاجه إنشاء محطة بنزين أو مكتب بريد أو بقالة . وبنفس المنطق فإن المستهلكين على استعداد لقطع مسافة أطول لاستشارة أخصائى أمراض القلب أو لتسجيل ملكية أرض أو لشراء عريية أكثر من استعدادهم لشراء رغيف وإرسال خطاب أو شراء البنزين للعربة . فالناس يقضون أقل وقت ويبدلون أقل مجهود ممكن فى الاستفادة من الخدمات الموجودة فى الأماكن المركزية أى القرية من وسط المدينة فى حين أنهم يضطرون للسفر بعيدا للانتفاع من الخدمات التى تتطلب سوقا أكبر حجما .

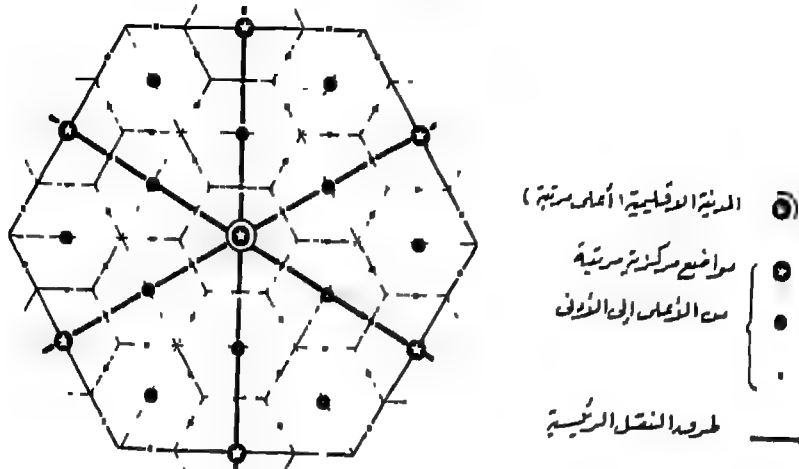
وينتج من اختلاف المدى (المسافة) للخدمات والبضائع المركزية ما أسماه بالهرمية Hierarchy للمواقع المركزية منظمة حسب حجم السكان وعدد البضائع والخدمات الموجودة . وفى قمة الهرمية توجد المدن الإقليمية الكبيرة-Regional metro polises التى تقدم كل الخدمات المرتبطة بالمواقع المركزية ولها مناطق خلفية فرعية كبيرة ، وغالبا ما تمثل هذه المدن العواصم القومية أو على الأقل مراكز سياسية لأقاليم كبيرة . وفى الطرف المضاد سوق القرية الصغيرة والتى قد تحتوى على لا شىء أكثر من مكتب بريد ومقهى ومحطة خدمة فقط . وبين هاتين النقطتين المتطرفتين توجد مواضع مركزية متصلة على درجات مختلفة من الأهمية . وكلما صعدنا إلى أعلى نجد أن كل أعلى نظام للموضع المركزى يمول كل البضائع والخدمات الموجودة فى المراكز الأدنى منه مباشرة فى الهرمية زائدا بضاعة أو خدمة أو اثنين منها . والمواضع المركزية التى تنتمى إلى نظام أدنى يفوق فى عددها على تلك المراكز القليلة الموجودة فى مستويات أعلى فى الهرمية . ويمكن أن تحتوى مدينة إقليمية واحدة على آلاف المواضع المركزية الأصغر حجما فى منطقتها الفرعية . ويتحدد حجم المساحة السوقية للموضع مركزى أساسا بمدى المسافة للبضائع والخدمات التى يقدمها الموضع .

(الشكل ٤٩)

شكل ٤٩ ١ - توزيع المواقع المركزية لكريستال وفق مبدأ السوق



٢ - توزيع المواضع المركزية لكريستال وفق مبدأ النقل



وبعد هذه الخلفية ، يقترح كريستالر ثلاثة مبادئ أو عوامل سببية هي التي تحدد توزيع وموقع المواضع المركزية وهي : -

١ - مبدأ السوق Marke-principle :

وهو الافتراض بأن كل إقليم سيتمول بالبضائع والخدمات من أقل عدد من المواضع المركزية العاملة ، هذا إذا كانت العوامل الأخرى تعمل بالتساوى . وفي الحالة المثلى سيتخذ منطقة السوق لموضع مركزي شكلا دائريا مرسوما على نصف المدى أو المسافة للبضائع المركزية ، ولكن المراكز المجاورة لنفس الرتبة - Hierar- chial rank تستلزم تعديل الدائرة إلى الشكل ذى الثمانية أضلاع hexagon وهو أقرب الأشكال الهندسية للدائرة والذي يتيح شبكة كاملة من مناطق السوق دون إحداث أى نوع من التداخل كما يحدث عند رسم الدوائر . ونمط الأشكال المتداخلة هو التوزيع المثالى لمدن الإنتاج الثالث . وأى اختلاف من هذا النمط يجب تفسيره على أساس عوامل موقعية أخرى « معوقة » .

٢ - مبدأ الحركة Traffic Principle :

يقول بأن أكبر عدد ممكن من الطلبات لتسهيلات النقل ستجابه أو يحول بأقل صرف ممكن على إنشاء وصيانة هذه التسهيلات . ووفق هذا المبدأ سيكون توزيع المواضع المركزية على أفضله عندما يقع أكبر عدد ممكن من المواضع ذات الرتب العليا على طريق النقل الذى يربط بين موضعين مركزيين هامين . وهذا الطريق يجب أن يكون مستقيما على قدر الإمكان . وإذا كان مبدأ الحركة يحدد أكثر من أن يعدل في توزيع المواضع المركزية فإن موقع مدن الإنتاج الثالث سيكون على طرق مستقيمة تتفرع مثل البرق من المواضع الأكبر حجما والأكثر أهمية .

والصراع الأساسى بين مبدأ السوق ومبدأ الحركة يكمن في الحقيقة الآتية : أن الطرق المباشرة بين مواضع الدرجة الأولى المركزية في الهرمية ، والتي حددت مواقعها حسب مبدأ السوق ، لا تمر عبر المواضع التى تنتمى إلى الدرجة الدنيا التالية . وفي هذه الحالة لابد أن يحدث شيان ، إما طرق ملتوية وهذا يعتبر انتهاكا لمبدأ الحركة ،

أو يحدث تمزيق للنمط الثماني الشكل وهذا ينتهك مبدأ السوق . ونلاحظ أنه في الأساس فإن مبدأ الحركة خطي Linear بينما مبدأ السوق مكاني spatial . وقد شعر كريستالر بأن مبدأ الحركة سيزداد أهمية في الدول الصناعية ذات الكثافة السكانية العالية حيث توجد أعداد أكبر من المواضع المركزية ويوجد فيها طلب كبير للنقل عبر المسافات الطويلة . أما المناطق ذات الاكتفاء الذاتي وتسود فيها الزراعة وسكانها أقل ازدحاما فلإنها تميل إلى تفضيل مبدأ السوق ، في حين أن تقليص طرق النقل أو حصرها في أودية ضيقة في المناطق الجبلية يؤدي إلى تفضيل مبدأ الحركة كما يشير إلى ذلك توزيع المواضع المركزية في أودية جبال الألب في سويسرة والنمسا .

٣ - مبدأ العزل أو الفصل Separation principle :

هذا المبدأ والذي يمكن أن نطلق عليه « المبدأ السياسي » قد تم صياغته اعترافا بالحقائق أن الحدود القومية والإقليمية والوحدات الإدارية الأخرى كانت تعمل لفصل المجموعات البشرية وعزلهم وحمايتهم من أي نفوذ خارجي. ولهذا فإن مبدأ الفصل يعتبر مغريا أو ممزقا أو معوقا disruptive لأن الحدود السياسية تميل إلى اتباع الحدود النهائية للشكل الثماني للمنطقة . نعزية للموضع المركزي الإداري للوحدة السياسية المعنية . ومثل هذه الحدود تمر عبر المنطقة التجارية « الطبيعية » للمواضع المركزية الأدنى في منطقة الحدود مما يؤدي إلى إيقاف أو تعويق حركة البضائع والخدمات .

ويحدث نفس عدم الاستقرار عندما تفرض الحدود السياسية بدون دراسة وبدون أي اعتبار لنظام الموضع المركزي . وقد اضمحلت مدينتا برلين وفيينا من أعلى موضع عندما عزلتهن الحدود الجديدة من معظم أقاليمهما الفرعية . كما تأثرت مدينة ترست Trieste الإيطالية بنفس الوضع : في البداية بفقدان منطقتها الخلفية الشاسعة للنمسا والمجر في عام ١٩١٩م وحديثا في عام ١٩٤٠ عندما أزيلت منطقتها الفرعية المباشرة الواقعة في مقاطعة إسترا Istria اليوغسلافية . وعامة تقل أهمية وحجم المواضع المركزية في مناطق الحدود إذا لم تكن هناك حرية كاملة لمرور الناس والبضائع وغيرها .

وهناك تعقيدات أخرى تسببها التغيرات التي تحدث في الظواهر المحلية المرتبطة بالمبادئ الأساسية الثلاثة . فإن التعديلات التي تطرأ على شبكة النقل مثل إنشاء طرق وسكك حديد جديدة . وكذلك التخلي عن الطرق القديمة يمكن أن يحدث تغييرا في عدد وتوزيع وترتيب المواضع المركزية . وفي الحقيقة أن أى ابتكار يحدث تغييرا في مدى البضائع المركزية والخدمات سيكون له شأن في توزيع المدن التي تعمل في الإنتاج الثالث . وقد يؤثر وضع سياسى ديناميكى على مبدأ الفصل كما حدث بعد أن توحدت جنوب ألمانيا مما أدى إلى وضع مطابق لمبدأ السوق .

وقد قام كريستالر بتطبيق نظريته هذه على توزيع المساكن التي تعمل في الإنتاج الثالث في جنوب ألمانيا حيث وجد أن المبادئ الثلاثة تنطبق بدقة على الموقع الفعلى للمواضع المركزية .

ومن المآخذ التي أخذت على نظرية كريستالر هو تقديره المغالى فيه للقوى الديناميكية : حتى منطقة جنوبي ألمانيا التي قام فيها بدراسته الأولية لها تراث حضري أساسه ضارب في العصور الوسطى ، وهناك مدن مثل « نوردلينغن » و « دنيكلزبوهل » و « وروثنبرج - أوب - دير تاوير » محفوظة بإتقان منذ العصور الوسطى وتجذب السواح . كما تؤدي وظيفة المواضع المركزية . وتوزيع هذه المدن يعكس مدى البضائع المركزية الخاصة بالقرن الخامس عشر أكثر منه بالعصور الحديثة .

وقد لاحظ سميث C.T. Smith أن مدن الميثاق في جنوب ألمانيا في أواخر العصور الوسطى كانت تقع في المتوسط على بعد مرحلة أربع أو خمس ساعات من بعضها البعض وتخدم منطقة خلفية تتراوح مساحتها بين ١٠٠ إلى ١٣٠ كم مربع . ويبدو أن قدرة مزارع العصور الوسطى على السير من منزله إلى المدينة وبالعكس كان مقياسا أهم في توزيع المواضع المركزية الأوروبية من الحركة التي جلبتها السكك الحديدية والعربات مؤخرا ، ولذلك فإن دراسة العوامل التاريخية مهمة جدا في فهم مدن أوروبا وتوزيعها . وهذا ما تفتقر إليه نظرية كريستالر .

الفصل الحادى عشر

الزراعة فى أوروبا

يرتبط اسم أوروبا فى أذهان كثير من الناس بالصناعة . والحقيقة أن النشاط الصناعى هو السائد على أوجه النشاط البشرى الأخرى ولكن عبر التاريخ وحتى الثورة الصناعية وبعدها كانت الزراعة تمثل أساس الاقتصاد الأوروبى ... وما زالت الزراعة تمثل جزءا حيويا فى اقتصاديات كثير من دول أوروبا الحالية .

نشأة الزراعة وانتشارها :

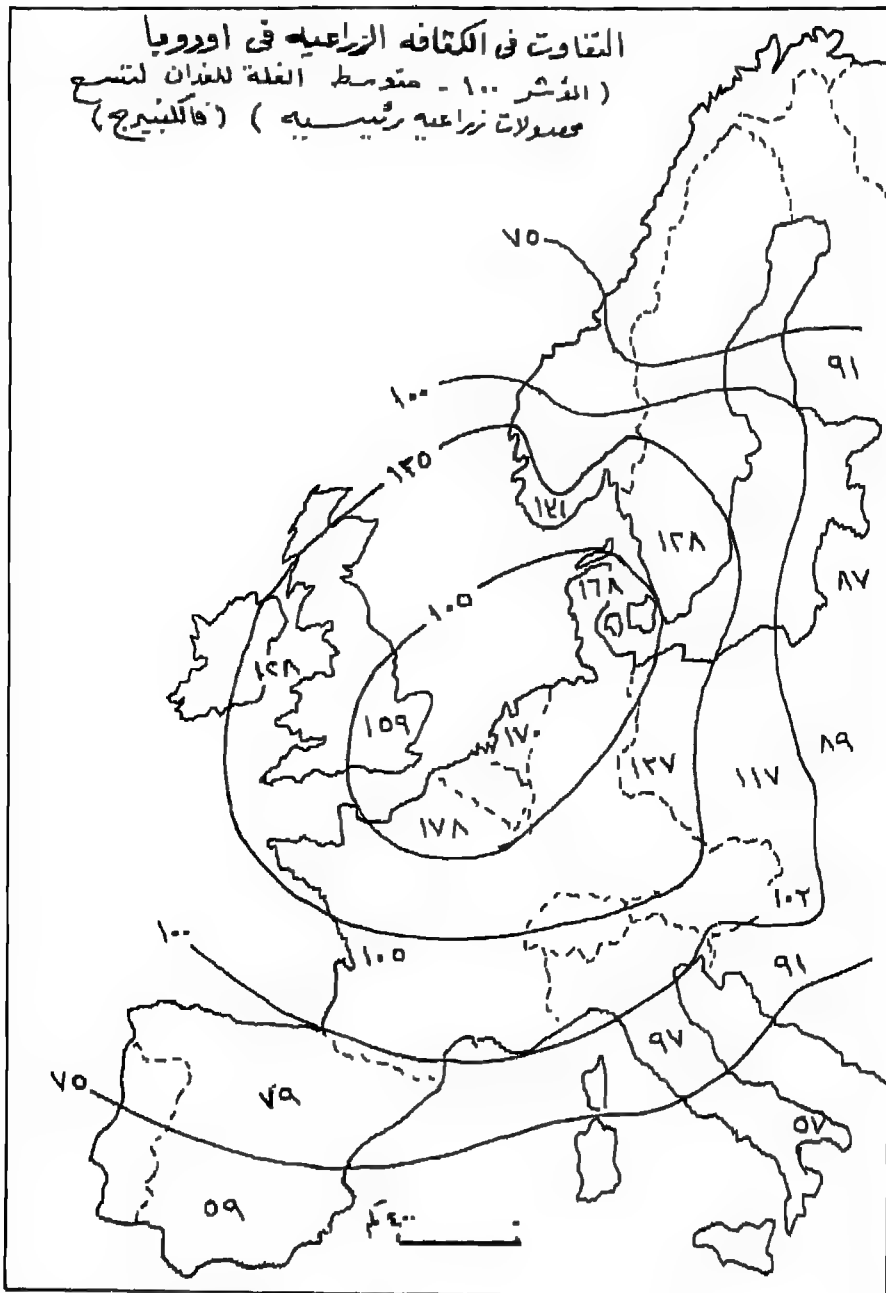
على الرغم من أن الزراعة لم تنشأ فى أوروبا فإن هذه المهنة تمارس هناك منذ أمد بعيد فى التاريخ . فالمعروف حتى الآن أن استئناس النبات والحيوان تم تقريبا فى أجزاء من القارة الآسيوية خاصة منطقة جنوب غرب وجنوب شرق هذه القارة . ومن هناك أخذت الزراعة تنتشر تدريجيا نحو الشمال والغرب عبر الهند والهند واللال الخصب حيث أضيفت بعض المحصولات المهمة حتى وصلت منطقة البحر الأبيض المتوسط فى حوالى ٦٥٠٠ ق . م . أما أوروبا الوسطى فقد أصبحت زراعية حوالى ٣٠٠٠ ق . م . وابرلندا حوالى ٢٠٠٠ ق . م . ومنطقة تروندهايم الترويجية حوالى ١٨٠٠ ق . م . ويبدو أن الزراعة كانت معروفة لدى طلائع الشعوب التى كانت تتكلم اللغة الهندية الأوروبية لأن مفردات لغتهم كانت تضم كلمات مثل الثور والغنم والخنزير والمحراث . والقمح والشعير والتفاح . ونجد أن معظم المحاصيل والحيوانات التى تمثل الخصائص الأساسية للزراعة الأوروبية قد استأنست خارج حدود القارة وأن الهنود الأوروبيين قد ورثوها من شعوب أخرى : فالقمح جاء أصلا من جنوب غربى آسيا فى حين أن الحمضيات أتت من الهند المدارية عن طريق البلاد العربية ، والبطاطس الأبيض والذرة الشامية من أمريكا ، والخنزير من جنوب شرق آسيا والماشية من شمال غرب الهند والخيل من منحدرات جبال القوقاز . وينطق هذا أيضا على مصدر الوسائل والآلات الزراعية مثل فن عمل المصاطب الذى ربما قد

نشأ في منطقة التلال القريبة من الهلال الخصيب . أما طرق الري فهي هدية شعوب منطقة الصحارى والسهوب لسكان جنوب أوروبا . ونجد أن المعزقة والمحراث وجدنا طريقهما من مناطق خارج القارة .. غالبا منطقة جنوب غرب آسيا . وهكذا يمكن أن نعتبر أوروبا منطقة هامشية أخذت أساليب الزراعة وفنونها من مناطق أكثر تقدما وذات حضارات أرقى وأنها لم تكن مركز ابتكار أو ابتداء زراعى .

يتأثر نمط الزراعة في أوروبا بعدة عوامل مختلفة منها المناخ وبوجه خاص الحرارة ، والمطر عامل واضح الأثر على الزراعة ، فهو ضابط لنوع الزراعة . ففي داخل القارة تتحدد الحبوب المختلفة التي يمكن زراعتها في خطوط متوالية وتشمل من الجنوب إلى الشمال الذرة ، القمح ، الشوفان ، الشعير الذي يحتاج لفصل نمو أقصر من الحبوب الأخرى . حتى الأرز يزرع في مناطق صغيرة معينة في جنوب أوروبا . تصلح معظم أراضي أوروبا للممارسة الزراعة على أن الأحوال المناخية وصفات التربة تختلف كثيرا من جهة لأخرى . فالتربة تختلف من تربة البدزول الفقيرة السائدة في المناطق الشمالية الباردة إلى التربة البنية والكستنائية وحتى السوداء كلما اتجهنا جنوبا وشرقا إلى أن نصل إلى مناطق التربة السوداء الغنية في سهول أوكرانيا السوفيتية . وتغطي السهل الأوروبي العظيم تربة مستمدة من بقايا العصر الجليدي وتتراوح من تربة طينية إلى رملية خفيفة وإلى طفل جيري Loams وتربة اللويس التي تكسو مناطق واسعة حول الكتلهيرسينية ، وأخيرا التربة الغرينية التي توجد في معظم أودية الأنهار الكبيرة ، أما في إقليم البحر الأبيض فنجد أن التربة الحمراء-Terr rossa هي السائدة وقد نتجت من تعرض الصخور الجيرية إلى عوامل التجوية .

وقد كان لمناخ أوروبا خاصة الغربية أثر واضح في احتفاظ التربة بخصوبتها نسبيا وذلك لأن نزول الأمطار طول السنة وبكميات معتدلة وكثرة الضباب والندى قد قلل من غسل التربة بالمقارنة مع المناطق الأخرى . أما المزارع الأوروبية فإليه يعزى خصوبة التربة . فمن خلال الممارسة الطويلة للزراعة عبر السنين فقد عرف أثر السهاد الحيواني على التربة ومارس الدورات الزراعية ليخفف من الضغط على التربة . ودرك أهمية السهاد فاحتفظ لذلك بكمية من الحيوانات في مزرعته .

البيانات في الكثافة الزراعية في أوروبا
 (النشر ١٠٠ - متوسط الغلة للفدان لتتبع
 محصولات زراعية رئيسية) (فالكينج)



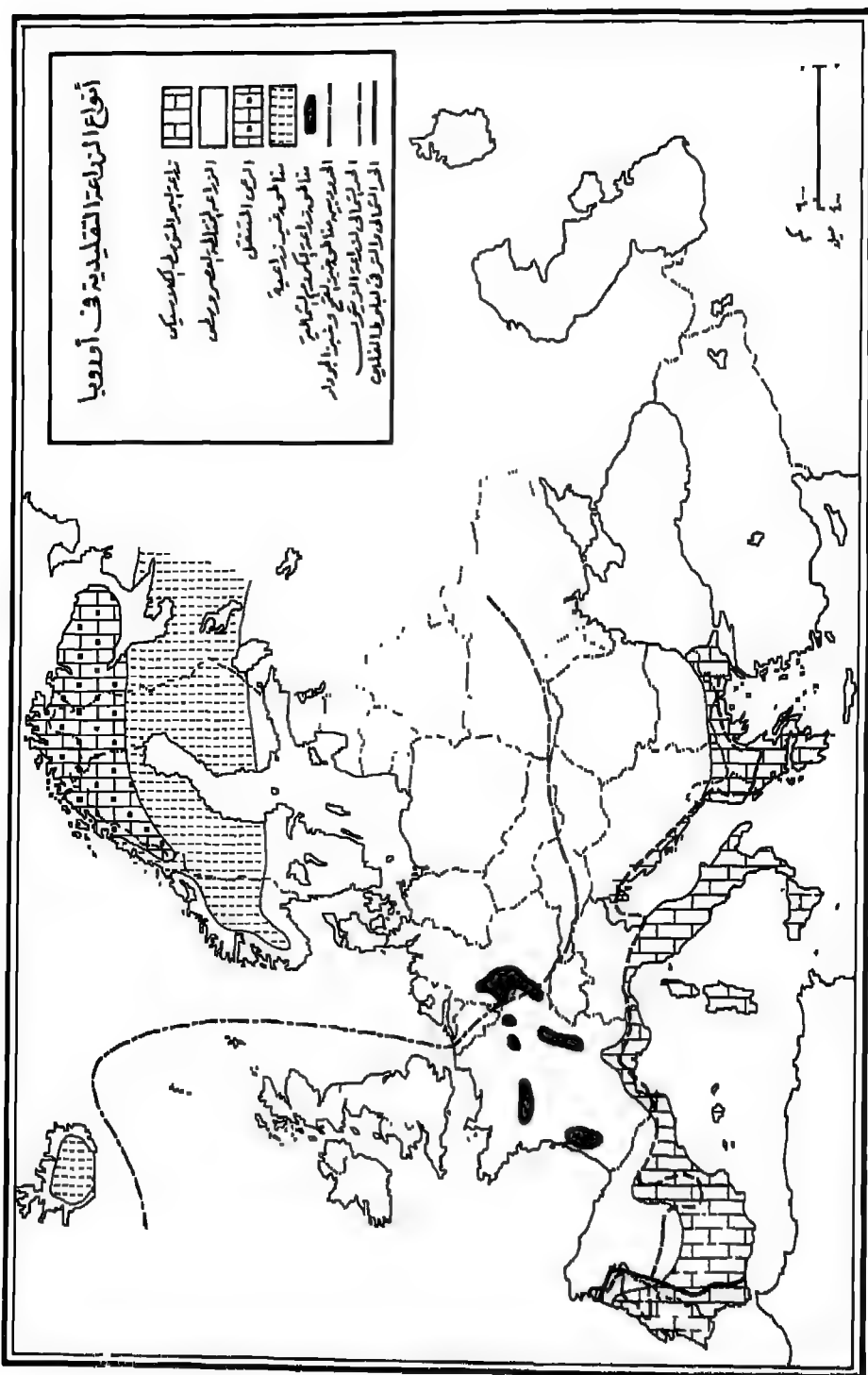
(٥٠)

أما الأراضي التي لا تصلح للزراعة فهذه توجد في الأقاليم الجبلية المرتفعة وبعض الأجزاء التي تقع في شمال اسكندناوه وذلك بسبب قسوة مناخها . وفي بقية أجزاء القارة نجد أن هناك تباينا واضحا بين حوض البحر المتوسط وشمال أوروبا . ففي حوض البحر المتوسط يستغرق فصل النمو الشتاء والربيع وتنضج المحاصيل خلال أشهر الصيف الحارة الجافة وتعد المحاصيل الشجرية مثل الزيتون ومحاصيل الكروم مثل العنب من أهم معالم الزراعة في هذا الإقليم ، وتقل محاصيل نباتات العلف التي تذوى وتجف في فصل الصيف الجاف . ونتيجة لذلك يقل عدد ماشية الألبان . وعلى الرغم من أن أعداد الماشية قد تزايدت في السنوات الأخيرة إلا أن دول البحر المتوسط لا تزال تعتمد في الحصول على حاجتها من منتجات الألبان على الأغنام والماعز . وقد لعبت طبائع هذه الحيوانات الرعوية دورا كبيرا في القضاء على الغابات في هذه المنطقة . وتزيد أهمية الرى في جهات محدودة من الحوض وبخاصة في جنوب أسبانيا وبعض أجزاء من إيطاليا .

وإلى الشمال من المرتفعات الألبية يستغرق فصل النمو الصيف ولكن إلى الشمال وإلى الشرق منها توقف قسوة الشتاء نمو النباتات وتحد إلى درجة كبيرة من مدى وعدد المحاصيل التي يمكن زراعتها .

وتتميز الأطراف الشمالية الغربية للقارة بصيفها المعتدل الأميل إلى البرودة وبشتائها الدافئ ووفرة أمطارها وكلها عوامل تساعد على نمو الحشائش ومحاصيل العلف ولذلك تزيد أهمية ماشية الألبان ومنتجاتها في شمال غرب فرنسا والجزر البريطانية والأراضي المنخفضة (هولنده وبلجيكا) واسكندناوه .

أما في شرق القارة فالمناخ أكثر جفافا والشتاء أشد برودة وتقل أهمية الحشائش ومحاصيل العلف وتشتمل الزراعة هنا على محاصيل الحبوب والبطاطس والبنجر وتحدد الظروف المحلية للمناخ والتربة والدورات الزراعية أنواع الغلات ، ولكن بصفة عامة يزرع الشيلم في التربة الضعيفة الخصوبة ويزرع القمح في التربة الجيدة كما يزرع الشوفان كعلف للحيوان والشعير الذي تقوم عليه صناعة البيرة . أما في شمال أوروبا



فالتربات أفقر نوعا وفصل النمو أقصر منه في وسط أوروبا وتزيد هنا أهمية الحشائش ومحاصيل العلف والكتان محليا عن القمح كما تزيد مساحة المناطق الغاية .

وتعد الحنصر من أهم الغلات الزراعية بالقرب من المدن وتزرع محاصيل الحنصر المبكرة والبطاطس والزهور للتصدير لأسواق المدن البعيدة في بعض الجهات المحددة الملائمة لهذه الزراعات كما هو الحال في جنوب وجنوب غرب فرنسا وفي الأجزاء الدافئة نوعا في جنوب غرب الجزر البريطانية .

الأنماط الزراعية : تطورها وخصائصها : (الشكل ٥١)

أ - زراعة البحر الأبيض المتوسط :

تتميز أوروبا بتنوع جغرافي طبيعي وحضارى ، وليس من الغريب أن نجد الزراعة أيضا تتسم بتنوع شديد لأن الإنسان طور مجموعات مميزة من المحاصيل والحيوانات ، كل مجموعة منها تمثل إقليما معيناً من القارة ، لأن أشباه الجزر الواقعة في جنوبها هي التي وصلتها الزراعة أولا ، فالأجدر أن نبدأ دراستنا بإلقاء الضوء على نوع الزراعة التي نشأت هناك . فإن سكان أرياف جنوب شبه جزيرة أيبيريا وساحل فرنسا الجنوى وإيطاليا جنوب سهل البو وساحل يوغسلافيا الأدرىاقى واليونان قد طورا اقتصادا ريفيا معينا يمكن أن نطلق عليه زراعة البحر الأبيض المتوسط . ولكى نفهم خصائص هذا النظام الزراعى حاليا علينا أن نعود إلى العصر الكلاسيكى وقبله إلى عصر الإغريق والرومان .

١ - الزراعة في العصر الكلاسيكى :

كانت الزراعة في العصر الكلاسيكى تتكون من ثلاثة عناصر أو سمات متميزة ومنفصلة من بعضها البعض ، كل عنصر يمثل هذا الجزء الجنوى من أوروبا . فمناخ البحر الأبيض المتوسط يتميز بصيف جاف طويل وشتاء ممطر معتدل ، فإذا أخذنا المظهر الأول للزراعة فنجد أنه يتمثل في الزراعة الشتوية للقمح والشعير حيث ينمو المحصول بطيئا خلال فصول الشتاء ويصل مرحلة النضوج في أيام الربيع المشمسة الدافئة . وكان الحصاد يتم في أواخر الربيع وأوائل الصيف قبل حلول فترة الجفاف الشديد . وللحفاظ على خصوبة التربة كانت هناك دورتان زراعتان تزرع خلالها

الأرض مرة كل سنتين وتترك بورا نصف الوقت لكى تستعيد خصوبتها . وفى عديد من المناطق كانت المحاصيل تزرع فى الأراضى السهلية المنخفضة فى حين اتخذ المزارعون مساكنهم على سطوح التلال المجاورة لأغراض الدفاع . وقد برهن هذا الاختيار جدواه حينما انتشرت الملاريا فى المناطق المنخفضة متأخرا . وكان للقمح أهمية خاصة لسكان الإقليم ولذا كان يحتل المناطق الخصبة حيث تتوفر المياه فى حين أن الشعير كان يزرع فى الأجزاء الهامشية ذات التربة الفقيرة والمطر القليل . وما زال القمح والشعير يحتلان ٤٠٪ من الأرض المزروعة فى إيطاليا و ٥٠٪ فى اليونان .

أما العنصر الثانى فيتمثل فى زراعة المحصولات الشجرية المقاومة للجفاف مثل العنب فى فصل الصيف . والعنب يعتبر من المحصولات الغذائية الهامة فى هذه المنطقة إذ يعد منه النبيذ - الشراب المفضل عند سكان المنطقة - كما أن كميات كبيرة منه تجفف لصنع الزبيب أو يؤكل طازجا . أما العنب الطازج فيعد من المواد الغذائية الهامة .

وكان حصاد محصول العنب يتم فى أواخر الصيف أو أوائل الخريف بينما يجفف الزبيب قبل هطول الأمطار لأن الهطول المبكر للأمطار الذى تتبعه فترات شمس مشرقة يؤدى إلى تشقق العنب وإتلاف المحصول كلية . وكانت مزارع العنب تحتل مدرجات التلال وبطون الأودية الغرينية . أما الآن فإن ٤٠٪ من محصول العنب فى اليونان تستغل لعمل النبيذ و ٢٥٪ يعمل زيبا ويستهلك ما يتبقى فى حالته الطازجة .

أما الزيتون فهو شجرة طويلة العمر مقاومة للجفاف لكنها لا تتحمل الصقيع وتعتبر مؤشرا صادقا لمناخ البحر الأبيض المتوسط . وقد تعيش شجرة الزيتون لألف سنة أو تزيد وكانت تمثل المصدر الوحيد للزيت لمزارعى العصر الكلاسيكى كما أن الكتاب الرومانيين كانوا يتقززون من الشعوب الجرمانية التى تأكل الدهون الجامدة كالزبدة ويتندرون بهم فى كتاباتهم . وتزدهر شجرة الزيتون فى منحدرات التلال وفى الأودية كما تنمو أيضا فى التربة الرقيقة . ومن أشجار البستان الأخرى نجد التين وهى مقاومة للجفاف أيضا ومن الأشجار المتوطنة فى الإقليم التى تتناسب ومنحدرات التلال ، وشجرة الكستناء 'Chestnut' التى يستخدم ثمرها للأكل ، وشجرة البلوط ويستخرج منها الفلين .

أما السمة الثالثة للزراعة في العصر الكلاسيكي في هذا الإقليم فتتمثل في رعى الحيوانات الصغيرة مثل الضأن والماعز والخنزير التي تقتات بالأعشاب الفقيرة القليلة التي تجود بها مناطق الرعى التي تتواجد على المنحدرات الوعرة ، وغابات البلوط التي تنمو في أطراف الجبال . فالماعز والضأن يمكنها أن تتحرك بخفة ورشاقة بين الصخور في حين أن الخنزير يقتات بجذع أشجار البلوط وكانت القطعان ترعى خارج حدود القرية وإن جرت العادة في العصر الكلاسيكي أن لا تبعد الحيوانات كثيرا عن القرية . أما الضأن فقد كانت أكثر عددا من الماعز والخنزير وتمول المزارعين بالصوف والجلود واللحوم وإن كان استهلاك اللحوم قليلا نسبة إلى اعتماد سكان الإقليم على غذاء حضارى . أما الماعز فقد كانت مصدرا للصوف moham واللبن والجلود ، كما كانت تحمل محل أبقار الألبان كما في وقتنا الحالى . وحتى الآن فلنأخذ أن معظم الأجبان التي تصنع في منطقة البحر المتوسط مصنوع من لبن الماعز وفي حالات نادرة من ألبان الضأن كجبين روكفور .

أما الخنزير فهو أقل الثلاثة عددا وأهمية . ورغم انتشاره في العصر الكلاسيكي فإن عدده تقلص كثيرا مع تقلص غابات البلوط التي كان يتغذى عليها . وحاليا نجد تربيته تنحصر في غابات البلوط المتبقية التي تتواجد في المنحدرات الغربية المطيرة من جبال شبه جزيرة أيبيريا . وكان هناك انفصام ظاهر بين تربية الحيوانات والأعمال الزراعية الأخرى مثل زراعة المحاصيل وقطع الحشائش للعلف وجمع سماد الحيوانات واستخدامها في تسميد الأرض وتعليق الحيوانات لغرض التسمين (Stall-Feeding)

أما المواشى الكبيرة مثل الأبقار والحمير والخيول فقد كانت موجودة في العصر الكلاسيكي ولكنها كانت أقل عددا وأهمية من الحيوانات الصغيرة بسبب تضرر المنطقة ووعورتها وقلة الحشائش في فصل الصيف .

هذا ملخص للأحوال الزراعية في العصر الكلاسيكي ، وهذا التقسيم إلى عناصر أو سمات ثلاث لا يعنى أن كل نوع يمارس على حدة أو منفصلا عن الآخر فقد كان المزارع يمارس كل هذه الأنواع في مزرعته وإن كان يركز جهوده على نوع دون آخر .

ومن خصائص الزراعة في هذه الفترة ملكيات الأرض الكبيرة أو اللاتيفونديا Latifundia في هذه الأطنان التي تمتلكها أقلية غنية كان المزارعون يكدون في سبيل لقمة العيش كما كانوا يقومون بالعمل الشاق في قطع الأرض المجزأة . أما المحراث فلم يكن ذا أهمية آنذاك وكانت المعزقة هي الآلة الزراعية الرئيسية المستخدمة خاصة في الزراعة بين أشجار الزيتون والتين والعنب . أما زراعة الحبوب فكانت تتم بواسطة محراث صغير يعرف بأراترو Aratro or Araire كان يחדش السطح بدون عمل أخاديد عميقة بينما زراعة الخضروات وبعض الحبوب كانت تتم بين صفوف الأشجار مما يدل على استخدام مكثف للأرض .

٢ - ملامح التغيير في الزراعة الكلاسيكية : (الشكل ٥٢)

رغم التغييرات التي طرأت على الزراعة منذ العصر الكلاسيكي فإننا نجد كثيرا من سمات هذا النظام الزراعي قد انحدر إلى زمننا الحاضر وكثيرا ما نجد خاصة في بعض المناطق البعيدة والمتخلفة - المزارعين يمارسون نفس العمليات الزراعية التي كان يمارسها أجدادهم . لكن الزراعة عامة شهدت تغيرا في نوعيتها وإضافات في محاصيلها وتطورا في نظامها نتيجة الاحتكاك والاتصال مع شعوب أجنبية .

ومن أهم التغييرات التي حدثت للزراعة إدخال نظام الري الصناعي . وقد كان هناك نوع من الري الصناعي يمارس في العصر الكلاسيكي خاصة في البساتين الصغيرة أيام هومر كما أن الرومان طوروا نظاما للري يمكن من ري مساحات أكبر من أراضي اللاتيفونديا . أما بالنسبة للمزارع العادي فقد كانت فكرة الري الصناعي غريبة عليه لأن المحصولات التي كان يزرعها كانت إما مقاومة للجفاف أو تزرع في فصل الأمطار ولذلك كانت حاجته للري قليلة . وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية ذهبت أيضا الحكومات النظامية التي كانت لها القدرة في إدارة وتنظيم طرق الري المعقدة مما أدى إلى اندثار الفكرة الموجودة عن الري الصناعي وطرق إدارتها في عهود الإمبراطورية الزاهرة .

ثم حدثت الطفرة الكبرى في تطبيق الري عندما حدث الاتصال الحضاري مع الشعوب العربية التي غزت أسبانيا وأخضعت بعض مناطق جنوب أوروبا تحت

نفوذها السياسى . وقد وجد العرب وضعاً طبيعياً جيداً لممارسة الرى يتمثل فى تلك الجبال التى يختزن فيها التساقط الشتوى فى شكل ثلوج سرعان ماتدوب فى الربيع والصيف لتحميلها الأنهار إلى المناطق المنخفضة حيث الحقول .

ومع امتداد النفوذ العربى الحضارى والسياسى فى الجزء الاوروبى من حوض البحر الابيض المتوسط أخذت السهول الغرينية التى كانت تخصص عادة لزراعة الحبوب الصغيرة المعيشية تزدهر بمحصولات أكثر قيمة . ولكن انتشار نظام الرى كان بطيئاً إلى حد ما وقد بقى مجهولاً فى بعض المناطق حتى العصور الوسطى ومن أوائل مشروعات الرى فى هذا الجزء من أوروبا تلك التى أقيمت على نهر ديورانس فى إقليم بروفنس فى فرنسا وذلك عام ١١٧١ .

تبع تطور نظام الرى إدخال عدد من المحصولات الجديدة التى لم تكن مقاومتها للجفاف شديدة . ومن أهم هذه المحاصيل الحمضيات التى يبدو أنها لم تكن معروفة لدى الإغريق مباشرة وإن كانوا قد سمعوا عنها وعن وجودها فى المناطق العربية . وقد أدخل البرتقال لأول مرة فى أوروبا بواسطة اليهود ولكن هذه الأشجار الأولى لم يكتب لها البقاء واندثرت مع إرهابات سقوط الإمبراطورية الرومانية . أما إدخال الحمضيات بصورة دائمة فقد تم على يد نفس القبائل العربية التى أدخلت نظام الرى الصناعى فى هذه المنطقة ، ومن أسبانيا انتشرت زراعة الحمضيات إلى باقى أجزاء الحوض لتصبح من أهم سمات الزراعة فى هذا الإقليم ومن أهم محاصيلها أيضاً . أما الأرز فقد دخل البرتغال وإيطاليا فى عصر الاكتشاف وذلك بواسطة المكتشفين الذين رجعوا من الصين وأجزاء آسيا ومن المرجح أيضاً أن هذا المحصول قد أتى به فاتحو الأندلس المسلمين الأوائل ، ويزرع الآن فى بعض المواضع فيها . وكذلك القطن الذى أدخل من مصر . أما التبغ الذى يكتسب أهمية كمحصول نقدى فى شرق الحوض فقد أدخل بعد اكتشاف الأمريكتين .

أما ثانى تغيير هام يطرأ على نظام الزراعة الكلاسيكية فيخصص نظام الرعى الرأسى Transhumance أو الهجرة الفصلية مع البهائم من منطقة الرعى الشتوى فى المنخفضات إلى أماكن الرعى الصيفى فى الجبال . وعلى عكس البدو الرحل فإن

هؤلاء الرعاة لهم منازل دائمة مبنية يستخدمونها أثناء الشتاء بدل التنقل الدائم من منطقة إلى أخرى انتجاعا للمرعى كما يفعل البدو . وهذه الهجرة مع الماشية كانت تتم في العصر الكلاسيكى في حدود ضيقة وإن كانت هناك بعض البراهين تشير إلى أن مدينة روما تطورت أصلا من مساكن صغيرة كانت تقع على إحدى طرق الهجرات هذه وذلك في العصر البرونزى . ويبدو أن معظم هؤلاء الرعاة كانوا مستقرين في بيوت ثابتة ولا يتحركون بعيدا من قراهم . ولكن بعد عصر الرومان انتشرت حياة التنقل وأخذت تكتسب أهمية ربما نتيجة لانتشار نفوذ القبائل المغيرة التي كانت تغلب على حياتها البداوة مثل الفلاخ Vlaxh والقوط Goths وقبائل البربر الأفريقية . وهكذا نشأت مجموعة من طرق الهجرات هذه في إيطاليا بين منطقة المستنقعات الساحلية المهجورة - مثل الكبانيا Compagna التي ارتدت إلى أرض قاحلة بعد سقوط الإمبراطورية - ومنحدرات جبال الأبنين . وفي فرنسا كانت قطعان الضأن تقضى الشتاء في سهل لانقويدوك وتساق إلى المراعى الصيفية في منحدرات الألب البحرية . أما أسبانيا فقد شهدت اكتمال تطوير نظام الهجرة لرأسية الفصلية خاصة في العصور الوسطى : ففي هذه الفترة نشأت جمعية المستا Mesta في قسطلية لغرض تنظيم وضبط تحركات قطعان الضأن وفي عشرينات القرن السادس عشر كانت قسطلية وحدها تضم ٣٥ مليون رأسا من الضأن . وفي بعض الحالات كانت قطعان الماشية تساق من الأندلس في جنوب أسبانيا إلى المرعى الصينى في جبال البرانس وكتاتيريا . ورغم تقلص أهمية هذه الهجرات الرأسية حديثا فما زالت قطعان الضأن والماعز تساق على الأقدام أو على العربات والقطارات إلى حيث تتوفر المراعى الصيفية . ومن أهم مميزات هذا النظام أنه يسمح باستغلال فعال للمراعى الموجودة مما يتيح تربية أعداد أكبر من البهائم مما كان متاحا تحت النظام الاستقرارى القديم .

٣ - التخصص الزراعى :

كان أهم تغير طرأ على الزراعة منذ العصر الكلاسيكى هو الاتجاه الحديث نحو التخصص في الانتاج الزراعى لغرض التجارة . وكان من أهم خصائص النظام الزراعى في العصر الكلاسيكى ذلك التنوع الذى شاهدناه والذى يجمع بين أشنات

من النشاطات تتراوح بين زراعة الحبوب والعناية بأشجار الزيتون والعنب وممارسة الرعى . وهذا التنوع يعد من سمات الزراعة المعيشية لأن المزارعين يعتمدون عليها لسد احتياجاتهم من ضروريات الحياة ولذا فعليهم أن يتعيشوا مما تجود به هذه الحقول من محاصيل . ولكن هناك بعض الأدلة تشير إلى وجود نوع من الإنتاج لغرض التسويق التجارى .. فقد كانت أتيكى Attiki بالقرب من أثينا مثلا تزدهر ببساتين الزيتون كما كانت صقلية وتراكي Thraki تشتهران بحقول القمح كما أن بعض جزر بحر إيجه كانت تغص بأشجار العنب والنبذ . وفى العصور الوسطى ازدهرت صناعة النسيج فى إيطاليا والفلاندرز (بلجيكا) . واستجابة للطلب المتزايد للصوف الخام أخذت الهضبة الأسبانية (الميزينا) تخصص فى تربية الضأن لسد احتياجات هذه المصانع ، وتطورت حرفة رعى الماشية فى الأندلس لتحول مصانع الدباغة المنتشرة فى أنحاء أوروبا بالجلود . ورغم هذا التخصص الجزئى فقد ظلت الزراعة معيشية حتى حوالى بداية القرن التاسع عشر تنتج أساسا لسد احتياجات المزارعين من غذاء .

وخلال القرن الأخير شهدت المنطقتان الشمالية والغربية من أوروبا نهضة صناعية وحضرية كان من أثرها اشتداد الطلب على المنتجات الزراعية ، وكان من نتائجها أن اتجهت الزراعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط نحو التخصص والإنتاج التسويقى . وكان من أثر التحسين فى وسائل المواصلات والنقل أن استطاع المزارع الوصول بمنتجاته إلى أسواق ألمانيا وبريطانيا وفرنسا والأراضى المنخفضة . وفى هذه الأسواق المفتوحة بدأ المزارع يشعر تدريجيا بالمنافسة التجارية من أقطار العالم الأخرى .

وكان هذا الاختيار للتخصص فى الإنتاج الزراعى يرغب المزارع على أخذه هذا التنافس فى اعتباره . فقد وجد أن القمح الذى يزرعه فى قطعة أرضه الصغيرة المجزأة لا يمكن انتاجه بكميات كبيرة وتسويقه بأسعار زهيدة كما يحدث فى برارى وسهول كندا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا حيث الأراضى شاسعة ووسائل الإنتاج حديثة ومتطورة ، مما أدى نهائيا إلى تقلص شديد فى مساحات حقول القمح خاصة فى المناطق التى اتجهت نحو الإنتاج التجارى . وكذلك لم يستطع المزارع أن يتنافس بنجاح مع إنتاج مزارع الرعى الضخمة من الصوف والموهر فى أستراليا والولايات

المتحدة والأرجنتين وجنوب أفريقيا ونيوزيلنده مما أدى إلى هبوط واضح وسريع في عدد المواشى .

وهكذا وجد المزارع أن اثنتين من سمات نظامه الزراعى - تربية الماشية وزراعة الحبوب - لا يبشران بالنجاح تجاريا كما وجد أن إنتاج البساتين والعنب والخضروات يتيح فرصا واحدة في التخصص التجارى ، وكان أهم سند له في هذا الاتجاه هو المناخ المعتدل الدافئ الذى يتميز به الإقليم . فكثير من أنواع الفواكه ، مثل الحمضيات ، والخضروات التى تخصص في إنتاجها لا ينجح زراعتها في أقاليم أوروبا الأخرى ، ثم إن سرعة تلف كثير من هذه المحاصيل أبعدت المنافسة الخارجية في أسواق أوروبا . وكان من البديهي أن تتسع المساحة المتخصصة لهذه المحصولات وتتبعها زيادة ملموسة في عدد مشاريع الرى .

وسرعان ما أخذ هذا التخصص يتبع نمطا نموذجيا معينا في كل أجزاء الإقليم . فقد تحول الساحل الفرنسى المطل على البحر الأبيض إلى « بحر من أشجار العنب » يمتد عبر مساحات شاسعة في حين أصبحت منطقة الأحواض Huetias المروية في ساحل أسبانيا الشرق مشهدة لزراعة الحمضيات ومن أشهر إنتاجها برتقال فالنسيا . أما الأندلس والساحل الأدرىاى في إيطاليا ومنطقة الريفيرا فقد اشتهرت بالزيتون في حين أن شمال صقلية والمنطقة حول نابولى تخصصت في زراعة الحمضيات واشتهر وادى نهر الدورو في البرتغال بمزارع العنب التى تنتج نبيذ بورت المشهور ، ومن المناظر الزراعية المثيرة في منطقة البحر الأبيض تلك المساحة الشاسعة من سهل كريسا Krissa التى تغطيها أشجار الزيتون فقط دون أشجار الفواكه الأخرى .

وكان من آثار هذا التخصص أن اندثرت أهم مميزات الزراعة في هذا الإقليم والتى كانت مبنية أساسا على الجمع بين ثلاثة مساعى زراعية متنافرة في الحقل الواحد . ويمكن أن نصف التاج النهائى لهذا التخصص الزراعى بأنها زراعة الخضروات للتسويق وبساتين الفاكهة . ورغم أن النزعة التخصصية قد شملت معظم أجزاء الإقليم فما زال هناك بعض المناطق الداخلية التى لم تشهد أى تغيير يذكر وما زالت تتمسك بالزراعة التقليدية .. وهذه المناطق هى التى عادة ما تعاني من قلة

في مائة الرى ، أوالى للزراعة التقليدية فيها أهية أكأمر من زراعة الزيتون والعنب . وكان من نتائج هذا الازدواج أن ظهر نطاقان ذا اختلاف زراعى وحضارى : نطاق تسود فيه الزراعة التقليدية بطرقها الزراعية العتيقة البدائية وآخر نجد فيه زراعة الخضروات لغرض التجارة وفق أسس تجارية حديثة وبواسطة الآلات الزراعية الحديثة وتطبيق الوسائل الزراعية العلمية .

ومن التغيرات التى حدثت ومرتبطة بانتهاء الإقطاعية :

- ١ - تقسيم الأيطان الزراعية الكبيرة إلى أجزاء صغيرة .
- ٢ - إلغاء طبقة ملاك الأراضى الريفين الأغنياء وتقسيم هذه الأراضى وتمليكها للفلاحين .

وقد تقلص عدد أراضى اللاتيفونديا إلا فى بعض الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة أيريا وإيطاليا . وفى اليونان نجح الفرد على الحكم التركى فى تدمير نفوذ الأرستوقراطية الإقطاعية التى كانت فى معظمها تتكون من الأتراك وفى جزيرة كريت نجد أن ٩٦٪ من الفلاحين يمتلكون أراضيهـم وهناك محاولات جادة بواسطة برامج الإصلاح الزراعى لتحديث وسائل ورفع الكفاءة الإنتاجية فى المناطق التى ما زالت تسود فيها الأساليب الزراعية البالية .

ب - الزراعة المختلطة | Mixed Farming | (الشكل ٥١)

يتميز النطاق الزراعى الذى يقع شمال منطقة البحر المتوسط بزراعة المحاصيل وتربية الماشية ، ولإلقاء الضوء على تطور هذا النمط الزراعى الهام لابد أن نتعرض أيضا للنظام الزراعى التقليدى الذى كان يسود هذا النطاق .

كانت الزراعة المختلطة هى النمط السائد لاستغلال الأرض فى العصور الوسطى وفيها كانت بعض محاصيل الحبوب الصغيرة تزرع وفق نظام دورات زراعية . وكان القمح يشكل المحصول الرئيسى فى الأجزاء الجنوبية والغربية من هذا النطاق ويـزرع إما فى الصيف أو فى الشتاء كمحصول غذائى أساسى ، ولهذا يسود استخدام الخبز الأبيض بين سكان فرنسا والجزر البريطانية والبلقان وسهوب روسيا حتى يومنا هذا .

أما الجاودار (rye) فكان يحتل المرتبة الثانية من حيث الأهمية الغذائية وكانت زراعته تتركز في الأجزاء الشمالية الباردة مثل ألمانيا ودول اسكتلندا وبولندا والأجزاء الغاية من روسيا حيث يفضل الخبز الأسود . ورغم أن الحد بين منطقة القمح ومنطقة الجاودار كان فاصلا ، كان هناك تداخل بين النطاقيين في بعض الأجزاء عندما ينتشر القمح في مناطق شمالية والجاودار في أجزاء جنوبية من مناطق تركزهما . أما الشوفان فقد كان يزرع في فصل الصيف في كل أجزاء نطاق الزراعة المختلطة أساسا كغذاء للماشية ولكن ثمة مناطق فقيرة مثل أسكتلنده حيث كانت عسيدة الشوفان تكون غذاء رئيسيا للسكان . أما الصنف الرابع من الحبوب فيتمثل في الشعير الذي كان يزرع أساسا كعلف للماشية ولصنع البيرة - الشراب البديل للبيد في شمال القارة ، كما كان جزء من الأرض يخصص لزراعة الكتان كمحصول ليفي يستخدم في صناعة الأقمشة الكتانية وما زالت زراعة الكتان لها أهمية بالغة في أوروبا التي تنتج - ومعها الاتحاد السوفيتي - ٩٠٪ من إنتاج العالم من نبات الكتان سنويا .

وكانت هذه الحبوب تزرع وفق نظام الدورة الثلاثية حيث يزرع كل جزء من الأرض على التوالي بمحصول شتوي - بور - محصول صيفي . أما في المناطق ذات التربة الفقيرة فيطبق فيها نظام دورة واحدة ويشمل جزءا صغيرا من الأرض تزرع باستمرار وتعرف بالحقل الداخلي ' infield ' القريب من البيت الريفي وتحيط به قطعة أكبر حجما تعرف بالحقل الخارجي ' outfield ' مخصصة للرعي أو لزراعة بعض المحاصيل كما في أسكتلنده حيث كانت تستخدم وسائل الزراعة المتنقلة البدائية Shifting Cultivation ' إذ كانت الأرض تزرع باستمرار لمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات وبعدها يترك بورا لمدة عشر سنوات أو أكثر حتى تستعيد الأرض خصوبتها . أما في المناطق ذات الدورة الزراعية الواحدة مثل شمال غرب ألمانيا ومرتفعات بريطانيا والنرويج ، فقد كانت الماشية تربط في الحقول الداخلية من وقت الحصاد حتى حلول موسم الزراعة لصيانة خصوبة التربة بروث البهائم مما أتاح زراعة الجاودار بصفة دائمة في شمال ألمانيا . وفي أجزاء من سهول بريطانيا وجنوب فرنسا وشمال شبه جزيرة أيريا كان المزارعون يمارسون نظام دورتين كما في زراعة البحر المتوسط والذي بمقتضاه تترك الأرض بورا كل سنتين بدلا من كل سنة في ثلاث

سنوات كما في الدورة الثلاثية . ويبدو أن نظامى الدوريتين والثلاث دورات مشتقتان من نظام الدورة الواحدة البدائية وذلك نتيجة الضغط السكاني المتزايد الذى أجبر المستوطنين على إخضاع الحقل الخارجى للزراعة المستمرة تدريجيا حتى لم تعد القطعة تترك بورا إلا مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث سنوات .

وجزء هام من هذا النظام التقليدى كان يتمثل في الاحتفاظ بقطعة أرض بالقرب من بيت المزرعة تتعهدا النساء وتزرع فيها الخضروات الصيفية مثل الخس والبازلاء والجزر واللفت (سلجم) وكذلك فواكه المناطق المعتدلة مثل التفاح والكرز والأجاص والبرقوق (الخوخ) .

أما الجانب الثانى للزراعة التقليدية المختلطة فقد كان يتمثل في قطع الحشائش من المروج وتجفيفها لتعليق البهائم في فصل الشتاء . وكثيرا ما يختلط مفهوم كلمتى « الكلا والمروج » pasture and meadows في أذهان سكان المدن إذ تعنى الكلمتان شيئا واحدا بالنسبة لهم ولكن هناك اختلاف جذرى بين الكلمتين : فقد كانت الدواب تترك لترعى « الكلا » بينا المروج هى التى تقطع منها الحشائش لتجفيفها وتخزينها . فخلال معظم أيام الشتاء كانت الماشية تحفظ في الحظائر لتأكل الحشائش المجففة والحبوب ، ثم تطلق في فصل الصيف لترعى في الحقول البور والحشائش وبقايا الغابات التى كانت تقع عادة عند هامش أرض القرية .

وقد كانت للمواشى أهمية في الزراعة المختلطة في العصور الوسطى أكثر مما نجدها في زراعة البحر المتوسط إذ كانت تمول معظم احتياجات المزارع الرينى من المواد الغذائية مثل اللحم واللبن ومنتجاته ، كما كانت تعطى السماد وتشكل القوة الساحبة للمحراث الضخم الذى تميزت بها المنطقة الجرمانية . وقد كان من المناظر المألوفة حتى وقت حديث رؤية أبقار الألبان وهى تجر المحراث ولو أن الثيران كانت تستخدم لهذا الغرض في الغالب الأعم . وفي معظم أجزاء أوروبا الوسطى كما في بولنده وألمانيا كان الخنزير يمثل المصدر الرئيسى للحم وما زال لحم الخنزير يكون جزءا أساسيا من غذاء سكان هذه المناطق إذ يتميز حيوان الخنزير بقدرته على تحويل النفايات وبقايا الطعام إلى لحم من نوع جيد كما أنه يعتمد على ثمر البلوط وشجر الزان في تغذيته . أما الخيول

فلم يحظ بامتلاكها إلا عدد ضئيل من المزارعين إذ كانت تتعرض للمصادرة أثناء الحروب من قبل الأمراء والحكام . أما قطعان الضأن فقد كانت منتشرة في معظم نطاق الزراعة المختلطة ولكنها كانت تسود في المناطق الفقيرة زراعيًا مثل مروج لونيبرج في شمال ألمانيا والمرتفعات البريطانية ، في حين أن الدواجن كانت تربي بأعداد كثيرة في معظم المزارع .

وهنا يمكن أن نلمس الاختلاف الرئيسي بين الزراعة المختلطة وزراعة البحر الأبيض المتوسط الكلاسيكية وذلك في أن العلاقة بين المحاصيل والدواب في الأولى كانت أوثق مما في الأخيرة وعلى الرغم من أن المزارع في النظام الأخير كان يقوم بزراعة الحبوب ورعى الحيوانات في آن واحد لم تكن هناك ثمة علاقة أو رباط بين الاثنين لأن المهنتين كانتا تمارسان منفصلتين عن بعضهما البعض في حين أننا نجد ارتباطًا وثيقًا بين الدواب والزراعة في الزراعة المختلطة لأن المواشي هي التي كانت تمد الأرض بالسماد لتحافظ على خصوبتها وهي التي تقوم بعمليات الزراعة مثل الحرث وتبعا لذلك فإن بعض محاصيل الحقل مثل الشعير والشوفان كانت تطعم للدواب كما أن مساحات واسعة من الأرض كانت تخصص لمروج لترعى فيها .

ولكن هذا الاختلاف لا ينفي وجود بعض التشابه بين النظامين الزراعيين ، ففي كلتا الحالتين كانت هناك أرستقراطية مألوفة للأرض تسيطر على الفلاحين الأجراء كما أن المزارع الفردية كانت صغيرة ومجزأة . وكانت الزراعة غير متخصصة إنما تنتج للاكتفاء الذاتي مما يحد من تطلعات المزارعين نحو حياة أفضل . وفي كلا النظامين أيضا ظهرت طبقة من الفلاحين غير المتعلمين في معزل من تأثير الابتكارات الحديثة التي اجتاحت المدن .

ولكن كما حدث في زراعة البحر المتوسط فإن الزراعة المختلطة قد تعرضت لتغيرات وتطورات في أكثر من ناحية . فقد تم استجلاب أنواع جديدة من المحاصيل إثر عصر الاكتشافات الذي أحدث احتكاكا حضاريا بين الأوروبي والأراضي المكتشفة . فقد أحضر البطاطس الأبيض (أو البطاطس الأيرلندي) والذي انتشره هنود أمريكا إلى أوروبا في أوائل القرن السابع عشر ونال قبولا واسعا عند

مزارعى المنطقة فى القرن الثامن عشر خاصة فى ألمانيا وأيرلنده وبولنده . وفى بعض الأقطار اكتسب البطاطس أهمية كبرى ليس كمحصول غذائى رئيسى فحسب بل كعلف للحيوان ومصدر للمشروبات الكحولية أيضا . فقيمة البطاطس الفعلية تكمن فى قدرته على إنتاج كميات كبيرة من الطعام من مساحة أرض صغيرة حتى فى المناطق الباردة الكثيرة الغيوم . ولهذا يعتبر إدخال البطاطس كمحصول غذائى فى أوروبا نقطة تحول تاريخى لأن الاعتماد على هذا المحصول المدهش قد أصبح حيويا إلى درجة أن فشله فى أربعينات القرن التاسع عشر أدى إلى مجاعات أيرلنده المشهورة . التى دفعت آلافا منهم إلى الهجرة إلى أمريكا والأراضى الجديدة .

أما المحصول الثانى الذى أدخل من أمريكا إلى أوروبا فهو الذرة الشامية التى أصبحت تشكل العلف الأساسى للدواب فى الأجزاء الجنوبية الدافئة من نطاق الزراعة المختلطة التى تشمل منطقة البلقان وشمال أيريا ووادى نهر البو وأجزاء جنوب فرنسا . أما كمحصول غذائى فالذرة الشامية لم تجد الرواج إلا فى شمالى إيطاليا ورومانيا فقط ولو أن البلغارين والمجرين قد استخدموها فى غذائهم فى حالات طارئة . وهناك منطقتان لم تنل الذرة فيها قبولا عند المزارعين : منطقة البحر الأبيض بصيفها الجاف ، ومنطقة الساحل الغربى المعتدل لعدم تناسبها للظروف المناخية الرطبة الباردة . أما أكثر المناطق ملائمة لزراعة الذرة فهى تلك التى يسود فيها المناخ القارى وشبه المدارى ذات الصيف الدافئ الرطب .. مثل منطقة البلقان التى تجدد فيها ما يماثل نطاق الذرة الشامية فى الولايات المتحدة .

أما مجالات التغير الأخرى فقد شملت تكثيف استغلال الأرض لغرض الزيادة فى إنتاجيتها ولتحقيق ذلك أخذ المزارع يتخلص تدريجيا من الأرض البور واخترق نظام الدورتين والثلاث دورات الزراعية مما أدى إلى زيادة ملحوظة فى رقعة الأرض المزروعة كما فى إنتاج المحصولات الغذائية . فقد كانت الأرض البور مصدر مشاكل للمزارع لأنها كانت تحتق بالحشائش والأعشاب الضارة ما لم يفلحها المزارع باستمرار . وفى بعض المناطق كان محصول اللفت يزرع فى الأرض البور مما يتطلب العزق المستمر للحفاظ بالحقل نظيفا من الحشائش الضارة ، فى حين أن نظاما

متطورا من الدورة الزراعية مثل نظام « نورفولك الرباعي » الذى يتضمن اللفت أخذ يمارس فى هذه المناطق ، كما أدى انتشار زراعة أنواع البرسيم المختلفة إلى تحسين واضح فى نوعية المراعى والأعلاف فى حين أن الزيادة فى زراعة اللفت وسكر البنجر نتج منها تنوع واضح فى كمية علف الدواب .

وتقلصت مساحات الكلاً الطبيعى وزرعت مناطق الرعى القديمة بالمحصولات مما أدى إلى زيادة ملحوظة فى أنواع العلف وكذلك فى عدد الحيوانات . وبدلاً من أن تترك الدواب تتجول فى المرعى والغابات كما كان مذهباً فقد أخذت تربط داخل حظائر وتطعم فيها مما أتاح جمع السماد بصورة أفضل وهذا بدوره ساعد فى التخلص من الأرض البر . وأثمر الاتجاه نحو تشجيع وتحسين نوع الماشية بالاستيلاء الموجه فى ظهور أنواع جيدة من الحيوانات .

ورغم أن السماد الكيماوى طور فى ألمانيا فى أوائل القرن التاسع عشر فما زال معظم المزارعين يفضلون استخدام السماد العضوى المشتق من مزج وخلط روث البهائم وأوراق الشجر الميتة (compost) لتسميد الأرض وقد أصبحت ركامات الروث هذه من معالم القرى الريفية فى ألمانيا وغيرها من الدول .

كل هذه التغيرات كانت مما سعى بالثورة الزراعية التى لعبت انجلترا فيها أيضاً دوراً قيادياً . وقد حدثت هذه التغيرات فى شكل حلزوني : إزالة الأرض البور - زيادة فى إنتاجية محاصيل العلف - زيادة فى عدد الدواب - زيادة فى السماد العضوى - زيادة فى خصوبة الأرض - زيادة فى إنتاجية محاصيل العلف ... الخ ..

وكما فى منطقة البحر المتوسط فقد حدثت تغييرات هامة فى ملكية الأرض فى منطقة الزراعة المختلطة ولو أن التعديل قد اختلف من جزء إلى آخر فى المنطقة . ففى غرب أوروبا كان هناك تقدم مضطرب نحو تملك الأرض للفلاحين فى الفترة ما بين عامى ١٦٥٠ و ١٨٥٠ مع التخلص التدريجى من الأرستقراطية المالكة . وقد سلك هذا الانتقال طرقاً متعددة لكن تتابع الأحداث فى وادى نهر البو فى شمال إيطاليا يمكن أن يوضح لنا مسار هذا الانتقال . فهنا ألزم القانون ملاك الأرض بدفع كل

تكاليف الإصلاح والتحسين الذى قام به الفلاح المؤجر للأرض عندما تنتهى فترة إيجار الأرض وإذا تقاعس المالك عن تنفيذ ما نص عليه القانون فعليه أن يجدد عقد الإيجار بدون أى زيادة . أما التحسينات المشار إليها فقد كانت تتضمن إزالة الأشجار وصرف المستنقعات أو إقامة مشروع رى أو إدخال وسائل الرى . ولأن الملاك كانوا يجبرون بدفع تكاليف هذه المشاريع بدون أى تأخير ونظرا لأن هذه التكاليف كانت دائما باهظة كان المالك لا يجد مخرجا إلا بتجديد عقد الإيجار وبدون زيادة عن الإيجار السابق . وهكذا بقى الإيجار ثابتا بينما خفض التضخم قيمته النسبية حتى أصبح فى إمكان الفلاح شراء الأرض وامتلاكها . أما فى شرق أوروبا فقد دامت الأرستقراطية مدة أطول ولذا لم تتح الفرصة إلا لقليل من المزارعين لامتلاك الأراضى التى كانوا يزرعونها . وبقيت ملامح الاسترقاق الإقطاعى فى منطقة الصقالبه وألمانيا الشرقية حتى القرن الحالى . وربما كان لاستمرار هذه الظاهرة مدة أطول دور فى أن يتسم حل مشكلة ملكية الأرض فى هذا الجزء من أوروبا بطابع العنف المتطرف : فقد تمت عملية التصفية النهائية للأرستقراطية المالكة بواسطة الشيوعية الحاكمة التى كسبت تأييد الفلاحين مبدئيا بوعدهم بأن ملكية الأرض ستؤول إليهم . فى ألمانيا الشرقية حدثت حملة مماثلة فى ١٩٤٦ تحت شعار « أرض الأرستقراطية للفلاحين » وفعلا قامت الحكومة بتحويل الأرض للفلاحين لتصدرها بعد فترة وجيزة وتحيلها إلى مزارع دولة ومزارع جماعية . فالمزارع الجماعية تشمل مجموعة من المزارعين يعملون كوحدة يدفعون الإيجار للدولة ويتقاسمون الأرباح فيما بينهم . أما فى مزارع الدولة فالمزارعين عبارة عن موظفى دولة برواتب يعملون بأجور محددة فى مزارع حديثة ويقومون بتسليم كل المحصول للحكومة . وبسود هذان النوعان من المزارع فى جميع الدول الشيوعية ما عدا يوغسلافيا وبولنده اللتين سمحتا ببقاء الملكية الفردية . ويمكن أن نأخذ فكرة عن السرعة التى تمت بها تحويل الحقول إلى مزارع جماعية فى ألمانيا الشرقية حيث تقلص عدد المزارع الخاصة من ٩٣٪ فى ١٩٥٢ إلى ٧٪ فى ١٩٦٠ فى حين أن يوغسلافيا تركت أكثر من ٩٠٪ من مزارعها تحت الملكية الخاصة .

ومنذ حوالى عام ١٩٥٠ جلبت الميكنة المتزايدة للعمليات الزراعية تغييرات هامة

في الزراعة المختلطة التقليدية . ففي أوروبا الغربية زاد عدد ماكنات الحصد والدرس ثلاث عشرة مرة في الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠ والمكنات سبعة أضعاف والتركورات ثلاثة أضعاف ، وإن كنا مازلنا نرى المحارث التي تجرها الثيران والعربات التي تجرها الخيول في بعض المناطق فهذه الظاهرة في طريقها إلى الاختفاء السريع خاصة في غربي أوروبا .

ظهور التخصص الزراعي : (الشكل ٥٣) .

كما حدث في إقليم البحر المتوسط فإن التغيرات البعيدة الأثر في الزراعة المختلطة جاءت نتيجة التركيز على التخصص والتجبر مما أدى نهائيا إلى تحطيم كثير من ملامح الزراعة التقليدية المتنوعة . وفي بعض الحالات نجد بعض مظاهر الزراعة التقليدية غير المهمة قد أوليت اهتماما لتصبح مرتكزا لاقتصاد موجه نحو التجارة . أما الاتجاه نحو التخصص في الزراعة بفرض التجارة فقد بدأ في أواخر العصور الوسطى وبداية العصر الحديث ولكن التقدم الفعلي في هذا الاتجاه لم يحدث إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد كان هذا التطور في البداية متواضعا وظهر في نطاقات صغيرة متناثرة تتميز بزراعة مكثفة ومتخصصة في إنتاج الخضار لبيعها في السوق مثل الأراضي المنخفضة (وتشمل زيلند وهولندة وفلاندرز) والأقاليم القريبة من مدينتي ميلانو والبندقية في سهل البو ، وحول باريس ولندن ومدن وادي نهر الراين وبعض المناطق الحضرية وكان الحافز الرئيسي وراء هذا الاتجاه هو ظهور المدن أثناء الثورة الصناعية .

وكان على الخبراء الزراعيين اختيار أنواع خاصة من المحاصيل ينافسون بها الدول الأجنبية المصدرة لهذه المحصولات . وقد وضع لهم أن زراعة الحبوب الغذائية على أساس تجارى ليس بمربح خاصة في وجه المنافسة الشديدة من مناطق القمح الشاسعة في الأمريكتين وروسيا وأستراليا . وحتى الاتجاه في بعض المناطق نحو التخصص في زراعة بعض الحبوب قبل بدء فترة المنافسة التجارية في هذا المجال أخذ يتضاءل . فمثلا اشتهرت مناطق ييوس في فرنسا في بداية القرنين السابع والثامن عشر بمزارع القمح الكبيرة ، واتجه المزارعون في ألمانيا والدنمارك لزراعة الحبوب

الغذائية في بداية القرن التاسع عشر. ولكن روى أن هذا النوع من التخصص لا مستقبل له في الاقتصاد الريفي ومن ثم ظهر تطور واضح في اتجاه تربية أبقار الألبان وتسمين الماشية وزراعة الخضروات والفواكه والزهور للتسويق. وكان من العوامل التي أدت إلى نهاية زراعة الحبوب على أساس تجارى في المملكة المتحدة تلك القوانين المسماة بـ «Corn Laws»^١ والتي سنت في ١٨٤٦ والتي بموجبها أزيلت كل القيود المفروضة على استيراد الحبوب من الخارج. وقد كان التخصص في المجالات الآتية :

(الشكل ٥١ و ٥٣) :

١ - صناعة إنتاج اللبن والزبدة والجبن :

في كثير من أجزاء منطقة الزراعة المختلطة أخذت أبقار اللبن تهيمن على الزراعة وأخذت منتجات الألبان تشكل أهم مجال للتخصص بالنسبة لمعظم المزارعين. وتمتد منطقة مزارع الألبان الأوروبية حول شواطئ بحر الشمال وبحر البلطيق وتشمل معظم الجزر البريطانية وفرنسا الساحلية والأراضي المنخفضة، وشمال ألمانيا والأراضي الأسكندنافية : وخارج هذا الحزام نجد مناطق أخرى في الجنوب تخصص في منتجات الألبان مثل منطقة جبال الألب في سويسرا والنمسا. ويمكن أن نعزو أسباب تخصص هذه المناطق في صناعة الألبان ومنتجاتها إلى الآتي :

١ - كانت الشعوب الجرمانية تفضل ألبان الأبقار ومنتجاتها التي كانت تكون جزءا أساسيا من غذائها.

٢ - تحتل منطقة مزارع تربية الماشية للألبان تلك الأجزاء من شمال غرب أوروبا التي تتمتع بمناخ بارد ومليء بالغيوم يناسب المراعى وزراعة الحشائش لحصدها وتجفيفها أكثر من ملاءمته لزراعة محاصيل الحقل مثل القمح.

٣ - أما مناطق الألب المتضرسة ومنحدراتها فهي أصحح لزراعة الحشائش وحصدها أكثر من زراعة الحبوب وهناك مساحات شاسعة من مراعى الجبال المسمى بالآين Imen تقع على مرتفعات عالية لا يمكن زراعتها ولكن يمكن الاستفادة منها في إطعام الدواب.

٤ - بالإضافة إلى هذه العوامل الطبيعية والحضارية فقد أثر توزيع السكان في

تحديد موقع هذه المزارع . فالألبان ومنتجاتها تعتبر من المنتجات السريعة التلف ولهذا يجب تسويقها بسرعة خوفا من فسادها وليس من قبيل الصدفة أن نرى منطقة المزارع هذه تحاذى أو تطابق في بعض الأحيان ، حزام الكثافة السكانية العالية والتي تمتد عبر شمال وأواسط أوروبا وتتضمن نسبة عالية من المراكز الحضرية والمناطق الصناعية الأوروبية .

ويمكن أن نرجع هذا الاتجاه نحو التخصص في تربية الأبقار لإنتاج الألبان في بعض أجزاء شمال أوروبا إلى العصور الوسطى . ففي إنجلترا مثلا اشتهرت مقاطعتا أسكس وسفولك الشرقية المطلتان على ساحل بحر الشمال والقريبتان من مدينة لندن بتربية الأبقار للألبان منذ هذه الفترة . وفي أوائل القرن السابع عشر انتشر هذا النوع من الزراعة إلى مقاطعتي هيرتفورد وبكنجهام وبعض أجزاء المنطقة الوسطى (الميدلاندز) وكانت المزارع الهامشية هي التي تخصص في إنتاج الجبن لسهولة حفظه لمدة أطول في حين أخذت المزارع القريبة من لندن تخصص في إنتاج الألبان لسرعة تسويقها في هذه المراكز الحضرية . وفي نفس هذه الفترة أخذت بعض مقاطعات فرنسا تخصص في إنتاج الألبان كمقاطعات نورماندى على الساحل وبرى قرب باريس . ونجد نفس هذا الاتجاه في بعض أجزاء الأرض المنخفضة وفي القرن التاسع عشر انتشر هذا النوع من الزراعة ووصل إلى حدودها الحالية وقد ساعد في هذا الانتشار التطور الذى طرأ على وسائل النقل الحديثة . كما حلت مزارع الألبان محل مزارع القمح في بعض الأقطار كما في الدنمارك .

ومنطقة مزارع الألبان هذه لها أهمية تجاوزت حدود أوروبا الحالية وامتدت فوائدها إلى أقطار أخرى . فالتطورات التي حدثت في هذه المنطقة كانت لها آثارها البعيدة في اقتصاديات المناطق التي نزع إليها الأوروبيون مثل أمريكا الشمالية ونيوزيلنده وأستراليا حيث تم إنشاء مزارع تربية الماشية . ومثلا فإن معظم أنواع أبقار الألبان الموجودة في هذه المناطق مشتقة في الأساس من أبقار منطقة مزارع الألبان الأوروبية ، فأسماء هذه الأبقار تحمل إشارة إلى مصادرها الأولية : فالجيرسى 'Jersey' والجيرنزي 'Guernsey' تحملان أسماء الجزيرتين البريطانيتين الواقعتين في

القنار الانجليزى بين بريطانيا وفرنسا . أما صنف أيرشير فقد طور فى مقاطعة أير الأسكتلندية أما الفريزيان - الهولشتاين Frisian-Holstein فهو مشتق من الفريزلند Friesland فى شمال هولندا والمحافظة الشمالية الألمانية .. أما البراون سويس Brown Swise فتأتى أصلا من محافظة Schwiz فى أواسط سويسرا . أما صنف كيرى Kerey الأقل إنتشارا فيرجع أصلها إلى مقاطعة كيرى الأيرلندية وكذلك صنف الدتش بلتيد Dutch Belted يوحى بالمنطقة التى نشأت فيها . وبطريقة مماثلة نجد أن أشهر أصناف الجبن فى العالم تأخذ أسماءها من مدن منطقة مزارع الألبان الأوروبية مثل أيدام Edam الهولندى ، ومنستر Munster من شمال ألمانيا « وكمبرت من نورماندى الفرنسية » وغرويرز « من المنطقة الفرنسية من سويسرا « وتلسيت » (حاليا Sovietsk) من بروسيا الشرقية وكثير مثلها .

وكان للقرار الاقتصادى للتخصص فى مجال الزراعة لإنتاج الألبان دور كبير فى إحداث تغيرات جذرية فى استخدام الأرض ، فقد توسعت المساحات المخصصة للحشائش على حساب الأراضى المخصصة لزراعة الحبوب التى تقلصت فى مساحتها أو اختفت نهائيا فى بعض المناطق كما ازدادت الرقعة المزروعة بحبوب العلف مثل الشعير والشوفان على حساب الحبوب الغذائية مثل القمح والجاودار . ورغم أن بعض المحصولات الجذرية مثل البنجر يزرع فى بعض المناطق كعلف للبهائم فإن الحشائش والمروج التى تشكل المنظر السائد فى منطقة مزارع الألبان ما زالت تشكل المصدر الرئيسى لغذاء هذه الحيوانات .

ورغم هذه التغيرات فلنأخذ تلاحظ تناقضا إقليميا واضحا فى هذه المنطقة من حيث نوع الإنتاج والكثافة الزراعية . فالدنمارك التى تتخصص فى إنتاج الزبدة وتساهم بـ ١٦٪ من الزبد الذى يدخل التجارة العالمية ، تعتبر من أكثر الدول تطورا فى هذا المجال فالمزارعون الدنماركيون أعضاء فى جمعيات تعاونية الغرض الرئيسى منها تسويق المنتجات وأيضا لفرض التنظيم الجماعى لمصانع الزبدة والجبن ، ولكن الأرض والماشية ما زالتا تملك ملكا فرديا فكل رزمة من رزم الزبد تحمل ختم أو شفرة المؤسسة التعاونية والمزارع حتى إذا اشتكى بائع من نوعية صنف معين يسهل توجيهه

إلى المنتجين المسئولين عن المزارعين حتى يتسنى تغريمهم ، وهذا النظام الدقيق أدى إلى تجويد المنتجات الدغمركية حتى أصبحت الزبدة ولحوم الخنزير الدغمركية تتمتع بشهرتها العالمية المعروفة . أما فى هولندا فالاهتمام موجه لإنتاج الألبان وأصناف الجبن الجيدة ، فهى تقوم بإنتاج ٢١٪ من الجبن الذى يدخل التجارة العالمية و ١٢٪ الإنتاج من اللبن المكثف أو المحفف . أما بريطانيا فهى من الدول المتقدمة فى هذا المضمار وتتخصص فى تسويق اللبن الطازج . أما المناطق الجبلية من سويسرا والنمسا والنرويج فقد عرفت مزارع الألبان منذ مدة طويلة . وهنا تساق أبقار الألبان إلى المراعى الجبلية العالية فى فصل الصيف حيث يقوم الرعاة الذين يسكنون فى أكواخ صغيرة بحلب الأبقار ويصنعون الجبن الذى يجمع فى أوقات منظمة وتتخذ للأسواق . وفى هذه الأثناء يقوم زملاؤهم فى الأودية بزراعة العلف ويقطعون الحشائش لتخزينها لفصل الشتاء حين يعود الرعاة بقطعانهم إلى المزارع لقضاء فصل الشتاء البارد فى حظائر . وعملية التحرك الرأسى بين مراعى الصيف العالية والمزارع فى بطون الأودية تقلل من إنتاجية الأبقار ولكن أمكن التغلب على هذا الأثر جزئيا بنقل الماشية بالعربات بين مناطق الرعى . أما فى النرويج لم يعد لهذا النظام أهمية فى الآونة الأخيرة فالرعاة عادة ما يتركون قطعان الماشية فى عناية عوائلهم ليتفرغوا هم لأعمال أخرى مثل صيد الأسماك وقطع الأخشاب .

٢ تسمين الماشية :

أما خارج نطاق مزارع الألبان ومزارع العصور الوسطى المختلفة كان اتجاه التخصص نحو تسمين الماشية الذى كان يمثل جزءا مهما من النظام التنوعى الأصلى آنذاك . وحاليا يتخصص معظم المنطقة جنوب مزارع الألبان وشمال البحر الأبيض المتوسط فى تسمين الأبقار والضأن والخنزير وتمثل هذه الحيوانات المسمنة أهم سمات النظام الزراعى فى هذه المنطقة . وقد بدأت أجزاء من بريطانيا - خاصة إنجلترا الشرقية وليسترشير - تخصص فى هذا المجال منذ بداية القرن السابع عشر كما حدثت تطورات مماثلة فى نفس الوقت فى أجزاء من ألمانيا وهولندا ولكن التقدم الحقيقى فى هذا المضمار لم يحدث إلا بعد نمو الأسواق الحضرية فى القرن التاسع عشر

أما في مناطق التسمين فقد حلت زراعة علف الماشية محل إنتاج المحصولات للاستهلاك البشرى مما أدى إلى ظهور تباين إقليمي واضح في اختيار محاصيل الحقل . فالى الجنوب من خط فاصل يمر عبر شبه جزيرة البلقان والحافة الجنوبية لجبال الألب مارا بجنوب فرنسا تحتل الذرة الشامية الصدارة كعلف للماشية كما في الذرة الأمريكى في حين أنه إلى الشمال من هذا الخط تسود الحبوب الصغيرة والمحاصيل الجذرية مثل الشعير والشوفان والبطاطس والبنجر . وفي ألمانيا مثلاً فإن ٧٠٪ أو أكثر من حصاد البطاطس يستخدم كعلف للبهائم .

وكما أعطت منطقة إنتاج الألبان الأسماء لأنواع عديدة من الماشية وأصناف الجبن فإن منطقة تسمين الماشية أيضاً قد تركت آثارها في أسماء اللحوم والسجق . ومثلاً نجد أسماء مثل « ثورنقر » ، « وبراون شفايقر » ولحم « وستفاليا » (وهو لحم بقرى في الأصل) مشتقة من أسماء محافظات ألمانية تقع داخل منطقة تسمين الماشية في حين أن أسماء مثل « فرانكفورتر » « وفيينا » « وبولونيا » تحمل أسماء مدن موجودة في هذه المنطقة أيضاً .

٣ - الزراعة التسويقية :

أما الاتجاه الآخر في التخصص في منطقة الزراعة المختلطة فيتمثل في نمو الزراعة التسويقية كما كان الحال في منطقة البحر الأبيض المتوسط .. ففي النظام الزراعى المختلط المتنوع كانت حديقة الخضروات والبستان تكونان ملحقات مهمة للمحاصيل الحقلية ومنها حدث التخصص في إنتاج فواكه وخضروات المناطق المعتدلة . وحينما ظهرت أسواق حضرية كبيرة اكتسبت حديقة الخضروات الصغيرة أهمية كبرى وأخذت تتوسع على حساب حقول المحاصيل الأخرى حتى احتلت تدريجياً الصدارة في النظام الزراعى المختلط . ورغم الأهمية الاقتصادية لهذا النوع من الزراعة فإن المساحات التى يحتلها صغيرة لدرجة أنه من الصعوبة بيانها على الخرائط التى توضح أنواع الزراعة الحديثة .

وتختلف منتجات الزراعة التسويقية من منطقة لأخرى وتتضمن مثلاً التفاح (لانتاج شراب السايذر في غرب فرنسا) والبرقوق (الخوخ) والكثيرى والتبغ والكرز وأنواع من الخضروات والزهور (لانتاج الحبوب) كما في بعض أجزاء

الأراضي المنخفضة : فحقول الزنابق المزهرة في بلجيكا وهولندا من المناظر الجميلة التي لا تنسى .

بدأت هذه المساحات الصغيرة ذات الزراعة الكثيفة لإنتاج الخضروات والفواكه في الظهور في أواخر العصور الوسطى في وادي نهر البو في إيطاليا ومنطقة الفلاندرز وفي المناطق التي شهدت تطور المراكز الحضرية . وبحلول القرن السابع عشر ظهر النمط الحديث لهذا النظام الزراعي في هولندا بصورته الحالية في حين أن معظم المزارع التسويقية ظهرت مع الثورة الصناعية في إنجلترا ثم في باقي أوروبا مع انتشار آثار هذه الثورة إليها . وتسبب قبول هذا النوع من الزراعة كمجال للتخصص في إحداث تغييرات جذرية في أسلوب الزراعة في المناطق المعنية . فقد تقلصت أعداد البهائم أو اختفت كلية من مثل هذه المزارع وأخذت المراعي والمروج والحبوب الصغيرة طريقها إلى الزوال ، وتحولت المزرعة نهائيا إلى حديقة أو بستان كبير .

٤ - المزارع التجارية لإنتاج الحبوب :

رغم أن معظم مزارعي الزراعة المختلطة وجدوا أن التركيز في إنتاج الحبوب الغذائية لغرض التجارة غير مربحة نظرا للمنافسة الشديدة من الدول المنتجة الأخرى وآثروا التخصص في المجالات التي ذكرناها آنفا فلما نجد أن هذا لم يمنع تطور هذا النوع من الزراعة في بعض الأجزاء الهامشية من أوروبا كما في سهول أوكرانيا السوفيتية التي اشتهرت بإنتاج القمح . ومع ازدياد أهمية هذا المحصول في هذه المنطقة واحتلاله الصدارة في الانتاج أخذت أعداد البهائم تقل واحتل نهائيا نظام الدورة الزراعية الثلاثية والدورات الأخرى وحرثت مناطق الرعي والمروج وزرعت قمحا وأفسحت حبوب العلف المكان لحقول القمح الواسعة ، وهكذا بقيت أوكرانيا منطقة متخصصة في زراعة القمح في حين أن مزارع الحبوب التجارية في أجزاء أوروبا الأخرى أخذت تفسح المجال لأنواع من الزراعة الكثيفة في أواخر القرن التاسع عشر .

ج : زراعة الكروم المتخصصة التقليدية شمال البحر المتوسط (الشكل ٥١ و ٥٢)
كانت زراعة العنب تكون أحد العناصر الأساسية في الزراعة الكلاسيكية في حوض البحر الأبيض المتوسط ومن ثم أصبحت زراعة الكروم تكون أساس الزراعة

التسويقية في كثير من المقاطعات الجنوبية كما في مقاطعة دورو Duoro في البرتغال . ولكن زراعة الكروم لم تقتصر على منطقة البحر الأبيض فقط بل انتشرت شمالا منذ عصر الإمبراطورية الرومانية . وبحلول القرن الرابع الميلادي كانت الكرمات قد أنشأت في رواق الرون - ساون في شرق فرنسا والتي تتضمن إقليم Cote d'Or المشهورة بإنتاج العنب حاليا في برقندي ، وأيضا حول مجرى نهر اللوار كذلك في أجزاء أكثر شمالية مثل أودية موزيل قرب المدينة الألمانية الحديثة ترير . وفي القرون التالية ساعدت حاجة الكنيسة المسيحية للنبيذ في طقوسها الدينية في التوسع في زراعة الكروم في أودية أنهار الراين ونيكر ومين في ألمانيا الغربية كما تمت محاولات في إدخالها في بعض المقاطعات مثل الفلاندرز وجنوب شرق بريطانيا وشمال ألمانيا ولكنها باءت بالفشل لأسباب مناخية . وقد شجع الحكام الفرنجة انتشار مزارع الكروم في ممتلكاتهم العديدة للحصول على عوائد أكبر من الأرض .

وقد اختلفت زراعة الكروم في المنطقة الشمالية من مصدرها في حوض البحر المتوسط وأيضا من الزراعة المختلطة المجاورة لها . وعلى عكس النظام التقليدي السائد في منطقة البحر الأبيض فهذه الأجزاء الشمالية تخصصت في إنتاج الكروم فقط وخاصة عنب النبيذ لأن الزبيب وعنب الطاولة لم يكن بذى أهمية هنا . ومنذ البداية اتجهت زراعة الكروم في الشمال نحو التخصص في مجال الإنتاج التجاري مما يتطلب درجة عالية من المهارة والرعاية . وبقيت وسائل الزراعة والخبرة المكتسبة في العائلة يتوارثها الابن من الأب أو جيل الرهبان من جيل لآخر وظلت الكرمة في ملكية العائلة الواحدة لقرون عديدة . وكان تجار الخمر غير خاضعين لقيود إقطاعية وهكذا كونوا طبقة وسطى صغيرة لكنها غنية وسط مجتمع إقطاعي غريب .

وفي العصور المظلمة جاهدت الأديرة المنتشرة في ألمانيا الغربية وفرنسا في إبقاء زراعة الكروم حية رغم ما أصابها من تقلص ، ولكن مع إحياء الطرق التجارية وإعادة بنائها بين مختلف مناطق غرب أوروبا دبّت الحياة في هذه الصناعة من جديد واكتسب النبيذ شمانيا وبرقندي والراين وموزيل شهرته العالمية من خبرة متوارثة تمتد عبر ١٥٠٠ سنة أو أكثر .

أما الاختلاف الثاني مع زراعة الكروم في البحر المتوسط فيتمثل في اختيار أو تعيين موقع الكرم . ففي جنوب أوروبا توجد الكرمات في السهول والمنحدرات على السواء في حين أنها في شمال الألب توجد في مصاطب على منحدرات التلال حيث الفرصة أحسن للاستفادة من أشعة الشمس . وإذا أخذنا الكلمة الألمانية للكرم نجد أنها تعني حرفيا « تل أو جبل النبيذ » وهذه دلالة واضحة لمدى الارتباط أو العلاقة بالموقع على المنحدرات .. فبعض أجود أنواع النبيذ يأتي من المنحدرات المواجهة للجنوب مثل نبيذ « راينفاو » بالقرب من فرانكفورت وفيزيادن في ألمانيا الغربية . ونسبة لاختلاف تعرض الشمس مع كل المنحاة أو انعطاف في الوادي فقد يترتب على ذلك الحصول على أنواع مختلفة من النبيذ من حقول متجاورة . ولذلك فإن حقول العنب المشهورة وأحسن سنين التبعة معروفة لدى خبراء النبيذ . ونسبة للتقلبات الجوية وظروف الطقس التي تختلف من سنة لأخرى فإن جودة النبيذ في هذه المناطق الشمالية الهامشية تتقلب تبعا لذلك .

وفي وقتنا الحالى نجد أن مناطق زراعة الكروم العريقة قد اندمجت مع النظام الزراعى المتخصص في ألمانيا وفرنسا وتقع تحت صنف الزراعة التسويقية والبستانية ولكن هناك فارق أساسى ألا وهو أن مزارعى الكروم هؤلاء هم ورثة خاصية زراعية عريقة ذات تقاليد ضاربة في عمر الزمن وليست مشتقة حديثا من زراعة العصور الوسطى المختلطة .

أما وجود وغياب زراعة الكروم من مناطق عديدة شمالى البحر المتوسط فله علاقة وثيقة بنوع الشراب المفضل محليا . فعلى العموم يمكن أن نقول إنه متى وجد النبيذ فهو الشراب المفضل عند العامة كما في فرنسا وجنوب غربى ألمانيا . أما خارج هذه المنطقة ، فنجد البيرة أو المشروبات الكحولية المصنوعة من الحبوب الصغيرة هي السائدة كما في شمال ألمانيا وبفاريا والأراضي المنخفضة ودول اسكندناوة والجزر البريطانية وأقطار الصقالبة الشمالية .

د . الرعى المتنقل (الشكل ٥٣ و ٥١) .

أما النوع الأخير من أنواع الزراعة التقليدية فهو الرعى المتنقل الذى يسود في

أقصى شأى بلاد إسكندناوه وفنلنده والمناطق المتاخمة من الاتحاد السوفيتى وسط المجموعة المعروفة باللاب Lapp. والطريقة التقليدية التى يتبعها هؤلاء تشمل الآتى : تنقلات فصلية لقطعان الرنة الأليفة وانعدام كلى للحيوانات الأخرى واخبوب الزراعية والسكن فى خيام متنقلة تناسب حياتهم البدوية .

ويحصل رعاة اللاب من حيوان الرنة ما يحتاجون إليه من ضروريات الحياة من لحم وجلد للكساء وبناء مأواهم والعظم لعمل الآلات والمعدات . وكان هؤلاء الرعاة يقضون فصول الصيف ويرعون قطعانهم على حشائش التندرا فى منحدرات التلال الداخلية وأطراف السواحل الشمالية من منطقة اللاب التى تشمل أيضا بعد الجزر الواقعة قرب الساحل النرويجى . أما فى فصل الشتاء فإن قطعان الرنة تساق إلى حاية الغابات الصنوبرية التى تتخذ كمأوى للحيوانات من الرياح الباردة القارصة التى تحتاج إقليم التندرا المفتوحة . ثم يقضون فصلى الخريف والربيع فى الطريق من وإلى مناطق الرعى الصيفى فى التندرا . ولم يبد اللاب أى اعتبار للحدود الدولية وكانوا يتجولون بحرية تامة عبر ما يعرف اليوم بالنرويج والسويد وفنلنده والاتحاد السوفيتى .

وحتى هذا الركن الثانى من أوروبا لم يكن فى منأى من التغيرات البعيدة المدى التى أثرت فى الاقتصاد الزراعى فى بعض أجزاء القارة . وقد خبر اللاب وكذلك حياتهم التقليدية تجارب جديدة وتغيرات جذرية حديثا كان من نتائجها تحطيم نظام الرعى البدوى ومنذ عام ١٨٥٢ بدأت المشاكل تحقيق بهم وذلك عندما تم إغلاق بعض الحدود الدولية مما أجبرهم على تبنى جنسية دولة من الدول المعنية وأدى نهائيا إلى تمزيق كثير من طرق الهجرات الفصلية بين مناطق الرعى التى كانوا يرتادونها . ولتسهيل هذه الضائقة وصل السويديون والنرويجيون إلى اتفاق يسمح بمقتضاه لبعض اللاب السويديين باستخدام مراعى التندرا الصيفية فى النرويج مقابل السماح لعدد قليل من اللاب النرويجيين باستعمال الغابات السويدية كمأوى لقطعانهم فى فصل الشتاء . ولكن رغم هذا فإن عبور الحدود الدولية انتجاعا للمرعى نادر الحدوث الآن . ومن التغيرات الهامة التى بدأت حديثا فى هذه المنطقة تلك التى تشمل إقامة السياج أو الزريبة حول المألف أو مكان المرعى مما يؤدى إلى الفصل بين

قطعان مجموعات اللاب المتجاورة وينهى في نفس الوقت نظام الرعى المفتوح التقليدى . وأحد هذه السياج الفاصلة يوجد في موازاة الحدود النرويجية - الفنلندية ، كما تم إنشاء مثيلات لها داخل الدولة المعنية ، وقد عينت السويد حدودا داخل إقليمها ومنحت اللاب الأسبقية في استخدام الأرض شمالى هذه الحدود . أما النرويج فقد أنشأت مكثبا خاصا للرنة تابع لوزارة الزراعة ويتمى رعاة اللاب إلى الجمعية الوطنية لرعاة الرنة اللايين . ويطلب مكتب الرنة تقريرا سنويا بعدد الحيوانات كما يقوم بالإشراف على الهجرات بين المراعى ويطلب من كل صاحب قطع توسيم قطعانها وتسجيل العلامة المميزة عند الحكومة ، كما تم تشييد سلخانات صحية وتجهيزات لتجميد اللحوم . وهناك محاولات لتسويق هذه المنتجات داخليا وخارجيا . وأهم تغيير في حياة اللاب هو تخلى الكثير منهم عن مهنة الرعى واتخاذهم وظائف أخرى كصيد الأسماك والزراعة والتعدين والصناعات الأخرى . ولم يبق إلا جزء من المجموعة المسمى « بلاب الجبال » التى ما زالت تمارس مهنة تربية الرنة ، وحتى هؤلاء قد تخلوا عن سكنى الخيام المتنقلة في سبيل أكواخ دائمة لكنها بائسة . واليوم نجد أن حياة التنقل قد اختفت تماما وحل محلها نظام التنقل الأفقى والذي يتطلب حياة مستقرة لخمسة أو ستة أشهر في السنة ، والناتج الأخير لهذه التغيرات هو أن ما يمارسه اللاب اليوم أقرب إلى تربية الماشية منه إلى الرعى المتنقل ، ثم اختفاء نظام الرعى التقليدى من مناطق كثيرة إلا التندرا السوفيتية النائية التى ما زالت تحتفظ به حتى اليوم .

العوامل التى تؤثر في توزيع الأنماط الزراعية :

من هذه الدراسة يظهر لنا أن هناك أسبابا اقتصادية وحضارية وطبيعية قد أثرت في نشأة وتطور الأنماط الزراعية التى تكلمنا عنها . فالدور الذى تلعبه عناصر المناخ والتربة والتضاريس قد سبق الإشارة إليه في معرض الحديث عن أنماط الزراعة الأوروبية وأيضا عن العلاقة بين زراعة البحر الأبيض في العصر الكلاسيكى وبين فصلية الأمطار مما أدى إلى التركيز في زراعة الحبوب الشتوية واختيار أشجار الفاكهة للجفاف كما يتجلى أيضا في المناطق الفقيرة المحدبة في كثير من أجزاء أوروبا التى

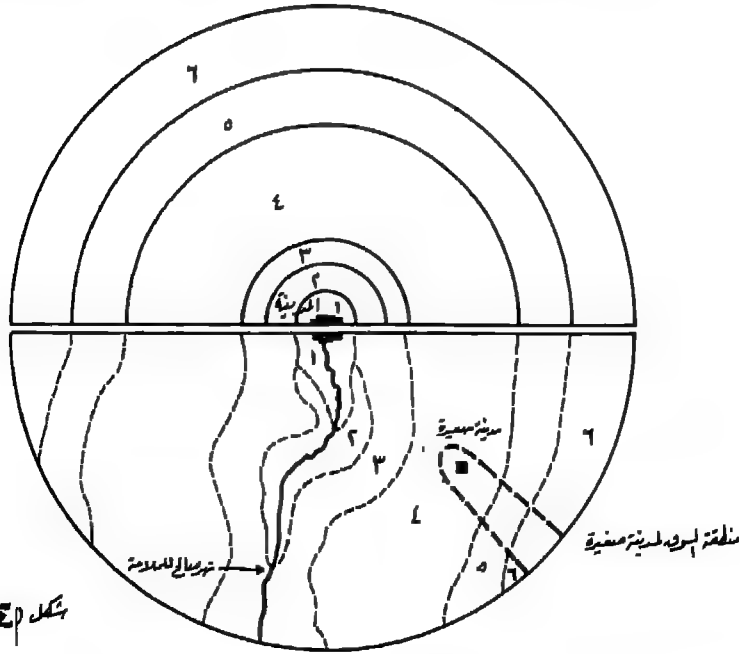
تخصص في تربية الضأن في حين أن المنحدرات تترك لنمو الحشائش والغابات ، وكذلك في مزارع العنب شمالى منطقة البحر الأبيض المتوسط التي تزدهر على منحدرات التلال الأكثر تعرضا لأشعة الشمس وفي منطقة الألبان التي تطابق تلك الأجزاء التي تتميز بمناخ بحرى بارد ملبد بالغيوم ، أما إنتاج الزبيب فيعتمد أساسا على الأيام المشمسة الجافة التي تتبع فترة الحصاد في حين أن منتجى الألبان السويسريين يعتمدون على الحشائش الجبلية لرعى حيواناتهم في فصل الصيف .

وفي ممارسته لكل هذه الوسائل كان الإنسان يأخذ في اعتباره ضروب البيئة الطبيعية في اتخاذ قراراته الزراعية . وفي نفس الوقت أظهر الإنسان الأوروبي قدرته الخلاقة في تطوير وتهيئة تلك البيئات غير الصالحة لتلائم احتياجاته : فقلة الأمطار أمكن التغلب عليها باللجوء إلى الري الصناعى كما في أحواض شرق أسبانيا كما استطاع رفع إنتاج التربة الفقيرة باستخدام الأسمدة الكيماوية وأخضع منحدرات المناطق المتضرسة للزراعة ببناء المصاطب عليها . وقد تمكن مزارعو الخضروات الأيسلنديون من استخدام مياه الينابيع الساخنة لتدفئة المنازل الخاصة حيث تزرع أنواع من الخضروات التي لم يكن في مقدورهم زراعتها في ظل الظروف المناخية الباردة التي تتميز بها الجزيرة .

ولكن أيضا هناك أسباب أخرى بشرية لها آثارها في الزراعة ، مثل نظرية فون ثونين Von Thunen . وقد حاول كثير من العلماء تفسير أنماط استخدام الأرض على أسس اقتصادية ولكن فون ثونين كان من أوائل الذين كتبوا في هذا الشأن . ففي عام ١٨٢٠م ظهر كتابه « Isolated State » الذي أصبح فيما بعد مثالا نموذجيا لنظرية تحديد الموقع ، رغم أن آراءه يمكن تصنيفها كمنهج تحليلي أكثر منه لشرح نظرية الموقع . وكان فون ثونين مقتنعا تماما بأن لتكاليف النقل والترحيل وموقع السوق تأثيرها الكبير على اتخاذ القرارات الخاصة باستخدام الأرض وليبرهن هذا بحث عن وضع مثالى يمكن تطبيق آرائه فيه ، وكان أن اقترح دولة افتراضية معزولة تماما ومحاطة بمنطقة مقفرة خالية من طرق النقل الرئيسية (الشكل ٥٤) . وفي وسط دولته الدائرية الشكل جعل مدينة تجارية أو مدينة واقترض أن المزارعين الذين

يشكل يوضح مدينة قنوه ثنتين المعزولة . الجزء الأسفل من الشكل يوضح أرضه صالح للمحاصيل

ومدينة ثانية صغرية على خط استخدام الأرض



انواع استخدام الأرض توضح التغيير الذى يطرأ عليها كلما ازداد البعد من المدينة المركزية على النحو التالى :

- النطاق ١ : زراعة المحصولات وتربية الماشية وفق خصائص المناخ والتربة والطلب .
 - النطاق ٢ : غابات .
 - النطاق ٣ : زراعة مكثفة خالية من البور والمراعى (زراعة الدرنات والبرسيم والحبوب والبقول فى دورات) .
 - النطاق ٤ : زراعة دورية تشمل الحبوب - الحشائش - بور (أى ترك الأرض بورا لسنة واحدة كل سبع سنوات) .
 - النطاق ٥ : نظام الثلاث دورات زراعية . حبوب وترك الأرض بورا لمدة سنة واحدة فى كل ثلاث سنوات .
 - النطاق ٦ : رعى الماشية ويترك معظم الأرض تحت الحشائش .
- ملحوظة : يجب تقييم هذا الشكل فى اطار الظروف الاقتصادية السائدة فى اوائل القرن التاسع عشر .

يعيشون على بعد متساو من المدينة يتساوون أيضا في اتصاهاهم بها . ولم يول فون ثونين اهتماما لأية فروقات في خصوبة التربة ولا في غلة المحصولات كما اختار موقعا لدولته المعزولة في أرض منبسطة خالية من أية معالم . ولتحقيق الهدف من دراسته افترض أيضا أن المزارعين جميعهم يزرعون لغرض تسويق منتجاتهم وأنهم لذلك سيجثون عن الطرق التي بواسطتها سيجثون الأرباح الطائلة من الأرض . وهكذا نجد أن فون ثونين كان في الحقيقة يقوم بإبطال أو تجميع عوامل سببية في سبيل دراسة أثر عوامل قليلة اقتصادية في مضمونها .

وأكثر ما أثار انتباه المؤلف وفضوله هو الفرق بين سعر المنتجات الزراعية وتكاليف إنتاجها وتسويقها . . وأن كليهما - الأسعار والتكاليف - عالية. قرب المدينة وذلك لأن الأرض والعمل كانا أكثر تكلفة والطلب على المنتجات أكبر . ومع تزايد المسافة بعدا من المدينة انخفضت الأسعار أكثر من التكلفة وذلك لارتفاع تكاليف النقل مما يغطي أو يوازن جزئيا الهبوط في تكاليف الأرض والعمل مع البعد من المدينة . وهكذا نجد أن الفرق بين التكاليف والأسعار - والذي يمثل أرباح المزارع - كان أكثر في المناطق القريبة من المدينة . ثم استطرد فون ثونين يناقش بأن أكثر أنواع الزراعة كثافة ستركز قرب المناطق التي تتيح فرصة أكبر لجنى أرباح أكبر أى في أكثر المناطق قربا للمدينة وأن نسبة الكثافة الزراعية ستقل كلما انجها إلى أطراف الدولة المنعزلة . والزراعة المكثفة بالقرب من المدينة ماهى إلا نتيجة لإمكانية الأرباح الطائلة والتي تستدعى استخداما أكثر للعمل ورأس المال للفدان وذلك قبل تدارك نقطة تناقص الغلة أو الإنتاج . وبالإضافة إلى ذلك فإن القيمة العالية للعقار الأرضى بالقرب من المدينة ، والتي تتمثل في تكاليف البيع أو التأجير والضرائب - تشجع استخداما أكثر كثافة للأرض وهذه يمكن الحصول عليها إما باستعمال أكثر للعمال ورأس المال للفدان أو بالتحويل إلى إنتاج محاصيل أو تربية حيوانات ذات قيمة أعلى .

أونظهر دولة فون ثونين الفرضية ستة نطاقات لاستخدام الأرض متحدة المركز (الشكل ٥٤) . في النطاق المجاور للمدينة يتم زراعة المحاصيل وتربية الماشية وفق حالة الطقس والتربة وكذلك الطلب . فالقرب من المدينة يجعل تكاليف النقل

والوقت غير ذات أهمية في تحديد الاستخدام الأرضي وبهذا فقد صنف فون تونن هذا النطاق بأنه نطاق الاختيار الحر أى أن للمزارع كامل الحرية في اختيار نوع الزراعة الذى يراه مناسباً . وفي الحقيقة كانت الأفضلية تولى لإنتاج المنتجات سريعة التلف مثل اللبن والخضروات والفواكه لقرب موقعه من المدينة وإمكانية الحصول على أرباح عالية مما أدى إلى قيام منطقة مزارع ألبان وزراعة الخضروات للتسويق في هذا النطاق .

أما النطاق الثانى فيتكون من غابات وتفسير هذا هو أن الطلب على الأخشاب كوقود كان عاليا خاصة للتدفئة ، لأن وسائل النقل كانت بدائية في تلك الفترة (القرن التاسع عشر) ، فالحمولة الزائدة للأخشاب وحجمها الكبير استدعت أن تكون مصادرها قريبة من مناطق استهلاكها داخل المدينة . وخلف نطاق الغابة توجد ثلاث مناطق متتابعة من المحاصيل وتتميز كل منطقة عن الأخرى بمدى الكثافة الزراعية التى تقل تدريجيا كلما ابتعدنا من المدينة . فمناطق المحصولات التى تجاور نطاق الغابات خالية من الحشائش والأرض البور مما يدل على كثافة زراعة عالية في حين نجد أن الأرض كانت تترك بورا لمدة سنة في كل سبع سنوات في النطاق الرابع ولمدة سنة كل ثلاث سنوات في النطاق الخامس . أما النطاق السادس الذى يقع على هامش الدولة فكان مقتصرًا على تربية الماشية فقط .

إذا أدخلنا في اعتبارنا عوامل أخرى مثل الاختلاف في خصوبة التربة من منطقة لأخرى وعدم توفر المواصلات بالتساوى بين مختلف المناطق ، ووجود أسواق متعددة وعوامل أخرى عديدة - فلنأخذ نرى أن نطاقات فون تونن يصيبها التشوه والتحريف . ولهذا نجد أن نتائج بحثه النوعى أصبحت قديمة عفا عليها الزمن ولكن إذا أخذنا آراءه العامة وطريقة تحليله فنجد ما زالت سارية المفعول مما أتاح الفرصة لدراسات أكثر عمقا وصقالة للأسباب التى تؤثر على أنماط استخدام الأرض . وهناك الكثير في التوزيع الحالى والقديم لأنواع الزراعة في أوروبا مما يؤيد صحة أساسيات نظرية فون تونن كما أن هناك براهين متفاوتة الدرجات ومتفرقة تؤيد ذلك . فحول القرى المتناثرة في بلاد متباعدة مثل إيطاليا والأراضي المنخفضة (هولندا) والسويد وبلغاريا لوحظ

أن الحقول القريبة من القرية أو المنزل الريفي هي أكثرها استغلالاً في حين أن الحقول التي تقع على هامش القرية تترك في كثير من الحالات لغو الحشائش والغابات . ولا يسعنا إلا أن نذكر هذا الشخص ونحن نلاحظ تلك الحقول من العنب والفواكه التي تحيط بكثير من القرى الإيطالية والتي تفسح المجال لحقول الحبوب ثم للحشائش مع ازدياد المسافة بعداً من القرى .

وعلى المستوى الإقليمي نجد هناك دراسات يقوم بها الجغرافيون عن التغير الذي يطرأ على نوع الزراعة كلما بعدنا من السوق أو المركز التجاري . وفي إنجلترا مثلاً نجد الجغرافي مايكل تشيشولم M. Chisholm قد ساعد كثيراً في تفهم كثير من العوامل النسبية وراء التوزيع الزراعي . ففي وصف للزراعة في عام ١٨١١ لوحظت نطاقات زراعية معينة حول مدينة لندن مرتبة هكذا من الداخل إلى الهامش : مزارع لإنتاج الألبان ثم حقول لانتاج الحشائش ثم حقول خضروات . وهناك عناصر معينة من هذا التوزيع ما زالت موجودة حتى الآن . فالمحصولات البستانية التي تتلف بسرعة أو تحتاج إلى نوع معين من التربة أو المناخ وجد أن توزيعها محدد إلى درجة كبيرة في إنجلترا في حين أن منتجات الألبان الأخرى الأقل تعرضاً للتلف مثل الجبن والزبدة المملحة واللبن المجفف تجلب من مناطق أبعد مسافة من تلك التي يجلب منها اللبن السائل . أما تربية الضأن فنجدتها في مناطق نائية مثل مرتفعات أسكتلنده . وعلى نطاق القارة نجد أن مبادئ فون ثونن ما زالت موجودة ويمكن أن نراها ممثلة في بعض الظواهرات (جدول ١٣) . وفي العشرينات كتب الجغرافي السويدي « أولاف جوناسن » يشبه المنطقة الصناعية في شمال غرب أوروبا بمنطقة حضرية ضخمة أو مدينة كبرى تحيط بها نطاق نون ثونن الداخلي حيث مزارع الخضروات والألبان تماماً مثل المدينة المركزية التجارية الدولية المعزولة . وقد أوضحت دراسات الجغرافيين « فان فالنكنبرج » « أوهيللم » أن الكثافة الزراعية تنخفض كلما ازدادنا بعداً من المنطقة الصناعية الحضرية الآتفة الذكر .

وهناك تحليلات حديثة مبنية على نظرية فون ثونن ، تصدى لها حديثاً الجغرافي ج . د . بيت الذي طور النظرية وأضاف إليها تحليله عن التغيرات التي طرأت على

توزيع المناطق الزراعية خلال الزمن ، خاصة في القرن التاسع عشر. ومن الواضح أن التغيرات السكانية في المدينة المركزية ، والتي حتما ستؤدي إلى تغيرات في الطلب على المنتجات الزراعية ، ستؤثر بالطبع على الزراعة في النطاقات الأخرى المجاورة كما هو الحال أيضا في حالة تطور وسائل نقل جديدة ورخيصة لهذه المنتجات . فعلا قد حدث مثل هذه التغيرات في شمال غرب أوروبا في القرن التاسع عشر عندما برزت « مدينة عظمى » إلى الوجود وذلك في شكل تلك المراكز الحضرية الصناعية الواقعة في الحزام الصناعي حول حقول الفحم في بريطانيا والأراضي المنخفضة وألمانيا .

جدول : ١٣

يوضح كيف تقل كثافة استخدام الأرض وأنتاجيتها مع تزايد المسافة بعدا من المزرعة

| السويد | | الأراضي المنخفضة (هولنده) | |
|--------------------------------------------------------------------------------|--------------------------|-------------------------------------------------------------------------------|-----------------------|
| النسبة المئوية للمدى ارتباط تناقص الأنتاج مع البعد (لكل كيلو متر) من المزرعة | حجم المزرعة (بالهكتار) | متوسط ساعات العمل المخصصة سنويا للقطيع الزراعية التي تزيد مساحتها عن ١٥ هكتار | بعد القطعة من المزرعة |
| ٤٪ | ١٠ - ٢٠ هكتار | ٤٠٠ ساعة | ٥ كيلو متر |
| ٩ | ٢٠ - ٤٠ | ٣٦٠ | ١ كيلو متر |
| ٢٦ | فوق ٤٠ | ٣٠٠ | ٢ كيلو متر |
| | | ٢٤٠ | ٣ كيلو متر |
| ١٣ | كل المزارع | ١٩٠ | ٤ كيلو متر |
| | | ١٥٠ | ٥ كيلو متر |

Source : M . Chisholm, Rural Settlement and Land Use, Hutchinson, London, 1962.

وهذه « المدينة العظمى » الأوروبية كونت مع صنوها في شمال شرق الولايات المتحدة ما أسماه « بيت » بمدينة ثونن العالمية . وقد رافقت تطور هذه المدينة العظمى زيادة كبيرة في عدد السكان مما أدى إلى ظهور سوق كبيرة . وفي نفس الوقت

أصبحت وسائل نقل المنتجات الزراعية سهلة ورخيصة بواسطة القنوات والسكك الحديدية والبواخر المحيطة الضخمة . وعلاوة على ذلك فقد ازدادت دخول سكان المدن زيادة ملحوظة في بداية القرن التاسع عشر مما أدى إلى ارتفاع القوة الشرائية وزيادة في استهلاك الأصناف الجيدة من الطعام . ويمكن أن نلخص نتيجة هذه التغيرات في : (١) زيادة الطلب على المنتجات الزراعية ، (٢) سهولة الاتصال بالسوق . وحسب رأى بيت فإن لهذه الزيادة في الطلب على المنتجات الزراعية أثران : (١) توسع رأسى في الإنتاج بمعنى أن هذه الزيادة ستؤدي إلى تكثيف الإنتاج في المناطق المزروعة ، ثم (٢) توسع أفقى أى توسع في مساحة الأراضي الزراعية المنتجة لهذه المحصولات . وهكذا فإن زيادة الطلب على المنتجات الغذائية ذات الجودة مثل الفواكه ومنتجات الألبان واللحوم والتي حدثت نتيجة زيادة دخول المستهلكين أدت إلى : (١) تكثيف زراعة الخضروات والألبان وتسمين الماشية في تلك المناطق التي كانت تتخصص عادة في هذا المجال . (٢) إحلال أو إزاحة أنواع الزراعة الأخرى غير الكثيفة بالأنواع الكثيفة المذكورة . ولذلك نجد أن إحلال مزارع الألبان محل زراعة القمح الذى حدث في هولنده يطابق نظرية فون ثونن إلى حد كبير . وخلاصة ما توصل إليه « بيت » هى أن نموذج « فون ثونن » قد أثبت العلاقة بين العامل السبى لقيام الثورة الصناعية وبين انتشار الزراعة التجارية في أوروبا وبقى أجزاء العالم في بداية القرن التاسع عشر . وما زالت أفكار « فون ثونن » تساعد إلى حد كبير في تفسير وفهم توزيع النطاقات الزراعية المختلفة التى نجدها في أوروبا اليوم خاصة مزارع الألبان وتسمين الماشية ومزارع إنتاج الحبوب .

وقد تصدى جغرافى آخر هو « و . آى . بيكر » لتفسير النمط التوزيعى للمحاصيل الزراعية وتربية الماشية . ورغم أنه قام بدراسته هذه في العشرينات فإن ما توصل إليه من نتائج يمكن أن تطبق على الأوضاع الحالية في أوروبا . وقد اقترح بيكر الآتى : (١) أن المنتجات الزراعية التى عليها طلب كبير ولكنها تعاني من عدم توفر العناصر المناخية والبيئية الملائمة ، ستعطى الأولوية في أخصب أجزاء الأرض الزراعية في المناطق الصالحة لزراعتها . (٢) أن المنتجات التى تتميز بالوزن القليل والقيمة العالية

ستكون لها الأسبقية في تلك المناطق الصالحة مناخيا وبيثيا لزراعتها (٣) سيكون هناك ميول أو اتجاه نحو التخصص في زراعة محاصيل قليلة جدا في اقتصاد موجه للتجارة أو التسويق لأن المزارعين في مثل هذه الأوضاع يميلون إلى زراعة المحاصيل التي تدر عائدا أكثر للقطعة الزراعية . (٤) وأن نوعية وتجارب ومهارة السكان الزراعيين سيكون لها أثرها في اختيار المحصول . ومن هذه الدراسة نرى « بيكر » متأثرا إلى حد كبير بآراء فون ثونن .

وإذا تركنا تأثير عوامل النقل والسوق والبيئة الطبيعية جانبا فاننا نجد عوامل ذات طبيعة حضارية أو سياسية قد لعبت دورا مهما في توجيه المزارعين للسير في طريق زراعى معين رغم أن هذه الممارسة قد تبدو غير منطقية أبدا . ومثلا فإن عدم وجود نطاق مزارع الألبان في الجزء الأوروبى من حوض البحر الأبيض يرجع جزئيا إلى النظام الغذائى لأهل هذه المنطقة : فهذه المنطقة بالأخص لم تتوارث منتجات الألبان المشتقة من لبن الأبقار في حين أن احتياج الكنيسة للتبذ في طقوسها الدينية ساعد إلى حد كبير في إنشاء مزارع العنب في ألمانيا ، كما صحب الاتصال بالعالم الخارجى دخول محاصيل أخرى كثيرة أدى نهائيا إلى تطوير التكنولوجيا الزراعية .

وقد أدت التعريفات الجمركية والاعانات الحكومية التى تمارسها كثير من الحكومات الوطنية والكتل التجارية إلى الاستمرار في إنتاج محاصيل معينة في تلك الأقطار التى تخشى المنافسة الأجنبية . وعلى العكس فان إزالة قيود الاستيراد قد يسبب في إحداث تغييرات جذرية وفجائية في الزراعة كما حدث عندما ألغت بريطانيا قانون الحبوب في عام ١٨٤٦م . وفي الوقت الحاضر فان القيود التعريفية المفروضة على المحاصيل الزراعية المستوردة وتركيب الأسعار الزراعية داخل السوق الأوروبية المشتركة هى موضع مباحثات صعبة بين أعضائها . فبريطانيا تعترض بشدة على الضرائب المفروضة عليها وفق السياسة الزراعية العامة للسوق الأوروبية المشتركة . وحسب هذه السياسة تفرض ضرائب عالية على الواردات من المواد الزراعية (الغذائية) ويصرف جزء كبير من هذا الدخل لتدعيم الزراعة - خاصة مزارع إنتاج الألبان - في الدول الأعضاء . واحتجاج بريطانيا على هذه لسانية ينبع

من كونها دولة تستورد معظم احتياجاتها من المواد الغذائية من الخارج مما يرفع من حصتها في الضرائب المفروضة بينما يمثل القطاع الزراعى فيها قطاعا ثانويا ولذلك لا تستفيد من الدعم المالى الذى يمنح لمزارعى أعضاء السوق المشتركة ومن ثم مطالبها بتخفيض نصيبها من الضرائب المفروضة .

السياسة الزراعية العامة أو المشتركة 'Common Agricultural Policy'

تم إنشاؤها فى عام ١٩٦٢ ويقوم « صندوق الضمان والإرشاد الزراعى الأوروبى » بتنفيذها وتلخص وظيفتها فى شيئين رئيسيين : إرشاد وتحسين الإنتاج الزراعى وكفالة الضمان أو الحماية للمزارع ودخله ، أما الهدف الرئيسى فهو إنشاء سوق واحدة لكل المنتجات الزراعية . وهذا يعنى إزالة كل الحواجز القومية والمالية والطبيعية من أمام التجارة ، كما يستدعى ذلك سريان أسعار ثابتة ومضمونة على نفس المستوى داخل الدول الأعضاء ، ويتوقع أن تودى سهولة الاتصال بأجزاء السوق المشتركة إلى إزالة أو تقليل تكلفة النقل إلى أدنى حد ممكن . وعلى الوجه الامثل يعنى هذا أن الفرصة ستكون مواتية للمناطق ذات الكفاءة الإنتاجية العالية من الناحية الاقتصادية والبيئية ، وفى النهاية سيكون التخصيص الاقليمى فى الزراعة هو ألسمة السائدة . ومثلا ستتخصص المملكة المتحدة فى منتجات الالبان واللحوم (الضأن والبقر والخنزير والدجاج) وإنتاج الحبوب لصلاحية البيئه لممارسة الزراعة المختلطة ، بينما تتخصص دول مثل ايطاليا وجنوب فرنسا فى انتاج المحصولات الشجرية (الزيتون والحمضيات والكروم) والخضروات وهكذا ينتج كل اقليم ما يلائمه من محاصيل وسيتحول الاستقلال القومى إلى اتكال اقليمى ، وقد يؤدى هذا التخصيص الاقليمى إلى الاكتفاء الذاتى فى المنتجات الزراعية وهذا ما تصبوا إليه الدول الاعضاء .

(١) حماية دخل المزارعين

هى من أهم أهداف هذه السياسة وينبثق هذا الاهتمام من الاعتراف بصعوبة المحافظة على دخول المزارعين فى مجتمع قوامه الصناعة فى مستوى مساو لدخول العمال الصناعيين ، وتتكفل السياسة بضمان هذا المستوى . ولكن لماذا حاجة المزارعين بالبلدان ؟ يرتبط جزء من الإجابة بتركيب أعضاء السوق الست الأصليين ويوضع

المزارعين القوي (من الناحية الانتخابية) في كل من فرنسا وإيطاليا اللتين اعتمدتا على هذه السياسة الزراعية كعامل تعويض مقابل فتح أسواقها للمنتجات الصناعية الألمانية . وحماية دخل المزارع على (أى سياسه الضمان) تعمل بالطريقة الآتية :

تطبيق سياسة تسعيرية عامة على كل إنتاج ، وتحديد تسعيره مستهدفه Target Price سنويا ، الهدف منها تقدير عائد معقول لمزارع كفاء في منافسة مفتوحة (أى سوق يتنافس فيها مع منتجات المناطق الأخرى) . وهكذا يستطيع كل مزارع أن يبيع منتجاته في سوق مفتوحة بسعر مرتبط بالتسعيرة المستهدفة ، ولكن في حالة انخفاض هذه التسعيرة هنالك ما يسمى التسعيرة intervention-Price تتدخل عندها منظمة محلية تديرها السوق وتشتري كل المنتجات الزراعية . وتمثل هذه التسعيرة نوعا من السعر الاحتياطي وتقل بحوالى ٨٪ من سعر السوق . وبالإضافة إلى ذلك فإن على المنتج الأجنبي الذى يريد بيع منتجاته داخل السوق المشتركة أن يدفع ضريبة عند الحدود مما يزيد من أسعار منتجاته إلى مستوى التسعيرة المستهدفة ، وهكذا تمنع المنتجات الأجنبية الرخيصة من منافسة منتجات مزارعى السوق المشتركة . ومعنى ذلك أن دخول المزارعين محمية عند مستوى اصطناعي وهو التسعيرة المستهدفة . ولكن هناك ضمان واحد بالنسبة للمستهلك : ففي حالة ارتفاع سعر السوق لمنتوج معين أكثر من التسعيرة المستهدفة فإن منافسة المنتجات المستوردة ستخفض السعر إلى مستوى التسعيرة المستهدفة مرة أخرى مما يحقق نوعا من التحكم على التسعيرة وتنظيمها .

ولتغطية الدعم التسعيرى هذا فان على الدول الأعضاء دفع الضرائب التى تفرض على المواد الغذائية المستوردة للصندوق وكذلك الجمارك ونسبة من عوائدها من ضريبة القيمة المضافة Value Added Tax (VAT) ومعنى ذلك أن الضرائب غير المباشرة التى يدفعها المستهلك هى مصدر الحماية المضمونة التى يتمتع بها المزارعون . ويمثل فائض الإنتاج أهم المشاكل التى تمخضت عن سياسة الحماية . ففي فترات الوفرة الزائدة ، والتى يتعرض لها منتجات الألبان أكثر من غيرها ، تشتري السوق كل الفائض وتقوم بتخزين كميات ضخمة منها عند سعر الدعم أو سعر التسعيرة .

وتمثل الزبدة أحسن مثال لعملية التكديس هذه و « جبال الزبدة » التي تكونت في مخازن السوق في أوائل السبعينات توضح بجملاء أن سياسة الحماية ، مالم ترتبط بنوع من الإصلاح ، تخلق في النهاية فائضا في الإنتاج كما إنها غير ذات فعالية على المدى البعيد . وأساسا تكمن المشكلة في أن التسعيرة المنظمة والتي تحمي مزارعا صغيرا معمرًا في الهضبة الوسطى الفرنسية من الافلاس المالى هي أيضا التي تشجع المزارعين الكفيا في حوض باريس وتدفعهم للإنتاج الوفير مما يؤدي إلى تلك الفوائض الدورية .

(٢) الإرشاد الزراعي والإصلاح .

يتمثل الجانب الايجابي الآخر في السياسة الزراعية العامة في الارشاد الزراعي والإصلاح ، وهو من الأهداف بعيدة المدى . وتتلخص المشكلة في أن ثلثي مزارعي السوق المشتركة قد تجاوزوا الخمسين من العمر (٧١٪ من مزارعي إيطاليا) كما تقل نصيب ثلاثة أرباع من هؤلاء المزارعين من الماشية عن عشر أبقار ويبلغ متوسط حجم المزرعة عشرة هكتارات . أما في إنجلترا فإن حجم المزرعة يبلغ ثلاثة أمثال هذا الحجم الذي تتطلع إليه السوق .

ومنذ الخمسينات شهدت هذه الدول تحسينات جذرية في التركيب الزراعي في اطار سياسة تطوير مناطق المعاناة كما سنوضح في الفصل الرابع عشر

جدول ١٤

استخدام الأسمدة والمبيكنات في بعض دول السوق المشتركة

| استخدام الأسمدة : التباين الالبي | عدد الجرارات ١٠٠ (لكل هكتار) | استخدام الأسمدة (كج للهكتار) | | | |
|--------------------------------------------------------|---------------------------------|-----------------------------------|------|------|---------|
| | | ١٩٧٤ | ١٩٧٤ | ١٩٧٠ | ١٩٦٥ |
| (١) أكثر من ٢٠٠ كج للهكتار في حوض باريس . | ٤١ | ١٧٠ | ١٢٨ | ٩١ | فرنسا |
| (٢) أكثر من ٤٥٠ كج للهكتار في مناطق زراعة البستنة . | ٧٠ | ٣٠٧ | ٢٧٨ | ٢٣٩ | هولنده |
| | ٤٥ | ٨١ | ٦٣ | ٤٩ | إيطاليا |

وعلى الرغم من التحسينات المستمرة التي طرأت على الزراعة خلال هذه الفترة الطويلة ، فهناك مشكلات باقية مثل عدم الكفاءة الإنتاجية والإنتاج الفائض لبعض المواد الغذائية وندرة بعضها . وتحاول خطة ما نزهولت Mansholt (١٩٦٩) وضع حلول لهذه المشكلات وتوصي بأن يسحب خمسة مليون مزارع من الزراعة بحلول عام ١٩٨٠ يحال نصفهم للمعاش ويعاد تدريب النصف الآخر لوظائف صناعية ، كما يخصص خمسة مليون هكتار من الأراضي الهامشية الزراعية لزراعة الغابات والمنتزهات . ورغم ما يثار حولها من جدل فإن الدول الأعضاء قد قبلت مبادئ الخطة الأساسية ، وشرعت الدول في تطبيق هذه الإصلاحات كما سنرى في الفصل الرابع عشر ، وتهدف الخطة في النهاية إلى إزالة المنتجين الهامشين ذوي التكلفة المرتفعة ومن ثم الكفاءة الإنتاجية وتخفيض السعر المستهدف وإزالة الإنتاج الفائض .

جدول ١٥ : الزراعة وأهميتها لدول السوق الأوروبية المشتركة (١٩٧٣ / ١٩٧٢)

| الدولة | نسبة الزراعة في الانتاج القومي (%) | نسبة الواردات الغذائية والزراعية إلى اجمالي الواردات (%) | نسبة الصادرات الغذائية والزراعية إلى اجمالي الصادرات (%) | الوضع كمستورد أو مصدر للمواد الغذائية (%) | نسبة الاسهام لميزانية السوق (مقدر) (%) |
|--------------------|------------------------------------|----------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------|-------------------------------------------|----------------------------------------|
| ألمانيا الاتحادية | ٣١ | ١٦٤ | ٤١ | موردة | ٢٧ |
| فرنسا | ٦٣ | ١٢٤ | ١٨٤ | مصدرة | ٢٢ |
| إيطاليا | ٨١ | ٢٠١ | ٨١ | موردة | ١٧ |
| هولنده | ٥٩ | ١٤٢ | ٢٢١ | مصدرة | ٨ |
| بلجيكا / لوكسمبورج | ٣٩ | ١٢١ | ٩٢ | موردة | ٧ |
| المملكة المتحدة | ٢٢ | ١٩٥ | ٧١ | موردة | ١٦ |
| جمهورية ايرلنده | ١٧٠ | ١٢٧ | ٤٣٠ | مصدرة | ١ |
| الدنمارك | ٧٩ | ١٠٥ | ٣٥٣ | مصدرة | ٢ |

الاكتفاء الذاتي والدول المنتسبة إلى السوق : (جدول ١٥) :

تتميز السوق المشتركة بالاكتفاء الذاتي في كثير من المواد الغذائية الرئيسية وحتى اذا استلزم الوضع استيراد بعض هذه المواد فإن الانتاج المحلي قد يسد ما بين ٨٠ و ٩٠٪ من هذا الطلب . ومع ذلك فإن استيراد المواد الغذائية في ارتفاع مستمر استجابة لزيادة الطلب عليها والارتفاع في مستوى المعيشة . ويتكون معظم الواردات من الذرة الشامية والحمضيات والزيت النباتية ، كما أن المستورد من الحبوب قد ارتفع كبيرا منذ عام ١٩٥٨ نظرا لاستعمالها في اطعام الحيوانات . وبما يعقد الامر أكثر أن دول السوق تصدر القمح اللين soft wheat وتستورد كميات اكبر من القمح القوي hard wheat أما الفائض من الزبد واللحم البقري وكذلك النبيذ (١٩٧٦) فيحتاج إلى تنظيم في الإنتاج أكثر دقة دون أن يؤدي ذلك إلى وضع معاكس تعاني فيه الدول من نقص في هذه المواد . وعامة فإن السوق قد وصلت إلى درجة عالية من الاكتفاء الذاتي ، وتتمثل المشكلة الرئيسية في كيفية إزالة الفوارق بين الفائض والعجز في الإنتاج بتكافؤ ، فإن وسائل التحكم في الأسعار المعمول بها غير كافية لتحقيق ذلك وتحتاج إلى نظام أكثر كفاءة ودقة وشمولا ليحقق التحديد والتحكم المنشود على الإنتاج .

إن التوسع المنطقي للسياسة الزراعية يتمثل في تكملة منتجات السوق من محاصيل المناطق المعتدلة بمواد غذائية من المناطق المدارية التي لا تستطيع إنتاجها لأسباب مناخية . وقد تحقق ذلك بفتح الانتساب لعدد من المستعمرات الأفريقية السابقة : ومنذ عام ١٩٦٣ انتسبت ثمان عشرة دولة أفريقية في معظمها مستعمرات فرنسية سابقة ، إلى السوق الأوروبية في معاهدة ياوندي ، كما انتسبت مؤخرا مستعمرات انجليزية سابقة إليها (١٩٧٥) . ووفق هذه المعاهدات تضمن الدول المنتسبة دخول واحد أو أكثر من منتجاتها الزراعية الرئيسية أو من محاصيل التصدير إلى السوق دون جمارك مما يتيح لها حرية الوصول إلى سوق ضخمة ، كما تعطى لها الأفضلية في الحصول على الإعانات والمساعدات المالية لمشاريع التنمية من خلال

صندوق التنمية الأوروبية . أما السوق الأوروبية فلإنها تستفيد من هذا المصدر المضمون للمنتجات الأولية والمواد الغذائية المدارية وأيضا من الأفضلية الممنوحة لمنتجاتها الصناعية في أسواق هذه الدول المنتسبة .

وضع المملكة المتحدة :

هناك مشاكل تحيق بالسياسة الزراعية العامة داخل السوق المشتركة تتمثل في تضارب المصالح لعدد من الدول وما يترتب على ذلك من توتر في العلاقات . فألمانيا الغربية والمملكة المتحدة على سبيل المثال دولتان صناعيتان كما أن جزءا كبيرا من سكانها يقطنون المدن ، ومعنى ذلك أن الزيادة السكانية قد قامت على إنتاج الطعام منذ أوائل القرن الماضي : أى أن الدولتين تستوردان معظم موادهما الغذائية من الخارج . وهذه النزعة نحو استيراد المواد الغذائية (ودفع الضرائب المفروضة عليها) تعنى أن كليهما تسهمان بأموال ضخمة لأموال السياسة الزراعية العامة وصناديقها . وتلقى المملكة المتحدة بصفة خاصة فائدة لا تذكر من هذه السياسة لمشاريعها التنموية الزراعية وإصلاح التركيب الزراعى نظرا لنظامها الزراعى المتقدم .

أما فرنسا وإيطاليا فهما من أكبر الدول المنتجة زراعيًا كما أن فرنسا من الدول المصدرة للمواد الغذائية في حين أن أيرلنده ، رغم إنتاجها القليل ، من الدول المصدرة لمنتجات الألبان نظرا لقلّة سكانها . وهذه الدول الثلاث (فرنسا وإيطاليا وإيرلنده) هى أكثر الدول معاناة من مشاكل التركيب الزراعى وأكثر الدول الأعضاء استفادة من الأسعار المضمونة والدعم الممنوح للصادرات والأسواق الداخلية للسوق والمساعدات والمنح المالية التى تكفلها السياسة الزراعية . وهولنده والدنمارك أيضا من الدول المصدرة للمواد الغذائية مما يعكس كفاءتهما الإنتاجية في مجال تربية الماشية للألبان وزراعة الخضروات والزهور ، وساعدهم في ذلك قلة السكان فيها . وقد استعادت الدنمارك ما فقدته عند بداية تطبيق السياسة الزراعية من أسواق وانفتحت أمامها الآن أسواق ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة .

أما المملكة المتحدة فلإنها تجد أن هذه السياسة الزراعية تتضارب مع مصالحها الخاصة . فنظرا لوضعها الفريد في مراحل التصنيع الأولى ومواردها الزراعية المحدودة

ونسبة التحضر العالية بين سكانها فقد تبنت الدولة سياسة غذائية رخيصة من أربعينات القرن الماضي . ووفق سياسة التجارة الحرة التي كانت تتبعها سمحت الدولة باستيراد المواد الغذائية بأسعار زهيدة من جميع أنحاء العالم ، وإن كان معظم هذه المواد يأتي من مستعمراتها الشاسعة . أما مزارعوها فقد عوضوا بما يسمى « بمدفوعات بالعجز ' Deficiency payments » أي مبالغ تدفع لهم كتعويض للخسارة التي يتكبدها نتيجة استيراد المواد الغذائية بأسعار زهيدة ، وهي عبارة عن الفرق بين أسعار تكاليف منتجاتهم العالية الثمن وأسعار الواردات الزهيدة . وهكذا استمر المزارع البريطاني في عمله بدعم من الحكومة ، وأخذت الواردات من المواد الغذائية تدخل السوق البريطانية بدون قيود وبسعر منخفض ودافع الضرائب هو الذي يدفع الفرق ، ولكنه كان أيضا يتمتع بأسعار المواد الرخيصة . وبالحق كان هذا الترتيب جيدا بالنسبة لقطر به عدد ضئيل من الزراعيين ويحتاج إلى مواد غذائية ضرورية مستوردة ، ويسيطر على مناطق زراعية شاسعة في مستعمراته .

ولكن بدأ هذا الوضع يتغير أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها . فقد أدت الحاجة لزيادة الإنتاج والاكتفاء الذاتي في الفترة ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ (الثورة الزراعية) وقبول الرأي بأن الحكومات ملزمة بإدارة والحفاظ على جهاز إنتاج زراعي قومي ذي كفاءة عالية ، أدت إلى اسهام أكبر من قبل المزارعين البريطانيين في سياسة الاكتفاء الذاتي بمعدل ٥٥ إلى ٦٠٪ في كثير من المواد الغذائية وإلى إكتفاء ذاتي في منتجات البيض واللبن والشعير ولحم الخنزير والدواجن .

مع انضمامها للسوق المشتركة تركت بريطانيا وضعها السابق كدولة مستوردة للمواد الغذائية على أساس التجارة الحرة من دول الكومنولث وباقي أجزاء العالم ، ودخلت تحت الحماية الأوروبية . وهنا تبرز نقطتان :

١ - أن المزارع البريطاني يتمتع بوضع ممتاز بالمقارنة مع مزارعي كثير من دول السوق ووفق نظام الأسعار المضمونة فإن كفاءته الإنتاجية ستكون حافزا لإنتاج أوسع عند دمج في سوق أوروبية موسعة تهدف إلى اكتفاء ذاتي في إنتاج المواد الغذائية . وقد تعاني تلك المجموعات المتخصصة في إنتاج أنواع معينة من

المحصولات ، مثل مزارعى الخضروات ، من مشاكل تتعلق بظروف مناخية غير مناسبة ، ولكن الوقت موات ليزداد الطلب على منتجاته من الحبوب واللحوم والألبان .

٢ . هناك مشكلة الدخول المتأخر فى نظام خطط أساسا لتلبية احتياجات مختلفة : فالهدف النهائى للسياسة لاغبار عليه : فعلى المدى البعيد يركز هذا الهدف على أن القوة الزراعية لدول السوق ستكون القاعدة والأساس للتخصص والإصلاح داخل هذه الدول ذاتها ، وأن دمج العشر دول الأعضاء سيخلق نظاما زراعيا وغذائيا قويا يستطيع تزويد وسد احتياجات سكانها . ولكن بالنسبة للمملكة المتحدة فإن هذه الميزات مشكوك فيها : فالمستهلك البريطانى قد فقد حماية الدعم ودخل فى نظام أسعار مرتفعة . ومن ثم فإن على المملكة المتحدة أن تدفع إسهامات مالية ضخمة للصندوق الزراعى نظرا لأنها من الدول المستوردة للمواد الغذائية ، وفى نفس الوقت لا تستفيد من الدعم المالى للصندوق لأن نظامها الزراعى لا يحتاج إلى دعم أو إعادة فى تركيبها . وهذا هو مصدر الخلاف بينها وبين باقى أعضاء السوق كما شرحنا من قبل .

من هذا الكلام يبدو أن السياسة الزراعية العامة استطاعت ، فى مراحل تكوينها الأولى ، أن تخلق نظام تحكم غير متقن يحتاج إلى صقل . فهناك حاجة للتغيير لتصلح مشكلة الإنتاج الفائض ووضع حل له كما أن فرض عقوبة على أولئك الذين ينتجون فوق ما اتفق عليه يبدو ضروريا للتغلب على هذه المعضلة . فعلى نظام زراعى خاضع للإدارة وضبط ، يجب أن تولى العناية بالمستهلك كما بالمزارع . وهذا يعنى أن لا تترك الأسعار ترتفع دون تحكم بسبب الحاجة إلى تحقيق الاكتفاء الذاتى بأى ثمن . فإن استيراد المواد الغذائية بأسعار أرخص يمكن أن يلعب دورا فى تخفيض أسعار هذه المواد كما يستطيع الدعم المالى تحقيق ذلك فى حالات الطوارئ ومنتجات معينة . وقد اعترضت المملكة المتحدة وألمانيا الغربية على أداء السياسة الزراعية وقد شرع الأعضاء فى إعادة النظر فيها .

ويمثل عامل الزمن صعوبة رئيسية في إيجاد وضع متوازن في الزراعة : فإنتاج قطع من أبقار الألبان يحتاج إلى وقت كما أن هناك فترة زمنية فاصلة بين الاستثمار وتحقيق الإنتاج ، وهذا هو السبب الرئيسي وراء الفائض الدورى في الإنتاج الذى يجب على السياسة الزراعية التغلب عليه .

أما المشكلة الثانية التى تجابه السياسة الزراعية فتتعلق بنظام الحسابات التى تتعامل به . فكل التسعيرة والحسابات يتم وفق « وحدة (زراعية) خضراء » 'Green Currency' ، وهى عبارة عن شكل مختلف من عملات الدول الأعضاء . وهكذا نجد مثلا « الجنيه الأخضر » و « الفرنك الأخضر » و « المارك الأخضر » ، ويمكن أحد المصاعب فى التخفيض الدورى لقيمة العملات كما حدث للجنيه الأسترلينى ولأنه لم يحدث تعديل « للجنيه الأخضر » فى نفس الوقت فإن قيمته ظلت أكثر ارتفاعا من قيمته الحقيقية وكان هذا فى صالح المملكة المتحدة إذا كانت أسعار المواد الغذائية أقل ومدعومة لأنها كانت تدفع بالجنيه الأخضر ، ولذلك فقد استفادت المملكة المتحدة ماديا فى الفترة ما بين ١٩٧٥ و ١٩٧٦ من سريان هذا النظام . ولأداء ثابت فى المستقبل فإن نظام « العملات الخضراء » يجب أن يكون جزءا من سعر تبادل ثابت يمكن تعديله تدريجيا وبسهولة فى حالة تذبذب قيمة العملات الأجنبية

كما أن هنا حاجة ماسة لمرونة أكثر ترفعى احتياجات ورغبات الدول الأعضاء وقد تكن الإجابة الصحيحة فى إعادة النظر إلى سياسة المساعدات للسوق المشتركة كوحدة متكاملة ومنح دور موسع لها كصندوق زراعى وإقليمى وصناعى يتيح لقيام نظام لتخطيط مالى واقتصادى على نطاق السوق . وستشهد السنوات القادمة تغييرات جذرية فى هذه السياسة .

الفصل الثاني عشر

الصناعة وتطورها في أوروبا

يهتم الجغرافى بالجانب المكاني للصناعة أى توزيعها كما يهتم بمواقع النشاطات الصناعية المختلفة وكيف تغير توزيعها عبر الزمن . وأهم من ذلك كله فإن الجغرافى يسعى أيضا إلى معرفة الأسباب التى أدت إلى التوزيع الحالى للصناعة . وفى بحثه عن الأسباب التى تحدد موقع الصناعة ، فهو أيضا يبحث عن العلاقة بين الأنماط المكانية للصناعة وبين الظواهرات الجغرافية الأخرى من بيئة وحضارية . فإن توزيع وحجم الصناعة وأهميتها قد طرأ عليها التغير عبر القرون . ولكي نفهم النمط الحالى للصناعة فالأجدر فى البداية أن نلم بالتغيرات الزمانية التى طرأت على الصناعة لأن الصناعات الأوروبية الحديثة قد قامت على أساس من التراث الصناعى العريق .

الصناعات التقليدية :

كانت صناعة الكوخ أو المنزل Cottage or household industry هى أكثر الصناعات انتشارا فى أوروبا قبل القرن الثامن عشر . وكانت هذه الصناعة فى طبيعتها ريفية ومحصورة فى القرى الزراعية وتمارس كنشاط ثانوى للزراعة التى كانت تمثل أساس الاقتصاد الريفى آنذاك . وجرت العادة أن تضم القرية أصحاب حرف عدة مثل الحداد والإسكافى والطحان والناسج الذين كانوا يقضون جزءا من وقتهم فى الزراعة وباقى الوقت ، وخاصة أثناء فترات الراحة ، فى ممارسة صنعهم . ولعل كثرة الأشخاص فى إنجلترا وألمانيا الذين يحملون أسماء العوائل مثل سميث « smith » و« شميidt » schmidt و« ميلر » Miller و« مولر » Muller و« ويفر » Weaver و« ووبر » Weber... الخ ، لها دلالة واضحة على الكثرة السابقة للحرفيين القرويين . وكان انتقال المهارات تتم بصورة غير رسمية : الابن يتعلم من الأب والابنة تتعلم من الأم عن طريق الملاحظة أثناء أداء الصنعة ثم المحاكاة .

وقد تسببت الثورة الصناعية فى إزالة الصناعة المنزلية إلا فى أجزاء معدودة من أوروبا حيث بقيت هذه الصناعة تمارس وذلك بفضل البائعين الذين يأتون من خارج المنطقة لشراء منتجاتها . ومثلا هناك أجزاء معينة فى أسكتلنده تقوم ربات البيوت فيها بنسج النسيج الصوفى الخشن المعروف باسم Harris tweed على أنوال بدائية فى مساكن الخاصة .

أما الصناعة التقليدية الأخرى والأكثر أهمية من صناعة المنازل فكانت صناعة النقابات Guild . وهى عبارة عن منظمة حرفية أو مهنية للحرفيين ذوى المهارة فى صنعة معينة . وعلى عكس أصحاب الحرف المنزلية كان المهنيون النقابيون يقضون معظم وقتهم فى مهتهم ويسكنون المدن غالبا . وكانت المهارات أكثر تعقيدا وتقدما كما أن انتقال المهارات هذه كان يتم عن طريق التدريب وفقا لشروط عقد . وحسب هذا النظام يختار صبي ويمرن عند صانع ما لفترة حتى يكتسب المهارة ذاتها وبعد ذلك يتمحن الصبي أمام لجنة مكونة من أعضاء النقابة نفسها وعند مروره الامتحان بنجاح يصبح الصبي عضوا فى النقابة ويستطيع ممارسة المهنة مستقلا بنفسه . وكانت كل نقابة تمتلك منزلا فى الميدان العام فى المدن الكبيرة . ويمكن هذه المنازل حاليا فى بعض المدن المحافظ عليها مثل جنت Ghent وبروخ Bruges وانتويرب فى بلجيكا .

وما زالت بقايا نظام النقابات ظاهرة حتى اليوم . ودكاكين الحرفيين أيضا موجودة بأعداد كبيرة حتى فى الدول المتقدمة مثل ألمانيا الغربية حيث نجد فيها حوالى أربع وستين حرفة مسجلة وتمثلها أكثر من تسعة آلاف نقابة محلية تتضمن الحياطين والخبازين وصانعى السكاكين والسجق وأمثالهم . وهناك حرف الخدمات والحرف التجارية والحرف الصناعية التى تستوعب حوالى ١٥٪ من القوى العاملة فى ألمانيا الغربية مما يوضح مدى قوة هذه الحرف فى الصمود فى وجه التغييرات لبعيدة الأثر التى حدثت نتيجة الثورة الصناعية .

ورغم الاختلافات العديدة بين صناعة النقابات والصناعة المنزلية فإن هناك أوجه شبه أساسية بينهما . فكلتاها كانت تعتمد على المهارة اليدوية للعالم والقوة البشرية رغم أن الطحان قد استغل الرياح والماء فى إدارة طواحينه . فصناعة النسيج كانت

تم على أنوال يدوية صغيرة يديرها أصحابها في حين أن الحديد كان يصهر في أفران صغيرة بواسطة الفحم النباتي .

الصناعة الحضرية وانتشارها :

كانت الصناعة المتقدمة نوعا ما تتركز في حوض البحر الأبيض المتوسط وخاصة في اليونان حيث انتقلت إليها من منطقة الهلال الخصيب ومصر . وفي عصرها الذهبي كانت المدن اليونانية مثل أثينا وكورينث هي الرائدة في المجال الصناعي وتفتخر بما لديها من النساجين والصباغين الذين تمزقوا على يد الفينيقيين ، وصانعي الجلود والخزافين الذين تركوا مخلفات أثرية قيمة وراءهم ، وصانعي الأسلحة والمجوهرات والمعادن والسفن . وقد زالت هذه القيادة الفنية والمهنية بزوال القيادة السياسية لليونان وانتقلت إلى روما ومن بعدها إلى القسطنطينية .

أما في العصور الوسطى فقد أصاب التدهور الصناعة والنشاط التجاري عموما وظلت الصناعة الباقية محصورة في منطقة البحر المتوسط . ثم أخذت أسبانيا الإسلامية تنافس القسطنطينية : وفي الأولى برزت توليد واشتهرت بمنتجاتها من الصلب الجيد النوع وقرطبة ببضائعها الجلدية الراقية . ولكن من أبرز التطورات التي حدثت في هذا العصر هو ظهور شمال إيطاليا كنطقة صناعية رائدة نتيجة للعوامل الآتية :

- ١ - تقلص النفود العربى الإسلامى في حوض البحر المتوسط .
- ٢ - القوة المتزايدة للبابوية وانتشار المسيحية عبر أوروبا الألبية .
- ٣ - نمو السكان والإنتاج الزراعى في المناطق الجرمانية والفرنسية ، مما أدى إلى توسيع الظهير الاقتصادى لشمال إيطاليا .
- ٤ - المكانة المهيمنة للتجار الايطاليين الذين كانوا يتنقلون بتجارهم ما بين الصين والمجلترا مستغلين وضع ايطاليا المركزى آنذاك في حوض البحر المتوسط .

واشتهرت مدن مثل جنوه وميلانو وفلورنسه والبندقية بمنتجاتها من الحرير والأقمشة الأخرى وصباغة النسيج والأدوات النحاسية والأسلحة والزجاج وصناعة السفن . وفي أوج مجدها كانت في البندقية ١٦٠٠٠ صانع سفن يصنعون سفينة

كبيرة كل يوم . وبحلول عام ١٧٠٣ كان حرفيو فلورنسه يصنعون ١٠٠,٠٠٠ قطعة قماش في السنة وأصبحت ميلانو أهم مركز لصناعة الأسلحة في أوروبا . وقامت هذه المنجزات على أكتاف نظام وتحت رعاية النقابات الحرفية الحرة على عكس نظام المهنيين العبيد السائد في العصور المظلمة .

ولكن هذه السيادة الاقتصادية لم تدم طويلا : فالحروب الواسعة الانتشار التي شملت فرنسا وإنجلترا وأسبانيا وجنوى إيطاليا زائدا عليها التلف والخراب الناتجين من انتشار الطاعون البوبوني والتوسع التركي وظهور المحيط الأطلسي كطريق بحري رئيسي ، كلها أوما بتدهور شمال إيطاليا كم منطقة صناعية وذلك في القرنين الرابع والخامس عشر . ونقلت أهمية المراكز الصناعية العربية في أسبانيا بعد الاحتلال المسيحي كما عجل الأتراك بسقوط القسطنطينية ، وكان من جراء هذه الأحداث أن عانت المناطق الصناعية الرئيسية في حوض البحر المتوسط من هذه النكسات المتتالية .

وتبع ذلك أن انتقلت الزعامة التجارية - الصناعية شمالا إلى بلجيكا وسويسره وبالأخص جنوى ألمانيا الذي انتقل إليها بعض المهارات الإيطالية . والمدن التي تأثرت بهذه النهضة الجديدة تتضمن نيورنبرج . ألم l m واوغزبيرج Augsburg ونوردلنجن وروذنبرج . وأسس إيطاليون آخرون صناعة الحرير التي اشتهرت بها مدينة ليون في فرنسا . أما المنطقة الصناعية الرئيسية فكان مركزها في الفلاندرز التي شهدت بداية التطورات الأساسية في القرن الثاني عشر .

والحقيقة أن التقدم الصناعي في إقليم الفلاندرز لم يكن نتاجا لما حدث في إيطاليا أو وليد الصناعة الإيطالية بل كان معاصرا لها . فقد ساعد صانعو الأقمشة الفلمنكيون المهاجرون في تأسيس صناعة النسيج في فلورنسا الإيطالية . ومثل شمال إيطاليا اكتسبت الفلاندرز أهميتها الصناعية لموقعها التجاري المناسب . فقد أتاح تركيز طرق تجارية بحرية ونهرية وبرية على إقليم الفلاندرز تحقيق نفس السيادة في شمال أوروبا التي حققتها المدن الإيطالية من قبل في إقليم البحر المتوسط . وفي البداية كانت صناعة «لأفنته» يتركز في « يبرس » و « غنت » و « بروج » و « دواي » وتعتمد في موادها

الخام على الصوف المستورد من إنجلترا وأسبانيا . ثم أضيفت صناعة الكتان إلى الصوف في القرن الخامس عشر وأصبح الكتان من أهم منتجات المدن الفلمنكية . كانت له شهرة استمرت حتى القرن التاسع عشر .

وكان لنفوذ هؤلاء الحرفيين المهاجرين وتأثيرهم دور كبير في نهضة هولندا الصناعية ابتداء من القرن الخامس عشر ، كما هاجرت نخبة من خبراء الصناعة الصوفية الفلمنكيين إلى منطقة يوركشير البريطانية منذ القرن الرابع عشر وأسهموا في تطوير هذه الصناعة هناك . وفي القرن السابع عشر طغت هولندا صناعيا على الفلاندرز في حين أن شبال ألمانيا وخاصة بروسيا تفوقت صناعتها على الأجزاء الجنوبية منها . وطورت السويد وإنجلترا صناعات رئيسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وكان هذا الانتقال التدريجي للنشاط الصناعي نحو الشمال وما تبع ذلك من تدهور في الأجزاء الجنوبية للقارة يعنى أن الصناعة أخذت ترتبط أو تطابق في وجودها بالمناطق الجرمانية التي تدين بالبروتستانتية أكثر من تطابقها مع الدول الكاثوليكية ذات اللغات الرومانسية . وقد ذهب بعض الكتاب إلى عزو هذه الظاهرة إلى خصائص اجتماعية معينة تتميز بها الديانة البروتستانتية مثل القبول والموافقة على التغيير وتقديس العمل ، وأن هذه الظاهرة هي التي أفضت إلى التطور الصناعي في الشمال البروتستانتي أكثر منه في الجنوب الكاثوليكي وليس هناك من شك في أن بعض الأحداث قد ساعدت ماديا في ارتقاء هولندا وبروسيا وإنجلترا صناعيا مثل اضطهاد وطرد الحرفيين والتجار الهيوغنون Huguenot من قبل الحكومة الفرنسية الكاثوليكية والضغط الذي تعرض له الفلمنكيون البروتستانت من قبل حكامهم الأسبان الكاثوليك . وعلى أى حال فإن نقابات الجرمانيين هي التي كانت تقوم بالصناعات الرئيسية في أوروبا عند حلول القرن الثامن عشر . ومع الصدارة الصناعية جاءت القوة السياسية التي ساعدت إنجلترا في إلحاق الهزيمة بفرنسا وساعدت بروسيا في السيطرة على النمسا وفي هذا المحتوى المكاني حدثت الثورة الصناعية بأبعادها الاقتصادية والحضارية

الثورة الصناعية

كان من نتائج الابتكارات والابتداعات التي أتت بها الثورة الصناعية بعد عام ١٧٣٠ تقويض نظام النقابات والصناعات المنزلية . وقد بدا واضحا أن هذه الثورة التي ما زالت مستمرة في تقدمها، قد تضمنت أكثر التغيرات التكنولوجية أثرا في حياة الإنسان ، وقد تحمل في أحشائها أسباب فناء البشرية نهائيا . ومهما كانت نتائجها فإن بريطانيا هي التي شهدت تبشير تكنولوجيا هذه الثورة في القرن الثامن عشر . وقد رافق هذه الثورة تغييران رئيسيان :

(١) حلت المكينات محل اليد البشرية في تشكيل وإنتاج المنتجات ، وأصبحت كلمة manufacturing (تعنى مصنوعة باليد) قديمة تكنولوجيا . وبدلا من النسيج الذي كان يقضى وقتا طويلا أمام نوله ليصنع قطعة إثر قطعة من القماش ، اخترعت مكينات ضخمة تؤدي نفس العمل بسرعة وبتكلفة أقل ، وقد أصبح استخدام الغيارات ونظام التجميع الصناعي Assembly line ممكنا آليا في كثير من الصناعات في وقتنا الحالي .

(٢) ظهور الطاقة غير الحيوية وذلك عندما بدأ الإنسان في تسخير الماء والبخار وأخيرا الكهرباء والبترول والذرة في استخداماته العديدة . وهذه التكنولوجيا لم تأت بين ليلة وضحاها بل أخذت عشرات السنين بل القرون ، كل اختراع على حدة ، لتصل إلى ما وصلنا إليه من تقدم ، وفيما بين ١٧٣٠ و ١٨٥٠ حدثت كل التطورات المتصلة أو المرتبطة بالمرحلة التكوينية للثورة الصناعية في المملكة المتحدة . فالثورة الصناعية هي هبة البريطانيين للعالم ومن ثم كانت أهميتهم كشعب في تاريخ البشرية . ولهذا سنبحث في تطور الثورة الصناعية في بريطانيا أولا ثم في انتشار هذه الثورة إلى أجزاء أوروبا الأخرى .

١ - صناعة النسيج :

هي أولى الصناعات التي تأثرت بالثورة الصناعية . وفيما بين ١٧٣٣ و ١٧٨٥ حدث تقدم أساسي في تطوير وتحسين الأنوال الآلية التي أصبحت تدار بالقوة المائية ويشغلها عمال شبه مهرة . وكان هذا بداية النهاية للحرفيين . ثم أخذت المصانع تنشأ

حيثما وجدت مساقط المياه والشلالات التي تدير الأنوال وخاصة على الجوانب الشرقية والغربية من جبال البنين في المنطقة الشمالية الوسطى من إنجلترا ومنخفضات أسكتلندة حيث تنحدر الأنهار من سفوح المرتفعات المجاورة . وأصبحت منطقة لانكشير التي تقع على الجانب الغربي من جبال البنين المركز الرئيسي لصناعة النسيج الحديثة . وكان أول من استفاد من هذه المبتكرات وجنى من ورائها الأرباح هم تجار الأقمشة القطنية : ورثة أصول وتقاليد صناعة الصوف والكتان القديمة . وما لبثت صناعة الصوف في يوركشير والتي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى أن استفادت من المبتكرات الجديدة وسخرت الأنهار التي كانت تمد غسيل الصوف بالماء الخفيف في إدارة السواقي التي كانت تدير الأنوال الآلية الجديدة .

٢ - تعدين الفحم :

طغت القوة المائية على المرحلة الأولى من صناعة النسيج كمحرك للآلات ولكنها لم تدم طويلا . فخلال ستينات القرن الثامن عشر أتقن الأسكتلندي جيمس واط وآخرون صناعة ماكينة البخار وبدأ أول مصنع نسيج يدار بواسطة البخار عمله في عام ١٧٨٥ . وسرعان ما نالت هذه الطاقة الجديدة قبول الجميع . ولكن هذه الآلات التجارية كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من الوقود لإدارتها وتشغيلها ، وبريطانيا كانت فقيرة في الغابات التي تقلصت مساحاتها نتيجة انتشار الزراعة والاستيطان البشرى ولم تكن بقايا الغابات المتناثرة تكفي لسد احتياجات هذه الآلات من وقود . ولكنها عوضت هذا الفقد في الغابات بمصادر أهم منها ألا وهو الفحم الحجري . وهكذا شاءت الأقدار أن يكون استخراج الفحم ثلثي صناعة تتأثر بالثورة الصناعية . وكان تعدين الفحم بكميات قليلة معروفا منذ العصر الروماني حين كان الفحم يستخدم لتسخين وتدفئة الحمامات الرومانية العامة في هذه الأصقاع الباردة . وكذلك في العصور الوسطى لتدفئة المنازل مما أدى إلى تلوث الهواء في لندن في القرن الثالث عشر . ولكن حتى بداية القرن التاسع عشر كانت الكمية المستخدمة قليلة غير ذات بال .

ولكن مشكلة الفحم الحجري تكمن في كونه كبير الحجم مما يصعب ترحيله

لمساحات طويلة وكانت هذه المشكلة أكثر تفاقماً في بداية القرن التاسع عشر قبل أن تتطور وسائل النقل من سكة حديد ومكنات الاحتراق الداخلى والسفن الكبيرة . وكانت النتيجة أن انجذبت الصناعات التى تعتمد على الفحم كمصدر قوة إلى حيث يستخرج الفحم .. أى إلى حقول الفحم تماماً كما انجذبت الصناعات الأولى إلى مساقط المياه والشلالات . وشاءت الأقدار أن توهب أقاليم لا نكتير وبوركشير والمنخفضات الاسكتلندية بكميات كبيرة من الإرسابات الفحمية مما أتاح انتفالا مريحاً من القوة المائية إلى القوة الحرارية وبأدنى قدر من التغير فى موضع المصانع . وبالإضافة إلى ذلك وجدت كميات ضخمة من إرسابات الفحم فى المنطقة الوسطى من إنجلترا - منطقة الميدلاندز - وفى الأطراف الساحلية فى جنوبى ويلز ومنطقة نيوكاسل وفى ساحل بحر الشمال بالقرب من الحدود الاسكتلندية .

وسرعان ما برزت ظاهرة مميزة للثورة الصناعية : التركيز الإقليمى أو المساحى للصناعات : أى ظهور الأقاليم الصناعية . وفى الحقيقة أن مدناً وأقاليم معينة اشتهرت بمنتجات معينة تحت نظام النقابات ولكن معظم هذه الصناعة كانت مشتتة فى مدن صغيرة عديدة عبر أقاليم شاسعة ، وعلى عكس ذلك تركز الإنتاج الآلى فى عدد قليل من المدن والأقاليم التى أخذت تستقطب أعداداً ضخمة من السكان . وأدى انجذاب الصناعة نحو حقول الفحم إلى سرعة التركيز المساحى للصناعة مما سبب زيادة كبيرة فى السكان فى الأقاليم المفضلة وهجرة على نطاق واسع من أجزاء أخرى من البلاد .

(٣) صناعة الحديد والصلب :

تعتبر الصناعات المعدنية من الصناعات القديمة التى يرجع تاريخها إلى بداية عصر البرونز والحديد فى فترات ما قبل التاريخ . وعبر معظم عصور التاريخ كانت صناعة الحديد عملية بدائية تتم بدون فهم واع لما يحدث بالضبط : وكان خام الحديد يسخن فى نار من الفحم النباتى ويتحد الكربون من الفحم مع الأوكسجين من خام الحديد لينتج الحديد . وتضفى وحدة بعض الكربون مع الحديد متانة للمادة لأن الحديد الصافى مرن ويسهل قطعه أما إذا كانت كمية الكربون كبيرة فالحديد الناتج

يبقى هشاً .. أى يكون الناتج حديد الزهر الهش . أما إذا كانت الكمية صحيحة فالنتيجة هي الصلب . ويمكن إنتاج أنواع من الصلب بإضافة ما يسمى بالسبائك الحديدية Ferroalloys مثل النيكل أو الكروم وتم هذه العملية عن طريق الصدفة أو بالقصد .

قبل منتصف القرن الثامن عشر كان صانعو الصلب يلجأون إلى ممارسة طقوس وخرافات واحتفالات معينة عندما يريدون إنتاج نوع جيد من الصلب . وبعض المدن التي اشتهرت بصناعة أنواع جيدة من الصلب في تلك الفترة مثل توليد وسولينجن كانت تدين بشهرتها في أغلب الحال إلى وجود إرسابات محلية من الحديد الجيد الذي كان يعطى تلقائياً صلباً جيد النوع عند صهره . وعبر آلاف السنين لم يطرأ أى تغيير في طريقة معالجة الحديد . وكانت الصناعة نفسها مشتتة ذات طابع ريفي وتقع في الأقاليم الجبلية النائية ذات الكثافات السكانية المتخلخلة .

وأدت الثورة الصناعية بتغييرات رئيسية في صناعة الحديد والصلب :-
(أ) فقد حل فحم الكوك Coke محل الفحم النباتي كمصدر للحرارة في عملية صهر خام الحديد . والكوك عبارة عن كربون صافي يحترق في درجة حرارة عالية وينتج بتسخين نوع جيد من الفحم الحجري بطرد المكونات الغازية . وكانت بريطانيا أول دولة تقوم بإنتاج واستخدام فحم الكوك في صناعة الصلب إذ كان أكثر من ٧٠٪ من أفران الصهر العالية blast furnaces في إنجلترا وأسكتلندا تعتمد على الكوك في عام ١٧٨٨ وارتفعت هذه النسبة إلى حوالى ٩٧٪ بحلول عام ١٨٠٦ .

وقد أحدث قبول الكوك كوقود في صهر الحديد تغييراً جذرياً في التوزيع المساحي لصناعة الصلب . فقد هجرت الصناعة الأفران البدائية العديدة وبحكم الضرورة رحلت إلى مناطق الفحم حيث تتوفر إمكانية الحصول على الكوك رخيصاً . وهكذا ساهمت صناعة الحديد والصلب أيضاً في عملية تركيز الصناعات في أقاليم قليلة .. ولحقت هي بصناعة النسيج في الهجرة نحو حقول الفحم .

برزت أقاليم في بريطانيا كمراكز مهمة لصناعة الحديد والصلب :

(١) على نهر تير Tees بالقرب من ساحل بحر الشمال حيث اجتمع فحم نيوكاسل وحديد مرفعات كليفلاند .

(٢) في الميدلاندز حيث يوجد الفحم والحديد جنباً إلى جنب مما أدى إلى ظهور مدن صناعية مثل بيرمنجهام وشيفيلد .

(٣) وجود خامات الحديد المحلية بالقرب من حقول الفحم في جنوب ويلز والأطراف الغربية لمتخفضات أسكتلنده حول جلاسقو أدى أيضاً إلى ازدهار صناعة الصلب فيها .

(ب) وتنضمن التحسينات التي أدخلت في صناعة الحديد والصلب البريطانية :

(١) فصل الصهر والتكرير أو التنقية إلى عمليتين متميزتين

(٢) عملية مص أو تسويط الحديد (puddling process) أى إضافة

مؤكسد إلى ذائب الحديد لجعله حديدا مطاوعا . وهى طريقة محسنة لاستخلاص الحديد الخالص من زهر الحديد (cast iron) بعد الصهر المبدئى .. وقد اخترعت في عام (١٧٨٤) .

(٣) ماكينة صقل الصفائح الصلبة the rolling mill التى حلت محل

المطرقة والسندان في العمليات النهائية وهى عبارة عن آلة لعمل وصقل الصفائح الصلبة .

(٤) تطوير أنواع كبيرة من الأفران العالية blast furnaces بدلا من الأفران الصغيرة .

(٥) طريقة بيسمر Bessemer Process (١٨٥٦) التى استخدمت لأول مرة

الأوكسجين المشتق من الهواء في أغراض تنقية الصلب مما أتاح مجالا أوسع للعمليات المختلفة .

(٦) اختراع طريقة الفرن المفتوح Open hearth (١٨٦٨) التى أتاحت الضبط

والتحكم على محتوى الكربون في الصلب .

(٧) طريقة غيلكرييست Gilchrist Process (١٨٧٦) التى سمحت

استخدام خام الحديد الفسفورى الفقير النوع .

وبإحلال التفهم والعلم محل الخرافات اتخذ علم المعادن طابعا رفيعا ومصقولا
وكان من نتائج ذلك الرقى والارتقاء أن زاد استخدام السبائك الحديدية
Ferroalloys

وهكذا تصدرت بريطانيا العالم في القرن التاسع عشر من خلال هذه
الابتكارات والتغيرات التي أحدثتها وأنشأت مجتمعا قوامه الصلب .

(٤) صناعة السفن :

وصناعة السفن صناعة أخرى أحدثت فيها الثورة الصناعية تغييرا دائما . والسفن
المعروفة آنذاك كانت صغيرة الحجم وتصنع من الأخشاب وتحرك بواسطة المواء أو
المجاديف ، وكانت إنجلترا تعتمد اعتمادا أساسيا على مستعمراتها الأمريكية ، وخاصة
نيوانجلند ، في الأخشاب في صناعتها وفي الحقيقة كان لنقص الأخشاب في بريطانيا
دور كبير في بروز مدينة بوسطن كمركز مهم لصناعة السفن .

ومنحت الثورة الصناعية عروضاً ضخمة لسفن أكثر سرعة وأكبر حجماً لنقل المواد
الخام الثقيلة والمنتجات الصناعية ، كما وفرت الثورة الوسائل التكنولوجية لإنتاج مثل
هذه السفن الضخمة فقد حل الصلب محل الخشب والبخار محل الرياح . وبحلول
الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت السفن الحديثة تمخر عباب المحيطات
موصلة بريطانيا بمستعمراتها العديدة المترامية الأطراف .

وظهرت مراكز بناء السفن الأساسية في بريطانيا في الأماكن التي كانت مصانع
الصلب قريبة من السواحل مثل منطقة التاين Tyneside بين نيوكاسل وبحر الشمال .
ولكن المركز الرئيسي كان حول منطقة كلايد Clydeside بالقرب من جلاسكو في
المنخفضات الاسكتلندية ، وبحلول عام ١٨٩٠ كانت مصانع السفن البريطانية تنتج
٨٠٪ من السفن البحرية في العالم .

(٥) الصناعات الأخرى .

كانت صناعات النسيج واستخراج الفحم والصلب والسفن تكون لب التورة
الصناعية ، ولكنها لم تكن تشمل كل أنواع الصناعة التي انبثقت منها ، فتجمع هذه
الصناعات في حقول الفحم كان سببا في جذب السكان والصناعات الأخرى

(١) استخدام الآلات أو المكائن أدى إلى نشوء صناعة جديدة تخصص في صناعة الآلات وأدوات أو أجزاء المكائن . ونظرا لأن المواد الخام لهذه الصناعة - الصلب - وسوقها التي تتمثل في الصناعات الأخرى ، كانت توجد في حقول الفحم نفسها ، فإنه من المنطقي أن يختار صانعو الآلات موقع مصانعهم بجانب هذه الحقول أيضا . وكلما أصبحت المكائن أكثر تعقيدا وذات أغراض متعددة وازداد الطلب عليها ، كلما نمت هذه الصناعة وتطورت إلى أن أصبحت من أهم الصناعات .

(٢) وصناعة أخرى تعتبر أساسا من الصناعات الجديدة تتمثل في الصناعات الكيماوية التي تتضمن الأصباغ والبويات والأسمدة والأدوية والمتفجرات والصابون وكذلك المنتجات الكيماوية الراقية مثل المنسوجات أو الألياف الاصطناعية . وكثير من هذه المواد يمكن استردادها من منتجات عملية صنع الكوك الجانبية by-product وهذا السبب يفسر جزئيا نزوح كثير من المصانع الكيماوية إلى حقول الفحم .

(٣) ومن الصناعات الأخرى (غير صناعة السمس والمكائن) التي كانت تستخدم الصلب كمادة خام واختارت مواقع بالقرب من مصانع الصلب نجد : صناعة السكاكين وأدوات المائدة والآلات الطبية والأقفال والأسلحة . كما وجد صانعو الملابس أحسن موقع لهم بالقرب من مصانع النسيج .

(٤) كان لتجمع الصناعات في حقول الفحم دور كبير في اجتذاب أعداد ضخمة من السكان لهذه المواقع بحثا عن العمل في مصانعها العديدة وكانت النتيجة أن تجمع السكان في هذه المراكز الصناعية ، وبالتالي أخذت بعض الصناعات الأخرى تجتذب إلى مراكز التجمعات السكانية هذه خاصة تلك التي تتطلب منتجاتها القرب من مناطق الاستهلاك مثل الخبازين والجزارين ومعلبي اللحوم وصانعي المشروبات والأطعمة وناشري الصحف والمجلات .

(٦) تطور الصناعة في منطقة لندن

نظرا لأهمية الفحم كمحدد لموقع الصناعات المختلفة في بريطانيا خاصة في المراحل الأولى من الثورة الصناعية ، أخذت كل الصناعات تتركز في حقول الفحم

ما عدا منطقة واحدة ، وهى منطقة لندن . فقد كانت المدينة بعيدة من حقول الفحم ولم تكن لها موارد ذات أهمية غير نهر التيمز الصالح للملاحة . ورغم افتقارها إلى كثير من مقومات الصناعة فقد تطورت لندن إلى أكبر مركز صناعى فى المملكة المتحدة وذلك للأسباب الآتية :

١ - كانت لندن مركزا لتجمع سكانى ضخم حتى قبل الثورة الصناعية . ففى أواخر القرن السابع عشر وصل عدد سكانها ٧٠٠,٠٠٠ نسمة أى شحضا واحدا من كل عشرة بريطانيين كان يسكن لندن . وعندما جاءت الصناعة كان هناك مستهلكون (سوق) وعمال (عمل) بأعداد وفيرة .

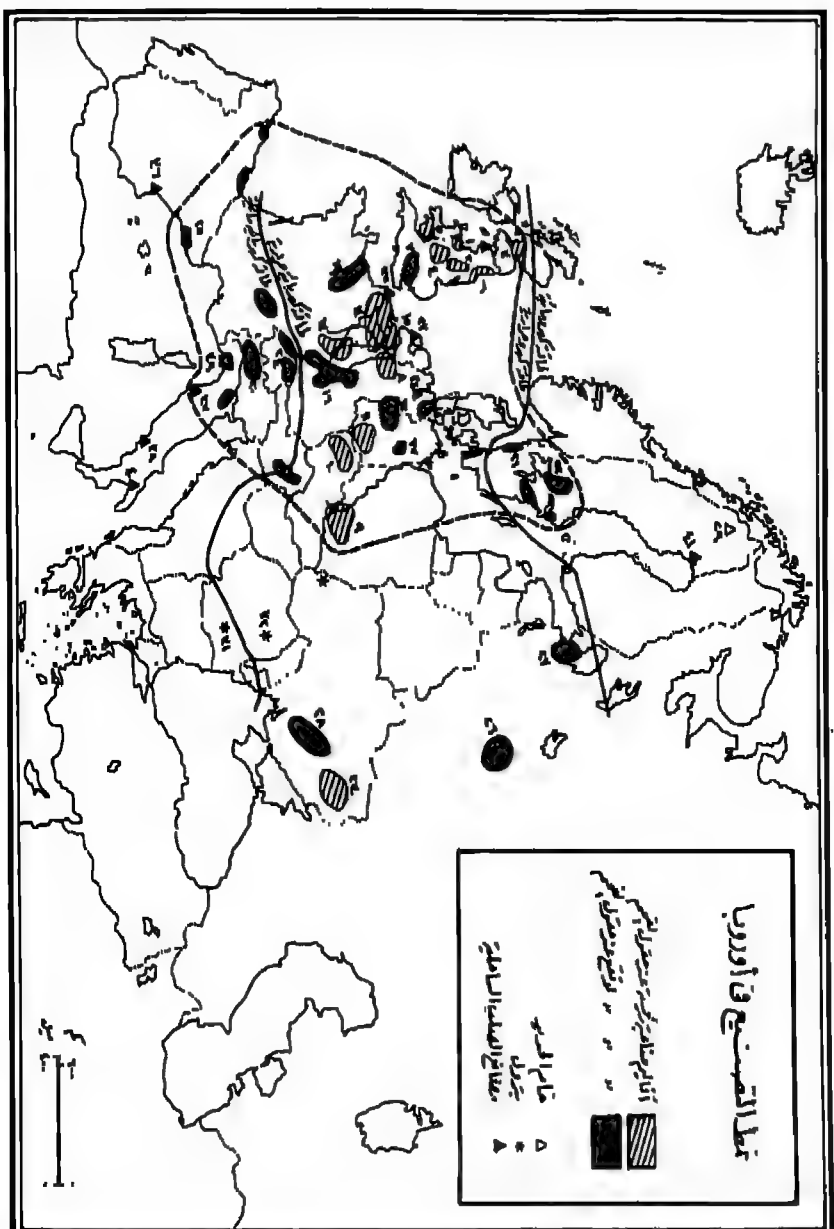
٢ - كانت لندن المركز التجارى للدولة وعبر موانئها تمر ثلاثة أرباع تجارة الدولة الخارجية (١٧٠٠) وكانت النتيجة أن تجمعت بها البنوك وشركات التأمين وبيوت السمسرة وهذا أدى بدوره إلى نمو المدينة . ووجدت الصناعات التى تعتمد على المواد الخام المستوردة أو على الأسواق الأجنبية لتصريف منتجاتها فى لندن موقعا ممتازا لمصانعها .

(٣) كانت طبقة التجار الأثرياء فى المدينة تمتلك وتحكم فى رأس مال ضخم للاستثمار فى النشاطات الصناعية المختلفة .

وكانت النتيجة أن ازدهرت لندن ابان الثورة الصناعية وأصبحت اليوم موطئ لخمس سكان الجزيرة ولصناعات متنوعة تتراوح من صناعة الملابس والأطعمة إلى تكرير البترول وإنتاج العربات وصناعة المعدات الكهربائية والطائرات .

انتشارا الثورة الصناعية إلى حقول الفحم الأوروبية : (الشكل ٥٥) .

كانت بريطانيا تأمل فى الاحتفاظ بالثورة الصناعية فى أرضها وفعلًا كان هناك محاولات لكبت أسرارها والحيلولة دون تسربها إلى باقى أجزاء القارة ولكنها باءت بالفشل . أما أولى المستفيدات من آثار هذه الثورة فكانت أوروبا الرئيسية حيث بدأت أقاليم صناعية فى الظهور منذ القرن التاسع عشر . وفى بادىء الأمر اقتصر الانتشار على المناطق الجرمانية البروتستانتية خاصة شمال ألمانيا . ولكن هذا لا يعنى



أن خصائص متعلقة بالعقيدة البروتستانتية كانت الدافع للتصنيع . بل هناك ارتباط وثيق بين التصنيع وبين مواقع حقول الفحم وكان من حظ الشعوب الجرمانية أن جزءاً من أراضيها تحتوى على إرسانات ضخمة من الفحم الجيد أكثر من أراضي الفرنسيين والأسبان والإيطاليين الكاثوليك .

(١) إقليم الرور الصناعى :

كما حدث فى بريطانيا . تركّز التصنيع فى أوروبا منذ البداية فى أماكن صغيرة وغالباً عند حقول الفحم . وقدر لمنطقة الرور فى ألمانيا الغربية أن تصبح أهم منطقة صناعية فى أوروبا وتتفوق على كل سابقتها من الأقاليم البريطانية . ومنطقة الرور - سميت باسم فرع من فروع نهر الراين - تقع عند ملتقى السهل الألمانى الشمالى والمرتفعات الجنوبية المعروفة باسم سورلاند (Sauerland and Siegerland) وسيقرلاند ، وفى إحدى المناطق ذات التربة الخصبة المستمدة من إرسابات اللويس وتسمى البورد borde والتي توجد فى أجزاء عديدة من الأطراف الجنوبية من السهل العظيم . أما نهر الرور فيجرى خلال نطاق التلال وتفصله من السهل الشمالى خط ضيق من التلال يعرف باسم هارستراق Haarstrang (بمعنى خيط الشعر) . وإلى الشمال من هارستراق وتحت تربة البورد الخصبة توجد إرسابات ضخمة من فحم جيد النوع وتظهر على السطح فى بعض الأماكن القريبة من الأطراف الجنوبية هذه التلال .

تأخر تطوير منطقة الرور أكثر من تطور أجزاء بريطانيا وبلجيكا المائلة . ومنذ العصر الحجري الحديث جذبت تربة المنطقة الخصبة أعداداً كبيرة من المزارعين وكان استغلال الفحم يقتصر وبنسبة ضئيلة على الإرسانات السطحية لاستخدامه فى تدفئة المنازل محلياً .. وذلك فى القرن الثالث عتر . وفى العصور الوسطى تطورت صناعة الحديد والصلب تحت نظام النقابات فى مدينة سولينجن وغيرها من الأماكن فى مرتفعات سورلاند وسيقرلاند ، وكانت تعتمد على خام الحديد المحلى والفحم النباتى من الغابات الكبيرة المتبقية . وفى أواخر العصور الوسطى قويت صناعة الأقمشة الكتانية المصنوعة من الكتان المزروع محلياً بواسطة النقابات والقرويين واكتسبت أهمية كبيرة فى هذه المنطقة .

وحقاً بداية القرن التاسع عشر كانت مصانع الصلب تعمل بالأساليب التقليدية وكانت صناعة النسيج تتركز غرب نهر الراين ، وكانت المنطقة معزولة تماماً من آثار الثورة الصناعية التي كانت تحتاج بريطانيا إلا من بعض المضخات البخارية التي أقيمت لإيقاف تسرب المياه في مناجم الفحم الصغيرة . أما المدن فقد ظلت صغيرة ومحصورة داخل أسوار العصور الوسطى العالية وتؤدي مهمتها كمراكز تجارية وزراعية . ولنصف قرن بعد ذلك بقيت منطقة الرور ريفية في مظهرها وظلت الصناعة على حالها معزولة من أثر الثورة الصناعية وتعمل بأساليبها التقليدية التي ورثتها من العصور الوسطى .

وفي عام ١٨٥٠ ظهر أول معلم من معالم الثورة الصناعية في هذه البيئة الريفية : فقد شهدت مدن كريفيلد Krefeld ميونيخ - جلادباخ Munchen - Gladbach وبعض مدن غرب الراين . شهدت أول مصانع آلية تدار بالبخار ، ووجد أصحاب الصناعات المنزلية والنقابات أنفسهم أمام هذا التيار العارم من التغيير والتكنولوجيا الحديثة ، وكما حدث في بريطانيا كانت صناعة النسيج أولى الصناعات التي تأثرت بالثورة الصناعية في ألمانيا .

وفي نهاية القرن التاسع عشر برزت منطقة الرور كأهم منطقة صناعية في أوروبا . وكانت هذه النهضة مطابقة لتوحيد ألمانيا . ومن آثار هذا التغيير أن ازداد إنتاج الفحم سبعة أضعاف فيما بين ١٨٠٠ - ١٨٥٠ . وثلاثة وثلاثين مرة خلال النصف الأخير من هذا القرن . وأصبحت المناجم كبيرة تستخدم مئات الآلاف من العمال وأحدث الآلات وتغيرت إلى مؤسسات حضرية ضخمة بدل أن كانت صغيرة وريفية . وآل معظمها إلى ملكية شركات الحديد والصلب الكبيرة . وكما حدث في بريطانيا نزحت مصانع الحديد والصلب إلى حقول الفحم وحلت المصانع الضخمة التي تستخدم فحم الكوك محل النقابات الصناعية التي كانت تعتمد على الفحم النباتي .

ولم يكن خام الحديد المحلي كافياً لسد احتياجات ألمانيا الصناعية ومن ثم أخذت الدولة تستورد كميات ضخمة من خام الحديد من السويد وأسبانيا وإقليم اللورين

(التي ضمها ألمانيا إليها في تلك الفترة) . وتصدر فحم الكوك في عملية مبادلة .
وبرز نهر الراين العريق كأهم ممر نهري لنقل البضائع وحلقة الوصل بين منطقة الرور
وبقية أجزاء العالم ، ويعج الآن بالصنادل الضخمة التي تحمل خام الحديد أو الفحم
أو المنتجات الصناعية .

وكان طبيعيا أن يزداد سكان المنطقة أثر هذا التطور وانتشار وتوسع المدن
الصناعية . وعلى طول الجانب الشمالى لتلال هارستريتق تطورت مراكز حضرية
عديدة تمتد من دورتموند Dortmund في الشرق عبر Bochum وإسن Essen
وأوبرهاوسن Oberhausen إلى دويسبيرج Duisburg على نهر الراين في الغرب .
وازداد سكان مدينة إسن مثلا من ١٠٠ر٤ شخص في العصور الوسطى إلى
١٠٠ر١٠ في منتصف القرن التاسع عشر تم إلى ١٠٠ر٢٠ في عام ١٩٠٠ .
ولم يكن عدد السكان الزراعيين المحليين كافيا لتمويل الصناعات المزدهرة بما تحتاج
إليه من أيدي عاملة ، ولذلك أخذ الناس يتوافدون من باقي أجزاء ألمانيا وبلجيكا
وهولنده وشرق أوروبا .. وهكذا أصبحت منطقة الرور بوتقة ينصهر فيها هؤلاء
المهاجرون مما أضفى لها شخصية عرقية مميزة عن باقي مناطق ألمانيا الأخرى .

وخلال جو الرور الريفي الصحوا أخذت المصانع تقذف بأدخنتها الكثيفة تلوث بها
البيوت والبيئة وصدور الناس ، وعلى هذه الأدخنة بنت ألمانيا مجدها الصناعي
وبرزت كأكبر منطقة صناعية في أوروبا . وشهدت سنين ما بعد عام ١٩٠٠ أحداثا
جسيمة وتطورات ضخمة كانت لبعضها آثار مأسوية : فمرتان خلال هذه الفترة
جندت امكانيات المنطقة لتمويل الأسلحة للجيش الألماني وفي المرتين كانت العواقب
وخيمة عليها . لم يجلب فقدان ألمانيا للحرب العالمية الأولى دمارا ماديا لمنطقة الرور
لأن جبهة الحرب كانت تقع بعيدا في فرنسا عندما استسلمت ألمانيا .
وقد طالبت فرنسا بتعويضات مبالغ فيها . وعندما فشلت ألمانيا من دفعها اتخذت
فرنسا ذلك حجة في غزو واحتلال منطقة الرور (١٩٢٣ - ١٩٢٤) .

أما الحرب العالمية الثانية فقد تركت المنطقة خربة ومثل سلولة اقتصاديا وحوكم
عتاة الصناعة فيها من أمثال كروب Krupp كمجرمى حرب وأودعوا السجن .

واقترح بعض المستشارين السياسيين الأمريكيين بارجاع الرور إلى حالتها الزراعية الأصلية وتحويل أكبر منطقة صناعية إلى « مراعى » للماعز والأغنام لمنع أية محاولة لإحياء ألمانيا مستقبلا . ولكن شاءت الأقدار أن يحدث عكس ما تمنوه ؛ فقد تحملت عبء إنعاش وإعادة تطوير الرور من خلال مشروع مارشال ، وفى مدة وجيزة رجع مستوى الإنتاج إلى ما كان عليه قبل الحرب وتفوق عليه .

واليوم تمثل الرور قلب السوق المشتركة النابض . ومركز المنطقة أو الرور الداخلية (والتي تمتد لمسافة ٥٦ كيلو مترا من الشرق للغرب و٢٤ كم من الشمال إلى الجنوب) مقسم تقليديا بين مصانع الصلب الجنوبية ونطاق استخراج الفحم الشمالى . وباستنزاف الإرسابات السطحية فى الجنوب انتقل تعدين الفحم تدريجيا إلى الأجزاء الشمالية من المنطقة . أما الرور الخارجية ففيها نجد مراكز النسيج فى فوبرتال Wuppertal ومدن الراين ، وفيها أيضا صناعات أخرى عديدة ومنها تلك التى تستخدم الصلب كمادة خام فى صناعاتها .

(٢) إقليم سايليزيا العليا الصناعى :

عند منابع نهر الفيزر والأودر فى جوى بولنده حيث يلتقى السهل الشمالى الأوروبى مع جبال الكربات والسوديتس Sudeten فى منطقة تربات البورد الخصبة يقع إقليم سايليزيا العليا الصناعى التى تعتبر ألمانية من حيث نشأتها وتطورها وبولندية من حيث ملكيتها (منذ عام ١٩٤٥) .

وتحت نظام النقابات قامت هناك صناعة تقليدية قوامها صهر الحديد بواسطة الفحم النباتى المستمد من الغابات الكثيفة فى المنطقة وخام الحديد المحلى القليل . أما إرسابات الفحم الغنية فقد تركت بدون استغلال . وكانت هناك عوائق تحول دون تطوير سايليزيا العليا التى كانت جزءا من مديرية شليسن |Schlesien| البروسية والتى أخذت بالقوة من النمساويين فى منتصف القرن الثامن عشر . وهذه العوائق هى :

١ - موقعها فى ركن ناء من بروسيا ، وبعيدا من الأسواق وفى منطقة متخلخلة السكان عندما كانت ألمانية .

٢ - كان نهر الأودر في مصبه قليل الإمكانيات من حيث الصلاحية للملاحة وكوسيلة لنقل البضائع ، وكان بعيدا من البحر ومن تم الأسواق الخارجية .
٣ - لم تكن إرسانات الفحم بالضخامة التي وجدت في الرور .

رغم هذه المعوقات شهد الإقليم برنامجا تصنيعيا كبيرا في القرن التاسع عشر ويعزى ذلك جزئيا إلى رغبة حكومة « بروسيا » في النهوض بالإقليم متمثلة في التشجيعات الألمانية بما في ذلك الإعانات المالية التي منحت للملاك الأراضي الأغنياء الذين كانوا يملكون معظم أراضي الإقليم ، وقد استجاب هؤلاء باستثمار أموالهم في الصناعة .

وكان لقلة فحم الكوك وكثرة الغابات في سايليزيا العليا دور كبير في استمرار استخدام فحم النبات لمدة أطول حتى حوالى الستينات من القرن التاسع عشر . وبعد نفاذ خام الحديد المحلى أخذت المنطقة تستورد الحديد من النمسا عن طريق السكة الحديد عبر بوابة مورافيا . ثم أجريت تحسينات عديدة في مجرى نهر الأودر في عام ١٨٩٥ بغية الوصول إلى بحر البلطيق ومن ثم أصبحت السويد أهم ممول للحديد للإقليم . ولكن الإقليم لم يرق إلى مصاف الرور من حيث الأهمية والإنتاج الصناعى . وكان ينتج حوالى ١٠٪ من إنتاج ألمانيا من الحديد في عام ١٩٠٠ .

وعلى خلاف منطقة الرور عانت سايليزيا العليا من تغييرين أساسيين في الحدود السياسية فقبل الحرب العالمية الأولى كان كل الإقليم يقع داخل الأراضي الألمانية إلا من جزء صغير عبر الحدود في النمسا والمجر . وبعد الحرب منح نصف الإقليم إلى الدولة البولندية الجديدة وقد تم ذلك على أساس استفتاء شعبي قامت به عصبة الأمم بين سكانه . وفي عام ١٩٤٥م استولى البولنديون على النصف الآخر وطرد الألمان المقيمون فيها وهكذا حصلت بولنده على منطقة صناعية متقدمة أصبحت الأساس التى بنت عليه نهضتها الصناعية فيما بعد .

(٣) إقليم سار ولورين الصناعى

وهذا إقليم صناعى قائم في حقول الفحم طوره الألمان أيضا . ويمتد على جانبي الحدود الحالية بين ألمانيا وفرنسا ويتضمن أجزاء من جنوبى لوكسمبرج . والساار تقع

في ألمانيا وبها كمية كبيرة من الفحم في حين أن لورين الفرنسية هي إحدى المراكز الرئيسية لتعدين خام الحديد في أوروبا . ولحق الإقليم بركب الصناعة متأخرا ، فقد تم استخدام الكوك لأول مرة في عام ١٨٣٨ وحل محل الفحم النباتي بالتدريج ، وتم إدخال الأفران العالية في صناعة الصلب في الخمسينات ، وفي الحقيقة لم يتم أى تقدم صناعي أساسي في المنطقة الا بعد أن ضمت ألمانيا المتحدة إقليم اللورين إليها في ١٨٧١ . كان العائق الأساسي للتوسع الصناعي هو أن فحم سار لم يكن يصلح لعمل فحم الكوك مما استلزم استيراد الفحم من منطقة الرور . وقد ساعد في هذه العملية شق القنوات في -هر الموزيل Moselle مما سهل نقل الفحم والحديد بين الإقليمين .

وكانت للأهمية الصناعية لإقليم سار ولورين دور في أحداث تغييرات عديدة في الحدود في القرن الماضي : وقد استولت ألمانيا على إقليم اللورين مرتين وخسرتها في حين أن فرنسا حاولت مرتين ضم إقليم سار إليها بدون جدوى .

(٤) إقليم سامبر - ميوز - ليز الصناعية : Sambre - Meuse - Lys

قبل حدوث الثورة الصناعية بمدة طويلة كان حوض نهر ليز Lys عند الحدود الفرنسية البلجيكية مركزا لصناعة نسيج مزهرة بينما كانت صناعة المعادن تتجمع في المدن الواقعة على طول نهري سامبر وميوز في بلجيكا الوسطى . وفي العصور الوسطى كان الحرفيون ينتجون النحاس والنحاس الأصفر والحديد في مدن دينان Dinant ونامور Namur وهوي Huy . وفي منتصف القرن السادس عشر كانت توجد حول مدينة نامور زهاء ١٢٠ كير وفرن تخدم نشاطات ٧٠٠٠ شخص من صناع الفحم النباتي . ومن ثم عرف إقليم برابانت Brabant ذات الغابات الغنية باسم Silva Carbonaria أو « غابة صانعي الفحم النباتي » .

وكما في إقليم الرور وساييليزيا العليا يوجد فحم إقليم سامبر ميوز في السهل الأوروبي عند حافة تلال الأردين Ardennes . وقد بدأ استخدام الفحم كوقود في القرن السادس عشر على يد صانعي المعادن وكان يصدر إلى الجهات المجاورة . أما الاستغلال الحقيقي له فلم يتم إلا في القرن التاسع عشر . وقد كان الجزء الولوني

Walloon (الفرنسي) من إقليم سامبر - ميوز هي التي تم فيها استخدام فحم الكوك لأول مرة حين تم في مدينة لياج Liege إنشاء فرن عال يعمل بالكوك في ١٨٢٣ . وبحلول عام ١٨٤٢ قفز عدد الأفران التي تعمل بالكوك إلى ٤٥ فرنا من مجموع ١٢٠ فرن في المنطقة ، وفي عام ١٨٦٠ فاق إنتاج فحم الكوك فيها إنتاج أية منطقة صناعية في أوروبا (عدا بريطانيا) .

وكان حرفيو إقليم سامبر - ميوز من أوائل الصناعيين الذين تبنوا التقنية البريطانية الجديدة ولم تستطع منطقة الرور ، رغم مواردها الكبيرة أن تبرز على إقليم سامبر ميوز إلا في أواسط الستينات . وتتضمن ميزات الإقليم الآتي :

١ - نهر ميوز Meuse (Maas) الصالح للملاحة .

٢ - كميات كافية من فحم الكوك Coking-Coal .

٣ - إرسابات خام الحديد المحلية .

وكانت لهذه الخصائص أهمية كبرى في بداية النهضة الصناعية ، ولكن الإقليم يستورد كميات كبيرة من الفحم وخام الحديد الآن . والمشكلة التي تواجه الإقليم حاليا تتلخص في استهلاك أو نفاذ موارد الفحم المحلية ومشاكل تحديث الصناعة .

وقد ظلت صناعة الحديد والصلب من أهم صناعات الإقليم مما جعل بلجيكا تحتل المرتبة الخامسة بين دول أوروبا المنتجة للصلب . ومن الفحم تنتج الكيماويات النايتروجينية . أما صناعة النسيج فمركزها ليل Lille في فرنسا التي تشتهر بمنتجاتها القطنية والكتانية والصوفية ، وفي فيرفيرز Verviers في بلجيكا حيث تسود الأقمشة الصوفية ، وفي مراكز صغيرة عديدة في حوض نهر ليز Lys .

وإقليم سامبر - ميوز - ليز هي المنطقة الوحيدة التي شذت من التقليد الصناعي السائد في أوروبا في القرن الماضي وذلك لأنها جزئيا جرمانية وتدين بالكاثوليكية على عكس الأقاليم الصناعية الأخرى في أوروبا التي تدين بالبروتستانتية .

(٥) إقليم حوض بوهيميا الصناعي Bohemian Basin

ومن الأقاليم الكاثوليكية التي حدث فيها التصنيع في القرن التاسع عشر الجزء الشمالى من مديرية بوهيميا التي كانت جزءا من النمسا (التي تحكمها ألمانيا) حتى عام ١٩١٨ ثم أصبحت تابعة لتشكوسلوفاكيا الآن . وبتشجيع من الحكومة النمساوية - المجرية نهضت منطقة صناعية كاملة في السبعينات رغم العوائق التي تميز بها الإقليم من عزلة في الموقع وعدم توفر أنهار صالحة للملاحة مثل مثيلتها سايليزيا العليا . وحتى ارسابات الفحم كانت ضئيلة بالمقارنة مع المناطق الصناعية في ألمانيا وبلجيكا وبريطانيا .

وتتركز صناعة الحديد والصلب التي تقوم على ارسابات الفحم الموجودة شمال غرب براغ وخام الحديد من جبال أور Ore (Erzgebirge) القريبة في الشمال ، تتركز في مدن كلادنو Kladno وبلزن Plzen ، كما تساهم في صناعة أسلحة سكودا Skoda ذات الشهرة العالمية .

أما المعدات والمكينات الثقيلة التي تشمل صناعة العربات وعربات وقاطرات السكك الحديدية فتصنع في براغ . أما أنواع الصناعات الأخرى الموجودة في الإقليم فتتضمن :

- ١ - الأنسجة القطنية والكتانية حول ليبريك Liberec .
- ٢ - صناعة الملابس في براغ .
- ٣ - صناعة الخزف والزجاج المشهورة في كارلوفي فاري Karlovy Vary وبلزن .
- ٤ - الكيماويات .
- ٥ - الصناعات الغذائية وصناعة البيرة (بيرة بلزن الشهيرة) .

وكثير من هذه الصناعة تطورت أساسا من العصور الوسطى .

(٦) مثلث ساكسون Saxony Triangle :

ومنطقة صناعية ألمانية أخرى ذات أهمية في القرن التاسع عشر تشمل ذلك الجزء من مملكة ساكسون Saxony أو ساكسونيا وتقع حاليا في ألمانيا الشرقية ويقع مثلث

رؤوسها عند مدن بلاون Plauen وهال Halle ودرسدن Dresden . وفيها حقل فحم لكن من نوع أقل جودة من فحم الرور . ولكن هناك أسباب أدت إلى نمو المنطقة صناعيا منها :

- ١ - الامتيازات والإعانات التي قدمتها حكومة ساكسونيا .
 - ٢ - وجود خام الحديد في الجبال الواقعة جنوبي المنطقة .
 - ٣ - هجرة الحرفيين من الهيوونون الفرنسيين والهولنديين ساعدت كثيرا في إنشاء صناعة الخزف والنسيج والأسلحة .
- وحاليا تتركز صناعة النسيج في مدينة بلاون ومدينة كارل ماركس Karl-Marx-Stadt (سابقا شمنتر Chemnitz) حيث حل استخدام الفحم محل القوة المائية التي اعتمدت عليها الصناعة من قبل . أما الصناعات الكيماوية فتعتمد جزئيا على إرسابات الأواني الخزفية الراقية والتي تشجعها الحكومة وتوجد في منطقة درسدن أيضا صناعة الآلات الدقيقة كما أنها مركز تقليدي للمعارض التجارية .

انتشار التصنيع خارج حقول الفحم (الشكل ٥٥) :

كان النمو الصناعي في المناطق الخالية من الإرسابات الفحمية من أوروبا ببطيئا في القرن التاسع عشر وشهد بعض المناطق ذات الصناعات التقليدية تدهورا في صناعاتها في وجه المنافسة من مناطق الفحم الصناعية . وقد تمكنت بعض المدن الكبيرة ذات الأعداد السكانية الضخمة من مجاراة لندن والاقتداء بها في جذب الصناعات إليها بحكم الأعداد الضخمة من العمال والسوق الموجودة بها . وتتمثل هذه المراكز في المدن مثل برلين وباريس وهامبرج وفيينا وروتردام .

وتخصصت باريس في صناعتين أساسيتين هما :

- (١) مواد الترف والرفاهية الراقية مثل ملابس الموضة والروائح والمجوهرات والتي كانت تصنع في مصانع صغيرة موزعة حول المدينة .
- (٢) الصناعات الهندسية والتي تسيطر عليها حاليا صناعة العربات وتتركز في مدن الضواحي .

أما أجزاء فرنسا الأخرى فقد كانت متخلفة صناعيا للأسباب الآتية :

١ - عدم وجود الفحم .

٢ - نسبة النمو البطيئة لسكان فرنسا مما أدى إلى صغر حجم السوق والقوى العاملة .

٣ - التركيز الشديد لوسائل النقل في مدينة باريس مما أدى إلى صعوبة الوصول إلى المواد الخام والسوق بالنسبة للأقاليم التي تقع في الأطراف البعيدة .

٤ - تلكؤ الحكومة حتى القرن التاسع عشر في تشجيع التصنيع خارج باريس .

ومن الأقاليم الرئيسية التي شهدت تطورا صناعيا كبيرا في القرن التاسع عشر سهل أعلى الراين في جنوب غرب ألمانيا والذي يتضمن مدنا هامة مثل مانهايم وفرانكفورت . وتكسب المنطقة أهميتها من وقوعها على طريق برى قديم كان يربط بين البحر المتوسط والسهل الأوروبي ، وكثير من مدنها قد ورثت صناعة النقايات منذ فترة . وفي القرن التاسع عشر أنشأت صناعات جديدة وخاصة الصناعات الكيماوية . وقد أصبحت مدينة لودفيج شافن Ludwigs-hafen ، المجاورة لمانهايم على نهر الراين موزعا لمصانع فاربن Farben الكيماوية المشهورة كما طورت هوخست Hochst وهي من ضواحي فرانكفورت صناعة مماثلة . وفي هذا القرن نشأت مصانع عربات هامة في الراين العليا ووادي نهر نيكر Neckar مثل عربات مرسيدس ديلمر في شتتقارت Stuttgart ومصانع أوبل Opel في روسلشهايم Russelsheim بالقرب من فرانكفورت .

عند حلول القرن العشرين كان النطاق الصناعي في أوروبا يتركز في الأراضي الجرمانية وأساسا في المملكة المتحدة وألمانيا ، في حين أن أوروبا الشرقية والجنوبية لم تتأثر كثيرا بالثورة الصناعية . ولكن الاتجاه منذ بداية هذا القرن كان نحو تشتيت الصناعات لأماكن جديدة بدل تركيزها في مناطق معينة وكان من نتائج هذه السياسة أن ظهرت دول صناعية مهمة مثل إيطاليا والسويد .

والأسباب الرئيسية وراء انتشار الصناعة وتشتتها يعزى إلى :

(١) تطوير مصادر جديدة للطاقة وخاصة القوة الكهربائية المائية .

(٢) تحسين وإتقان وسائل نقل جديدة تتيح حركة أكبر للمواد الخام والمنتجات المصنعة بدرجة عالية من الكفاءة .

(٣) تحسينات في تكنولوجيا صناعة الحديد والصلب مما أتاح الاستفادة من كميات قليلة من الفحم في العمليات الصناعية .
ويمكن الآن تقسيم أوروبا إلى ثلاثة نطاقات من حيث الطاقة المستخدمة حسب المفهوم الصناعي للطاقة : (الشكل ٥٥) :

١ - النطاق الأوسط والذي يطابق الحزام الصناعي القديم في القرن ١٩ حيث تسود الطاقة الحرارية Thermal المشتقة من وقود حفري مثل الفحم ، وقد بدأ تحول أساسي من الفحم إلى استخدام البترول والغاز الطبيعي ومشتقاته والذي يستورد معظمه من الشرق الأوسط .

ولكن هناك كميات كبيرة من الغاز الطبيعي يستخرج الآن من مقاطعة غورينجن Goringen الهولندية ومن بحر الشمال حيث يتوقع أن يكون الرصيف القاري مصدرا مهما للبترول في المستقبل كما حدث في المياه الإقليمية لبريطانيا . وفي عام ١٩٦٩ كانت دول السوق المشتركة الواقعة في داخل النطاق الحراري تستمد ٥٧٪ من احتياجاتها من الطاقة من البترول و ٣٠٪ من الفحم .

جدول ١٦ :

تفاصيل أهمية الفحم كمصدر طاقة في بعض الدول الأوروبية :

| النسبة المشتقة من الفحم والليفنايت ١٩٦٩/٦٢/٢٩ | النسبة المشتقة من البترول والغاز الطبيعي ١٩٦٩/٦٢/٢٩ | النسبة المشتقة من الطاقة الكهربائية ١٩٦٩/٦٢/٢٩ | |
|-----------------------------------------------|-----------------------------------------------------|------------------------------------------------|-----------------|
| ٩٦ ٧١ ٤٨ | ٤ ٢٧ ٢٧ | ٥ ٢ - | المملكة المتحدة |
| ٩٩ ٧١ ٤٠ | ١ ٢٩ ٥٩ | - - ١ | بلجيكا |
| ٣٥ ٤ ٥ | ٤ ١٨ ٣١ | ٦١ ٧٨ ٦٤ | ولكسمبرج |
| ٦٥ ٧ ٥ | ٧ ٤٤ ٦٦ | ٢٨ ٤٩ ٢٩ | النرويج |
| | | | السويد |

(٢) يحيط نطاق الطاقة الحرارية من الشمال والجنوب نطاقان تسود فيهما القوة الهيدوكهربية حيث تمكن الجبال الشاهقة والمرتفعات من توليد القوة الكهربائية المائية . وحتى هنا نجد أن استخدام البترول والغاز الطبيعي يكتسب أهمية كل سنة ويزداد . ولكن مع الارتفاع المستمر لأسعار البترول من الصعب التكهن حول ما إذا كان البترول سيطغى على الكهرومائية كمصدر للطاقة . ولكن إذا تم اكتشاف كميات كبيرة من البترول والغاز الطبيعي في بحر الشمال تكفى لسد احتياجات هذه الدول فليس من المستبعد أن يستمر الاتجاه الحالى وخاصة عندما يفوق الطلب على إمكانيات النطاقين من القوة الكهرومائية .

(١) إقليم وادى نهر البو الصناعى :

ساعدت القوة الكهربائية المائية في إحياء وإنعاش المجد الصناعى لشمال إيطاليا خاصة المنطقة الواقعة عند مجارى نهر البو العليا بين تورينو وميلانو . وكانت ميلانو هى أول مدينة أوروبية تضاء بالكهرباء وذلك في عام ١٨٨٣ . وقد أغدقت حكومة موسوليني على المنطقة الإعانات المالية والحوافز المغرية من أجل تصنيعها ووفرت لها أعدادا ضخمة من القوى العامة من مزارعى أطراف جبال الألب وجنوب إيطاليا . ومنذ عام ١٩٤٥ شهدت المنطقة نهضة متواصلة وضعتها في المرتبة الثانية بعد إقليم الرور من بين أقاليم أوروبا الصناعية الأخرى من حيث أهميتها . ومعظم الكهرباء التى تستهلك في وادى البو تولد بحرق البترول والغاز الطبيعي .

أما صناعاتها المتنوعة فتشمل الحديد والصلب وتستورد خاماتها من الخارج وصناعات العربات مثل مصنع فيات في تورينو وصناعة النسيج . وجنوه هى ميناء الإقليم الرئيسى وتابعة صناعيا للإقليم وفيها مصانع ضخمة للحديد والصلب وأحواض بناء السفن . أما مدينة البندقية العريقة فلم تستفد كثيرا من النهضة الصناعية هذه لأن البحر الأدرياتي يعتبر ممرا خلفيا وراكدا بالمقارنة مع البحر الأبيض ، ويبعدا من الأسواق والأماكن التى تمد الإقليم بالمواد الخام .

(٢) إقليم الهضبة السويسرية جورا | Swiss Plateau-Jura | :

تتميز المنطقة الصناعية بسويسرا التى تقع في شمالى جبال الألب وتحتل هضبة في

مرتفعات Jura جورا بصناعاتها التي أبرزت من البداية تكيفا لندرة المواد الخام التي تتميز بها الدولة . ولذلك فإن صناعاتها تعتمد على العمال ذوي المهارات العالية لإنتاج المواد الراقية ذات القيمة العالية . وقد احتفظت النقابات الصناعية بحرفهم حية أثناء الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر كما أن استخدام القوى الكهربائية المائية قد دفعت بالصناعة نحو التوسع في القرن العشرين . وصناعة الساعات التي تتركز في عديد من المدن الصغيرة المنتشرة في جورا هي رمز الصناعة السويسرية . وقد احتفظت هذه الصناعة بتوزيعها الجغرافي القديم وبتوفيرها للحرفيين . أما صناعة النسيج فتركز في سان غالين St.Gallen في الشرق وتنتج الحرير الراقية وأنواع الأشرطة في حين أن مدينة بال (بازل) مركز مهم للصناعة الكيميائية وميناء نهري مهم على نهر الراين . وتشمل الصناعات الأخرى إنتاج أنواع من المكثات والمواد الغذائية .

(٣) شمال أسبانيا :

تأثرت مناطق عديدة صغيرة في شمال أسبانيا بالثورة الصناعية وذلك في مرحلة تطوير القوة الكهربائية المائية خاصة منطقة بارشلونة على ساحل البحر المتوسط وساحل خليج بسكاي حول مدينتي بلباو Bilbao وسان سباستيان . وفي المنطقة الأخيرة توجد صناعة حديد وصلب محلية تعتمد على إرسابات خام الحديد الضخمة وقليل من الفحم ، ويستخدم الصلب في صناعة السفن . أما بارشلونة فهي مركز لصناعات متطورة ومن أهمها صناعة النسيج .

(٤) وسط وجنوبي السويد :

كانت السويد في خلال القرنين السابع والثامن عشر من أقوى دول أوروبا سياسيا مما جعلها تسيطر على منطقة البلطيق . وقد بدأت النهضة الصناعية في السويد في نهاية العصور الوسطى في شكل تعدين خام الحديد والنحاس . وكان خام الحديد يعالج في السويد قبل تصديره إلى أجزاء أوروبا . وبحلول القرن السادس عشر زاد التصدير السنوي للحديد وأخذت الأفران العالية تحل محل الكير وتم فصل عمليتي التنقية والصهر من بعضهما . وكان معظم إنتاج الحديد يتركز عند أماكن تواجد الخام

في منطقة بيرغسلاجن Bergslagen في المنطقة الداخلية الوسطى من القطر حيث بلغ عدد معامل الحديد العاملة فيها ٣٢٤ معملا في عام ١٦٩٥ . وقد كان لانعدام فحم الكوك في السويد دور في استمرار استخدام الفحم النباتي في صناعة الحديد وحتى وقت حديث ولو أن معظم الحرفيين قد تخلوا عنه الآن . وقد اكتسب هؤلاء الحرفيون شهرة في إنتاج نوع من الصلب في غاية الجودة . ولكن كمية الصلب المنتجة لاتتعارض الكميات التي تنتج في ألمانيا أو بريطانيا ، ولكن السويديون يعتمدون على كميات قليلة من الصلب الجيد النوع والتي تتضمن أنواعا من إصابات الصلب Steel alloys . وهناك صناعات هندسية محلية متنوعة تعتمد على هذا النوع من الصلب وتتضمن صناعات المكائن والعربات ومحمل الكريات (البلامى) ball bearings والمعدات الكهربائية ومكائن الطائرات والدراجات ومكائن الديزل (موترات) والأسلحة وسفن ذات نوعية جيدة للغاية . وما زالت منطقة بيرغسلاجن تحتكر إنتاج الصلب ولكن الصناعات الهندسية تنتشر في أواسط وجنوب السويد وتشمل مصانع سيارات فولفو ومحمل الكريات في غوتبرج Göteborg وأحواض السفن في مالمو Malmö ومصانع الدراجات والمعدات المنزلية في هوسكفارنا Huskvarna الواقعة إلى الدال عند شاطئ بحيرة فترن Vättern . واستخدام الطاقة الكهربائية المائية في الصناعات المختلفة هو الذي أنقذ الصناعة السويدية من التدهور الذي أصابها في القرن التاسع عشر وأدى إلى خلق رفاهية اقتصادية رفعت المستوى المعيشي للشعب السويدي إلى أعلا مستوى في أوروبا . ويتم استخدام الكهرباء مثلا في الأفران الكهربائية المستخدمة في عملية صنع الصلب . أما إرسابات خام الحديد الضخمة والجيدة النوع التي تستخرج من المناطق الشمالية في كيرونا وغاليفارفيهي للتصدير إلى بعض دول أوروبا الصناعية خاصة ألمانيا الغربية وبريطانيا .

أما الاتجاهات الحديثة في جغرافية أوروبا الاقتصادية فسنفرد لها فصلا خاصا .

الصناعات الأخرى :

توجد صناعات أخرى مهمة في أوروبا ومن أهمها صيد الأسماك والسياحة .

١ - صناعة صيد السمك :

توجد أنواع عديدة من الأسماك ذات القيمة التجارية في كل البحار التي تحيط بالقارة الأوروبية . وأكثر الشعوب التي تستغل هذه الثروة السمكية تنسب إلى دول هامشية وتشمل النرويجيين والأيسلنديين والفاروز والفريزيان والبرتغاليين واليونان واليوغسلافيين (على ساحل دالماتيا) والباسك . ورغم العدد القليل من سكانها فإن مصيد النرويج من السمك سنويا يبلغ حوالى ٥٪ من مجموع المصيد العالمى ، و١٨٪ من صيد الحيتان . أما في أيسلنده فنجد أن شخصا في كل خمسة أفراد يعمل في صيد السمك وشخص في كل عشرة في النرويج وتسعة أشخاص في كل عشرة في جزر فاروى Faeroe . وحتى في الدول الصناعية مثل ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة يعتبر صيد الأسماك من الصناعات المهمة .

ولكن ليس كل السكان الذين يقطنون بالقرب من البحار صيادين ، فإن بعضهم قد نبذوا هذه الحرفة كمهنة أساسية لهم . ومن هؤلاء الأيرلنديون الذين ماتوا جوعا في الأربعينات من القرن الماضي في المجاعة التي اجتاحت بلادهم ولم يفكروا في استغلال الثروة السمكية الضخمة التي تعج بها البحار من حولهم . وعموما يمكن القول بأن الشعوب التي اتخذت صيد الأسماك حرفة رئيسية هم أولئك الذين يقطنون في الدول التي تفتقر إلى أراضي زراعية واسعة : ففي النرويج مثلا تبلغ مساحة الأرض القابلة للزراعة ٣٪ من المساحة الكلية .

وتختلف مصائد الأسماك من بحر إلى آخر في أوروبا . ومثلا يهتم صيادو البحر الأبيض المتوسط بسمك التونا والسردين (سميت هكذا باسم جزيرة سردينيا) ، والسفنجة التي تتواجد في بحر إيجه . أما إنتاج البحر الأسود وبحر قزوين فيتكون من سمك الحنش Sturgeon الذي يصنع من بيضه الكفيار ، في حين أن صيادى بحر الشمال والمحيط المتجمد الشمالى والبحر النرويجي يتخصصون في صيد البكلاه (القد) والرنجة والاسقمري mackerel والحدوق Haddock . ويكتسب صيد السمك المفلطح flounder والجريث eels (بالإضافة إلى سمك القد والرنجة) أهمية في بحر البلطيق حيث تظل ملوحة المياه نسييا . أما خليج بسكاي ومياه الأطلسي التابعة لايريا فيشتهران بصيد المحار oysters والسردين .

السياحة :

شهدت أوروبا تطورا كبيرا في السياحة في القرن العشرين إلى درجة أنها أصبحت صناعة تنافس الصناعات الأخرى من حيث أهميتها كمصدر دخل فومي لكثير من البلاد . وإلى حد ما يمكن القول بأن السياحة كانت من نتائج الثورة الصناعية فالتطور الكبير الذي حدث في تكنولوجيا وسائل النقل المختلفة قد قلل من الوقت الذي يستغرق في الرحلات كما أدى إلى سهولة الاتصال بالقارة وبين أجزائها ، وعلاوة على ذلك فإن الثورة الصناعية قد أفرزت طبقة متوسطة في أوروبا وأمريكا تملك الموارد المالية الكافية لتسمح لها بالسفر والتجوال خاصة قبل ١٩٢٠ . ومنذ ١٩٤٥ فإن جواهر هذه الطبقة المتوسطة قد ساعدت في نهضة هذه الصناعة . وللأمريكيين دور كبير في بعث هذه النهضة السياحية في أوروبا ، لأن أوروبا كانت لها جاذبية خاصة عند الأمريكيين على مختلف طبقاتهم :

(١) فبالنسبة إلى الفئة المثقفة والمتعلمة من الأمريكيين فإن أوروبا تمثل ماضيهم العتيق . والولايات المتحدة دولة حديثة يرجع تاريخها (الأوروبي) إلى ٣٥٠ سنة . وهذه المدة صغيرة بالقياس إلى عمر الشعوب . ولذا كان لابد للأمريكي لكي يشيع فضوله الثقافي عن أصله وفصله الحضارى أن يلجأ إلى رحاب القارة الأم . لأن تاريخه ينفذ في أوروبا ويتخلل كيائها : فإن خرائب اليونان من العهد الكلاسيكي وكاندرائية شارلمان في آحر ، ومزوج روني ميد حيث وقعت معاهدة ماقنا كارنا ، ومدن العصور الوسطى المحفوظة مثل روتنبرج في ألمانيا وكاركسون في فرنسا وعظمة البندقية الداوية ، كلها تمثل جزءا من ماضى أمريكا .

(٢) وإغراء آخر يتمثل في كون أوروبا منطقة فريدة : فهي تمثل العالم القديم ، وجذابة بحكم كونها غير مألوفة أو عتيقة الطراز . فأوروبا تختلف في نواحي كثيرة عن أمريكا وهذا الاختلاف يرجع أساسا إلى عمر القارة الحضارى وعراقتها ، والمظهر الحضارى لأوروبا ينضح بالاستقرار والديمومة والنظافة والتناسق والتكامل . فهي تسر العين الأمريكية لأنها تظهر متكاملة ومصقولة بالمقارنة إلى دولتهم . وفئة أوروبا تنبثق أيضا من تنوعها . وعبر مسافة قصيرة يرى السائح أنواعا من المظاهر الحضارية

ويستمتع إلى لعات عدة ويكتشف عادات وتقاليد كثيرة . والعبور الكثير للحدود الدولية يضيف نكهة إضافية إلى الرحلة ذاتها على عكس أمريكا حيث نشاهد رغم تنوع بيئتها الطبيعية اتساقا مملا في كل مظاهرها الحضارية .

أما السياحة بين الدول الأوروبية نفسها فبعبثها الاختلافات المناخية بين أجزائها : فالسويديون والألمان والبريطانيون يلجأون إلى دفيء أجواء حوض البحر الأبيض المتوسط هربا من مناخهم البارد الممطر والمبلد بالغيوم . وكثيرا ما نرى مجموعات قومية معينة تفضل أماكن سياحية معينة . ومثلا السواح الألمان يفضلون ساحل يوغسلافيا الأدرياتي في حين أن السويديين والبريطانيين من أكثر المترددين في جزيرة رودس اليونانية .

وقد استجابت أوروبا لهذا الإقبال الشديد من السواح الأمريكيين والأوروبيين على حد سواء ببناء شبكة ضخمة من الفنادق على جميع المستويات وإنشاء المصايف وإدارتها بواسطة خبراء يجيدون عدة لغات وهناك أيضا الرحلات المبرمجة على أنواعها والكازينوهات وصلالات القمار وأماكن التزلج على الجليد وغيره من المغريات الأخرى التي تدر ملايين الدولارات على شعوبها وخاصة بعض الشعوب الصغيرة التي تمثل السياحة عمودها الفقري الاقتصادي .

العوامل المؤثرة في توزيع الصناعة الأوروبية :

(١) السوق :

السوق هي المنطقة التي يباع فيها إنتاج معين بكمية مريحة للمنتج . وحجم ونوعية السوق ربما يكون العامل الوحيد المهم في تشكيل التوزيع العام للصناعات في القارة الأوروبية . ويعزو الذين يهتمون بدراسة موقع الصناعة لجاذبية السوق أهمية كبرى لدرجة أنهم يعتبرون موقع السوق المعيار أو القاعدة الأساسية لتحديد موقع الصناعة الحديثة . ومن المعروف أن صناعات معينة يجب أن تقام - من ناحية اقتصادية - بالقرب من السوق بمعنى أنه على بعض أرباب الصناعة إقامة مصانعهم حيث يوجد المستهلكون وذلك لتقليل تكلفة الإنتاج وللحصول على أقصى ربح ممكن . وتشمل مثل هذه الصناعات تلك التي تنحصر في إنتاج بضائع ذات وزن كبير مثل

المشروبات المعبئة في زجاج أو ذات أحجام ثقيلة مثل الأواني الزجاجية أو الأوعية والأواني . أو بمعنى آخر إذا كان الوزن والحجم يضافان إلى المواد الخام في العملية الصناعية ، فإن إقامة المصنع بالقرب من المستهلكين تصبح ضرورة اقتصادية وذلك نسبة لعامل تكلفة النقل . ومثل ذلك إذا كانت البضاعة المنتجة أكثر قابلية للتلف من المواد الخام التي صنعت منها كما في حالة منتجات المخازن وصناعة الثلج والأطعمة ، فإن هذا يتطلب أيضا إقامة المصنع بالقرب من السوق . والجرائد المحلية التي تعدم أية قيمة تجارية خارج حدود نطاق توزيعها أو بعد تاريخ إصدارها تعتبر من المنتجات السريعة التلف . ثم هناك البضاعة القابلة للكسر أكثر من المواد التي تدخل في صنعها مثل صناعة الزجاج ، لإقامة المصنع بالقرب من السوق في هذه الحالة تصبح مهمة أيضا . وعلى العموم ، فإن درجة أهمية السوق كعامل يحدد لموقع أى مصنع تزداد مع مستوى التصور الاقتصادي لأى دولة وتصل هذه الأهمية قمتها في الدول الغنية المتحضرة حيث يتركز السكان في تجمعات حضرية كبيرة .

وهناك صناعات عديدة لا يتحتم أن تكون مواقعها بالقرب من الأسواق . ولكن من الواضح أن مثل هذه الصناعات لا بد وأن تدخل في اعتبارها الموقع الجغرافي للسوق حيث تختار موضع المصنع . وقد اقترح عالم اقتصادى بأن الامتداد المساحى لسوق شركة ما هو أفضل مؤشر لمستوى الحكمة الذى استخدم في الاختيار المبدئى لموقع المصنع .

كما أن تعريف كلمة السوق يمكن أن يؤثر على الموقع . فهناك بعض أصحاب المصانع الذين يقومون بتمويل مجتمعات سوقية كبيرة في مراكز حضرية رئيسية في حين أن البعض ومن ضمنهم صانعى الآلات الزراعية يهتمون بمستهلكين مشتتين في أماكن واسعة . ففي النوع الأول يخضع تحديد موقع المصنع ويتأثر بالاعتبارات السوقية أكثر منه بالنسبة للنوع الثانى حيث ينصب الاهتمام على خدمة أسواق متناثرة .

وتقع أهم سوق في أوروبا في المنطقة ذات الكثافة السكانية العالية والتي تمتد من لندن عبر الأراضي المنخفضة وعلى طول الطرف الجنوبى للسهل الأوروبى الشمالى حتى

ألمانيا الشرقية . ويتطابق ذلك موقع المراكز الصناعية الرئيسية في أوروبا، مما يوضح أهمية الاتصال والوصول إلى السوق بالنسبة للمصانع لتسويق وتوزيع منتجاتها مع أن التركيز السكاني كان في كثير من الأحيان نتيجة أكثر منه سببا للتصنيع الذي تتميز به هذه المنطقة . وهناك ميزة أخرى إضافية : فإن مثل هذا الموقع غالبا ما يساعد في ظهور صناعة ما بالقرب من المصانع الأخرى التي تنتج مكونات أو أجزاء أساسية ، مثل الصلب ، التي يحتاج إليها في العمليات الصناعية ، ومن الفوائد الأخرى :

(أ) القدرة على الاستجابة السريعة لأي تقلب في الطلب .

(ب) قدرة كبرى على قياس حجم وتركيب السوق وتقييم تقلباتها

حتى الصناعات التي تنقيد في موقعها بمصدر المواد الخام تتأثر إلى حد كبير بعامل السوق ، كما في حالة صناعة الحديد والصلب في لوليا Lulca في شمال السويد . فهي لا تضاهي في أهميتها تلك التي نجدها في الرور والمجلترا أو بلجيكا ، كما تقع في منطقة متخلخلة السكان وبعيدة من الأسواق الرئيسية . فالمواد الخام التي تتواجد في مناطق نائية لا يجذب استغلالها ما لم تكن نادرة ومن نوع جيد إلى درجة يمكنها أن تعوض عن عدم وجود سوق محلي . ويتضح أثر السوق على موقع الصناعة في ظاهرة « التأثير التضاعفي » . فحين تقوم صناعة في منطقة ما فلإنها تخلق وظائف إضافية تجذب الناس بأعداد كبيرة مما يؤدي إلى تضخم ونمو السوق وهذا يؤدي بدوره إلى منح المكان فرصة في اجتذاب صناعات أخرى بحكم هذه المميزات المكتسبة . وظاهرة التأثير التضاعفي هي المسئولة عن تركيز الصناعة في مناطق الفحم والقوى المائية أثناء الثورة الصناعية خاصة في المجلترا ، مما يوضح بجللاء بأن الأسواق الكبيرة تعوق اللامركزية الصناعية .

٢ - عامل المواد الخام :

المعروف أن المواد الخام هي أساس كل الصناعات التحويلية أو أى نشاط صناعي كما أن مدى قوة جذب المواد الخام للصناعات تتنوع حسب خصائص هذه المواد والعمليات التي بواسطتها تحول هذه المواد إلى منتجات ذات فائدة والوسائل الموجودة لنقل هذه المواد من منطقة إلى أخرى . ومن الأهمية أن نعرف بأنه ليس كل

أصحاب المصانع يكتفون باستخدام مادة خام واحدة وأن كثيرا منهم يعتمدون في صناعاتهم على منتجات مصانع أخرى أكثر من اعتمادهم على إنتاج الصناعات المستخرجة Extractive مثل التعدين لبعض المواد « الخام » .

وبعض الأنشطة الصناعية تقوم بالضرورة حيث توجد هذه المواد الخام مثل التعدين وقطع الأخشاب . وتتضمن الصناعات التي ترتبط في مواقعها بأماكن تواجد المواد الخام تلك المصانع التي تقوم بإنتاج البضائع المصنعة :

١ - التي تعاني من فقدان كبير في الحجم أو الوزن أثناء المعالجة كما في تكرار أو تنقية المعادن أو صناعة اللب والورق حيث يكون الفقد في الوزن يمثل حوالى ٤٠٪ من وزن لب الخشب .

٢ - والتي تستدعى صناعتها استهلاك كميات كبيرة من مصدر الطاقة الثقيلة الوزن أو كبيرة الحجم مثل الفحم .

٣ - أو التي تكون أقل قابلية للتلف من المواد الخام التي صنعت منها مثلما في صناعة الزبد والجبن وبودرة اللبن من اللبن السائل وتعليب الخضروات والفواكه وعندما يحدد موقع الصناعة حسب مصادر المواد الخام لا يعطى في هذه الحالة اعتبار كبير للتوزيع السكاني والأسواق .

وعلى العموم فإن قوة المواد الخام كعامل استقطاب للصناعات قد تقلصت مع التقدم في الثورة الصناعية . فالتطور المبدئي للأقاليم الصناعية في بريطانيا سبق اختراع وإنشاء السكك الحديدية وطرق العربات والبواخر المحيطية . ومثلا لم يكن من السهل نقل الصلب اقتصاديا لمسافات طويلة ولذلك كانت على الصناعات التي تستخدم الصلب أن تقيم مصانعها حول معامل الصلب عند حقول الفحم .

والانتشار الحديث للصناعة في أوروبا ، وبالأخص الزيادة الملحوظة في مصانع الفولاذ عند شواطئ البحر ، يعكس العلاقة المتدهورة بين المصنع ومصانع المواد الخام . وفي نفس الوقت فإن بعض القرارات التي اتخذت قبل مائتي سنة والمبنية على ضرورة إقامة المصانع قرب مصادر المواد الخام ما زالت تحدد موقع الصناعة اليوم ، ذلك فقط لأن المناطق الصناعية الراسخة تملك قدرة احتمالية أكبر . وقد تبقى

الصناعة فى نفس المكان حتى عند نفاذ المواد الخام التى حددتها فى البداية : فرأس المال الضخم المستثمر فيها وأنماط التسويق الموجودة ووجود القوة العاملة والتسهيلات فى وسائل النقل كلها لا تشجع أى تغيير فى موقع هذه الصناعات العريقة . وهذا يفسر بقاء معظم الصناعات الثقيلة وتجمعها عند حقول الفحم .

٣ - عامل وسائل النقل فى اجتذاب الصناعة :

من الناحية النظرية وفى حالة الحياذ التام لعوامل المواقع الأخرى ، تميل الصناعات إلى التركيز حول المواضع التى تتيح أدنى تكلفة نقل ممكنة بالنسبة للمواد الخام والمنتجات المصنعة . ولكن فى الحقيقة فإن تكلفة النقل ما هى إلا جزء من التكلفة الإجمالية للتصنيع ، ولذلك فإن الصناعات التى تكون لتكلفة النقل فيها دور كبير فى التكاليف الإجمالية هى التى تتأثر من حيث موقعها بعامل النقل . ووفق نظرية الموقع لا لفرید و Weber A. فإن الإنتاج الصناعى يشد أو يجتذب طبيعياً للمواضع التى تمنح أقل تكلفة نقلية والتى بدورها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمواد الخام والسوق وطبيعة المواد المصنعة . ويعتبر كل العوامل الموقعية الأخرى ثانوية لأنها تؤدى إلى تحريف أو تشويه الخطط الطبيعية الذى تحدده تكلفة النقل .

وتتكون تكاليف النقل من جزئين أساسيين :

أ - رسوم معامل Terminal or handling charge تتطلب شحن وتفريغ البضائع .

ب - رسوم الخط Line charge وهى عبارة عن تكاليف النقل الفعلى للبضائع والتى تزداد مع المسافة . واعتماداً على نوع الصناعة ، فإنه يمكن تخفيض تكلفة النقل وذلك عند مصدر أو مصادر المواد الخام أو السوق حيث يتم انتقال بضاعة من وسيلة نقل إلى وسيلة أخرى . أما إذا كانت المواد الخام تستجلب من مناطق واسعة متنوعة فإن أفضل موقع للمصانع يكون فى انتقال وسط مثل الموانئ وأقرب مثال لذلك مصانع الصلب عند شواطئ إيطاليا وبعض دول أوروبا الغربية .

أما العوامل الأخرى التى تؤثر فى تكلفة النقل فهى :

١ - المسافة التى يجب تغطيتها .

٢ - تكاليف بناء وصيانة التسهيل النقل .

فالمسافة البعيدة تسلب الموارد الطبيعية قيمتها وتمنع من استغلالها . ففي أوروبا حيث يستخدم الأنهار والقنوات في النقل على نطاق واسع فإن سهولة الاتصال للطرق المائية لها أهمية كبيرة للصناعات . فالتطور الصناعى لسايليزيا العليا تعثر طويلا حتى سبعينات القرن التاسع عشر عندما تمت الإصلاحات الملاحية في نهر الأودر ومن ثم الاتصال عبره بأجزاء ألمانيا الأخرى مما ساعد على النهضة الصناعية للمنطقة واستغلال الفحم الجيد فيها .

٤ دور القوى العاملة في جذب الصناعة :

يمكن أن يحدث تغيير في الموقع من نقطة ذات تكلفة نقل أدنى وذلك في حالة أن التوفير في تكلفة العمل أكبر من تكلفة النقل الإضافية الناجمة من هذا التغيير . فعلى العموم فإن تكلفة العمل عامل له تأثيره في تحديد مواقع الصناعات . وأكثر الصناعات التي تتأثر بهذا العامل هي تلك التي تكون لتكلفة العمل فيها دور بارز أو تمثل جزءا كبيرا من التكلفة الإجمالية ، وخاصة تلك الصناعات التي تعتمد على كادر من العمال ذوي المهارة العالية والذين يتخصصون في إنتاج أشياء صغيرة ذات قيمة عالية مثل الساعات وآلات التصوير وراديوهات الترانزيستور وأشباهها .

فهناك خصائص عديدة للعمل يدخلها أرباب المصانع في اعتبارهم عندما يقررون تحديد مواقع لمصانعهم مثل : وجود أو تيسر الحصول على العمل . ومتوسط الأجور . والمهارات الضرورية . وإنتاجية العمال ككل .

وحسب التقليد يتجمع العمال ذوي الخبرات والمهارات في عدد قليل من الأماكن وذلك نتيجة للحاجة للتدريب الشخصى في مثل هذه الحالات التي تتطلب تخليد أو استمرارية مهارات معينة . وبالتالي فإن أرباب المصانع يبحثون عن مثل هذه المواضع التي يتجمع فيها العمال الذين يملكون المهارات المطلوبة . ولم يكن من محض الصدفة أن قامت مصانع النسيج الآلية الأولى في إنجلترا وألمانيا في المناطق التي كانت لها تقاليد عريقة في صناعة النسيج . وقد جذب وجود العمال المهرة أصحاب

مصانع المنسوجات القطنية والأقمشة الاصطناعية إلى تلك المناطق التي اشتهرت من قبل بإنتاج الأقمشة الكتانية والصوفية والحريرية .

وقد قل تأثير القوى العاملة في تحديد موقع الصناعات حديثا نتيجة القدرة والامكانية المتزايدة للعمال الأوروبيين في التحرك والانتقال من منطقة لأخرى . فقد كانت الهجرات العالمية العالية واضحة في القرن التاسع عشر عندما كانت منطقة الرور في ألمانيا تنهض صناعيا ، ولكن زادت سرعة الهجرات منذ الحرب العالمية الثانية نتيجة للمعاهدات الدولية التي تسمح وأحيانا تشجع مثل هذه الهجرات . فالمصانع الألمانية والفرنسية وحتى السويسرية تعتمد الآن اعتمادا كبيرا على العمال من جنوى القارة مثل الإغريق والأسبان واليوغسلافين والجزائريين الذين يترحلون إلى المناطق الصناعية في الشمال وبأعداد ضخمة ويقطنون الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة . ورغم أن معظم هؤلاء العمال يأتون إلى هذه الدول الصناعية بصفة مؤقتة ، فإن بعضهم يقومون بصفة دائمة في بعضها ، ومثل هؤلاء العمال المقيمين هم الذين يثيرون بعض المشاكل السياسية بالنسبة للدول التي يقيمون فيها ومبعث هذه المشاكل هو خوف بعض الوطنيين من طغيان هؤلاء الأجانب وتأثيرهم على الخصائص القومية مثلا حدث في سويسرا في عام ١٩٧٠ م عندما أجرت الحكومة استفتاء بخصوص وضع حد أدنى لنسبة الاجانب في عدد سكانها .

وهناك تزايد في الهجرات الداخلية : وفي إيطاليا برهنت الدراسات على وجود توافق منذ عام ١٩٥٢ بين الهجرة من الجنوب وبين كمية الاستثمار الصناعي في منطقة وادي نهر البو وجنوا في الشمال الغربى من الدولة .

٥ - مصدر الطاقة كعامل جذب للصناعة :

تقوم الثورة الصناعية أساسا على استخدام القوة غير الحيوية ، وبالتالي كان لمصدر الطاقة دور في تحديد موقع المصنع ، خاصة في المراحل التكوينية للثورة عندما كانت القوة المائية تربط أبواب المصانع إلى شواطئ الأنهار حيثما توجد الشلالات والجنادل ، وما زالت بعض مصانع النسيج البريطانية العريقة تستخدم القوة المائية وظلت ثابتة في مواضعها منذ القرن الثامن عشر . وعندما حلت مكائن المحار التي

تستخدم الفحم محل العجالات المائية ظلت العلاقة الموقعية بين مصدر الطاقة والمصنع باقية متشبثة . ولكنها أخذت تضعف تدريجيا مع التقدم في تكنولوجيا النقل . ومع ذلك ، فقد بقيت النهضة والتطور الصناعي متبعثا وعاجزا بدون إرسابات الفحم الكبيرة حتى القرن الحالى . عندما حلت مصادر الطاقة الأخرى مثل القوى الكهربائية المائية والبتروى والغاز الطبيعى محل الفحم إلى حد كبير .

وفى نفس الوقت يجب أن نعرف أنه قبل أن يصبح الفحم مصدرا رئيسيا للطاقة كانت الصناعات تتركز عند كل حقل فحم من حقول بريطانيا وأوروبا . فقد كانت مقاطعات لانكشير وبوركشير والرور ، ومنطقة سايليزيا العليا ومنطقة سامبر - ميوز ومقاطعة ساخن فى ألمانيا الشرقية مقرا لتجمعات صناعية هامة قبل أن يصبح للفحم أهمية تجارية . وفى هذه المناطق كانت مهمة الإرسابات الفحمية الموجودة فيها أنها يسهل قبول تكنولوجيا الثورة الصناعية لدى أصحاب المصانع الموجودين من قبل .

وكان لإحلال الفحم بالبتروى والقوى الكهربائية المائية دور كبير فى إضعاف الارتباط بين المصنع ومصادر الطاقة وذلك لسهولة نقل كليهما من الناحية الاقتصادية . وتبادل الكهرباء أصبح من الأمور الشائعة بين دول أوروبا فى حين أن إنشاء أنابيب البترول وتطور صناعة ناقلات البترول الضخمة بعد عام ١٩٥٢ سهلا نقل البترول من مناطق إنتاجه إلى مناطق الاستهلاك .

ورغم ذلك فإننا نجد التوزيع الحالى للصناعات الأوروبية قد تحدد خلال تلك الفترة التى كان القرب لمصادر الطاقة أمرا ضروريا وعلاوة على ذلك فإن بعض الصناعات ، ومن ضمنها المصانع التى تعمل فى تحويل الألمنيوم ، لها تركيبات تكلفة تسيطر عليها المصروفات على الطاقة ولذلك فإن أصحابها يضعون أهمية كبرى لمصادر الطاقة عند اختيارهم الموقع لإقامة مصانعهم .

٦ الاعتبارات السياسية والصناعة :

كان للتجزئة السياسية تأثير كبير على موقع الصناعة فى أوروبا . وفعليا فإن

« القوانين » العديدة التي تحدد موقع صناعة ما قد يبطل مفعولها بمجرد وجود حدود دولية . والتدخل الحكومي ينتج من الرعة في :

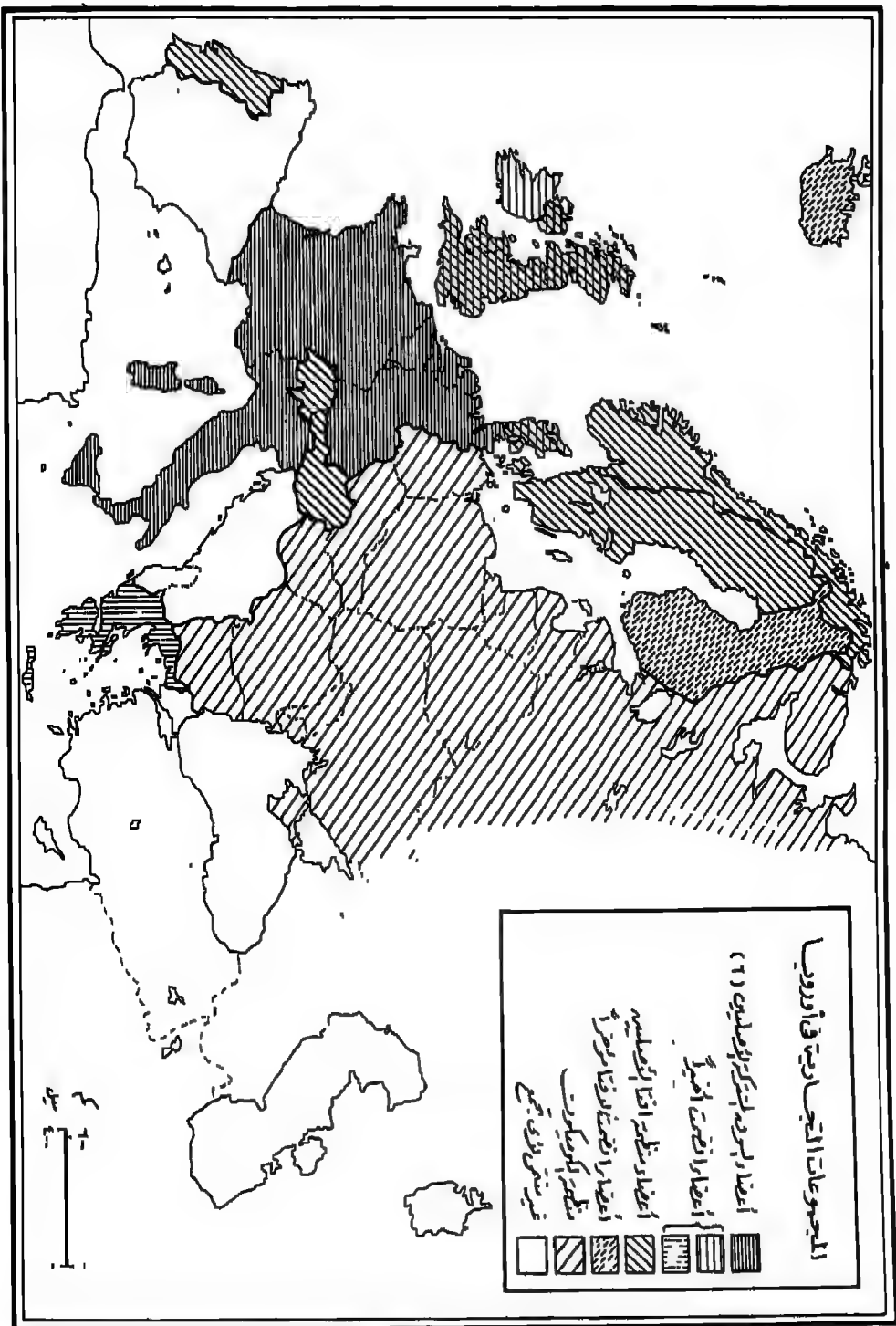
- (١) مساعدة الصناعات التي تنتج مواد تلاقى منافسة من المنتجين الأجانب .
- (٢) تطوير الصناعات ذات الأهمية الاستراتيجية .
- (٣) إيجاد مواقع آمنة للصناعات الاستراتيجية .
- (٤) توزيع الاقتصاد الصناعي للمناطق البالغة التخصص في إنتاج مواد معينة .
- (٥) تحديد النمو المتزايد للتجمعات الحضرية الضخمة Conurbations .
- (٦) رفع المستوى المعيشي للمناطق المتخلفة .

وتشكل الحدود السياسية نقاط حواجز تمثل في التعريفات Tariffs الجمركية وكوتات استيراد والتصدير كما أنها تعوق حركة العمال ورأس المال أو النقل عبرها .

ولم تعد للتعريفات Tariffs تتركيب في تحديد موقع الصناعة في أوروبا كما كان من قبل . وذلك لإنشاء ثلاث مجموعات عالمية تجارية يسعى أعضاؤها لإزالة العوائق والقيود من طريق التبادل التجاري . وهذه المجموعات التجارية هي (الشكل ٥٦) :

- ١ - السوق الأوروبية المشتركة التي تتكون من الأعضاء المؤسسين : ألمانيا الغربية وفرنسا وإيطاليا وهولنده وبلجيكا ولكسمبورج . وتأسست عام ١٩٥٧ م (وتضم الآن عشر دول هي بريطانيا والدنمارك وأيرلنده واليونان والنرويج) .
- ٢ - الاتحاد الأوروبي للتجارة الحرة وأعضاء الميثاق هم : المملكة المتحدة والنرويج والسويد والدنمارك والبرتغال وسويسرا والنمسا وتأسس عام ١٩٦٠ م .
- ٣ - الكوميكون Comecon أو المجلس للمساعدة الاقتصادية المتبادلة وتضم الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية الشيوعية ما عدا يوغسلافيا وألبانيا (انسحبت) .

ومن المتوقع حدوث تغييرات أساسية في هذه التنظيمات مستقبلا : - حدثت



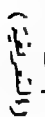
تغييرات فعلا منها انضمام فنلندة وأيسلندة للاتحاد الأوروبي وانضمام المملكة المتحدة والدنمارك للسوق المشتركة . ولكن التعريفة الجمركية ما زالت مطبقة على بعض أعضاء هذه المنظمات ومع غير الأعضاء . والتعريفة من شأنها أن تجعل الحدود السياسية تحدد أو تقلل من وصول المواد الخام الأجنبية والأسواق مما يدعم موقف المواد الخام المحلية والأسواق . وكثيرا ما تعاني أماكن الإنتاج بالقرب من الحدود المحمية بالتعريفة الجمركية من تكاليف التوزيع أو قلة في الإنتاج أو كليهما . وهكذا تشتم منطقة السوق بالانكفاء أو عدم التوازن مع طاقة استهلاكية كافية كبيرة في اتجاه دون آخر من المصنع . ومثال منطرف لهذا الوضع هو مصنع سيارات الفولكس واجن في ولفسبرج Wolfburg في ألمانيا الاتحادية

فعند اختيار هذا الموضع في عهد هتلر كان الموضع مركزيا بالنسبة لألمانيا آنذاك ومع اتصال مباشر بقنال الميدلاند الهام . وبعد افتتاح المصنع بعد الحرب العالمية الثانية وأثر التعديلات في الحدود وانقسام الدولة الى شطرين أصبح موقع الستار الحديدي على بعد ١١ كم إلى الشرق من المصنع . وقد أبقى أمل توحيد شطري ألمانيا المصنع في موضعه القديم غير المناسب . ومع الاستثمار الكبير لرأس المال أصبح نقل المصنع إلى موضع آخر أصعب من الناحية الاقتصادية . وهكذا بقي المصنع في مكانه بعيدا من السوق الرئيسية في ألمانيا الغربية وتمثل برلين الغربية السوق الوحيدة في الشرق . ووجود قوانين وضرائب أو أجور أدنى مختلفة على جانبي الحدود الدولية أيضا يؤثر على موقع الصناعة عن طريق منع أو تشجيع هجرة رأس المال والعمال عبر هذه الحدود (الشكل ٥٧) .

ويكتسب العامل السياسي أهمية عندما تتخذ الحكومات اجراءات لتحديد موقع الصناعة لأسباب استراتيجية . والشعوب المهددة بالحروب تخرج إلى تشتيت المصانع داخل الدولة لتفادي الهجوم عليها وقذفها بالقنابل لغرض تدميرها ، وأثناء الحرب الأخيرة لجأت بريطانيا إلى إقامة مصانع للدخيرة في مقاطعة لانكشير لأنها كانت بعيدة عن متناول الغارات الألمانية .

وكثيرا ما تلجأ الحكومات إلى إجراءات من شأنها النهوض بالمناطق المتخلفة

السلامة



داخل الدولة ، ومثال ذلك محاولات الحكومة الإيطالية في إقامة المصانع في الجنوب . فمصنع الحديد والصلب في ترانتو ومصنع التروكيوايات في غيلا في صقلية أمثلة لهذه المحاولات . وإقامة مصنع الصلب في موى رانا في النرويج والمحاولات المبدئية لحكومة بروسيا لتطوير إقليم سايليزيا العليا صناعيا كلها اجراءات لتطوير هذه المناطق المتخلفة .

وينحدث العكس أحيانا كما في حالة الحكومة البريطانية التي اتخذت اجراءات من شأنها عدم تشجيع إقامة صناعات أخرى في منطقة لندن ويبرمنجهام لصناعيتين وهما من أهم المناطق الصناعية في إنجلترا .

ومن هذه الدراسة يتضح لنا الآتي : -

١ - إن الحدود السياسية الدولية تميل إلى تعويق أو إثباط الصناعات في منطقة الحدود . وذلك بدفعها إلى داخل الدولة .

٢ - تعمل التعريفات الجمركية إلى تشتيت الصناعة ، وتتيح المجال لصناعات معينة لكي تقوم في أماكن ما كانت لها أن تقوم فيها لولا هذه الظروف الخاصة .

٣ - تشتيت الصناعة بأوامر حكومية لأسباب تتعلق بالأمن أو لغرض النهوض بالمناطق المتخلفة أيضا تساعد على عدم تكتل أو تركيز الصناعات في مناطق محدودة .

٤ - ويتخوف بعض الخبراء في مجال الموقع الصناعي من أن إزالة القيود أو التقييدات الرسمية على موقع المصانع في أوروبا قد يؤدي إلى ازدهار ونهضة في قليل من المناطق التي تتمتع بمواقع مركزية مثل منطقة الرور في ألمانيا الغربية على حساب المناطق الهامشية التي قد يصيبها التدهور والركود .

الفصل الثالث عشر

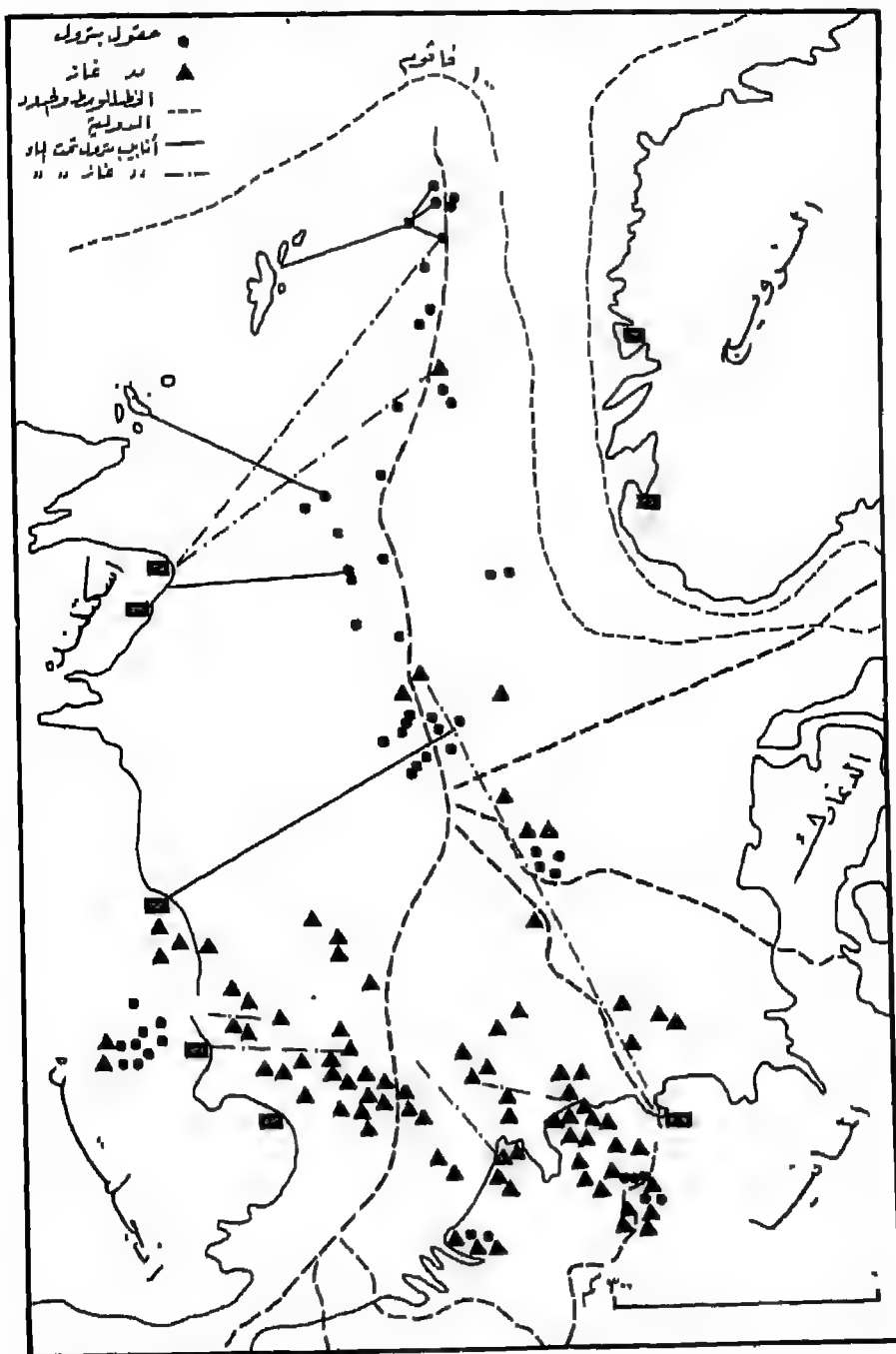
اتجاهات حديثة في جغرافية أوروبا الاقتصادية

شهدت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية تطورات كبيرة في كثير من نواحي جغرافيتها الاقتصادية كما برزت اتجاهات جديدة في هذا المجال نوجزها في الآتي : -

١ - في مصادر الطاقة : (الشكل ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) :

كان لأهمية الفحم الحجري كمصدر أساسي للطاقة والحاجة الماسة للحديد والصلب للإنشاء ، أثر كبير في تعمير القارة بعد الحرب في المعسكرين الشرق والغرب ، فقد ازداد الطلب على الفحم وكثفت الجهود لاستغلال المناجم الموجودة واكتشاف حقول جديدة : فألمانيا أخذت تستغل مواردها الهائلة من الفحم من إقليم الرور كما ان فرنسا طالبت بضم حقول فحم السار ومصانعها اليها ، واخذت بولندا تفرق أسواق أوروبية مثل اسكندناوه وإيطاليا بالفحم من حقول سايليزيا العليا وشرعت بلجيكا في استغلال حقول كميتلاند الشمالية بينما أخذت هولنده تطالب ببعض الأقاليم عند الحدود الألمانية ظنا منها بانها تحتوى على فحم . أما الحقول البريطانية فقد عجزت عن سد احتياجات الدول المستوردة لأسباب منها إعادة تنظيم المناجم وتحديثها وإنتاج الفحم المتضائل وتكلفته العالية . وقد أسفر البحث المتواصل عن مصادر جديدة من الفحم عن العثور على طبقات جديدة منه في إنجلترا وفي ألمانيا الديمقراطية كما تم رصد كميات كبيرة منه في هولنده وغرب روسيا وزاد الإنتاج والبحث في جنوب شرق القارة .. وهكذا استمر إنتاج الفحم في توسع وازدياد حتى منتصف الخمسينات عندما أدى الاستخدام المتزايد للبترول في غرب أوروبا إلى فرط في إنتاج الفحم وخاصة في منطقة الرور الألمانية وكساد في الطلب .. ولولا الطلب المتزايد للكهرباء من المولدات التي تدار بالفحم وأيضا لفحم الكوك من قبل مصانع

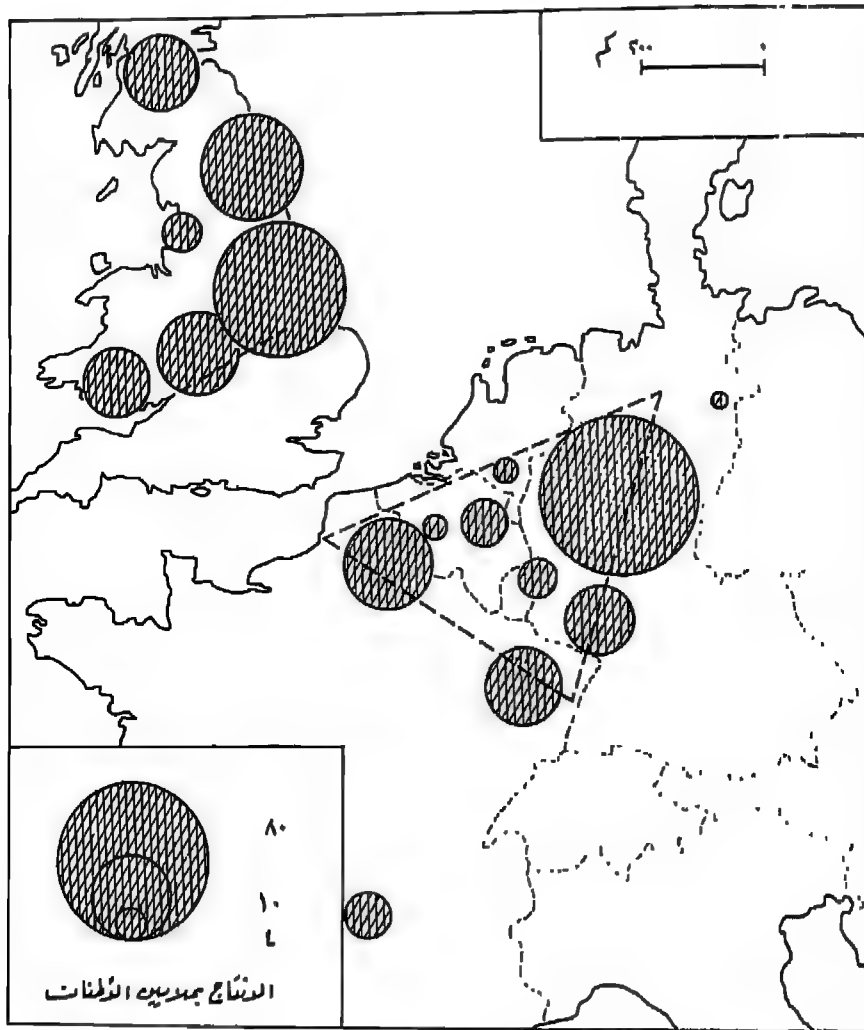
استغلال موارد البترول والغاز الطبيعي في بحر الشمال



شكل ٥٩ : أنابيب البترول والنفط الرئيسية وإسلاك الكهرباء



مناطق انتاج الفحم في السوق المشتركة (٤/١٩٧٣)



شكل (٦١)

الحديد والصلب لانخفاض الطلب على الفحم بصورة سريعة . ومن ثم هجرت بعض الحقول الصغيرة في غرب أوروبا رغم صلاحية بعضها للاستغلال الاقتصادي (الشكل ٦١) .

كانت أوروبا قبل عام ١٩٣٩ تعتمد على البترول المكرر في مصافي مقامة بالقرب من حقول النفط ثم أخذت ألمانيا تطور لاعتبارات استراتيجية إنتاج البترول الصناعي وكذلك البحث عن البترول الطبيعي داخل أراضيها ولكن دون نتائج مجدية نتيجة الزيادة التي طرأت على أسعاره أثناء الحرب وبعدها . وبعد انتهاء الحرب انخفضت أسعار البترول مما أدى إلى زيادة كبيرة في عدد العربات وأيضا إلى استخدام البترول في مجال الصناعة خاصة في توليد الطاقة الكهربائية . كما حدث تطوير سريع في صناعة البتروكيماويات لتصبح أساسا لأنواع عديدة من المواد الاصطناعية ، وأخيرا أدى الخوف من تأمين حقول البترول من قبل الدول المصدرة زائدا مشكلة دفع الأسعار بالعمولات الصعبة والتطوير الهائل في طريقة التكرير - أدت هذه العوامل إلى ضرورة إنشاء مصاف للبترول في الدول المستهلكة لان ترحيل البترول الخام أقل تكلفة من نقل المكرر منه كما أن عملية التكرير ستم بالقرب من أماكن الاستهلاك مما يتيح الاستفادة من آخر التطورات في المنتجات الجانبية ، بينما تتيح هذه العملية نوعا من الحرية في اختيار أرخص مصادر البترول الخام وتوفير العمولات الصعبة . وساعد في النجاح هذه العملية ظهور الناقلات الضخمة مما أدى إلى تكلفة نقل أقل .

ولذلك يتسم معظم مصافي البترول في غرب أوروبا بمواقعها الساحلية مثل المجمع البتروى الضخم في روتردام - يوروبورت - Rotterdam-Europoort (الشكل ٦٢) وفي منتصف الستينات فقدت مواقع أهميتها نظرا لصعوبة وصول الناقلات الضخمة إليها وأخيرا أدت أزمة حرب السويس وإغلاق القناة إلى ظهور الناقلات الضخمة التي أخذت تنقل بترول الخليج الخام إلى أسواق أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح وبتكلفة أقل . أما توزيع البترول داخل الدول فقد كان يتم في الخمسينات عن طريق السكك الحديدية والصنادل المائية ، وقد شجع الطلب المتزايد خاصة في أسواق ألمانيا الداخلية إلى مد أنابيب البترول بما ساعد أيضا في ضخ

البتروال الخام عبر هذه الأنابب إلى المصافى المقامة فى الداخل خاصة فى حوض نهر الراين (الشكل ٥٩) .

اما فى المعسكر الشرقى فما زال الفحم يحتل نسبة أعلا فى توليد الطاقة بالمقارنة مع دول غربى أوروبا وما زالت بعض الصناعات المعدنية فى الدول الشرقية تعتمد على الفحم المستورد من الاتحاد السوفيتى بينما انخفض إنتاج الفحم فى ألمانيا الديمقراطية لنفاذ الطبقات الصالحة للاستغلال . وقد يرجع السبب فى قلة استهلاك البتروال فى هذه الدول إلى قلة العربات بالمقارنة مع دول أوروبا الغربية ، ولكن يبدو أن احتياطى الفحم فى روسيا وسهولة استخدامه تكنولوجيا بالمقارنة مع البتروال قد أثر فى سياسة الطاقة فى أوروبا الشرقية .

وكما حدث فى الغرب كانت هناك مساعى للتنقيب عن البتروال كما فى رومانيا حيث تم العثور على إرسابات جديدة وفى غرب سيبيريا فى الاتحاد السوفيتى ، وقد أدى الطلب المتزايد للبتروال فى دول أوروبا الشرقية إلى مد الأنابب من حقول الأورال - فولجا إلى بولنده وألمانيا الديمقراطية وتشكوسلوفاكيا والمجر . وتستورد ألمانيا الديمقراطية بعض احتياجاتها من البتروال الخام عن طريق ميناء روستوك Rostock كما أن حوض الدانوب سيمول بالبتروال الخام من دول العالم الثالث بالأنابب الممدودة من الميناء اليوغسلافى ريچيكا - بكار 'Rejeka-Bakar' ، كما يتم حاليا تصدير كميات من بتروال روسيا الخام إلى الدول الغربية عن طريق ميناء فينتسبيلز 'Ventspils' الذى يتم بناؤه حاليا على بحر البلطيق كما أن هناك مشروعات خط أنابب غاز طبيعى من شبه جزيرة يامال إلى غرب أوروبا تقوم بتمويله دول غربية . ويصل استهلاك دول غرب أوروبا من الغاز السوفيتى حاليا كالتى : -

ألمانيا الغربية ١٦٪ (٣٠٪ عام ١٩٨٦) ، فرنسا ٧٪ (٣٠٪ عام ١٩٨٦) ، إيطاليا ٢٣٪ (٣٠٪ عام ١٩٨٦) ، ويصل المجموع إلى ٩٪ وسترتفع النسبة إلى ٢٥٪ فى عام ١٩٨٦ .

أدى الاستخدام المتزايد للبتروال إلى الاهتمام باستغلال الغاز الطبيعى الذى شهد تطورا كبيرا فى الاتحاد السوفيتى خلال الخمسينات وقد تم اكتشاف كميات كبيرة منه

في السهل الأوروبي الشمالى وخاصة في إقليم جرونغن Gronigen الهولندى . وتمول هولندا جيرانها من هذا الحقل بعد سد الاحتياجات المحلية ، وهذا الاعتماد على الغاز يفسر لنا عدم الاهتمام بالفحم حتى الموجود منه حاليا . وقد شجع هذا الاكتشاف الهولندى البحث عن الغاز في جنوب بحر الشمال خاصة في القطاع البريطانى الذى تم العثور فيه على كميات كبيرة أيضا مما قلل من اعتماد بريطانيا على الفحم . أما في أوروبا الغربية فلم تثمر الجهود عن كميات تجارية من الغاز إلا في رومانيا حيث يكفى الإنتاج للاستهلاك الداخلى وللتصدير لشمال البحر . وقد يصبح الاتحاد السوفيتى من الدول الممولة لأوروبا الغربية بالغاز أو تستلم ألمانيا الغربية وإيطاليا جزءا من غازها الطبيعى بواسطة أنابيب مدت خصيصا من الشبكة التى تمول دول الكوميكون . كما أن عملية تحويل الغاز الطبيعى إلى سائل يسهل نقله بالناقلات من حقول شمال أفريقيا .

وقد ساعد التقدم التكنولوجى في مجال البحث والتنقيب عن البترول في بحر الشمال ، فإن استخدام أحدث الوسائل العلمية من المسح الجيولوجى والكمبيوتر والتنقيب تحت الماء يزيد التكاليف مما استدعى توحيد الجهود بين دول عدة لاستغلال هذه الموارد الهامة . وقد ساعد ارتفاع أسعار البترول في تخفيف هذه التكاليف . ويمثل القطاعان البريطانى والنرويجى أهم مناطق استخراج البترول حتى الآن (١٩٧٩) كما يشير البحث عن البترول في بحر السلت Celtic Sea (القطاع البريطانى الأيرلندى) ، بوجود كميات منه والبحث ما زال جاريا من قبل كل دولة للبحث عن البترول فى قطاعاتها من بحر الشمال (الشكل ٥٨) .

أما الكهرباء فقد أصبحت مصدرا مهما للطاقة . وقد حدث أكبر توسع في الإنتاج في المحطات الحرارية التى تستخدم الفحم والليجنائيت والبترول والغاز الطبيعى والطاقة النووية . أما الطاقة النووية فقد استخدمت كمصدر للطاقة لأول مرة في الولايات المتحدة وبريطانيا ودخلت دول غربى أوروبا هذا المجال مع تدشين منظمة الطاقة النووية الأوروبية Euroatom في عام ١٩٥٧ . أما الدول المنتجة لليورانيوم داخل السوق المشتركة فهى ألمانيا الغربية وفرنسا بينما تحتل المملكة المتحدة

الصدارة في عدد المفاعل الذرية . وقد شرعت ألمانيا مؤخرا في بناء مفاعل لها . أما الاتحاد السوفيتي فلديه كمسات كبيرة من مادة اليورانيوم ودخلت محال استخدام الطاقة النووية :- منتصف الخمسينات كما قام بمساعدة دول الكوميكون بإنشاء محطاتها النووية ولكن روسيا اقل اعتمادا على الطاقة النووية نظرا لتوفر مصادر الطاقة التقليدية فيها (الشكل ٦٠) .

بينما شهدت دول اسكندناوه ومنطقة جبال الألب تطورا في توليد الطاقة الكهربائية خاصة قبل عام ١٩٤٥ . فقد بقي استغلال وتطور هذا المصدر محدودا في أجزاء أخرى من القارة ، كما شهدت بعض الدول (مثل بريطانيا وألمانيا) تقلصا في نصيبه .. أما في دول أوروبا الشرقية فقد اعطى تطوير الطاقة لكهرمائية أولوية خاصة في مشاريع التنمية ومن ثم تم إنشاء محطات توليد عديدة (ومحطات كهربية خاصة في بلغاريا ورومانيا) كما أن هناك مشروعا مشتركا بين يوغسلافيا ورومانيا على الدانوب عند البوابة الحديدية لتوليد الطاقة الكهربائية المائية كما تم اخيرا ربط جميع اعضاء الكوميكون بواسطة شبكة كهرباء موحدة (الشكل ٦٠) .

مع التزايد المستمر في الطلب على الطاقة واستهلاكه فإن مشكلة الطاقة ستبقى أهم ما تواجه الدول الأوروبية كما حدث في عام ١٩٧٣ عندما شعرت هذه الدول مدى الخطورة التي تتعرض لها في مثل هذه الاوقات . وقد دفعت الاسعار المرتفعة للبترول وعدم الاستقرار السياسي في مناطق الإنتاج (الحرب الإيرانية العراقية) إلى تكثيف الجهود للبحث عن هذه الموارد في داخل القارة (كما في بحر الشمال) وإيجاد بدائل للطاقة كالطاقة النووية أو تطوير دور آخر للفحم كاستخدامه في استخراج البترين (غازوهول) وإيجاد وسائل لاستخراج الفحم الموجود تحت بحر الشمال . وهذا الارتفاع المتزايد في أسعار البترول هو الذي أدى الى تصدير البترول والغاز الطبيعي السوفيتي إلى دول غرب أوروبا .

صناعة الحديد والصلب :

أما أثر التكنولوجيا الحديثة على أنماط الجغرافية الاقتصادية في القارة فيظهر بوضوح في صناعة الحديد والصلب حيث أدت وسائل الإنتاج الجديدة والتطور في

وسائل النقل إلى تغيير في متطلبات المواقع التقليديه للمصانع ، فقد شجع النقص في إنتاج الحديد والصلب بعد الحرب الثانية مباشرة استثمارا ضخما في المصانع في منتصف الخمسينات في الدول الغربية والشرقية . وأدى استخدام الطرائق التقنية الحديثة في زيادة الإنتاج ، كما أدت هذه الزيادة في الإنتاج مع الانخفاض في الطلب على الحديد والصلب في السبعينات إلى تضخم في الإنتاج (overcapacity) خاصة في المصانع القديمة ذات القدرة التنافسية الأقل على الرغم من برامج التأميم التي شملت هذه الصناعة بغرض رفع قدراتها الإنتاجية . وقد أثرت ثلاثة عوامل ذات أبعاد عالمية في صناعات الحديد والصلب الأوروبية هي : -

(١) الزيادة التي طرأت في عدد المصانع القومية الذي قفز من ٢٠ مصنعا في عام ١٩٣٨ إلى ٨٠ مصنعا في عام ١٩٧٥ (منها ألبانيا وبلغاريا كدول جديدة) أثر سياسة التصنيع التي تبنتها الدول حديثة الاستقلال .

(٢) التحسين في أسلوب وطرائق التقنية الحديثة بما أدى إلى تقليل النسبة بين المواد الخام المستخدمة بالنسبة إلى مقدار المواد المصنعة مع الإسراع في عمليات الإنتاج المختلفة .

(٣) الثورة التي حدثت في وسائل النقل البحري والمتمثلة في ناقلات المواد الضخمة مما أدى إلى انخفاض في تكلفة النقل . ومن نتائج هذا التطور أن زادت مصادر المواد الخام وتنوعت لأنها سهلت استغلال المواد من مناطق مختلفة رغم أن هذه الوسيلة قد أعطت الأهمية للمواقع الساحلية .

وكانت النتيجة ان زادت طاقة الإنتاج القصوى للمصانع (التي زادت أيضا في أحجامها) من مليون طن في عام ١٩٤٧ إلى عشرة مليون طن في عام ١٩٧٤ . أما بالنسبة لأوروبا فقد كانت هذه التغييرات تعني انخفاضا نسبيا في وضعها الدولي بينما احتلت الولايات المتحدة وروسيا واليابان الصدارة في هذا المجال .

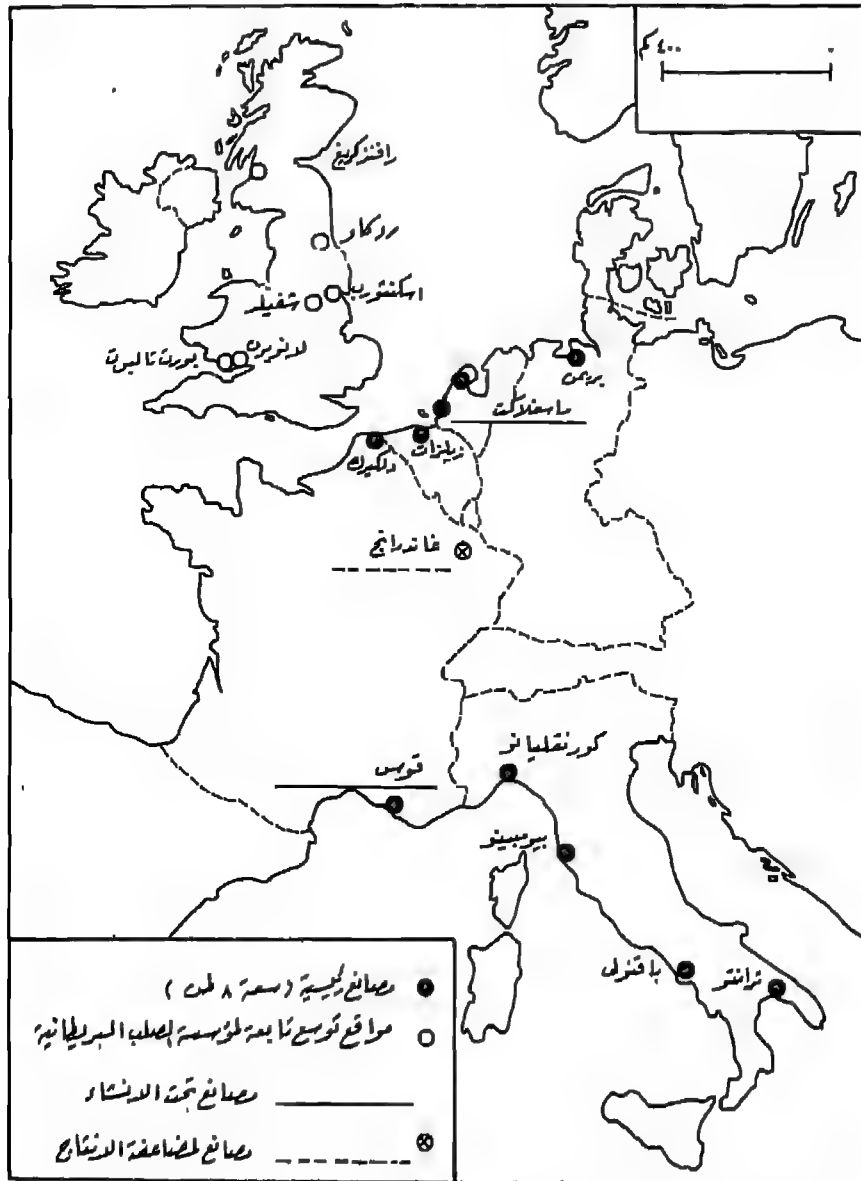
وظهرت المصانع الساحلية (على غرار اليابان) التي تصل طاقتها الإنتاجية إلى ما بين ٨ و ١٠ مليون طن وتغذيها الناقلات الضخمة بالمواد الخام المستوردة من مناطق عدة .. وكانت بريطانيا هي أكثر دول أوروبا استفادة من هذه المواقع ولكن

مشاكل الصناعة البنيوية ومشاكل العمال أثرت في نجاح هذه المصانع الساحلية وازدهارها . وقد تم إنشاء مصانع كبيرة في جنوب ويلز وشمال شرق إنجلترا كما أن هناك مصانع مقترحة لغرب اسكتلندا ويتوقع التوسع في هذا المجال داخل إطار السوق المشتركة ، فإن إصرار الحكومة على استخدام فحم الكوك المحلى ذى التكلفة العالية من حقولها الداخلية كان من الأسباب التى عاقت توسع وأداء هذه المصانع فى الماضى (الشكل ٦٣) .

وتم تشييد مصانع ساحلية فى كل من فرنسا وإيطاليا : فإيطاليا بالذات تعتمد على المواد الخام المستوردة كما أنها تستفيد من وفرة العمال ورخصه فى الجنوب (ميزيغبورنو Mezzogiorno) . أما خطط ألمانيا الغربية فى بناء مصانع ساحلية عند مصب نهر الألب فلم يتحقق حتى الآن (١٩٧٩) كما أن المصنع الموجود فى برمين بعيد مما يعيق تطويره بصورة فعالة . أما مصانع الرور فتعتمد على المواد الخام (الحديد) المنقولة عن طريق الماء من ميناء (روتردام - يروبرت) ، ونسبة لأهمية الأنهار فى نقل المواد الخام والمصنعة فإن المصانع أصبحت تتجمع على شاطئى الراين بينما أخذت مصانع الرور الشرقية تستخدم الصلب الخام من المصانع الساحلية الهولندية فى اجميدن IJmuiden . أما مصانع إقليم سارلورلوكس Saarlorlux (السار - اللورين - لوكسمبرج) الجديد الداخلية فهى فى وضع تستطيع فيه المنافسة فى الأسواق الداخلية . أما فى المناطق الأخرى فقد أخذت المصانع الداخلية الموقع تتخصص فى منتجات فرعية وأصبحت تعتمد على الحديد الزهر والصلب الخام المجلوب من المصانع الساحلية . كما أن هذه المصانع الداخلية أخذت تبتكر وسائل إنتاج جديدة مثل الصناعة النمساوية التى طورت صلب الأوكسجين المعروف بـ LD steel بينما تركز الصناعة السويدية فى إنتاج الصلب الجيد ذى الخصائص المميزة المكتسبة بالوسائل الكهربائية .

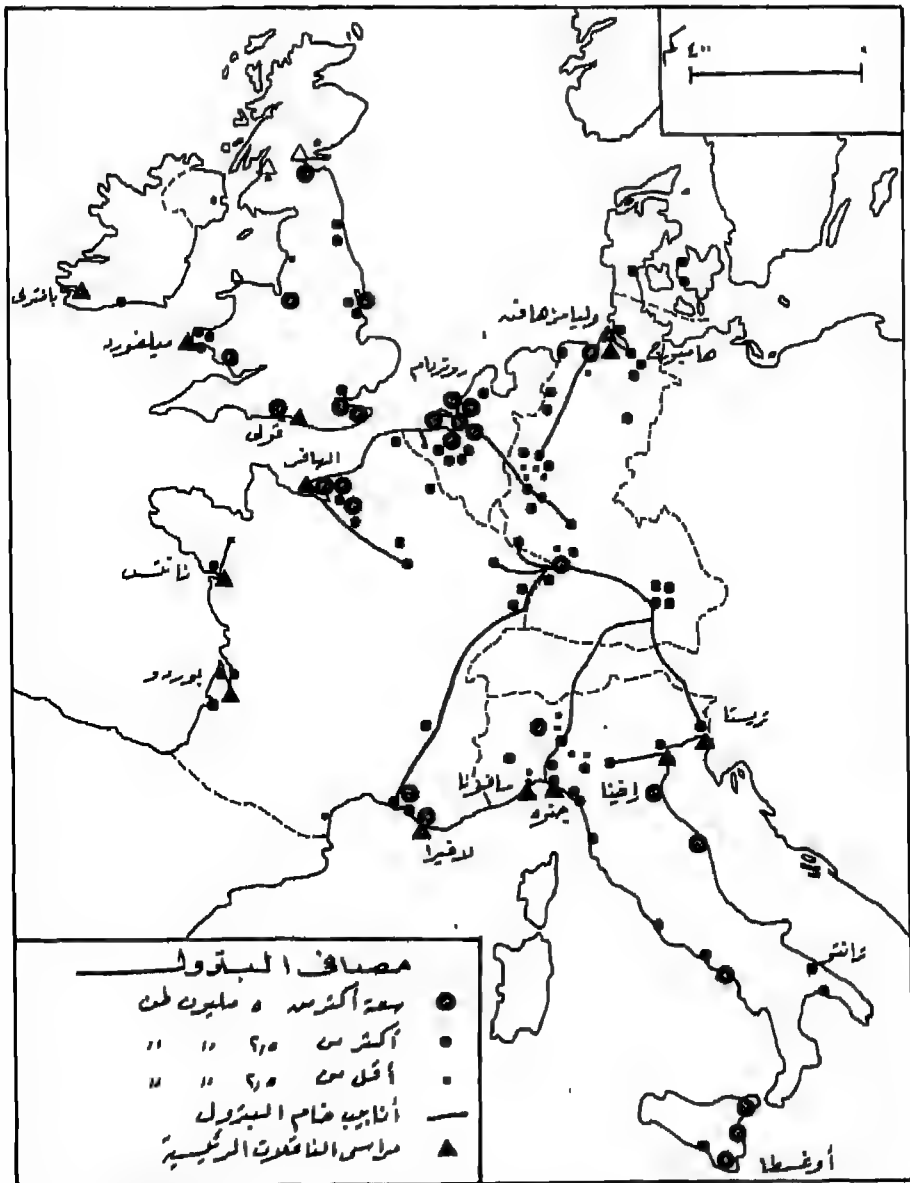
وفى روسيا أعطيت الأولوية لصناعة الحديد والصلب واتبعت نفس السياسة فى دول أوروبا الشرقية . فى الخمسينات شهدت هذه الدول الشرقية إقامة العديد من هذه المصانع دون إعطاء اعتبار لحجم وموارد المواد الخام المحلية . وكانت روسيا

مصانع الصلب الساحلية في السوق المشتركة



شكل (٦٤)

السعة التكريرية للبترول في السوق المشتركة



شكل (٦٤)

لأسباب سياسية - جغرافية تمول هذه المصانع بالفحم والحديد . وهذا الوضع ينطبق على الصناعة في ألمانيا الديمقراطية التي كانت تعتمد قبل الحرب على مصانع تقع الآن في ألمانيا الغربية وبولنده وتفتقر إلى المواد الخام الأساسية . أما في بولنده فقد ظهر المجمع الصناعى الضخم في نووا هوتا Nowa Huta شرق مدينة كراكاو كجزء من سياسة للتصنيع الإقليمى ، كما ارتبط مصنع دونوفاروس Dunajewos في المجر على خام الحديد المستورد من بلغاريا والاتحاد السوفيتى والفحم المحلى كما تم تشييد مصنع في سلوفاكيا يعتمد اعتمادا كليا على الخام المستورد من روسيا وتابع نمط تصنيع مشابه في رومانيا ويوغسلافيا بينما شرعت بلغاريا والبايا في التخطيط لإقامة مصانع جديدة . ومع فقدان سياسة الاتوقراطية معناها ، ومع تبني سياسات تصنيع جديدة ، ظهرت عدم فعالية هذه المصانع .

في الصناعة الكيماوية : - (الشكل ٦٥) .

جلبت التكنولوجيا الجديدة تنوعا في منتجات ، وتطورا شديدا في الصناعة الكيماوية خاصة من خلال تطوير صناعة البتروكيماويات . وتركزت هذه الصناعة في محور نهر الراين ودلتا الراين والماس حيث نمت صناعة تكرير البترول ، كما شهدت السواحل الفرنسية وجنوب إنجلترا تطورات مشابهة بينما توسعت الصناعات الكيماوية غير البترولية في منطقة همبرسايد وشمال شرق إنجلترا . وعاصرت فترة الستينات انتشار الصناعات الكيماوية في أوروبا الشرقية أثر قرار سوفيتى يهدف إلى تطوير وتحديث الصناعة خاصة بعد اكتشاف كميات كبيرة من البترول في حوض نهر الفولجا . أما في أوروبا الشرقية فقد تركز الاهتمام في تطوير وتوسيع وتحديث المصانع الكيماوية الضخمة في حوض الألب والسال في ألمانيا الديمقراطية كما حدث تطور في هذا المجال في بوهيميا وأخذت بولنده تطور وتوسع من المصنع الذى ورثته من الألمان بعد طردهم من سايليزيا . أما بلغاريا ورومانيا والمجر فقد استغلنا المساعدات المالية من دول الكوميكون في تطوير صناعاتها الكيماوية خاصة صناعة الأسمدة والكيماويات الزراعية .

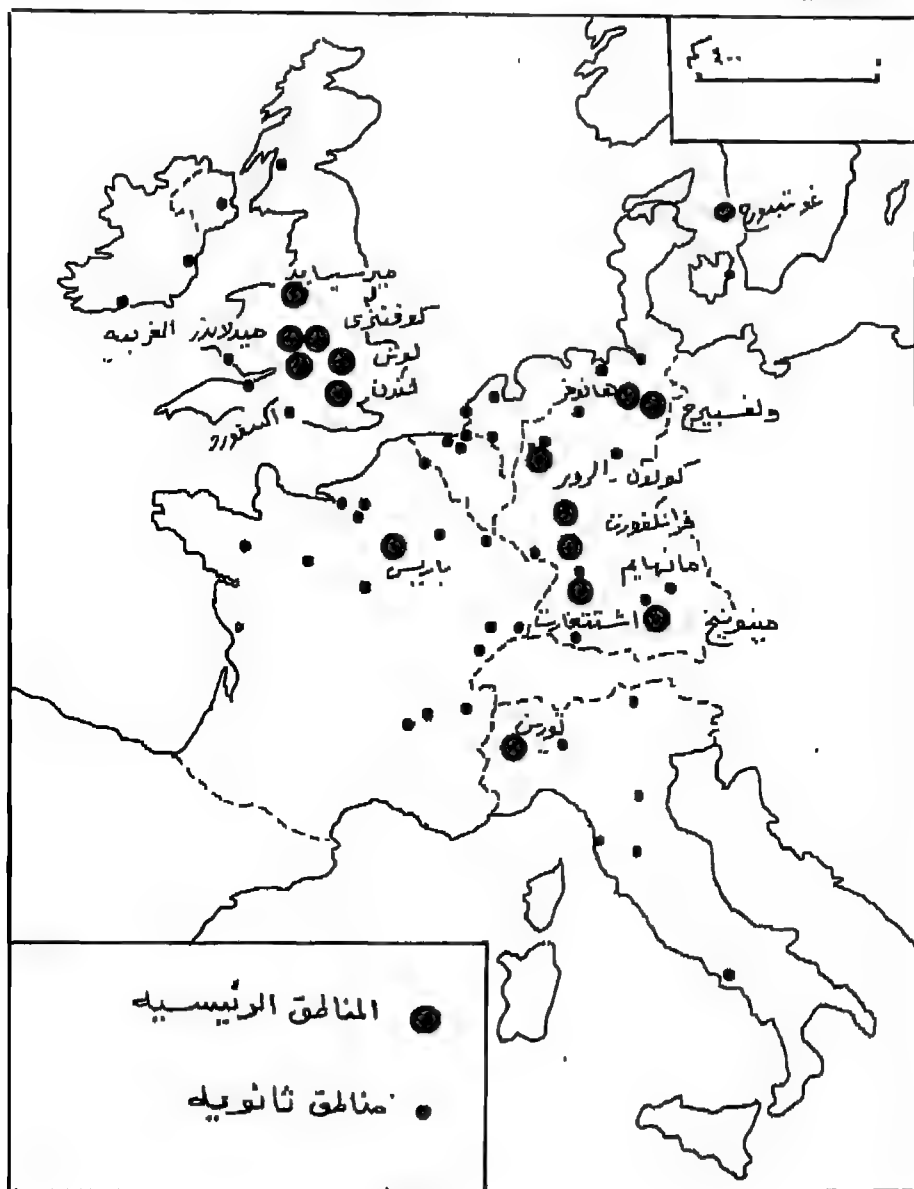
صناعة البضائع الاستهلاكية : -

شهدت الفترة ما بعد الحرب ، خاصة من الستينات فصاعدا ، ثورة تسويقية في غرب أوروبا أثر تزايد الطلب على المواد الاستهلاكية . فبينما أولت أوروبا الغربية اهتمامها للمستهلك الخاص ، أعطت سياسة الاستثمار المخطط في شرق أوروبا الأولوية لقطاعات أخرى ، فالمواد الاستهلاكية المتينة Consumer durables هي عبارة عن مجموعة من مصانع التجميع الحرة غير المقيدة لكنها مرتبطة ببعضها البعض في أغلب الأحيان ، يلعب فيها عامل العمال دورا كبيرا في تكلفة الإنتاج وتحديد موقع المصانع . ولذلك أصبحت إيطاليا في الخمسينات من أكبر الدول المنتجة للمعدات الكهربائية المنزلية مستغلة في ذلك احتياطي العمال الضخم من إقليم الجنوب (ميزوقبورنو) . كما شهدت ألمانيا الغربية نهضة مماثلة في الصناعات الاستهلاكية في الخمسينات مستفيدة أيضا من السكان المطرودين من ألمانيا الديمقراطية آنذاك ولكنها اضطرت بعد عشر سنوات إلى الاستعانة بالعمال الأجانب . ومن أواخر الستينات أجبرت التكلفة المتزايدة للعمال في أوروبا الغربية المنتجين على القيام بدراسة إمكانية الاستفادة من العمال الرخيصين من شبه جزيرة أيبيريا وجنوب أوروبا وحتى من جنوب شرق آسيا (مثل تجميع آلات الكميرا والبضائع الكهربائية من قبل الشركات الأوروبية في تايوان وسنغافورة وأخيرا اليابان) . أما في دول شرق أوروبا فإن التطور في هذا المجال (Consumer durables) كان بطيئا على الرغم من وجود العمال بكميات كبيرة نتيجة إعادة تنظيم القطاع الزراعي على الأسس الاشتراكية الجديدة . ولكن نشأ بعض العلاقات كما في ألمانيا الديمقراطية حيث يتم تجميع بعض القطع الإلكترونية في المجر حيث يتوفر العمال كما أن بولندا تفكر جديا في إنشاء مصانع تجميع لقطع الغيار لبعض الشركات الغربية كوسيلة لكسب العملات الصعبة .

صناعة السيارات : (الشكل ٦٦) :

شمل التغيير أيضا صناعة السيارات التي تعتبر نموذجا لكلاسيكية لصناعة التجميع . فقد شهدت الستينات نموا كبيرا في هذه الصناعة تمثلت أولا في توسيع

شكل ٦٣ : صناعة السيارات في السوق المشتركة



مصانع ما قبل الحرب وثانيا إنشاء مصانع في مواقع جديدة في مناطق تحتاج إلى حوافز اقتصادية (مثلما في منطقة ميرسي سايد Merseyside واسكتلندا في المملكة المتحدة وإقليم بريتاني Brittany في فرنسا وحقول الفحم الرور والساار في ألمانيا الغربية) . كما تم إنشاء مصانع متخصصة في إنتاج عربات ذات جودة في السويد وإنتاج عربات صغيرة في هولنده ، بينما نشأت علاقات جديدة بين شركات تنتمي إلى جنسيات مختلفة (خاصة الشركات الأمريكية) . وتم إقامة مصانع تجميع في الأقطار التي تتمتع بوفرة عمالية مثل أسبانيا ، ويحتمل أن يشمل التوسع في هذه الصناعة تلك المواقع ذات الوفرة العمالية الرخيصة . أما في دول أوروبا الشرقية فصناعة العربات ما زالت على مستوى صغير . ففي ألمانيا الديمقراطية ما زال الإنتاج دون مستوى ما قبل الحرب نتيجة تفكيك المصانع بعد الانقسام كما لم يحدث أى توسع حديثا ، كما حاولت بعض هذه الدول (مثل بولنده والمجر) إنتاج العربات لتغطية احتياجات السوق المحلية ولكن هذه الأسواق وجدت أنها أصغر من أن تبرر إقامة مصانع ضخمة ، ومن ثم اتفقت دول الكوميكون على أن تخصص دول منها في إنتاج أنواع معينة من العربات ثم تغطية احتياجاتها بالتبادل مع الدول الأعضاء أو دول أخرى . وهكذا شرعت بولنده ورومانيا في بناء عربات أجنبية بالترخيص كما فعلت يوغسلافيا في حين أن مصانع تشيكوسلوفاكيا لم تشهد توسعا يذكر بعد الحرب . فأوروبا الشرقية ما زالت تعتمد على روسيا في صناعة العربات والمراكات الروسية (المصنوعة محليا والمستوردة منها) .

انعكس الأسلوب الدولي الجديد للتنظيم الاقتصادي في غرب أوروبا في اتجاهات جديدة في العمل . فقد سعت الشركات في إنشاء فروع لها في دول أخرى وذلك لغرض الاستفادة من وفرة العمال في تلك المناطق أو للنفوذ إلى أسواق أخرى أو حتى للتغلب على حواجز مالية وشرعية . وظهر تعاون كبير على مستوى دولي كما يظهر خاصة في ارتباط الصناعات الثقيلة في مبدأ سارلورلكس المتمثل في المشروع الألماني - الفرنسي المشترك في الصناعات الكيماوية والثقيلة . وقد سعت مثل هذه المشاريع المشتركة إلى تسويق الإنتاج أو الاستفادة من اتجاهات جديدة في موقع المصانع كما يظهر في الدمج بين مصانع دورتمند للصلب ومصانع الحديد الهولندية في

اجميدن ويظهر هذا التعاون المشترك في صناعة طائرات الكونكورد بين بريطانيا وفرنسا وطائرات الهافس الجوى بين دول أوروبية غربية ، وتعتبر هذه المشاريع المشتركة في صناعة الطائرات الطريقة الوحيدة لتحدى السيطرة الامريكية في هذا المجال .

وقد بدأت الخطوة الاولى في مثل هذه التطورات بدخول الرأسمال الأمريكي في الصناعات الأوروبية مثل شركة فورد الأوروبية ومصانعها المنتشرة في بريطانيا وبلجيكا وألمانيا والدمج الذى حدث بين شركة كرايسلر الأمريكية وشركة روتس |Rootes| البريطانية وشركة سيمكا |Simca| الفرنسية الذى لم يخالفه النجاح . وقد كانت إمكانيات أمريكا الضخمة في مجال البحث والتطور العلمى على مستوى العالم من العوامل الأساسية التى أدت إلى سيادتها على الصناعات الألكترونية في أوروبا . فالصناعات الأوروبية التى تمولها الولايات المتحدة تأتى في المرتبة الثالثة من حيث الإنتاج العالمى ، فهذه الشركات ذات الجنسية المتعددة تتميز عادة بحريتها وعدم تقيدها بعوامل الإنتاج ما دامت وحداتها الإنتاجية تنسجم مع نظام إنتاجى متكامل ، وبهذا الشكل لعبت هذه الشركات دورا هاما في مناطق التنمية حيث فرص الربح والكسب مواتية . ونتيجة لهذا يجب تفسير نمط توزيع بعض الصناعات الأوروبية الرئيسية مثل تكرير البترول وتوزيعه في محتوى النشاطات العالمية التى يمارسها أصحاب هذه الصناعات .

أما في أوروبا الشرقية فقد بدأت الشركات الدولية بالارتباط مع الشركات السوفيتية ، خاصة في رومانيا والمجر ، وتطور هذا الارتباط الى تنظيمات مثل المنظمة المشتركة البولندية - المجرية لتسويق الفحم المعروف باسم هادلكس |Hadlex| ، بينما تم الاتفاق مؤخرا بين ألمانيا الديمقراطية والمجر لتجميع القطع الألكترونية الألمانية في مدن إقليم بستا |Pusztai| حيث يتوفر العمال . ومنذ بداية السبعينات أخذت وحدات أكبر حجما وذات صيغة دولية على غرار الشركات الكبيرة في غرب أوروبا تظهر وفق سياسة التكامل الاقتصادى الاشتراكى ليؤدى إلى إنتاج صناعى مشترك ذى فعالية اقتصادية ، ويمثل أول مشروع من هذا النوع مشروع دراسى مشترك بين ألمانيا

الديمقراطية وبولنده وتشيكوسلوفاكيا للمساهمة فى البحث وتطوير وتكلفة إنتاج العربات .

التغيرات فى مجال النقل : (الشكل ٦٧ . ٦٨) .

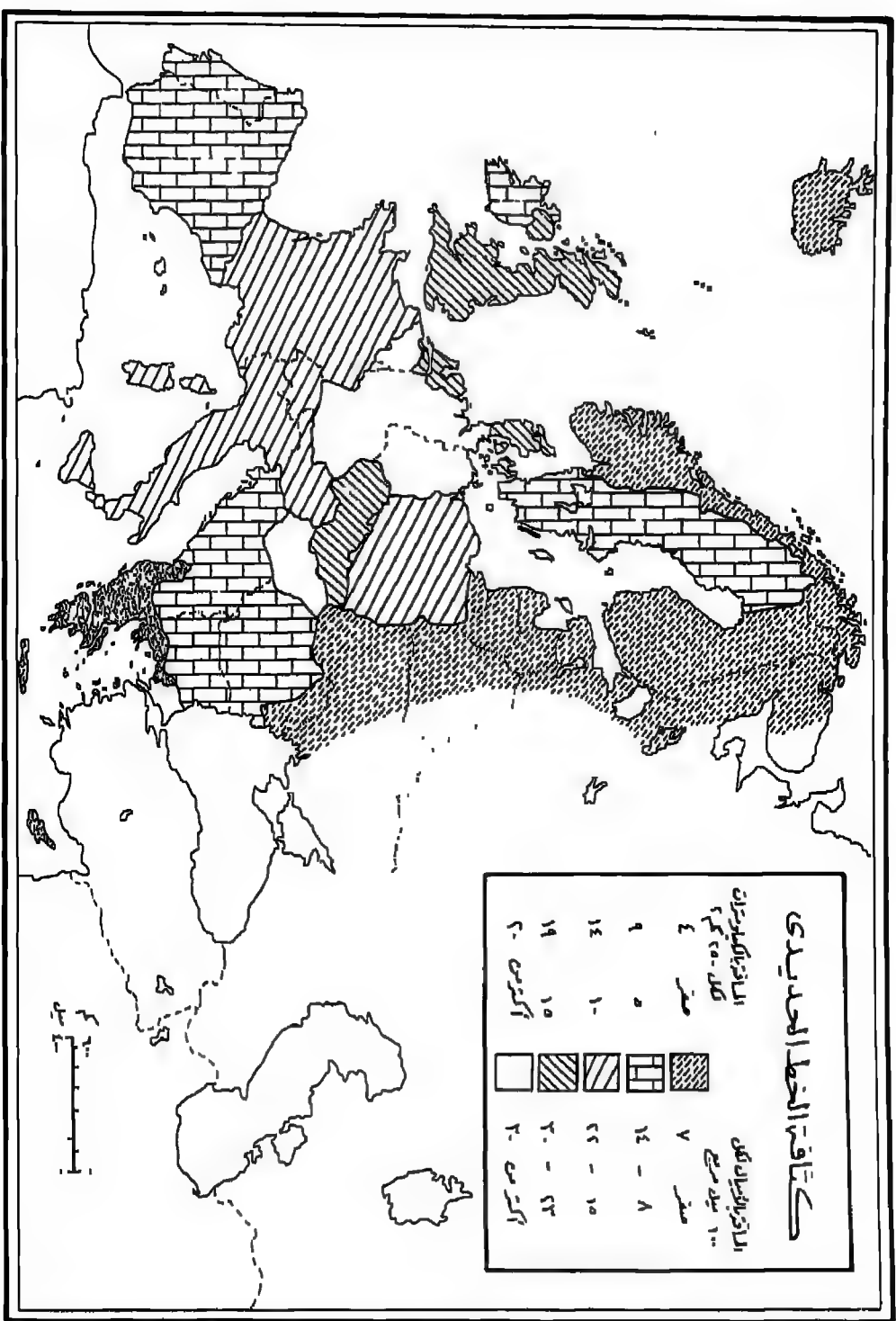
تأثرت أوروبا أيضا بالثورة التى طرأت على وسائل النقل العالمى . وقد ظلت السكك الحديدية فى معظم أجزاء القارة تؤدى وظيفتها كأهم وسيلة نقل فى مجال المسافات المتوسطة كما بذلت قصارى جهدها فى الصمود فى وجه التنافس مع وسائل النقل الأخرى بتطبيق المبتكرات الحديثة من كهرباء وكمبيوترات ، ولكنها احتفظت بمكانتها فى دول أوروبا الشرقية ذات التخطيط المركزى أكثر من دول أوروبا الغربية ذات الاقتصاد الحر . فقد شهدت دول فى غرب أوروبا تقلصا فى طول السكك الحديدية مع إلغاء الخطوط ذات الاستخدام الخفيف . وقد بدأ هذا الاتجاه فى فرنسا وبريطانيا فى البداية ثم فى ألمانيا الغربية فى السبعينات ومن ثم لم يشهد غرب أوروبا إنشاء خطوط جديدة إلا ذلك الخط الذى يربط بودو Bodo فى شمال النرويج وبعض الخطوط الفرعية فى فنلنده وتخطط ألمانيا الع - لتى تحتل موقعا وسطا فى شبكة السكك الحديد الأوربية لإنشاء خط رئيسى جديد على نمط نظام توكيو اليابانى لتخفيف الضغط على الخطوط الفرعية وتسهيل عملية الانتقال . وكان من أسباب الانتكاسة التى عاقت التوسع فى شبكة السكك الحديدية فى غرب أوروبا إلغاء بريطانيا لتفك القناة الانجليزى الذى كان سيربط بين فرنسا وانجلترا ومن ثم باقى أجزاء أوروبا الغربية . ورغم النمو الذى طرأ على نقل البضائع عبر المسافات الطويلة بواسطة السكك الحديدية فإن الأخيرة قد فقدت بضائع المسافات القصيرة للطرق كما أن الزيادة فى نقل الركاب حدثت بالنسبة للمسافات وأيضاً فى حالة المسافرين يوميا بين الضواحي ومراكز العمل داخل المدن . وقد قتلت المنافسة الجوية كثيرا من قطارات السفريات الدولية مثل قطار الشرق الشهير .

أما سكك حديد أوروبا الشرقية فقد بقيت دون تحدى حتى الستينات كما شهدت دول أوروبا الجنوبية الشرقية اضافات فى خطوطها مثل الخط الرئيسى الذى يربط بين مدينتى بلغراد وبار فى يوغوسلافيا ، وعدة خطوط جديدة فى ألبانيا وبلغاريا

ورومانيا . وقد ادت ارتباطات جغرافية - سياسية جديدة إلى بناء خطوط جديدة مثل خط برلين - روستوك المقترح في ألمانيا الديمقراطية وبعض الفروع المفقودة داخل بولنده . وتحت تأثير السوفيت خططت السكك الحديدية أساسا لنقل البضائع كما يوجد نظام خاص لتسهيل الانتقال بين الخطوط ذات العرض العادي السائدة في دول شرق أوروبا وبين الخطوط السوفيتية العريضة . وهناك شبكة تتكون من عربات نيم تشع من موسكو إلى شرق وحتى غرب أوروبا .

منذ عام ١٩٤٥ شهدت أوروبا الغربية نموا ضخما في حركة الطرق بينما عاصرت أوروبا الشرقية تطورا كبيرا أيضا في هذا المجال ابتداء من نهاية الخمسينات . وقد أدت الاستثمارات الضخمة إلى بناء شبكة ضخمة من الطرق الرئيسية (Autobahn Motorways) في أوروبا الغربية خاصة في حوض نهر الراين وإيطاليا حيث تصل كثافة الطرق أشدها بالمقارنة مع اسكندناوه وإيريا حيث تقل الكثافة . وصاحب إنشاء الطرق بناء عدد من الأنفاق عبر جبال الألب . وقد لعبت هذه الطرق الجديدة دورا هاما في انتشار الصناعات الحرة الى المناطق الريفية كما أدت الزيادة في عدد السيارات إلى ازدحام رهيب في المدن التي شهدت استثمارا على أعلى مستوى في حركة وهندسة المرور .

لم تشهد أوروبا الشرقية بناء طرق رئيسية جديدة رغم الشروع في مشاريع بناء متواضعة في الستينات كما تم ربط المناطق الريفية بطرق عادية بالمناطق التي تمر بها خطوط رئيسية . ورغم هذا البطء في تشييد طرق شهدت بعض دول المنطقة زيادة كبيرة في النقل عبر الطرق كما أن ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وأجزاء من بولنده جيدة . وحدثت الزيادة في حركة الطريق بالنسبة لنقل المواد الغذائية سريعة التلف من دول جنوب شرق القارة إلى وسط وغرب القارة ، كما أن اللواري والشاحنات تعمل بانتظام بين دول أوروبا الغربية وتركيا ودول الشرق الأوسط وحتى إيران وباكستان . ومن أهم خصائص هذا التطور الضخم في بناء الطرق وزيادة العربات تلك العبارات التي تربط بين الجزر وأشباه الجزر .



وهناك تفاوت كبير في أهمية النقل المالى بين اقليم وآخر . فقد شهدت بريطانيا منذ عام ١٩٤٥ تقلصا متزايدا في أهمية القنوات والأنهار بينما لم تكتسب الطرق المائية الداخلية أهمية تذكر في أيرريا وإيطاليا واسكندناوه . وعلى الرغم من ذلك احتفظ حوض الراين بأهميته الملاحية كما طورت وسائل أكثر فعالية مثل زوارق الدفع لضمان خدمات أكثر سرعة وأكثر فعالية من الناحية الاقتصادية ، كما تغيرت حركة أيضا إذ قل نقل الفحم والبترو (بعد مد أنابيب البترول) . وكان لنمو وتطور السوق الأوروبية المشتركة دور هام في نجاح ممر نهر الراين المالى وملحقاته من القنوات بما شجع حفر قنال الراين - الدانوب ، وظهور مقترحات حول ربط الراين ونهر الماس وقنال الراين - سار . وقد أدى تقسيم ألمانيا إلى شطرين وتمزيق حوض نهر الألب بين المعسكرين الغربى والشرقى إلى بناء قنال ألمانية غربية تربط نهر الألب والقنال الأوسط (Mitteland Canal) ، واقتراح ألماني شرقى آخر لحفر قنال من نهر الألب إلى ميناء روستوك . وشجعت الأهمية المتزايدة لمجارى نهر الراين العليا حتى مدينة بال الحكومة السويسرية إلى تبني اقتراح لجعل النهر صالحا للملاحة إلى بحر بودن وحفر قنال يربط الراين بنهر الرون عن طريق بحيرة جنيف .

تحت تأثير مشاريع تطوير الملاحة في الممرات المائية الداخلية في الاتحاد السوفيتى وضعت خطة في الخمسينات في أوروبا الشرقية لربط الأنهار الشمالية والجنوبية مع بعضها البعض وذلك بتنفيذ قنال الألب - الأودر - الدانوب المقترح ، كما اقترح أيضا توصيل الأنهار الشمالية وخاصة من فستولا إلى الدينبر ، ثم تحسين بعض الأنهار للملاحة مثل فستولا وسال . وكان بناء قناطر على الدانوب عند البوابة الحديدية لرفع منسوب الماء لغمر الجنادل التى كانت تعترض الملاحة هنا هو أولى الخطوات لتحقيق تلك الأهداف . وترك مشروع لحفر قنال عبر نهر دوبرويا (Dobruja) بغرض تقصير الرحلة بين الدانوب والبحر الأسود . وما زالت إمكانيات نهر الدانوب الملاحية غير مستغلة مثلما نجد في نهر الراين كما لا نجد مشروعا مشتركا لتطوير نهر الدانوب على غرار هيئة وادى تينسى في أمريكا أو مشروع فولجا الكبير في روسيا .

كانت للثورة التى حدثت في وسائل النقل البحرى نتيجة أزمة حزب السويس في

” الخمسينات آثار كبيرة على غرب أوروبا حيث أخذت ناقلات النفط الضخمة والشاحنات تؤثر في تحديد موقع المصانع . وقد ساعدت السوق المشتركة بعلاقاتها الدولية الواسعة في تسهيل حركة هذه الناقلات الضخمة بتركيز الجهود في تجهيز موانئ مناسبة لاستقبال هذه السفن كما في ميناء روتردام - يروبرت أو في خطط الحكومة الفرنسية لإنشاء رصيف تفريغ لما يعادل مليون طن من النفط في بريتانى .

أما بالنسبة لدول شرق أوروبا فإن هذه الثورة في وسائل النقل البحرى كانت أقل اثرا لاهتمامها القليل بالتجارة البحرية . ويمكن أن نعزو السبب جزئيا إلى قلة الموانئ الكبيرة التى تستقبل السفن الضخمة خاصة من بين الموانئ المطلة على بحر البلطيق والبحر الأسود ، رغم أن الوضع بالنسبة للساحل الادرياتي أفضل ويتيح التطور والتوسع في هذا المجال . وقد سعت دول الكوميكون في تطوير وتنمية أساطيلها البحرية المتخصصة في نقل البضائع العامة ، وتحتل روسيا وبولنده وألمانيا الديمقراطية إلى حد ما مركزا لا بأس به في سوق سفن الشحن غير النظامية .

أما الكمية المتزايدة من النفط والغاز الطبيعى فيتم نقلها بواسطة الأنابيب التى يمكن أن نميز منها نمطين رئيسيين : -

١ - أنابيب تنقل البترول من أماكن التفريغ الرئيسية إلى المصافى الداخلية ومراكز التوزيع .

٢ - شبكة أنابيب داخلية (معظمها لنقل الغاز الطبيعى) تمتد من مناطق الإنتاج إلى أماكن الاستهلاك (كما في هولنده وشمال ألمانيا ومن بحر الشمال إلى إنجلترا) .

كما أن هناك شبكة أخرى كبيرة تحت التنفيذ لربط مناطق إنتاج الغاز الطبيعى والزيت الخام الموجودة تحت بحر الشمال إلى مناطق تفريغ على الساحل .

أما بالنسبة لنقل الركاب فقد شهدت الخمسينات تحولا كبيرا في حركة الركاب من السفن البحرية (خاصة عبر الأطلسى) إلى الطائرات كما شهدت السفريات الداخلية تطورا كبيرا ، لما تقدمه الرحلات الجوية من راحة وكسب للوقت ، خاصة

لرجال الأعمال ، ولأنها أيضا تساعد في التغلب على مشاكل عبور الحدود والصعوبات التي يتعرض لها الركاب المواصلون كما بين ألمانيا الغربية وبرلين الغربية . وتعمل الشركات الحكومية والخاصة في تقديم الخدمات (خاصة في نقل السواح من بلد لآخر بالنسبة للشركات الخاصة) ونظرا لأهمية أوروبا في مجال حركة الطيران ، فإن لكل دولة تقريبا مطارا دوليا على مقربة من العاصمة (باستثناء ألمانيا الغربية) رغم أن السفريات الدولية يمكن أن تتم من مطارات أخرى . ويتم ثلاث أرباع حركة الطيران الأوروبية عن طريق مطارات لندن وباريس وفرانكفورت وروما وكوبنهاجن وشيول (امستردام) وثلاثها عن طريق مطار هيثرو بلندن . كما أن الشحن الجوي قد شهد تطورا كبيرا مما يزيد من أهمية المطارات التجارية ، فطائر هيثرو يعتبر من حيث قيمة البضائع المشحونة عن طريقه ميناء بريطانيا الثاني . وقد جذبت المطارات بعض الصناعات المتعلقة بالشحن الجوي مثل مطار شانون في أيرلندا الذي تحول إلى منطقة تجارة حرة ، كما أن حركة السواح تتركز في مطارات معينة مثل مطار لوتن في إنجلترا . وبالملا مايوركا في أسبانيا .

وضع المزارعين في أوروبا الجديدة : - (الجدول ١٧) .

في عالم يهتم بمصادر المواد الغذائية وفي وضع أصبح تأمين مصادر دائمة للغذاء من الأولويات الأساسية . تميزت سنين ما بعد الحرب مباشرة في أوروبا بالنقص في المواد الغذائية خاصة في المدن نتيجة للأسباب الآتية : -

- ١ - القمع والاضطراب الذي أصاب توزيع ونظم التسويق المألوفة .
- ٢ - إبادة الحيوانات وقتلها لسد النقص في المواد البروتينية .
- ٣ - نقص العمال الزراعيين نتيجة تجنيد الشباب في الجيش المقاتل وتكريس معظم الطاقات البشرية في مجال الحرب .
- ٤ - طرد وهروب السكان الزراعيين من مناطق عديدة أثناء وبعد الحرب مما أثر في الإنتاج الزراعي .

وكان سكان الريف الزراعيين في وضع اقتصادي قوى في البداية كمنتجين للمواد الغذائية ، ولكن مع احياء الصناعة وتطورها شهد هؤلاء المزارعون انخفاضا

في مستواهم المعيشي بالمقارنة مع سكان الحضر والصناعيين . وفي الخمسينات أخذت النقائص التركيبية للزراعة في غرب أوروبا تظهر بوضوح مثل : عدم الكفاءة الإنتاجية الناتجة من الوحدات الزراعية الصغيرة ونظم التأجير البالية ونقص الرأسمال لتطوير الزراعة وتنميتها وكثرة المشتغلين بالزراعة والمعتمدين عليها كمصدر دخل أساسي أو كلي . ولم تجد إدخال المكينات الحديثة أو تطبيق الوسائل العلمية الحديثة في رفع الإنتاج وتطوير النظم الزراعية بما أدى أخيرا إلى هروب وهجرة متزايدة من الريف إلى المدينة ومناطق الصناعة ، كما شهدت الخمسينات التخلل عن الأراضي الهاشمية وحتى عن بعض الأراضي الزراعية الجيدة حول بعض المراكز الصناعية بينما أدت السياسة الزراعية إلى رفع أسعار بعض المواد الغذائية وزيادة في الإنتاج صعب تسويقها . أما دول شرق أوروبا فقد شهدت تعسرا مماثلا نتيجة تطبيق النظام الزراعي السوفيتي من جماعية ومزارع الدولة مما أدى إلى انخفاض كبير في الإنتاج الزراعي ، بينما أدت سياسة التصنيع والتحضر في بعض الدول مثل بلغاريا إلى جذب أعداد ضخمة من السكان من الريف إلى المدينة في وقت قصير ، كما انعكست بعض الأوضاع الناتجة من سوء الإدارة الاقتصادية ومقاومة الفلاحين لسياسة التجميع في أزمت سياسية طاحنة كما حدث في بولندا والمجر في عام ١٩٥٦ . ومن ثم اتجهت الدول الاشتراكية إلى إيجاد حلول تناسب وظروف بلادهم الاقتصادية والاجتماعية بدلا من التطبيق الأعمى للنظام الروسي ، ولكن لم يحدث ذلك إلا بعد ارتداد يوغسلافيا في عام ١٩٤٨ .

وهكذا بقيت الزراعة أكثر المشاكل الاقتصادية تعقيدا في أوروبا ما بعد الحرب سواء في نظام الاقتصاد الحر الغربي أو نظام التخطيط المركزي السائد في الدول الاشتراكية . وقد قل نصيب الزراعة في الاقتصاد الوطني وانخفض عدد المشتغلين بها ، كما تغير الريف بصورة لم يشهد لها مثيل خلال القرنين السابقين ، وأصبحت معادلة مستوى المعيشة في المدينة بتلك السائدة في الريف وتقليل التفاوت بينهما تكتسب أهمية في تخطيط كثير من الدول الأوروبية ولكن بنجاح محدود . ففي الدول الشرقية لم تتحمس الحكومات في تحويل رأس المال القليل من الصناعة إلى الزراعة ، لم تول دول الكوميكون اهتماما يذكر للزراعة بل تركت كل دولة تبحث عن

الحلول لمشاكلها الزراعية لوحدها . أما في غرب أوروبا فقد ثبتت السوق المشتركة سياسة زراعية ذات طابع جماعى وذلك عن طريق إيجاد ما يسمى بالسياسة الزراعية العامة Common Agricultural Policy بغرض منح المزارعين أسواقا مضمونة لتسويق منتجاتهم وأسعارا معقولة لهم دون أن يتحمل المستهلكون أو يعانون من ارتفاع اسعار الطعام . ولكن هذه السياسة هي مصدر خلاف بين بعض الدول الأعضاء كما أنها لم تحقق أهدافها بعد ، كما أن الزراعة تحتاج إلى تحسينات وتطورات كثيرة من ناحية تركيبها . فهي في بعض الحالات قد أدت إلى استفحال وتفاقم الوضع إلى درجة أن بعض الأعضاء يدفعون تكاليف مرتفعة ، وفي وجه تكاليف الدعم المتصاعدة تم تبني اقتراحات جذرية لخلق صناعة زراعية تتصف بالمعقولة ، ولكن بعض هذه المقترحات قاسية إلى درجة أن قبولها من الناحية السياسية في بعض المناطق الزراعية سيكون أمرا صعبا . وكل هذا أدى إلى دائرة مفرغة من الجمود من أبرزها أثر سياسة الحماية التي تتمثل في إقامة الحواجز التي تعرقل التجارة في المواد الغذائية بين شرق وغرب أوروبا ، وتمزيق النمط التجارى القديم مع استراليا وأمريكا الشمالية .

الجدول ١٧ : القوى العاملة في الزراعة ١٩٥٠ - ١٩٧٤ في دول

السوق التسع

نسبة العاملين في الزراعة %

| الدولة | ١٩٥٠ | ١٩٥٨ | ١٩٦٥ | ١٩٧١ | ١٩٧٢ | ١٩٧٤ |
|-------------------|------|------|------|------|------|------|
| بلجيكا | ١١٣ | ٩٠ | ٦١ | ٤٤ | ٤٢ | ٣٧ |
| فرنسا | ٢٨٣ | ٢٣٠ | ١٧٠ | ١٣٢ | ١٢٩ | ١٢٠ |
| ألمانيا الاتحادية | ٢٤٧ | ١٥٠ | ١١٠ | ٨٣ | ٧٨ | ٧٣ |
| إيطاليا | ٤١٠ | ٣٣٠ | ٢٤٧ | ١٨٩ | ١٨٢ | ١٦٦ |
| لوكسمبورج | ٢٤٠ | ١٧٠ | ١٣٥ | ١٠١ | ٩٣ | ٦٦ |
| هولنده | ١٤١ | ١٢٠ | ٨٠ | ٦٩ | ٦٩ | ٦٦ |
| المملكة المتحدة | ٥١ | ٤٠ | ٣٢ | ٣٠ | ٣٠ | ٢٨ |
| الدنمارك | -- | ٢٢٠ | - | ١٠٩ | ٩٨ | ٩٦ |
| جمهورية أيرلنده | ٣٨٠ | - | - | ٢٦٩ | ٢٥٧ | ٢٤٣ |

ملحات مختصرة عن بعض الدول الأوروبية : -

على الرغم من الاختلاف المذهبي الذى برز بعد عام ١٩٤٥ وظهور كتلتين متناوئتين والذى كان سببا فى تحطيم أى أمل لحل أوروبى موحد لمشاكل القارة ، بقى مفهوم الوحدة الأوروبية حيا فى أذهان الكثيرين من قادة هذه الدول ، خاصة فى غربى أوروبا ، وكانت النتيجة أن ظهرت منظمات اقتصادية تعمل جاهدة ، ضمن الإطار الجغرافى -- السياسى الحالى . فى أحداث تغيير فى الإطار الوظيفى الإقليمى لفرض البحث عن مجالات وأسس جديدة للتعاون المثمر المعقول بين الدول . وفى الصفحات التالية سنحاول التطرق لهذا الموضوع فى إطار المنظمات المختلفة ...

(١) السوق الأوروبية المشتركة : - (الجدول ١٨) .

حسب اهدافها المعلنة فى معاهدة روما وميثاقها تحتل منظمة السوق الأوروبية وضعاً ممتازاً لترجيح قوى التغيير المتقلبة الموجودة فى غربى أوروبا . وقد ولدت المنظمة تحت تأثير الخوف من زحف النفوذ السوفيتى للغرب . وظهور الاعتقاد بين اعضائها بان الارتباط الوثيق والتعاون المشترك بينهم هو افضل وسيلة للتغلب على قوى النشئت المتصارعة التى جلبت الدمار وويلات الحروب على القارة مرتين خلال ربع قرن ، والادراك المبرر بان المكانة الاقتصادية والسياسية لدول أوروبا الرئيسية قد تضاءلت امام القوتين العظميين ، ثم الشعور بان مواجهة التحديات التكنولوجية والسياسية الجديدة تتطلب تعاوناً أكثر بينهم . فبينما كان هناك اتفاق مبدئى بين دول غربى أوروبا على التخلي عن السياسة الاقتصادية القومية التى انتهجتها كل دولة قبل الحرب فى سبيل تعاون أكثر فى مجال التجارة والتكنولوجيا ، لم تخف بعض الدول هواجسها من الالتزام بمبدأ الوحدة السياسية الرسمية . فقد عانت ألمانيا الغربية وفرنسا ودول البنلوكس (لوكسمبورج وهولندا وبلجيكا) وإيطاليا من فقدان الثقة من النمط السياسى السائد أكثر من بريطانيا ، بينما آثرت اسكتلندا وسويسرة الاحتفاظ بجيادها التقليدى والبقاء خارج أى تجمع سياسى كبير . أما فى فنلندا والنمسا فقد منعت ظروف سياسية من اشتراكها فى الوحدة السياسية المرتقبة بينما لم تحد أيريا بنظام حكمها الدكتاتورى ترحيباً بين الدول الأخرى .

جدول ١٨ : الجدول النسبي للموارد الاقتصادية ١٩٧٣

| الولايات المتحدة | روسيا | المملكة المتحدة | دول السوق الست | دول السوق التسع | |
|------------------|--------------------|-----------------|----------------|-----------------|------------------------------------------------------------|
| ٩١٠٠ | ٣٥٠٠٠ | ٢٤٤ | ١١٧٢ | ١٥٢٩ | المساحة (١٠٠٠ كم ^٢) |
| ٢١٩ | ٢٥٥ | ٥٥ | ١٨٣ | ٢٦٠ | السكان بالملايين (١٩٧٥) |
| ٤٦٠ | ٧ | ٢٣٤ | ٢٥١ | ٢٤٦ | العربات لكل ١٠٠٠ شخص ١٩٧٣ |
| ١٣٩ | ١٣١ | ٢٧ | ١٢٢ | ١٥٠ | انتاج الصلب (مليون طن) ١٩٧٣ |
| ٧٢٣ | ٥١٦ | ٤٦٠ | ٥٤٢ | ٥١٦ | استهلاك الصلب الفردي (كغ) ١٩٧٣ (مقدرا) |
| ١١٤٤٠ | ٥٠٠٥ | ٥٤٩٦ | ٤٧٩٧ | ٤٩٥٠ | استهلاك الطاقة الفردي (بما يساوى أطنان الفحم) ١٩٧٣ |
| ٢١٤ | ١٧٠ | ١٥ | ٧٥ | ٩٧ | انتاج الحبوب (مليون طن) ١٩٧٢-٧٠ |
| ٢٤ | ١٤ | ٣ | ١٤ | ١٩ | انتاج اللحم (مليون طن) ١٩٧٣ |
| ٨٠٨ | ٠٠٧ | ١٠٩ | ٨٠٥ | ١٠٠٥ | انتاج العربات (بالملايين) ١٩٧٣ |
| ٥٧٠٠٠ | ١٤٠٠٠ | ٢٤٣٧٤ | ١٣٦٩٠٨ | ١٦٧٩٣١ | الصادرات (بالملايين الدولارات) ١٩٧٣ (مقدرا) |
| ٥٨٨ | معلومات غير متوفرة | ١٠ | ٤٥٩ | ٥٧٨ | انتاج البترول الخام المكرر (ملايين الأطنان) ١٩٧٣ |
| ٥٣٧ | ٤٩٩ | ١٣٠ | ١٤٠ | ٢٧٠ | انتاج الفحم (ملايين الأطنان) ١٩٧٣ |
| ١٠٣٨ | معلومات غير متوفرة | ١٣٨ | ٦٧٠ | ٨٣٥ | الانتاج المحلي الاجمالي ١٩٧٣ (١٠٠٠ مليون وحدة السوق UA) |
| ١٤٩٩ | ١٧٠٤ | ٣٠٢ | ٣١٣٣ | ٦٥٠٧ | الاساطيل التجارية (ملايين الاطنان) ١٩٧٣ |

أما منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي التي أنشأ بغرض المساعدة في تطبيق مشروع مارشال الأمريكي بصورة فعالة فكانت بمثابة مفتاح للتعاون الدولي مما اتاحته من فرصة لاكتساب التجربة في دراسة المشاكل الأساسية وجمع الحقائق وتنسيق النشاطات المختلفة بين الأعضاء الأربعة عشر الأصليين (والذين زاد عددهم إلى ثمانية عشر فيما بعد) . ولقى موضوع ضم ألمانيا إلى مجموعة الأمم الأوروبية بدون الغاء بين الاحتلال ترحيبا بين الدول من حيث المبدأ . ثم انشأت هيئة الرور الدولية (International Ruhr Authority) لتنظيم الصناعة الألمانية الثقيلة وكذلك حلف شمال الأطلسي لأغراض الدفاع وأيضا تأكيد مفهوم الوحدة الجغرافية - السياسية لدول شمال الأطلسي . وقد انعكس عدم تبلور مفهوم واضح لأوروبا ووحدها وأسس هذه الوحدة في تلك التنظيمات التي ظهرت (مثل وحدة أوروبا الغربية West European Union والمجلس الأوروبي Council of Europe) التي انتهت أمام التناقضات والارتباكات الناتجة من التجارب المختلفة والارتباطات الدولية (المكانية) والقومية التي تسلب القارة من توجيه مركزي سليم .

يمكن اعتبار « منظمة الفحم والصلب الأوروبية أول منظمة عملية ذات فعالية يتم انشاؤها في أوروبا بغرض تقاسم سوق الفحم والصلب على أسس عادلة وعقلنة الإنتاج لسد الطلب الشديد لهاتين البضاعتين . كما أنها كانت تنظيما مثاليا لاجتذاب ألمانيا إلى داخل مجموعة الشعوب الأوروبية تحل المنظمة في محل هيئة الرور الدولية ، ثم تخفيف حدة التوتر بين فرنسا وألمانيا حول حقول الفحم ومصانع صلب إقليم السار . كما ساعدت المنظمة في الاعتراف بمفهوم إقليمي عملي جديد يمكن اعتباره أساسا أوليا في تطور منظمة اقتصادية أوروبية ، ويتمثل هذا المفهوم في « المونتاندراييك Montandrieick الذي يضم مثلث الصناعات الثقيلة في الرور - سارلورلكس - سينلكس .

في بداية الخمسينيات ومن أهداف وإنجازات منظمة الفحم والصلب تبلورت نواة وحدة سياسية واقتصادية أكثر شمولاً وتكاملاً وكان من أبرز دوافعها الشعور عند كثير من الدول بأن أية مواجهة بين القوتين العظميين ستكون على حساب

أوروبا . ومن ثم كانت الرغبة في جعل أوروبا « قوة ثالثة » تستطيع التصدى والوقوف أمامها . وقد سعت الدول الستة بحدية لتحقيق هذه الأهداف وأخيرا توجت مساعيهم بإنشاء السوق الأوروبية المشتركة وفق معاهدة روما (١٩٥٧) . وربما كان لعدم مرونة المعاهدة دور في عدم انضمام دول أخرى إلى السوق . ولو كان هنا تبرير لهذه الصرامة بأن قوانينها صيغت في ظروف سياسية مختلفة فإن الدول المعارضة كانت تفضل سياسة أكثر مرونة واتجاه طريق أكثر بطئا لاي اتحاد سياسى واقتصادى بين دول غربى أوروبا .

وقد ساعدت مؤثرات جغرافية في تدعيم الاعتبارات الاقتصادية والسياسية في تحديد اعضاء السوق المشتركة الاصلين الذين جمعهم وربطت بينهم تجربة « المونتاندرائيك » المشتركة ذات الصبغة الدولية . وقد وجدت المنظمة بإبعادها السياسية والاقتصادية الجديدة وضعا جغرافيا مناسبا حول حوص نهر الراين وممراته المائية وحول المصالح الإقليمية المشتركة لفرنسا ودول البنلوكس والمانيا الغربية . اما ايطاليا فقد جذبها إلى المنظمة وضعها المنعزل في جنوب اوربوا بين ايريا الدكتاتورية والنفوذ السوفيتى المتزايد في البلقان . بينما أثرت بريطانيا البقاء بعيدة منها نظرا لارتباطاتها الدولية . خاصة مع دول الكمنولث . ولأن موقعها الساحلى بعيدا من التجربة المشتركة لتلك الدول اثناء فترة انبعاث القومية الاوروبية جعلها في معزل من تلك الاحداث . فقد شعلتها مشاكل امبراطوريتها المترامية الاطراف عن شئون القارة لأكثر من قرين واعتقادها بأن هذه الارتباطات والعلاقات ستكون في درجة من القوة والمثانة للابقاء على مكانتها الدولية بين هذه المجموعة المتنافرة من الاقاليم الاوروية . وقد برهنت الاحداث خطأ هذا الاعتقاد مما اضاع على بريطانيا فرصة الانضمام للسوف ابان انشائها . فقد ظهرت الحقيقة المره مؤخرا في وقت غير موات : فكان انضمامها اخيرا وسط موجات الاحتجاج من اعضاء الشعب واعتراض فرنسا ثم مشاكل السياسة الزراعية الغامة بعد انضمامها والتي تم حلها بعد اجتماعات عاصفة لصالحها

وسنقوم الآن بدراسة موجزة للدول الأعضاء في السوق المشتركة لكي نقف على اسهاماتها تجاه السوق والميزات والمشاكل التي نجمت عن هذا التآلف الإقليمي

(١) ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الغربية)

تمثل ألمانيا الاتحادية أغنى دول المنظمة الآن (السبعينات) رغم أن الأحوال الاقتصادية لم تكن بهذا المستوى الجيد عند إنشاء السوق المشتركة (١٩٥٧). وكانت ألمانيا من أكثر دول المنطقة حماسا لفكرة التعاون الأوروبي وإنشاء السوق لعدة أسباب نذكر منها :

(١) كان تحقيق مجموعة اقتصادية دولية تعنى التخلص من وضعها الاحتلال ومن قوانين الاحتلال والتقييدات الناجمة من ذلك .

(٢) مع إعادة بناء الاقتصاد الألماني بعد الحرب فإن التوسع المرتقب في الأسواق لقي ترحيبا من قبل الألمان .

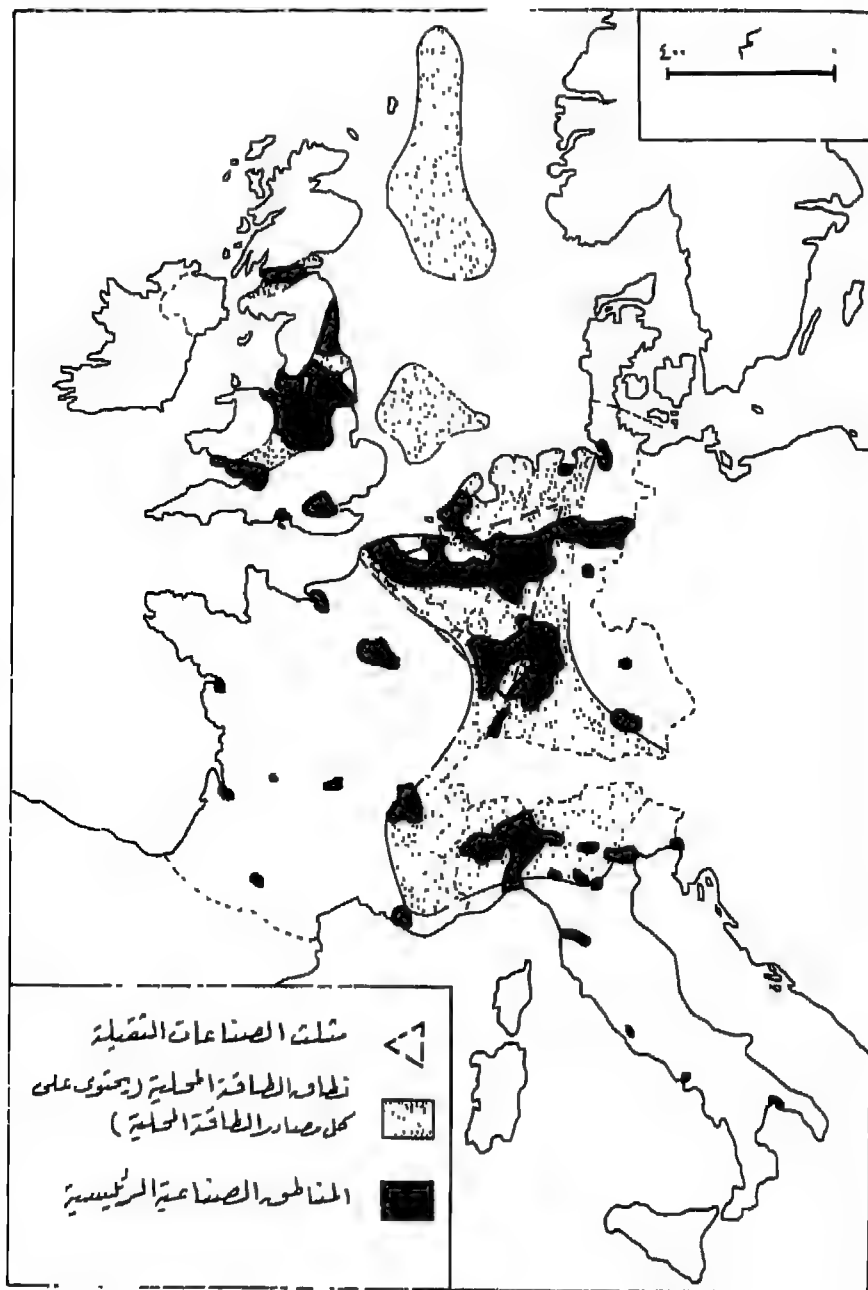
(٣) كانت الصناعة الثقيلة الألمانية مهمة في التطور والنمو الاقتصادي لدول المنطقة كما أنها تمثل حجر الزاوية في مشروع المونتاندراييك .

(٤) كانت الوحدة الأوروبية تعنى للألمان وضع حد للعداء الفرنسي - الألماني وحل مشكلة الضم القسري لإقليم سار Saar لفرنسا .

(٥) كما أن الوحدة ستؤدي إلى التخفيف من إزالة الضغوط الخارجية خاصة تلك التي تتعلق بالمطالب الإقليمية من قبل دول البنيلاكس على الأراضي الألمانية .

من أهم قوانين السوق المشتركة الذي كان له الأثر البعيد على ألمانيا ذلك الذي يتعلق برفع القيود على حركة الانتقال بين الدول الأعضاء : فقد استفادت موانئ دلتا نهر الراين واكتسبت أهمية كبرى كبؤرة للحركة نتيجة رفع القيود على الانتقال عن طريق تحديد حق الدول في استخدام الوسائل التشريعية والمالية لتوجيه الحركة لمصلحتها القومية غير أن موانئ ألمانيا الشمالية عانت من هذا الإجراء وفقدت الكثير من حركتها التجارية كما أن جاذبية الموقع بالقرب من نهر الراين أبرزت مشاكل الأقاليم الهامشية : فقد كان الجزء الشمالي الغربي بمشاكلها الناجمة عن كثرة اللاجئين (في الخمسينات) وقلة التنوع الاقتصادي أكثر المناطق معاناة من هذا الاتجاه نحو الراين حتى أخذت الرفاهية المتدفقة بين أقاليم حوض الراين الغنية تخفف مؤخرا من حدة هذا التباين .

مصادر الطاقة المحلية والنطاقات الصناعية بالسوق المشتركة

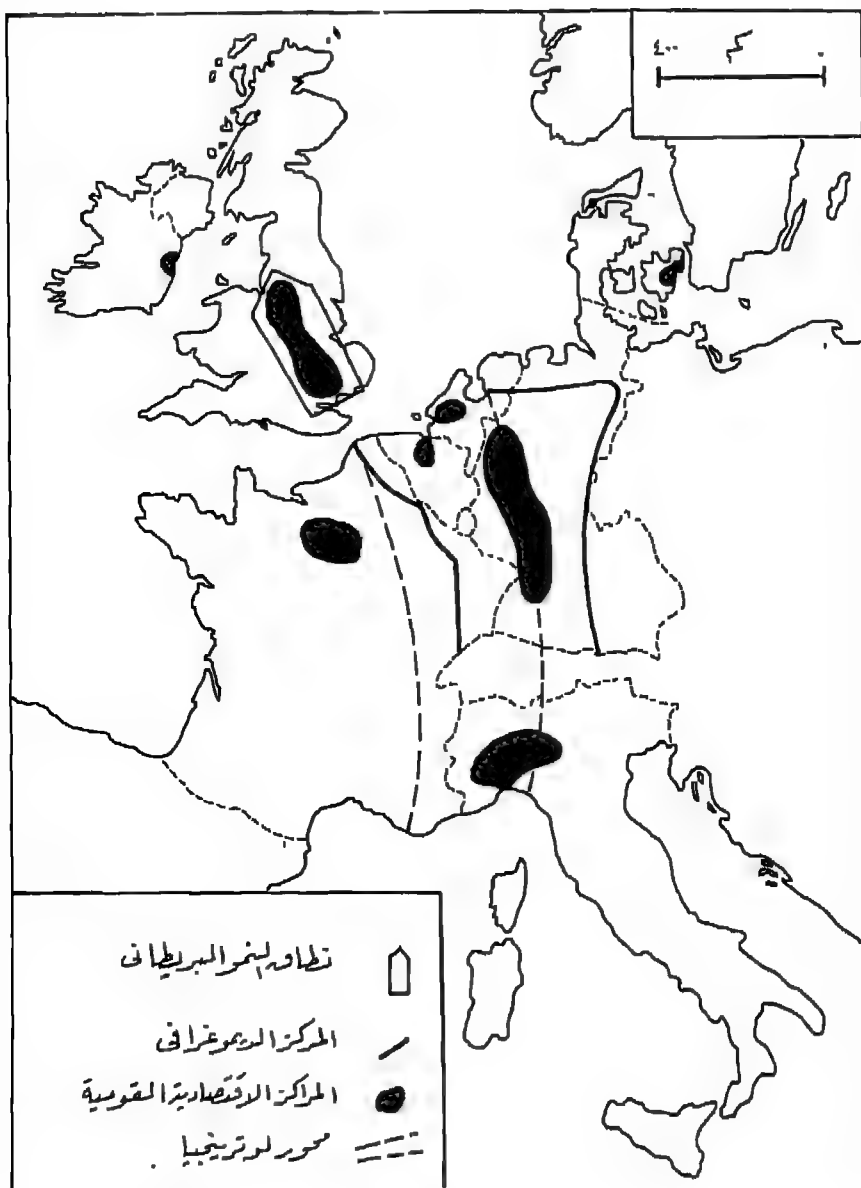


شكل (٦٩)

وكانت مشكلة التخلف الاقتصادى أكثر تفاقما وحدة فى محافظة شلزيوسك هولشتاين المحصورة بين الدنمارك (قبل انضمامها للسوق) وبين دول الشرق الشيوعية . كما أن جنوب شرق ألمانيا كان بمعزل من منطقة الراين ومحوره رغم ارتباطه الوثيق بالنمسا (من غير أعضاء السوق) . وقد انعكست أهمية محور الراين فى النمو مطرد فى السكان والثروة كما أنه يحوى مناطق النمو الرئيسية فى ألمانيا الغربية . يتركز معظم مصانع الحديد والصلب الألمانية فى محور الراين وخاصة فى منطقة الراين - الرور الأدنى . ويعزى هذا التركيز حول ملتقى النهرين إلى سهولة نقل المواد الخام (خاصة الحديد) المستوردة الآتية عن طريق روتردام - ميناء أوروبا . ورغم أن هذا الموقع قد احتفظ بأهميته فى الفترة التى شهدت إنشاء ومد أنابيب البترول والغاز الطبيعى فإن سهولة النقل المائى قد مهدت وسهلت اختراق الأنابيب لحوض الراين من اتجاهات أخرى من موانىء ألمانيا الشمالية وحتى من موانىء الادرياتي والبحر الأبيض المتوسط . فقد شهد أول السبعينات إنشاء مصافى هامة لتكرير البترول فى حوض الراين وحتى خارجه كما فى منطقة انقوشناتدات Ingolstadt فى بفاريا ، كما شهد حوض الراين وخاصة منطقة الراين - مين وحوض نهر نيكر . أكبر توسع فى صناعة المواد الاستهلاكية المتينة .

أدت سياسة السوق المشتركة فى ربط الصناعة الألمانية ربطا وثيقا بجاراتها من الدول الغربية من خلال ارتباطات جديدة ، إلى ازدياد أهمية حوض الراين فى جغرافية غرب أوروبا الاقتصادية . ومثلا أسهمت ارتباطات تنظيمية فى صناعة الحديد والصلب والصناعة الكيماوية الثقيلة فى ربط إقليم الراين - الرور الصناعى مع دلتوات الراين - ماس - شلدت . ورغم موقعه الداخلى بالنسبة لموارد الفحم والخام المستورد فقد استغل إقليم السار موقعه المركزى داخل المونتاندرايك لتوسيع علاقاتها وارتباطاتها وتوطيد العلاقة فى محور الراين . وكانت النتيجة هى ظهور إقليم السارلورلوكس Saarlorlux وصناعاتها المدبجة ذات الصبغة الدولية ، كما حدثت ارتباطات مماثلة فى صناعة المواد الاستهلاكية المتينة (وخاصة صناعة السيارات) فى منطقة الراين الثلاث (الراين الأدنى والراين - مين وحوض نيكر) التى تتميز بموقع وسط داخل المجموعة الستة الأصلية .

محور القوا لاقصادى - مانشستر - ميلان فى السوق المشتركة



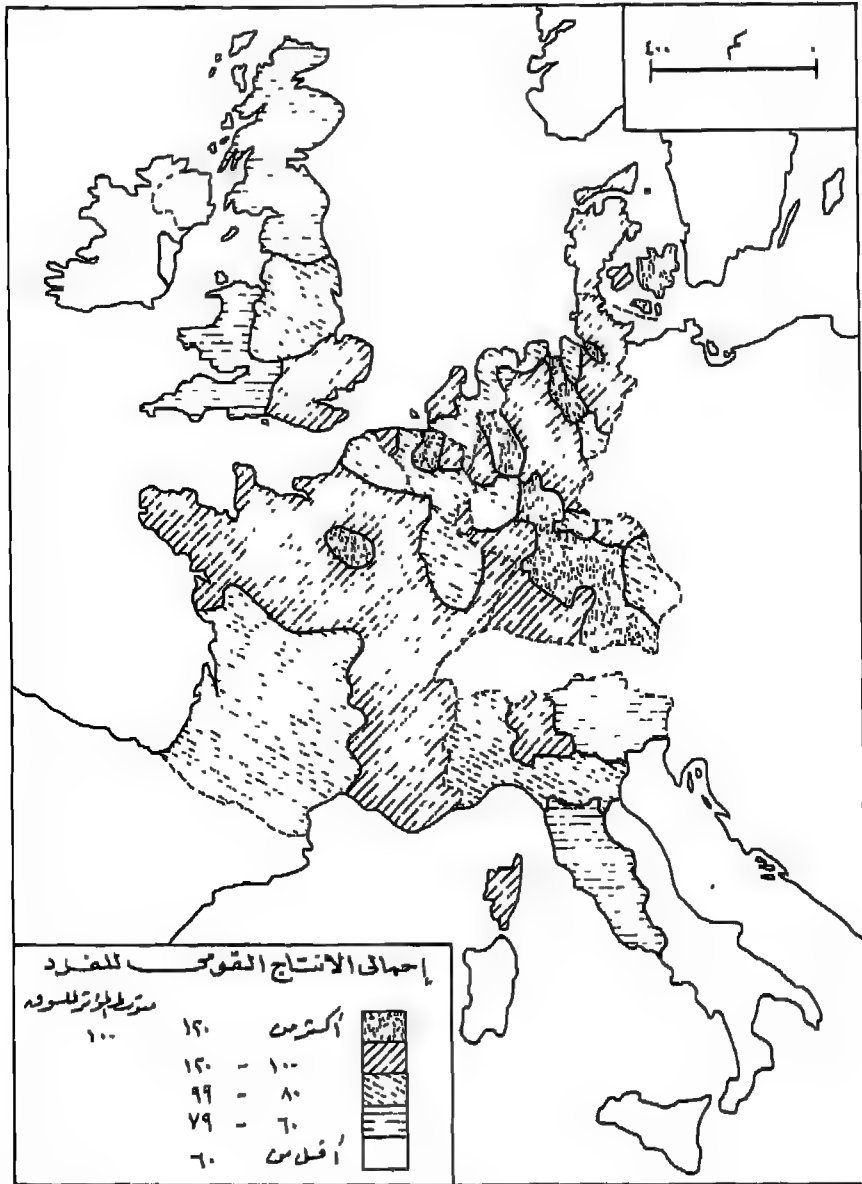
شكل (٧٠)

وقد ادى هذا التركيز الصناعى فى منطقة الراين . والذى تم فى وقت كان للتخطيط الإقليمى أهمية لا تذكر فى السياسة الاقتصادية الألمانية ، إلى تباين شديد فى مستوى التطور الصناعى بين إقليم الراين ومناطق ألمانيا الأخرى ، وقد سعت الحكومة إلى تخفيف حدة التباين بثتيت الصناعة إلى الشمال الغربى والجنوب الشرقى من الدولة (كما يتمثل فى الصناعات التى تم إنشاؤها فى حوض نهر الألب الأدنى حول شتاد وصناعة البتروكيمياويات فى بفاريا على التوالى) .

فى أواخر الأربعينات كانت ألمانيا تتخوف من تضخم سكانى كبير نتيجة لتوافد المهاجرين والمطرودين من المناطق الشرقية بأعداد هائلة وكانت تنظر إلى الوحدة الأوروبية وتحسين العلاقات المرتقب مع جاراتها كمنفذ لاستيعاب الفائض من سكانها . ولكن زالت مخاوفها مع نهضتها الصناعية السريعة بعد الحرب التى أخذت تستوعب ليس الوافدين السابقين فحسب بل أولئك اللاجئين من ألمانيا الشرقية الذى ادى إيقافهم ببناء حائط برلين إلى نقص شديد فى القوى العاملة مما استدعى فى النهاية إلى استجلاب العمال الأجانب من أوروبا الجنوبية وتركيا لسد هذا النقص .

كانت مسألة الموارد الغذائية من أول المشاكل التى استحوذت على اهتمام الحكومة الألمانية بعد الحرب مباشرة على أثر تقسيم الدولة إلى شطرين وفقدان أراض زراعية شاسعة لبولنده . فقد كانت أرض ألمانيا الشرقية قبل الحرب تنتج فى العادة نحو ٥٥٪ من القمح و ٥٧٪ من البطاطس و ٦٧٪ من بنجر السكر من الإنتاج الكلى لألمانيا كما كانت تحوى نحو نصف الأرض المزروعة و ٥٥٪ من جملة الاراضى الممكن زراعتها ، وقد زال هذا الخوف والقلق فى الخمسينات عندما اخذت الدولة تطبق المشروع الأخضر فى عام ١٩٥٥ بهدف تحسين تركيب الإنتاج الزراعى وتوحيد ودمج الملكيات الزراعية المبعثرة وبناء مزارع جديدة ووسائل زراعية وإلى رفع معدلات الإنتاج وتحسين نوعية المحصولات وتخفيض تكاليف الإنتاج ، والتركيز على الأبحاث الزراعية وتطبيق أحدث الوسائل العلمية فى الزراعة . وقد نجح المشروع وارتفع الإنتاج وتنتج ألمانيا الآن أزيد من ثلاثة أرباع احتياجاتها من المواد الغذائية ولكن مشكلة الزراعة ما زالت متفاقه : فالدولة ما زالت حائرة بين

المشراء النسبي في دول السوق



شكل (٧١)

حماية المزارعين والاعتماد على المواد الغذائية المستوردة وبينما كان واضحا من البداية أن فرنسا وهولندا وإيطاليا كانت في وضع أفضل للاستفادة من السياسة الزراعية ، فقد كانت ألمانيا تأمل في أن يؤدي أى تنازل من قبلها في هذا المجال إلى الحصول على مكاسب في مجال تسويق منتجاتها الصناعية في أسواق المجموعة الأوروبية . فمن المؤكد أن المزارع الألماني لم يكسب إلا القليل في المنافسة بينه وبين المنتجين الإيطاليين والفرنسيين والهولنديين وخاصة في إنتاج الفواكه والخضر والخمور والدواجن . بينما جذبت الصناعة اعدادا هائلة من المزارعين .

اما من ناحية النقل فالمانيا تمثل « الصينية الدائرية » بالنسبة لاوروبا ، خاصة بعد انقسامها إلى شطرين وازدياد الحركة وسهولة التنقل داخل السوق المشتركة . فحركة المرور بين الدول غير الشيوعية في الشمال والجنوب تمر عبر المانيا الغربية لتفادى الاقاليم الشيوعية كما أن بناء الطرق الواسعة نتج عنه سهولة المرور عبر الاراضى الالمانية . وعلى الرغم من أن الموانئ الالمانية في الشمال قد عانت من تسهيل حركة المرور والتنقل الدولي عبر دول السوق المشتركة لصالح روتردام - الميناء الاوربي فان تطور هذا المجمع الضخم وازدياد اهمية محور الراين ادى إلى تشجيع الحركة عبر المانيا ، كما أن النمو الاقتصادي الذى شهدته البلاد امدت آثاره الى موانئ الشمال التى شهدت زيادة في حركة الملاحة رغم تحول حركة نهر حوض الراين إلى موانئ دول البنلوكس . فقد ظهرت ويلمزهافن من جديد كميناء بترول بينما تطورت موانئ نهر الفيزر كموانئ حاويات بينما احتفظت هامبورج باهميتها كميناء عام . ومع ازدياد حركة المرور وازدحامها في القنال الانجليزى والمدخل الجنوبى لبحر الشمال بالإضافة إلى ضحالة المياه والصعوبات الناجمة من ذلك ، يتوقع أن يجذب مصب نهر الألب الاهتمام كموقع لميناء عميق ضخم للسفن الضخمة الآتية من الشمال .

(٢) فرنسا :

لعبت فرنسا دورا أساسيا في إنشاء منظمة الفحم والصلب الأوروبية ثم السوق الأوروبية . وقد دفعت اعتبارات سياسية فرنسا للتحمس للوحدة الأوروبية نذكر منها : -

١ - إيقاف حد للصراع الفرنسى - الألمانى .

٢ - استعادة هيتها ومكانتها فى أوروبا وبقيّة أجزاء العالم .

ففرنسا كجارتها الشمالية ألمانيا تحتل موقعا وسطا مهما فى أوروبا وتطل على ثلاث جهات رئيسية : الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط ومطقة الراين .

وعلى الرغم من الدور الذى لعبته اشتراك فرنسا فى هيئة الرور الدولية واستعادة سيطرتها على إقليم السار مما ساعد فى بناء ونهضة صناعتها التى دمرتها الحرب فإن الانبعاث السريع لألمانيا الغربية بعد الحرب قد أوضح للمرة الثانية القدرة الفائقة لهذه الدولة على النهوض السريع والتفوق على فرنسا . وكان هذا الشعور من الدوافع الخفية وراء اقتراح روبرت شومان R. Schumann لإنشاء منظمة الفحم والصلب الأوروبية بغرض « تدويل » تنظيم صناعة الفحم والحديد والصلب . كما أن غنى ألمانيا فى مصادر الطاقة والتى كانت تمثل نقاط الضعف الأساسية فى الاقتصاد الفرنسى فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات كان يستدعى إقامة علاقات طيبة معها . فان مفهوم : المونتاندرايك « يظهر فيه العنصر الفرنسى بوضوح لان معظم الصناعات الثقيلة الفرنسية تتركز فى شمال شرق الدولة ، بينما تمخضت المحاولات لدمج وتوحيد المنشآت الاقتصادية من خلال السوق المشتركة عن فكرة « سارلورلكس » الإقليمية والتى تضم جزءا حيويا من شمال شرق فرنسا .

كان للتحويل من الفحم إلى البترول والغاز الطبيعى كمصدر للطاقة دور كبير فى تحرير الصناعات من المواقع القديمة وفى ظهور مجتمعات ضخمة من مصافى البترول فى الساحل الجنوى (البحر المتوسط) فى اتان دى باد والساحل الأطلسى (عند مصب السين) وضخ الغاز الطبيعى من حقول لاك L'aeo عبر الأنابيب إلى الداخل ومن هولندا إلى الأجزاء الشمالية من فرنسا . وسيظل إنتاج فرنسا من الغاز الطبيعى والبترول ضئيلا حتى يتم اكتشاف مصادر أخرى فى الرصيف القارى التابع لها .

أدى دمج الاقتصاديات القومية داخل السوق المشتركة وجاذبية محور الراين - الرور إلى اجتذاب صناعات عديدة نحو شرق فرنسا . فقد ظهرت منطقة صناعية متماسكة التركيب تمتد من دلتا الراين - الماس عبر بلجيكا والراين الألمانية

ولوكسمبرج وشرق فرنسا (وشرقا حتى المنطقة الوسطى السويسرية) متجاوزة بذلك الحدود القومية .

وساعدت المميزات والخصائص التي تتميز بها محور الراين - الرون نحو التخصص الصناعي والارتباطات الصناعية والتوجيه نحو الأسواق والنقل ، ساعدت في تركيز النمو والتطور الاقتصادي الفرنسي في نطاق محوري هلالى الشكل يمتد عبر فرنسا من ساحل القنال وعبر حقول الفحم الشمالية ومناجم حديد اللورين إلى نهر الراين وجنوبا إلى حوض نهر الرون . ففي مينائى الهافر ودنكرك تم إنشاء تسهيلات للنقلات البحرية الضخمة لتفريغ البترول في الأولى ولشحن خام الحديد وفحم الكوك في الثانية ، بينما ازدادت أهمية موانئ العبارات Ferry ports أثر النمو في التجارة بين بريطانيا وفرنسا . كما أن الأهمية التجارية والمالية لمدينة باريس ازدادت نتيجة قربها من هذا المحور الاقتصادي الهام . ويواصل محور الراين - الرون امتداده نحو الجنوب حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث توجد مصافي البترول ومصانع البتروكيماويات أما خارج هذا النطاق المحوري الصناعي واقليم باريس فيقع ما وصفه البعض « بالصحراء الفرنسية » كناية عن التخلف الاقتصادي والتباين الإقليمي في التطور الاقتصادي . وقد سعت الحكومة لتخفيف حدة هذا التباين بتشجيع مشاريع التنمية في اقليم بريتاني وجنوب غربى الدولة وفي الهضبة الوسطى . وكان تنفيذ هذه المشاريع أكثر نجاحا من ألمانيا الغربية حيث اثرت الانصرافية الفيدرالية في سياسة التخطيط المكثف وبصورة معاكسة ، بينما كان لقبول التخطيط من وقت مبكر وبتوجيه الحكومة المركزية في هذا المجال دور في إنجاح هذه المشاريع في فرنسا . وكانت فرنسا تأمل في أن يؤدي إنجاز نفق القنال إلى تطوير منطقة الشمال وباس دى كاليه .

واستفادت فرنسا من الأهمية المتزايدة للزراعة في اقتصادياتها والمنتجات الغذائية المتنوعة التي تقوم بتصديرها عندما انضمت للسوق المشتركة إذ وجدت نفسها في وضع خاص للاستفادة من السياسة الزراعية المشتركة لتسويق هذا الفائض من المحصولات الزراعية وكما حدث في ألمانيا الغربية كانت الزراعة الفرنسية تعاني من

مشاكل تركيحية : تحديث المزارعين الصغار وتمويلهم ورفع انتاجية المزارع ، فيما أدى النمو الصناعي السريع إلى توسيع الشقة بين الريف والمدينة ولكن الوضع بالنسبة للمزارع الفرنسي كان أفضل بالمقارنة مع زميله الألماني نسبة لإحجام المزارع الكبيرة وإنتاجية الأرض الأعلى لخصوبتها الطبيعية مما نتج عنه اكتفاء ذاتي في المواد الغذائية .

أما من ناحية الحركة والمرور فقد كانت فرنسا أقل حظا من ألمانيا فقد انحصرت تأثير تسهيل الحركة داخل السوق المشتركة على وسائل النقل في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية وحول محور الرون وامتداده من إقليم الراين في الشمال : وقد شهدت شبكة السكك الحديدية تطورا في هذه المنطقة مثل التحويل من البخار إلى الكهرباء . ولكن بناء الطرق الكبيرة لم يشهد تطورا واسعا مثل الذي حدث في ألمانيا ودول البنيلكس كما أن الخطوط التي تربط الأجزاء الشمالية والشرقية قليلة ومكتملة فقط على محور باريس - مارسيليا . أما الهافر ومارسيليا فقد شهدتا تطورا عظيما كموانئ مستوردة للبترو .

(٣) دول البنيلكس : Benelux (بلجيكا - هولنده - لوكسمبرج) :

تحتل هذه الدول الثلاثة موقعا مركزيا هاما في غربي أوروبا : فهي تكون مركز المدينة الضخمة megapolis وقلب الدلتا الأوروبية Eurodelta لانهار الراين والماس والشلد والتي تسيطر عليها الآن منشآت وتسهيلات روتردام - الميناء الأوربي Rotterdam-Europoorl (الشكل ٦٢) .

كانت هذه الدول في طليعة حركة الوحدة الأوروبية لاعتقادها في أن مصيرها يعتمد كثيرا على علاقات الود وحسن الجوار بينها وبين الدول المجاورة وبين هذه الدول نفسها ، فهي قد عانت الأمرين من جراء الخلافات العاصفة بين جيرانها وما نتج عنها من حروب . وعلى الرغم من ذلك فقد تحفظت الدول الثلاثة من الارتقاء في أحضان الوحدة لحرصها على الاحتفاظ ببحرية التصرف في شئونها بدلا من تسليم القيادة كلية للأعضاء الأقوياء وخاصة في حالة سعي فرنسا في إحلال فكرة المجموعة الأوروبية بحلف ألماني - فرنسي غير مرن . وكخطوة معاكسة لمثل هذا

الاتجاه أبدت هذه الدول خاصة هولنده حرصها على الاحتفاظ بعلاقاتها التقليدية مع بريطانيا وتطوير هذه العلاقة .

وعلى الرغم من ضئالة احجامها وصغر مساحاتها فإن دول البينلوكس تعتبر من الدول الصناعية المهمة في غرب أوروبا . فلوكسمبورج تتميز بصناعة الحديد والصلب الثقيله في جنوبها وقد استفادت الدوقيه من عضويتها في السوق المشتركة بتنوع صناعتها الوحيدة نتيجة تغلغل الشركات من الدول الأعضاء التي تنتج الإطارات والبلاستيك والصناعات الهندسية الخفيفة كما تستفيد أيضا من المصالح المشتركة ضمن مفهوم السارلورلوكس .

أما بلجيكا فلها أيضا صناعات الحديد والصلب التي ترتبط بدورها بصناعات اللورين ولوكسمبورج ، ويقع معظم هذه الصناعات في وادي نهر ميوز (حيث حقول الفحم) وفي الشمال الغربي وفي مدينة غنت Ghent . وقد تعرضت حقول الفحم البلجيكية أكثر من أية حقول أخرى داخل السوق المشتركة إلى عمليات جذرية لاستحداث الانتاج وتقليل تكلفته : فقد هجرت الحقول القديمة كما في منطقة بوريناج Borinage من اجل الارسابات الغنية من شمال الكمبيلاند (الكومباين) وأصبح الغاز الطبيعي المستورد من هولنده مصدرا مهما للطاقة كما يتم استيراد البترول الخام ومنتجاته عن طريق روتردام . وهكذا تجاوز المحور الصناعي الذي يمتد من بروكسل إلى أنتويرب من حيث الأهمية على الأقاليم الصناعية الجنوبية (منطقة الولون) ، ولمقابلة هذا التحدي من الصناعات الشمالية صناعة الحديد والصلب في الجنوب (كالتى حول شارلروي Charleroi) نحو التخصص في الإنتاج . أما صناعة النسيج في الفلاندرز فقد اكتسبت أسواقا جديدة رغم المنافسة التي تلاقيها داخل السوق المشتركة من الأقمشة الرخيصة المستوردة من شرق أوروبا والشرق الأقصى . كما شهدت الصناعات الهندسية الخفيفة تطورا وذلك عن طريق إنتاج الأجزاء وتركيب أجزاء الآلات بالشركة مع مصانع من دول السوق الأخرى . وترتبط بلجيكا ببريطانيا بواسطة العبارات ، كما شهد ميناء أنتويرب ازدهارا بعد إزالة العوائق القديمة نتيجة تحسين العلاقات والاتصال مع هولنده بما

أدى إلى تدفق الصناعات فيها وحولها (خاصة الرأسمال الأمريكى والألماني) كما يتوقع تحسن في وضعها بعد أن يتم اتصالها مع مجموعة الراين - الماس بواسطة قنوات داخلية وذلك وفق مشروع الدلتا Delta Plan وقد تسببت نزعات واتجاهات اقتصادية في تحول أساسى في مشكلة بلجيكا العرقية إذ ازداد النمو السكانى في الشمال الفلمنكى قوة بثروتها الاقتصادية النامية مما أدى إلى فقدان اللون تفوقها الاقتصادى والاجتماعى السابق . وهناك اتجاه قوى نحو الفيدرالية داخل القطر وقد يكون هذا انعكاسا لشعور الأمن داخل السوق المشتركة وقد وافق البرلمان البلجيكى أخيرا على اتحاد فيدرالى بين جزئى القطر .

أما هولنده فهى أمة تجارية وبحرية بحكم موقعها وسيطرتها على دلتا الراين - الماس كما أن لها ارتباطا وثيقا بباقي حوض الراين منذ وقت طويل ، ثم ان قيمة وأهمية تجارة الراين بالنسبة إلى ميناء روتردام وبقى موانئ هولنده جعلت من الارتباط المبرك باى سوق مشتركة في حوض الراين جاذبية خاصة لدى الهولنديين ، وخاصة لأن تحرير الحركة والتنقل والاتصال ستعمل لمصلحتهم . ورغم هذه الميزات فقد كانت الدولة تتخوف من وقوعها لقمة سائغة للدول الاقوى وأن مصالحها وارتباطاتها البحرية قد تهمل في سوق ذات اتجاهات قارية (أكثر من اتجاهات نحو البحر) ، وهذه المخاوف تتجسد في تأييدها لفكرة ارتباط بريطانيا بالسوق وبالقارة في هذه التجربة الجديدة .

يمثل التجمع الحضرى المتمثل في راندشتاد - هولندا Randstädt-Holland وميناء روتردام - الميناء الأوروبى (وهو أكبر ميناء في العالم) قلب هولنده النابض . ففي هذا الميناء الضخم يوجد اضخم تركيز لمصافى البترول وارصفة ضخمة ترتبط بمنطقة الراين الألمانية الصناعية بواسطة الأنابيب والسكك الحديدية والقنوات . كما أن سهولة استقبالها للسفن الضخمة وسهولة اتصالها بالمناطق الداخلية قد جعلتها تتفوق على أنتويرب - ويعكس نمط إنشاء الطرق البرية الضخمة والبحرية والقطارات المكهربة مدى ارتباط هولنده بمنطقة الراين الداخلية بينما ينافس مطار امستردام - شيبول مطار فرانكفورت من حيث عدد الرحلات والأهمية الدولية . وتكمن المشكلة مستقبلا في هذا المجال في نقطتين : -

(١) كم زيادة في حركة مرور السفن الضخمة يستطيع ميناء روتردام - الميناء الأوربي تحملها ؟

(٢) فيما إذا في الإمكان تنظيم هذه الحركة ومرورها عند مداخل القنال الإنجليزي الضيقة .

وتوجد إمكانيات ضخمة يمكن تطويرها وخاصة في مجال العبارات مع منطقة الميدلاندز الصناعية ومنطقة همبرسايد في الشمال البريطاني .

بعد الحرب مباشرة قامت هولنده باستثمار أموال ضخمة في حقول الفحم في إقليم ليمبورج Limburg الهولندي ثم أخذت تطالب بضم أقاليم ألمانية لزيادة احتياطها من الفحم عندما رأت أن إرسابات ليمبورج غير كافية لسد احتياجاتها على المدى الطويل . ومع اكتشاف الغاز الطبيعي بكميات ضخمة وخاصة في محافظة غورينجن Goringen (١٩٥٩) تغير الوضع بالنسبة لهولنده إذ أصبحت دولة مصدرة للغاز للدول المجاورة بعد أن اكتفت داخليا ، وأدى هذا الانتاج الضخم إلى اغلاق بعض حقول الفحم بعد استثمارات ضخمة لتحديث الانتاج فيها .

رغم أن إنتاج الحديد والصلب لا يضاهاى انتاج بلجيكا فإن وجود مواقع بحرية عميقة تستطيع استقبال الشاحنات البحرية الضخمة التي تأتي بالمواد الخام قد أعطتها ميزة كبيرة وإمكانيات لإنشاء صناعة الحديد والصلب : وهناك مصانع اجميدن Ijmuiden الواقعة على قناة بحر الشمال North Sea Canal المرتبطة مع مصانع دورتمن Dortmund الألمانية مستغلة مثل تلك الميزات ، كما أن هناك خططاً لجمع ضخمة عند الميناء الأوروبي رغم ان مشاكل العمال ومشاكل أخرى متعلقة بالبيئة تحدى بهذا الموقع . وعلى خلاف ذلك تنتشر الصناعات في منطقة الراند شناد وخاصة في برابانت وليمبورج Barabakt ، وتشتهر إيديهوفن Eindhoven بصناعة الهندسة الكهربائية وفيها توجد مصانع فيليبس ومصنع عربات داف Daf . أما صناعة النسيج فتتركز في شمال شرق هولنده حيث جذب اكتشاف الغاز صناعات أخرى كما شهدت دلتا الراين - الماس استثمارات اجنبية في مجال شحن الحاويات والمصانع الكيماوية ومصافي البترول بينما احتفظت ميناء روتردام بأهميتها في مجال بناء السفن .

وعلى الرغم من أحجامها الصغيرة وازدحام سكانها فإن القطاع الزراعى ما زال يمثل جزءا مهما من اقتصاديات دول البنلوكس خاصة هولنده . فمنتجات البساتين والدواجن تشكل اهم الصادرات كما أن هولنده تشتهر بصادراتها من منتجات الألبان (الجبن والزبد) بينما يتم تصدير المواد الزراعية المستوردة بعد معالجتها وتصنيعها إلى اسواق بريطانيا وألمانيا .

(٤) إيطاليا :

إذا قارنا إيطاليا ببقية الأعضاء المؤسسين للسوق المشتركة نجدها أقلها حظا من ناحية الثروات الطبيعية خاصة تلك التى تعتمد عليها الصناعات الثقيلة . وعلى الرغم من ذلك فهى تحتل مكانة خاصة لقدرتها الصناعية وكثرة الأيدى العاملة فيها . وفى أوائل هذا القرن استطاعت إيطاليا ان تحافظ على نموها السكانى المتزايد فى نطاق إمكاناتها ومواردها المحلية وذلك عن طريق الهجرة المتزايدة والمستمرة اما إلى مستعمراتها أو إلى الأمريكتين . وقد خرجت إيطاليا من الحرب مهزوزة الاقتصاد ولذلك لقيت الخطط لاعادة بناء الاقتصاد الأوروبى ترحيبا لدى الإيطاليين . فوجود سوق اوروبية مشتركة تعنى اسواقا جديدة ليس للبضائع والمواد الغذائية فحسب بل مصدرا للمواد الخام وفق ظروف تجارية مجزية وامتصاص الزيادة السكانية (فى شكل عمال) فى الدول الأخرى .

فى أوائل الأربعينات وجدت إيطاليا نفسها فى وضع معزول . فعلى الساحل الجنوى للبحر الأبيض ظهرت حركات التحرير الاسلامية خاصة فى ليبيا بينما كانت علاقاتها مع اليونان وتركيا سيئة ومعدومة تقريبا مع أيريا الفاشية وكان البحر الادرياقى تسيطر عليه دولتان اشتراكيتان هما يوغوسلافيا وألبانيا . أما من الناحية الفيزيوجرافية فايطاليا دولة جزيرية وتتميز بخصائص ذلك الموقع من سهولة الاتصال بحرا مع العالم بالمقارنة مع اتصالها بباقى أجزاء القارة الشالية عبر الألب .

تقلصت الأهمية الصناعية لإيطاليا نسبيا (وخاصة فى صناعة الحديد والصلب) فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ولذا فإن التطور الاقتصادى الذى شهدته إيطاليا بعد الحرب الثانية وخاصة بعد توقيع معاهدة روما ١٩٥٧ يعتبر

طفرة جبارة . فنسبة النمو السنوى فى الصناعة تعتبر من أعلى النسب داخل السوق المشتركة بينما تشكل نسبة النمو السنوى فى القوى العاملة أعلا نسبة فى أوروبا الغربية إذ تمول إيطاليا دولا مثل فرنسا وألمانيا وسويسرة بالعمال .

وقد كان التحول الذى حدث فى نمط مصادر الطاقة فى صالح إيطاليا على الرغم من ضئالة مواردها من البترول . أما الغاز الطبيعى فمتوفر أكثر من البترول . وهناك أجزاء شاسعة منها تتكون من طبقات حاملة للبترول وتعتبر إيطاليا من كبريات الدول المكررة للبترول المستورد معظمه من شمال أفريقيا ودول الشرق الأوسط وروسيا ، كما برزت جنوة وتريستي كموانئ بترول يضخ منها خام البترول إلى وسط أوروبا . أما من ناحية الطاقة الكهربائية فقد بلغت إيطاليا شأوا بعيدا وتتركز محطات التوليد فى جبال الألب والأبنين (حيث يتم ذلك ضمن إطار مشاريع استصلاح الأرض والتصريف والمياه) .

كان لوفرة الأيدى العاملة الرخيصة فى الجنوب المتخلف دور كبير فى ظهور وتطور صناعات التجميع الضخمة فى الشمال متمثلة فى المواد الاستهلاكية المتينة وصناعة العربات (وتورينو تمثل أكبر مركز لصناعة العربات فى أوروبا) ، كما كان لعوامل تاريخية دور فى تطور الصناعات فى مثلث جنوة - ميلانو - تورينو ، حيث يتركز ثلثا القوى العاملة فى الصناعة وحيث يصل النمو السكاني أعلاه فى البلاد . وكان لوفرة العمال أثر كبير على بقاء صناعة نسيج تقليدية خاصة فى الشمال ، ويعزى كثير من نجاح إيطاليا فى مجال الصناعة إلى سهولة الوصول إلى سوق المنظمة الأوروبية .

استغلت إيطاليا موقعها الجزرى فى تطوير صناعة الحديد والصلب عند سواحلها ، إذ يسهل استيراد المواد الخام من حديد وفحم بواسطة الشاحنات البحرية الضخمة إلى هذه المواقع ، وتتركز هذه المصانع فى جنوة وبيومبينو [Piombino] وناپولى وترانتو [Tranto] . والمصانع الجنوبية أنشئت ضمن خطط لتخفيف حدة البطالة فى الجنوب المتخلف واستيعاب وتوظيف العمال وكذلك إيقاف الهجرة المتواصلة إلى الشمال المكتظ بالسكان . أما المصانع الداخلية ومعظمها فى الشمال فتتخصص فى صناعة الصلب بالكهرباء من الحديد الخردة كما أن لصناعة

الألمنيوم أهمية في شمال الادرياتي رغم فقدان إيطاليا لارسابات البوكسيت في استريا ليوغسلافيا . وكما سنشرح بتفصيل في الفصل الآتي ، تعاني إيطاليا أكثر من بقية أعضاء السوق من المشاكل الإقليمية إذ يتميز جنوب الدولة - من التخلف الناجم من الإهمال والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية البالية - فالي الجنوب من روما يعم الفقر في الريف وتقل فرص العمل والخدمات بالمقارنة مع الشمال حيث الوفرة والثروة والتوسع الصناعي . وقد كان تشكيل « هيئة استثمار الجنوب » في عام ١٩٥٠ (Cassa per il Mezzogiorno) خطوة إيجابية لتنسيق الاعتمادات المالية الحكومية لتطوير الجنوب تساعدها بعد ١٩٥٧ هيئة خاصة تسمى « لجنة وزراء الجنوب » لتحقيق الأغراض الآتية : -

- (١) التنسيق بين المشاريع الإنمائية المختلفة والتخطيط على مدى طويل لتطوير هذا الجزء من الدولة وتخفيف حدة التباين الإقليمي بين الجنوب والشمال .
- (٢) تمويل الأشغال العامة لتحسين الأساسيات والتغلب على مشاكل الزراعة والملكية المتفاقة .

بالمقارنة مع أعضاء السوق الآخرين تتميز إيطاليا بأعلا نسبة للمزارعين وتمثل الزراعة قطاعا حيويا اقتصاديا . وقد استفادت إيطاليا أكثر من باقي الدول الأعضاء في تسويق منتجاتها الزراعية في السوق المشتركة وخاصة الحمضيات والفواكة الأخرى والأرز والزيوت النباتية والنبذ الممتاز ، ويمثل الشمال مركز الزراعة المتقدمة بينما يتميز الجنوب فيما عدا بعض المناطق المروية بقلّة الإنتاج والطرق الزراعية البدائية .

تمثل إيطاليا موقعا هامشيا بالنسبة للسوق المشتركة التي تتصل عن طريق الطرق والسكك الحديدية التي تخترق جبال الألب . وتمتلك إيطاليا بعض الموانئ العميقة التي تستطيع استقبال السفن الضخمة وناقلات البترول التي تمخرع باب البحر المتوسط من حقول البترول في شمال افريقيا وتحتل موانئها موقعا جيدا لنقل البترول منها بواسطة الأنابيب إلى دول أوروبا الوسطى .

في عام ١٩٧٣ توسعت عضوية السوق المشتركة لتشمل المملكة المتحدة وأيرلندة

والدنمارك ، ومن المتوقع ان يحدث انضمام المملكة المتحدة تغييرات في السوق المشتركة وخاصة فى قلب التوازن الدقيق بين الأعضاء الأصليين وبالأخص في النتائج الجغرافية - السياسية للأعضاء من الدول الصغيرة . فهي بحكم كثافتها السكانية وإمكاناتها الصناعية تضىء بعداً مكانياً للسوق .. فالمحور الأوروبى حول الراين سيمتد عبر شمال بحر الشمال ليشمل النطاق المحورى الإنجليزى الذى يمتد بين حوض الميرس وعبر حوض ترنت إلى نهر التيمس وسيتحول بحر الشمال إلى « بحيرة السوق » ، ولكن لكي تلعب بريطانيا دورها الفعال يجب أن يتم إنشاء شبكة ذات فعالية من المواصلات تربط بينها وبين أوروبا .

(٤) المملكة المتحدة :

كان الشعور لدى كثير من مؤيدى قيام السوق الأوروبية أن تحقيق أهدافها على المدى البعيد يتطلب انضمام بريطانيا لها ، ولكن طلب بريطانيا للدخول في السوق لم يكن سهلاً بل كان محفوفاً بالصعوبات ونتيجة المخاوف من الأهداف بعيدة المدى لألمانيا وفرنسا لقي دخول بريطانيا للسوق تأييداً من قبل دول البنلوكس وإيطاليا بينما شعرت ألمانيا بعد تفكير أن اشتراك بريطانيا مهم لتحقيق أهداف السوق ، أما فرنسا فكانت أكثر الأعضاء اعتراضاً لانضمام بريطانيا لفرنسا كانت تعتقد بأن بريطانيا ستأق إلى السوق بغرض معارضة ومقاومة تطلعاتها لقيادة أوروبا . فالفرنسيون كانوا يرون في بريطانيا أنها أوروبية من حيث الموقع الجغرافى ولكنها لا تنتمى إليها (of Euro- pe but not in Europe) وقد صدرت تصرفات وآراء من بريطانيا في تلك الفترة لم تؤد إلى تخفيف هذه المخاوف والشكوك الفرنسية .

أما بريطانيا فكانت تحشى من الصبغة فوق القومية للسوق وخاصة إذا ستؤدى هذه الصبغة إلى تقليل السيادة القومية وتقييد قدرتها في المناورة في السياسة الخارجية : ففي الخمسينات كانت السياسة الخارجية البريطانية تتسم بنظرة أوسع من النظرة المحلية لسياسة القارة ، ولكن بريطانيا كانت كغيرها من دول أوروبا مهتمة بالتقارب الألماني - الفرنسى . وقد كان العيب الأكبر في تردد بريطانيا يكمن ليس في الاستخفاف بدور أوروبا المستقبلى في الشؤون البريطانية بل في مغالاة في التقدير

لأهمية منظمة الكومنولث لبريطانيا على المدى البعيد .. وقد زاد من خطورة هذا الموقف ارتباط الكومنولث بالمصالح الآسيوية - الأفريقية وتحلل وضعف العلاقات مع المستعمرات « البيضاء » (جنوب أفريقيا وأستراليا وكندا ونيوزيلنده) ، كما أن فكرة « العلاقة الخاصة » غير الواضحة مع الولايات المتحدة لم تشجع الكثيرين في بريطانيا للسعى لتعميق صلاتها مع أوروبا - أما أوروبا فكانت تتطلع إلى نظام فيدرالى وعلاقات اقتصادية ذات تركيب وصيغة دولية معروفة في حين أن بريطانيا كانت تفضل التجارة الحرة والتعاون بين الحكومات على أساس حسن النية وبأدنى حد من القيود ، كما أنها كانت غير راغبة في تغيير أو التخلي عن ارتباطاتها مع دول الكومنولث مع ما تجنيه منها من مواد غذائية وخام رخيصة في سبيل ميزات غير ملموسة وغير مؤكدة ، بينما كانت دول أوروبا غير مستعدة لتوسيع آفاقها لتشمل دولا خارج أوروبا . وهكذا فقد الجانبان فرصا ذهبية ووقتا ثميناً .

بعدما أخذت الاستعدادات الجدية لإنشاء السوق تأخذ مجراها ، أخذت بريطانيا تشعر بأن البقاء خارج السوق أو « الجانب الخاطئ » من الحواجز الجمركية « للسوق ستثير مشاكل تضاهي تلك التي تثقل العلاقات بين دول الكومنولث . فقد شعرت بريطانيا بعد هزيمتها في السويس وحركة التحرير والاستقلال التي اجتاحت دول الكومنولث في الخمسينات أن مواردها المحلية لا تكفى بأن تجازف لوحدها في عالم متقدم يسوده التكنولوجيا الحديثة التي ستعتمد عليها الدول الصناعية المتقدمة بعد أن قفل التصنيع في الدول المتخلفة أسواقها في وجه المنتجات من الدول المتقدمة ، ومن ثم أخذت بريطانيا تحاول الانضمام إلى السوق حتى تحقق ذلك في عام ١٩٧٣ .

يتركز تعدين الفحم ، أساس الصناعة البريطانية الأصل ، عند أطراف مرتفعات البنائن والمنخفضات المجاورة ويتوقع أن تزداد هذه المنطقة أهمية (رغم وجود حقول جيدة في اسكتلندا وجنوب ويلز) لاكتشاف طبقات غنية منها (كما في القرب من سيلبي Selby) . وتحمل بريطانيا المقدمة كمنتج للفحم في السوق ولوانها لم تعد تصدره لهذه الدول كما كانت تفعل من قبل . ثم أخذت بريطانيا تستغل

سواحلها ذات الموانئ العميقة لإنشاء مصانع ضخمة حديثة للحديد والصلب التي تعتمد على المواد الخام المستوردة ، ولكن ما زال فحم الكوك المحلى يحتفظ بأهميته الاقتصادية وسيطلب الاتجاه الحديث لإنشاء المصانع الساحلية تعديلا فى مواقع الإنتاج ويزيد من أهمية اجزاء منها مثل جنوب الويلز وشمال شرق إنجلترا ومصب كلايد . وفى وجه هذا التركيز الصناعى على السواحل اتجهت المصانع الداخلية إلى التخصص فى الإنتاج كما حدث فى ألمانيا .

أما التعاريف والحواجز الجمركية للسوق فيتوقع أن تساعد فى حماية الصناعات القديمة التى تحفها الصعوبات مثل صناعة النسيج التى عانت الكثير من الاقشمة الرخيصة المستوردة من آسيا وفق نظام الأفضلية لدول الكومنولث . ويتوقع أن تلاقى المنسوجات الصوفية الممتازة سوقا رائجة داخل السوق المشتركة وكذلك بعض فروع النسيج القطنى مثل الخيوط التى تصدر إلى القارة منذ وقت . أما صناعة السفن البريطانية فقد عانت فى الخمسينات من منافسة الأحواض الألمانية بعد بنائها كما تعاني الآن بشدة من أحواض السفن (الشرقية الكوميكرون) واليابان ، مما يتطلب تدخلا من قبل السوق لمعالجة الأمر . وقد اتجهت أحواض السفن البريطانية مؤخرا إلى بناء معدات وارصفة البترول العائمة وتنافسها فى ذلك النرويج .

وبانضمام بريطانيا أضافت السوق الأوروبية صناعة كيمياوية مهمة إلى الصناعات الكيماوية الأخرى فى ألمانيا ، وقد ساعدت فى تطور هذه الصناعة فى بريطانيا المواقع الساحلية الممتازة لاستلام المواد الخام ووفرة الفحم المحلى والتوسع فى صناعة تكرير البترول . وتأق بريطانيا فى المرتبة الثانية بعد ألمانيا كما تحتل شركة ICI المرتبة الرابعة فى غربى أوروبا رغم أن عائدها يصل إلى نصف عائد الشركات الألمانية الثلاث . وتعطى المواقع الساحلية أهمية خاصة لإقليم ميرسى Mersey ومصب نهر سيفرن Severn وجنوب ويلز وشمال شرق إنجلترا بينما تضيف مصافى تكرير البترول فى التيمس الأدنى وساوثامبتن مواقع أخرى إضافية أما الصناعات الكيماوية الموجودة فى شيشير Cheshire و تيزسايد Teesside فتعتمد على إرسابات الملح المحلية .

وكغيرها من دول السوق شهدت بريطانيا بعد الحرب طفرة فى إنتاج المواد

الاستهلاكية المتينة خاصة منطقة الميدلاندز وجنوب شرق إنجلترا ، وقد استخدمت هذه الصناعات التجميعية كأداة في سياسة التخطيط الإقليمي وانتشار الصناعات بمساندة ودعم الحكومة . وقد تم إنشاء مصانع للعربات في ميرسي سايد واسكتلندة ومصانع للأدوات المنزلية في جنوب ويلز ، كما شجعت الحكومة الشركات على إنشاء مصانع في أيرلندة الشمالية وشمال شرق إنجلترا ، كما ترتبط شركات عديدة بمصانع مماثلة في القارة وتوجد شركات أمريكية ذات القوميات المتعددة .

شجعت اكتشافات الغاز الطبيعي في القطاع الجنوبي من بحر الشمال على التنقيب عن البترول الذي تم اكتشاف احتياطي ضخم منه في الحوض الشمالى لبحر الشمال في القطاعين البريطانى والنرويجى . ورغم ضئالة الإنتاج الحالى بالمقارنة مع حقول الشرق الأوسط فإن هذه الاكتشافات ستدعم موقف بريطانيا كدولة مصدرة للبترول في المستقبل ، والاكتفاء ذاتيا قبل نهاية هذا القرن . وهكذا وجدت بريطانيا نفسها في وضع يتطلب صناعة تقنية عالية مساعدة وخدمات حتى تتمكن من استغلال هذا المورد الهام والتنقيب عنه ، وهذا وضع مماثل للذى حدث في الخمسينات عندما كانت بريطانيا تحتل المقدمة في صناعة الطاقة النووية . وتستدعى تكاليف البحث والتطور في مجال التقنية العالية إلى مجهود أوروبى حقيقى وتضامن على مستوى الدول الأعضاء ، ويمكن لبريطانيا أن تلعب دورا كبيرا في هذا المجال كما يظهر في المشروع الإنجليزى الفرنسى لإنتاج طائرات الكونكورد . ولولا اعتراض بعض فئات الشعب والظروف الاقتصادية المتغيرة لنجح هذا المشروع وأدى نجاحه الى التزامات أخرى مماثلة وعلى مستوى اوسع . ويرجى من أن يكون مشروع الباص الجوى أكثر حظا من مشروع الكونكورد حتى تقلل أوروبا من اعتمادها على الطائرات الأمريكية وحتى الروسية .

على الرغم من أن بريطانيا لديها شبكة مواصلات داخلية متطورة فهناك مشاكل تعترض اتصالها بالقارة ، ومثلا تتشابه السكك الحديدية في عرضها في كل من بريطانيا وغرب أوروبا ولكن قياس الحمولة الصغير بالنسبة للقاطرات البريطانية يعقد تقاطع أو التقاء قاطرات السكك الحديدية وحافلاتها . أما إنشاء الطرق الواسعة

motorways فقد بدأ متأخرا وتتفرع هذه الطرق من لندن إلى الشمال والغرب وقد يدعو إلى العجب أن الموانئ المهمة غير مربوطة بصورة فعالة بهذه الشبكة رغم أهمية التجارة الخارجية بالنسبة للاقتصاد البريطانى . وقد أوضح النمو والتطور التى شهدته موانئ العبارات أهمية الاتصال مع أوروبا . ولكن حركة مرور العبارات المتقاطع لمرور المواخر والسفن البحرية الضخمة فى بحر الشمال والقنال الإنجليزى تعوق هذه الموانئ خاصة موانئ القنال أما موانئ منطقة همبر فلان وضعها أفضل كحلقة وصل بين منطقة الراين وشمال إنجلترا كما أن مدينتى هارويتش وفليكستوت تحتلان وضعاً جيداً بالنسبة للحركة من منطقة الراين وحوض نهر التيمس .

أما موانئ الساحل الغربى فهى فى وضع جيد بالنسبة للملاحة فى المحيط الأطلسى كما أن بعضها يمكن ان يتطور لاستقبال أضخم السفن ولكنها بعيدة من أوروبا وخاصة بالمقارنة مع روتردام - الميناء الأوروبى وقد ضاعت فرصتان أثر الغناء نفق القنال والتخلى عن مشروع ما بلن Marlin إذ كانتا ستزيدان من نصيب بريطانيا فى حركة مرور السوق الأوروبية .

يقل عدد الذين يشتغلون فى القطاع الزراعى فى بريطانيا عن عدد من دور السوق كما أن طبيعة الزراعة تختلف أيضا فى أحجامها الكبيرة واندماجها من المزارع الأوروبية كما أن أدائها الاقتصادى لا بأس به بالمقارنة مع المزارع ذات الكثافة العالية . وفى إطار سياسة زراعية معقولة للسوق يتوقع أن تلعب الزراعة البريطانية دورا رئيسيا فى تمويل السوق باللحوم ومنتجات الألبان وان يؤدي ذلك إلى تشجيع زراعة المناطق التلالية ويتلخص نجاح الزراعة البريطانية فى أنها استطاعت التخلص من الفائض من المزارعين وتطبيق الميكنة بصورة فعالة فى المزارع الكبيرة .

شهدت الفترة ما بين الحربين تغيرا فى موضع الصناعات : فقد فقدت المناطق الصناعية القديمة فى الشمال أهميتها فى سبيل مناطق صناعية جديدة (تركز على إنتاج المواد الاستهلاكية المتينة) وصناعات التقنية العالية تتركز فى منطقة الميدلاندز وجنوب شرق إنجلترا . وقد شجع النمو الذى حدث فى القطاع الثالث هذا الاتجاه وخاصة بعد الحرب وقد حاولت الحكومة من جانبها إحياء المناطق الصناعية القديمة

بتقديم الإعانات ولتجنب هجرة العمال منها ، ولكن هناك تركيز واضح للسكان وللنشاطات الاقتصادية في مثلث يمتد محوره الرئيسى من جنوب لانكشير ورايدنج الغربية من ولاية يوركشير إلى التيمس الأدنى ولكن يتوقع أن يؤدي اكتشاف البترول في بحر الشمال إلى إحياء المناطق الشمالية من الناحية الاقتصادية .

(٥) جمهورية أيرلنده :

لم يخل انضمام جمهورية أيرلنده من تغيير في انماط السوق المشتركة الراسخة : فأيرلنده دولة زراعية أساسها تربية الماشية للحوم والألبان كما أنها ترتبط بالملكة المتحدة ارتباطا اقتصاديا وثيقا فقد انفتحت أمامها أسواق كبيرة بعد الانضمام رغم أن الزراعة تحتاج إلى تحديث في مجالات عديدة ، كما أن احتياطي العمال الضخم حدا بكثير من شركات السوق الأوروبية لإنشاء فروع لمصانعها في أيرلنده . ويمثل مجمع مطار شانون الصناعى والذي تم تخطيطه بغرض الولوج إلى السوق الأمريكية أكبر تطور في هذا المضمار . وقد استفاد المجمع من المراسى العميقة الموجودة في الساحل الجنوبي الغربى لإنشاء مرفأ تفريغ رئيسى للبترول في خليج بانترى حيث تفرغ الناقلات الضخمة حمولتها من الزيت على السفن الصغيرة . ولكن ما زال دور السوق في تحقيق الوحدة بين جزئى أيرلنده سلبيا حتى الآن .

(٦) الدنمارك :

تمتلك الدنمارك صناعة متقدمة ذات فعالية اقتصادية عالية بجانب قطاعها الزراعى المزدهر وكان لاعتمادها الكبير على أسواق دول غربى أوروبا في تسويق منتجاتها الزراعية دور كبير في اتخاذ قرارها النهائى للانضمام إلى السوق المشتركة . فالدنمارك تلعب دورا مهما في سوق الغذاء البريطانية ويشكل انضمام الدنمارك للسوق مشكلة إقليمية بالنسبة لألمانيا الغربية ، اذ يتحتم على الأخيرة ان ترفع من إنتاجية الزراعة والعائد منها في محافظة شلزيك - هولشتان - Schleswig Holstein إلى مستوى الزراعة في إقليم الدنمارك المجاور . كما أن الدنمارك ستزود السوق بموطئ قدم في اسكندناوة ووجودا قويا في منطقة البلطيق : فالدنمارك أيضا قريبة من التطورات التى قد تحدث في بحر الشمال .

(ب) منطقة التجارة الحرة الأوروبية :

أما الدول التي لم تستطع الانضمام للسوق المشتركة فقد شعرت بالرغم من ذلك " أن هناك حاجة ماسة لتعاون دولي وثيق ولكن من خلال مبدأ التجارة الحرة والتعاون على مستوى الحكومات وأجهزتها المختلفة . وقد تجمعت هذه الدول وعددها سبعة فيما عرف برابطة التجارة الحرة الأوروبية European Free Trade Association (إفتا) أو برابطة « السبعة الخوارج » وهي منظمة حرة أنشئت لتحقق ما ينادى به اسمه : تحسين الصلات التجارية بين أعضائها . وهي أيضا تعكس استمرارا لمحاولة سابقة فاشلة من قبل أعضاء « منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (OECD) لتكوين منظمة تجارية أعم ومن ثم اعتبرت (إفتا) EFTA كخطوة مؤقتة حتى يتحقق الهدف الكبير ألا وهو الوحدة والتعاون للاعتقاد السائد أن التجزئة التي تسود في غربي أوروبا لن تدوم وستظهر مجموعة أن آجلا أو عاجلا تشمل دول (إفتا) نفسها . وكانت المملكة المتحدة هي أقوى الأعضاء السبعة وأكثرها نفوذا كما أن الدول الاسكندنافية الثلاثة (السويد - النرويج - الدنمارك) من أعضائها المرموقين . أما بالنسبة للنمسا وسويسرة فقد حدثت اعتبارات جغرافية سياسية خاصة إلى انضمامها إلى الرابطة بينما كانت البرتغال عضوة فيها ، ثم انضمت أيسلندا مؤخرا وانتسبت فنلندا إليها (رغم ارتباطها القوى مع روسيا) .

ومن الصعب أن نحدد بعدا جغرافيا لرابطة (إفتا) حتى بعد انسحاب المملكة المتحدة منها : فرمما كان أكثر ارتباطا وميلا نحو دول اسكندناوة اذ كانت تضيئ نوعا من التكامل بين هذه الدول ، هذا التكامل والاتحاد الذي فشل المجلس النوردي Nordic Council ذي الصلاحية المحدودة من تحقيقه (ولم يسع لتحقيقه) كما فشلت هذه الدول في تحقيق التعاون الاقتصادي بينها من خلال تنظيم النوردك Nordek وذلك في الستينات .

ومما يدعو إلى العجب ان الدول الاسكندنافية على الرغم من الوحدة الثقافية والسياسية والاقتصادية التي تتميز بها كإقليم ، لم تلعب دورا بارزا في تحقيق التكامل الأوروبي وخاصة بالنظر إلى إنجازاتها الداخلية في المجال الاجتماعي والسياسي . وربما

نتج ذلك من أن أية خطوة تقدم عليها في هذا المجال يجب ان تقيم في ضوء رد الفعل السوفيتي اتجاهها .

(١) السويد :

اتبعت السويد . أكبر الدول الاسكندنافية مساحة وأهمها ، سياسة محايدة جعلتها تنأى من الجرى وراء الانضمام إلى السوق المشتركة رغم علاقتها الاقتصادية الوثيقة مع دول غربي أوروبا . وقد شهدت السويد منذ منتصف القرن التاسع عشر نهضة كبرى رفعتها من أفقر دولة إلى إحدى أغنى دول أوروبا . ووجدت سوقا كبرى في غربي أوروبا لمنتجاتها من المواد الخام والمعادن والمنتجات الصناعية والخشب واللب والورق ، ولكنها فقدت أسواق أوروبا الشرقية والوسطى خاصة نتيجة للنظام الاقتصادي السوفيتي المطلق الذي فرض على هذه المناطق بعد ١٩٤٥ ومن ثم برزت أسواق غربي أوروبا الغنية كأحسن منطقة لتصريف منتجات صناعتها الهندسية ذات الجودة العالية بينما اكتسبت البلاى ومحمل الأسطوانات السويدية أهمية حيوية لاقتصاد أوروبا الغربية .

(٢) النرويج :

يعتمد اقتصاد النرويج اعتمادا كبيرا على صيد الاسماك والملاحة ويتم تسويق معظم هذه المنتجات في أوروبا الغربية كما انها استغلت مواردها المائية في تطوير توليد الطاقة الكهرومائية واستخدامها في صناعة المعادن والمنتجات الكيماوية

“Electrometallurgy, Electrochemicals”

وهي تنظر إلى اسواق غربي أوروبا ايضا في تسويق هذه المنتجات . وقد طرأ تغيير جذري في الوضع الاقتصادي للنرويج منذ أواخر الستينات إثر اكتشاف ارسابات ضخمة من البترول والغاز الطبيعي في قطاعها من بحر الشمال ، ولكن نتيجة لطبوغرافية قاع البحر في هذا القطاع سيتم نقل معظم البترول والغاز إلى مناطق خارج النرويج (مثلا البترول إلى ميناء تيزبورت Teesport في شمال شرق إنجلترا والغاز إلى امدن Emden في ألمانيا الغربية) وبواسطة وسائل ملء الناقلات في البحر من عوامات ثابتة أمكن تفريغ بعض البترول في الشاطئ النرويجي . وقد فقدت مناجم الفحم اسبيتزبرجن أهميتها نتيجة الدور المتغير للفحم . ولكن هناك اعتبارات

استراتيجية ومستقبل البترول بالإضافة الى تطورات أخرى ستجعل الدولة تولى اهتمامها بهذه الحقول على المدى البعيد .

(٣) فنلنده :

ارتبطت فنلنده مع الاتحاد السوفيتى بمعاهدة صارمة كما يتحكم قربها الجغرافى من هذه الدولة العظمى نوع العلاقة بينها ولذا كان اكتساب رضاها مهما لفنلنده لتأمين شرها . وقد كلفت هذه الأوضاع علاقتها مع باقى دول أوروبا . وقد عانت فنلنده من المشكلة الناجمة من تدفق اللاجئين من أقاليمها التى ضمها روسيا إليها مما استدعى القيام بإجراءات مثل إعادة تقسيم القطع الزراعية وتوطين أعداد من المهاجرين فى المناطق الشمالية القاحلة . وعلى الرغم من ان قطع الأخشاب وصناعة منتجاتها واستخراج المعادن (النحاس والنيكل وتيتانيوم وفيناديوم) ما زال مهما فقد طورت فنلنده صناعات المواد الاستهلاكية ذات الجودة العالية (النسيج والزجاج والمواد الغذائية) وصناعة سفن خاصة (مثل كاسحات الجليد) .

(٤) ايسلنده :

تعتبر ايسلنده جزءا من أوروبا رغم بعدها الجغرافى عنها لعلاقاتها وارتباطاتها الاقتصادية والثقافية بها ، ويمثل صيد الأسماك أساس اقتصادياتها اذ تفتقر الجزيرة الى المواد الطبيعية وقد أدت محاولاتها لصيانة وحفاظة موارد السمك الى مد حدود مياهها الإقليمية الى ٢٠٠ ميلا نتج منها صراع مع دول أخرى ، خاصة بريطانيا وألمانيا الغربية ، كما ادى الى التعجيل بمطالبة دول السوق المشتركة الى مد حدودها البحرية (١٩٧٧) .

(٥) النمسا وسويسرة والبرتغال :

تربط النمسا وسويسرة علاقات اقتصادية وثيقة مع دول السوق المجاورة ، لكن حال من انضمام النمسا الى السوق معاهدة السلام بينا لم تتحمس سويسرة لعضوية المنظمة نسبة لسياستها الحيادية التقليدية ومبدأ عدم التدخل فى شئون الغير التى تعتنق به . فسويسرة تحتل وضعاً رئيسياً بالنسبة للمواصلات فى غرب ووسط أوروبا كما تسيطر على انفاق وممرات الألب الرئيسية فى حين أن النمسا تمثل أيضا منطقة عبور

مهمة بين أوروبا الغربية ومنطقة الدانوب . وقد استطاعت الدولتان استغلال مواردها المائية في توليد الكهرباء التي تلعب دورا حيويا في اقتصادياتها إلى درجة تصديرها إلى بعض الدول المجاورة مثل ألمانيا الغربية كما أن الكهرباء تمثل أساس صناعة معادن ذات جودة عالية : فسويسرة ذات شهرة عالمية في الصناعة الهندسية الدقيقة مثل الساعات ومعدات التوقيت الأخرى وكذلك في صناعة الأدوية والمنسوجات وآلات النسيج ، وتعتمد كلية على المواد الخام المستوردة من الخارج ، وخاصة من دول السوق المشتركة . أما النمسا فلديها صناعة هندسية متطورة وإن كانت لا ترقى إلى مستوى الصناعات السويسرية ولكنها تتمتع بموارد طبيعية أكثر ، ففي جنوبها توجد إرسابات الماغنسيوم وتفتخر منطقة ايرزبيرج بأكبر مورد للحديد الخام في أوروبا ومنها تستمد مصانع دونافترزولين Leoben حديدتها منها . وتعتمد الدولتان اعتمادا كبيرا على السياحة وتنفرد سويسرة في كونها مقرا للعديد من الوكالات والمنظمات الدولية كما أنها مركز مالي ومصرفي كبير مما يجعلها تلعب دورا مهما في اقتصاد العالم .

أما البرتغال فهي أفقر دول (إفثا) ، وما زالت الزراعة تمثل قطاعا رئيسيا إذ تستوعب ٤١٪ من جملة سكانها وتمول أسواق أوروبا بالنبيذ والفلين والسلور ، والسمك (خاصة السردين والأنشوف) . أما الصناعة فقد أسهمت وفرة العمال والرأسمال الأجنبي في تطورها وتشمل (صناعة النسيج والمواد المنزلية) .

الدول غير الملتزمة خارج أوروبا الاشتراكية :

ظلت أسبانيا في منأى من المنظمات الأوروبية حتى منتصف السبعينات نتيجة المقاطعة التي فرضتها الدول الأوروبية على نظام فرانكو الدكتاتوري . وأسبانيا تعتبر في عداد الدول الفقيرة . فقد أخذت ما يقرب من ربع القرن لتفريق آثار الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) المدمرة وقد أدى استنفاد بعض الموارد المعدنية الهامة إلى تفاقم وضعها الاقتصادي . ولكن وفرة الأيدي العاملة الرخيصة كانت من الأسباب التي جذبت رؤوس الأموال الأجنبية كقطر يمكن فيه إقامة صناعات التجميع التي تحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة . وقد رأت بعض المؤسسات ذات الصبغة

الدولية استثمار أموال أوروبية في أسبانيا (والبرتغال) بدلا من الدول الصناعية المتقدمة حيث تقل الأيدي العاملة وتكاليف الإنتاج باهظة . وتركز الصناعات الثقيلة في شمال أسبانيا حيث اكتسب تعدين الحديد أهمية كبرى في القرن الماضي كما تتميز مقاطعتا الباسك وقطونيا ذات التزعة الانفصالية بأهميتها الاقتصادية . وتحت النظام الليبرالي الحالي تسعى أسبانيا للانضمام لمعاهدة روما - أي السوق الأوروبية .

اما اليونان فقد خضعت لنفوذ المعسكر السوفيتي بعد الحرب مباشرة ولكنها تسعى الآن للارتباط (الانتساب) إلى السوق المشتركة التي تعتمد عليها لتسويق منتجاتها الزراعية وقدرتها الملاحية واستقطاب السواح منها* . وقد بذلت مجهودات ضخمة لتحديث وزيادة الإنتاج الزراعي ولكن صناعاتها الصغيرة تنحصر في المدن الرئيسية ويتم تعدين خام الألمنيوم (البوكسيت) والكروم ، كما أن اليونان تسيطر على ثلث السفن التجارية في العالم ومن ضمنها نسبة عالية من ناقلات البترول الضخمة .

وقد يثير انضمام أسبانيا والبرتغال واليونان للسوق الأوروبية مشاكل عديدة نسبة لطبيعة اقتصادياتها ، ولكن هناك من يرى أن الدفاع عن الأنظمة الديمقراطية الهشة التي تسود هذه البلاد إثر انهيار النظم العسكرية والديمقراطية أكثر أهمية من المشاكل التي ستنتج من اقتصادياتها التي تسيطر عليها الزراعة .

وهناك دول حديثة الاستقلال مثل قبرص ومالطا اللتين تعتمدان على تدفق السواح الأوروبيين رغم أن قبرص يعدن فيها النحاس والاسبستوس والبايرايت ، بينما تمتلك مالطا مرفأً ضخمة بعد انسحاب الاسطول البريطاني منها . أما من بين الدويلات الصغيرة تعتبر ليختنشتاين الواقعة بين سويسرة والنمسا أكثرها نجاحا في اجتذاب الصناعات الخفيفة إلى درجة أنها تعتبر أكثر دول أوروبا تقدما من ناحية الصناعة والثروة بالنسبة إلى مساحتها .

(د) منظمة الكوميكون Comecon وأوروبا الشرقية :

إثر النجاح العسكري والسياسي الذي أحرزه الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية

، انضمت اليونان للسوق المشتركة في أواخر ١٩٨١ م .

الثانية ، خضعت مناطق شاسعة في شرق أوروبا الوسطى وشرقها للنفوذ الروسى وأدى قبول الأيدولوجية الماركسية اللينينية والنظم والتوجيه الاقتصادى من قبل هذه الدول كأساس للحكم إلى اعتبارها منطقة نفوذ واحدة واعتبار « أوروبا الشرقية » كامتداد مكافئ لأحد أقاليم أوروبا الكبيرة داخل إطار مفاهيم اقليمية متغيرة تتكيف وفق ما يطرأ على جغرافيتها السياسية من تغيرات .

وقد تأكد وضع أوروبا الشرقية الجديدة بانعزالها من أوروبا الغربية نتيجة الحرب الباردة بين الكتلتين في الخمسينات وعدم قبول روسيا لمشروع مارشال الأمريكى لاعادة بناء أوروبا مما أدى إلى رفضه وعلى مضض من قبل بعض الدول التابعة لها (وخاصة بولندة وتشكوسلوفاكيا) رغم حاجتها الماسة إلى هذه المعونة . ثم قدمت روسيا تعديلا للمشروع الأمريكى في عام ١٩٤٩ يتمثل في مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة الكوميكون Council for Mutual Economic Assistance وانضمت إليها جميع دول المعسكر الاشتراكى ما عدا يوغسلافيا - وقد اتبعت سياسة ربط ودمج اقتصاديات هذه الدول الاعضاء مع بعضها البعض ومع الاقتصاد السوفيتى إلى درجة أن ٤٠٪ من تجارة هذه الدول يتم مع الاتحاد السوفيتى . وقد تم قبول المبدأ القائل بأن تحقيق الوحدة سيتم عن طريق تبنى النظرية الماركسية - اللينينية رغم تأكيد المجلس أو المنظمة للسيادة القومية لهذه الدول - وهذا يتناقض مع الصبغة فوق القومية التى تتميز بها السوق الأوروبية .

وعلى الرغم من ذلك فإن تأثير الكوميكون على النمط المكافئ لأوروبا الشرقية كبير إذ اتجهت المنطقة نحو الشرق (روسيا) وارتبطت اقتصاديا بروسيا تطنى على بقية الدول بنفوذها السياسى ومواردها الضخمة وامكانياتها الاقتصادية الهائلة وذلك على عكس التوازن المتساوى في دور ونفوذ اعضاء السوق المشتركة . وبينما أدت الصبغة فوق القومية للسوق المشتركة إلى تشجيع التجارة الدولية والانتقال وتدفق العمال بين الدول الأعضاء لم تجد هذه العناصر أهمية تذكر بل تثبيطا متواصلا داخل الكوميكون بينما تطور اقتصاد كل دولة من أعضاء السوق المشتركة وفق إرادتها الحرة وفي إطار الاتكال المتبادل بين أعضائها . سعت السياسة الأولى في الكوميكون والنسب خطط

وفق التجربة الروسية إلى البحث عن وسائل لتحقيق الاكتفاء الذاتى داخل كل دولة من الدول الأعضاء بطريقة تخدم فى النهاية وتؤكد ارتباط هذه الدول بقوة روسيا الصناعية وامكانياتها الهائلة . ولما ظهر فشل هذه السياسة واخفاقها فى تحقيق الهدف حاولت روسيا تطبيق فكرة جديدة مبنية على اساس تقسيم العمل الدولى الاشتراكى وتتضمن الدول المتخصصة فى إنتاج ما تستطيع وانجاز ذلك على احسن وجه ومن ثم تحقيق التبادل التجارى على نطاق أوسع . وأخيرا شهدت السبعينات تطبيق مفهوم جديد فى التكامل الاشتراكى (مثل ربط الخطط القومية للدول مع بعضها البعض وتشجيع الأعمال ذات القومية المتعددة) بما اضى نوعا من فوق القومية على هذه المنظمة ولكن آثار هذا التحول الجديد لم تظهر بعد (١٩٨٠) .

ومن التعصب أن ننكر النجاح الذى حققه الكوميكون رغم ما صاحب هذا النجاح من إرهابات ومتاعب . ففى أيام تكوينها الأولى كانت المنظمة تحت السيطرة السوفيتية وما زال نفوذها قويا حتى الآن . وقد كانت أحداث المجر وبولندا العنيفة فى عام ١٩٥٦ تمثل بادرة التوتر الذى بلغ ذروته فى هذه الأحداث وتعكس محاولات هذه الدول فى التحرر من السياسات السوفيتية الصارمة . كما أسفرت الضغوط التى قامت بها الدول الأعضاء فى سبيل بنية مالية وتجارية أكثر خنكة ودراية عن الأزمة التشيكية فى عام ١٩٦٨ ، وفى نفس الوقت ادى ظهور مواقف مختلفة بين الدول الأعضاء نفسها إلى حدوث إرهابات أخرى تتمثل فى محاولات من قبل الدول الصناعية على إجبار رومانيا لتبقى دولة مصدرة للمواد الخام والمنتجات شبه المصنعة بدلا من تطوير صناعاتها لئلا تنافس عندئذ تلك الدول ، وعلى مستوى أقل أدت المنافسة بين موانئ بحر البلطيق إلى سوء تفاهم وعلاقة بين بولندا والمانيا الديمقراطية . ولكى تعوض ما فقدته خلال الفترة التى سيطر عليها الاتحاد السوفيتى واللاحاق بما فاته اتجهت دول الكوميكون إلى شراء التقنية الغربية المتقدمة وحتى البحث عن مجالات لاستثمار مشترك مع الدول الغربية . وقد انتهى هذا القرن دون التخلص تماما من الآثار السياسية والاقتصادية لهذه السياسة الصارمة التى صاحبت مراحل التكوين الأولى .

وعلى العكس من السوق المشتركة حيث تنحصر العضوية فيها على الدول الأوروبية فإن منظمة الكوميكون مستعدة لقبول عضوية أى دولة تقبل التعاون في تطبيق النظام الاقتصادي الاشتراكي (الماركسي) . وتنقسم الدول الأعضاء إلى مجموعتين تحت وصاية الاتحاد السوفيتي : -

١ - مجموعة ذات اقتصاديات متقدمة تقع في الشمال الغربى وتشمل ألمانيا الديمقراطية وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر .

٢ - المجموعة الثانية وتضم دولا أقل تطورا ويمكن اعتبارها دولا نامية مثل رومانيا وبلغاريا ويمكن ضم يوغسلافيا وألبانيا (التى جمعت نشاطها منذ ١٩٦١) إلى هذه المجموعة .

والآن سندرس هذه الدول ببعض التفاصيل : -

(١) بولندا (بولونيا) :

ترجع مشاكل ما بعد الحرب في بولندا إلى التغيير الجذري الذى طرأ على حدودها الاقليمية نتيجة ضم مناطق ألمانية متطورة اقتصاديا في الغرب وفقدان أراضي شاسعة لكنها فقيرة في الشرق للاتحاد السوفيتي ، كما أنها عانت من تجربة فقدان عدد ضخم من سكانها من جراء الحرب (خاصة في وسط المثقفين) والمهجرة ، وكان لابد من استيطان المناطق المكتسبة بالبولنديين الذين جاء بعضهم من المناطق الشرقية التى فقدتها وذلك أثر هروب الألمان أو طردهم ، وبذلك فقدت بولندا العمال الألمان ، خاصة الحرفيين المهرة ، ومن ثم اضطرت لتدريب كوادر جديدة لإدارة وتشغيل المصانع . وبضم الجزء الألماني من مقاطعة سايليزيا العليا حصلت بولندا على احتياطي ضخم من الفحم جيد النوع كما تم اكتشاف طبقات جديدة في الجنوب الشرقى من الدولة حول مدينة لوبلن Lublin ، وازيدت إرسابات ليجنايت جديدة بضم الإقليم الألماني كما تم العثور على رواسب كبيرة من النحاس في سايليزيا السفلى . وتوجد رواسب الزنك والرصاص في حقول فحم سايليزيا العليا ، ولكن إرسابات خام الحديد بقيت على حالها دون زيادة . وتشمل الموارد الأخرى الكبريت والملح والبوتاس . ورغم فقدانها لبعض حقول البترول

للاتحاد السوفيتى فإن بولندا تنتج كميات قليلة من البترول والغاز الطبيعى لا تكفى لسد احتياجات البلد .

وقد أضاف ضم سايليزيا العليا عددا من مصانع الحديد والصلب الألمانية إلى المصانع الموجودة داخل حدود بولندا وخاصة مصانع تشستوشو Czesłochowa ومصنع لينين الضخم فى نواحوتنا Nowa Huta شرق مدينة كاركاو الذى تم تشييده فى الخمسينات وفق السياسة المركزية للاكتفاء الذاتى التى كانت تنتهجها الكوميكون حينذاك . ونسبة لأن الفحم المحلى لا يصلح لعمل فحم الكوك الجيد فإن الإنتاج المحلى يخلط مع فحم الكوك المستورد كما يتم استيراد كميات ضخمة من خام الحديد من منطقة كريفوى روج فى روسيا وأصبحت حقول فحم سايليزيا العليا بمولداتها الحرارية الضخمة مركزا لصناعة المعادن غير الفلزية (مثل الألمنيوم من البوكسايت المستورد من المجر) ، كما استفادت بولندا من الصناعة الكيماوية التى حصلت عليها بعد ضم المناطق الألمانية خاصة مصنع اوسفيسيم Oswiecim . وحديثا تم انشاء مصنع للبتروكيماويات على خط الأنابيب الذى يحمل البترول الخام من الاتحاد السوفيتى عبر بولندا الى ألمانيا الديمقراطية كما يتوقع أن يشجع مرفأ البترول الجديد فى جدانسك (دانزيج) قيام مصنع للبتروكيماويات عند مجرى نهر فستولا الادنى .

ورغم أن التغيير الاقليمى قد أضاف أيضا صناعات هندسية ، فإن أكبر المراكز الصناعية الهندسية توجد داخل الإقليم البولندى الأصلى . ولكن ضم مينائى جدانسك وشيتين أدى إلى توسع فى صناعة السفن (ومن ثم أصبحت بولندا من أهم صانعى السفن فى أوروبا الشرقية) . وقد شمل التوسع فى الصناعة الهندسية التنوع فى مجال صناعة العربات كما دعمت مصانع النسيج الموجودة فى لودز Lodz وبيالستوك Bialystok (حيث يتركز ٤٠ ٪ من الانتاج الكلى) بإضافة المصانع الألمانية فى سايليزيا السفلى ، وتعتمد صناعة النسيج كثيرا على المواد الخام المستوردة من روسيا .

وعلى الرغم من الاستثمارات الضخمة فى الصناعة ما زالت اقتصاديات بولندا تعتمد على الزراعة التى تستوعب ٣٠ ٪ من السكان وقد فشلت محاولات الحكومة فى

تطبيق نظام المزارع الجماعية السوفيتي إثر مقاومة المزارعين لها مما أدى إلى ترك الفلاحين أحراراً مع تشجيعهم للانضمام للجمعيات التعاونية . والآن يمتلك المزارعون ٨٧٪ من مزارع بولنده ، ويبدو التناقض واضحاً في الزراعة بين المناطق الألمانية السابقة وباقي أجزاء بولنده : ففي المنطقة الأولى تسم المزارع بكبر أحجامها نتيجة للصعوبات التي واجهت استيطان هذه المناطق وعامة ينخفض مستوى الزراعة كلما اتجهنا شرقاً وينخفض الإنتاج ، ويقل مستوى الأداء الزراعي عامه : فالمزارع صغيرة ويقل استخدام الأسمدة والمكثبات ورغم ذلك فإن تجارة الحبوب مع الغرب ذات أهمية للاقتصاد البولندي ولكن فرض الحواجز الجمركية من قبل السوق المشتركة على المنتجات الزراعية وفق السياسة الزراعية قد يجلب مشاكل اقتصادية لبولنده .

تحتل بولندا مركزاً مهماً في نظام شبكة المواصلات في أوروبا الشرقية وخاصة بعد ضم موانئ مهمة بعد الحرب والتي بواسطتها تأمل بولنده من اجتذاب الحركة من الداخل وحوض نهر الدانوب . وتربط شبكة جيدة من السكك الحديدية هذه الموانئ بالمناطق الداخلية وكذلك الاتحاد السوفيتي وأيضاً بدول غربي أوروبا . وقد تم استثمار أموال ضخمة لتحديث السكك الحديدية ولكن لم يكن لتطوير الطرق البرية نصيب كبير في ذلك ، ولذلك يقل مستوى النقل البري فيها دون المستوى السائد في باقي دول شرق أوروبا . ويمكن لبولنده أن تلعب دوراً رئيسياً في تطوير شبكة الطرق المائية في أوروبا الشرقية إذا تم بناء ممر مائي يربط حوض الدنيبر بنهر الألب والدانوب عن طريق حوض الفستولا .

وتعكس محاولات بولنده في تشييت المصانع من مناطق تركيزها الحالية إلى المناطق الريفية حيث تقل الفرصة الصناعية - تعكس الدور المهم الذي لعبه التخطيط الإقليمي في دول شرق أوروبا الاشتراكية . ولتحقيق سياسة الاكتفاء الذاتي تم إنشاء مصانع لينين الضخمة في مدينة نواحوتا الجديدة لامتصاص البطالة الريفية بينما تواصل الحكومة في محاولاتها السابقة (قبل الحرب) لتشيت ونشر الصناعة بطريقة متساوية في الأجزاء الجنوبية من الدولة . وقد شهدت المد

الصناعية في الجزء الألماني السابق نموا كبيرا في سكاها بينما انخفض سكان الريف في نفس الإقليم إلى دون مستوى ما قبل الحرب .

(٢) تشكوسلوفاكيا :

كانت تشكوسلوفاكيا أكثر الدول السلافية تصنيعا قبل الحرب . وظلت الدولة خارج مدار الاتحاد السوفيتي حتى انقلاب عام ١٩٤٨ . ومع دخولها في منظمة الكوميكون اصاب الشلل تقدمها الاقتصادي نتيجة المشاكل الناجمة من عملية التحديث ومانزق الاستثمار وفق سياسة التخطيط الإقليمي الذي فرضها السوفييت على اعضاء المنظمة . لم تفقد تشكوسلوفاكيا اراضي شاسعة بعد الحرب مثل بولنده ، بل جزءا صغيرا في إقليم الكريات - أوكرانيا ، ومثل بولنده قبل الحرب كانت تشكوسلوفاكيا تضم أقاليم كبيرة بلغ عدد الألمان منهم ثلاثة مليون . وأدى تدهور العلاقات بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا بعد عام ١٩٣٨ إلى طرد الألمان مما أفقد التشيك جزءا مهما من الأيدي العاملة الصناعية ومعظم رجال الأعمال والمقاولين . بينما خلت المدن الصناعية من السكان بعد ذهاب الألمان ، ومن ثم واجهت الدولة نفس المشاكل التي واجهت بولنده في المناطق الألمانية السابقة من تدريب لكوادر جديدة وإعادة توطين المدن المهجورة وتطوير المناطق الصناعية مرة أخرى . وقد أثارت حاجة الدولة الماسة للموارد القومية لإعادة تطوير منطقة بوهيميا - مورافيا ، شكوك السلوفاكيين حول نوايا حكومة براغ فيما يختص بموضوع التخلف الاقتصادي في سلوفاكيا ، وكانت هذه المسألة من الأسباب التي أفسدت العلاقة بين التشيكيين والسلوفاكيين قبل عام ١٩٣٩ . ولتفادي أي تفاقم في العلاقات حولت الاستثمارات إلى إقليم سلوفاكيا ، وقد أدى ذلك إلى تأخير وتعطيل عملية تحديث وإعادة تجهيز المصانع بالمعدات وتدريب العمال في مناطق التركيز الصناعي في إقليم بوهيميا - مورافيا حيث كانت فرص التنمية مواتية وبجمل الاستثمار واسعاً ومرحاً .

وتشكوسلوفاكيا هي إحدى الدول الصناعية الرئيسية في أوروبا الشرقية ، وتوجد إرسابات الفحم في الجزء التشيكي من سايليزيا كما أن هناك حقولا أخرى بين براغ وبلزن وفي شمال بوهيميا . أما خام الحديد فتوجد كميات محدودة منه في وسط

بوهيميا وشرق سلوفاكيا ، وكذلك يتم استيراد كميات كبيرة منه من الخارج - خاصة روسيا ، كما ان هناك بعض المعادن مثل النحاس والرصاص والزنك والفضة في أجزاء من الدولة ولكن بكميات صغيرة .

تتركز صناعة الحديد والصلب في سايليزيا وحول بلزن - كلالندو في الغرب وكانت هناك خطة روسية قبل الحرب مباشرة لدمج سايليزيا البولندية والتشيكية سياسيا وتحويلها إلى مركز صناعي لشرق أوروبا ولكن لم يتحقق ذلك . وقد أدى إنشاء المصانع الجديدة في كوتشيس Kosice إلى تدهور المصانع القديمة في سلوفاكيا منذ أواخر الستينات . وتستمد المصانع الجديدة خام الحديد من أوكرانيا مباشرة بواسطة خط حديدي عريض أنسيء خصيصا لهذا الغرض .

كان تشكوسلوفاكيا تمثل ترسانة إمبراطورية هابسبيرج وكانت النتيجة انها ورثت صناعة هندسية (تشمل مصانع سكودا الكبيرة في بلزن) . وفي العشرينات طورت صناعة عربات سكودا التي اصبحت فيما بعد دعامة مهمة لاقتصاد المعسكر الشرقي وقوته . كما توجد صناعة كياوية مهمة تتركز مع صناعة هندسية اخرى في منطقة بوهيميا مورافيا أيضا ولم تعد هناك مشكلة في الطاقة اد تأتى الأنابيب بالغاز الطبيعي والبترول من حقول روسيا وقد أدى ذلك إلى تطور صناعة البتروكيمياويات . وقد كان للتشديد على صناعة المعدات المنتجة الضخمة في اقتصاد دول شرق أوروبا والأولوية القليلة التي أعطيت للمستهلك أثر عكسي في تشكوسلوفاكيا : فقد عانت صناعة الزجاج المشهورة في شمال بوهيميا من فقدان عاملها المهرة إثر طرد الألمان (الذين ينافسون المنتجات التشيكية من مصانع مماثلة في ألمانيا الغربية) .

أما صناعة النسيج في بوهيميا فلم تجد هي بدورها العناية والاهتمام ومن ثم تدهورت لأن الإنتاج كان موجهًا لسد احتياجات المستهلكين فقط ، كما أنها من الصناعات التي أعطيت الأولوية في سلوفاكيا ضمن سياسة المساواة في التصنيع بين الأقاليم . ووفق هذه السياسة أيضا تم إنشاء بعض الصناعات الهندسية الخفيفة للتجميع (كما في وادي فاه ١٩١١) في سلوفاكيا أيضا . وعلى الرغم من ذلك فان صناعات تشكوسلوفاكيا الاستهلاكية (النسيج والأحذية والمعدات المنسية) لها

شهرتها داخل اسواق الكوميكون ، ولو قدر لها أن تكون في منطقة ذات اقتصاد حر
لاصبحت أكبر شأنًا وأكثر نماء وانتشارا .

نظرا لموقعها المركزي في قلب القارة أصبحت تشكوسلوفاكيا منطقة عبور مهمة
للسكك الحديدية رغم أن حركة البضائع الداخلية تسلك محورا شرق وغرب يربط
بين مناطق الصناعة الرئيسية كما انها شرعت ولكن بتردد في اكمال مشروع قناة
الدانوب - الأودر التي تمر عبر مرمورافيا ، ثم حفر فرع منها إلى نهر الألب . ونسبة
لموقعها الداخلي تلجأ الدولة إلى استخدام موانئ دول أخرى : فأغلب تجارتها يمر عن
طريق موانئ بولنده وألمانيا الشرقية ، وبعضها يتجه إلى هامبورج في ألمانيا الغربية ،
كما تسعى يوغسلافيا إلى اجتذاب بعض الحركة عن طريق ميناء رايكا Rijeka على
البحر الادرياتي . وشهدت حركة المرور على الطرق نهضة كبيرة بعد انشاء شبكة
للباصات تغطي اجزاء عديدة من الدولة ، كما يتم الآن بناء طريق رئيسي من عند
حدود المانيا الشرقية إلى براتيسلافا مارا بالعاصمة براغ .

تلعب الزراعة دورا أقل في التوظيف في تشكوسلوفاكيا بالمقارنة مع دول أوروبا
الشرقية الأخرى ، لكن أهميتها تفوق تلك التي في أوروبا الغربية . ففي منطقة
بوهيميا - مورافيا تمارس الزراعة على أساس جزئي أو كحرفة ثانوية إذ تمثل الصناعة
أهم الحرف هنا بينما خفض عدد المشتغلين في هذا القطاع في إقليم سلوفاكيا وفقا
للسياسة الاقتصادية المتبعة . وعلى عكس ما حدث في بولنده ، طبق في
تشكوسلوفاكيا نظام المزارع الجماعية الذي تسبب في احداث تغيير في البلاندسكيب
ونمط الاستيطان . ولكن نسبة لتضرر المنطقة وانتشار زراعة المرتفعات فإن العائد
من الزراعة في مناطق شاسعه منخفض جدا . وتسهم الدولة في الكوميكون بنصيب
كبير من بنجر السكر (الشمندر) وحشيشة الدينار hops بينما تمول غاباتها
الضخمة صناعة ورق مهمة .

(٣) ألمانيا الديمقراطية :

تحتل ألمانيا الديمقراطية المرتبة العاشرة في قائمة الدول الصناعية الرئيسية في العالم
كما تعتبر من أهم أعضاء دول الكوميكون . فهي على عكس بولنده وتشكوسلوفاكيا

لا تركز شديدا على التصنيع ولكنها تمتلك صناعات كيمياوية ضخمة ومتقدمة تكنولوجيا في حوض السال والألب وكذلك صناعات هندسية متقدمة وخاصة في منطقة ساكسونيا وبرلين (هندسة كهربائية) جعلت منها أهم دولة من حيث المساهمة في اقتصاديات منظمة الكوميكون . فصناعة المعدات البصرية في جيناو ورسدن هي الوحيدة من نوعها في دول الكوميكون من حيث الجودة والإنقان .

عانت ألمانيا الديمقراطية بعد التقسيم من تفكيك المصانع في سبيل التعويضات للشركات التي نقلت مصانعها إلى ألمانيا الغربية . كما أن تركيبها المكاني تعرض للتمزق بزحمة حدود بولندة إلى الغرب وبالحدود الجديدة بينها وبين ألمانيا الاتحادية . فقد أدى انزاعها من الغرب إلى بتر علاقات اقتصادية عريقة ولذلك فقد تعثر نموها الاقتصادي خلال السنوات الأولى بعد الحرب ، لكن لم يدم ذلك طويلا إذ شهدت الدولة تطورا اقتصاديا كبيرا من أواخر الخمسينات حتى تفوقت على منافستها تشكوسلوفاكيا في قطاعات عديدة .

تمتلك ألمانيا قدرا ضئيلا من الفحم البتوميني ، وتمثل الكهرباء المولدة من فحم الليجنايت اهم مصدر للطاقة كما تفتقر إلى كميات كبيرة من البترول والغاز الطبيعي . ولذلك تعتمد ألمانيا على استيراد كل احتياجاتها منه على الاتحاد السوفيتي عن طريق أنابيب تجلب البترول إلى مصنى شفيدت Schwedt . كما يوجد مرفأ آخر في ميناء روستوك لاستلام الزيت المستورد من مناطق أخرى . أما المواد الخام للطاقة النووية فيصدر معظمها إلى الاتحاد السوفيتي ولكن هناك خطط لإقامة مفاعل لتوليد هذه الطاقة داخل البلاد . وتفتقر الدولة أيضا إلى الموارد المعدنية : فإرسابات الحديد الخام ضئيلة كما توجد كميات لا بأس بها من النيكل والزنك والنحاس ، أما الأملاح الكيماوية فتوجد بكميات متوفرة وتشكل اساس الصناعات الكيماوية .

وكانت قلة فحم الكوك (وفشل المحاولات لتحويل فحم الليجنايت إلى كوك) وخام الحديد من الأسباب الأساسية التي أدت إلى فشل سياسة الاكتفاء الذاتي عن طريق تطوير صناعة الحديد والصلب . ومن المصنعين الكبيرين اللذين تم إنشاءهما

بعد الحرب في مدينة مصانع الصلب Eisenhuttenstadt وكالِب Calbe ، قفل الأخير نهائيا ولكن النجاح كان حليف صناعات أخرى مثل إنتاج قاطرات السكك الحديدية وحافلاتها وكذلك أنواع جيدة من الصلب ، كما وجهت الصناعات الهندسية لإنتاج المعدات الثقيلة التي تحتاج إليها دول الكوميكون ، وظلت بعض المصانع الفرعية عاطلة حتى تم توفير أجزائها ومكوناتها بتصنيعها محليا (لأن هذه الفروع كانت قد ضمت لألمانيا الاتحادية بعد التقسيم) .

وكغيرها من القطاعات الأخرى عانت الصناعة الهندسية من النقص في الأيدي العاملة الناتج من هجرة الألمان إلى ألمانيا الغربية ، كما أجبرت ألمانيا الشرقية على الاستعانة بالفائض العمالي من ريف المجر في إنجاز مصانع مشتركة يتم فيها تجميع الأجزاء والمكونات المصنوعة في ألمانيا . واستفادت ألمانيا الديمقراطية من التركيز السوفيتي على الصناعة الكيماوية وتطويرها بعد عام ١٩٥٩ وذلك في تطوير إمكانياتها الضخمة في هذا المجال وإنشاء خمسة مصانع في هال Halle و بترفيلد Bitterfeld وفولفن Wolfen وميرزبيرج وبسترانيز Piesteritz ، تمول ٤٠ ٪ من إنتاج الكوميكون ومن أهم منتجاتها المطاط الصناعي والاياف الصناعية والادوية وأدوات التصوير ومحلولها .

وقد قامت هذه الصناعات اساسا على فحم الليجنائيت ولكنها تحولت الآن إلى البتروكيماويات ولكن ما زالت الصناعات تعاني من نقص في مياه المعالجة -proce ss water ، ولأن الكهرباء تكون ثلث تكلفة الانتاج في كثير من المصنع فان هذه الصناعة تتركز حول المولدات الضخمة .

ورثت ألمانيا الديمقراطية صناعة ضخمة للمواد الاستهلاكية منها مصانع نسيج ذات جودة عالية في ساكسونيا ولكن هذه الصناعة لم تلق اهمية كبرى في نطاق سياسة الأولويات ومن ثم أخذت الدولة تركز في صناعة المنسوجات ذات المستوى المتوسط الجودة لتناسب أسواق دول الكوميكون . وبقيت مواد استهلاكية أخرى محتفظة باهميتها (مثل المعدات الكهربائية المنزلية) في أسواق الكوميكون كما تصدر كميات منها إلى دول الغرب ، خاصة ألمانيا الغربية عن طريق البريد .

كانت الزراعة في ألمانيا قبل الحرب أكثر تقدما وأحسن مستوى من باقي دول الكومينكون ، ولكن هذا القطاع الهام تعرض للتمزق بعد الحرب مباشرة أثر تطبيق المزارع الجماعية وإصلاح الأرض مما أدى إلى انخفاض كبير في الإنتاج ونقص شديد في المواد الغذائية . وتتخذ الزراعة من النظام الزراعي السوفيتي نموذجا ، وتعتبر الزراعة الألمانية اليوم من أكفأ الأنظمة الزراعية بين دول الكومينكون ولكن نسبة المشتغلين فيها تقل كثيرا عن هذه الدول . وعلى الرغم من ذلك تستورد ألمانيا الشرقية كثيرا من مواردها الغذائية على عكس الدول الشرقية الأخرى التي تشكل المنتجات الزراعية جزءا مهما من مواد التصدير .

وعلى الرغم من أن ألمانيا الشرقية تحتل وضعا مركزيا بالنسبة للمواصلات ، تعرضت شبكة مواصلاتها للتمزق إثر تقسيم الرايخ ونزع المصانع بغرض التعويض ، ومن ثم كان إعادة بناء الطرق ووسائل المواصلات الأخرى محاولة للتكيف على الوضع الجغرافي الجديد اذ يتركز نقل البضائع في حوض السال والألب وساكسونيا والخطوط المجاورة لدول الكومينكون ، كما سعت الدولة إلى اجتذاب حركة النقل من تشيكوسلوفاكيا ومنطقة الدانوب إلى مينائها روستوك منافسة بذلك الموانئ البولندية ، وفقدت القناة الوسطى وممر الألب المائي أهميتها كشريان نقل نسبة لأن الحدود بين الألمانيتين تقطعها . ولكن ألمانيا الشرقية تفتخر باكتف شبكة طرق في أوروبا الشرقية ومن ضمنها العديد من الطرق الرئيسية التي تم توسعتها ومدها وربطها ببعض الفروع . ورغم ذلك ما زال النقل البري (على الطرق) محدودا . ويمثل أهم مشروع نقل الآن خطة لبناء سكك حديدية ذات سعة عالية وكذلك انشاء طريق رئيسي وحفر قنال يربط منطقة برلين وميناء روستوك ، وقد أدى تمزق شبكة المواصلات بأنواعها بسبب عزل مدينة برلين إلى بناء سكة حديد وطرق وقناة تحويلية بتكلفة باهظة .

بعد التضخم السكاني الذي شهدته ألمانيا الشرقية من جراء تدفق المهاجرين والمطرودين بعد الحرب مباشرة أدى تطبيق النظام الاقتصادي السوفيتي (الاشتراكي) وتحويل المجتمع إلى مجتمع اشتراكي إلى هجرة أخرى إلى خارج

البلاد - إلى ألمانيا الاتحادية . ونسبة لأن معظم هؤلاء المهاجرين كانوا سبباً فقد عانت ألمانيا الشرقية من نقص كبير في الأيدي العاملة وإلى خلل كبير في التوازن الديمقراطي للسكان ، إذ بقي بها العجائز والنساء . وفي ظل النظام الماركسي - اللينيني لم تجد هجرة العمال غير الألمانين قبولا لدى السلطات مما أدى إلى تعويق وتأخير التقدم الاقتصادي .

وعلى الرغم من أن النظام الشيوعي يركز على أهمية المدينة فإن نسبة التضرر كانت عالية حتى قبل الحرب ولذلك فإن ألمانيا الديمقراطية لم تشهد تلك الزيادة الكبيرة التي طرأت على سكان المدن في باقي دول أوروبا . فقد أعطيت الأولوية بعد الحرب لتركيز الصناعات في المدن الصغيرة والمتوسطة الحجم بدلا من إعادة بناء المدن الكبيرة التي تعرضت للتدمير والخراب أثناء الحرب ، وساعد ذلك في مساواة مستوى المعيشة بين المدينة والريف عن طريق تطوير المدن الشمالية الصغيرة صناعيا كما تم بناء مدن جديدة لتخدم مواقع صناعية جديدة مثل حقول فحم لوزاشيا ووادي الاودر (شنتد - وايزنهوتنشتاد) أو للتوسع في حوض الألب والساحل (مثل هال - نيوشنات) لعمال المصانع الكيماوية .

(٤). المجر :

كان معظم الصناعات المجرية يقع في الأقاليم التي فقدتها في عام ١٩١٩ ولذلك لم تستطع الدولة باقتصادها غير المتوازن أن تتقدم اقتصاديا في الفترة ما بين الحربين العالميتين . ومنذ عام ١٩٤٥ اتبعت الدول سياسة اقتصادية لتصحيح هذا الوضع وتوسيع الصناعة لامتصاص الزيادة السكانية في الريف . ولكن ما زالت بودابست تسيطر على نصيب الأسد في توزيع الصناعات وما زالت الزراعة تشغل ٣٠٪ من القوى العاملة . وقبل الحرب كانت الاقطاعات الكبيرة والأطيان تسيطر على الزراعة ، ثم حولت فيما بعد إلى مزارع جماعية ومزارع دولة على غرار المزارع السوفيتية وإن كان النظام المطبق هنا يتمتع بمرونة كبيرة ومحاولات عدة لتطوير الإنتاج بغرض التجارة والتركيز على تربية الماشية وزراعة الفواكه والمحصولات الخاصة بغرض التصدير إلى الأسواق الخارجية . وقد نجحت هذه السياسة الزراعية

لأن محاصيلات المجر تنضج بعد محاصيلات منطقة جنوب أوروبا المبكرة وقبل محاصيلات المناطق الوسطى والشمالية الغربية من القارة ، وعلى الرغم من ذلك فإن صادرات المجر الزراعية قد عانت كـهولندا من الحواجز الجمركية التي أقامتها دول السوق المشتركة وفق سياستها الزراعية العامة .

أما من ناحية الموارد الصناعية : فالمجر تمتلك كميات كبيرة من الفحم البنى يصلح بعضه فى الاستخدام فى الصناعات المعدنية لكنها تفتقر إلى فحم البتومينى كما أن الموارد المحلية من الغاز الطبيعى لا تكفى لسد احتياجاتها ولذلك تستورد ما يكفىها من رومانيا . وقامت المجر بتطوير مواردها المحلية من البترول فى جنوب غرب البلاد ولكنها تستلم كميات كبيرة من الاتحاد السوفيتى بواسطة الأنابيب ، كما أن هناك خططاً لتنمية الطاقة الكهرومائية من الدانوب وتيزا . ويتم استغلال بعض خام الحديد والمنغنيز والنحاس ولكن البوكسايت يمثل أهم مورد صناعى ولو أن معالجته مشكلة نظرا للكمية الهائلة من الكهرباء التى يحتاج إليها فى هذه العملية ، وتم معالجة كميات متزايدة من البوكسايت محليا كما أن هناك ترتيبات لصنعها فى هولندا والاتحاد السوفيتى وألمانيا الديمقراطية حيث الوضع أحسن بالنسبة للطاقة .

وقد أصاب الركود بعض مصانع الحديد المجرية فى الفترة ما بين الحربين لآثر انقطاعها من مصدر الحديد الخام من سلوفاكيا . وفى خلال فترة السياسة المركزية فى عهد ستالين تم إنشاء مصنع جديد ضخم يعتمد فى موارده الخام على روسيا وبلغاريا والمستخرجة محليا ، على نهر الدانوب عند مدينة دوناويفاروس Dunaujvaros ، وكان التركيز وفق هذه السياسة على الصناعات الهندسية وخاصة معدات النقل والمعدات الكهربائية وتقع بالقرب من بودابست ، بينما شهدت صناعة النسيج تحدينا فى معدات ومكناتها كما أن صناعة الادوية من النباتات والأعشاب الطبية لها أهميتها محليا وخارجيا .

تسمى سياسة التخطيط الإقليمى إلى تقليل هيمنة بودابست العاصمة على القطاع الصناعى وتوزيع المصانع إلى مدن الريف حيث الوفرة العالية ولكن ما زال النطاق الممتد من ميسكولس |Miskòlc| عبر بودابست وحقول البوكسايت فى

باكونى وحتى حقول البترول فى ناجيكانيزا nagykanizsa ما زال يشكل أهم نطاق صناعى . وإذا شهد الدانوب تطورا كبيرا فى النقل (مثلا بعد إكمال قناة الدانوب - المين Main) ستحتل المجر موقعا مسيطرا على النهر وستلعب دورا هاما فى الملاحة فيه . وما زالت الدولة تشكل منطقة عبور مهمة للسكك الحديدية وعلى أى حال ، فإن تطور المجر اقتصاديا ما زال مقيدا بالتوتر السائد فى حدودها مع يوغسلافيا .

(٥) رومانيا :

على الرغم من التخلف فى نواحى عديدة من القطاعات الاقتصادية تمتلك رومانيا إمكانيات ضخمة على المدى البعيد مما يجعلها أفضل دول جنوب شرق أوروبا وضعاً من الناحية الاقتصادية . وقد سعت الحكومة إلى استغلال مواردها المعدنية الكثيرة لتحقيق أفضل نمو صناعى ممكن على حساب مستوى المعيشة العامة . وفى هذه العملية استطاعت أن تتفادى تلك الآثار العنيفة والمضطربة التى مرت بها اقتصاديات الدول المتقدمة . وتعتبر نسبة النمو الصناعى الرومانى من أعلى النسب ليس بين دول الكوميكون فحسب بل فى العالم اجمع . وقد تبعت رومانيا سياسة التصنيع هذه بدون هوادة وتحد فى وجه محاولات الكوميكون لتحويلها إلى دولة مصدرة للمواد الخام ومواد شبه مصنعة للدول الاعضاء الأكثر تقدما فى مجال الصناعة .

قبل عام ١٩٣٩ كانت رومانيا تحتل الصدارة فى إنتاج البترول الخام فى أوروبا ، ولكنها فقدت هذه المكانة لعجز الإنتاج من مواكبة الاتجاهات العالمية الجديدة فى هذا المجال . وما زالت حقول البترول الرئيسية تتواجد عند سفوح الكربات بالقرب من بلوشتي^١ Ploiesti . كما تم اكتشاف كميات ضخمة من الغاز الطبيعى فى ترانسيلفانيا التى تحتوى أيضا على إرسابات فحم بكميات ونوعية جيدة فى جنوب غربها ، فى حين أن إرسابات الليجنائيت الرئيسية تقع شمال شرق أوراديا^٢ Oradea . وقد أثمرت الجهود لاستغلال الطاقة الكهربائية فى الكربات ومن مشروع مشترك مع يوغسلافيا عند البوابة الحديدية على نهر الدانوب ، ومن ثم فإن رومانيا هى أقل دول شرق أوروبا معاناة من مشاكل الطاقة وازماتها .

تمتلك رومانيا أنواعا من المواد المعدنية : خام الحديد فى جنوب عرب البلاد ولكن الكمية لا تكفى لسد احتياجات البلاد ولذلك تستورد كميات منه ، والمنغنيز فى الشمال ، ويوجد بعض الكروم والبوكسايت كما توجد معادن مهمة مثل النحاس والرصاص والزنك ، وكذلك الفضة والذهب التى تعتبر رومانيا أكبر منتج لها فى أوروبا . ويتركز إنتاج المعادن غير الحديدية فى منسبة يهور Bihor Massif كما توجد كميات كبيرة من مادة البايرايت والأملح .

شهدت صناعة الحديد والصلب توسعا كبيرا فى منطقة ريشتيا - هونيدوارا Resita-Hunedoara كما أن هناك عدة مراكز متخصصة فى إنتاج الصلب . وقد عارضت منظمة الكوميكون خطة لبناء مصانع متكاملة ضخمة تعتمد على خام الحديد المستورد فى Galati لان تشكوسلوفاكيا وبولندا ترغبان فى أن تم أى توسعة فى هذه الصناعة فى أو بالقرب من مناطقها الصناعية . وقد حدث توسع فى معالجة وتصنيع المعادن غير الحديدية ومركزها الرئيسى فى بايا مارى Baia mare ، وينتج الألومنيوم فى سلاتينا فى إقليم أرجش Arges .

أما الصناعة الكيماوية فقد ارتكزت فى نهضتها ونموها على المواد الخام المتوفرة محليا . وعلى الرغم من التركيز على إنتاج الأسمدة الاصطناعية فقد اهتمت الدولة أيضا بتطوير صناعة الألياف الصناعية والأدوية والمواد الكيماوية المستخدمة فى الصناعات الثقيلة . وتتركز البتروكيماويات عند حقول البترول فى إقليم بولشتى ، وقد تصبح رومانيا فى المدى البعيد الممول الرئيسى للكيماويات للمعسكر الاشتراكى . وكان تطور الصناعات الهندسية مقرونا بهذه النهضة الصناعية ، وتخصص رومانيا فى إنتاج معدات الصناعة البترولية كما استفادت من تصاريح الشركات الغربية فى إنتاج مكائن الديزل والمعدات المائلة ، وهى من اكبر الدول الشرقية فى إنتاج عربات السكك الحديدية مع بولنده . كما تلقى صناعة المعدات الزراعية وآلاتها اهتماما كبيرا . وتتركز الصناعات الهندسية فى المدن الكبيرة ، وتمثل احد القطاعات التى فاق النجاح فيها توقعات الكوميكون : فمهندسو البترول الرومانيون هم الذين ساعدوا فى تطوير إنتاج البترول فى دول الكوميكون الأخرى مثل ألمانيا الشرقية وبلغاريا ودول العالم الثالث مثل أفغانستان والهند .

وعلى الرغم من التصنيع الضخم فما زالت الزراعة تشغل حوالى نصف سكان رومانيا ، وقد تم تطبيق نظام المزارع الجماعية بتدرج وببطء. لثلا يؤدي الإسراع فى ذلك إلى إحداث اضطراب فى الإنتاج الزراعى الذى شهد ارتفاعا متواضعا . وعلى الرغم من ملائمة التربة والمناخ الزراعى فهناك عوامل تاريخية تضافرت فى تخلف الزراعة وفى خلق مجتمع لم يساعد فى تقدم الفلاحين ونهضتهم . وتتمثل المشاكل التى كان لابد من التغلب عليها لتحديث الزراعة فى التضخم السكانى فى الريف والفقر وسوء التغذية بينما كانت هناك مشاكل أخرى تتعلق بالمناطق الشاسعة التى كانت تخضع لاستغلال الرعاة الجبلين . ورغم هذه المشاكل استطاعت رومانيا من إنتاج فائض للتصدير وحتى إعانة روسيا بالحبوب عندما فشلت محاصيلها . وتشكل المواد الغذائية نحو نصف صادرات الدولة ، ومع ذلك هناك حاجة إلى زيادة الإنتاج بالانتقال من وسائل الإنتاج المتوسع (ومن ضمنها زراعة الحبوب) إلى أشكال أكثر تكيفا ، وتساعد البيئة مثل هذا الاتجاه من ناحية المناخ والتربة .

أدى التحول من اقتصاد زراعى إلى وضع أكثر توازنا بين الزراعة والصناعة إلى تعديل كبير فى النمط المكافى للدولة - أى توزيع مناطق النمو ، وقد أحرز ذلك بنشر أو تشييت المصانع وتوزيعها على نطاق واسع ولذا خلت هذه النهضة الصناعية من مثل المهجرات التى تم من الريف إلى المدينة التى تصاحب مثل هذه التطورات . وكانت النتيجة ان مدن الريف الصغيرة شهدت نموا أكثر من المدن الكبرى على الرغم من أن نصف الإنتاج الصناعى يأتى من خمسة أقاليم رئيسية : بوليشتى هونيدوارا وبنات وبراشوف وبوخارست . وقد تطلب تشييت الصناعة استثمارا ضخما فى مجالات مثل موارد الماء وتوزيع الكهرباء ووسائل النقل فى المناطق الريفية قبل إقامة المصانع ، كما أن تجهيز كوادرفنية مدربة ونشر الوسائل التعليمية كان مكلفا للغاية . أما الاستثمار فى مجال النقل فكان موجهها لرفع قدرة السكك الحديدية فى نقل البضائع المصنعة ولربط أجزاء الدولة مع بعضها عبر حاجز الكربات الشرقية . أما طرق النقل البرية فقد لعبت دورا ثانويا رغم الاهتمام بالملاحة فى الدانوب ورفع سعة الموانئ (كونستانتا وبريلا وغلاقى) .

(٦) بلغاريا :

. كانت بلغاريا وحتى وقت قريب إحدى أقل أجزاء أوروبا تطورا رعم مالمديها من إمكانيات للتطور والنمو . فهناك إرساباب الفحم والليجنات في أواسط البلاد وغربها كما تم العثور على بعض البترول والغاز الطبيعي في الشمال . وتوجد كميات من خام الحديد والمنغنيز والكرومايت والموليد ثم والنحاس والرصاص والزنك ، وكلها معادن تحتاج إليها منظمة الكوميكون ، واستثمرت أموال ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية المائية ولكن عملية التصنيع التي أعطتها الدولة كل اهتمامها تعثرت نسبة للنقص في الكوادر المدربة والأيدى العاملة المهرة ومن ثم اعتمدت على منح التدريب التي قدمها أعضاء الكوميكون .

أولت خطة التصنيع في مراحلها الأولى اهتمامها للصناعات الثقيلة . ومن ثم بنيت مصانع كبيرة لإنتاج الحديد والصلب في مدينتي بيرنك pernik وكرميكوفسي Kermikovski . تعتمد على خام الحديد المحلي وفحم الكوك المستورد (بعض منه) ، كما أن تجهيز المعادن غير الحديدية وخاصة النحاس والرصاص والزنك الألكتروني لا تقل أهمية من الحديد والصلب ، وتشكل صفائح النحاس جزءا هاما من صادرات البلاد . ويبلغ عدد المشتغلين في الصناعة الهندسية اليوم حوالى مجموع عمال الصناعة قبل عام ١٩٣٩ ويأتى معظم الانتاج من منطقة صوفيا . وتشكل معدات النقل والآلات الزراعية (خاصة المكثات) أهم موارد إنتاج هذه الصناعة . وتصدر رومانيا شاحنات ذات الرافعة المشعبة Forklifts إلى إنجلترا . وبمساعدة المانيا الديمقراطية استغلت المواد الخام المحلية لتطوير الصناعة الكيماوية الثقيلة وخاصة الأسمدة والكيماويات الزراعية كما تم تطوير البتروكيماويات عند مصنع بيرغاس Burgas من البترول المستورد من روسيا والجزائر بينما يوجد مصنع الياف صناعية في جامبول ، وما زالت الصناعات الحرفية التقليدية والصناعات المرتبطة بها مثل النسيج ذات أهمية في الاقتصاد القومى .

تشكل المواد المشتقة من الزراعة أكثر من ثلث صادرات بلغاريا كما أن ما يقرب من ثلث الإنتاج الصناعى يأتى من المصانع التي تخصص في صنع المواد الغذائية .

وعلى عكس ما حدث في بعض أقطار الكوميون حيث تم تقسيم الأطنان الشاسعة إلى مزارع أصغر حجما . نجح الإصلاح الزراعى اللغارى فى تقليل عدد المزارع الصغيرة وتحويلها إلى مزارع جماعية مترسطة الحجم صاحبت بدايتها أعمال تحسينية مثل إنشاء خزانات للرى وتوليد الطاقة الكهربائية خاصة فى المناطق الجبلية . فالرى له أهمية كبرى هنا خاصة فى فصل الصيف الذى يتسم بالحفاف الذى يمثل أهم مشكلة تواجه الزراعة ويعوق تقدمها . وعلى الرغم من احتفاظ الدولة بنظام المزارع الجماعية (والتي أصبحت حاليا مرتبطة بمصانع إنتاج المواد الغذائية) فلن سجل الإنتاج الزراعى يوضح عائدا أكبر مما نجد فى دول أوروبا الشرقية . وقد يرجع السبب لهذا التفوق فى مجال صناعة المواد الغذائية الى قدرة بلغاريا فى زراعة محاصيل لا يمكن إنتاجها فى شرق أوروبا . ومن ثم قد تصبح هذه الدولة مصدرا رئيسيا للمعسكر الشرقى لأنواع عديدة من الخضروات والفواكه والتبغ وكذلك بعض المحاصيل الخاصة مثل عطر الورد أو زيتة Attor of roses

(٧) ألبانيا :

شهدت ألبانيا التى كانت حتى عام ١٩٤٥ أكثر دول أوروبا تأخرا وتخلفا . فى ظل حكومتها الحالية تطورا ونموا كان أساس يقوم على الصناعات التى أنشأتها إيطاليا قبل الحرب . وكعضوة فى منظمة الكوميون كان إسهامها الأساسى لها يتمثل فى ثروتها المعدنية : الكروم وخام الحديد والنيكل والنحاس والأسفلت كما يشكل البترول والغاز الطبيعى وبعض إرسابات الفحم مصادر الطاقة فى البلاد ، وقد تم استغلال هذه الثروات المعدنية فى الخمسينات بمساعدة دول أكثر تقدما وخاصة تشكوسلوفاكيا ، وبدأت فى الصناعات الهندسية البسيطة والنسيج والمواد الغذائية كما بدأت محاولات خلال فترة الأنوقراطية لتطوير صناعة الحديد والصلب ، ولكن كانت سوء وسائل النقل والمواصلات عاقبا للتطور ولذلك ركزت الجهود فى بناء الطرق والسكك الحديدية ، كما أن هناك خطة لربط سككها الحديدية مع الخط اليوغسلافى الذى يربط بين بلغراد وبار . ونظرا للمعدل النمو السكانى المرتفع (أعلا معدل فى أوروبا) فلن من المشكوك فيه أن يواكب التقدم الاقتصادى هذا التضخم

السكائي . وقد فقدت روسيا وضعاً مناسباً بالنسبة ليوغسلافيا المنشقة ومهد خلا للبحر الادرياتي اثر تحول البانيا إلى المعسكر الصيني .

(٨) يوغسلافيا :

منذ أن نشب الخلاف السياسى بينها وبين الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤٨ . أصبحت يوغسلافيا الدولة المتناكسة فى المعسكر الاشتراكى . وقد كان وضعها من الناحية السياسية - الجغرافية أقوى لتختلف وتناقش المواضيع السياسية من بقية الدول الاشتراكية الأخرى ، إذ ساعدها تضرسها وكون أقل من نصف حدودها يقع داخل المعسكر السوفيتى فى أن تكون بعيدة وفى منأى من ضغط مباشر . وقد اثرت علاقتها المتكافئة بين الشرق والغرب فى تطور وتبلور نمطها المكائى الداخلى . ومع أنها لا تنتمى إلى منظمة الكوميكون فقد تبعت السياسة اليوغسلافية أهدافاً مماثلة . التصنيع السريع والتحضر والتوفيق بين أقاليمها المختلفة فى مجال التطور والإبناء . تعتبر يوغسلافيا أكثر دول شرق أوروبا غنى فى الثروة المعدنية كما أنها من الدول الأوروبية الرئيسية فى إنتاج المعادن غير الحديدية ، ويوجد بها خام الحديد والكروم والمنغنيز والتنجستن وكذلك الرصاص والزنك والزنابق والنحاس ، كما أن هناك إرسابات البوكسيت التى يمكن استغلالها مستقبلاً ، وكذلك الذهب والفضة واليورانيوم . أما مصادر الطاقة فتوجد بكميات معقولة وتشمل الفحم والليجنات والغاز الطبيعى والبتروى . وهكذا تكون هذه الموارد الطبيعية قاعدة طيبة للتصنيع مع أن صناعة الحديد والصلب تتطلب استيراد فحم الكوك من الخارج ، ومنذ البداية اتجه التصنيع نحو الصناعات الثقيلة التى تعتمد على الموارد المحلية ، وقد تم إنشاء مصانع جديدة لصناعة الحديد والصلب بالإضافة إلى مصانع الحديد الصغيرة فى الشمال ، فى زنيكا 'Zenica' فى بوزنيا وأسكوبى 'Skopje' فى مقدونيا ، كما تم تحديث وتطوير صناعة المعادن غير الحديدية

أما الصناعات الهندسية فقد تطورت فى مدن الشمال الصناعية وبلغراد أكثر من باقى أجزاء الدولة ، بينما ازدهرت صناعة السفن على الساحل فى رايبكا والموانئ الإيطالية السابقة . وتصدر الدراجات والدراجات البخارية كما توجد صناعة تجميع

للعربات الغربية . مثل عربات فيات في كرايفاك Kragujevac في الصرب . وأنشأت أيضا مصانع لإنتاج الأدوات الكهربائية يتم فيها تجميع معدات بتصريح من شركات اوروبية غربية وتنتج التلفزيونات والراديوهات في نيش Nis .

أما الصناعات الكيماوية فتعتمد على الموارد المحلية ويقع معظم المصانع في الشمال وتنتج الكيماويات الصناعية مثل منتجات الصودا وحامض الكبريت وكذلك الاسمدة الزراعية . وقد استغلت يوغسلافيا المواد الحيرية التي تغطي مناطق شاسعة في صناعة الأسمنت وتصدر كميات منها إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتلقى منتجاتها الحرفية والمواد الاستهلاكية أسواقا في غرب أوروبا (مثل الصناعات الجلدية) .

نظرا للمساحة الشاسعة التي تغطيها التربات الفقيرة والاراضى غير الصالحة للزراعة تشكل الزراعة اكبر مشكلة اقتصادية في يوغسلافيا وخاصة لانها تمثل مصدر دخل لنسبة عالية من السكان وخاصة في المناطق الفقيرة . توجد المنطقة الزراعية الرئيسية في منخفضات نهري سافا ودرافا Drava وبين نهري الدانوب وتيزا Tisza . في حين تسود حرفة الرعى ؛ بعض الزراعة (في المواضع الصالحة) في المناطق المتضرسة التي تعاني أجزاء منها من آثار الرعى الجائر . وقد رفضت الدولة تطبيق نظام المزارع الجماعية (من نقاط الاختلاف مع الروس) لأسباب عملية وترك المزارعون يفلحون أرضهم ، ولكن الحكومة تشجعهم للدخول في الجمعيات التعاونية . أما القطاع الاشتراكي من الزراعة فيتميز بإنتاجيتها الوفيرة ليس لأن الجميع سبب مباشر في ذلك بل لأنها تحتل أخصب المناطق (التي أخلتها فلول الألمان الهاربين في ١٩٤٥) في إقليم فيوفودينا Vojvodina . وقد تم ربط تربية الخنازير التقليدية في مزارع الحبوب وكذلك المناطق المرتفعة المنتجة إلى صناعة تعليب اللحوم التي تصدر كميات كبيرة منها إلى الخارج ، خاصة غرب أوروبا .

وكثيرها من دول البلقان اهتمت يوغسلافيا بتكملة وتحديث شبكة السكك الحديدية ، وقد تم في هذا الصدد إنجاز واحد من اكبر مشروعات السكك الحديدية في أوروبا وهو خط بلغراد - بار مما أتاح لإقليم الصرب مخرجا مباشرا للبحر

الادرياتي . وعلى عكس دول الكوميكون اولت يوغسلافيا اهتماما كبيرا لبناء الطرق لجذب السواح من دول غرب أوروبا للساحل الادرياتي واليونان كما اهتمت بتطوير موانئها الادرياتي لخدمة مناطق الدانوب الداخلية وتنافس بذلك موانئ بولندا وألمانيا الشرقية على بحر البلطيق ولكن ما زالت جبال الألب الدينارية تعاني من فقر المواصلات عبرها .

ويعظم التباين في التطور الاقتصادي بين شمال وجنوب يوغسلافيا بالمقارنة مع التباينات الإقليمية في بلغاريا ورومانيا ، وتمتد مناطق التخلف عبر الأجزاء الوسطى والجنوبية من الدولة وتغطي ٤٠٪ من المساحة الإجمالية ، وتشمل ٣٠٪ من السكان . وتتميز هذه المناطق بسيادة الزراعة فيها وبارتفاع معدل الزيادة الطبيعية بين سكانها ، ويعنى استثمار أموال ضخمة لتطوير هذه المناطق المتخلفة تحويل هذه الأموال إلى مناطق اقل انتاجا وحرمان الأجزاء المناسبة ذات الإنتاجية العالية والتي تحول هذه المناطق الفقيرة بما تحتاج إليها من مواد التنمية . وكانت النتيجة أن المناطق الملائمة أظهرت نموا بطيئا وتعاني من التضخم والمشاكل السياسية المترتبة على ذلك .

بدأت آثار السياسات الاقتصادية التي تبعتها السوق الأوروبية المشتركة ومنظمة الكوميكون خلال ربع قرن تظهر في النمط المكاني واللاند سليب الأوروبي ، فالسوق الأوروبية تسعى لتحقيق التكامل فوق القومي أي تتجاوز الحدود القومية ^{supranationalism} ، واهتمت في إطار هذه السياسة بمناطق الحدود (الهامشية) الواقعة بين الدول الأعضاء أثر رفع القيود على التحرك والانتقال عبر هذه المناطق . وعلى العكس تبنت منظمة الكوميكون طريقة دولية ^{international} ، تدعو ظاهريا لحماية السيادة القومية ومن ثم حماية المكونات المكانية القومية وما يتطلبه ذلك من انتقال بطنى لرؤوس الأموال والموارد والعمال . وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت تركيبات مكانية جديدة في الظهور نتيجة التصنيع والتحضر الذى حدث في شرق أوروبا وأثر تبني سياسات الغرض منها تحقيق المساواة في مجال التطور الإقليمي بين دولها . ويتوقع أن يحدث تغيير سريع مع التركيز على

« فوق القومية » أو تجاوز الحدود القومية والذي يسعى إلى الاسراع فى بناء مصانع متطورة حتى يتحقق الإنتاج الأمثل . وفى الحقيقة لم تحل منظمة الكوميكون من عنصر « فوق القومية » منذ إنشائها نظرا للتباين فى الموارد ونوع العلاقة بين الاتحاد السوفيتى وشركائها ، فقد كان لاحتياجات الاتحاد السوفيتى التركيب فى تكييف أنماط التجارة وحتى التطور الاقتصادى داخل الدول الأعضاء . وكان النفوذ السوفيتى يسعى لعدم تحقيق أى تجمع إقليمي فى شرق أوروبا إلى درجة أن مفاهيم وافكار مثل « دانوبيا Danubia و « البلقان » بمعناها الجغرافى السياسى والاقتصادى لم تعد لها أهمية تذكر الآن .

الفصل الرابع عشر

المشكلة الإقليمية في أوروبا

شهدت فترة العشرين سنة الأخيرة اهتماما كبيرا من قبل علماء الاقتصاد والتخطيط والجغرافيا والسياسيين بالتباين والاختلاف الاقتصادي بين أقاليم أوروبا - خاصة الجزء الغربى منها . فهناك أقاليم غنية متطورة تحتوى على مدن وصناعات نامية بينما تتميز أقاليم أخرى بالتخلف الاقتصادي وما يترتب على ذلك من آثار مثل البطالة والأجور المنخفضة وفقدان الوظائف فى الصناعات العتيقة (مثل الزراعة واستخراج الفحم) وهجرة خارجية متواصلة إلى الأقاليم الغنية حيث فرص العمل مواتية لتحسين المستوى المعيشى . وتشكل العوامل الاقتصادية أساس هذا التفاوت ولكن هناك أيضا عوامل بشرية تلعب دورها مثل المساكن الفقيرة والتسهيلات التعليمية غير الكافية وغيرها .

فالجغرافى يهتم بدراسة النواحي المكانية للتباينات الإقليمية وذلك عن طريق التحرى عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى تشكل إما السبب أو النتيجة للتقدم الإقليمى أو تخلفه . أما المخططون فهم يهتمون بالبحث عن الحلول العملية للتباينات الإقليمية فى فرص العمل والإسكان ومجالات أخرى عديدة بينما تنصب اهتمامات السياسيين فى توفير حياة معقولة لناخبيهم .

وفى هذا الفصل سنركز فى دراستنا عن المشكلات الإقليمية على غربى أوروبا لأسباب منها :

(١) لأن حدة التباين بين المناطق المتقدمة والمناطق المتخلفة تظهر واضحة فى هذه البلاد .

(٢) لأن حكومات هذه البلاد ، وخاصة أعضاء السوق المشتركة تولى

اهتماما كبيرا لهذا الموضوع وتخطط بجدية لتخفيف حدة التباينات الإقليمية داخل بلادها .

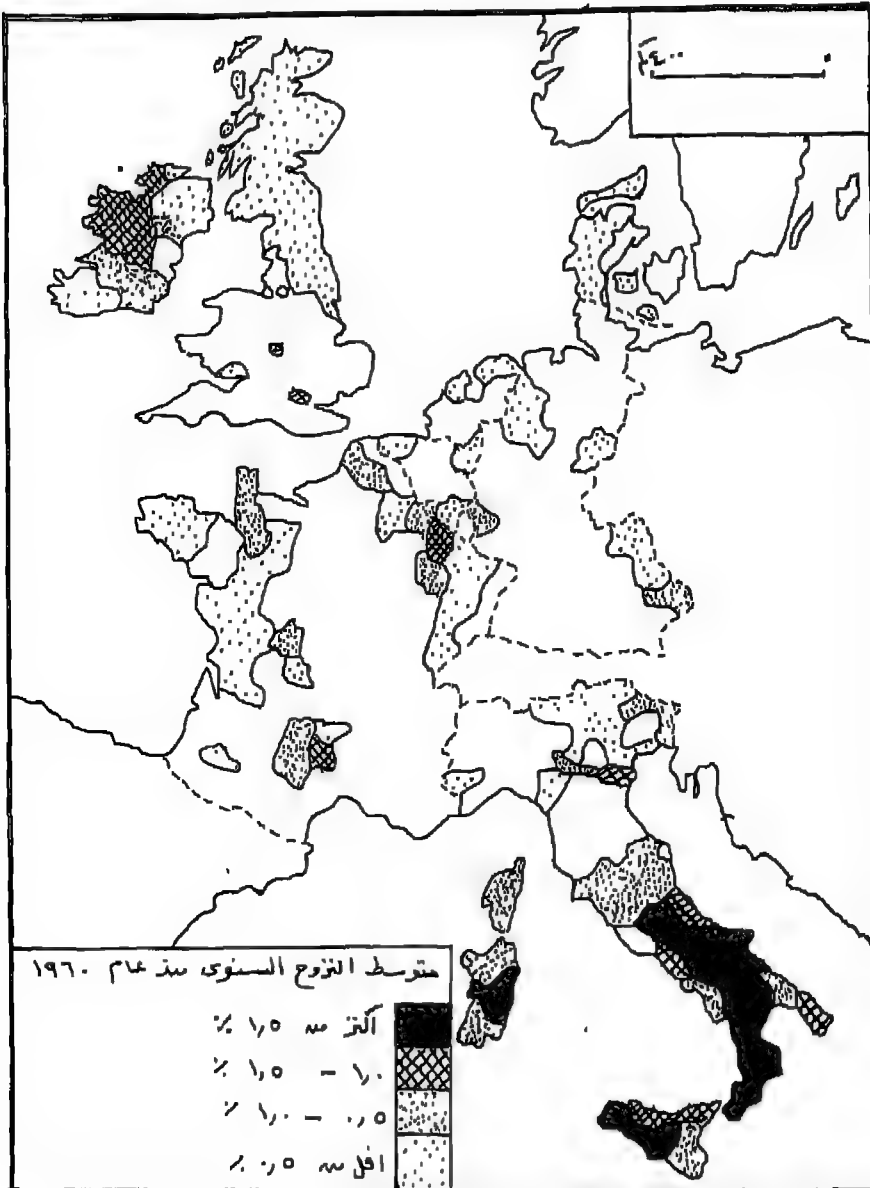
لم تنج دولة من دول غرب أوروبا من ويلات الحرب العالمية الثانية وآثارها المدمرة ، فقد تمزقت اقتصاديات الدول ودمرت المنازل والمصانع وخربت الموانئ وطرق المواصلات وبعد الحرب مباشرة انشغلت الدول بإعادة بناء اقتصادياتها المهارة وإعادة قطاعاتها المختلفة للإنتاج من جديد ، وفي عملية تنفيذ هذه السياسة ركزت الحكومات استثماراتها في المناطق ذات الإمكانيات المواتية ، ولهذا فقد شعرت الحكومات منذ أوائل الخمسينات بأن الثروة القومية ليست موزعة توزيعا متساويا بين أقاليم الدولة . وعند توقيع معاهدة روما في عام ١٩٥٧ (والتي بموجبها جاءت السوق الأوروبية المشتركة إلى الوجود) كانت الأجزاء الغربية من فرنسا وكذلك جنوبي إيطاليا تظهر تباينا حادا بالمقارنة مع نطاق النمو الاقتصادي الذي يشمل شمال فرنسا ودول بنلكلس وإقليم الراين الألماني .

وهكذا تتكون أوروبا الغربية من منطقتين متباينتين : منطقة صناعية متقدمة تمثل « القلب » الصناعي الأوروبي . ومنطقة أخرى عبارة عن مجموعة من مناطق متخلفة (مناطق مشاكل أو معاناة Problem areas) على حدود أو هامش المنطقة الأولى . ويظهر هذا التناقض بين المنطقتين بوضوح وخاصة في السبعينات عندما ترسم مؤشرات اجتماعية واقتصادية مثل التغيير السكاني ومستوى الدخل والبطالة ، على مستوى الأقاليم . وفعلا هذه هي المؤشرات أو المعايير التي استخدمها خبراء السوق المشتركة في عام ١٩٧٢ في محاولتهم لإيجاد سياسة إقليمية مشتركة لأعضائها التسعة . وهنا سنحاول التطرق لهذه المؤشرات بشئ من التفصيل .

(١) التغيير السكاني : (الشكل ٧٢)

تشير الزيادة في نسبة المواليد على نسبة الوفيات التي حدثت في أجزاء عديدة من أوروبا الغربية إلى حدوث نمو سكاني في الفترة ما بين عامي ١٩٥٠

شكل ٧٣ . مناطق التزوج المتواصل في أوروبا الغربية



و ١٩٧٠ ، وقد استمر هذا النمط في السبعينات على الرغم من انخفاض كبير في معدل النمو الطبيعي . وفي الخمسينات بقيت معدلات المواليد عالية في أجزاء عديدة من المنطقة كما حدثت هجرات داخلية هامة من المناطق الفقيرة إلى المناطق ذات الوفرة وغالبا ما كانت هذه الهجرات تتكون من أفراد أو عائلات تبحث لنفسها حياة أفضل . وقد فقدت بعض المناطق الريفية الفقيرة مثل الهضبة الوسطى الفرنسية وأجزاء من إيطاليا والمرتفعات الاسكتلندية وجمهورية أيرلنده أعدادا ضخمة من سكانها لأن الهجرة الخارجية كانت أكثر من الزيادة الطبيعية (شكل ٧٢) .

حدثت أكبر معدلات النمو السكاني في المناطق التي شهدت تطابقا بين زيادة معدل المواليد على الوفيات وهجرات وافدة كما في باريس وإقليم اللورين وجنوب شرق فرنسا وهولنده ومنطقة الراين الألمانية وجنوب شرق إنجلترا وبعض أجزاء إيطاليا الشمالية . وتتميز هذه المناطق بغناها النسبي وتحضرها (كثرة المدن فيها) ولكن هذا النمو السكاني لم يقتصر على هذه المناطق فقط . فقد شهدت بعض المناطق الريفية الفقيرة نموا مماثلا نتيجة معدلات عالية في الزيادة الطبيعية للسكان مثل كورسيكا وسردينيا وأجزاء من إيطاليا الشمالية . وقد نتج من ذلك مشاكل البطالة لقلة الوظائف والمصانع لاستيعاب الأعداد الضخمة من الشبان الذين ظهروا في سوق العمالة أو العمال الزراعيين الذين أخذوا يتركون الزراعة بحثا عن وظائف أفضل في المدن .

واستمرت المناطق الهامشية في فقدان أعداد كبيرة من سكانها المهاجرين في الستينات ، وكانت إيطاليا الجنوبية من أكثر المناطق التي عانت من الهجرة إذ فقدت أجزاء منها ما يزيد من ١٥٪ من سكانها في عام ١٩٦٠ سنويا في الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ ، وشهدت إسكتلنده وجمهورية أيرلنده فقداننا مماثلا عن طريق الهجرة إلى الخارج ، كما أن هناك مناطق ذات الزراعة المختلفة مثل الهضبة الوسطى الفرنسية ومناطق الحدود الألمانية عانت أيضا من الهجرات شديدة .

(٢) مستوى الدخل : (الشكل ٧٣)

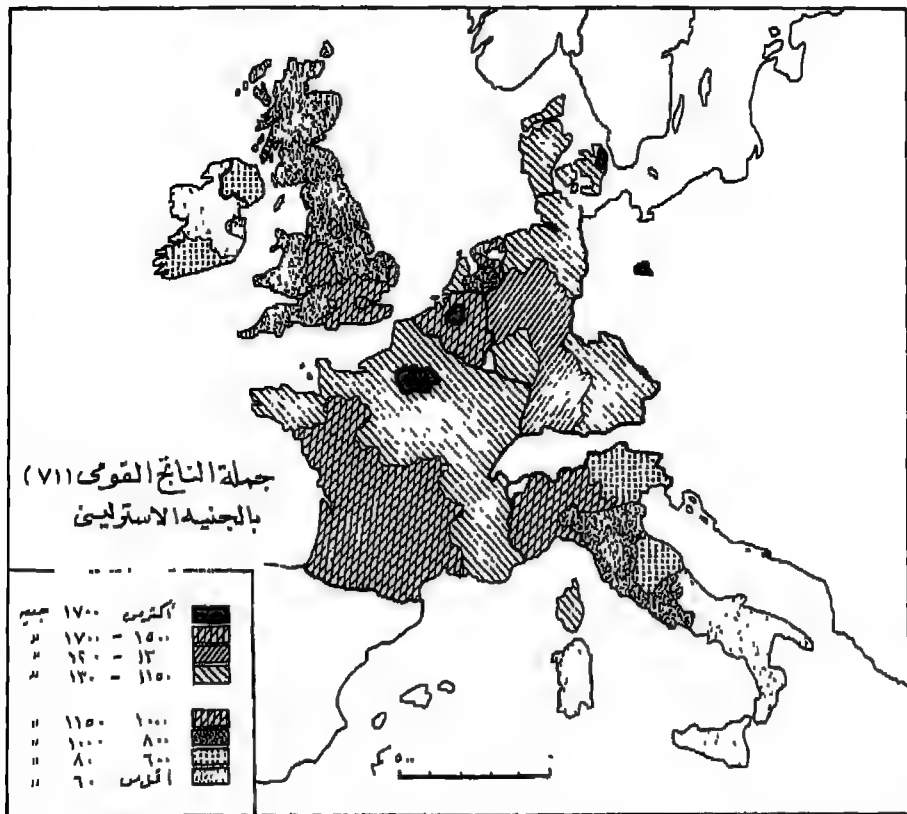
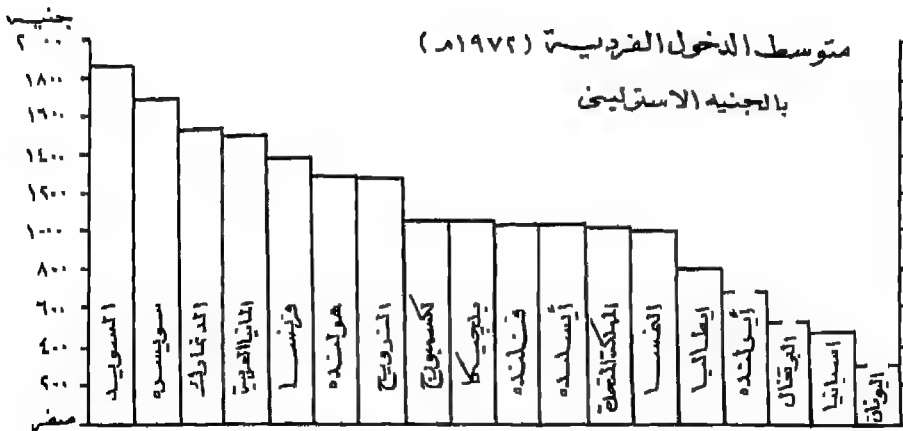
يظهر الاختلاف في الدخل بين الدول وبين الأقاليم في أوروبا الغربية بوضوح تام مدى الاختلاف والتفاوت في التطور الاقتصادي : وتحتل السويد الصدارة كأغنى دولة وتتبعها سويسره ثم الدنمارك وألمانيا الغربية وفرنسا . وتأتى المملكة المتحدة في المرتبة الثانية عشرة قبل النمسا وإيطاليا وجمهورية أيرلنده واليونان وأسبانيا والبرتغال . وتقف كتلة غنية من دول اسكندناوه وسويسرة وألمانيا الغربية وفرنسا في تناقض تام مع دول البحر المتوسط الفقيرة وبين طرفي النقيض يوجد باقى دول السوق المشتركة .

أما على المستوى الإقليمي تمثل باريس وهامبورج وكوبنهاجن أغنى أجزاء أوروبا الغربية (إذ وصل الدخل القومى الكلى للفرد إلى ١٧٠٠ جنيه استرليني) كما أن مناطق أخرى من الدنمارك وألمانيا الغربية والنصف الشرق من فرنسا وصل الدخل الفردى فيها إلى فوق المتوسط . أما أفقر أجزاء الدول التسعة فهى جنوب إيطاليا ومعظم أجزاء جمهورية أيرلنده إذ وصل الدخل الفردى في كل منها إلى أقل من ٦٠٠ جنيه . أما بالنسبة إلى بريطانيا فإن لندن هى المنطقة الوحيدة التى وصل الدخل فيها إلى فوق المتوسط الأوروبي ، وحتى المناطق الجنوبية الشرقية والميدلاندرز الغنية نسبيا فإن أرقام الدخل فيها وصل إلى دون المتوسط الأوروبي .

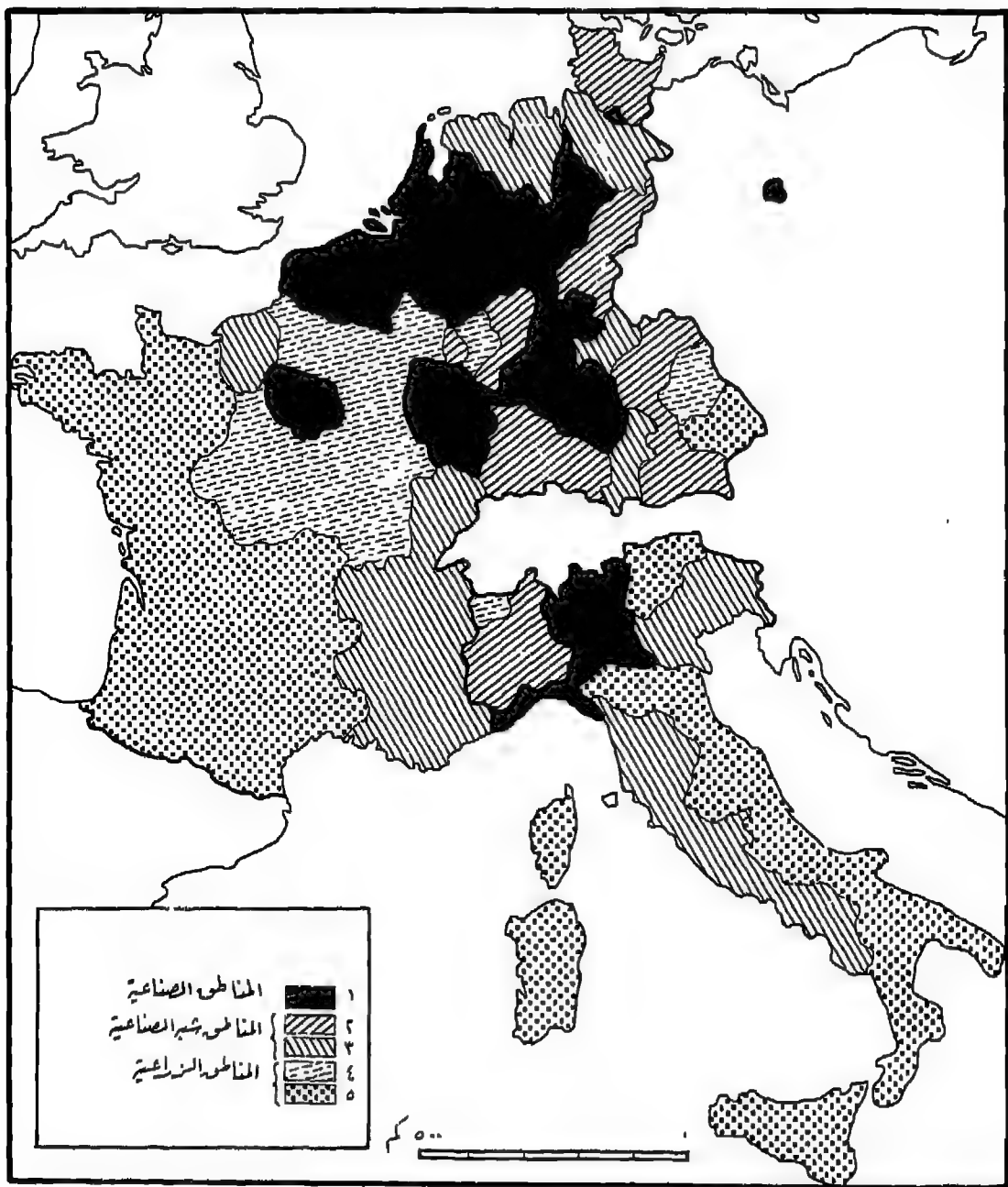
ويظهر من المعلومات المستقاة من الخرائط التى توضح الإنتاج والدخل القومى الكلى أن المناطق الهامشية من أوروبا الغربية في جمهورية أيرلنده وإيطاليا وبريطانيا هى الجارات الفقيرة لفرنسا ودول البنلكس وألمانيا الغربية والدنمارك التى تمثل « القلب » النابض بالثراء . ويظهر من الشكل الذى يوضح متوسط الدخول الفردية لعام ١٩٧٠ أن الدخول في أجزاء بريطانيا كلها هى دون المتوسط للسوق الأوروبية الموسعة .

(٣) الاستخدام أو التوظيف : (الشكل ٧٤)

تعطى الاختلافات الإقليمية في نوعية الاستخدام ونسبة البطالة معلومات



دول السوق الست : عدد المزارعين والكثافة السكانية في (١٩٧٢)



شكل (٧.٠)

قيمة عن تحديد وتعريف مناطق التخلف . ففي عام ١٩٧٤ ظهر تقرير مفصل عن الاختلافات الإقليمية في الدول الستة وبه خرائط ملحقة توضح الكثافات السكانية مع نسبة القوى العاملة في القطاع الزراعي . ومن هذا التقرير امكن التعرف على خمسة أنواع من الأقاليم يمكن جمعها في ثلاث مجموعات هي : -

١ - أقاليم صناعية : تحتل فقط ١٦٪ من مساحة أعضاء السوق الستة الأصليين ولكنها تحتوى على خمس مجموع سكانها الذين يعيشون في كثافات تربو عن ٢١٠ شخص للكيلو متر المربع كما أن عدد الذين يفلحون الأرض في هذه الأقاليم يقلون من عشر القوة العاملة . ويقع ثلثا دول البنلوكس وثلث ألمانيا الغربية وأقل من عشر فرنسا أو إيطاليا في نطاق هذه المجموعة . أما في حالة السوق المشتركة الموسعة فيمكن تصنيف اسكتلنده الوسطى وويلز الجنوبية والجزء الأكبر من إنجلترا ضمن الأقاليم الصناعية .

٢ - الأقاليم شبه صناعية : توجد في شرق فرنسا وأجزاء من ألمانيا الغربية وشمال إيطاليا وتغطي ٣٠٪ من مساحة الدول الستة وتحتوى على نسبة مماثلة من سكانها .

٣ - أقاليم زراعية تغطي ٥٤٪ من مساحة الدول الستة ولكنها تحتوى على أقل من ثلاثة أعشار سكانها ، ويكون الهامش الزراعي هذا أكثر من ثلثي مساحة فرنسا وأكبر من نصف مساحة إيطاليا . وفي حالة السوق الموسعة تعتبر جمهورية أيرلنده وشمال اسكتلنده وغربى الدنمارك ضمن نطاق الأقاليم الزراعية الواقعة عند أطراف أوروبا الغربية .

جدول ١٩ : اقاليم الدول السوق المشتركة الستة . عمال الزراعة والكثافة السكانية (١٩٧٢) :

| السكان (مليون) | النسبة لدول السوق الستة المساحة كم ٢ | الكثافة السكانية للكيلو متر المربع | نسبة المزارعين من القوى العاملة | | |
|---------------------|-----------------------------------------------|---------------------------------------|------------------------------------|--------|-------------------|
| ٤١ | ١٦ | أكثر من ٢٠٠ | صفر ١٠٪ | (أ) | الأقاليم الصناعية |
| ١٢ر٥ | ٩ | أكثر من ١٤٠ | صفر - ١٥٪ | (ب) | أقاليم شبه صناعية |
| ١٩ | ٢١ | أقل من ١٥٠ | أكثر من ١٥٪ | (ج) | |
| ٦ | ١٢ | أقل من ١٠٠ | ٢٠ - ٣٠٪ | (د) | أقاليم زراعية |
| ٢١ر٥ | ٤٢ | أقل من ١٠٠ | أكثر من ٣٠٪ | (هـ) | |

وبشكل عام تقل الأحمال وينخفض مستوى المعيشة في المناطق الريفية بالمقارنة مع المدن . وقد شهدت القوى العاملة الزراعية في الدول الست انخفاضا سريعا من ١٦ر٢٤ مليون في عام ١٩٥٨ الى ١١ مليون في عام ١٩٦٧ الى ٩ر٢ مليون في عام ١٩٧١ سيما حدثت زيادة بطيئة في عدد الوظائف الصناعية في نفس الفترة بالمقارنة في الزيادة السريعة في مجال الخدمات (الجدول ٢٠) ويمكن أن نغزو الانخفاض في القوى العاملة الزراعية جزئيا إلى الموت أو تقاعد المزارعين كبار السن . ولكن هناك أيضا أعداد كبيرة من الشباب ومتوسطى العمر من المزارعين الذين يهجرون الزراعة بحثا عن وظائف أفضل . وعلى أية حال ما زالت الزراعة تعاني من الاكتظاظ وصغر أحجام الوحدات الزراعية مما يؤثر في كفاءتها الإنتاجية كما في أجزاء عديدة من الدول الستة وجمهورية أيرلندا (إذا استثنينا بريطانيا والدمارك) . ويعد معظم الذين يتركون الأرض طريقهم إلى المدن التي تنتشر في أرجاء الأقاليم الصناعية وشبه الصناعية . ولما توجد وظائف بديلة في المصانع أو الورش والمكاتب بأعداد كافية في المناطق الريفية لاستيعاب العمال المحليين .

تواجه الأقاليم التي تسود فيها الزراعة نسباً عالية من البطالة الخفية .

جدول ٢٠ : التغيير في نمط الاستخدام (التوظيف) داخل الدول الستة
١٩٥٠ - ١٩٧١

(النسبة المئوية من مجموع القوة العاملة)

| الخدمات | | الصناعة | | الزراعة | | |
|---------|------|---------|------|---------|------|-----------------|
| ١٩٧١ | ١٩٥٠ | ١٩٧١ | ١٩٥٠ | ١٩٧١ | ١٩٥٠ | |
| ٤٢ | ٣٣ | ٤٩ | ٤٥ | ٨ | ٢٢ | ألمانيا الغربية |
| ٤٥ | ٣٥ | ٤٠ | ٣٧ | ١٣ | ٢٨ | فرنسا |
| ٣٥ | ٢٧ | ٤٣ | ٣٠ | ١٩ | ٤٤ | إيطاليا |
| ٥٤ | ٤٥ | ٣٨ | ٤٠ | ٧ | ١٣ | هولندا |
| ٥٠ | ٣٨ | ٤٤ | ٤٩ | ٤ | ١٣ | بلجيكا |
| ٤٣ | ٣٤ | ٤٧ | ٤٠ | ١٠ | ٢٦ | لوكسمبرج |
| ٤٢ | ٣٣ | ٤٤ | ٣٨ | ١٢ | ٢٩ | الدول الستة |

وقد ظهر من تقرير اعده خبراء من السوق المشتركة في عام ١٩٧٣ أن معدل البطالة السنوى في كل جزء من أجزاء إيطاليا الجنوبية أكثر من ٦٪ كما وجدت معدلات مماثلة في المناطق الهامشية الغربية من جمهورية أيرلنده والمنطقة الزراعية من غربي أيرلنده الشمالية وفي مرتفعات وجزر شمالي أسكتلنده وجنلد الدنماركية حيث تسود الزراعة . وتوجد نسب عطالة عالية نسبيا في مناطق التعدين والصناعة القديمة في بريطانيا وجنوب بلجيكا .

وباستخدام المعلومات التي نستقيها من دراستنا لهذه العناصر الثلاثة ، السكان والدخل والاستخدام يمكننا أن نميز ثلاثة أنواع من الأقاليم الاقتصادية والاجتماعية في غربي أوروبا هي : -

- (١) أقاليم تسود فيها الزراعة وتوجد في المناطق الهامشية .
- (٢) أقاليم مكتظة بالسكان وتسود فيها المدن وتكون المنطقة المركزية .
- (٣) مناطق صغيرة نسبيا تتميز بالصناعات القديمة وتوجد أيضا في المنطقة المركزية .

تشكل المناطق الزراعية أولى الأماكن التي تعاني من المشاكل والتي في أمس الحاجة إلى المصانع والورش والمكاتب لاستيعاب العمال الذين يتركون الأرض كما أن الزراعة وصيد الأسماك والنشاطات الأخرى تحتاج إلى تحديث في وسائلها وتكلفتها بالسياحة وصور أخرى من الاستخدام . ومثل مناطق المعانة الزراعية هذه كانت تسود في الدول الستة ولكن انضمام بريطانيا إليها بمناطق الصناعات القديمة فيها أدى إلى اختلاط في أنواع مناطق المعانة داخل السوق .

أما المناطق الصناعية وشبه الصناعية داخل السوق فهي أيضا تتسم بمشاكل خطيرة قد تتفاقم مستقبلا وخاصة عندما يزداد سكان المدن نتيجة الزيادة الطبيعية والهجرة من الأقاليم الريفية بما يؤدي إلى زيادة في الطلب على المنازل والنقل الجماعي والمدارس والمستشفيات والخدمات الأخرى وتوفير هذه الخدمات سيكون باهظ التكاليف . ومناطق الحضر الضخمة مثل لندن وباريس وراندشتاد هولنده وتورينو وميلانو ومدن الراين الألمانية تمثل مواضع جاذبة اقتصاديا وتغرى بالحياة فيها لما تتميز به من أجور عالية . ولكنها تعاني أيضا من تلوث الهواء والمياه والازدحام والتكدس ومشاكل بيئية أخرى يحيط من قدر الحياة ، ورغم ذلك لا تعتبر الحكومات المعنية هذه المدن « مناطق معانة » لما تتميز بها من حركة وازدهار .

وعلى النقيض من هذه المدن فإن المناطق الصناعية القديمة في غرب أوروبا قد عانت كثيرا من الكساد منذ الحرب العالمية الثانية وهي تعتبر الآن من « مناطق المعانة » التي تحتاج إلى مساعدات مالية للهوض بها . وقد تقلصت أسواق منتجات هذه المناطق أو فقدت نتيجة المنافسة من منتجات المناطق الجديدة أو من مصادر الطاقة الرخيصة الداخلية أو الخارجية . وتمثل صناعة الفحم مثلا جديدا لهذا التدهور : فقدت حقول الفحم ذات التكاليف الباهظة في الشمال والهضبة الوسطى مكانتها لفحم اللورين حيث تقل تكاليف التعدين . وهذه المنافسة داخل صناعة الفحم تضارعها منافسة مصادر الطاقة الأخرى من محمية

وخارجية ، مثل الغاز الطبيعي والطاقة الكهربائية والنوية التي يتم توليدها في فرنسا والبتروال المستورد من شمال أفريقيا والشرق الأوسط والفحم الرخيص المستورد من الولايات المتحدة والغاز الطبيعي من هولنده والغاز السائل من الجزائر . وقد أدى هذا التنافس إلى إغلاق أحواض الفحم في الهضبة الوسطى وسيتمى التعدين للفحم في الشمال في عام ١٩٨٣ كما هو مقرر ، ولكن قد يؤدي ارتفاع أسعار البترول المتزايد إلى إعادة النظر في هذا الموضوع وإحياء بعض الحقول في شمال وشمال شرق فرنسا (جدول ٢١) . ومشكلة توفير وظائف بديلة ليست مقتصرة على مناطق التعدين فقط بل تعاني منها بعض المناطق الصناعية القديمة التي تتخصص في إنتاج الحديد والصلب والبضائع المعدنية الثقيلة والنسيج التقليدى (الصوفية والقطنية) التي كانت تشكل أساس « الثورة الصناعية » والتي تعرضت للركود خلال فترة الكساد في العشرينات والثلاثينات ومرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية .

جدول ٢١ : استهلاك الطاقة في فرنسا ١٩٥٠ - ١٩٧٢ (بالنسبة المئوية)

| ١٩٧٢ | ١٩٦٠ | ١٩٥٠ | |
|------|------|------|---------------------------|
| ١٧ر٨ | ٥٤ر١ | ٧٤ر٤ | الفحم (الاستهلاك الكلى) |
| ١٢ر٠ | ٤٦ر١ | ٥٨ر٥ | الفحم الفرنسى |
| ٥ر٨ | ٨ر٠ | ١٥ر٩ | الفحم المستورد |
| ٦٧ر٣ | ٣٠ر١ | ١٧ر٧ | البترول |
| ٧ر١ | ٣ر٤ | ٠ر٤ | الغاز الطبيعى |
| ٧ر٨ | ١٢ر٤ | ٧ر٥ | الطاقة الكهربائية والنوية |

الأداء التخطيطى في مناطق المعانة :

شرعت دول غربى أوروبا في تحديد وتعريف « مناطق المعانة » داخل حدودها منذ نهاية الحرب الثانية وقامت بتقديم مساعدات مالية خاصة لهذه المناطق بغرض حمايتها وتلطيف وقع حقائق النمو الاقتصادى الحديث والتي تركزت بصورة متزايدة في المناطق الغنية ذات الإمكانيات الجيدة . وقد شعر

المخططون بأهمية تحويل بعض من ثروات المناطق الغنية إلى هذه الأقاليم الفقيرة وذلك عن طريق إيجاد الأموال لتشجيع إنشاء المصانع لتوفير الوظائف لسكان هذه الأقاليم . وتختلف أسس ومعايير التحديد الدقيقة لمناطق المعانة من دولة لأخرى ولكن أشكال الإعانة تختلف وتشمل الإعانات المباشرة والدعم والإعفاء من الضرائب والتي تصنف بطريقة تضمن تقديم أكبر مساعدة لأكثر المناطق معاناة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية . ومثلا توجد المساعدات المالية في مناطق المعانة في المملكة المتحدة موزعة (من الأكثر إلى الأقل) على النمط الآتي : أيرلنده الشمالية . ثم بنسب أقل لما يسمى « بمناطق التطور الحافية » (مثل نطاقات الصناعات القديمة) ومناطق التطوير « (مثل أسكتلنده وويلز وشمال وجنوب غربي إنجلترا) والمناطق المتوسطة أو الغبراء « (مثل شمال إنجلترا) » والمناطق المهيمنة والمهجورة « (كما في شمالي الميدلاندرز) . ولا توجد مساعدات مالية لجنوب شرقي إنجلترا ومنطقة الميدلاندرز الغربية . وهذا المثال البريطاني قد يوضح مبدأ التصنيف العام الذي تقوم عليه مساعدات المالية لأقاليم المعانة في باقي أجزاء أوروبا الغربية .

تفتقر الدول الستة عامة إلى سياسة إقليمية مشتركة ولو أن هنالك محاولات لتخطيط سياسة عامة لدول السوق كلها . فعاهدة روما لم تنص على اتباع سياسة مشتركة في هذا الصدد بل نادت بسياسات عامة للزراعة والنقل والتجارة . وعبرت فقط عن رغبة الدول الأعضاء في تقوية الوحدة الاقتصادية بينها وضمان التطور والنمو المنسق وذلك عن طريق تقليل التفاوت والاختلاف الموجود بين الأقاليم المختلفة والتحرى عن أسباب تخلف المناطق الفقيرة . ومن ثم بدأت كل دولة في ابتكار إجراءاتها القومية لحل المشاكل الإقليمية من دون تنسيق فيما بينها .

تختلف المناطق التي تحتاج إلى المساعدة المالية في أحجامها : ففرنسا وإيطاليا قد حددتا أجزاء كبيرة من مساحتهما ضمن هذا النطاق . وهي تكون جزءا كبيرا من الهامش الزراعي للدول الست كما ضمت أجزاء شاسعة من

مناطق المعانة في بريطانيا وجمهورية أيرلنده والدول الاسكتدناوية وفنلنده ،
في حين شكلت مناطق المعانة حيزا ضيقا من مساحة دول البنلكس وألمانيا
الغربية وهي تطابق إما قطاعات زراعية أو صناعية قديمة أو التخوم .

خصص معظم الدول « مراكز تنمية Development points » لاستثمار
المساعدات المالية فيها بغرض إيجاد وظائف جديدة فيها . وقد تم اختيار هذه
المراكز للتوسع ليس لتوفير الوظائف للسكان المحليين فحسب بل أيضا لتقديم
الخدمات الضرورية للسكان في المناطق الريفية المجاورة : فقد رؤى أن التقدم
في توفير الخدمات والوظائف المختلفة يمكن إحرازه بصورة أفضل في التركيز على
عدد صغير من المراكز السكنية بدلا من توزيعها في قرى متناثرة في الريف .
تطورت السياسات القومية للمساعدة الإقليمية بسرعات مختلفة وبطرق
متفاوتة وأحرزت درجات مختلفة من النجاح . وفي سعيها لتوحيد الجهود كونت
السوق المشتركة منظمات فوق قومية لمعالجة مواضيع اقتصادية واجتماعية خاصة .
يتركز معظمها في مناطق المعانة وهذه المنظمات هي :

(١) بنك الاستثمار الأوروبي :

الذي تم تأسيسه في عام ١٩٥٨ لتوفير السلفيات لتساعد في التطور المتوازن
والسلس للسوق المشتركة . وقد تم توفير الأموال لثلاثة مشاريع رئيسية هي :

- ١ - مساعدة الأقاليم الأقل تطورا .
- ٢ - لتحديث أو تحويل المصانع للقيام بصور من الإنتاج الحديث
ولإدخال أنواع جديدة من الصناعة في حالة عدم توفر وسائل التمويل .
- ٣ - لمساعدة المشاريع ذات المصلحة المشتركة للدول الأعضاء والتي لا
يمكن تمويلها بوسيلة أخرى .

وقد كانت إيطاليا من أكثر الدول التي استفادت من مساعدات البنك
المالية إذا حظيت بأكثر من نصف استثمارات البنك خلال عام ١٩٧١ بينما كان
نصيب فرنسا حوالي الربع وألمانيا الغربية حوالي الثمن . أما دول البنلكس فقد

كانت أقل الأعضاء استفادة منها ، كما استفادت دول متسبة مثل اليونان وتركيا وبعض الدول الأفريقية من مساعدات البنك .

خصصت أول مساعدة مالية لمشاريع الطاقة وتطوير الصناعات الأساسية . وقد تغيرت السياسة التمويلية مؤخرًا إذ شملت بواحي أخرى بجانب الصناعة مثل الإسكان وتحسين الطرق وتوفير موارد المياه . ومن المشاريع التي استفادت مؤخرًا من مساعدات البنك : التنمية الصناعية وخاصة في جنوبي إيطاليا ، التعاونيات الزراعية في غربي فرنسا وبناء طرق رئيسية في بلجيكا وصقلية وشمال إيطاليا ، وتركيب أنابيب الغاز الطبيعي في جنوب غربي فرنسا وساكسونيا السفلى ، وتحسين الاتصالات التليفونية في سردينيا وتدعيم مشاريع الري في بروفانس ، وتمويل السلفيات لمؤسسات التنمية الإقليمية مثل « هيئة تطوير الجنوب » العاملة في جنوبي إيطاليا .

(٢) الصندوق الاجتماعي الأوروبي :

الذي انشئ بغرض تشجيع التسهيلات الوظيفية والتنقل الجغرافي للعمال داخل منظمة السوق المشتركة وهذا الهدف يعترف ضمنا بأن التغير الاقتصادي يتطلب إعادة تدريب العاطلين من العمال وإعادة توطينهم والحفاظ على مستويات الراتب أثناء فترة الانتقال بين الوظائف . وقد استفاد مايربو عن مليون عامل من هذه المساعدة أكثرهم من الإيطاليين ويدعو بعض الناقدين أن يمنح الصندوق سلطة أوسع لتبدأ مشاريعها الخاصة بدلًا من الاكتفاء بتمويل المشاريع التي تخططها الدول الأعضاء . ويتوقع أن تتضخم مهام الصندوق في ظل التغيرات المتوقعة في مجال وظائف العمال : فقد ترك أكثر من مليون مزارع الأرض في عام ١٩٨٠ للعمل في المصانع والمكاتب والمحلات التجارية والمكاتب كما يتوقع أن يترك آلاف من العمال وظائفهم في الصناعات القديمة (تعدين الفحم والنسيج) وأن عاملا من عشرة من عمال السوق سيغير من وظيفته خلال السنين القادمة .

(٣) صندوق الإرشاد والضمان الزراعى الأوروبى :

وهو أيضا يهتم بتقديم المساعدات لمشاريع التنمية الإقليمية وله هدفان :
(١) دعم شراء المنتجات الزراعية عندما تنخفض أسعار السوق دون
أسعار التدخل الحكومى .

(٢) المساعدة فى تحسين وتطوير تركيب المزرعة الأوروبية .

وحتى الآن فإن فرنسا هى أكثر الدول استفادة من المساعدات التى يقدمها
الصندوق خاصة من مال الضمان لتعويض الخسارة المالية التى عانت منها فرنسا
نتيجة بيعها منتجاتها الزراعية فى الأسواق الخارجية بأسعار تقل عن أسعار
السوق المشتركة . أما الجزء الخاص بالإرشاد فهو أقل شأنًا من الناحية المالية وقد
ذهب معظم اعتماداتها لإيطاليا وألمانيا الغربية وفرنسا .

(٤) الهيئة العليا لمنظمة الفحم والصلب الأوروبية :

وتقدم المساعدات المالية للمساعدة فى تحويل الصناعات القديمة
المتدهورة . فتعدين الفحم وخام الحديد يعانى من التقلص كما أن صناعة
الحديد والصلب فى أوروبا الغربية تعانى من آثار التقدم التكنولوجى والمنافسة
من مناطق الإنتاج الأخرى فى العالم . تمنح الهيئة العليا أربعة أنواع من
المساعدة ، ولكن التفاصيل الدقيقة عن هذه المساعدات تختلف من دولة
لأخرى نسبة لسياسات الضمان الاجتماعى المختلفة .

(١) تكون المساعدة المالية متوفرة لمدة اثنى عشرة شهرا بعد التوفير الأول
وذلك لتشجيع العمال بقبول وظيفة أقل راتبًا من الوظيفة التى كان يشغلها .
وينطبق هذا بالذات على عمال مناجم الفحم الذين كانوا يعيشون ظروف عمل
شاقة رغم ما كان يدفع لهم من رواتب عالية نسبيا .

(٢) توفير المال لإعادة توظيف العمال فى أقاليم أخرى ، وذلك لتغطية
تكاليف تدريبهم من جديد وتمويل الرواتب خلال فترة التدريب .

(٣) ينلقى العمال تعويضا لنقل عوائلهم إلى مناطق جديدة والمطالبة فى
حالة عدم إمكانية ذلك ببدايات نقل عن الزيارة فى نهاية الأسبوع .

(٤) المساعدة المالية تكون موجودة أيضا للموظفين الذين يترقبون وظائف جديدة . وحتى الآن فإن عمال مناجم الفحم هم أكثر الفئات استفادة من هذه الإعانات (١/٢) ومن ثم ألمانيا الغربية وبلجيكا بصفتها أكثر الدول الأعضاء تعدينا للفحم .

والهيئة أيضا مسئولة عن دراسة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بتوفير الوظائف الجديدة في مناطق الصناعات القديمة ، وهذه الدراسات هي بمثابة وثائق تخطيط إيجابية لبناء توصيات جادة للعمل ، وتعمل الهيئة كمُنبر المناقشة وتنسيق وتمويل المشاريع التي تتبادر بها الحكومات الفردية أو المؤسسات العامة .

مناطق المعانة : دراسة تطبيقية :

(١) إيطاليا الجنوبية : الميزوغيورنو The Mezzogiorno

تشكل الميزوغيورنو أكبر مناطق المعانة داخل السوق المشتركة من حيث المساحة ودرجة التخلف إذ تشغل خمس مساحة إيطاليا وبها من السكان ١٨.٥ مليون سمة . وينبثق بعض مشاكل الجنوب الإيطالي من بيئة طبيعية فقيرة إذ تشكل الأرض الصالحة للزراعة ثمن مساحته . وتنحصر الأراضي الزراعية في سهول متفاوتة الأحجام حول نابولي وساليرنو وفوجيا وفي هضاب منخفضة في أبوليا وفي أحواض وأودية متناثرة بين الجبال الداخلية التي تغطي نصف مساحة الجنوب . ويزيد الجفاف الشديد الذي يصيب أجزاء عديدة من الجنوب من أهمية الري في الزراعة المكثفة .

ازدهر الجنوب الإيطالي كمصدر رئيسي للحبوب أيام الإغريق والرومان ولكنه فقد ذلك الوضع إثر احتلال روما لمنطقة شمال أفريقيا واستجلاب الحبوب منها بتكاليف أرخص كما أن شمال إيطاليا أحرز تقدما أكبر في مجال الزراعة وترك الجنوب مهملا نهبا للملاريا . وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية تعرض الشمال لغزو واستقرار قبائل عديدة ساعدت في إحداث تغييرات أدت

إلى تطور المنطقة وأصبح الجنوب جزءا من الإمبراطورية البيزنطية . وفى العام الثامن بعد الميلاد سيطر العرب على الجنوب وأدخلوا فيه الزراعة . وفى القرن الثانى عشر أدخل النورمان نظام الإقطاع وشهد الجنوب بعده غزوات مدمرة جعلت منه منطقة قاحلة كما أن سوء الإدارة والاستغلال الجائر لموارده فى فترة الحكم الأسباني قضى على ما تبقى من تقدم ودخل الجنوب فترة ركود والمحطاط نتيجة هذه الأحداث وكذلك لبعدها من مراكز التجارة الجديدة التى نشأت على شاطئ المحيط الأطلسي وكذلك للمشاكل والصعوبات الناجمة من مناخ جاف وتربات فقيرة ونظام إقطاعي مجحف . وفى عهد نابليون تفاقم الوضع أكثر من ذى قبل لاستغلال القوات الفرنسية الجائر لموارد المنطقة الزراعية والغاية وما ترتب على ذلك من انجراف شديد للتربة من على منحدرات الجبال العارية من الأشجار .

بعد توحيد إيطاليا سياسيا فى عام ١٨٦١ ظلت الفجوة الاقتصادية بين الجنوب والشمال باقية رغم جهود الحكومات المتعاقبة واهتمامها بتطوير الجنوب وشهدت أواخر القرن الماضى تقصيا حكوميا لمشاكل المنطقة وعمل توصيات عليه ولكن دون احراز تقدم يذكر . ثم انخرطت إيطاليا بعد ذلك فى أحداث دامية كما فى حربها مع تركيا (١٩١١ - ١٢) ثم فى الحرب العالمية الأولى وظهور الفاشية (التى أغفلت عن الجنوب تماما) ثم فى أفريقيا والحرب الأهلية الأسبانية وأخيرا فى الحرب العالمية الثانية ، وحالت كل حادثة من اتخاذ التدابير اللازمة لتطوير الجنوب . وخلال الحرب الأخيرة خضع الجنوب لسيطرة الحلفاء بينما سيطر الألمان على شمال القطر وقد أدى ذلك إلى تدعيم وتعميق التباين بين الإقليمين .

يمكن حصر المشاكل التى تعاني منها الميزوغورنو فى الآتى : -

(١) الفقر : يكاد الفقر أن يكون أهم سمات هذا الإقليم . ففي خلال الخمسينات وصل الدخل الفردى نصف المتوسط القومى وخمسن المتوسط الإقليمى الشمالى . وفى الحقيقة أبعدت شقة الدخل بين الشمال والجنوب فى هذه

الفترة إذ أصبح الشمال أكثر ثراء وتصنيعا من ذى قبل بينما سادت الزراعة على كل القطاعات الأخرى في الجنوب وبقيت نسبة البطالة مرتفعة . وقد دلت التحريات الأخيرة أن الفجوة ما زالت تتوسع والتباين يشتد .

(٢) ندرة العمال المهرة : على الرغم من ارتفاع عدد السكان يعاني الجنوب من ندرة شديدة في العمال المهرة : فالجهل ما زال متفشيا بين أفراد الشعب رغم برامج التعلم المكثفة وما أحرزته من تقدم كما أن هناك تقارير عديدة تنعكس عن الفقر المدقع والتخلف الشديد في الجنوب .

(٣) الهجرة : ترجع الزيادة السكانية التي حدثت في الشمال جزئيا إلى الهجرة المتواصلة من إقليم آليزوغورنو للعاطلين من أبنائها بحثا عن العمل . وكانت الهجرات الخارجية مخرجا للزيادة السكانية في المنطقة إذ اتجهت أعداد كبيرة من الإيطاليين إلى أمريكا الشمالية والأرجنتين حتى فرضت القيودات على عدد النازحين في الفترة ما بين الحربين العالميتين بواسطة النظام الفاشي كما أن اتباع نظام الكوتا للنازحين بواسطة الولايات المتحدة والدول الأخرى المضيفة ساعدت في تقييد الهجرة .

(٤) سيادة الزراعة على القطاعات الاقتصادية الأخرى : في عام ١٩٣١ كان الجنوب يحتوى على خمسى ($\frac{1}{5}$) سكان إيطاليا الزراعيين في مساحة مماثلة من الدولة . وقد ازداد نصيب الجنوب من المزارعين منذ ذلك الوقت إلى النصف إثر التقدم الصناعى الذى تم في الشمال واستيعاب العمال في المصانع . وقد ظل الجنوب في هذا الوضع المتخلف حتى وقت قريب : فما زال ما يقرب من خمسى ($\frac{1}{5}$) السكان في محافظات أبوليا ولوكانيا وكالابريا يعملون في الأرض بالمقارنة مع الخمس ($\frac{1}{5}$) للقطر كله .

بداية التطور:

بدأ الاهتمام الجدى بأحوال الجنوب في عام ١٩٥١ عندما تم تأسيس « هيئة تطوير الجنوب The Cassa per il Mezzogiorno » بغرض الربط بين

الوزارات الحكومية في روما والسلطات المحلية في الجنوب والتنسيق فيما بينها . ثم حددت الحكومة مسئوليتها نحو الجنوب في معالجة المشاكل الزراعية ومن ثم اتخذت الإجراءات لتشجيع استصلاح الأرض والرى وتصريف الأرض والحماية من الفيضانات . وتركزت مهمة التصنيع في أيدي الشركات الفردية

بدأ إصلاح الأرض في عام ١٩٥٠ وشمل إعادة توزيع الأرض من الأطنان الضخمة الموجودة في أجزاء عديدة من الجنوب وتجزئتها إلى قطع صغيرة وبحلول عام ١٩٦٥ ثم إعادة توزيع ٧٠٠,٠٠٠ قطعة على ١٠٠,٠٠٠ عائلة من المزارعين الصغار والعمال المعدمين كما تم استصلاح الإراضى المستنقعية والمهملة وزراعتها وكذلك زراعة الأشجار على المنحدرات وبناء الطرق ورى المزارع ومد أنابيب مياه الشرب . وتم بناء ١٢٥,٠٠٠ منازل زراعية مع ٨٠,٠٠٠ مخزن وبدأ العمل لإنشاء ٣٠٠ تعاونيات زراعية وتم تحسين الخدمات الاجتماعية في مراكز عديدة .

لم تكن الحياة الجديدة سهلة بالنسبة للمزارعين الذين تعودوا على حياة اجتماعية مترابطة في تجمعات قروية ضخمة ومن ثم كان لابد من تهيئتهم لأسلوب نمط الحياة الجديد في مزارعهم المعزولة . ووجد أن التدريب الزراعي والتعليم العام ضروريان في مساعدة المزارعين الجدد في استغلال ممتلكاتهم الجديدة والاستفادة منها ، وتتراوح مساحة القطع الزراعية من أربعة هكتارات في المنخفضات المروية (كما في ميتابونتو) إلى ٢٠ هكتارا في التلال . وقد أحرز نجاح كبير في المناطق التي استخدم فيها الرى لزراعة الفواكه والخضروات والمحاصيل الزراعية المكثفة ولكن النجاح لم يكن حليف كل المشاريع : فقد هجرت مزارع عديدة ومنازل في المناطق التلالية لعجز الفلاحين من تحقيق حياة قانعة من التربة .

فتح إدخال الرى في الزراعة وما حدث من تغييرات زراعية المجال لتحسينات أخرى في الآونة الحديثة كما أن تعديل النظرة التقليدية للتوظيف قد سهل من قبول فكرة العمل في المصانع ، حتى منطقة ميتابونتو ومنطقة بارى

برينديزى / ترانتو التى استفادت من التصنيع فى الستينات وهى أيضا عاصرت وشهدت التغييرات الزراعية فى الخمسينات .

وبين عامى ١٩٥٨ و ١٩٧١ تم تطبيق المرحلة الثانية من التخطيط وفيها نلاحظ تحولاً كبيراً نحو تشجيع الصناعة فى الجنوب وبمساعدة هيئة الجنوب فى حالات عديدة . وشرعت مؤسسات حكومية فى تحسين الطرق وتمويل المياه والطاقة وإيجاد وظائف صناعية . وهكذا بدأ « معهد الإنشاء الصناعى . Istituto per la Ricostruzione Ind » فى بناء الطرق الرئيسية لربط أجزاء الجنوب ببعضها ولإيجاد طرق توصل إلى أجزاء إيطاليا الوسطى والشمالية . وبدأ العمل فى صناعات مهمة مثل مصانع الصلب الحكومية فى ترانتو وصناعة البتروكيمياويات فى غيلا فى جنوبى صقلية . وقد وفر هذان المصنعان العمل لستمائة شخص كما تم توفير ١٢٠٠٠ وظيفة فى مصانع مرتبطة بالمصنعين السابقين فى صقلية وبعض مناطق الجنوب وأنفقت « هيئة تطوير الجنوب » أكثر من ١٠٠٠ مليون جنيه استرلينى فى الفترة ما بين ١٩٥٥ و ١٩٧٠ لتطوير الجنوب ، وبلغ مجموع الاستثمارات فى الجنوب خمسة أضعاف ذلك المبلغ .

شعر المخططون الإيطاليون بأن الجنوب فى حاجة إلى وظائف صناعية لاستيعاب العمال الذين هجروا الزراعة . وكانت هنالك أربعة حوافز خاصة لتشجيع الصناعيين لإقامة مصانع فى الجنوب وهى : -

(١) وفرة العمال وانخفاض تكلفة العمل فى الجنوب بالمقارنة مع الشمال . هذا على الرغم من أن عمال الجنوب يحتاجون إلى تدريب كاف قبل استخدامهم فى المصانع .

(٢) توفر الحكومة منح خاصة لتساعد فى إنشاء مصانع جديدة وتدريب كوادر جديدة من العمال ويأتى معظم هذه المساعدة من السوق المشتركة .

(٣) تعفى المصانع الجديدة من الضرائب المحلية لعدة سنوات بعد بدء

الإنتاج .

(٤) تحظى المصانع في الجنوب بمعاملة خاصة وتعطى الأفضلية في منح العقود الحكومية .

بالإضافة إلى هذه الحوافز فإن هناك مصادر جديدة للطاقة في الجنوب تنتظر الاستغلال فقد تم مثلا تمويل مناطق عديدة بالغاز الطبيعي المحلي كما تم بناء تسهيلات أفضل في الموانئ لاستقبال الشاحنات الضخمة التي تأتي بالفحم والمواد الخام ويتبع ذلك إنشاء صناعات جديدة مثل الحديد والصلب والبتروكيماويات ، ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال والتوقعات المعقودة : فإن عدم وجود تقليد صناعي في الجنوب قد أدى إلى عجز مصانع الجنوب عن منافسة المنتجين في شمال القطر اقتصاديا كما أن التجربة المريرة في الخمسينات قد أوضحت أن تكاليف الإنتاج الصناعي في الجنوب متضخمة وذلك لعدم توفر الخدمات والمنتجات المتوسطة (التي ترخز بها المناطق الصناعية في الشمال) في الجنوب . وكان على المسؤولين توفير هذه الخدمات إما باستيرادها من الشمال أو بإنشائها في الجنوب من جديد ، كما أن بناء مجموعة من المصانع في الجنوب لم يضمن قاعدة صناعية ثابتة ومستقرة لنمو صناعي أكثر . وهكذا ظهر للمسؤولين أن الجنوب وتطوره يحتاج إلى سياسات تنمية أكثر شمولاً .

وقد ناقش المخططون أن تركيز الصناعات الجديدة في « مراكز تنمية » مختارة بعناية حيث يمكن إقامة خدمات وصناعات مرتبطة بمنح أكثر الوسائل فعالية لتقوية وتعزيز التصنيع في الجنوب . وسيحتوى كل مركز من هذه المراكز أنواعا من المصانع التي تنتج بضائع متنوعة وسيتم تخطيطها لتمويل عدد من الخدمات من البداية كالتى نجدها في المناطق الصناعية العريقة . ولكي تؤدي هذه المراكز وظيفتها فإن اختيار المواقع يجب أن يتم سويا مع الصناعات المتوقع نجاحها فيها مع توفير الخدمات والورش اللائقة .

بعد تحريات مفصلة قدمت « ايطالكونسلت » توصيات بتشجيع القطاعات الصناعية الآتية في الجنوب :

١ - صناعة الحديد والصلب (موجودة في ترانزو من قبل) .

- ٢ - تركيب الماكينات (جديدة) .
 - ٣ - صناعة هندسية للآلات الدقيقة (موجودة في منطقة نابولي من قبل) .
 - ٤ - تكرير البترول وصناعة البتروكيماويات (موجودة في ترانتو) .
 - ٥ - الألياف الصناعية (تحتاج إلى تطوير) .
 - ٦ - صناعات مرتبطة بالبتروكيماويات مثل صناعة المطاط الصناعي لعمل الإطارات (جديدة) .
- كما قدمت المؤسسة توصياتها بعمل أربعة مراكز تنمية للتصنيع في الجنوب هي :

- (١) مركز كاسيرتا / نابولي / ساليرنو في كامبانيا .
- (٢) كتانيا سيراكيوز في شرق صقلية .
- (٣) كالفاري في جنوى سردينيا .
- (٤) باري , برينديزي / ترانتو في أبوليا .

ويمكن أن ندرس الأخيرة كمثال لمراكز التنمية في جنوى إيطاليا :

سبق اختيار هذه المنطقة كمركز تنمية دراسة مفصلة لمحافظة أبوليا ومدنها الرئيسية لإعداد استراتيجية لتأسيس مركز تنمية في المنطقة فمدينة باري Bari كانت أساسا مدينة تجارية بها مصنعان فقط يعمل فيهما مايربو عن خمسمائة عامل . أما ترانتو فكانت تحتوى على منشآت تابعة للبحرية ومرافئ وأحواض سفن عانت كمثيلاها في غرب أوروبا من الطلبات المتناقصة في وجه المنافسة اليابانية . أما برينديزي Brindisi فقد كانت مجهزة بميناء من الدرجة الأولى وبها مصانع كيمياوية تنتج مواد كيمياوية وأسمدة .

خططت ثمانية مصانع رئيسية وأربعة وعشرين مصنعا تابعا لها للمثلث باري / برينديزي / ترانتو . من الوجهة الاقتصادية كانت مدينة باري تمثل أفضل موقع لهذه المصانع ولكن كانت هناك أسباب اجتماعية استلزمت اختيار ترانتو وبرينديزي كمواقع لهذه المصانع أيضا .

تغطي المنطقة الصناعية في بارى ٥٠٠ هكتار وتمثل صناعة المعادن أهم تخصصاتها تتبعها صناعة الهندسة الكهربائية والمعدات الدقيقة وصناعة مواد البناء ، كما أن هناك مصانع صغيرة . ويعمل ٩٠٪ من القوى العاملة في مصانع تستخدم ١٠٠ شخص وأكثر . وقدر لهذه الصناعات الجديدة أن تستخدم ٨٢٠٠ عاملا ولكن نظرا لافتقار الجنوب للعمال المهرة فقد تم استجلاب ١٠٠٠ عامل متخصص من الشمال ، كما أن كثيرا من عمال الجنوب استقدموا للشمال للتدريب قبل فتح معاهد تدريب في الجنوب . وبحلول عام ١٩٧١ تم افتتاح ١١٠ مصنعا في بارى تستخدم ١٥٠٠٠ عاملا ورغم ذلك فما زال هناك ٣٦٠٠٠ عاطل وما زالت الهجرة إلى خارج المنطقة مستمرة .

اما منطقة برينديزي الصناعية فهي أكبر مساحة (٢٣٠٠ هكتار) وتستخدم ١٨٠٠٠ عاملا في مصانع البتروكيمياويات ومصانع مرتبطة بها (التي تنتج الأسمدة والبلاستيك والألياف الصناعية) والمعادن وصناعات خشبية والمواد الغذائية . كما تم توسيع الميناء لاستلام المواد الخام المستوردة من شمال أفريقيا والشرق الأوسط التي تعالج هنا ثم تصدر إلى الخارج .

أما منطقة ترانتو الصناعية فتتخصص في الصناعات الثقيلة التي تقع بالقرب من الميناء في حين تقع الصناعات الخفيفة إلى الداخل . وتشمل الصناعات الثقيلة صناعة الصلب الحكومية ومصانع الأسمت ومصنعي للبترو . ويتيح الموقع الساحلي استجلاب خام الحديد من شمال أفريقيا والجزير المحلى وفحم الكوك من الولايات المتحدة . وبدأ الإنتاج في ترانتو في عام ١٩٦٤ وبلغ الإنتاج السنوى في عام ١٩٦٨ إلى ٢ مليون طن من الصلب وإلى ١٠٥ طن في ١٩٧٤ ، وقد بلغ إنتاج الجنوب من الصلب ٤٠٪ من إنتاج إيطاليا الكلى في عام ١٩٧٥ . ورغم هذا التقدم في إنتاج الصلب فإن عدد المستخدمين من العمال في هذه المصانع قد بلغ ٥٠٠٠ عامل تم اختيارهم من جملة ٥٠٠٠٠ عامل تقدموا بطلباتهم للالتحاق بها .

وقد انتقد رجال الأعمال الشماليين مصانع ترانتو للصلب لأسباب عدة منها

أن عدد الوظائف التي تم توفيرها قليلة جدا كما أن معظم الصلب المنتج في الجنوب يشحن إلى الشمال لاستخدامه في المصانع الموجودة هناك . كما أن مصانع الصلب لم تجذب إلا القليل من الصناعات الفرعية أو الثانوية إلى الجنوب وأخيرا أنه كان في الإمكان إنتاج الصلب بتكلفة أقل إذا تم توسيع المصانع القائمة في الشمال حيث يتوفر العمال المهرة . وعلى الرغم من هذه الانتقادات فقد ارتفع متوسط الدخل الفردي في أبوليا بحوالى ٢٥١٪ في الستينات (بالمقارنة مع ١٥٠٪ بالنسبة لإيطاليا كلها) كما ارتفع عدد السكان بنسبة ٩٪ فيما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ (بالمقارنة مع ١٢٪ بالنسبة للجنوب كله)

ويمكن حصر إنجازات التنمية الإقليمية في الستينات في الآتي : تشجيع الحكومة للشركات الكبيرة لإنشاء مصانع في مراكز التنمية في الجنوب : ومثلا ٣ استثمارات شركة فيات فيما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٢ كانت في الجنوب) ومن أهم مصانعها مصنع لتجميع العربات في نابولي . كما أن شركة بيريللى لديها ستة مصانع توفر ٧٠٠٠ وظيفة جديدة ، وتقوم شركة أوليفتى بتوسيع مصنعها في بوزولى وإنشاء مصنع تجميع آخر في سيزارنا .

ويقول الجنوبيون إنه بينما ازدهرت مدن بحكم موقعها واختيارها كمراكز تنمية وما تبع ذلك من توفير العمل في المصانع والمكاتب ، فإن ماتم في مجال تحسين فرص العمل وظروفه في الريف والمدن الصغيرة قليل جدا . ولذلك فهم يطالبون بتحسين الوضع الاقتصادى في الجنوب كله حتى يتحقق التطور المنشود ، ولكن هناك من علماء التخطيط والاقتصاد الذين يصرون على اتباع سياسة تركيز الصناعات في مناطق مختارة ومحاور معينة ليوازن المجمعات الصناعية في الشمال . ويرى الجنوبيون أنه بالإمكان حل مشكلة التضخم والازدحام في الشمال بتحويل الاستثمارات إلى مناطق الجنوب ، ولكن الشماليين يرون أن أى إيقاف للاستثمار في الشمال سيؤدى ليس إلى إبطاء النمو الاقتصادى فيه بل سيعرض الاقتصاد القومى إلى خطر .

على الرغم من هذه الانتقادات فقد حدث بعض التقدم في مجال توفير الوظائف الصناعية في الجنوب : ومثلا بلغ عدد العاملين في الزراعة في عام ١٩٥٠ ٥٥٪ من القوى العاملة في الجنوب ، ثم انخفض إلى ٤٣٪ في عام ١٩٦١ وإلى ٣٠٪ في عام ١٩٧١ . ولكن ما زال القطاع الزراعي يمثل أهم مجال التوظيف في الجنوب . وفي الفترة ما بين ١٩٥١ و ١٩٦٨ بلغ عدد الذين تركوا مزارعهم ١٥ مليون . ولكن ما أمن من وظائف خلال نفس الفترة بلغ ٦٠٠٠٠٠ وظيفة جديدة في المصانع و ٥٠٠٠٠٠ وظيفة أخرى في الخدمات ، وكثير من المزارعين السابقين تقاعدوا أو ظلوا عاطلين أو هاجروا إلى الشمال . وقد هاجر كثير من الشبان خاصة إلى مدن الشمال أو أجزاء أوروبا الغربية المختلفة بحثا عن العمل . وما زالت هناك اختلافات كبيرة في الدخول بين شمال وجنوب القطر وقد دلت الأبحاث والتقارير أن هذه الفجوة في تزايد مستمر .

ولذلك شرعت الحكومة الإيطالية في عام ١٩٧٢ باتخاذ خطوات أخرى لمعالجة مشاكل الجنوب . فقد أعيد تنظيم « هيئة تطوير الجنوب » التي أنشئت طبق المرحلة الثالثة : إذ كلفت الهيئة بإنفاق ٨٠٠ مليون جنيه حتى عام ١٩٧٧ . وتتبع سياسة الجنوب الجديدة التشريع الذي سنته الحكومة في عام ١٩٧١ والذي ينص بأن مهمة تطوير الجنوب ستطرح كأهم مشكلة في التخطيط الاقتصادي القومي . وتركز الهيئة الآن جهودها في تمويل مشاريع خاصة تشمل نطاقات صناعية جديدة وتوسيع المناطق الحضرية الكبيرة والحفاظ على الموارد الطبيعية . كما أصدرت التوجيهات إلى المؤسسات الحكومية بتخصيص ٨٠٪ من استثماراتها للجنوب ، كما أن على الشركات الخاصة أن تقدم مقترحاتها للتنمية للحكومة للموافقة عليها والتأكد بأنها تماشى بقدر الإمكان مع المشاريع القومية في الجنوب .

ولكن ما زالت هنالك مشاكل عديدة يجب التغلب عليها ، كما يجب أن لا ننكر أن تقدما ملحوظا قد تم في مجال إزالة الملاريا ، وتخفيض نسبة الأمية

وتزويد المنطقة بالمستشفيات والمدارس والخدمات الاجتماعية في مناطق كانت تفتقر إلى هذه الخدمات . فالإنتاج الزراعى قد تضاعف في خلال العشرين سنة الماضية كما ارتفع الإنتاج الصناعى أربعة أضعاف . ولذا من البديهي أن تكون إيطاليا من أكثر الدول المؤيدة لسياسة عامة للتنمية الاقليمية داخل السوق المشتركة . فالجنوب ما زال يمثل أفقر أجزاء أوروبا الغربية .

(٢) فرنسا :

تختلف أسباب التخلف الإقليمى في فرنسا من تلك التى نجدها في جنوب إيطاليا : ففرنسا تتمتع بطروف طبيعية وموارد مائية أفضل من الميزوغورنو ، فأسباب التباين ترجع هنا إلى التركيز الشديد للقوى الاجتماعية والاقتصادية في العاصمة باريس وما حولها ، مما أدى إلى وجود تباين حاد بينها وبين المحافظات في أوجه عديدة مثل الدخل وفرص العمل ونواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية الأخرى

وقد وجه المخططون اهتمامهم إلى التناقض الواضح بين شمال وشرق الدولة وما يتميز به من تقدم زراعى وصناعى ، والمنطقة التى تقع إلى الغرب من خط يمتد بين ميناء الهافر ومارسيليا والتى تتميز بالتخلف والنمو الاقتصادى البطيء وتشمل الهضبة الوسطى وأكوتين وبريتانى .

بدأ اهتمام الدولة بالتباين الإقليمى منذ عام ١٩٥٥ حين تم إنشاء إحدى وعشرين منطقة تخطيط وتبع الحكومة الآن سياسات مختلفة تجاه نصفي القطر : سياسة دعم اقتصادى في الشرق وسياسة محددة في الغرب بغرض تنشيط النمو الاقتصادى عن طريق مساعدات مالية ضخمة بغرض تطوير الصناعة . كما أن هناك مساعدات أخرى لدمج الأراضي الزراعية وأيضاً لتشجيع توفير الوظائف في المصانع والمكاتب والمتاجر والخدمات في المحافظات ولتحسين الأحوال الزراعية .

ففي شرق فرنسا تتمثل المشكلة في مناطق الصناعات القديمة (النسيج والتعدين) حيث أدت تحديث وسائل استخراج المعادن والمنافسة الخارجية في

وتوسيع شبكة القنوات واستبدال الطرق القديمة بأخرى حديثة . ويمكن التعرف على ثلاثة أنواع من المشاكل : الإقليم الصناعى القديم فى الجنوب ، مناطق الصناعة النسيجية والمناطق الريفية ذات الصناعة القليلة . فقد تقلص إنتاج الفحم حديثا مما أدى إلى انخفاض فرص العمل فى المجال الصناعى عامة .. فقد فقدت المنطقة أكثر من ١٠٠ر١٠٠ وظيفة من جراء ذلك وتقلص عدد العمال بحوالى ١٠٪ فى الفترة ما بين ١٩٤٧ - ١٩٦١ ، بينما اكتسب الشمال ١٠٠ر١٠٠ وظيفة جديدة . ويعانى الجنوب أيضا من كبر سن سكانه وقلة تدريبهم وعدم صلاحيتهم لملء الوظائف الجديدة مما أدى إلى تدفق العمال الأجانب إلى المنطقة لسد العجز فى العمال المهرة .

وتقوم الحكومة بتقديم المساعدات المالية لإنشاء صناعات حديثة وتحديث الصناعات الموجودة ، ولكن هذه الإجراءات لم تؤد إلى حلول جذرية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية الناجمة من : (١) تقلص الصناعات الأساسية .

(٢) عجز المناطق الصناعية القديمة من اجتذاب واستقطاب صناعات جديدة .

(٣) عجز الوظائف الجديدة من مواكبة النمو السكانى . إلا أن توفير وظائف جديدة .

(٥٨٢٥١ وظيفة فيما بين ١٩٥٩ - ١٩٦٥) أدى إلى انخفاض نسبة البطالة .

وشهد الشمال إنشاء مصانع جديدة لشركات أمريكية ووطنية بينما ذهبت معظم المساعدات المالية للجنوب فى تحديث المنشآت الصناعية القديمة وخصص ثلثها فقط لإقامة مصانع جديدة (انظر الجدول ٢٢) .

جدول : ٢٢ الاستثمارات البلجيكية للمساعدات الإقليمية
فما بين ١٩٥٩ - ١٩٦٩ م

| تحديث (%) | أنشاءات جديدة (%) | النسبة المئوية (%) | مجموع الاستثمارات (ألف مليون) | |
|--------------|----------------------|-----------------------|----------------------------------|------------------|
| ٤٧ | ٦٩ | ٥٨ | ١٢٣ر٤ | الشمال الفلمنكى |
| ٤٩ | ٣١ | ٤٠ | ٨٤ر٦ | الجنوب الدولى |
| ٤ | ٠ | ٢ | ٤ر٦ | أقليم بروكسل |
| ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ٢١٢ر٦ | المجموع (بلجيكا) |

(٤) ألمانيا الاتحادية :

يوجد نوعان من مناطق المعانة فى ألمانيا الاتحادية :

(١) تمثل المنطقة الأولى تلك التى تتعلق بالأعداد الكبيرة من العمال الزراعيين الذين تلفظهم الزراعة الحديثة ويجدون طريقهم إلى المناطق الصناعية بحثا عن عمل جديد ، مما يتطلب إيجاد وظائف جديدة فى مدن الريف لاستيعاب هذه المجموعة .

(٢) أما المنطقة الثانية فتشمل نطاق الحدود الذى يمتد على طول التخوم مع الدول الشيوعية ، وقد عانى هذا النطاق من التمزق الاجتماعى والاقتصادى إثر إنشاء الستار الحديدى .

وقد اهتمت الحكومة بإنشاء نقاط تنمية فى المناطق المتخلفة حيث يتم إنشاء الخدمات ووظائف جديدة . وبالإضافة إلى المعونات الفيدرالية تسهم المحافظات أيضا فى هذا المجال .

تمثل مرتفعات ايفل - هنزروك Eifel-Hunsruck نموذجا حيا لمناطق المعاناة الألمانية . فهي تحتوى على ٦٠٠ر١٠٠ نسمة يعمل نصفه فى الزراعة والغابات وربعه فى الصناعة . ولكن المزارع صغيرة (تسع أعشار المزارع أقل من ١٠ هكتار) ومجزأة وتعانى من تكلس التربة إذ قدر أنه يمكن تخفيض التربة بحوالى ٣٠ر١٠٠ عامل بدون أن تتأثر الكفاءة الإنتاجية . ولكن لا توجد وظائف كافية لاستيعاب هؤلاء . وقد شرعت الحكومة فى إنشاء مصانع جديدة (١٦٥ مصنع فى الخمسينات) كما تم دمج القطع الزراعية وبناء الطرق وتشجيع السياحة .

أما منطقة الحدود فهي تعاني من الوضع السياسى المجهول على طول الستار الحديدى وتمنح المساعدات المالية فى هذه المنطقة للتأكد من أن المصانع الموجودة تبقى فى وضع منافس للمصانع الأخرى فى باقى أجزاء البلاد . وأيضاً لفتح مصانع جديدة . وقد عانت صناعة النسيج والخزف من جراء تقسيم الدولة إلى شطرين وفقدان الأسواق والمواد الخام فى ألمانيا الشرقية وتشكوسلوفاكيا . فالمشاكل هنا نفسية ومادية : فالريية الناشئة من الحياة بالقرب من الحدود قد أدت إلى هجرة متواصلة إلى أجزاء ألمانيا الغربية الأخرى .

تركز الحكومة على إنشاء نقاط تنمية متفاوتة الأحجام . ففى أواخر الستينات كانت هناك إحدى وثمانين مدينة تمثل نقاط تنمية تم فيها إنشاء ٤٥٠ مصنعا جديدا ساعدت فى توفير ٤٥٠ر١٠٠ وظيفة جديدة وتبشر بتوفير ٨٦ر١٠٠ وظيفة أخرى . وفى الفترة ما بين ١٩٦٩ و ١٩٧١ تم بناء ٢ر١٠٠ مصنع جديد فى هذه المدن وتوفير ٣١٠ر١٠٠ وظيفة صناعية جديدة .

وبالإضافة إلى هذا النوع من المساعدات تدعم الحكومة أربعة مخططات أو مشاريع إقليمية :

- ١ مشروع الألب بغرض منع تعرض مناطق الألب للفيضانات .
- ٢ مشروع كوستن الذى تم تخطيطه بعد فيضانات عام ١٩٥٣ ويشمل

الوسائل التي بواسطتها يحمي الساحل الشمالى الشرقى وأيضا تحسين الأحوال الزراعية بعد إنشاء الطرق وتصريف الارض .

٣ - مشروع امزلاند Emsland وبرنامج الشمال ، اللذان أنشئا فى الخمسينات لمعالجة مشاكل المناطق الزراعية فى ساكسونيا الأدنى وإقليم شيلزويك -- هولشتاين والتي تتميز بحدّة العطالة وكثرة اللاجئيين (من أجزاء ألمانيا الشرقية وبولنده) . وقد تم إنشاء ٢٥٠ مصنعا تستخدم ما يزيد من ١٢ر١٠٠ عامل .

(٥) جمهورية ايرلنده :

تمثل مناطق المعاناه فى جمهوريّة ايرلنده الأجزاء الغربية منها وتشكل ٤٦٪ من مساحة القطر يسكنها ٢٢٪ من سكانه ويكسبون ٢٢٪ من الدخل القومى . ويعمل فى الزراعة ٢٧٪ من القوى العاملة وتشكل المنتجات الزراعية ٢٣٪ من صادرات البلاد . أما فى الغرب فإن حوالى نصف سكانه يعملون بالزراعة معظمهم من العجائز الذين لا وريثة لهم . أما الصناعة فيعمل بها ٣٠٪ من القوى العاملة ويوجد معظم المصانع فى الشرق . فى عام ١٩٥٩ تم إنشاء « منطقة صناعية حرة » بالقرب من مطار شانون الدولى . ثم وضعت ثلاثة مشاريع قومية (١٩٦٣ و ١٩٦٩ و ١٩٧١) للنهوض بهذه المناطق .

وتركز سياسة التنمية الإقليمية على التصنيع خاصة فى الأجزاء الغربية وتقوم « هيئة التطوير الصناعى » بتقديم المساعدات المالية وتطوير مواقع المصانع وتمويل الخدمات والإرشادات وتسهم فى إعداد المشاريع الإقليمية . كما أن هناك اهتماما خاصا بمناطق الغال Gaeltacht حيث يسكن ٣٠ر١٠٠ من الذين يتكلمون باللغة الغالية وتهدف الحكومة إلى المحافظة على نمط الحياة الايرلندى وثقافتها . ولكن هذه المناطق تعاني من صغر مساحة الوحدات الزراعية (اقل من ٦ هكتارات) وتغطى المستنقعات معظمها مما يؤدى الى هجرة متواصلة إلى اجزاء البلاد الاخرى . ويمكن العلاج لهذه المشاكل فى إيجاد الوظائف بإنشاء المصانع والخدمات التجارية وتشجيع السياحة .

وفي الفترة ما بين ١٩٥٢ و ١٩٧١ تم إنشاء ٣١٠ مصنع نتج عنه توفير ٢٥٠.٠٠٠ وظيفة . وقد استعانت الجمهورية بالخبرات الأجنبية في إقامة المصانع الجديدة وأهم هذه الدول المستثمرة هي الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الاتحادية (٨٠٪ من جملة الاستثمارات الأجنبية)

من هذه الدراسة التطبيقية يبدو لنا أن خطط التنمية الإقليمية طبقت بطرق ووسائل متفاوتة في أقطار أوروبا الغربية خلال العشرين سنة الأخيرة . كما زالت السوق الأوروبية المشتركة تفتقر إلى سياسة إقليمية مشتركة بين أعضائها . وحتى المحاولات التي سعت إلى تبني سياسة موحدة تجاه هذه المشاكل لاقت صعوبات . وعلى الرغم من الإنجازات الباهرة في هذا المجال التي حققتها الحكومات الفردية . فإن التباين بين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة ما زال حادا . ويمكن أن نعزو هذا الإخفاق في تحقيق أهداف التنمية الإقليمية إلى أسباب أربعة :

(١) إن التكامل الاقتصادي المتزايد قد ساعد في ترسيخ الشركات الموجودة وشجعها ليس على التوسع السريع في المناطق المتقدمة فحسب بل حفز شركات جديدة إلى التحرك لهذه المناطق لما تتميز به من وفرة في العمال وأسواق كبيرة وأفضل وسائل النقل وأحسن الفرص لتحقيق الاتصال مع الدول الأخرى . ثم هناك عدم رغبة شركات السوق المشتركة نفسها في بناء مصانع لها في المناطق الهامشية وأخيرا تركيز الاستثمارات الأجنبية . خاصة من الولايات المتحدة في المناطق المتقدمة .

(٢) تفاقم مشاكل المناطق الهامشية نتيجة عدم رغبة الحكومات القومية في التدخل في تغيير المواقع الصناعية الموجودة خوفا من تقليل القدرة التنافسية الاقتصادية لدولها . وبدلا من كبح التنمية في المناطق المتقدمة صناعيا . ركزت الحكومات جهودها في عملية توفير العمل للعمال في المناطق الهامشية الفقيرة كما حدث في فرنسا وإيطاليا .

(٣) الاتجاه التدريجي نحو التجارة الحرة عند الأعضاء الستة ثم تطبيق طريقة شمولية في معالجة المشاكل المتعلقة بالنشاطات المختلفة مثل استخراج الفحم والزراعة وصناعة الصلب كانت له آثار سيئة على المناطق التي كانت تعاني من البطالة نتيجة التدهور الذي أصاب هذه القطاعات بعضها . ففي الماضي كانت الحكومات الوطنية في وضع للدفاع عن مثل هذه المناطق والصناعات وحمايتها . ولكن في محتوى التكامل الأشمل فقدت الحماية الفردية معناها .

(٤) كانت الخطط القومية للمساعدات الإقليمية تخطط وترسم على أساس الغرض نفسه ولذلك اتسمت بعدم التنسيق والتناسق . وكثيرا ما كانت هذه الخطط تفتقر إلى أموال كافية لإنجازها . وكانت كل دولة تنفق بتفاوت أموال ضخمة على التنمية الإقليمية : مثلا كانت المملكة المتحدة تصرف سنويا من خمسة إلى عشرة أضعاف ما تنفقه فرنسا في هذا المجال كما أنها وإيطاليا انفقتا في هذا المضمار أكثر مما أنفقته السبعة الأعضاء مجتمعة .

احتلت المواضيع الخاصة بالتنمية الإقليمية الصدارة في محادثات عام ١٩٧٢ والتي أدت إلى توسيع عضوية السوق إلى تسع دول . وقد اتفق رؤساء الحكومات على أن تكون الأولوية في الدول الأعضاء لتصحيح التباينات الإقليمية التي قد تعوق من تحقيق أهداف منظمة الاتحاد الاقتصادي والنقدي Economic and Monetary Union وقد طلب من اللجنة الأوروبية أن تحل المشاكل الإقليمية داخل السوق ووضع الحلول المناسبة لها .

وحددت مهام الخطة الإقليمية المشتركة في معالجة مشاكل المناطق الزراعية المتخلفة والأقاليم الصناعية القديمة ويقوم بتمويلها صندوق تنمية تابعة للسوق تم تكوينه في أواخر عام ١٩٧٣ . وسيقوم الصندوق Common Regional Development Fund بتعزيز ودعم مشاريع المساعدات الإقليمية التي تقوم بها الدول الأعضاء التي تكون قد وافقت على تنسيق مشاريع التنمية الخاصة بكل منها . وسيكون الدعم في شكل إعانات مباشرة بدون فائدة وستوجه المساعدات إلى مشاريع الاستخدام في مجال الصناعة والخدمات . ولتحديد

،إذا كانت منطقة معينة جديرة بهذه المساعدات يستخدم الصندوق ثلاثة معايير :

١ - نسبة عطالة عالية وبصورة مستمرة .

٢ - مستويات دخل منخفضة .

٣ - هجرات نازحة .

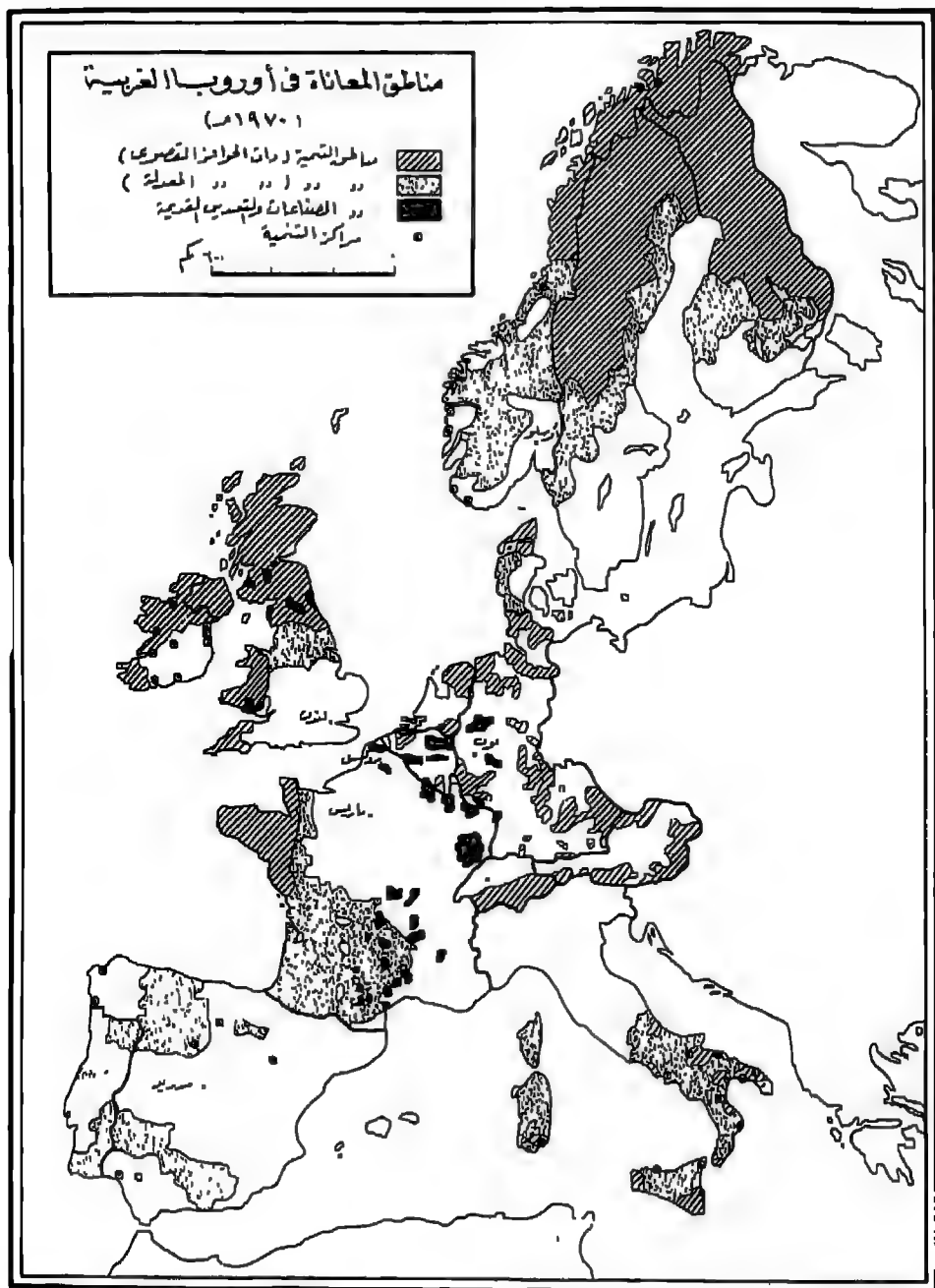
وتنطبق هذه المعايير على المناطق الهامشية من جنوب إيطاليا وجمهورية أيرلنده والمملكة المتحدة ومناطق الصناعات القديمة (الشكل ٧٥ و ٧٦ و ٧٧) .

وعندما فشلت الحكومات في الوصول إلى اتفاق حول حجم هذه المساعدات ، تم الاتفاق على مبلغ أقل (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنية بدلا من ٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنية) كما تم الاتفاق أيضا على تخصيص نسب معينة للدول المعنية كما يأتي : -

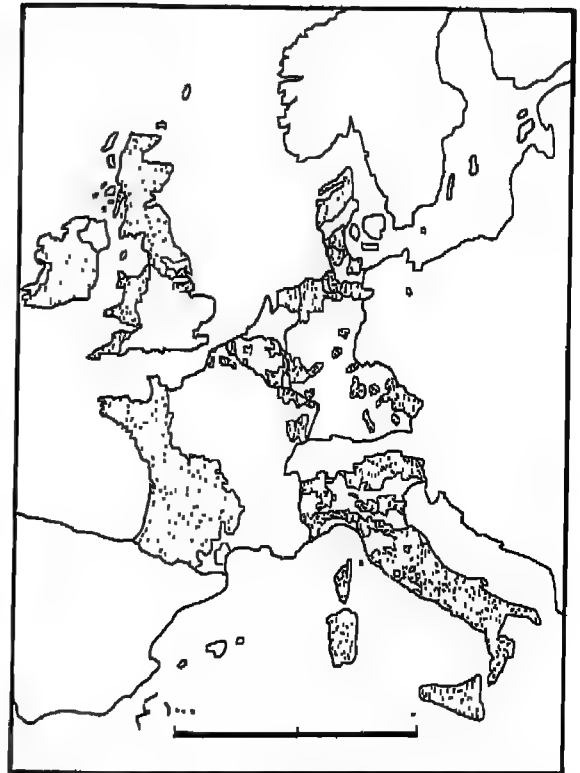
٤٠٪ لإيطاليا و ٢٨٪ للمملكة المتحدة ، و ٦٪ لجمهورية أيرلنده ، فرنسا ١٥٪ وألمانيا الاتحادية ٦٤٪ ، وهولنده ١٧٪ وبلجيكا ١٥٪ والدنمارك ٣١٪ ولوكسمبورج ١٠٪ . ومن الواضح أن ثمة مشاكل عديدة تنتظر الحل قبل تطبيق الخطة الإقليمية المشتركة مثل دخول اليونان للسوق . فالدول لأعضاء ستحفظ بنفوذ أقوى في مجال الاستثمار ، وستبقى التباينات الإقليمية داخل هذه الدول إلى حين تدخل آخر من قبل السوق بوضع حلول جذرية لمشاكل مناطق المعاناة . وحينما سيحتاج ذلك إلى أموال ضخمة .

من تجارب دول غربي أوروبا في ميدان التنمية الإقليمية نخلص إلى النقاط الأربعة الآتية : -

(١) ان مشاكل المناطق المتخلفة متطورة ومستمرة وستحتاج إلى عناية أكثر في المستقبل . فالمناطق الزراعية ستحتاج إلى تخطيط واقعي لانصراف الناس عن الزراعة والانخفاض المتوقع في رقعة الأراضي الزراعية والعاملين فيها . كما أن



المناطق المؤهلة للحصول على الإعانات
الاقتصادية وفق تقرير تومبسون



شكل (٧٦)

متوسط البطالة السنوية
في أوروبا الغربية ١٩٦٨ - ١٩٧١



شكل (٧٧)

التخطيط الريفي يشكل مشكلة حادة بالنسبة لفرنسا وإيطاليا . وتعر المناطق الصناعية القديمة بفترات عصيبة نتيجة التقلص الاقتصادي الذي تتعرض له مع أن أسعار البترول العالية قد تؤدي إلى استعادة الفحم أهميته كمصدر مهم للطاقة ، وتحتاج صناعات أخرى مثل الفحم والحديد والصلب والنسيج إلى تجديد وتحويل لتواكب التقدم التكنولوجي . وتحتاج العواصم إلى معالجة مشاكل الازدحام وتلوث البيئة ، كما يتوقع أن تزداد الهجرة من الريف نتيجة تقلص الزراعة . أما في المناطق المتخلفة التي شهدت بناء مصانع فيها فإن الاهتمام يجب أن يوجه إلى تدريب العمال وتمويل المشاريع التي تهدف إلى تدريب العمال وتجهيز مصانع في هذه المناطق لتكون حافزا للصناعيين لإقامة مصانعهم فيها .

(٢) إدخال الوظائف التي تحتاج إلى عمال أكثر للاستفادة من الأعداد الكبيرة من العمال الذين يتواجدون في مناطق المعاناة : فالصناعات التي عادة ما تقام في مثل هذه المناطق مثل مصانع الصلب ومصافي البترول والهتروكيمياويات تمنح فرص عمل قليلة رغم أهميتها ولذلك لاتساعد في حل المشاكل مثل صناعات الخدمات التي تستوعب أعدادا أكبر من العاطلين .

(٣) يوجد مجال واسع للتنسيق والتعاون الدوليين في معالجة مشاكل مناطق المعاناة .

(٤) انبثقت مشاكل عديدة نتيجة لتطبيق خطط « نقاط أو مراكز التنمية » في ألمانيا وهولندا وجنوبي إيطاليا . فخطة التنمية للجنوب الإيطالي أثارت التفاؤل لدى المخططين ولكنها قوبلت بالمعارضة من سكان المنطقة . وقد اقترح المخططون أن نتائج دراستهم يمكن تطبيقها أيضا على المناطق التي تفتقر إلى مراكز صناعية عريقة لكي تستقطب صناعات أخرى جديدة نحوها . ولكن المشكلة هنا تكمن في الاهتمام الزائد على مراكز التنمية دون المناطق المحيطة بها والتي تبقى على ما كانت عليه من تخلف وفقر . فهذه المراكز الكبيرة قد تنجح في إيجاد

الارتباطات الصناعية المطلوبة ، ولكنها لا تلى الحاجة الاجتماعية في توفير الوظائف في كل مناطق المعانة .

وهنا تبقى المشكلة الرئيسية التي تواجه المخططين : تحديد الحل الوسط بين إشباع هذه الاحتياجات الاجتماعية وإيجاد حلول منطقية للظروف الاقتصادية المتغيرة ... وهل في إمكان السياسة الإقليمية المشتركة أن تقدم حلا شافيا لهذه المعضلة ؟

خاتمة

شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية تغييرات جذرية في مراكز القوى ومناطق النفوذ ، فقد ظهرت مراكز قوى اقتصادية وسياسية جديدة في الولايات المتحدة وروسيا ، وفقدت أوروبا مكانتها كقوة ذات فعالية وأخذت تنهار وتمزق إلى جزئين رئيسيين في ظل المواجهة بين القوتين العظميين ومن هذه المواجهة تولدت تجمعات بين دول أوروبا تمثلت في منظمتين رئيسيتين كما شرحنا من قبل ، وفي ظل هاتين المنظميتين وتحت تأثيرهما ستظهر أوروبا مختلفة في مستهل القرن القادم عن تلك التي عهدناها في منتصف القرن العشرين . وفي هذا العالم المتغير لا تمثل أوروبا الغربية ومعها الولايات المتحدة المركز الوحيد للعالم الصناعي المتقدم ، فهناك الاتحاد السوفيتي واليابان اللتين أصبحتا منافستين خطيرتين ، كما لا بد وأن ينتشر مثل هذا الاقتصاد والمجتمع (الصناعي المتقدم) ليشمل أجزاء أخرى من أوروبا بحلول القرن الحادي والعشرين . ومن واقع الأحداث وبحريات الأمور والاتجاهات الحديثة في النواحي الاقتصادية والسياسية يمكننا أن نتنبأ (وأيضاً نفترض) خصائص عامة لأوروبا في بداية القرن الحادي والعشرين ، ونأمل أن لا تكون هذه التنبؤات العامة بعيدة من حقيقة الوضع في ذلك القرن الذي أصبح يتخذ عند بعض الكتاب حالة صوفية .

شهدت الفترة ما بين الحربين العالميتين أوروبا منقسمة إلى مجموعتين اقتصاديتين رئيسيتين : إحداهما صناعية وتشمل غربي أوروبا ووسطها بينما تميزت المجموعة الثانية باقتصاد تسيطر عليه الزراعة كما في شرقي وجنوبي القارة . ومع حلول السبعينات فقد هذا التمييز معالته . فعلى الرغم من التدهور المتواصل في عدد المشتغلين بالزراعة في « أوروبا الصناعية » ، فقد أخذت الزراعة تفقد سيطرتها وتفوقها في المناطق التي كانت تعتبر ضمن « أوروبا الزراعية » فيما مضى نتيجة التصنيع السريع فيها ، وإذا استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٠٠ فلن

يبقى أى اختلاف بين معظم الدول الأوروبية فى الدور الأساسى الذى تلعبه الزراعة والصناعة فى اقتصادياتها . وهذا القول لا يعنى تماما أن اقتصاديات هذه الدول ستكون مماثلة لبعضها : فإن التصنيع فى المعسكر الشرقى والذى يتم وفق السياسة الروسية وخبرتها سيبخلف حتما من الأنماط الصناعية فى غرب القارة ذات الاقتصاد الحر ، وإن كان لنا أن نعرف بأن التباين الحالى ستخف حدته مع مرور الزمن . وفى الحقيقة فإن السياسة الاقتصادية فى الشرق والغرب تركز على تحقيق المساواة فى التنمية الاقتصادية على المستوى الإقليمى وكذلك بين الدول ، كما أن هناك عنصراً آخر من عناصر التغيير يتمثل فى نمو القطاعات الاقتصادية الثلاثية (وحتى الرباعية) فى معظم الدول المتقدمة ، وإذا اتبع هذا الاتجاه فقد تظهر مجموعة من الدول (غالباً ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة ودول البنلوكس) مكونة ما يسمى « بأوروبا ما بعد الصناعة » Post Industrial Europe . ستكون وظيفتها تقديم خدمات حيوية وذات كفاءة عالية إلى باقى دول القارة .

جذب انقسام الحرب الباردة الأيدولوجى أقطار شمال وغرب أوروبا (وبعضها من دول الجنوب) إلى ارتباط عسكري واقتصادى وثيق داخل نطاق شمال الأطلسى كما شهدت نفس المنطقة تطوراً اقتصادياً داخل هذا الإطار . أما دول شرق وجنوب شرق أوروبا فقد تغلفت بنظام اقتصادى وسياسى ذى وجهة وأبعاد قارية أقامها الاتحاد السوفيتى . وعندما أخذت المصالح الأمريكية والسوفيتية تتردد وتتذبذب مع بروز مشاكل عديدة من أجزاء أخرى من العالم ، وذلك فى الربع الثالث من هذا القرن ، حدث اتصال بين الدولتين وبدأ البحث عن أسس للوفاق بينهما متخطين بذلك الخلافات الأيدولوجية . وتنشأ هذه الرغبة فى الاتصال بلاشك من التقدير لدى الأوروبيين بأن كل أجزاءها مرتبطة ببعضها البعض تجمع بينهما المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة . ومع نمو نفوذ ومكانة الدول داخل هذه التجمعات أو المعسكرات أخذت هذه الدول تضغط وتطلب بإعادة إنشاء علاقات وارتباطات أوروبية (وقد أدى الإسراع فى مشمل هذه العملية إلى أزمة آلإيسكندر دويشك وغزو

تشكوسلوفاكيا) . ويبدو معقولا الآن أن هذه العملية نحو الوفاق الأوروبي قد خطت خطوات كبيره ولا يمكن إيقافها وأن حقائق اقتصادية وتكنولوجية قد جعلت من الصراع المسلح أمرا لا معنى له ، ومتى ماتوفرت الظروف المواتية (مثل إيجاد توازن عسكرى واقتصادى معقول) سيكون هناك تقارب مستقر بين دول أوروبا . وبقدر ما يصبح الوفاق أكثر حقيقة ، بقدر ما يقوى وضعها إذ أن امتدادها عبر نظامين اقتصاديين وسياسيين مختلفين سيجعلها فى وضع أفضل للاستفادة من مجال التبادل الواسع الذى يمكن أن يتم فى الحيز الحدودى بين هذين النظامين . وفى هذا الوضع قد تشكل أوروبا تلك « القوة الثالثة » (فى التركيب الجغرافى السياسى للعالم) كما تصورها مؤيدو « الحركة الأوروبية » فى أواخر الأربعينات .

ويمثل المجال الاقتصادى لأوروبا البحرية ، والذى يتمركز حول شمال الأطلسى ، فى الحقيقة تقوية منطقة تجارية قديمة وتطعيمها بعلاقات تجارية جديدة فى إطار سياسى ودفاعى ، فى المناطق الأوروبية الغربية والأمريكية المطلة على الأطلسى يوجد أكبر تركيز صناعى فى العالم ، وقد أدى ظهور ناقلات المواد الخام الضخمة ذات التكاليف الزهيدة إلى تعزيز مكانة المواقع الساحلية العميقة التى أصبحت تجتذب الصناعات إليها . وعلى الرغم من ذلك فقد يحدث فى أوائل القرن القادم أن تعتمد أجزاء من هذه المنطقة الصناعية إلى درجة كبيرة على صناعات أساسية ثقيلة تستخدم مواد خام أساسية من داخل أوراسيا إذا كانت تكاليف النقل أقل ومشجعة . كما أن مصانع شمال الأطلسى قد تتحول إلى استخدام وسائل التقنية العالية التى تتطلب تقوية وتدعيم الارتباط بين الشركات ذات القومية المتعددة على جانبي المحيط بغرض دعم برامج البحث والتنمية العالية لتحقيق ذلك . ومع أن إنشاء السوق المشتركة قد أدى إلى ظهور الشركات ذات القومية المتعددة فقد دلت التجارب أن التعاون والدعم الأمريكى حيوى فى هذا المجال . ويمكن أن نستقرئ من الوضع الحالى أن تتحول المناطق الهامشية الأطلسية إلى مركز تجمع لاقتصاديات

« ما قبل الصناعية » التي ستعتمد على النشاطات الثلثية (وربما الربعية) مع احتمال ربط المهارات التكنولوجية لمصانع أوروبا الهامشية مع احتياطي العمال في الداخل وخاصة شرق وجنوب شرق أوروبا .

وقد حدث تقارب بين منطقة الأطلسي الاقتصادية واقتصاد منطقة المحيط الهادئ المتطور الذي يشمل جنوب شرق آسيا بإمكانياتها الضخمة ، وقد حدث ذلك إثر مجموعة من العوامل السياسية أدت الى تقليل العزلة الأيدولوجية ومن ثم الجغرافية للمناطق الداخلية من أوراسيا السوفيتية . ويظهر الإنتاج الصناعي في داخل أوراسيا تركيزا واضحا في الجزء الغربي منه حيث تشكل مصانع دول شرق أوروبا وغربي الاتحاد السوفيتي أربعة أخماس مجموع الإنتاج الاشتراكي . وتشير الدلائل منذ أواخر الستينات على أن هذا التركيز الصناعي في الغرب أخذ يزداد ويتمثل في الاستثمارات الضخمة في غرب بيلوروسيا وأكرانيا السوفيتية . وقد تم إنشاء تجمع في شرق أوروبا على غرار المونتاندرايك في الغرب يتكون من الصناعات الكيماوية الثقيلة في حوض السال آللب (ألمانيا الديمقراطية) والصناعات الثقيلة المتنوعة في منطقة بوهيميا - مورافيا ومنطقة صناعية موسعة في سايليزيا العليا في بولندا ، وكلها تمثل وضعها يجعل التقارب والتعاون مع غربي أوروبا ممكنا . أما التجمع الثالث فهو سوفيتي ويشمل الجنوب الصناعي (اكرانيا) والوسط الصناعي (موسكو وما حولها) ومنطقة الأورال والفولجا ، ولكن له صلات مع التجمعين السابقين .

ولكن القوة الضخمة لهذا النطاق القاري على المدى البعيد في أن منطقة الكوميكون تحتوي على ثروة معدنية هائلة في سيبيريا وآسيا الوسطى السوفيتية . ورغم أن الاتحاد السوفيتي قد أشعر أعضاء الكوميكون بأنهم في موضع المحاباة دائما فإن هذه الدول ستحتل مكانة متميزة في وضع يتسم بالنقص في المواد الأساسية وستلعب سيبيريا دورا هاما في أوروبا - شرقها وغربها - كمصدر أساسي للطاقة : غاز طبيعي أو بترول أو طاقة كهرومائية أو حرارية أو نووية .

ويتوقع أن تتفاقم أزمة الطاقة في أوروبا عند نهاية هذا القرن وتبدو المصادر المحلية ضئيلة بالمقارنة مع إمكانيات سيبريا ، وستكون للأنايب الضخمة وأسلاك الكهرباء ذات الطاقة العالية دوراً حيوياً في مصادر الطاقة الأوروبية . وحينما سيتطلب استغلال وتنمية هذه الموارد الآسيوية - الأوروبية ثروة مالية وتقنية لا قبل للاتحاد السوفيتي ودول الكوميكون الأخرى من الوفاء بها مما يستدعى الاستعانة بخبرات وثروات الدول الغربية المتقدمة مثل الولايات المتحدة وفرنسا واليابان وتدرس ألمانيا الغربية إمكانيات الاستفادة من مصادر الطاقة السوفيتية التي يتوقع أن تحمل مشاكل الطاقة في غربي أوروبا واليابان وحتى الولايات المتحدة في وجه أسعار دول الأوبك المرتفعة . ولكن يبقى السؤال إلى أي مدى يستطيع الاتحاد السوفيتي الوفاء بذلك ؟ ويتوقع أن يتسع مجال التجارة بين دول الكوميكون في شرق أوروبا وغربي أوروبا : تصدر الأولى منتجاتها الصناعية (مثل الأدوات المنزلية بأنواعها والمواد الاستهلاكية المتينة وغيرها) إلى أسواق غربي أوروبا بينما ستتحصر صادرات الدول الغربية إلى شرق أوروبا على المواد الاستهلاكية والمنتجات التكنولوجية العالية . وقد بدأ هذا النمط من التجارة في الظهور في الستينات ولكن يمكن له أن ينمو ويزدهر إذا أزيلت القيود السياسية ونجحت سياسة الوفاق التي تسعى إليه بعض الدول في أوروبا الغربية مثل ألمانيا وفرنسا .

أدت التحولات الجغرافية - السياسية التي حدثت في القرن العشرين إلى ظهور عدد من المفاهيم والعلاقات الإقليمية الجديدة ، والسؤال هنا هو فيما إذا ستحدث تغييرات أخرى في مجال الأداء الوظيفي الحالي للأقاليم مع حلول القرن الحادي والعشرين وخاصة من خلال أثر نظام فوق قومي ودولي موسع ؟

إذا أخذنا دول شمال أوروبا - الاسكندنافية - لانجد فيها تغييرا يذكر إلا من فقدان فنلندا لبعض أقاليمها لروسيا مما أدى إلى حدود مشتركة بين الأخيرة والنرويج . أما من الناحية الاقتصادية فإن السويد تمثل مكان الصدارة . ولكن سياسة الحياد التي تتبعها هذه الدول منذ فترة طويلة لم تعد ذات فعالية إذ

انضمت الدنمارك والنرويج لحلف شمال الاطلسي ، وكان الحرق الآخر للحياة التقليدية بعد انضمام الدنمارك للسوق المشتركة اعترافا بواقع العلاقات الاقتصادية التي يربطها بدول السوق الأعضاء . أما النرويج فقد رفضت الانضمام للسوق رسميا على الرغم من أن تطوير واستغلال مواردها من بترول بحر الشمال سيقربها أكثر وأكثر من السوق المشتركة . أما أيسلنده التي تعتمد تماما على صيد الأسماك ، وما تتعرض له هذه الحرفة من تقلص في الموارد وتلوث المياه ، فوقعها غير منيع من ناحية اقتصاديات الدول الاسكندنافية ، وقد يكون صراعها مع بعض دول أوروبا الغربية بخصوص مصايد الأسماك انعكاسا لتوافق جديد في الرأي بين الدول البحرية حول حاجة الدول إلى حماية مواردها السمكية والبحرية بتفسير جديد للسيادة على البحر وذلك عن طريق توسيع ومد المياه الإقليمية .

إثر تخفيف حدة التوتر في أواخر الستينات شهدت منطقة البلطيق بعضا في حياتها واستعادة لحيويتها ونشاطها الملاحى . وحتى خلال فترة الحرب الباردة كان بحر البلطيق مسرحا لنشاط تجارى كبير كما أن إمكاناتها العظيمة في مجال التبادل بين صناعات اسكندنافية التكنولوجية العالية وموارد الطاقة والمواد الخام من دول الكومينكون سيجعل منها حلقة وصل ذات أهمية ، ويمكن أن تأخذ العلاقة الوثيقة بين اقتصاديات فنلنده وروسيا مثالا لذلك ، كما أن التطور السريع في الاتصالات البرية بين المناطق « البحرية » و « القارية » في أوراسيا سترفع من أهمية بحر البلطيق : فحاليا يتم شحن الحاويات الآتية من اليابان عن طريق سكة حديد سيبريا القارى في موانئ روسيا البلطية لتفريغها في موانئ غربى أوروبا . ولكن هناك معوق أساسى في وجه تطوير البلطيق يتمثل في عدم قدرة الشاحنات البحرية الضخمة bulk carriers من الوصول إليه مع أن أى تحسين يطرأ على العلاقات بين الشرق - والغرب سيساعد في تحسين أجزائها الصالحة للملاحة وتوسيع مداخل القنوات لاستقبال هذه السفن .

يتوقع عند حلول القرن الحادى والعشرين أن يحدث أكبر وأعظم تجمع في

شبه القارة الرئيسية التى شهدت من قبل أيضا التغييرات الرئيسية بعد الحربين العالميتين . مع ظهور إمبراطورية ألمانية قوية ومع ازدياد نفوذ عائلة هابسبرج وانتشارها لى مفهوم سائد غير محدد قبولا عند كثير من الأوروبيين ، وهذا المفهوم هو « وسط أوروبا Mitteleuropa » الذى كان يشمل قوة سياسية واقتصادية ضخمة يمتد نفوذها صوب الجنوب الشرق لىضم منطقة الدانوب والبلقان ويتغلغل أيضا إلى مناطق التخوم marchlands الشرقية والشالية الشرقية . وخلال الحربين أصاب المنطقة الضعف والتمزق وانقسمت بين ألمانيا مضطربة سياسيا ودويلات الخلافة البرمه ، ثم أحيها النازية لفترة طويلة بإعلان فكرة « ألمانيا الكبرى » فى عام ١٩٤٢ . وترك انهيار وهزيمة ألمانيا فى عام ١٩٤٥ هذه المنطقة المهمة « فارغة » لتصبح فى فترة الحرب الباردة فى الخمسينات جبهة الالتقاء بين أيديولوجيات متنافسة .

وقد أدى اختفاء « أوروبا الوسطى » إلى إعادة تنظيم على مستوى كبير فى النمط المكانى الأوروبى فى المعسكرين المتنافسين ، وتمثل منطقة « الراين الكبرى » التى برزت نتيجة التحول من السياسة الاقتصادية القومية فى الثلاثينات إلى السياسة فوق القومية التى تنتجها السوق المشتركة ، تمثل أهم منطقة وظيفية جديدة ، يقوم أساسها على تطوير فكرة « مونتاندرايك » فى أول الخمسينات عن طريق ربط ودمج الصناعات الثقيلة لدول ألمانيا وفرنسا ودول البيلكس ، ثم ازدهرت فيما بعد بسهولة المواصلات والانتقال بعد إنشاء ميناء روتردام - الميناء الأوروبى والتوسع فى مجال التجارة والنقل الذى حدث فى « الدلتا الأوروبية » . وقد كان للدور الرئيسى الذى يلعبه نهر الراين داخل هذه المنطقة فى غربى أوروبا عامة اثر فى جعله محورا ومركزا للنشاطات المختلفة . وهكذا ظهرت « منطقة الراين الكبرى » لتشمل عدداً من المراكز الصناعية الرئيسية فى غربى أوروبا : مركز « الدلتا الأوروبية ومركز الراين - الرور والراين - مين الصناعية ، ومركز حوض نيكرو . ومركز سارلورلكس بالاضافة إلى المنطقة الوسطى السويسرية كما ترتبط بها مراكز صناعية أخرى مثل شمال فرنسا ومنطقة سامبر - ميوز البلجيكية ودهليز الرور ومنطقة « باريس الكبرى »

وشمال غربى وجنوب ألمانيا وكلها تشكل حلقة خارجية لتجمعات صناعية مهمة .

انبثق الدافع الأول لإنشاء منطقة « الراين الكبرى » من الصناعة الثقيلة المرتبطة بصفة خاصة بموارد الفحم الضخمة والتي جذبت فيما بعد صناعات أخرى . وانعكست آثار ثورة الطاقة التي نتجت من موارد البترول الضخمة فى الستينات ، انعكست فى تجمع الصناعات الكيماوية الثقيلة حول مرافئ البترول فى روتردام - الميناء الأوروبى وكذلك فى تطور مصافى البترول بالقرب من أوفى مراكز الصناعات الكيماوية القديمة على طول المجارى الوسطى والعليا من أنهار المنطقة (منطقة الراين الأدنى ومين الأدنى ومنطقة كارلزروها) . وبفقدان الصناعات الثقيلة الداخلية ميزات مواقعها لصالح المواقع الساحلية التى تستخدم المواد الخام المستوردة عن طريق الشاحنات الضخمة أخذت المنطقة الداخلية للراين الكبرى تجذب الصناعة (خاصة المواد الاستهلاكية المتينة) والصناعات التكنولوجية المتفوقة . ومن العوامل الجاذبة الرئيسية قرب المنطقة من أكبر وأغنى تجمع سكانى فى أوروبا إذ يتواجد هنا أكثر من ٧٥ مليون شخص (السبعينات)

ويمكن أن ننظر إلى انضمام المملكة المتحدة إلى السوق المشتركة كإضافة إلى حيز ورقة « الراين الكبرى » التى تحتفظ صناعاتها ونشاطاتها التجارية الآن بعلاقات وثيقة مع مثيلاتها الإنجليزية فى جنوب شرق إنجلترا والميدلاندز الإنجليزية ومنطقة همبر وشمال شرق إنجلترا . وتقوى مدينة لندن كمركز مالى ومصرفى عالمى دور السوق المشتركة فى هذا الحقل . ولأن عملية الدمج الكلى لاقتصادات بريطانيا فى التركيب الاقتصادى ذى الصيغة فوق القومية للسوق المشتركة سيتطلب وقتا أكبر وعلى الأقل عشرة أعوام ليكمل ويشارف نهايته . فإن الأثر الحقيقى للتغيير والتحول فى منطقة الراين الكبرى وخارجها لن يظهر بوضوح وتفصيل إلا فى نهاية هذا القرن عندما يتوقع أن تبدأ تغييرات هامة فى جغرافية السكان والجغرافية الاقتصادية فى الظهور حول الأجزاء الجنوبية من بحر الشمال والقنال الانجليزى وما يتبع ذلك من آثار على جغرافية أجزاء بريطانيا

أخرى .

ويطرح النمو الناجح والقدرة الفائقة التي أبدته منطقة الراين الكبرى في اجتذاب السكان والاستثمار أكثر من باقي المناطق خطورة كامنة في المستقبل بخصوص الإسراع في وضع تحديد وتعريف واضح « لأوروبا الثانية » - أي أجزاء أوروبا المتخلفة اقتصاديا والتي تفشل في المحافظة على مستويات أعلا في المعيشة وعجزا في استقطاب الثروات مثل المنطقة المركزية . ولابد أن نخلق المشاكل الاجتماعية والاقتصادية في هذه المناطق المتخلفة صعوبات جمة في المحافظة على أهداف الوحدة والتكامل التي تسعى لتحقيقها السوق المشتركة . وعلى الرغم من ذلك فقد تم التعرف على هذه المشاكل وسيتم التحسين في سياسات التخطيط ووسائله وإجراءة إيجاد الطريقة التي بواسطتها يمكن إعادة توزيع الثروات والموارد وإزالة التباين والتفاوت على مستوى التطور الإقليمي . وقد رفضت فكرة ومفهوم « أوروبا الثانية » أي أوروبا المتخلفة أساسا في السبعينات عندما اقترح في تقرير تندمانز عن الوحدة الأوروبية Tindeman\ Report on European Union (١٩٧٦) الذي أثار كثيرا من الجدل حوله .

ما بالنسبة لبحر الشمال فقد حفزت اكتشافات البترول الهائلة في الحوض الشمالى للبحر إلى تطور اقتصادى سريع أدى إلى ظهور إقليم وظيفى جديد يمكن أن نطلق عليه « مجال أو حيز بحر الشمال » تتركز مناطق التطور فيه على الساحل الشرقى لأسكتلنده وجنوب غربى النرويج وكذلك جزر أوركنى وشتلندز كما أن آثار هذا التطور قد وصلت إلى شمال شرقى إنجلترا والدنمارك وشمال غربى ألمانيا وهولنده .

ويرجع تطور هذا الحيز إلى ثورة تقنية أتاحت المجال للقيام بعملية مسح مناسبة كما أتاحت تطبيق وسائل جديدة لاستغلال البترول ويعطى مثلا حيا لأثر التكنولوجيا على التعرف على الموارد واستغلالها . وتشير سرعة اكتشاف الإرسابات البترولية واستغلال هذه الموارد إلى ان هذا الإقليم سيكون من المناطق الرئيسية لإنتاج البترول حتى القرن القادم ، وتعتقد دول أوروبا الغربية

آمالا عريضة على بترول بحر الشمال لحل مشاكل الطاقة فيها . ولكن فيما إذا كان اكتشاف حقل من الحقول « تجارى » أو غيره فإن تحديد ذلك يعتمد على مستوى أسعار البترول العالية بالنسبة إلى تكاليف التنقيب والاستغلال . ويحتوى حوض بحر الشمال أيضا على كميات هائلة من احتياطي الفحم يحتاج استغلاله إلى وسائل تكنولوجية عالية كالتى استخدم فى التنقيب عن البترول .

جذب بترول بحر الشمال عددا من الصناعات المرتبطة بالبترول كما أحدث تطورا كبيرا فى قواعد التمويل الصغيرة فى عدد من الموانئ الصغيرة المنتشرة فى الساحل الشرقى لأسكتلندة وفى النرويج . ومع أن هناك مصافى تكرير ضخمة فى جنوب بحر الشمال وموانئ القنال (وخاصة فى روتردام - الميناء الأوروبى) فهناك اقتراحات لإنشاء مصافى جديدة حول الحوض الشمالى للبحر (مثل جزر شتلندز وخليج كرومارقى) ومصانع لمعالجة الغاز الطبيعى (سانت فيرغاس وبيترهيد) . وستستفيد الصناعات الحالية حتما (فى تيزبورت وامدن) بينما يبدأ العمل فى إنشاء مصنع ضخيم للبتروركيمائيات (كما فى فايف) فى الثمانينات . وبجانب التطور الذى حدث فى أسكتلندة وجنوب النرويج فى صناعة الأحواض الجافة وتسهيلات إنشائية أخرى فى بناء معدات التنقيب البحرية والأرصفة oil rigs ، نشأت صناعات أخرى عديدة بالقرب من حقول النفط . وفى وجه مشاكل الملاحة وازدحامها فى الجزء الجنوبى من بحر الشمال ، يبدو أن المجال الفسيح للمناورة فى القطاع الشمالى بالنسبة للإنشاءات والمعدات الضخمة والناقلات الكبيرة بالإضافة إلى وجود موانئ عميقة يعطى لهذا القطاع أهمية أكبر فى مجال التطور مستقبلا ، كما أن بحر الشمال عامة يمتلك مواقع ممتازة لمصانع الحديد والصلب الساحلية إذا استمرت الدول المضى فى هذا الاتجاه ، ويمكن أن تتوقع مجتمعات صناعية ضخمة محدودة العدد تلى طلبات واحتياجات دول غرب أوروبا فى القرن القادم . وتشير المقترحات الألمانية لتطوير مصب نهر الألب والتطورات التى تشهدها منطقة نهر التيزر Teesside إلى النمط المتوقع ظهوره فى هذا المجال ولو أن إقامة المصانع الساحلية يتطلب اختيارا دقيقا للموقع لان تكاليف الخدمات قد تصبح مرتفعة لدرجة يصبح

- معها إقامة المصنع غير اقتصادى كما وضح من اقتراح مجمع متكامل لصناعة الحديد والصلب في روتردام - الميناء الأوربي ماسفالكت Rotterdam - Luropoort Maasvalkte على بعد ثلاثين ميلاً من الخدمات الموجودة ومناطق السكن الرئيسية للعمال .

يشير الدور الجديد الذى سيلعبه الرفرف القارى والبحار الهامشية تساؤلا حول دور الجزر البريطانية في أوروبا القرن الحادى والعشرين وبالأخص مع تطور وتوسع مجال التجارة الأطلسية . فالشاحنات المحيطية الضخمة وتحول المصانع إلى المواقع الساحلية تحاى بصفة خاصة بريطانيا وتدعم من وضعها وموقعها لأن بها مواضع ذات مياه عميقة تناسب أضخم الصناعات الساحلية ، كما أن الموانئ الأوروبية بما تتميز به من سهولة الاتصال ببحار عميقة ومفتوحة يمكن أن تمنح نقاط تبادل بين الشاحنات الضخمة والسفن الصغيرة لتوزيع المواد إلى الموانئ ذات المياه الضحلة ، أو عبر اليابسة . وتتجلى الإمكانيات التى ستتاح بمثل هذه التطورات في مشروع « أوشان سبان Oceanspan » الذى اقترح لاسكتلندا الوسطى في السبعينات وأهل بعد ذلك . وسيطلب دمج الصناعة البريطانية في صناعات الراين الكبرى وباقي دول السوق وسائل نقل أحسن كفاءة بحلول عام ٢٠٠٠ م ولن تستطيع العبارات الحالية حتى وإذا زيد في عددها وحجمها أن تواكب مستوى الحركة آنذاك مما يستدعى التفكير في نفق آخر عبر القنال الإنجليزي . ويتوقع أن يشهد محور « الدلتا الأوربي » - هيرسايد تطورا كبيرا في الحركة عبر بحر الشمال .

أما بالنسبة لفرنسا فقد أشارت تنبؤات اقتصادية منذ أوائل السبعينات إلى دولة غنية ومتقدمة بحلول عام ٢٠٠٠ ، وستستفيد فرنسا دائما من دورها كجسر يربط بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط والمناطق الداخلية من أوروبا . ولكن ظهرت مناطق أخرى ذات أهمية في الساحل الأطلسي الذى زادت قيمته بعد ظهور الشاحنات البحرية الضخمة كما أن أهمية دهليز الرون - ساوون الذى سيربط بين البحر الأبيض المتوسط ومنطقة الراين ستزداد دون

شك ، بينما سيؤدي تدهور الصناعات التقليدية العاجزة عن تلبية احتياجات الاقتصاديات المرتفعة إلى تقلص السيطرة السابقة لشمال فرنسا في هذا المجال ، كما أن انتشار الصناعات الجديدة سيتسبب في ازدهار ما يسمى « بالصحراء الفرنسية » أى الأجزاء المتخلفة منها . أما مشاكل الطاقة المزمنة فليس من المتوقع أن تنفرج ولذلك يحتمل أن تستقطب فرنسا الصناعات التى تتطلب طاقة أقل . ومع تزايد الطلب على المواد الغذائية ستلعب الزراعة دورا أكثر أهمية وفائدة بالنسبة للريف .

أما بالنسبة لمنطقة شرق أوروبا فتطور الأحداث داخل الدول (كما يحدث في بولنده الآن) قد يؤثر في النمط الاقتصادى والسياسى الحالى للمنطقة . أما إذا بقي الوضع على ما عليه الآن يمكن أن نتوقع :

أولا : الاستمرار في سياسة الانفراج الاقتصادى من التخطيط المركزى الصارم الذى تميزت به سياسة الكوميكون الاقتصادية في مراحل تكوينها الأولى .

ثانيا : هناك نواة لما يمكن أن يكون « مونتاندريك » صغرى بدأت في الظهور في السبعينات بين ثلاثة من أكثر دول المنطقة تقدما ألا وهى : ألمانيا الديمقراطية وتشكوسلوفاكيا وبولنده حيث لقي التعاون والتكامل وربط الصناعات والمواصلات بعضها ببعض تشجيعا متبادلا من الدول المعنية . وقد يصبح الإقليم من أهم وأقوى المراكز الصناعية في المعسكر الاشتراكى كما أنه في حالة إكمال مد أنابيب البترول والغاز الطبيعى وشبكة الكهرباء سيحتل الإقليم أيضا مركزا مهما من حيث مصادر الطاقة .

ثالثا : سيكون هذا الإقليم مركزا لصناعات ذات التكنولوجيا المتقدمة خارج الاتحاد السوفيتى بينما يتم حاليا إنشاء أعمال صناعية تساهم فيها شركات متعددة الأجناس .

ظل حوض الدانوب مجزءا بين ألمانيا والنمسا ذات الوجهة الغربية وأعضاء

منظمة الكوميكون (المجر وتشكوسلوفاكيا وبلغاريا) ويوغسلافيا الاشتراكية ، وهو تقسيم سياسى أدى إلى تقلص التجارة بين الدول على عكس نهر الراين الذى يكتسب أهمية تجارية وخاصة فى ظل سياسة التكامل الأوروبى . ولجعل نهر الدانوب ممرا دوليا ذا فعالية فلا بد من إزالة العوائق الطبيعية التى تعوق الملاحة فى مجراه ورفع مستوى التجارة بين الدول النهرية مما يزيد من حركة النقل النهري . وفى هذا الصدد يستفيد كل هذه الدول من إنجاز مشروع مشترك وخطة شاملة لتطوير النهر على غرار « هيئة وادى تنسى TVA » فى أمريكا . وقد حدثت تطورات هامة فى هذه الناحية مثل الخزان الذى تم بناؤه عند البوابة الحديدية لتوليد الطاقة ضمن مشروع مشترك بين رومانيا ويوغسلافيا وكذلك المشروع الرومانى لبناء قنال عبر دوبروفا Dobruja بين سيرنافودا وكونستانطا لتفادى منطقة الدلتا الصعبة . ولكن المشروع لم يتم لمعارضة الاتحاد السوفيتى له . ويفكر السوفيت فى بناء نظام قنوات دائرى فى أوروبا الشرقية ، وإذا تم إنجاز هذا المشروع فسيكون نهر الدانوب حلقة وصل مهمة فى هذا النظام . ويتوقع أن يؤدى تبادل تجارى أكثر حرية والتطور الصناعى ونموه إلى زيادة فى استخدام الدانوب ، ومع استخدام وسائل ملاحية حديثة قد يصبح النهر محورا صناعيا هاما كالراين .

بعد الحرب مباشرة دفعت المصالح المشتركة بين بلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا إلى محاولة لإنشاء رابطة سياسية متميزة لدول البلقان . وعلى الرغم من أن روسيا سعت إلى إحباط هذه المحاولة لما تتسم به من مسحة سياسية باطنه فقد اعترف قادة روسيا بالحاجة إلى تكوين « مجمع إنتاج إقليمي » يغطى على الأقل رومانيا وبلغاريا ويرتبط مع مولدافيا السوفيتية وأكرانيا . وبعد التمزق والتناحر الذى تميزت به البلقان فإن مستقبلها يبدو مشرقا الآن نتيجة الموارد الطبيعية الكبيرة التى تتمتع بها ولأن نسبة النمو الاقتصادى العالية فى وقتنا الحالى ستحملها إذا استمرت على هذا المنوال ، إلى وضع قوى عند حلول عام

. ٢٠١١

أما حوض البحر الأبيض المتوسط فهو مرشح ليشهد تغييرات وتحولات كبيرة في القرن القادم . وقد يظهر مفهوم « أور أفريقيا Euroafrica » تجسيدا لارتباطات جديدة بين جانبي الحوض فقد شهدت العلاقات الجغرافية والسياسية التي كانت تربط شمال أفريقيا تدهورا بعد انتهاء عهد الاستعمار الفرنسي البريطاني والإيطالي ، وظهرت في مكانها - بهمة فاصلة بين مصالح روسيا وأمريكا . وبينما تولد شعور بالذات بين الدول الإيملاية في شمال أفريقيا ، فإن دول شمال الحوض تعانى من انقسام بين دول اشتراكية وغير اشتراكية . وقد أدت تنمية الموارد البترولية والغاز الطبيعي والمعادن الأخرى في شمال أفريقيا منذ الستينات إلى ارتفاع ثرواتها ، وتبادل تجارى بينها وبين الجزء الأوروبي ويتوقع أن يقوى هذا الارتباط في القرن القادم ويزدهر .. ومثلما سيؤدى التغير الديمقرافى في الدول الصناعية المتقدمة إلى بطء في النمو السكانى مما يخلق مشاكل في تمويل العمال سيجذب النمط الاقتصادى المزدهر في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا صناعات جديدة وخاصة إلى المناطق الريفية حيث يوجد احتياطى ضخم من العمال . وهذا الاتجاه ظهرت بوادره في إيطاليا وأيرريا . وإذا سلمنا بأن مستوى الغنى الحالى سيستمر في الارتفاع في القرن القادم (وإن كان هذا غير مؤكد تماما) سيحافظ حوض البحر الأبيض المتوسط على مكانته كم منطقة ترفيهية وسياحية لباقي أجزاء أوروبا ، هذا إذا اتخذت إجراءات كافية للمحافظة على البيئة ، كما أن البحر الأبيض المتوسط سيستعيد مكانته ووظيفته كممر مائى يربط بين المحيط الأطلسى والمحيط الهندى عبر قناة السويس موسع ومضمون الملاحة عبرها ، كما أن النمو الاقتصادى في حوض البحر الأسود وآسيا الصغرى وبلاد الشام سيزيد من وظيفته العبورية أو المروية .

ثم يبق سؤال أخير : هل تستطيع أوروبا المحافظة على وضعها الاجتماعى والاقتصادى في العالم في عام ٢٠٠٠ وأى أنواع التغيرات يمكن أن يطرأ عليها ؟

أن أية إجابة لهذا السؤال لن تكون موزونة أو دقيقة . فإذا رسمنا خريطة توضح التوزيع العالمى للظواهرات التجارية والصناعية فستظهر فيها خمسة تجمعات

(مراكز) رئيسية كلها محصورة في نطاق عرضي ضيق يقع كله في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، ويظهر نطاق التركيز هذا في خريطة توزيعية لعناصر أخرى مثل النقل والمواصلات التي تتجمع بين هذه المراكز أو في اتجاهها . وداخل هذا النطاق لا توجد سيطرة لتجمع أو مركز على تجمع آخر في الوقت الحالي كما أن احتمال حدوث ذلك بعيد . وعلى الرغم من أن أمريكا الشمالية يمكن أن تقف لوحدها فإن ارتباطاتها وعلاقاتها مع أوروبا الغربية واليابان تبدو بارزة وقوية . أما مراكز التجمع في روسيا وشرق أوروبا فقد ظلت معزولة من أوروبا الغربية واليابان ويحتمل أن يحدث تقارب بينها في نهاية هذا القرن . وإذا كان لنا أن نجتمع أوروبا الغربية (بصناعاتها ذات التفوق التكنولوجي) وأوروبا الشرقية (بنسبة نموها الصناعي العالي) فيمكننا التنبؤ بظهور أوروبا قوية .. أوروبا في مظهر تجمع اقتصادي ضخم حتى ولو كانت الاقتصاديات القومية ذات أبعاد متواضعة . ومن الواضح الآن أن تحقيق وحدة وتكامل على مستوى عال سيكون لصالح ورقاهية القارة مستقبلا وخاصة في عالم يتسم بالتنافس الحاد . ورغم انقضاء « عصر أوروبا » فإن القارة لم تفقد إلا القليل من أهميتها السياسية - الجغرافية في العالم كما يظهر في المواجهة ، على أرضها بين القوتين العظميين رغم انشغالها بمناطق أخرى من العالم . ولكن هناك ما يدعو للتساؤل : هل العجز في الوصول إلى وفاق بين القوتين مرجعه عدم الرغبة في فك الارتباط بينهما في أوروبا ؟ لأن أي انسحاب لهذه القوات سيخلق فراغا (حتى ولو كان جزئيا) سيملؤه شعور جديد قوامه الإيمان بوحدة أوروبا التي ستظهر كقوة ثالثة : فإن أوروبا المتحدة لها إمكانيات هائلة تؤهلها بملاء هذا الحيز بإدارة .

وعلى الرغم من ذلك فإن أوروبا تفقد تدريجيا نصيبها من سكان العالم نظرا لمعدل النمو البطيء ، وسيؤدي سكانها المعمرين إلى مخاطر بحلول القرن القادم تتمثل في توازن اجتماعي صعب ، كما أن التحول إلى « نقطة نمو » جديدة قد لا ينتج عقولا شابة ذكية بعدد كاف للحفاظ على البحث والتطور التكنولوجي

العالى على مستوى رفيع . فرحلة الشيخوخة السكانية تقتضى ضمنا ومن أجل المحافظة على المستوى المعيشى قدرة فعالة لكسب الثروات من قبل النسبة المتضائلة أو المتقلصة من المجموعة المنتجة اقتصاديا وديمقرافيا . وهناك فرص كثيرة لحل عدم التوازن السكانى الداخلى وذلك بتشجيع الهجرة الداخلية ، هذا إذا ما ضعفت النفرات والتحيزات العرقية والقومية .

ويمكن لأوروبا أن تلعب دورا اقتصاديا هاما فى القرن القادم ، فهى بصناعاتها المتقدمة والتقنية الرفيعة فى وضع يؤهلها لمساعدة تطوير آسيا الداخلية ودول العالم الثالث خاصة أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فهذه الأماكن لها إمكانيات طبيعية هائلة تنتظر الاستغلال كما أن أسواقها (آسيا الموسمية - الصين - أفريقيا) مهمة لمنتجات أوروبا الصناعية على المدى البعيد .

ولذلك فإن لأوروبا دورا مهما ستلعبه فى عالم الغد ، ويمكن أن يتحقق ذلك عن طريق الوحدة والتكامل بين دولها والتعاون مع دول القارات الأخرى ، فالقارات لم تعد معزولة عن بعضها البعض والاتكال المتبادل سيكون من سمة العلاقات بين أجزاء العالم المختلفة فى القرن القادم .

المراجع

أ- المراجع الرئيسية :

1. B.H.S. Van Bath: Agrarian History of W. Europe A.D. 500 - 1850. Arnold, London, 1963.
2. R and M. Beckinsale : Southern Europe : The Mediterranean and Alpine Lands. University of London Press, London, 1975
3. H.D. Clout : Agriculture Studies in Contemporary Europe. Wiley, London, 1971.
4. H.D. Clout (ed.) : Regional Development in W. Europe. Wiley, London, 1975.
5. H.D. Clout : The Regional Problem in W. Europe. Cambridge University Press, Cambridge, 1976
6. T.W. Etkins : Germany 2nd ed. Chatto : Windus, London, 1969.
7. W. Fitzgerald : The New Europe. Methuen, London, 1946
8. S.H. Franklin : The European Peasantry, Methuen, London, 1969.
9. C.H. Franklin : "Rural Societies" Macmillan, London, 1971
10. J. Geipel : The Europeans : an ethnological Survey, Longmans, London, 1969.
11. M. Hodges (ed.) : European Integration. Penguin, Harmondsworth, 1972.
12. Hoffman (ed.)
13. J.M. Houston : A Social Geography of Europe. Duckworth, London, 1953.
14. T.G. Jordan : The European Culture Area, Harpe and Row, London, 1973.

15. L.A. Kosinski : The Population of Europe : A Geographical Perspective, Longmans, London, 1970.
16. V. Malmstrom : Geography of Europe : A Regional Analysis. Prentice - Hall, N.J., 1971.
17. G. Manners et al : Regional Development in Gt.Britain, Wiley, London, 1972.
18. E.C. Marchant : The Countries of Europe as seen by their geographers, Harrap, London, 1970.
19. R.E.H. Mellor : Eastern Europe : A Geography of the Common Countries. Macmillan, London, 1975.
20. R.E.H. Mellor and E.A. Smith : Europe - A Geographical Survey. Macmillan, London, 1979.
21. G.N. Stoughton : The New Europe : An Economic Geography. Hodder and Stoughton, London, 1978.
22. F.J. Monkhouse : A Regional Geography of W. Europe. 4th ed. Longmans, London, 1974.
23. E.A.G. Robinson : Backward Areas in Advanced Countries. Wiley, London, 1969.
24. J. Salt and H.D. Clout : Migration in Postwar Europe. Oxford University Press, Oxford, 1976
25. C.T. Smith : An Historical Geography of Europe before 1800. Longmans, London, 1967.
26. A. Somme : The Geography of Norden. Heinemann, London, 1961.
27. I.B. Thompson : Modern France : A Social and Economic Geography Survey, Longmans, London, 1971
28. D. Turnock : Eastern Europe. Dawson, London, 1977

ب - مراجع الفصول

١ - الفصل الأول

1. D. Hay : Europe : The Emergence of an Idea.
Edinburgh University Press, 1957.
2. M.S.W. Jefferson : Man in Europe. New York Harcourt
Brace Jovanovich, 1926.
3. W.H. Parker : "Europe : How Far?" Geographical
Journal, Vol. 126 (1960), pp. 278-97.
4. J.O.M. Brock and J.W. Webb : "Culture Realms",
Chapter 8 in Geography of Mankind. New York McGraw
Hill, 1978, pp. 179-97.
5. United Nations : Demographic Year book. New York:
UN . various issues.
6. United Nations. Statistical Yearbook. New York,
UN. various issues.

٢ - الفصل الثانى والثالث :

1. E. Raisz : "Physiography of Europe" in Goode's
World Atlas, ed. E. Espenshade, Ill. Rand McNally,
13th ed., 1970, p. 125.
2. A.W. Kuchler : "Vegetation of Europe", in Goode's
World Atlas, op. cit., pp. 122-3
3. Glenn T. Trewartha : An Introduction to Climate.
New York : McGraw Hill, 3rd ed. 1954.
4. H.C. Darby "The Cleaning of the Woodland in Europe".
In Man's Role in Change the Face of the Earth. ed.
W.L. Thomas, Jr., Chicago : University of Chicago
Press, 1956, pp. 763-77.

5. T.J. Chandler : The Climate of London. London, Hutchinson, 1968.
6. R. Carpenter : Discontinuity in Greek Civilisation. London : Cambridge University Press, 1966.
7. A.M. Lambert : The Making of the Dutch Landscape: An Historical Geography of the Netherlands. London and New York : Seminar Press, 1971.
8. S.E. Steigenga - Kouwe. " The Delta Plan" Tijds Voor Econo en Sociale Geographie, Vol. 51 (1960), pp. 167-75.

٣ - الفصل الرابع :

1. L.A. Kosinski : The Population of Europe : A Geographical Perspective. Harlow, Essex, England : Longman, 1970.
2. United Nations : Demographic Yearbook. New York, UN. various issues.
3. United Nations : Statistical Yearbook. New York, UN. various issues.
4. J.B. Schechtman : Postwar Population Transfer in Europe 1945-1955. Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1963.
5. J. Velikonja : " Postwar Population Movements in Europe" , Annals, Ass. of American Geographer, Vol. 48 (1958), pp. 458-81.
6. J.M. May : The Ecology of Malnutrition in Central and Southeastern Europe. Darien, Conn. : Hafner, 1966.

7. L.D. Stamp : The Geography of Life and Death. Ithaca, N. York : Cornel University Press, 1964.
8. C.S. Coon and E.E. Hunt : The Living Races of Europe. New York : Knopt, 1965.
9. J. Geipel : The Europeans : an Ethnohistorical Survey. Harlow, Essex, England : Longmans, 1969.

٤ - الفصل الخامس :

1. J.O. Brock and J.W. Webb : "The Mosaic of Languages" Chapter 5 in A Geography of Mankind. op. cit., pp.97-123.
2. J.S. Dugdale : The Linguistic Map of Europe. London : Hutchinson University Library, 1969.
3. Philip L. Wagner : "Remarks on the Geography of Languages", Geographical Review, vol. 48 (1958). pp. 86-97.

٥ - الفصل السادس .

1. J.D.M. Brock and J.W. Webb : "Religions : Origins and Dispersals", Chapter 6 in A Geography of Mankind op. cit.,
2. E. Fischer : "Religions : Their Distribution and Role in Political Geography." Chapter 12 in Principles of Political Geography, ed. Hans W. Weigert. New York : Appletan, 1957, pp. 405-39.
3. Eric Isaac : "The Act and the Covenant : The Impact of Religion on the Landscape. " Landscape, Vol. 11, No.2 (1961-62), pp. 12-17.

4. Eric Isaac : "Religion, Landscape and Space"
Landscape, Vol. 9, No.2 (1959-60), pp. 14-18.
5. F. Van der Meer : Atlas of the Early Christian World.
London : Nelson, 1958.
6. D.E. Sopher : The Geography of Religions. Englewood
Cliffs, N. Jersey. Prentice - Hall, 1967.
7. K.G. Thompson : "Homicide and Suicide in Latin
America and Europe : "A Geographical Interpretation".
The Geographical Bulletin Vol. 3 (1971), pp. 49-57.
8. United Nations. Demographic Yearbook. New York
UN., 1966-69.

٦ - الفصل السابع :

1. R. Ardrey : The Territorial Imperative New York
Atheneum, 1960.
2. J.O.M. Brock and J.W. Webb : "Ideologies and Political
Order". Chapter 7 in A Geography of Mankind. op. cit.
3. W.G. East. "The Geography of Land-Locked States"
Trans. and Papers, Inst. of British Geographers,
Vol. 28 (1960), pp. 1-22.
4. G.W. Hoffman : "The Shatter-belt on relation to
East-West Conflict "J. of Geography, Vol. 51 (1952),
pp. 266-75.
5. H. Mackinder : "The Geographical Pivot of History".
Geographical Journal, Vol. 23 (1904), pp. 421-37.
6. N.J. Pound and S.S. Ball "Core-Areas and the

Developement of the European State System "Annals
Ass. of American Geographers. Vol. 44 (1964), pp.24-40.

7. N.J. Spykman : The Geography of the Peace. New York:
Harcourt Brace Jovanovich, 1944.

٧ - الفصل الثامن :

1. H.C. Darby : "The Changing English Landscape".
Geographical Journal, Vol. 117 (1951), pp.377-98.
2. R.E. Dickinson : "Dispersed Settlement in Southern
Italy", Erkunde. Vol. 10 (1956), pp. 1-21
3. R.E. Dickinson : "Rural Settlements in the German
Lands, "Annals, Ass. of American Geographers,
Vol. 39 (1949) pp.239-63.
4. H. Fairhurst : "Types of Settlement in Spain",
Scottish Geog. Magazine, Vol. 51 (1935), pp.283-96.
5. S. Helmfrid (ed.) Vadestena Symposium : In Geogra-
fiska Annaler. Vol. 43 Nos. 1-2 (1961), 1-328.
6. A.M. Lambert : "Farm Consolidation in Western Europe".
Geography. Vol. 48 (1963), pp. 31-48.
7. L.D. Stamp : "The Common Lands and Village Greens of
England and Wales", Geographical Journal, Vol. 130
(1964) pp. 457-69.
8. Harry Thorpe : "The Green Village as a Distinctive
Form of Settlement on the North European Plain".
Bulletin de la Societe Belge d'etude Geographiques,
Vol. 30 (1961) pp. 93-134.

9. Harald Uhlig : "Old Hamlets with Infield and Outfield Systems in Western and Central Europe". Geografiska Annaler, Vol. 43 (1961), pp. 285-312.

٨ - الفصل التاسع

1. J. Beanjeu - Garnier and G. Chabot : Urban Geography. N.Y. Wiley, 1967.
2. B.J.L. Berry : Theories of Urban Locations : An Introductory Essay. Washington, D.C. AAG, Commission on College Geography, Resource Paper No.1, 1968.
3. Walter Christaller : The Central Places of Southern Germany Tr. by C.W. Baskin, Englewood Cliffs N.J. Prentice Hall, 1966.
4. R.E. Dickinson : The West European City : A Geographical Interpretation. London : Routledge and Kegan, 2nd ed., 1964.
5. L. Holzner : "The Role of History and Tradition in the Urban Geography of W. Germany." Annals, AAG Vol. 60 (1970) pp. 315-39.
6. J.H. Johnson : Urban Geography : An Introductory Analysis. Elmsford, N.Y. : Pergamon, 1967.
7. E. Jones : Towns and Cities, London, Oxford University Press, 1968.

٩ - الفصل العاشر :

1. M. Chisholm : Rural Settlement and Land Use. London: Hutchinson, 1962.
2. E. Davies : "The Pattern of Transhumance in Europe" Geography, Vol. 26 (1941), pp. 155-68.

3. G. Enyedi : "The Changing Face of Agriculture in Eastern Europe". Geographical Review. Vol. 57 (1967) pp. 358-72.
4. J. Murray : The First European Agriculture. Chicago. Aldine, 1970.
5. C.O. Sauer : Agricultural Origins and Dispersals, New York : American Geographical Society 1952.
6. J.R. Peet : "The Spatial Expansion of Commercial Agriculture in the 19th C. : A von Thunen Interpretation." Economic Geography, Vol. 45 (1969) pp. 283-301.
7. J.H. Von Thunen : Von Thunens Isolated State : Translated by Carla M. Wartenberg. Elms ford, N.Y. Pergaman, 1966.
8. S. Von Valkenburg : "An Evaluation of the Standard Land Use in Western Europe" Economic Geography, Vol. 36 (1960), pp. 283-95.
9. R. Trow Smith : Life from the Land : The Growth of Farming in W. Europe. Longman 1967.

١٠ - الفصل الحادى عشر :

1. Gunnar Alexanderson : Geography of Manufacturing , Englewood Cliffs, N.J. : Prentice Hall, 1967.
2. S.H. Beaver : "The Location of Industry", Geography, Vol. 20 (1935), pp. 191-96
3. R.C. Estall and K.O. Buchanan : Industrial Activity and Economic Geography.. London : Hutchinson and Co., 2nd ed., 1966.

4. D.K. Fleming : "Coastal Steel Works in the Common Market Countries", Geographical Review, Vol. 57 (1967), pp. 48-72.
5. A.L. Rodgers : "Migration and Industrial Development: The Southern Italian Experience". Economic Geography Vol. 46 (1970), pp. 111-35.
6. D.M. Smith : Industrial Location : An Economic Geographical Analysis. New York, Wiley, 1971.
7. A. Zanberman : Industrial Progress in Poland, (Zechoslovakia and East Germany, 1937-1962). London : Oxford University Press, 1964.

١١ - الفصل الثاني عشر :

1. G.N. Minshull : The New Europe. London : Hodder and Stoughton, 1978.
2. E.E.C. Commission : Energy and Europe. Nov. 1972.
3. De La Mahofiere : Towards One Europe. Polican, 1970.
4. J.H. Paterson : Land, Work and Resources. Arnold 1973.
5. G.H. Franklin : The European Peasantry : The Final Phase. Methuen, 1969.
6. "The Future of European Agriculture". European Community. Oct. 1973.
7. G. Parker : The Logic of Unity. Longmans 1975.
8. K.A. Sinnhuber : "Central Europe. Mitteleuropa - Europe Centrale", Tran., Institute of British Geographers, 20 (1954), pp. 15-40.

١٢ - الفصل الثالث عشر والخاتمة :

1. K. Allen and M.C. McClennan :- Regional Problems and Policies in Italy and France. Allen and Unwin, 1970.
2. A. Borschette : "A Fair Share for all Regions : Flexible approach to regional Policy." European Community. Octo. 1971.
3. E.E.C. Commission First Annual Report on the European Regional Development Fund. June, 1976
4. E.E.C. Commission : Report on the Regional Problems in the Enlarged Community. COM. Vol.(73) 550. Brussels May 1976.
5. D.J. Sonclair : "The EECO Plans to feed her poor". Geographical Magazine, Sept. 1973
6. A.B. Mountjoy : The Mazzogiorno. Oxford Uni. Press 1973.
7. "Europe's Peripheral Regions." European Studies No.13, 1972.
8. S. Barazanti : The Underdeveloped Areas within the Common Market. Princeton University Press, 1960.
9. N.M. Hansen : French Regional Planning. Edinburgh University Press, 1968.
10. D. Burtenshaw : Economic Geography of W. Germany Macmillan, 1974
11. H.D. Clout (ed.) Regional Development in W. Europe. Wiley, 1975.
12. G.R. Denton : Economic Integration in Europe. Weidenfield and Nicholson, 1969.
13. R.C. Riley and G.J. Ashworth. Benelux. Chatto, and Windus, 1975.

رقم الايداع ٨٢/٥٠٤٩

مطبعة نهضة مصر

